مِن تراثنا

كِتاب

قرة العيون بأخبار اليمن الميمون

تأليف

الإمام الحبر الهمام العالم العلامة الحافظ

أبي الضيا عبد الرحمن بن علي الربيع الشيباني الزبيدي

المتوفي سنة ٩٤٤ تغمده الله بواسع رحمته

حققه وعلق عليه

محمد بن علي الأكوع الحوالي

الطبعة الثانية
١٤٠٩ هـ .
١٩٨٨ م

المكتبة اليمنية الحوالية
مشروع ثقافي لنشر التراث اليمني

صدر منه:

١ ـ الجزء الأول من الاكليل للهَمْداني
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

٢ ـ الجزء الثاني من الإكليل للهَمْداني
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

٣ ـ الجزء الثامن من الإكليل للهَمْداني
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

٤ ـ الجزء العاشر من الإكليل للهَمْداني
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي وتقريظ العلامة
الحجة عبد الرحمن بن محي الارياني اليحصبي بقصيدة عصماء

٥ ـ صفة جزيرة العرب للهَمْداني
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

٦ ـ تفسير الدامغة للهَمْداني
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

٧ ـ المقالة العاشرة من سراير الحكمة للهَمْداني
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

٨ ـ الجوهرتان العتيقتان للهَمْداني
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

٩ ـ المفيد في أخبار صنعاء وزبيد لنجم الدين عُمارة اليمني
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

١٠ ـ قرة العيون بأخبار اليمن الميمون للحافظ الديبع
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

١١ ـ العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية لعلي بن الحسن الخزرجي
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

١٢ ـ السلوك في طبقات العلماء والملوك للبهاء الجندي

تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

١٣ ـ نظام الغريب لعيسى بن إبراهيم الربعي الوحاظي الحميري

تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

١٤ ـ ديوان جمال الدين محمد بن حمير الوصابي الهمداني

تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

١٥ ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لمحمد بن صالح العصامي الصنعاني

تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

١٦ ـ نزهة المعتبر في فضل جبل صبر لعبد الفتاح المخلافي

تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

ما هو تحت الطبع

١٧ ـ العسجد المسبوك في من تولى اليمن من الملوك لعلي بن الحسن الخزرجي

تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

١٨ ـ كشف أسرار الباطنية لمحمد بن مالك بن أبي القبائل الحمادي المعافري

تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

١٩ ـ التقصار في جيد علاّمة الأمصار لمحمد بن الحسن الشجني الذماري

تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

٢٠ ـ وبل الغمام على شفاء الأوام للإمام محمد بن علي الشوكاني

تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي

٢١ ـ الاختصاص ذيل تاريخ صنعاء للرازي

لسري الدين بن إبراهيم العرشاني

للمؤلف

١ ـ اليمن الخضراء مهد الحضارة.

٢ ـ الوثائق السياسية من قبيل الإسلام إلى سنة ٣٣٢ هـ

٣ ـ صفحة من تاريخ اليمن الاجتماعي وقصة حياتي/الجزء الأول

٤ ـ الثاني والثالث والرابع

٥ ـ معجم بلدان اليمن وأنساب قبائلها
٦ ـ لسان اليمن الهمداني من أعلام العرب
٧ ـ صراع ثلث قرن أو الحركة الوطنية وتطورها
٨ ـ الفرقة المطرفية والحسينية والنشوانية
٩ ـ المشايخ والاقران
١٠ ـ العلويون باليمن.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الثانية

لانتشار الوعي بين أبناء جلدتي، وبين قومي وعشيرتي بفضل الجمهورية العربية اليمنية التي فتحت المجال للكرام الكاتبين أن يكتبوا ما أملاه الفكر المتفتح والعقل الناضج وأن ينشروا تراثهم الخالد بكل وضوح وافتخار واعتزاز وفي غير ما معتبة ولا حرج ولا مشقة في حين كانت الكتابة في أي موضوع كان، خصوصاً إذا كانت الكتابة عن اليمن وتمدنه وحضارته وتاريخه في العهد المباد، جريمة لا تغتفر «حتى لقد كتب الإمام يحي لولده أحمد الطاغية المجنون المسلح» كما قالها الشهيد زيد بن علي الموشكي - رحمه الله - والرجل كما قال الأستاذ محمد الفسيل - وهو ينقب عن الآثار الحميرية في «غيمان» والنخلة الحمراء.

«بادر بوصولك تشتي تذكر اليمنيين جُدُودَهُم»

وحجب عنهم النور دهراً طويلاً وزمناً كثيراً وغاب عن اليمنيين - في أعماق الأعماق - الحس الحضاري بل الحس الإنساني وكأنهم في عداد الحيوانات فجاءت الثورة المجيدة فقلبت الأحوال إلى أحسن حال وبدلت الأرض وهي ذات تبدّل وشعّ النور في ربوع اليمن سهلها ووعرها وأغوارها وأنجادها.

فكان لزاماً من وحي ضميري وإلحاحاً من الطليعة المتنوّرة والمثقفين الواعين لإعادة طبع كتاب «قرة العيون بأخبار اليمن الميمون» للحافظ الديبع، فقد جردت من ضعفي قوة ومن فتوري نشاطاً ومن شيخوختي شباباً فعدت لمطالعة من ضاع في الترب خاتمه بإمعان وتريّث، وأرجعت البصر فيه كرّتين فأكثر كما وافتني من أخوان لنا كرام فوائد للتصحيح كانت قيمةً وضعتها في أماكنها وكذلك الهفوات المطبعية كما عثرت على هفوات في الأصول المخطوطة لا أدري هل هي من صنيع النساخ، وهو الذي يغلب على الظن، أو من المؤلف فأرجعتها إلى نصابها.

فإليك أيها القارئ كتاب « قرة العيون، بأخبار اليمن الميمون » منقحةً مهذبةً في طبعتها الثانية، سائلاً من الله أن يرزقنا التوفيق في الإصدار والإيراد وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وأن يختم لنا بالحسنى.

وسبحان الله وبحمده وسبحان الله العظيم

تحرر يوم الجمعة ٢١ جمادى الثانية

سنة ١٤٠٧ هـ

الموافق ٢٠ فبراير سنة ١٩٨٧م

محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء؛ وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، وله الحمد على نعمائه والشكر على بلائه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير خلقه وأنبيائه، ونخبة أصفيائه، الذي أرسله رحمة للعالمين، وأنزل عليه القرآن هدى ونوراً فيه أخبار الأمم الخالية، والقرون الماضية، للعبرة والتاريخ والعظة والذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وعلى آله وصحبه الغرة الشادخة في جبين الدهر، والمثل الأعلى المضروب في سائر الأزمان، بالعدالة والرحمة والنزاهة والاستقامة والتمسك بالمبادئ الإنسانية العليا.

وبعد، فإن علم التاريخ عظيم الشأن جم الفوائد يزيد في الأحلام والنهى ويعلي قيمة الإنسان بين الملأ.

ليس بـإنسـان ولا عـالم — من لم يع الأخبار في صدره
ومن درى أخبارَ من قبله — أضاف أعماراً إلى عمره

وكفاه شرفاً أن الله جلّ شأنه خصّص قسماً كبيراً في محكم كتابه سرد فيه قصص الماضين، وسير الهالكين. وإن كفاة الكتاب وحذقة مهرة الآداب من كل أمة وفي كل زمن، كتبوا في التاريخ فأوعبوا، ونوهوا عن رفيع منزلته فأطروا وأطربوا، حتى قيل إنه ضرورة من ضرورات البقاء، وسنة من سنن الارتقاء..

فبالتاريخ يعرف مقياس نشاط الأمة ومقدار نهضتها، ومبلغ رقيها وحضارتها وبالتاريخ يتسنى للأبناء معرفة أقدار الآباء بما سجلوا من مجد تالد، وخلفوا من آثار باقية. ليترسموا خطاهم ويحتذوا أمثالهم «فإن الحمى وديعة الآباء للأبناء» وما أجدر الأبناء أن يكونوا عند حسن ظن الآباء. إذ أنه ربط حاضر بماضٍ وآخر بأول. وهو الصلة الوطيدة بين القديم والحديث. والمذياع الصادق الذي يسمعك وقائع الدهر ومجريات الأيام. وكما يتكلم على المحاسن يتكلم على المساوئ ولا يخشى لومة لائم. وإن أمة لا تأريخ لها ولا ماضي معدودة في حيز العدم وملحقة في البَهْم لا في البُهَم. فجدير على أبناء كل

أمة أن تدرس تاريخها وسير أبطالها وأعلام رجالها، وتفحص عن ماضيها لتقتفي بأسلافها.

نبني كما كــانــت أوائلنــا تبني ونفعــل مثلما فعلــوا

حتى يقال ما أشبه الليلة بالبارحة، والغادية بالرائحة، وهذا الشبل من ذاك الأسد.

والأمة اليمنية قديماً ولله الحمد، هي المجلية في هذا المضمار، والسابقة التي لم يشق لها غبار. فقد كان قدامى أجدادنا ينقشون أخبارهم على الصفائح الصلاد ويزبرون الوقائع في صميم الجماد، ويسجلون كبريات الحوادث بالمساند الكبار، ويسلسلون أنسابهم في لوحات الأحجار لتبقى على تقادم العهد والزمن وتحفظ من الضياع بتطاول الدهر وتوالي المحن.

إن آثــارنــا تــدل علينــا فــانظــروا بعــدنــا إلى آثــار

فسجلوا بهذا العمل الجليل أقدس آيات المجد، وأروع صفحات الفخار. فماضي هذه الأمة أبيض ناصع، وقديمها مشرق لامع. وهكذا كان آباؤك فأين إباؤك. وهذه أعمال أجدادك فأين ثمرة اجتهادك. وهذا تراث الذي مضى فأين آثارك التي تبقى، فلا تكن من الخوالف.

ناهيك أن مبدأ التاريخ الإسلامي مستقى من هذه الأمة اليمنية ومن وحي رجالها وآثار أعمالها. وبه كان عمل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعليه أسس مفتاح التاريخ الهجري [١].

وكنت جد شغوف بمطالعة كتب التاريخ سواء منها العامة أو الخاصة، والموضوع منها في قطر من الأقطار، أو تراجم الأعلام، أو ما هو في تقويم البلدان. وسرد الحوادث والوقائع والأيام لما أجد في مطاويها من متعة وسلوة، وفي بطونها من عبرة وعظة، تقرع مواضع الإحساس مني وتنزلها من نفسي منزلة قول القائل: «وحزين يتسلى بحزين».

وكان كل ما يهمني في ذلك هو ما يتعلق بوطني. إذ كان الواجب يدوي في نبضات عروقي ويصيح عالياً في مجاري دمي. فكنت لذا أضاعف جهودي في مواصلة البحث والتنقيب عن كتاب جامع لمبدأ تاريخ اليمن من لدن الإسلام إلى زمن بعيد الآماد. وأكرس أوقاتي لتسقط أخباره من منابعها الصافية. وأفتش مطاويها من مكامنها الغامضة. فلم أجد في ذلك شفاء أو أجد على النار هدى، لتفرق نفائس الكتب اليمنية أيدي سبأ، ولأن ما كتب حول التاريخ اليمني أحد رجلين. أحدهما: الذين خصصوا أقلامهم وجمعوا قواهم في جمع سير للسلطان أو قائم، وهؤلاء لا يعنيهم الأمر أكثر من أن يقيموا مظاهر

(١) راجع «اليمن الخضراء».

الفخفخة وإحاطة تلك الشخصية بهالة من القداسة والتفخيم التي هي أشبه بالخرافات والأساطير تزلفاً منهم لينالوا عنده الحظوة والجاه، وثاني الرجلين: هو الذي كتب التاريخ للتاريخ وللحقيقة الواقعة والأجيال القادمة وليس في قلوبهم غلّ، ولا وجدت الأهواء إلى أفئدتهم سبيلاً ومؤلفاتهم كثيرة، إلا أن منها ما هو مفقود من اليمن فطوحت به طوائح المحن إلى خزائن أوروبا أو غيرها. ومنها ما هو عزيز الوجود أو في خزائن قد نسجت عليها عناكب الإهمال. ومنها ما سطت عليه أيد سياسية فأخفته عن الوجود وصار خبراً من الأخبار.

وكان بلغني أن الإمام يحي أسس لجنة مكونة من ثلاثة أعضاء ورئيس، كلفها دراسة التاريخ اليمني من جميع نواحيه: سياسياً وأدبياً واجتماعياً وعمرانيـاً، وإخراج ذلك في كتاب حافل. وهم:

السيد العلامة أحمد بن عبد الوهاب الوريث الذماري. عهد إليه تاريخ ما قبـل الإسلام وشطر من التاريخ الإسلامي إلى دولة آل يعفر وبني زياد. ويقال إنه لاقى صعوبات شديدة لقلة المصادر للتاريخ القديم وما بعده.

والسيد العلامة الأديب الشهيد أحمد المطاع الصنعاني. وأسند إليه القسم الثاني من أيام آل يعفر والزياديين ومن بعدهم إلى القرن العاشر.

وثالثهم السيد عبد الله بن عبد الكريم الجرافي الصنعاني. والذي عليه من القرن العاشر [1] حتى الزمن الحاضر. وكان هذا أوعبهم عملاً وأقربهم تناولاً لقرب العهد من زمن الحوادث وكثرة المصادر وعدم ضياعها.

وعلى رأس الجميع السيد العلامة محمد بن محمد زبارة. إذ خولوه حق الإشراف على أعمال كل فرد من المذكورين بالمراجعة ونحوها. وأمر الإمام يحي أن يركزوا نقطة التاريخ الإسلامي على من قام ودعا من أئمة أهل البيت ومن عداهم متغلبون ومعارضون أو غاصبون كمثل دولة اليعفريين من ولد يعفر بن عبد الرحمن الحوالي الحميري والصليحيين والحاتميين الهمدانيين والغساسنة وغيرهم كبني طاهر الذين هم أصحاب الحق الشرعي ومن طينة الوطن.

فما كان من السيد أحمد الوريث وهو من أحرار الفكر ومستقلي الرأي ومن النضوج

(١) لهذا العالم كتاب «نبلاء اليمن بعد الألف» ولكنه لم يطبع.

المبكر ما جعله مقدماً. فقد اخترمته[1] المنية في زهرة شبابه سنة ١٣٥٩ وسنه قبل الثلاثين سنة دون أن تظهر ثمار أعماله ولا جليت بنات أفكاره.

وأما السيد الشهيد أحمد بن أحمد المطاع فإنه مضى في عمله شطراً صالحاً ثم طويت صحيفة أعماله كما طويت صحيفة أعماره[2].

ولكن كان من نباهته وذكائه أنه كان يكتب في آن واحد تاريخاً يتناسب ومزاج الإمام يحيى وآرائه وأفكاره، ويطلعه عليه ملازم وكراريس فيعيدها عليه مباركاً عمله، بينما كان يكتب تاريخاً آخر للحقيقة والتاريخ وبالمنهج العلمي التحليلي ويدخره للمستقبل فلما قامت الثورة سنة ١٣٦٧ هـ سنة ١٩٤٨م طوحت بكل شيء واختفى إلى الأبد

وأما الجرافي فإنه لا زال جاداً في عمله حتى أكمله. ولا يزال مخطوطاً.

هـذا وكان أحسن ما وقع عليه نظـري وسـاقتـه الأقـدار إلى يـدي وحـاز فضـل اختياري، واختيار الرجل وافد عقله ودليل لبه، هذا السفر الذي أقدمه وأضعه بين يدي القارئ المسمى: «قرة العيون بأخبار اليمن الميمون» للعلامة الحافظ عبد الرحمن الديبع فإنه ألم بتاريخ اليمن من لدن الإسلام إلى عصره في طلائع القرن العاشر، وأتى بحقائق لا يستهان بها. ولكنه لم يكن بالمستقصي لأخبار اليمن وحوادثه، ولا مقصراً عن وقائعه ونوائبه. فيكون مجرّداً من الفائدة، معسولاً من النكتة. بل كان وسطاً بين ذلك بحيث يخرج المطالع من حقوله وقد كوّن في عقله عن تاريخ اليمن صورة ثابتة يستطيع أن يحكم على تاريخ اليمن بما استنتجه من المقدمات والأسباب نتيجة مقنعة يتعرّف بها القارئ ما يضر وما ينفع، وما يلزم أن يكون مقياساً لما هو آت بالذي فات. فالتاريخ كما يقال: يعيد نفسه. كما أن المؤلّف لم يتحيز إلى فئة ولا نصر قومـاً على آخـريـن، أو أيّـد نـزعـة على أخرى، بل لزم طريقة واحدة شأنه شأن المؤرّخ الطالب للحقائق أكثر ما يهمه سرد الوقائع على وجهها وتدوين الحوادث برمتها بأسلوب سهل ممتنع. فتراه يركز الحقيقة على الأمر الواقع وعلى أصول مجاري الأمور. ومثله كتاب: «أنباء الزمن» للعلامة المتحرر يحيى بن الحسين بن القاسم رحمه الله فإنه - والحق يقال - مؤرخ نزيه عف اللسان، نظيف الكلام، طاهر القلم، حسن المذهب، نبيل المقصد. وإن كانت قد تهب ريحه مع مـن يهوى ومن يمت إليه بصلة، إلا أني لم أطلع إلا على الجزء الأول منه، وفيه من النواقص ما يقلل

---

(١) الإشاعة التي راجت حينئذ أنه مات مسموماً من الإمام يحيى حميد الدين، راجع تاريخنا صراع ثلث قرن».

(٢) أعدمه الطاغية أحمد في انقلاب سنة ١٣٦٧ هـ سنة ١٩٤٨م بمذبحة حجة الشهيرة.

الرغوب عنه رغماً على كثرة ما اطلع عليه من التواريخ التي ما كنا نسمع بها. وفيه من الفوائد والزوائد ما ليس في الديبع بكثير مع امتداد في تاريخه إلى سنة ١٠٤٤ أي بعد الديبع قرابة مائة سنة.

وكنت معتزماً أن أجمع تاريخاً حافلاً لليمن موحدة أجزاؤه، متماسكة أعضاؤه قائماً بذاته، مستغنياً عن غيره، يضم شتات ما تفرق في الأسفار، ويجمع ما حوته الكتب الكبار والصغار، محتفظاً بوحدة جغرافية إقليمية بحدوده الطبيعية والسياسية التي كانت ترفرف عليه أعلام التبابعة العظام ملوك سبأ وريدان. حتى يكون فريداً في بابه، وحيداً في فنه، جديداً في أسلوبه بحيث يقال إنه لم يسبق إليه، ولا حام حوله إنسان. إذ أن المؤرخين الذين قد اطلعنا على مؤلفاتهم لم يتناولو إلا حوادث سنام اليمن وقلبه النابض ودولابه المتحرك تاركين ما عدا ذلك من الأجناح والمقدم والمؤخر والزوايا والأضلاع كحضرموت. وعمان، ونجران ونحو ذلك.. اللهم إلا عرضاً أو على جهة الاستطراد مما ليست له قيمة ولا له أهمية. كما كنت أتوخى أن يكون على طريقة أهل العصر نقداً وتحليلاً، وربط الأسباب بعللها طوراً وبالاستنتاج والاستنباط حيناً آخر. وذلك لأنه قد اجتمع لدي نتف كثيرة وأخبار ليست باليسيرة بل هي من الأهمية بمكان. استقيتها من عيون صافية الموارد، عذبة للصادر والوارد موثوق بها كديت لها خاطري وأجهدت لأجلها سواد ناظري.. ولكني رأيت الشوط بعيداً. وأن هذا البناء المشمخر لا يتم إلا باستكمال موارد متوفرة، ومادة غزيرة، والحالة هذه لا تزال ناقصة وغامضة أشد الغموض في بعض أطوار التاريخ وأن الأمة لا تهضم من الآراء والأفكار الجديدة الحرة ما تجعلها تتقبله قبولاً حسناً، وتقبل عليه بحسن نية ورحابة صدر. ناهيك بتكاليف الطباعة، ونفقات النشر اللذين هما من أشد العقبات وأعظم الصعوبات. فأرجأت تحريره ليوم آخر وهو لا ريب آت إن شاء الله[1]. وعدلت إلى ما هو أخف في المؤنة وهو التعليق على كتاب «قرة العيون بأخبار اليمن الميمون» الذي نحن بصدده.. وشجعني على إنجاز هذا العمل الأخ العلامة الحجة السيد عبد الرحمن بن يحيى الإرياني اليحصبي رئيس المجلس الجمهوري حفظه الله.

فنهضت بعون الله بأعباء هذا الأمر غير متثاقل، وجردت من نفسي عزيمة متصلة الأواخر والأوائل. وضممت إليه ما استحسنت مما في حيازتي، حليتُ به جيد هذا التعليق متوخياً الحقيقة في سرد الوقائع والأحداث بضم حادثة إلى أختها وقرنها بنظرائها.

(١) قد أتى ذلك اليوم ولله الحمد، وقد ظهر الجزء الأول من «اليمن الخضراء مهد الحضارة».

وربطها إلى جانبها ، وإن دعت الحاجة إلى مثيل لها قرنتها بما يشاكلها ، إذ الأمور لها أشباه ونظائر . والأحوال متأشبة الرحامة متصلة الأواصر ، تاركاً القلم على سجيته في إيراد النكتة المستملحة ، والحكاية الطريفة ، والفكاهة الظريفة ، والبيت النادر ، والمثل السائر .

فالحديث ذو شجون يجر بعضه بعضاً أو جاء عفو الخاطر بدون تعمل أو كان على طريقة القافية كما قيل توفيراً لراحة القارىء الذي قد يدركه الملل وتغشاه السآمة وأخرجه من ساحة القتال التي قد تشمئز لها بعض النفوس إلى حديقة آداب طيبة الثمار ، زكية النفحات ، بما يلائم طبيعته ويوافق هواه .

وأنقله من حلبة صهيل الجياد وصرير السيف الجراز إلى مطربات حمائم الفكاهات والنوادر . ولذلك قال علي بن الحسين المسعودي في « مروج الذهب » : إن الناس لهم ميول وأهواء متباينة وأغراض مختلفة ، ومنازع متنافية . فمن طالب خبر ، ومقلد أثر ، ومنهم الشغوف لمعرفة البلدان وتخطيط الأمصار إلى غير ذلك مما تشتهيه النفوس ، وتتطلع إليه الرءوس . فالنفس مولعة بالغرائب .

وعنيت كثيراً بالإفاضة بتراجم الأعلام ، وضبط أسمائها تارة بالشكل وتارة بالحرف . وكذلك أسماء المدن والقرى والمعاقل والأماكن . فأزلت عنها الالتباس بالضبط والوصف والنعت لمحاسنها أو مساوئها وما الذي أكسبها شهرة وأذكرها صيتاً ، وما قيل فيها من مقطوع شعر ، ومثل متناقل وأزحت الستار عن حوادث كان يكتنفها الغموض وقعت على أيدي شخصيات هم من الناس ولكن أحيطوا بهالة من القداسة وبسياج من الهيبة والجلالة . كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً زاعمين أنهم ليسوا من الطينة البشرية بل هم من طينة مختارة . والحال أن الناس أمثال في جميع المذاهب . وأن بني الإنسان على كل لسان وفي كل زمان ومكان من طينة واحدة وعنصر واحد ، أو كما يقول النباتيون : من فصيلة واحدة ، لا يختلفون في الجوهر . فمنهم الخيِّر والشرير ، وإنما يتفاضلون بالقيم الإنسانية العليا والعمل الصالح ، وما أنتجته القرائح من المميزات التي لها أثر حسن في المجتمع الإنساني : وأن ليس للإنسان فضل على أخيه الإنسان إلا بالتقوى وما يحسنه . كما أن أناساً شوّهت سمعتهم الدعاية بحيث ألحقوا بهم عاراً لا يمحى ، ورذائل وفضائح يندى لها جبين الإنسانية حتى أوجبت السخط عليهم والمقت ، بل اللعن والشتم . والحال أنهم مما رموا به براء ، وصحيفة أعمالهم بيضاء ، فهؤلاء نبّهت إلى نقط الدعاية التي صفدتهم بأغلال المقت والازدراء ، ولم أكن ــ علم الله ــ أردت من هذا العمل أن ألت أحداً أو أنتقص فضله أو أهضم نبله ، بل تحريت الصواب وآليت في الاجتهاد ، بأن أرجعت الأشياء إلى نصابها ، ورددت الأمور على أعقابها على أني لم آت بشيء من عندي أو اختلقته من ذات نفسي

معاذ الله أن أكون من الأخسرين أعمالاً، بل نقلت ذلك من كتب موثوقة معتمدة عند المؤالف والمخالف. ولم أزد فيها ولم أنقص. اللهم إلا إذا صغتها بقالب يقربها لإظهار المعنى المراد لتكون الحقيقة ظاهرة جلية، أو لرعاية الإيجاز والاختصار وما على القارىء إلا مراجعة السجل الحافل لبيان مصادر الكتاب ليرجع - فيما أشكل عليه - إليها راجياً ممن اطلع على هفوة أن يسترها بفضل مروءته، أو على زلة أن يصلحها أو على غلطة أن يردها إلى مصدرها غير متحامل عليَّ أو متجانف لإثم:

وإن تجد عيباً فسد الخللا فجلّ من لا عيب فيه وعلا

فلست لنفسي مدعي العصمة من الزلل، ولا منزّهاً لخطرات القلم من الخطأ والخلل، بل أنا إنسان ضعيف كتب عليه الخطأ والنسيان. وركبت فيه طبائع متناقضة وعناصر متضاربة:

من الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

وحسبي أني اجتهدت وبذلت وسعي وطاقتي وأخرجت قوة من ضعفي. وأني فتحت الباب وأنرت الطريق، وأديت خدمة لوطني وأبناء بلدي لأنال دعوة مقبولة أو ثناءً مشكوراً، أو ليقال أحسنت، وإن كان قد قيل «من صنف فقد استهدف».

فإن أصبت فذلك ما أبتغيه وأرجو أن يثيبني الله عليه أجر مجتهد مصيب. وإن أخطأت فكل ابن آدم خطاؤون. وما أنا بأول سارٍ غره قمر.

والله ولي التوفيق، وعليه التكلان

حرر بتاريخه: غرة شعبان سنة ١٣٧٤ هـ

محمد بن علي الأكوع الحوالي

وبعد، فإني كنت حررت هذه المقدمة ومثلها معها بل أضعافها وكذلك التعليق على الكتاب المذكور في حبس ومنفى حجة للمرة الأخيرة سنة ١٣٦٧ هـ سنة ١٩٤٨م، ولما منّ الله بسراحنا بأعجوبة بثورة المقدم الشهيد أحمد الثلائي رحمه الله سنة ١٣٧٤ هـ سنة ١٩٥٥ م، وأبصرنا الدنيا وشع إلينا بصيص من النور ووقفنا على كتب من التواريخ اليمنية وعلى بعض ما نحب ونكرم ألا وهو الجزء الأول والثاني من الاكليل أمنية كل لبيب فاضل كما وقفنا على نسخة فذة من تاريخ عمارة المسمى «المفيد في أخبار صنعاء وزبيد» من حيث أنها جمعت بين التاريخ، وتراجم أعلام زمانه من أدباء وشعراء وعلقت على الجميع وطبعت ونفدت الطبعة الأولى منها ثم طبعه

كما أتاح الله لي الفرصة بتحقيق أمنيتي بفضل منه ونعمة بجمع تاريخ لوطني من عصوره الواغلة في القدم إلى الثورة كسلسلة تاريخية، وقد صدر الجزء الأول: « اليمن الخضراء مهد الحضارة ».

ولعل من الخير تأخير طبع كتاب « قرة العيون ، هذا الذي بين أيدينا إلى هذه الفترة لما أرجو بحرارة ولهف أن شبيبتنا المؤمنة بوطنها وبمقدساته وبكل القيم الإنسانية والأخلاقية المستقاة من الدين الحنيف سائرة في طريقها الهادف إلى الوعي الكامل والهدى والرشد.

وحينئذ رأيت اختصار ما قد كان أثقلت به كاهل « قرة العيون » من التعليقات والفوائد الجمة لأني كما قلت حليت بها جيد كتب أخرى منها ما قد ظهر ومنها ما هو في طريق الظهور.

وبقي لي كلمة لا بد أن أقولها وهي:

إني أناشد الرؤوس المفكرة، ومن أهل الثراء والغناء، ومن له وجدان نابض وضمير حي ورغبة ملحة في الإصلاح لخالص الوطن وإسعاده، أن يكوّنوا مؤسسة لها رأس مال كبير لإحياء التراث اليمني القديم من شتى الفنون والعلوم، فالعلم طريق السعادة، ويجمعوها من كل الخزائن سواء من داخل البلاد أو خارجها بالرسم والتصوير أو بالشراء أو نقلها بالكتابة ثم ينتقون نخبة هم صفوة العلماء النبهاء النبلاء ومن ليس في قلبه غل للذين آمنوا، وبجانبهم كوكبة من الخطاطين الأذكياء الذواقين وبعد أن تحقق وتنقح تلك الذخائر تطبع وتنشر، وبذلك يقدمون للوطن خدمة جلى يكونون معها مع الخالدين المشكورين، ولعل الله أن يحقق أمنيتي فهناك بوادر تشير إلى ما أصبو إليه.

فمن العار الكبير أن يخرج التراث اليمني لابساً حلة من حلل علماء الغرب الأفاضل أو على أيدي إخوان لنا كرام من مصريين وعراقيين وسوريين وليبيين أو شرقيين أو غربيين، إذ هذا يخل بسمعة اليمن وأنها أصبحت عالة على الغير حتى في المعارف وتراث بلده، وأن لا شيء في اليمن لا علماء ولا متعلمين، وخلت البلاد من كريم يرتجى وعالم ينتفع بعلمه، سائلاً من الله التوفيق.

رقم هذا في القاهرة المعزية بمصر العربية

١٨ رجب سنة ١٣٩١ هـ ـ ٨ سبتمبر ١٩٧١م.

ترجمة المؤلف

من البدر الطالع للحافظ الكبير المجتهد المطلق شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ، قال رحمه الله:

عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر بن علي بن يوسف بن أحمد بن عمر الشيباني الزبيدي الشافعي المعروف بالديبع، وهو لقب لجده الأعلى علي بن يوسف ومعناه بلغة النوبة «الأبيض» ولد في عصر يوم الخميس رابع المحرم سنة ٨٦٦ هـ ست وستين وثمانمائة بزبيد، ونشأ بها فحفظ القرآن وتلاه للسبع على خاله أبي النجا والشاطبية والزبد للبارزي وبعض البهجة، واشتغل في علم الحساب والجبر والمقابلة والهندسة والفرائض والفقه والعربية على خاله المشار إليه وعلى إبراهيم بن جعمان وفي الحديث على الزين أحمد الشرجي، وحج مراراً أولها سنة ٨٨٣ هـ وقرأ بمكة على السخاوي ثم برع لا سيما في علم الحديث واشتهر ذكره وبعد صيته وصنف التصانيف منها «تيسير الوصول إلى جامع الأصول». طبع بمصر وانتشر في العالم الإسلامي، اختصره من جامع الأصول لابن الأثير اختصاراً حسناً وتداوله الطلبة وانتفعوا به، وفي التاريخ «قرة العيون بأخبار اليمن الميمون» وهو الكتاب الذي بين أيدينا، و «بغية المستفيد بأخبار زبيد والفضل المزيد» وكان السلطان عامر بن عبد الوهاب قد عظمه وولاه التدريس، وله أشعار في مسائل علمية وضوابط وتحصيلات وله شهرة في اليمن طائلة إلى الآن.

وتوفي بزبيد ضحى يوم الجمعة السادس أو السابع من شهر رجب سنة ٩٤٤ هـ. انتهى.

شكر وتقدير

بما أن الولدين السيدين النبيلين يحيي بن محمد بن محمد الجنيد وعبد الله بن أحمد الأكوع الحوالي قاما بنصيب وافر وبذلا قصارى جهدهما بتحرير ومقابلة هذا السفر على أصوله ووضع الفهارس، فأقدم لهما شكري الجميل وثنائي الجزيل مقدراً لهما هذا المجهود الكبير، بارك الله فيهما وأجزل ثوابهما.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خص اليمن الميمون بالإيمان دون سائر الأقطار. وجعل الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية بشهادة المصطفى المختار. واختص هذا القطر الشريف بالكرم المدرار. وفضَّل أهله بالإيمان والعقل، وملوكه بالدين والعدل على سائر الأمصار، سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء ويختار.

أحمده على أن جعلني من أهله، وأسأله المزيد من كرمه وفضله في جميع الأطوار والأوطار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مخلصة من عذاب النار، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم الأنبياء وخاتم الأبرار، المثبت فؤاده بما قص عليه من أنباء الرسل وعجائب الأسرار، المخبر عن قصص الأولين والآخرين بصحاح الأخبار إن في ذلك لآيات لأولي النهى وعبرة لأولي الأبصار صلى الله عليه وعلى آله الأطهار وأصحابه المهاجرين والأنصار، صلاةً وسلاماً دائمين ما تعاقب الليل والنهار والعشي والإبكار.

أما بعد فإن علم التاريخ علم عظيم المقدار، رفيع المنار، شهدت بفضله الآيات والأخبار. واعتنى بنقله الأثبات والأخيار. وأنفقوا في ذلك نفائس الأعمار وارتكبوا فيه بسابس[1] الأخطار، حتى حصلوا فيه من ذلك أسفار الفوائد، وفوائد الأسفار، وبلغوا ذلك غاية المنى، ونهاية الأوطار، وكشفوا عن الأمة كل غُمّةٍ عما رووا من الأخبار، وجلوا غياهب كل ظلمة بنيرات الآثار، شكر الله صنيعهم، وعمّر بواسع مغفرته جميعهم، إنه هو الغفور الغفار.

ولما كان قطر اليمن من أيمن الأقطار وبقعته المباركة متصاعدة الأنوار وفضائله المعظمة مما شهد بها المختار، وأخباره المنظمة من محاسن الأخبار ألف في فضائله وأخباره جمع من العلماء الأخيار، كتباً معلومة مشهورة عند أولي القلوب والأبصار، وتفاوتت تواليفهم بتفاوت الأوطار، وتنوعت تصانيفهم بتنوع الأطوار، وعلى كل حال فلهم فضيلة التقدم والبدار، فإنهم قدوة المصنفين وعمدة المؤلفين في جميع الأمصار. وإليهم المرجع عند

---

(١) البسابس: جمع بسبس وهو القفر الخالي.

الاحتياج والاضطرار. فممن ألّف في ذلك في مواضي الأعصار: الإمام أبو حفص [1] ابن سمــــرة ذو السبــق والابتــدار. والفقيــه عمارة اليمني [2] ذو البراعـــة والاختصـــار

---

(١) هو الفقيه الفاضل الكامل العارف المحقق نور الدين أبو حفص عمر بن علي بن سمرة بن الحسين بن سمرة بن أبي الهيثم بن أبي العشيرة بن سعيد بن مسعود بن سعيد الجعدي نسبة إلى جعدة القبيلة المعروفة بالأجعود الواقعة في الجنوب الشرقي من مركز قعطبة ـ انتقل أجداد أبيه إلى بادية الجند، وأقاموا دهراً هنالك.

وولد المترجم له بقرية «أنامر» من قرى العوادر شرقي الجند في سنة سبع وأربعين وخمسمائة ونشأ بها. وتعلم القرآن وحفظه عن ظهر غيب. ثم أخذ الفقه عن مشايخ أجلاء هنالك منهم علي بن أحمد اليهاقر. وقد ذكر شيوخه، ومن انتفع بهم في كتابه الطبقات. ثم انتقل إلى مدينة الجند وكانت حينئذ آهلة بالعلماء والمتأدبين فأخذ عن علمائها. ثم ارتحل إلى مصنعة سير من بلد صهبان وتلقى الكثير من فقهائها ولا زال يتردد بين عدن وزبيد. وفي سنة ٥٨٠ تولى القضاء بأبين من قبل قاضي القضاة أثير الدين الذي خرج صحبة السلطان طغتكين بن أيوب سنة ٥٧٧ ثم لم نقف على بقية تطورات حياته إذ هذا كله ملتقط من كتابه الطبقات الذي ظل زمناً غير قصير متوارياً عنا وراء الغيوب. وكنت أظنه اختفى عن عالم الوجود حتى اطلعت على كتاب «خطط الشام» للعلامة البحاثة محمد كرد علي، وذكر من مصادر كتابه المذكور طبقات ابن سمرة عن نسخة في الآستانة. فاستروحت لوجوده، ولكن وأين الثريا من يدي المتطاول وبعد فترة من الزمن غير قصيرة كتب لي بعض الإخوان من زبيد أنه وجد نسخة منها بمدينة زبيد. فحاولت من ينسخها لي فذهبت آمالي باطلاً لأن الوقت كان عصيباً جداً لأسباب غامضة ثم تيسرت لي نسخة أخذت بالتصوير الشمسي أرسلها السيد العلامة إسماعيل بن علي الأكوع حفظه الله من مصر ثم طبعت على نفقة معالي الأخ الوزير محمد عبد الله العمري تغمده الله بواسع رحمته وأشرف على طبعها والتعليق عليها الأخ العلامة فؤاد سيد رحمه الله فقد كان نعم المعين والصاحب، وانتشرت طبعتها وكادت تختفي.

وكتاب الطبقات احتوى على تراجم العلماء والفقهاء مبتد بمبعث النبي ﷺ وذكر من دخل من الصحابة إلى اليمن والتابعين وغيرهم إلى نيف وثمانين وخمسمائة. ولم يتعرض للحوادث إلا إذا دعت له الحاجة إلى ذلك.

(٢) هو أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان الحكمي المذحجي الملقب نجم الدين الشاعر المشهور، والكاتب القدير، والمؤرخ الشهير، أحد نبغاء اليمن ونبلائها وأفذاذها الطائري الصيت. ولد بوطنه مدينة «مرطان» من وادي وساع من تهامة اليمن من مخلاف الحكم بن سعد العشيرة بن مذحج، في بضع عشرة وخمسمائة هجرية. ونشأ في البادية بين قبائل قومه وحلال أزد السراة فغلبت عليه فصاحتهم التي يجيدونها كسليقة جارية، لا تعثر بلسانهم، ولا تلعثم بكلامهم. وكان لا يلحن في كلامه العادي الجاري مجرى المحادثة، حتى إنه لما دخل زبيد سنة ٥٣١ للأخذ عن مشايخها كان شيخه الذي يدرس عنده النحو يعجب من سليقته كيف لا يلحن وهو في أول شروعه في القراءة فيسأله فيجاوبه =

والبهاء الجندي[1] ذي الإجادة والإكثار، والعلامة جمال الدين عبد الباقي بن عبد المجيد

= بالسلب فيحلف شيخه الأيمان أنه قد قرأ النحو وأنه يغالطه في ذلك. فلما كان في إحدى السنين جاءته والدته ووالده زائرين له إلى زبيد فأدخلهم على شيخه المذكور واختلط بهم أياماً فكان يسمع كلامهما غير ملحون، وحينئذ عرف صدق لهجة عمارة. فكان بعد ذلك كلما لقيه رحب به ويقول أهلاً بمن حنثت به.

وتقلبت به الأحوال إلى أن دخل مصر ومدح ملوكها وكان عمارة شاعراً مجيداً ومحدثاً ممتعاً حسن الصحبة غمر الوفاء حتى أداه وفاؤه بأن قتله السلطان صلاح الدين الأيوبي في شهر رمضان سنة ٥٦٩ هـ لأسباب كلها مذكورة في التاريخ راجع تاريخ عمارة بإخراجنا، وفي المقدمة ترجمة ضافية له.

(١) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي السكسكي الكندي، الملقب بهاء الدين الفقيه الشافعي المؤرخ المشهور.

كان عالماً نحريراً متضلعاً بالفنون، فاضلاً نبيلاً ذا تقوى وورع، صادق اللهجة طيب النفس، أمين النقل مشاركاً في علوم كثيرة من فقه وحديث وصرف ونحو وأدب وشعر وأنساب ونحوها، وبيته أسس على التقوى والصلاح والشرف مقدمين في مدينة الجند. وكان والده من أعلام زمانه وافر الفضل، جم الأخلاق، غزير الزهد، والتقلل من الدنيا. يتعاطى الشعر ويقرضه. كان مولد الجندي بمدينة «الجند» حيث كان والده مدرساً بإحدى مدارسها الكبرى. فلما بلغ سن التمييز رحل به والده إلى مدينة «تعز» ثم إلى مدينة زبيد. فأخذ عن علماء البلدين، ثم أرسله «مصنعة سير» من بلد صهبان وقد خربت منذ زمن. وكانت إذ ذاك موئل القصاد والوافدين عامرة بالعلماء والأعلام كما كان يدر عليها الوزراء والقضاة آل عمران من الأرزاق الغدقة والأوقاف السابغة. فعلّ منها ونهل حتى بذ أقرانه، والتقى بكثير من علماء زمانه استطردهم في كتابه التاريخ، وكان إذا سمع بعالم أو فقيه رحل إليه للأخذ عنه سماعاً أو إجازة، كما أنه أخذ عن الواردين إلى اليمن من علماء الآفاق الشيء الكثير. وعلى الجملة فإنه لمع اسمه لذلك العصر، وصار المشار إليه بالبنان، وقد أفاد واستفاد وقيد الشوارد وضبط الأوابد، وحصل لنفسه كتباً جمة مضبوطة متقنة وكان يستصحب بعضها في سفره. وتولى القضاء بموزع فمثل العفاف والنزاهة والعدل والأمانة وتولى الحسبة في مدينتي عدن وزبيد وكانت لذلك العهد من المناصب الممتازة، وتصدى للتدريس بها وبمدينة الجند وتقلب في مناصب شريفة، كان فيها مثالاً أسمى. وتاريخه المسمى «السلوك في طبقات العلماء والملوك» جمع فأوعى، وهو من أجلّ التواريخ اليمنية لثقة صاحبه وأمانة ناقله إذ كان بعضه عن مشاهدة ومشافهة وتجوال بربوع اليمن وقد مزجه بتراجم العلماء والأمراء والأعيان. فكان متعة للقارئ فبينما القارئ في مثافنة العلماء يسمع محاورة ويصغي الى مساجلة شعرية إذ بقراع الدهر تدوي بسمعك بصيحاته على الملوك وثل العروش والإطاحة بالرؤوس. وإذا ارتحلت عن أناس حلت بآخرين وهلم جرا. ومما امتاز به تاريخه أنه اهتم بضبط الأعلام والأماكن والبلدان، وخص الجانب الأكثر بعلماء الشافعية واستطرد لبعض فقهاء الزيدية، إلا أنه أدرج فيه بعض حكايات وخرافات من أحوال الصوفية والمتصوفة التي كانت رائجة لذلك العهد. وكانت وفاته سنة ٧٣٢ هـ اثنتين وثلاثين وسبعمائة هجرية.

القرشي [١] ذي الانتقاد والاختيار. والمؤرّخ النسابة علي بن الحسن الخزرجي [٢] وشيخ شيوخنا

---

(١) هو جمال الدين عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله بن مثنى بن أحمد بن عيسى بن يوسف ابن عبد المجيد اليماني المخزومي الملقب تاج الدين.

ولد في رجب سنة ٦٨٥ خمس وثمانين وستمائة بمكة ودخل اليمن وأقام بها ثم قدم مصر بعد السبعمائة بيسير. وأقام بها ثم دخل الشام ثم رجع إلى اليمن سنة ٧١٦ وولاه المؤيد الرسولي الوزارة فاستمر بها إلى أن مات المؤيد. وولاه ابنه الملك المجاهد فقربه وعظمه ثم صادره واجتاح أمواله ففر إلى مكة ودخل إلى الديار المصرية سنة ٧٣٠ فدرس بالمشهد النفيسي ثم استوطن بيت المقدس ومازال يتردد بين حلب ودمشق ومصر وطرابلس حتى مات سنة ٧٤٤ وكان له قدرة على النظم والنثر. وعمل تاريخاً لليمن، وتاريخاً للنحاة واختصر تاريخ ابن خلكان في جزء وذيل عليه إلى زمانه. وضبط ألفاظ الشفا للقاضي عياض في جزء، وله «مطرب السمع في حديث أم زرع» وله غير ذلك في الفقه والأصول وفنون الأدب والشعر، ومن شعره:

تجنب أن يذم بك الليالي ... وحاول أن يذم لك الزمان
ولا تحفل إذا كملت ذاتاً ... أصبت العز أم حصل الهوان

وله تاريخ اليمن اسمه «بهجة السنن في تاريخ اليمن» توجد منه نسخة في مكتبة باريس وطبع الأستاذ إبراهيم حجازي نسخة على ما وجد منه في نهاية الأرب للنويري نقلاً عن ابن عبد المجيد المذكور وقدم لتلك الطبعة الأخ الأديب الشاعر إبراهيم بن أحمد الحضراني. ثم تحصلت على النسخة الأصلية مصورة على النسخة الأصلية التي في مكتبة باريس وهي في طريقها إلى الظهور إن أنسأ الله بالأجل.

(٢) هو الكاتب القدير، والمؤرخ الشهير موفق الدين أبو الحسن علي بن الحسن بن وهاس بن منصور بن إبراهيم بن علي بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسن بن الدحداح بن عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن بن محمد بن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي. المؤرخ الكبير، والشاعر المفلق أحد فطاحلة اليمن ونبغائها. كان واسع الاطلاع، نابه الذكر، متضلعاً من المعارف والعلوم، صاحب نثر ونظم جيدين. مفنّناً بالأدب وعلم الأنساب. تحلى جيده السعيدة بوجوده وازدهرت بأبكار أفكاره وطيب عوده. اثنى عليه الحافظ ابن حجر ثناء حسناً في أنبائه، واجتمع به في زبيد ووجده بحراً لا تكدره الدلاء، وجوهرة تلألأ على مفرق الخضراء. قال وجمع لبلده تاريخاً كبيراً وآخر على الحروف.

قلت: وكتبه في التاريخ التي وصلنا خبر وجودها هي «العسجد المسبوك فيمن تولى اليمن من الملوك» رتبه على السنين و «العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية»، وهذا طبع في «ليدن» من هولاندا وهو قليل الوجود باليمن وعندي نسخة منه وفيه من التحريف والتصحيف ما يوجب على اليمنيين إعادة طباعته وإن كان وجوده نعمة عظيمة. والفضل في ذلك للمستشرقين الذين سبقوا العرب في نشر التراث العربي وبعثها إلى عالم الوجود. وقد قمنا بتحقيقه ووضع مقدمة له وطبع باشراف مركز الدراسة. وكتاب «طراز أعلام الزمن في طبقات أعلام اليمن» أربعة مجلدات وهو لا يزال في طي =

العلامة شرف الدين المقري [1] العظيم المقدار والعلامة حسين بن عبدالرحمن الأهدل [2] وارث

= الخفاء وفي خزانة الإمام يحيي الجزء الأول مخطوط بخط حديث وفي خزانتي صورة منه وسييسر الله من يبعث الكنوز اليمنية من مرقدها ويعيد مجد السعيدة وعزها. وكتاب «الكفاة والأعلام فيمن تولى اليمن من لدن الإسلام» وهذا طبع بليدن. وفي خزانة الجامع الكبير بصنعاء نسخة منه وله ديوان شعر ومراسلات وكانت وفاته سنة ٨١٢ هـ، وله دامغة رد بها على بعض معاصريه.

(١) ترجم له الحافظ الشوكاني فقال: اسمه إسماعيل بن أبي بكر بن عبد الله بن إبراهيم بن علي بن عطية بن علي الشرف الشرجي المعروف بالمقري الزبيدي. ولد سنة ٧٥٤ هـ، وتفقه بالجمال الريمي وقرأ في عدة فنون وبرز في جميعها وفاق أهل عصره وطار صيته واشتهر ذكره ومهر في صناعة النظم والنثر وجاء بما لم يقدر عليه غيره وأقبل عليه ملوك اليمن وكان له عظيم القدر عند الخاص والعام وولاه الملك أشرف تدريس المجاهدية بتعز والنظامية بزبيد، فأفاد. وعين للسفارة إلى مصر ثم تأخر لطمعه في قضاء الأقضية بعد المجد الشيرازي صاحب القاموس فلم يتم له مناه. وكان يرجوه في حياة المجد ويتحامل عليه بحيث أن المجد عمل للسلطان كتاباً وجعل أول كل سطر منه ألفاً فاستعظمه السلطان فعمل له صاحب الترجمة كتابه الذي لم يسبق إليه المعروف بعنوان «الشرف الوافي» اشتمل على خمسة فنون: الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافي. ولكنه لم يتمه في حياة الأشرف فقدمه لولده الناصر. قلت: وقد طبع بفضل جهود إخواننا المصريين حياهم الله. ومن مصنفاته «الروض» مختصر الروضة، و «الإرشاد» وهذا أيضاً قد طبع، وهو كتاب نفيس في فقه الشافعية، رشيق العبارة في غاية الإيجاز والاختصار. وشرحه في مجلدين وطار في الآفاق واشتغل به علماء الشافعية في الأقطار وله غير ذلك حتى قيل إن اليمن لم تنجب مثله. وشعره في الذروة العالية. وقد طبع ديوانه ولكنه ويا للأسف غير متداول بأيدي أدباء اليمن لهجرهم تراث آبائهم وميلهم إلى غيرها بدون برهان، وله القصيدة التي تقرأ حروف رويها بالضم والنصب والجر والسكون، وقصيدة أخرى تقرأ على خمسمائة وجه أو أربعمائة، وله البديعية التي التزم في كل بيت منها تورية. طبعت على نفقة وزارة الاعلام وله مسائل وقضايا يحتار فيها الذكي الألمعي، منها أنه عمل مرة ما يتفرع من الخلاف في مسألة الماء المشمس فبلغت آلافاً. قلت: وهذه من العوامل التي كانت سبباً لتأخر المسلمين لاشتغالهم بتوافه الأمور التي لم يأت بها من سلطان، في حين كان الأوربيون في ذلك التاريخ يتسابقون في ميادين المعارف والعمران والعلم النافع... ترجم له الحافظ ابن حجر في أنبائه وأطراه كثيراً واجتمع به في سنة ٨٠٠ وسنة ٨٠٦ وفي كل مرة يزداد عنده وداً وإقبالاً والخلاصة أنه كان من نوادر اليمن وأعاجيبه وترجمته تحتاج إلى عدة كراريس فمن أحب الاطلاع على غرائب فكر المترجم له وذكائه النادر فليرجع إلى كتبه ومظان تراجمه: وكانت وفاته سنة ٨٣٧ هـ ولم أطلع على اسم تاريخه فضلاً عن التاريخ نفسه.

(٢) هو الحسين بن عبد الرحمن بن محمد بن علي بن الأهدل. ولد تقريباً سنة ٧٧٩ تسع وسبعين وسبعمائة في أبيات حسين قرأ على الموزعي والزيلعي وعلى الأزرق والرضي الطبري وابن الرداد والناشري وبرع في عدة علوم وصنف حاشية على البخاري انتقاها من شرح الكرماني مع زيادة سماها «مفتاح القاري لجامع البخاري» و «اللمعة المقنعة في ذكر الفرق المبتدعة» و «الرسائل المرضية في =

الأسرار. وغيرهم من علماء الأمصار. وكان أحسن ما آلف في ذلك كتاب العسجد لأبي الحسن الخزرجي عند الاختيار، فجعلته قدوتي في سلوك هذا المنهج المختار ولخصتُ ما احتوى عليه من فوائد المحاسن ومحاسن الفوائد الغزار. وأضفت له من غيره نكتاً يعظم الاحتياج إليها والاضطرار. وزدت عليه تاريخ بني رسول الأحرار من أول دولة الناصر ابن الأشرف إلى دولة ملوكنا آل طاهر الأطهار ختمته بتاريخ دولتهم القاهرة وأيامهم الزاهرة الأنوار فجمعت من أخبار دولتهم السعيدة، وأيامهم الحميدة ما أفقدني فيه غيري من المؤرخين الأخيار. وكنت أول قادم على ذلك من مؤلفي الأخبار، وأحرزت فضيلة السبق بذلك على مؤلف ومصنف مختار فجاء بحمد الله عظيم المقدار. غاية في الاختصار محتوياً على محاسن الأخبار مشتملاً على نفائس الآثار فاسأل الله تعالى أن ينفع به على دوام الأعصار، إنه هو السميع البصير اللطيف الخبير المحيط علمه بجميع الأسرار وسميته «كتاب قرة العيون بأخبار اليمن الميمون» وجعلته في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في ذكر اليمن ومن ملك صنعاء وعدن وفيه عشرة فصول

الأول: في فضل اليمن وما يتعلق بذلك.

الثاني: في ذكر إسلام أهل اليمن، وذكر عمال رسول الله ﷺ.

الثالث: في ذكر عماله بعد وفاته.

الرابع: في ذكر عمال بني أمية.

الخامس: في ذكر عماله في الدولة العباسية.

السادس: في ذكر القرامطة.

السابع: في ذكر الأمراء المتغلبين على صنعاء.

الثامن: في ذكر ظهور الدولة الصليحية.

التاسع: في ملوك صنعاء بعد الصليحيين.

العاشر: في أخبار الدولة الزريعية واستيلاء الزريعيين على عدن.

= نصرة مذهب الأشعرية» و «بيان فساد مذهب الحشوية» و «شرح الأسماء الحسنى» ومؤلف «في مروق ابن عربي وابن الفارض وأتباعهما» و «تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن» قلت: وهو على غرار تاريخ الجندي وله غير هذا وهو شيخ عصره بلا مدافع. دارت عليه الفتيا ورحل إليه الناس للتدريس واشتهر ذكره وطار صيته واستقر بأبيات حسين، ومات بها في صبح يوم الخميس تاسع شهر محرم سنة ٨٥٥ خمس وخمسين وثمانمائة ودفن بها. وأبيات حسين كانت من المدن التهامية تقع في وادي مور وعزلة الجامعي بين مدينة الزهرة واللحية. كانت لها شهرة تاريخية واليوم ليست بشيء. نسبت إلى القائد حسين ابن سلامة الآتي ذكره في الملوك لأنه الذي اختطها.

الباب الثاني: في ذكر مدينة زبيد وأمرائها ووزرائها وفيه ثمانية عشر فصلاً

الأول: في ذكر اختطاط مدينة زبيد وتملك بني زياد.

الثاني: في ملوك الحبشة باليمن من آل نجاح.

الثالث: في ذكر وزراء آل نجاح.

الرابع: في قيام ابن مهدي وزوال ملك الحبشة.

الخامس: في ذكر دولة بني أيوب.

السادس: في ذكر دولة بني رسول وأولهم الملك المنصور عمر بن علي بن رسول.

السابع: في ذكر دولة ولده الملك المظفر.

الثامن: في ذكر دولة ولده الملك الأشرف.

التاسع: في ذكر دولة أخيه الملك المؤيد بن المظفر.

العاشر: في ذكر دولة ولده المجاهد.

الحادي عشر: في ذكر دولة ولده الأفضل.

الثاني عشر: في ذكر دولة ولده الأشرف.

الثالث عشر: في ذكر دولة ولده الناصر.

الرابع عشر: في ذكر دولة ولده الملك المنصور.

الخامس عشر: في ذكر دولة أخيه الأشرف.

السادس عشر: في ذكر دولة الملك الظاهر يحي بن إسماعيل الأشرف بن العباس الأفضل.

السابع عشر: في ذكر دولة ولده الأشرف بن الظاهر.

الثامن عشر: في ذكر من تولى من بني غسان ولاية غير منظمة.

الباب الثالث: في ذكر الدولة الطاهرية جدد الله سعودها ونصر جنودها وفيه ثلاثة فصول:

الأول: في ذكر دولة الملك المجاهد وأخيه الظافر ابني طاهر.

الثاني: في ذكر دولة ابن أخيها الملك المنصور تاج الدين عبد الوهاب بن داود بن طاهر.

الثالث: في ذكر دولة مولانا السلطان بن السلطان الملك الظافر صلاح الدين أبي النصر عامر بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر أدام الله دولته القاهرة وأيامه الزاهرة ورفع درجته في الدنيا والآخرة. وجعلتها ختام الفصول والأبواب وتمام محاسن الكتاب، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه المتاب.

الباب الأول
في ذكر اليمن ومن تملك صنعاء وعدن

الفصل الأول
في فضل اليمن وما يتعلق بذلك

قال الفقيه العالم النسابة أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي رحمه الله: اليمن قطر مبارك عظيم الفضل، كثير البركة، وردت في فضله أخبار وآثار. وجمع في فضله الإمام الكبير محمد بن عبد المجيد بن عبد الله بن خلف القرشي المصري (١) أربعين حديثاً، وفضائل اليمن كثيرة: منها ما روى ابن حبان (٢) في صحيحه عن ابن عباس (٣) أن النبي ﷺ قال في المدينة (٤) «الله أكبر جاء نصر الله وجاء الفتح وجاء أهل اليمن نقية قلوبهم لينة طاعتهم

(١) لم أجد له ترجمة فيما لدينا من المراجع.

(٢) بكسر الحاء المهملة وتشديد الموحدة، هو الحافظ العلامة أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان البستي. صاحب التصانيف، سمع أمماً لا يحصون من مصر إلى خراسان. حدث عنه الحاكم وغيره. وكان ابن حبان من فقهاء الدين وحفاظ الآثار بالطب والنجوم وفنون العلم. وصنف المسند الصحيح، والتاريخ وكتاب الضعفاء وفقَّه الناس بسمرقند. قال الحاكم: كان ابن حبان من أوعية العلم والفقه واللغة والوعظ. من عقلاء الرجل. توفي سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، وهو في عشر الثمانين. وبُست التي نسب إليها الحافظ، المذكورة بضم الباء بلدة بسجستان وهي اليوم في مملكة أفغانستان المسلمة.

(٣) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم النبي ﷺ. وأبو الخلفاء، وأحد العبادلة الخمسة المشهورين. بحر الأمة وحبرها. ولد قبل الهجرة بثلاث سنين. وشهرت إمامته في العلم ببركة الدعوة النبوية بالحكمة والفقه في الدين والتأويل تغني عن التعريف وقد أفردت فيه وفي إمامته التآليف. وكان عند الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بمنزلة الوزير المدبر، والمستشار المؤتمن، شهد مع علي الجمل وصفين. وولاه البصرة. فابتز مالها وفارق علياً لأسباب مذكورة في مطولات التواريخ. وكانت وفاته بالطائف سنة ٨٠ في آخر أيام ابن الزبير بعد أن كف بصره ومن شعره لما أضرّ:

إن يذهب الله عن عيني نورهما ... ففي فؤادي وقلبي منهما نور
قلب ذكي وعقل غير ذي دخل ... وفي فمي صارم كالسيف مأثور

(٤) هي مدينة الأنصار الذين قال الله فيهم: ﴿والذين تبوّأوا الدار والايمان﴾ الخ. وغيرها. وقال =

الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية ». وما روى الترمذي[1] عن ابن عمر[2] من قوله عليه الصلاة والسلام، اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا. قالوا وفي نجدنا[3] قال اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا. قالوا وفي نجدنا؟ قال هناك الزلازل والفتن». وفي الصحيحين عن أبي مسعود البدري[4] قال أشار النبي ﷺ نحو اليمن وقال:

= رسول الله ﷺ فيهم « إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع. آية الأيمان حب الأنصار. وآية النفاق بغض الأنصار، « هم شعاري ودثاري ». وقال علي رضي الله عنه في مدح الأنصار: هم والله إنهم ربوا الإسلام كما يربى الفلو مع غنائمهم بأيديهم السباط، وألسنتهم السلاط.

أبنـاء قيلـة وارثـو شرف العلا وعـرائـر الأقيـال مـن قحطـان

والمدينة المنورة هي التي آوت الدعوة الإسلامية ناشئة إلى أن ترعرعت وبلغت أشدها وربت أول الجماعة على هدى الإسلام وفضائله. ومأوى رسول الله ﷺ ودار هجرته وأقام بها حتى لحق بالرفيق الأعلى، وبها مزاره الكريم وإليه تهوى أفئدة ملايين المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها. ومنه يقتبسون كل ذكرى عظيمة ويذكرون كل سنة كريمة. هذه المدينة التي لا تحتاج إلى تعريف فشهرتها أعظم من أن توصف أو أن تعرّف ففيها مصنفات كثيرة.

(١) هو أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي. مثلثة الفوقية أي بالضم والكسر والفتح والميم مكسورة ومضمومة نسبة إلى ترمذ مدينـة قديمة على طرف جيحون.

سمع الحديث على البخاري وغيره من مشايخ البخاري، وكان إماماً ثبتاً حجة وألف كتاب السنن، وكتاب العلل. وكان ضريراً. قال عرضت كتابي هذا - أي كتاب السنن - المسمى بالجامع على أهل الحجاز والعراق وخراسان فرضوا به، ومن كان في بيته فكأنما في بيته نبي يتكلم. قال الحاكم: مات البخاري ولم يخلف بخراسان مثل أبي عيسى في العلم والحفظ والورع. وكانت وفاته بترمذ سنة سبع وستين ومائتين.

(٢) هو عبد الله ابن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب القرشي العدوي ابن ثاني الخلفاء الراشدين، وأحد رجال الشورى الذين قال فيهم أبوه عمر: ويحضركم عبد الله وليس له من الأمر شيء. واحد العبادلة المشهورين. أسلم صغيراً وأول مشاهده الخندق. وروى عنه خلائق، وكان من أوعية العلم ورواة ألوف الحديث وأحرص الناس على السنة واقتفاء آثار النبي ﷺ، حتى فيما هو من أمر الجبلة وكانت وفاته سنة ثلاث وسبعين بمكة ودفن بذي طوى في مقبرة المهاجرين. وكان عمره سبعاً وثمانين سنة.

(٣) نجد من أوسع أقاليم الجزيرة العربية يمتد بين صحراء النفوذ الكبرى شمالاً والربع الخالي جنوباً. وما بين الحجاز إلى ذات عرق غرباً، وإلى الأحساء شرقاً. وطوله من الشمال إلى الجنوب زهاء ثمانمائة ميل وعرضه من الشرق إلى الغرب زهاء مائتي ميل وعشرين ميلاً. وارتفاعه بين خمسة آلاف قدم في الغرب وألفين وخمسمائة في الشرق ومعظمه سهل. رملي في جهات. بركاني في جهات أخرى.

(٤) اسمه عقبة بن عامر بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي شهد العقبة الثانية ولم يشهد بدراً وإنما نزل به فنسب إليه سكن الكوفة ومات بها في خلافة عليّ رضي الله عنه.

« ألا إن الأيمان هاهنا » وعن أبي ذر [1] قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا هاجت الفتن فعليكم باليمن فإنها مباركة » وعن جابر بن عبد الله [2] يرفعه : « ترجع ثلثا بركة الدنيا إلى اليمن ، من كان هارباً من الفتنة فإليه يهرب ـ يعني اليمن ـ فإن العبادة فيه ترضى الله الأكبر » وعن أبي سعيد [3] يرفعه : عليكم باليمن إذا هاجت الفتن فإن قومه رحماء ، وإن أرضه مباركة ، وللعبادة فيه أجر كبير ، وعن ابن عباس قال : لما نادى إبراهيم [4] عليه السلام بالحج أجابه كل من حج هذا البيت من بعده إلى يوم القيامة من أصلاب آبائهم وبطون أمهاتهم ، فذكر الحديث وفي آخره : وكان أكثر الناس إجابة أهل اليمن . وذكر الأزرقي [5]

---

(١) اسمه جندب بن جنادة الغفاري . كان من أعيان الصحابة وزهادهم . وأول من حيّا النبي ﷺ بتحية الإسلام . وأول من حمل على الخليفة عثمان بن عفان ونقد تصرفاته . وأول من دعا إلى الاشتراكية الإسلامية بأن قال : إن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته وشيء ينفقه في سبيل الله أو يعده تكريماً . ويأخذ بظاهر القرآن مثل ﴿إن الذين يكنزون الذهب والفضة﴾ الخ . وكان يقوم بالشام ويقول يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء ، بشر الذين الخ . فما زال هذا دأبه حتى ولع الفقراء بمقالته في حديث طويل . ثم نفاه عثمان إلى الربذة خارج المدينة إلى أن مات سنة ٣٢ هـ وكان إسلامه بمكة وهو خامس خمسة في الإسلام . وترجمته طويلة احتوت على خبر ثورته .

(٢)هو أبو عبد الله جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام ، بالراء والحاء المهملتين . الأنصاري السلمي أحد مشاهير الصحابة وفقهائهم ، وذوي السابقة فيهم وفي الصحيح أنه شهد العقبة . وشهد مع رسول الله ﷺ بدراً وكان ينقل الماء يومئذ ، ثم شهد بعدها مع النبي ﷺ ثماني عشرة غزوة وشهد صفين مع علي . وكان من المكثرين الحفاظ . وكف بصره . مات بالمدينة وعمره أربع وتسعون سنة وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة .

(٣)هو الخدري ، واسمه سعد بن مالك بن سنان الخزرجي الأنصاري . كان عالماً من علماء الصحابة الكبار ، وممن شهد بيعة الشجرة . وروى حديثاً كثيراً وأفتى مدة . وعاش أبو سعيد ستاً وثمانين سنة ومات في أول سنة أربع وسبعين وحديثه كثير . وحدث عنه جماعة من الصحابة . وله في الصحيحين أربعة وثمانون حديثاً . والخدري بضم الخاء المعجمة ، ودال مهملة نسبة إلى خدرة حيّ من الأنصار .

(٤) هو نبي الله الخليل أبو الأنبياء . تلقى الوحي الإلهي في ديار الكلدانيين في نحو السنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، ومنها نزح إلى بلاد فلسطين . ثم إلى مصر ، وإلى مكة حيث أولدت له زوجته هاجر نبي الله إسماعيل أبا العرب المستعربة ، وهو جد خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم وعليه السلام .

(٥) هو أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق ، واسمه عثمان ابن عمرو بن الحارث بن أبي شمر بن عمرو بن الحارث بن ربيعة بن جارية بن الحارث بن ثعلبة العنقاء ابن عمرو مزيقيا الغساني . أحد أبناء سلالة ملوك الغساسنة الذين تملكوا الشام قبل الإسلام ، فجده الحارث بن أبي شمر هو الملك المعاصر لصاحب الدعوة ﷺ والمؤلف أحد الإخباريين الثقات وأصحاب السير وله من المؤلفات « كتاب مكة وأخبارها وجبالها وأوديتها » كتاب كبير في مجلدين . ومختصره زبدة الأعمال .

في أخبار مكة أن إبراهيم الخليل استقبل الجهات الأربع في ندائه، وأنه بدأ بجهة اليمن، وروى الإمام أبو الشيخ[1] بإسناده عن ابن عمر يرفعه: لا تسبوا أهل اليمن فإنهم زين الحاج، وروى أنه عليه السلام قال أوتاد الأرض من أمتي أبدال الشام[2] وعصبة اليمن أربعون صديقاً لا يموت منهم أحد إلا وأبدل الله مكانه مثله. وروى أبو الشيخ عن أحمد بن أبي الحواري[3] عن أبي سليمان أنه قال: الأبدال بالشام، والنجباء بمصر

= ولد المؤلف المذكور في مكة المكرمة في القرن الثاني الهجري ولم يعرف بالضبط تحديد مولده، ولا أشار إليه أحد من المؤرخين. ووفاته غير مضبوطة فقيل في سنة ٢٢٢ هـ وقيل غير ذلك مما يعسر التحقيق فيه.

روى عن سفيان بن عيينة، وداود بن عبد الرحمن العطار، وإسحاق بن أحمد الخزاعي وعنه جماعة منهم الحافظ البخاري في صحيحه وحفيد المؤلف. وكان كتاب الأزرقي مفقوداً إلى أن أتيح «لفردينان» و «وستنفيلد» المستشرقين الألمانيين الوقوف على ثلاث نسخ في بعض مكاتب أوروبا فانكبا على دراسة هذه النسخ ومقابلتها وتصحيحها ثم باشر طبع الكتاب في «ليبسك» بألمانيا واستغرق طبعها ثلاث سنوات وانتهى ذلك في سنة ١٢٧٥ هـ ١٨٥٨م وقد أصبحت النسخ المطبوعة بتلك المطبعة نادرة الوجود حيث مضى على طبعها سنة ٧٥ سنة. ثم طبعت بمكة وقوبلت على ثلاث نسخ غير المطبوعة.

(١) ليس عندي حال تحرير هذا ترجمة لأبي الشيخ المذكور.

(٢) أطلق جغرافيو العرب بلاد الشام على الجزء الواسع بين «رفح» الممدود جنوباً، وجبال طوروس وديار بكر شمالاً والبحر المتوسط غرباً، والعراق شرقاً. فهو يحاذي الحجاز ومصر والأناضول والبحر المتوسط والعراق ويطلق عليه بر الشام. ويشمل سوريا وجبل لبنان وفلسطين وشرق الأردن.

(٣) كان في الأصل عن ابن الجوزي وعليه مشينا بالطبعة الأولى وترجمنا لابن الجوزي والأصح أنه أحمد بن أبي الحواري كما في العسجد المسبوك وطراز أعلام اليمن للخزرجي رحمه الله وترجمة أحمد بن أبي الحواري كما يلي: هو العارف بأبيه أحمد بن أبي الحواري، من كبار المحدثين وأجلاّء الصوفية، صحب الشيخ العارف أبا سليمان الداراني، وتوفي سنة ٢٤٦ هـ.

ومن كلامه رضي الله تعالى عنه: من نظر إلى الدنيا نظرة إرادة وحب أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه ومن سأل بلا انتباه السنة فعمله باطل وأفضل البكاء بكاء العبد على ما فاته من أوقاته على غير الموافقة وقال: ما ابتلى الله بشيء أشد من القسوة والغفلة. وكان سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه يقول: أحمد بن أبي الحواري ريحانة الثأر وكانت زوجته رابعة الشامية تقول له: أحبك حب الأخوان لا حب الأزواج، وكانت تطعمه الطيّب وتطيبه وتقول: إذهب بنشاطك إلى أزواجك وتقول عند تقريب الطعام إليه كل فما نضج إلا بالتسبيح وتقول إذا قمت من الليل:

قام المحب إلى الموصل قومه ... كاد الفؤاد من السرور يطير

وهو مشهور من المؤلفات العديدة التي استقصت كل شيء فيه.

والعصب باليمن، والأخيار بالعراق. قال جمهور العلماء: اليمن اسم لولد قحطان بن الهميسع بن يمن بن ثابت بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام [١]. سموا بأبيهم يمن وبهم سميت الناحية التي سكنوها، وقيل سمي يمناً ليمنه، وقيل لأنه عن يمين الكعبة وعن يمينها الركنان الأيمنان: وهما الركن اليماني وركن الحجر الأسود، قالوا وسمي الشام شاماً لشامات سود وبيض في أرضه وذلك لاختلاف الترب والبقع، وقيل سمي به لشؤمه وقيل لأنه على شمال الكعبة، قالوا وسمي الحجاز حجازاً لأنه حجز بين الشام واليمن [٢]. واليمن يمنان أعلى

---

(١) هذا قول فئة قليلة نسبه هشام بن الكلبي إلى أبيه، وإلى الشرقي القطامي أما الجمهرة الكبيرة والأكثرية الساحقة من محققي هذا الفن وثقات النساب قديماً وحديثاً إلى يوم الناس هذا، والمعروف عند الخاصة والعامة وعليه ما وجد في خزائن حمير ومساندها ومشجرات بيوتاتها تلقاه عن الآباء والأجداد وكابراً عن كابر حتى عند الجهلة من الناس أن قبائل اليمن يرجع أنسابها إلى قحطان بن عابر، وهو هود عليه السلام. تعرف ذلك من لهجاتهم وأهازيجهم الشعرية، أيام المواسم والمفاخرة وعند الصرخة بـ: يا للثارات! ومغاراتهم بـ: يا للغارات! فينتمون بذلك لإثارة النعرة واقتداح النخوة بـ: يا لقحطان بن هود وما يشاكل هذه العبارة من النثر والنظم الشعبي تجدها بين ثنايا الشفاه والشفار وعلى صليل الحسام وصريف النصال ولو حاولت أبسط الناس من أهل البادية أن تحوله عن رأيه لأجابك بقوله الصارم المقنع المدعوم بالحجة بأنك تهرف بما لا تعرف. وينشد قول علقمة بن ذي جدن الحميري.

أبونا نبي الله هود بن عابر ... فها نحن أبناء النبي المطهر
ملكنا بلاد الله شرقاً ومغرباً ... ومفخرنا يسمو على كل مفخر

قال المؤرخ الثقة أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي المتوفى سنة ٣٤٤هـ في مروج الذهب: والواضح من أنساب اليمن وما تدين به كهلان وحمير ابنا قحطان إلى هذا الوقت قولاً وعملاً وينقله الباقي من الماضي والصغير عن الكبير والذي وجدت عليه التواريخ القديمة للعرب وغيرها من اليمن وعليه وجدت الأكبر من شيوخ ولد قحطان وكهلان بأرض اليمن وتهائم والاتحاد وحضرموت والاحقاف وبلاد عمان وغيرها من الأمصار: أن الصحيح في نسب قحطان ان قحطان بن عابر بن سالخ وهو قينان بن الفخشد بن سام بن نوح الخ. وراجع الاكليل الأول ص ١١٤.

(٢) هذا التعليل غير صحيح وإنما سمي حجازاً لأنه حجز بين اليمن ونجد. راجع صفة جزيرة العرب.

وأسفل فاليمن الأعلى [١] وقصبته صنعاء [٢] وهي إحدى جنان الأرض، وذكر في تاريخ صنعاء [٣] أنه عليه الصلاة والسلام قال ثلاث جنان الدنيا، مرو من

---

(١) هذا التقسيم لعله قريب العهد وقد انسحبت هذه التسمية إلى هذه الغاية ولم يذكر المؤلف الحد الفاصل بين اليمن الأعلى والأسفل وبناء على ما هو معروف اليوم فإن الحاجز الطبيعي بين اليمن الأعلى والأسفل هي الهضبة الكبرى التي تتكون منها سراة مخلاف يحصب بلد يريم المشرفة على حقل « قتاب » قاع الحقل من الشرق والمطلة على بلد ذي الكلاع غرباً، وفي جوف هذه الهضبة نقيل صيد المشهور بسماره الممر الجبلي الحيوي الذي يربط بين اليمن الأسفل واليمن الأعلى ومحجة عدن إلى صنعاء ثم تأخذ سلسلة هذه الجبال ذات الشمال حتى تصالي عتمة ووصاب وريمه وبرع وماطل منها على تهامة وما انخرط منعطفاً جنوباً وشرقاً فحجز بلد الشعر وبعض بلد ذي رعين ويشكل قوساً من الجبال من الشرق إلى الغرب. فمن الغرب يشمل مخلاف ذي الكلاع العدين وبلاد إب وذي السفال إلى أشراف نخلة وما انقاد منها على سمت جبال السراة ومن الجنوب: الجند والمعافر إلى تهامة عدن وبلد بني مجيد بما فيها المخاء والتهايم، ومن الشرق بلد الشعر وبلاد ذي رعين العود وجيشان وجبال حرير وردفان وهضبات سرو حمير يافع وسرو مذحج النخع وبلاد البيضاء وثريد وغير ذلك. فهذا اليمن الأسفل على حد الاختصار وإن كان فيه تداخل ما ويسكنه قبائل حمير وفيه خليط من كهلان وأهل هذه الأصقاع ذوو مروءة وشهامة وعروبة، وفيه أخصب مخاليف اليمن وكلهم يتمذهبون للشافعي... وأما اليمن الأعلى فهو يأخذ من هذه الهضبة المذكورة شرقاً ويحتضن يحصب العلو وبعض مصانع ذي رعين وعنس والحداء وبلد خولان العالية ورداع ومراد ومانا وجهاً شرقاً وشمالاً ومتوسط نجد اليمن الذي من مدنه ذمار وصنعاء وصعدة وينتهي إلى حدوده الطبيعية، ومن هذه السلسلة جبال السراة أعالي مقري بلاد مغرب عنس وآنس وريمة الأشابط وبلاد الأخروج الحيمة وحراز وبلاد حمير وسراة همدان فخولان قضاعة إلى حدود اليمن الطبيعي وهي أوطان لحمير وكهلان وأهله ذوو نجدة وقراع وغالبهم يعتنقون المذهب الزيدي.

(٢) صنعاء هي حاضرة اليمن في معظم العصور الإسلامية ومن أقدم المدن العربية فقد قيل انها بنيت بعد الطوفان وهي عروسة الجزيرة العربية، وتاجها المتلألئ ومحط أملاك حمير، وكرسي التبابعة، ومدينة سام بن نوح، واحد جنان الدنيا. وهي بدلالها وحسنها الفتان وسحرها الخلاب يعجب بها الزوار والرواد.

وصنعاء بالمد وفيها لغة ثانية وهي « صنعان » بالنون آخر الحروف نص عليها ياقوت. قلت: وهي لغة بلد ذي الكلاع بلاد إب ولغة حجة. ولما سمعتها لأول مرة استنكرتها وأنكرت عليهم حتى وجدتها نصاً وهذا يؤيد أن اللغة الدارجة وهي ما يسمونها العامية هي من صميم اللغة الفصحى وأنها تمت إلى أمها بصلة قوية إلا ما شذ من الدخيل كما يدل عليه عناية أسلافنا لتتبّع اللغة واستقراء مفرداتها وأن اليمن هي منبع اللغة السامية وأعجب من هذا كيف اتحدت لهجة بلد الشجة وبلد حجة على ما بينهما من فوارق وكثيراً ما يتفقان في لهجات عديدة.

(٣) الذي استقيته من الجندي أن لصنعاء تاريخين أحدهما لابن جرير الصنعاني الزهري واسمه =

خراسان[1] ودمشق من الشام، وصنعاء من اليمن، وجنة هذه الجنان صنعاء، وقيل أول بنيان رفع على وجه الأرض بعد الطوفان مسجد صنعاء. وعن وهب بن منبه[2] أن سام بن نوح[3] ارتاد مكاناً طيباً فوجد اليمن أطيب مكان ووجد صنعاء طيبة، فبنى صنعاء اليمن ثم اشترى

= إسحاق بن يحيى بن جرير ينسب إلى الأسود بن عوف أخي عبد الرحمن بن عوف. قال البهاء الجندي: وهو كتاب لطيف الحجم به فوائد جمة. والثاني تاريخ الرازي الصنعاني وهو من الأبناء واسمه أبو العباس أحمد بن عبد الله المتوفى سنة ٤٦٠ هـ وتوجد منه نسخة بمكتبة صنعاء ولم يتح لي مطالعتها وأخرى في مكتبات الخارج. وقد طبع بتحقيق الولد الحسين بن عبد الله العمري.

(١) مرو مدينتان من مدن خراسان إحداهما مرو الشاهجان والأخرى مرو الري، راجع ياقوت فإنه أثنى عليها وأطرى وما في مرو الشاهجان من مكاتب تسلب الألباب فارجع إليه.

(٢) هو أبو عبد الله وهب بن منبه بن كامل الأبناوي، جده كامل أحد الفرس الذين قدموا مع الملك المنقذ سيف بن ذي يزن وكان جده أحد الأكاسرة وأما أبوه فصاحب معاذ، وأما أمه فمن ولد القيل ذي الخليل الحميري.

الحافظ الإخباري القصصي المؤرخ الكبير. ولد بصنعاء سنة ٣٤ هـ. كان أوحد أهل زمانه فقهاً وورعاً ونبلاً وتقشفاً، شديداً بليغاً في خطابته المؤثرة التي تنفذ إلى أعماق القلوب، وتملك النفوس وتأسر الجمهور وكأنه غيث متدفق. لقي عشرة من الصحابة منهم ابن عمر، وابن عباس، وجابر بن عبد الله والنعمان بن بشير. وأخذ عنه كثير وصحب ابن عباس ثلاث عشرة سنة. وقوله مسجد صنعاء كذا في الأصول وكذا في الخزرجي والذي في الجزء الثامن من الإكليل: قصر غمدان، وهو الأصح.

وتوفي بصنعاء سنة ١١٤ هـ وهو ابن ثمانين سنة، وقبره معروف يزار بالعرضي الأعلى خارج باب اليمن وله ولدان كلاهما له رواية. راجع طبقات ابن سمرة ص ٥٧ وصفة جزيرة العرب والجندي وتاريخ البخاري وغيره.

(٣) هو الأوسط من أولاد نوح عليه السلام، وأبو الأمم السامية ويقال لصنعاء مدينة سام نسبة إليه وهذا شائع متداول إلى يوم الناس هذا.

كما يروى أن قبره بقرية «نُوادة» من مخلاف بعدان بعزلة «حيسان» ويزعم أهل ذلك الصقع أن أصل «حيسان» حي سام. ولكن لكثرة الاستعمال تحولت إلى ما هي عليه اليوم. وقال في القاموس «نوادة» «كقتادة» قرية بجبل بعدان بها قبر سام بن نوح

قلت وقد زرت هذه البلدة والقبر. وهو عادي في طرف قطعة مزرعة هنالك يزعم أهل المحل المذكورة، وذو الأسنان منهم، أن هذا قبر سام بن نوح تناقله الأحفاد عن الأجداد والخلف عن السلف.

ومن خاصية هذه الأرض كما يزعم أهل تلك القرية أنها تأتي بالغلال والمحاصيل بدون أن يوضع لها دمال وسماد. فإذا سمدت الأرض وقلما تدمل امتحقت ثمرتها ولم تأت بشيء. ومسجد صنعاء لم يبن إلا في الإسلام، والمعروف أن أول بنيان رفع على وجه الأرض هو غمدان. راجع الثامن من الإكليل.

غمدان[1] وحفر بئره وهي التي تسمى بئر كرّامة[2] وهي مقابلة لأول باب من أبواب الجامع من ناحية الشرق واختلف في سماك غمدان بعد أن زاد فيه التبابعة من ملوك حمير[3] وكان من المباني العجيبة[4]. فأصح ما قيل إنه كان عشرين سقفاً، بين كل سقفين عشرون ذراعاً وعرضه كذلك. وكان يبسط ظله إلى ثلاثة فراسخ ولم يزل قائماً إلى أن هدمه فروة ابن مسيك المرادي بأمر رسول الله ﷺ، وقيل في خلافة أبي بكر. وقيل في خلافة عمر، وقيل في خلافة عثمان رضي الله عنهم أجمعين[5].

وروى ابن عبد المجيد في كتابه بهجة الزمن في أخبار اليمن، أن دور صنعاء بلغت مئة وعشرين ألف دار وكانت مساجدها ثلاثة عشر ألف مسجد وحماماتها كذلك[6] ثم تلاشت

---

(١) هذا يدل أن ثم أمة قديمة قبل سام لم يمسها الطوفان وإلا فممن سيكون الشرى لبقعة غمدان يا ترى وإلا فهي أشبه أن تكون أسطورة.

(٢) لا تزال هذه البئر معروفة إلى يومنا هذا وهي بجوار الجامع الكبير مما يلي بابه الشرقي وعليها سور وباب مغلق ولا يدخل إليها أحد إلا بإذن من قيّام الجامع المذكور. واليوم قد عمر مكانها حوانيت.

(٣) التبابعة جمع تبع وهو لقب لكل ملك من ملوك اليمن يضم تحت لوائه البلاد السعيدة وغيرها من الجزيرة العربية، وقد يتجاوز إلى غيرها وقد نوه الله جل سلطانه بعظمة التبابعة فقال عز من قائل ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾ والتبابعة كثيرون. قال النعمان بن بشير الأنصاري:

لنا من بني قحطان سبعون تبعاً ... أطاعت لها بالخرج منها الأعاجم

قيل سمي تبع لكثرة أتباعه. وقيل لأن الآخر يتبع الأول في الملك. وحمير هو حمير الأكبر بن سبأ ويلقب بالعرنجج، راجع الإكليل (ج ٢) وشرح النشوانية.

(٤) غمدان في القاموس، كعثمان. وفي ياقوت، كذأبان، والناس ينطقون به مفتوح الغين المعجمة وكان من عجائب الدنيا القديمة وإن دل على عظمة البناء فقد دل على عظمة الباني، ونضوج الفكر اليمني وسمو مداركه، ودقة فهمه، وأنهم ضربوا بسهم وافر في الحضارة والفن كما أنهم قد سبقوا العالم المتحضر بآلاف السنين، لسموق البناء وذهابه في الهواء إلى أبعد مدى بما يسمونه اليوم بأمريكا ناطحات السحاب. وقد أكثر العرب في وصف غمدان وطار صيته كل مطار. فراجع الإكليل (ج ٨) إن كنت من نسل أولئك الأبطال البواسل.

(٥) الأصح أن الذي هدمه فروة بن مسيك بأمر عثمان كما في الإكليل. قال العلامة البحاثة شيخ العروبة أحمد زكي باشا المصري في الآثار المصرية. فهذا الخليفة عثمان عفى على أعجوبة الزمن في أرض اليمن ـ أعني قصر غمدان ـ المعروف بصومعته الذي ضربت بجلالته وفخامته الأمثال. وكان هيكلاً يعبدون فيه آلهة الزهرة. وقال في الروض المعطار: وهو أحد البيوت السبعة التي بنيت على الكواكب السبعة بناه الضحاك باسم الزهرة. وقال الجاحظ: إنه أحد عجائب الدنيا العشر.

(٦) كذا في تاريخ الرازي.

في أيام أحمد بن قيس بن الضحاك [1] سنة ثمانين وثلثمائة فكانت ألفاً وأربعين داراً.

وأما اليمن الأسفل فقصبته مدينة زبيد [2] وهي إحدى البقاع المقدسات المرحومات. وعن كعب الأحبار [3]، عن من أدركه من أصحاب شق، وسطيح الكاهنين [4] أن في اليمن أربع بقاع مقدسات أو قال مرحومات: الكثيب الأبيض وهو ما بين أبين ويافع [5] كما

---

(١) يأتي ذكره.

(٢) زبيد كأمير سيأتي وصفها للمؤلف مع زيادة أيضاً وهي التي يدور عليها محور هذا التاريخ مع صنعاء، وأما زبيد بضم الزاي فهو علم لقبيلة من مذحج وأماكن تسمت باسم القبيلة المذكورة ويأتي لها ذكر في صحائف معدودات.

(٣) هو كعب بن ماتع الرعيني الحميري. كان عالم أهل الكتاب ومن كبار أحبارها. ولما أسلم كان من أعيان التابعين وجلتهم، احتل مكاناً سامياً وكان من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام وكان يتردد على النبي ﷺ، ويميل إلى الإسلام. ولكنه لم يسلم حتى استوفى علامات النبوة في رسول الله ﷺ وأصحابه حتى ينطبق على ما هو مكتوب عندهم في البشارات القديمة. ولهذا أخر إسلامه إلى آخر أيام عمر بن الخطاب فأسلم وحسن إسلامه ونزل من عمر منزلة المستشار الأمين ثم نزل بعد قتل عمر الشام ومات بحمص سنة ٣٤ هـ وله روايات وأخبار طافحة بها الموسوعات العلمية.

(٤) شق هو ابن صعب بن يشكر بن نذير بن قسر بن عبقر بن أنمار بن أراش بن الغوث بن النبت ابن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ.

وسطيح اسمه ربيع بن ربيعة بن مسعود من بني مازن، وهو غسان بن الأزد بن الغوث بن النبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ.

كانا من أعلام الكهان وأشهر مشاهيرها في الجاهلية الجهلاء ولهما أخبار في الكهانة والتنبؤ غريبة مبثوثة في الكتب.. وكان مسكن شق ببلد بجيلة وخثعم من شمال اليمن. وسطيح قيل في نجران وقيل في غيرها ولا زالت العامة تذكر شيئاً من أقاصيص خيالاتهم. يقال ان سطيح كان يدرج سائر جسده كما يدرج الثوب لا عظم فيه إلا جمجمته وكانت إذا لمست باليد يلين عظمها. وكان شق بعض إنسان أي نصفه بيد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة. قلت وتكاد هذه تكون شبه أسطورة ولله في خلقه ما يشاء. وللعرب في الكهانة قدم راسخة وشأن عظيم وهي من علومهم المعدودة كما هي قديمة عند الأمم الأخرى.

(٥) الكثيب معروف إلى هذه الغاية ويقال له كثيب يرامس ويقع في الشرق الشمالي من مدينة زنجبار عاصمة أبين بمسافة ساعة ونصف لسير الأقدام. وأما أبين فهو بفتح الهمزة على زنة أحمر، وذكر سيبويه بكسر الهمزة. وأهل اليمن لا يعرفون غير الفتح.. مخلاف واسع نسب إلى أبين بن ذي يقدم بن الصوار ابن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان بن قطن بن عريب بن زهير بن الهميسع بن حمير بن سبأ.

ومن أشهر قبائله الحميرية الأعنود التي منها الشاعر الكبير المشهور أبو بكر بن محمد العندي الآتي ذكره فيما بعد. وفي وطنه أبين يقول:

ليـت سـاري المزن مـن وادي منـى ... بـان عـن عيني فيسقـي أبينـا =

ذكروه. والجند، ومأرب، وزبيد... وروى البيهقي [١] في دلائل النبوة أنه عليه الصلاة والسلام قال للأشعريين حين قدموا إليه من اليمن من أين جئتم؟ قالوا من زبيد... قال بارك الله في زبيد. قالوا وفي رمع؟ [٢] قال بارك الله في زبيد قالوا وفي رمع؟ قال بارك الله في زبيد. قالوا وفي رمع؟ قال: وفي رمع قالها ثلاثاً في زبيد ومرة في رمع. فبركة زبيد لا شك فيها لدعائه ﷺ فيه بالبركة...

الفصل الثاني

في ذكر إسلام أهل اليمن وذكر عمال رسول الله ﷺ

أجمع العلماء أن كافة أهل اليمن [٣] أسلموا على عهده عليه الصلاة والسلام بعث رسول

=

واستهلّت بالرقيطا أدمع منه تستضحك تلك الدمنا

إلى أن يقول:

وطن اللهو الذي جر الصبا فيه أذيال الهوى مستوطنا

تلك أرض لم أزل صبّاً بها هائماً في حبها مرتهنا

وأما يافع فمخلاف وصقع كبير نسب إلى يافع بن زيد بن قاول بن زيد بن ناعتة بن شرحبيل بن الحارث بن زيد بن القيل الكبير يريم ذي الرعين الأكبر. وتقع بلاد يافع على هضبة صخرية في الشمال الشرقي لثغر عدن ما بين الضالع ولحج الواقعة في الغرب وبلاد العواذل في الشرق وبعض بلاد البيضاء وشمالاً الأجعود والشعيب وجين وما حاذى ذلك. وتحمل هذه الهضبة كتلة جبلية وعرة المسالك أعلى جبل فيها ثمر.

وأما مأرب فهي بفتح الميم وراء مهملة مكسورة وفي آخرها باء موحدة. واليوم ينطقون بها بغير همزة وهي لغة فصحى في ذلك وهي بيضة العز ودار المملكة وبقعة الجنتين ووكر قحطان وهي التي سماها الله تعالى ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ وكانت أحد عجائب الدنيا وإحدى جنانها الغناء ومهد الحضارة العربية التي طاولت الدهر وأشرق منها نور الرقي ومدينة سبأ التي فيها قصور صرواح والقشيب وسلحين وبلاد الأسرار والطلاسم والهياكل والمعابد مطمح أنظار الباحثين.

(١) هو الإمام الكبير الحافظ شيخ خراسان أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. له التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها. وكان زاهداً ورعاً ارتحل إلى الحجاز والعراق. قال الذهبي: تآليفه تقارب ألف جزء. والبيهقي ـ نسبة إلى «بيهق» بموحدة ومثناة تحته ساكنة وهاء مفتوحة وقاف ـ بلد قريب نيسابور. وكانت وفاته سنة ٤٥٨ هـ.

(٢) رمع: بكسر الراء وفتح ثانيه وعين آخر الحروف ـ واد ببلاد الأشعريين في تهامة. وميزاب من ميازيب اليمن الغربية ومآتيه بعيدة وبوادي رمع قرية الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) في الأصل اجتمع والتصحيح منا للفرق بين اجتمع وأجمع إذ أن لفظة اجتمع يكون للماديات =

الله إلى اليمن في سنة تسع من الهجرة النبوية المهاجر بن أبي أمية المخزومي (١) إلى الحارث بن عبد كلال الحميري (٢) ملك اليمن يومئذ يدعوه وقومه إلى الإسلام فأسلم وأسلموا. فهاجر فروة بن مسيك المرادي (٣) إليه عليه الصلاة والسلام، مفارقاً لملوك

= والمحسوسات في الغالب. وأجمع للمعاني، وقد استعمل المؤلف «كافة» مضافة إلى ما بعدها وهو وهم ولأئمة النحاة في مثل هذا الاستعمال نقاش. راجع اعتراضات ابن الخشاب ورد ابن بري في ذيل مقامات الحريري.

(١) في الاستيعاب مهاجر بن أبي أمية بن المغيرة. وفي الإصابة ابن عبد الله بدل المغيرة بن عمرو بن مخزوم المخزومي القرشي، أخو أم سلمة زوج النبي ﷺ لأبيها وأمها. شهد بدراً مع المشركين وقتل أخواه ثم أسلم وكان اسمه الوليد فغيره النبي ﷺ بالمهاجر في حديث طويل.

روى أنه تخلف عن غزوة تبوك فرجع النبي ﷺ وهو عاتب عليه فلم تزل أم سلمة تعتذر عنه حتى عذره وولاه.

وفي الاستيعاب أنه ولاه على كندة والصدف. وهو موافق لما في الأصل كما يأتي وفي الإصابة على صدقات صنعاء ثم ولاه أبو بكر على حروب الردة وله في ذلك أشعار وله ولزياد بن لبيد الأنصاري قصة حصن النجير من كندة لحضناه في محلها.

(٢) هو الحارث بن عبد كلال بن نصر بن سهل بن عريب بن عبد كلال بن عريب بن فهد بن زيد بن مثوب بن يريم بن مرة بن شراحيل بن معدي كرب الحميري الملقب ذا عشين.

ملك وشاعر وصاحب مكارم وبيان، ورب سيف وسنان. كان من عظماء أقيال حمير ومشاهيرهم في الجاهلية وصدر الإسلام. كتب النبي ﷺ إلى الحارث وأخيه وأمر رسوله أن يقرأ عليهما ﴿لم يكن الذين كفروا﴾ الخ. ووفد عليه الحارث فاعتنقه وأفرشه رداءه وقال: قبل أن يدخل عليه يدخل عليكم من هذا الفج رجل كريم الجدين، صبيح الخدين. وكان النبي ﷺ أرسل إلى الحارث بن عبد كلال المهاجر المذكور فأسلم، وكتب إلى النبي ﷺ شعراً يقول فيه:

ودينك دين الحق فيه طهارة ... وأنت بما فيه من الحق آمر

وكان مكتوباً على سيف الحارث بن عبد كلال:

أنا الحارث بن ذي عشين ... صاف كاللجين

وفي رواية كالسام واللجين.

وقد عثر في سد مأرب على نص تاريخي قبل ميلاد النبي ﷺ فيه ذكر للقيل عبد كلال.

وللحارث بن عبد كلال أخوة سراة شرفاً ولهم صحبة. ولبني عبد كلال بقية اليوم باليمن يأتي ذكرهم عند استطراد الأسر الكريمة بمناسبة. راجع الإكليل (ج ١٠) وتاريخ العرب قبل الإسلام، والإصابة.

(٣) ويقال: مسيكة. ومسيك أكثر وأشهر، هو ابن الحارث بن سلمة بن الحارث بن كريب الغطيفي نسبة إلى غطيف أحد بطون مراد، ثم المرادي.

كان من أشراف قومه وأحد فرسانهم المعدودين وصاحب مغازيهم، فلما ظهر الإسلام بادر لاعتناق =

كنده (١) فاستعمله على مراد ومذحج وزُبيد كلها (٢) وهاجر إليه الأشعث بن قيس

= الدين الجديد على رأس وفد من قومه فأسلم وحسن إسلامه. وأسلم قومه ورسخ الإيمان في قلوبهم رسوخ الرواسي فكان مثلاً كاملاً في الثبات على المبادئ القويمة وقاوم قومه في نزوعهم إلى الشر مقاومة عنيفة ووقف لهم موقفاً مشرفاً.

وكان قبل ظهور الإسلام على اتصال وثيق بملوك كندة لكونه مجاوراً لهم في الديار فكانوا يواصلونه تارة بالعطاء وتارة بالولاية. وقد ضم بين برديه نفساً كريمة سامية، وشاعرية فذة تعبر عن شعوره وأماني قومه وآمالها وآلامها وأفراحها. ولما توجه فروة إلى رسول الله ﷺ مفارقاً كندة قال:

لما رأيت ملوك كندة أعرضت   كالرجل خان الرجل عرق نسائها
قربت راحلتي أروم محمداً   أرجو فواضلها وحسن ثرائها

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال: يا فروة هل ساءك ما أصاب قومك يوم الرزم. قال: يا رسول الله من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الرزم لا يسوؤه ذلك. فقال رسول الله ﷺ أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً. قلت: ويوم الرزم يوم من أيام العرب كان بين همدان ومذحج بما فيها مراد في الجوف وكان على مذحج أجليت مراد عن مساكنها بالجوف، واحتلته همدان وأصيب أرباعها من بني الحارث بن كعب. وكان هذا اليوم في اليوم الذي وقعت فيه وقعة (بدر) الكبرى في السنة الثانية من الهجرة. ولفروة بن مسيك أشعار رقيقة يرثي بها قومه ويواسيهم. وكانت وفاته بصنعاء وقبره يزار في مسجده المعروف بمسجد فروة بظاهر صنعاء الشمالي في شعوب. راجع الإصابة لابن حجر.

(١) كندة قبيلة عتيدة يمنية كهلانية ذات بسطة وسلطان ورياسة ونجدة، نُسبت إلى كندة المسمى ثور بن مُرتع وهو عمرو بن معاوية الأكرمين بن كندي ابن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد ابن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ.

ومنهم الملوك المتوجة يقال كان فيهم سبعون ملكاً متوجاً أو لهم ثور بن مرتع وآخرهم الأشعث بن قيس. ومنهم ملوك نجد أيام ملوك حمير. منهم أمير شعراء الجاهلية وسيدهم امرؤ القيس بن حجر الكندي.

ولكندة في الفتوحات الإسلامية قدم صدق وبلاء حسن ونبغ منهم نبلاء وقادة وعلماء، ولها بطون وفروع مذكورة في الأنساب. ومساكنهم بحضرموت ولهم بقية اليوم.. راجع صفة جزيرة العرب والجزء الثاني والعاشر من الإكليل.

(٢) مراد أبو قبيلة من مذحج مشهورة بالنجدة والشجاعة وكرم الأخلاق والإباء والشمم. واسم مراد يحابر بن مذحج. ومواطنهم بادية في الشرق الشمالي من مشارق مدينة ذمار ومشارق جنوب صنعاء. وأكثرهم بدو رحل ولهم إبل كثيرة. وهم صحيحو الأجسام عمالقة وهم أفخاذ وبطون كثيرة ذكرناها في غير هذا الكتاب.

ومذحج بالذال المعجمة، زنة مسجد، واسمه مالك بن أدد بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، وسمي بذلك لأنه ولد على أكمة يقال لها مذحج فسمي بها وقيل غير ذلك. ويقال: مذحج بالدال المهملة كما في شمس العلوم. =

الكندي (١) في ثمانين راكباً من كندة.

= ومذحج أبو قبائل كثيرة منها عنس ومراد وزبيد والنخع وصدا وبالحارث بن كعب، وأود، والرها. وحكم ابن سعد العشيرة وجعفي وغيرها.

(١) اسم الأشعث: معدي كرب. وإنما سمي الأشعث لأنه كان أبداً أشعث الرأس وغلب عليه حتى نسي اسمه وأبوه قيس الأشج - سمي الأشج لأنه شج في بعض حروبهم - ابن معدي كرب بن معاوية بن جبلة بن عبد العزى بن ربيعة بن معاوية الأكرمين بن الحارث بن معاوية بن ثور وهو كندة أبو قبائل كندة المشهور المتقدم الذكر وبقية النسب معروف.

وأمه كبشة بنت يزيد بن شرحبيل بن يزيد بن امرئ القيس بن عمرو المقصور الملك الكندي من بني آكل المرار أحد ملوك نجد فهو كريم الطرفين عالي الجدين.

وهو آخر ملوك كندة وأحد اقيال عظماء اليمانية ومن السابقين الأولين إلى الإسلام وأحد الموفدين إلى كسرى وأحد شهود التحكيم بصفين.

وفد الأشعث على رسول الله ﷺ سنة عشر للهجرة في ثمانين راكباً. وكان سيداً وجيهاً وشريفاً، مطلاعاً وكريماً، سمحاً ومليكاً مطاعاً - وهو في القوم أصغرهم - فلما أرادوا الدخول عليه ﷺ سرحوا شعورهم وتكحلوا ولبسوا جبب الحبرة وقد سجفوها بالحرير فدخلوا على رسول الله ﷺ وقالوا أبيت اللعن: فقال لست ملكاً أنا محمد بن عبد الله. قالوا: لا نسميك باسمك. قال: أنا أبو القاسم إلى أن قال لهم رسول الله ﷺ: ألم تسلموا؟ قالوا بلى قال فما بال هذا الحرير؟ فعند ذلك شقوه وألقوه. ولعل ذلك أن سجفهم جاوزت حد الجائز.

وتزوج رسول الله ﷺ «قتيلة» أخت الأشعث فتوفي قبل أن تصل إليه. ولما توفي رسول الله ﷺ أراد قومه تتويجه وجعله عليهم ملكاً. ثم وقعت بينه وبين عمال أبي بكر حروب انتهت باستسلامه وذهابه إلى المدينة. وتزوج بأم فروة أخت أبي بكر وهي أم أولاده.

ولما تزوج دخل سوق الابل بالمدينة واخترط سيفه فجعل لا يرى جملاً إلا عرقبه فصاح الناس كفر الأشعث، فلما فرغ طرح السيف وقال والله ما كفرت إلا أن الرجل - يعني أبا بكر - زوجني أخته ولو كنا ببلادنا لكانت وليمة غير هذا. ثم قال لأهل المدينة انحروا وكلوا وأنا أعطي أصحاب الابل أثمانها. وفي رواية وبرة بن قيس الخزاعي: أن الأشعث لما خرج من عند أبي بكر بعد أن زوجه سل سيفه فلم يبق في السوق ذات أربع من بعير وفرس وبغل وشاة وثور إلا عقرها فقيل لأبي بكر إنه ارتد. فقال: انظروا أين هو فإذا هو في غرفة من غرف الأنصار والناس يجتمعون إليه وهو يقول هذه وليمتي ولو كنت ببلادي لأولمت مثلما يولم مثلي فليأخذ كل واحد ما وجد واغدوا غداً تجدوا الأثمان. فلم يبق من دور المدينة دار إلا دخلها اللحم. فكان ذلك اليوم قد شبه بيوم الأضحى. وفي ذلك يقول وبرة المذكور:

لقد أولم الكندي يوم ملاكه	وليمة حمال ثقيل الجرائم
لقد سل سيفاً كان مذ كان مغمداً	له الحز منها في الطلا والجماجم
فأغمده في كل بكر وسابح	وثور وبغل في الحشا والقوادم =

= فقـــل للفتى الكنـــدي إمـــا لقيتـــه ذهبـــت بـــأسنـــى مجـــد أولاد آدم

وسأله رسول الله: هل لك من الولد. فقال: لي غلام ولد عند مخرجي إليك وددت أن لي به سبعة قال إنهم مجبنة مبخلة، وإنهم لقرة العين وثمرة الفؤاد.

وفي الإصابة عن رجل من قريش قال: كنا جلوساً على باب مسجد رسول الله ﷺ إذ أقبل وفد كندة فاستشرف له الناس قال فما رأيت أحسن هيئة منهم. فلما دخل منهم متوسط يضرب شعره منكبه. فقلت من هذا؟ قالوا الأشعث بن قيس. فقلت الحمد لله يا أشعث الذي نصر دينه وأعز نبيه وأدخلك وقومك في هذا الدين كارهين. قال: فوثب إليّ عبد حبشي يقال له يحموم فأقسم ليضربني. ووثب عليه جماعة دوني ووثب جماعة الأنصار. فصاح الأشعث كف: فكف عني. ثم استزارني الأشعث فوهب لي الغلام وشيئاً من الفضة ومن غنم. فقبلت ذلك ورددت عليه الغلام. فمكثوا أياماً ينحرون ويطعمون الناس.

شهد الأشعث اليرموك بالشام، والقادسية بالعراق سنة ١٤ هـ. وحروب العراق وأبلى فيها وقومه بلاء حسناً. وكان له غناء عظيم، ويد بيضاء. وسكن الكوفة واستعمله عثمان على «أذربيجان» فأقام بها إلى أن أفضت الخلافة إلى علي فاستدعاه وأمره بالحضور عنده وأخذ البيعة ممن قبله. فلما حضر عنده كان من أكبر أعوانه وأعز أنصاره وإليه يرجع الفضل في الاستيلاء على ماء الفرات أيام صفين بعد أن كان بيد معاوية وأصحابه متغلبين عليه ومنعوا أصحاب علي من أن يشربوا منه أبداً حتى يقتلوا عن آخرهم. فإن الأشعث أظهر إقداماً منقطع النظير وشجاعة خارقة، وأيده قومه أولو النجدة والحفاظ وكان موقفاً رائعاً يحمدون عليه بحيث سجل لهم التاريخ آيات البطولة وخلود المجد. وذلك أنه لما اغتم عليّ بما هم فيه أهل العراق من العطش والجهد خرج ليلاً قبل رايات مذحج فإذا رجل ينشد شعراً منه:

أيمنعنـــا القـــوم مـــاء الفـــرات وفينـــا الرمـــاح وفينـــا الحجـــف

فحرّك ذلك علياً ثم مضى إلى رايات كندة فإذا إنسان ينشد إلى جانب الأشعث:

لئـن لم يجـلِ الأشعـث اليـوم كـربـة مـــن الموت فيهـــا للنفـــوس بقيـــةُ
فنشرب مـــن مـــاء الفـــرات بسيفـــه فهبنـا أنـاسـاً قبـل ذلـك مـوّتـوا
فـــإنـــك إن لم تجمـع اليـــوم أمـــرنـــا وتنضـــو التي فيهـــا عليـــك المذلـــة
فمـن ذا الذي يثني الخنـــاصر بـــاسمـــه ســـواك ومـــن هـــذا إليـــه التلفـــت
فهـــل مـــن بقـــاء بعـــد يـــوم وليلـــة نظـــل خفـــوتـــاً والعـــدو يصـــوّت
هلمـــوا إلى مـــاء الفـــرات ودونـــه صـــدور العـــوالي والصفيـــح المشـــدة
وأنـــت امـــرؤ مـــن عصبـــة يمنيـــة وكـل امـرئ مـن سنخـه حين ينبـت[1]

فلما سمع الأشعث قول الرجل قام فأتى علياً فقال يا أمير المؤمنين أيمنعنا القوم ماء الفرات وأنت فينا والسيوف في أيدينا خل عنا وعن القوم فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت. ومُر الأشتر فيعلو بخيله ويقف بأمره. فقال علي: ذلك اليكم. فرجع الأشعث فنادى في الناس من كان يريد الماء فميعاده موضع كذا فأنا ناهض. فأتاه اثنا عشر ألفاً من كنده وافنا قحطان واضعي سيوفهم على عواتقهم فشد عليه =

(١) السنخ بالسين المهملة والنون والخاء المعجمة الأصل.

سلاحه ونهض بهم حتى خالط القوم وجعل يلقي رمحه ويقول لأصحابه بأبي وأمي تقدموا إليهم قاب رمحي هذا فلم يزل ذلك دأبه حتى خالط القوم وحسر عن رأسه ونادى أنا الأشعث بن قيس خلوا عن الماء. ونادى الأشعث عمرو بن العاص ويحك يا ابن العاص خل بيننا وبين الماء فوالله لئن لم تفعل لتأخذنا وإياكم السيوف. فقال عمرو: والله لا أتخلى عنه حتى تأخذنا السيوف وإياكم فيعلم ربنا أينا أصبر. فترجل الأشعث وذو البصائر من أصحاب علي فترحل معهم اثنا عشر ألفاً فحملوا على عمرو حملة منكرة وأتى الأعور السلمي ومن معهما من أهل الشام فأزالوهم حتى غمست الخيل سنابكها في الماء وجاوزوه. فهذا أحد مواقفه الشريفة الكثيرة العدد.

ولما دعي أهل الشام إلى المحاكمة ورفعوا المصاحف نادى إنسان من أهل الشام في جوف الليل بشعر سمعه الناس أوله:

رؤوس العراق أجيبوا الدعاء ... فقد بلغت غاية الشدة

إلى أن يقول:

ثلاثة رهط هم أهلها ... وإن يسكتوا تخمد الوقدة

سعيد بن قيس وكبش العراق ... وذاك المسوّد من كندة

فأما المسود من كندة فهو الأشعث فإنه لم يرض السكوت بل كان من أعظم الناس قولاً في إطفاء نائرة الحرب والركون إلى الموادعة. وأما كبش العراق فهو الأشتر النخعي فلم يكن يرى إلا الحرب ولكنه سكت على مضض، وأما سعيد فهو ابن قيس الهمداني فإنه تارة كذا وتارة كذا، وترى أن كلهم سادة يمانية وأن رحى الحرب كانت تدور أيام صفين والجمل على جماجم اليمانية وسواعدهم من كلا الجانبين.

ولما أراد عليّ أن يجعل الحكم من قبله ابن عباس، قال الأشعث والله ما يحكم فينا مضريان يعني ابن عباس، وعمرو بن العاص حتى تقوم الساعة ولكن اجعل رجلاً من أهل اليمن إذا جعلوا رجلاً من مضر فقال علي إني أخاف أن يخدع يمنيكم فإن عمراً ليس من الله في شيء إذا كان له في أمر هوى. فقال الأشعث والله لأن يحكما ببعض ما نكره وأحدهما من اليمن أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مضريان فصوّب الناس على أبي موسى الأشعري حكماً من قبل علي رضوان الله عليه.

ولم يزل بحال مرضي إلى أن توفي بعد أربعين يوماً من وفاة عليّ سنة ٤٠ هـ ومناقب هذا الملك الجليل كثيرة رضي الله عنه، ولما قام عند كسرى قال: لقد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الأكثر ونقهر جمعها الأكبر وأنا غياث اللزبات، وبناة المكرمات، فقيل لم يا أخا كندة، قال لأنا ملكنا ملك كندة فاستظللنا بأفيائه، وتقلدنا منكبه الأعظم، وتوسطنا بحبوحه الأكرم. ثم قام شاعرهم فقال:

إذا قست أبيات الرجال ببيتنا ... وجدت له فضلاً على من نفاخر

فمن قال كلا أو أتانا بخطة ... ينافرنا يوماً فنحن نخاطر

تعالوا فعدوا يعلم الله أننا ... لنا الفضل فيما أورثته الأكابر

وله أولاد سادة غطارفة لهم رياسة ظاهرة ومقام ممتاز، وحفيده الأمير عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذي حارب عبد الملك بن مروان وقائده الحجاج وكاد يقضي على الحجاج واستولى على العراق وبلاد فارس والمشرق كله قدر سبع سنين ونودي بأمير المؤمنين وبايعه أعلام القراء وجهابذة =

ومن زبيد عمرو بن معدي كرب[1] في جماعة من قومه.

= علماء التابعين وسادة المصرين البصرة والكوفة وحاربوا بين يديه ومدحه أعشى همدان بغرر القصائد وإياه عنى بقوله:

يا ابن الأشج قريع كندة　　　لا أبالي فيك عتبا
أنت الرئيس ابن الرئيس　　　وأنت أعلى الناس كعبا

ولما شخص الأمير عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث من فارس لمناجزة الحجاج كان الأعشى يرتجز أمام موكبه بقصيدة منها:

لما سمونا للكفور الفتان　　　بالسيد الغطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالدبى من قحطان　　　ومن معد قد أتى ابن عدنان
أمكن ربي من ثقيف همدان　　　يوماً إلى الليل يسلي ما كان
إن ثقيفاً منهم الكذابان　　　كذابها الماضي وكذاب ثان

وإليه أشار ابن دريد الأزدي المتوفي سنة ٣٢١ هـ في مقصورته:

وابن الأشج القيل ساق نفسه　　　إلى الردى حذار إشمات العدى

ومن أحفاده أكبر فلاسفة الإسلام وأشهرهم وأسبقهم، أبو يوسف يعقوب ابن إسحاق بن الصباح ابن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث. المسمى فيلسوف العرب. وكان معاصراً للمأمون والمعتصم إلى أيام المتوكل. وكان له عندهم منزلة سامية، فاضل دهره، وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها، وبلغت مؤلفاته مائتين وثلاثين كتاباً. وأكثر هذه الكتب قد ضاعت.. كذا في فهرست ابن النديم.

(١) هو عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبد الله بن عمرو بن عصم بن زبيد الأصغر بن ربيعة ابن سلمة بن مازن بن ربيعة بن زبيد الأكبر بن مازن بن ربيعة بن منبه بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج الفارس المغوار والبطل المعلم فارس العرب وصاحب المغازي والغارات والوقائع والأيام، والشاعر الفحل. وكان إذا اشتهر أحد في القبيلة قيل له فارس بني فلان. فلما نبغ عمرو بن معدي كرب قيل له «فارس العرب عامة وفارس اليمن خاصة» الكامل للمبرد.

قال أبو عبيدة: عمرو بن معدي كرب فارس اليمن وهو مقدم على زيد الخيل الطائي. وقال عبد الله بن العباس لبعض اليمانية: لكم من السماء نجمها، ومن الكعبة ركنها، ومن السيوف صمصامها ويعني سهيلاً من النجوم. والركن اليماني. وصمصامه عمرو بن معدي كرب. (الكامل للمبرد).

ويروى أن عمر بن الخطاب قال يوماً: من أجود العرب؟ فقيل له حاتم، قال: فمن شاعرها؟ قيل امرؤ القيس بن حجر الكندي، قال فمن: فارسها؟ قيل عمرو بن معدي كرب، قال: فأي السيوف أمضى؟ قيل سيف عمرو بن معدي كرب، فقال عمر ذهبت اليمن بالفخر. (الكامل للمبرد).

وفد عمرو على رسول الله ﷺ مع بني زبيد قومه في السنة العاشرة من الهجرة فأسلم وبايع لقومه على الإسلام.

وقال أيضاً:

وكانت قريش تحمل البرَّ تارة　　　تجاراً فأضحت تحمل السم منقعا =

ثم ارتدا[1] بعد موته ﷺ ثم أسلما في أيام أبي بكر وشهدا المشاهد في أيامه وهاجر إليه أيضاً

= فشكاه إلى عمر فطلبه إليه فجرى له مع عمر بن الخطاب حديث طويل. (من رسالة الحور العين لنشوان).

وروى أن سعد بن أبي وقاص كتب إلى عمر بن الخطاب يثني على عمرو بن معدي كرب، فسأله عمر عن سعد فقال هو لنا كالأب، أعرابي في نمرته، أسد في تامورته، يقسم بالسوية، ويعدل في القضية ويبعد في السرية، ويعطف علينا عطف الأم البرّة، وينقل إلينا حقنا كما تنقل الذرة. فقال عمر لشد ما تقارضتما الثناء.

وروي أن عمر بن الخطاب سأله عن الحرب. قال: مرّة المذاق، إذا كشفت عن ساق. فمن صبر عرف، ومن ضعف تلف. ولقد أحسن واصفها وأجاد. قلت: هو أمير الشعراء امرؤ القيس الكندي.

الحرب أول ما تكون فتية ... تبدو بزينتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشبّ ضرامها ... عادت عجوزاً غير ذات خليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت ... مكروهة للشم والتقبيل

ثم سأله عن الرمح؟ فقال: خليلك وربما خانك. قال فالنبل؟ قال: منايا تخطئ وتصيب قال فالترس؟ قال: عليها تدور الدوائر. قال فالسيف؟ قال: عبدك ثكلتك أمك فقال عمر بل أمك. قال الحمى أضرعتني فأغلظ له عمر القول. فقال هذه الأبيات:

أتوعدني كأنك ذو رعين ... بأفضل عيشة أو ذو نواس
وكائن كان قبلك من نعيم ... وملك ثابت في الناس راسي
قديم عهده من عهد عاد ... عظيم قاهر الجبروت قاسي
فأمسى أهله بادوا وأمسى ... يحوّل من أناس في أناس

فقال عمر صدقت فاقتص مني. فقال: يا أمير المؤمنين لولا آية من القرآن سمعتها منك لجللتك بالسيف أخذ منك أم ترك. قال: ما هي؟ قال: سمعتك تقرأ ﴿إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيي﴾ والله إني إذا دخلتها مت لفعلت.

وقد اختلفوا في الزمن الذي مات فيه وأقربها إلى الصحة أنه مات في أيام عثمان، ودفن «بروذة» من أرض فارس. وقد رثته زوجته الخثعمية بقولها:

لقد غادر الركب الذين تحملوا ... بروذة شخصاً لا ضعيفاً ولا غمرا
فقل لزبيد بل لمذحج كلها ... فقدتم أبا ثور سنانكم عمرا
فإن تجزعوا لا يغن ذلك عنكم ... ولكن سلوا الرحمن يعقبكم صبرا

وكانت قد بلغ عمره مائة سنة وله عقب مترجم لأعلامهم في مظانه. وله ديوان شعر وكانت داره بتثليث أقصى شمال اليمن.

(١) في بعض النسخ ارتدت بإلحاق تاء التأنيث، وكذلك في أسلم وفي بعضها بإلحاق علامة التثنية في الفعلين. ارتدا وأسلما كما أثبتناه وكذلك «شهدا» والمراد بهما عمرو بن معدي كرب والأشعث بن قيس والمراد بالمشاهد حروب العراق والشام.

والردة التي نسبت إلى بعض قبائل اليمن ليست نكوصاً عن الإسلام أو رجوعاً إلى الجاهلية وإلى =

الأبيض بن حمال وهوجد بني الكرندي[1] ملوك المعافر[2] وهاجر الأشعريون[3]

عرجونهم القديم.. بل كانوا ثابتين على إسلامهم. وإنما هي ثورة على الأوضاع ولأسباب ولدتها الظروف وكما يحدث عادة بعد حادث عظيم.

وهذا البهاء الجندي من الذين ينفون وقوع الردة باليمن بتاتاً.

(١) حمال بالحاء المهملة والميم المشددة آخره لام سمي بذلك لأنه كان يحمل الديات والمغارم عن قومه ومن لاذ بعقوته - ابن مرثد بن ذي لحيان بضم اللام ابن عوف بن عدي بن سالك المأربي السبئي.

وبنو الكرندي ملوك وأقيال من سبأ الصغرى متأثلون بالملك والسلطان لعبوا دوراً هاماً من قبل ظهور الإسلام إلى القرن السادس الهجري. حيث أخمد جذوة مجدهم، ونزع درة تاج فخرهم - توران شاة الأيوبي - ثم صار منهم علماء وفقهاء وسيرد ذكرهم عبير ذكرهم في غضون هذا التاريخ.

(٢) المعافر بالفتح هو ما يسمى اليوم «بالحجرية» وهي تسمية طارئة نسبة إلى المعافر بن يعفر بن السكسك بن وائل بن سبأ. قيل سمي بذلك لبيت قاله:

إذا أنت عافرت الأمور بقدرة ... بلغت معالي الأقدمين المقاول

ومقتضى هذا أنه بضم الميم.

(٣) الأشعريون ويقال لبلادهم الأشاعر، قبيلة يمنية مشهورة بالنجدة والشجاعة وكرم الأخلاق ولين الطباع ورقة الأفئدة. وفيهم قال رسول الله ﷺ جاءكم أهل اليمن الخ. نسبت إلى أبيها الأشعر بن أدد بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ. ومساكنها في الوطاء من أرض تهامة آخذة شرفاً من أسافل نخلة وخيف «ذي الكلاع» العدين وما صاقبها من بلد الركب المجاور لوصاب السافل من حزاز الجبال المنعطفة من الشرق إلى الشمال إلى ما يصالي وادي سهام وإلى سيف البحر غرباً وإلى جبال شمير مقبنه جنوباً وإلى قرب بيت الفقيه شمالاً.

وفيها جبل راس ودباس ذو العسل المشهور. وفيها الواديان العظيمان وادي زبيد ووادي رمع والثالث وادي نخلة.

ومن مدنهم: زبيد، وحيس، وأما قراه فشيء لا يدخل تحت الحصر. وهم بطون كثيرة منها ما يسمى الأشاعر ومنها الركب، ومنها الجاهر والمعازبة والقرشية وغير ذلك مما ليس هذا موضعه وهم أهل شوكة وناب.

وقبيلة الأشاعر في مقدمة القبائل اليمنية التي لبت الدعوة الإسلامية، وأول السابقين إلى الإسلام الذي دخل إلى بيوتهم بلا استئذان فقد وفد أولئك النفر الكرام على رسول الله ﷺ على أصح الأقوال في السنة السابعة من الهجرة. وصادفت سفينتهم جعفر بن أبي طالب ومن معه من المهاجرين رضي الله عنهم عائدين من الحبشة وقدموا إلى رسول الله ﷺ وهو بخيبر بعد فتحها فأسهم لهم من غنائمها. وقال لهم من أين جئتم؟ قالوا من زبيد. قال بارك الله في زبيد. فرجع منهم من رجع حاملين معهم تعاليم الإسلام فانتشر في تلك الربوع واخضل عوده. وإنما كانوا سابقين إلى هذه النعمة لأنهم كانوا كثيراً ما يحجون حتى عرف لهم مكان باسمهم بمكة. قال أبو طالب من قصيدته المشهورة.

وحيث ينيخ الأشعريون ركبهم ... بمفضى السيول من أساف ونائل

من اليمن من وادي زبيد ورمع. منهم أبو موسى الأشعري [١] وأخواه أبو بردة وأبو رهم واثنان وخمسون رجلاً من قومهم.

= وفي النفر الكرام الأشعريين نزل قوله تعالى ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع﴾ ولهم في الفتوحات أثر جميل ونسب إليهم كثير من الأعلام والوزراء والحكام منهم الوزير الخطير أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأشعري وزير المهدي العباسي وحفيده محمد بن عبد الوهاب الأشعري أحد أئمة المعتزلة.

(١) اسمه عبد الله بن قيس بن ثابت بن سليم بن حضار بن حرب بن عثر بن عامر بن غنم بن عمرو ابن بكر بن عامر بن عدي بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر الأشعري المشهور بأبي موسى.

وأمه طيبة بنت وهب من عك، أسلمت وماتت بالمدينة.

هو أحد الصحابة الأولين السابقين فهو ثاني بيت أسلم من اليمانية بعد عمار بن ياسر العنسي وأسرته. وأحد العشرة الذين اشتهروا بالتفسير من الصحابة، وهم الخلفاء الأربعة وأبو موسى وزيد بن ثابت الأنصاري، وأبيّ بن كعب وابن مسعود وابن عباس وابن الزبير.. وأحد قضاة الأمة الأربعة وهم علي وعمر وأبو موسى وزيد بن ثابت وإليه كتب عمر ذلك الكتاب الذي هو بمثابة دستور للأقضية، وأحد الذين انتهى إليهم العلم، وأحد الحكمين في قضية حروب علي مع معاوية. وهو الذي أشار على عمر بن الخطاب بوضع تواريخ للإسلام.

وفي سنة عشر وقيل سنة تسع بعثه رسول الله ﷺ والياً على زبيد وعدن من اليمن وسواحلها ورجع أبو موسى من اليمن في حجة الوداع سنة عشر فوافى رسول الله ﷺ بمكة. وقال له بما أهللت؟ قال كاهلال رسول الله ﷺ. قال هل معك هدى؟ قال لا. قال: طف بالبيت والصفا والمروة وأحل. ثم رجع إلى عمله في اليمن إلى أن توفي أبو بكر وصدر من خلافة عمر. وفي الإصابة أنه لما مات النبي ﷺ قدم المدينة وشهد فتوح الشام ووفاة أبي عبيدة بن الجراح.

ثم ولاه عمر البصرة بعد المغيرة بن شعبة سنة عشرين ولم يزل على البصرة إلى أن صدر أمر خلافة عثمان فعزله فانتقل إلى الكوفة وأقام بها. ثم أقره عثمان على الكوفة لانتخاب الناس له إلى أن قتل عثمان. وفي مدة ولايته للمصرين افتتح الأهواز والري وأصبهان وغيرها. وعمر كثيراً من البلاد وحفر أنهاراً واستنبط آباراً في العراق وعلى طريق الحاج إلى مكة.

ثم عزله علي بن أبي طالب عن الكوفة وقيل إنه أقره على عمله حين اتهمه بأنه يثبط الناس عن الدخول في الحرب وذلك أن أهل الكوفة فزعوا إلى أبي موسى يستشيرونه فقالوا ما ترى في الخروج. قال الرأي أمس لا اليوم إن الذي تهاونتم فيما مضى هو الذي جر عليكم ما ترون، إنما هو أمران القعود سبيل الآخرة، والخروج سبيل الدنيا فاختاروا فلم ينفر.

وقال: إن الذين صحبوه أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه، وإن لكم علينا لحقاً وأنا مؤد إليكم نصيحة، كان الرأي أن لا تستخفوا بسلطان الله، وأن لا تجترئوا على الله، وأن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا إليها فهم أعلم بمن تصلح له الإمامة وهذه فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان خير من القاعد والقاعد خير من الراكب والراكب خير من الساعي فكونوا =

ولما فشى الإسلام باليمن بعث عليه الصلاة والسلام عماله إليه. وهم علي بن أبي طالب عليه السلام، ومعاذ، وأبو موسى، وخالد بن الوليد، وزياد بن لبيد، وخالد بن سعيد بن العاص، والطاهر بن أبي هاله، ويعلي بن أمية، وعمرو بن حزم، وعكاشة بن ثور [١]، علي بني معاوية من كندة[٢]، وجرير بن عبد الله [٣]

= جرثومة من جرائم العرب فاغمدوا السيوف وانصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وينجلي. فعزله علي وأمنه في خبر طويل. واعتزل حروب الجمل وصفين. واختير حكماً من قبل علي فكان ما كان.

وكان حسن الصوت بالقرآن، ففي الصحيح المرفوع «لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود» وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صنجاً ولا بربطاً ولا ناياً أحسن من صوت أبي موسى بالقرآن. وكان عمر إذا رآه قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى. وفي رواية شوقنا إلى ربنا. فيقرأ عنده. وكان أبو موسى هو الذي فقّه أهل البصرة وأقرأهم. وكان يقال لمصحفه لباب القرآن.

وكتب عمر في وصيته لا يقر لي عامل أكثر من سنة. وأقروا الأشعري أربع سنين. وسئل علي رضي الله عنه عن موضع أبي موسى في العلم، فقال: صبغ في العلم صبغة.

وأنجب أولاداً وأحفاداً زعماء، لهم مقامات كبيرة في العلم والرياسة. ولا يعرف بيت تولى منهم القضاء في نسق واحد سوى هذا البيت. فولده أبو بردة تولى القضاء بعد أبيه. وأبو بكر بن أبي موسى تولى القضاء أيضاً. وبلال بن أبي بردة تولى القضاء بعد أبيه.

ومن أحفاد أبي موسى الإمام الأعظم صاحب المذهب المشهور بمذهب الأشرعية الذي طبق الأرض ولا زال هو الظاهر في الأقطار الإسلامية إلى هذه الغاية. واسمه علي بن إسماعيل بن سالم بن إسماعيل ابن عبد الله بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري المولود بالبصرة سنة ٢٦٠ والمتوفى سنة ٣٢٤هـ يقال إن مصنفاته نافت على مائة وكان أبو الحسن الأشعري يأكل من غلة ضيعة وقفها جده بلال على عقبه. وعلى الجملة فبيت أبي موسى من البيوت التي أسست على التقوى. ولا زال التاريخ يحدثنا عنهم إلى ما بعد القرن الخامس فيما وقفت عليه.

مات أبو موسى بمكة ودفن بها، وقيل بالكوفة سنة ٥٠ هـ وقيل بعدها عن نيف وستين سنة.

(١) لم أجد له ترجمة وافية ضافية إلا أنه عكاشة بن ثور بن أصغر العرني كان عامل النبي ﷺ على السكاسك والسكون.

(٢) في الأصل ومعاوية بن كندة. والتصحيح من المراجع وفي الأصل من ص ٨٥.

(٣) هو جرير بن عبد الله بن جابر بن السليل بن مالك بن نصر بن ثعلبة بن جشم بن عوف بن جذيمة بن حرب بن عدي بن مالك بن سعد بن نذير بن قسر. وهو مالك بن بجيلة بن أراش بن عمرو ابن الغوث بن النبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ البجلي الصحابي المشهور صاحب حديث المسح على الخفين. ويوسف هذه الأمة كما قال عمر بن الخطاب لحسنه وجماله.

وفد جرير بن عبد الله على رسول الله ﷺ سنة عشر ومعه من قومه خمسون رجلاً وصادف وصوله =

= وعند رسول الله ﷺ جماعة من أصحابه أكثرهم من اليمن. فقال لهم: سيطلع عليكم من هذا الفج «خير يمن على وجهه مسحة ملك» فبقي القوم كل رجل منهم يرجو أن يكون من أهل بيته، فإذا هو بجرير بن عبد الله قد طلع من الثنية فجاء حتى سلم على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه. وقال له: على هذا فاقعد. فقال أصحابه: لقد رأينا منك منظراً ما رأينا منك لأحد. قال: نعم هذا كريم قوم، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه فأسلموا وبايعوا. قال جرير بايعني رسول الله ﷺ وقال وعلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتنصح للمسلمين وتطيع الوالي وإن كان عبداً حبشياً فقلت نعم فبايعته. وكان رسول الله ﷺ يسأله عما وراءه؟ فقال: يا رسول الله أظهر الله الإسلام والاذان، وهدمت القبائل أصنامها قال: ما فعل «ذو الخلصة» صنم لخثعم ودوس وقبائل تباله. قال: على حاله. فقال: ألا تريحني من ذي الخلصة؟. فبعثه رسول الله ﷺ إلى هدم ذي الخلصة، وعقد له لواء. فقال: إني لا أثبت على الخيل فمسح رسول الله على صدره، وقال: اللهم اجعله هادياً. فخرج في قومه ومن «أحمس» قبيلة من بجيلة وهم زهاء مائتين. فما أطال الغيبة حتى رجع وقال هدمته؟ قال نعم والذي بعثك بالحق، وأحرقته بالنار فتركته يسوء أهله. فدعا لبجيلة.

وبعثه رسول الله ﷺ إلى القيل ذي الكلاع بن باكور بن مالك بن حسان بن تبع الحميري وأسلم وأسلمت امرأته صريمة بنت أبرهة بن الصباح الحميري. وفي هذه الرواية خلاف والذي في البخاري إنما كان جرير باليمن فاتفق بذي الكلاع والقيل ذي عمرو. وأخبرهما بأمر رسول الله ﷺ. فقال ذو عمرو لئن كان الذي تذكر من أمر صاحبك لقد مر على أجله ثلاث وأقبلا معاً حتى إذا كان في بعض الطريق رفع لنا ركب. فقالوا: قبض رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر، والناس صالحون. وقالا أخبر صاحبك أنا قد جئنا ولعلنا سنعود إن شاء الله. ورجعا إلى اليمن. فأخبر أبا بكر بحديثهم. قال أفلا جئت بهم - إلى آخر القصة.

وولاه أبو بكر على «نجران» فكان بها إلى أن توفي أبو بكر. فاستنفره عمر بن الخطاب مع قومه لحرب فارس. فتفرقت بجيلة ونزل منها في العراق وعلى رأسها جرير بن عبد الله فشهد مشاهد الفتح. وكان له ولقومه أيام صالحات، ومقامات محمودة. وذهبت إحدى عينيه يوم «نهاوند» ولما تولى عثمان ولى جريراً «همذان» (بالذال المعجمة). وأقام بها إلى أن توفي عثمان ثم أقره عليٌّ على عمالته.

ولما قدم عليٌّ الكوفة بعد وقعة الجمل كتب إلى جرير يستدعيه ويخبره عن أسباب مسيره من المدينة إلى الكوفة وتلك الأحداث وبعثه مع زحر بن قيس الجعفي.. فلما قرأه جرير قام في قومه وأهل ثغره خطيباً، ثم قال من قصيدة أولها:

أتانا كتاب عليّ فلم ... نرد الكتاب بأرض العجم

فسر الناس بخطبة جرير. وقال ابن الأزور القسري يمدح جريراً من قصيدة له:

لعمر أبيك والأنباء تنمي ... لقد جلّى بخطبته جرير

وقال مقالة جدعت رجالاً ... من الحيين خطبهم كبير

إلى أن قال:

وأحرزن الثواب ورب حاد ... حدا بالركب ليس له بعير

وكتب جرير إلى سيد كندة، وهو الأشعث بن قيس المقدم الذكر يحضه على طاعة أمير المؤمنين =

وعامر بن شهر [١]، وشهر بن باذام [٢] فوصل علي رضي الله عنه إلى صنعاء ثم عاد بالهدايا فوافى النبي ﷺ الوداع في حجه.

= وقبول كتابه. وأقبل جرير سائراً من ثغره «همذان» حتى ورد على عليّ في الكوفة ودخل فيما دخل فيه الناس في طاعته ولزوم أمره. ولما أراد علي أن يبعث إلى معاوية رسولاً، قال جرير ابعثني يا أمير المؤمنين إليه فإنه لم يزل لي مستمحضاً وداً آتيه فادعوه على أن يسلم لك هذا الأمر ويجامعك على الحق على أن يكون أميراً من أمرائك، وعاملاً من عمالك. واتبع ما في كتاب الله وأدعو أهل الشام إلى طاعتك وولايتك فجلهم قومي وأهل بلادي وقد رجوت الله أن لا يعصوني وقال والله يا أمير المؤمنين ما أدخرك من نصرتي شيئاً فعارض في ذلك الأشتر فلم يجب إلى ذلك. فذهب جرير إلى معاوية وبذل قصارى مجهوده في إقناع معاوية وصرفه عن وجهة نظره والرجوع إلى الجماعة فلم تلن قناة معاوية بل ظل متمسكاً برأيه كما هو معروف في التواريخ، وذهبت محاولة جرير عن صدق نية وكرم طوية، ولم يدخر نصحاً فذهبت أدراج الرياح، واتهمته الشيعة بممالأته معاوية عليهم ومفارقته جنة أمير المؤمنين فلما رجع إلى علي كثر قول الناس بتهمة جرير في أمر معاوية. فاجتمع جرير والأشتر عند علي وتهاترا في القول مما أغضب جريراً فلحق «بقرقيسا» ولحق قومه من قسر ولم يشهد «صفين» من قسر غير تسعة عشر رجلاً، ثم أقام بالجزيرة ونواحيها حتى توفي بالشراة من أرض الأردن سنة أربع وخمسين من الهجرة.

وكان جرير بديع الجمال، مليح الصورة إلى الغاية مفرطاً في الطول تصل قامته إلى سنام البعير وكان نعله ذراعاً. وكان عمر بن الخطاب يأمره بالتلثم خوف الافتتان به وكان يسميه يوسف هذه الأمة.

وكان جرير أحد من بذ الناس طولاً في عصره، وهم تسعة: قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري سيد الخزرج، والأشعث بن قيس سيد كندة، وجرير بن عبد الله البجلي سيد بجيلة، وعدي بن حاتم الطائي سيد طيّ وأبو زبيد الطائي وزيد الخير بن مهلهل الطائي، وهؤلاء يمانية. والعباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وولده عبد الله بن العباس، وابن جدل الطعان الكناني.

قال بعض الشعراء يمدح جريراً:

لولا جرير هلكت بجيله نعم الفتى وبئست القبيلة

ومن فتوحاته «حلوان» من العراق وبها خلفه وهم فضلاء مقاديم، ورؤساء لهاميم ولهم ذكر في التاريخ.

(١) هو عامر بن شهر الهمداني الناعطي. وكنيته أبو شهر ويقال أبو الكنود سيد همدان في عصره قدم على رسول الله ﷺ فأجلسه عنده. ولما رجع كان مروره بالنجاشي. وكان عنده موضع تقدير وتبجيل.

وله في رحلته هذه خبر طويل. وكان عامل النبي ﷺ على همدان وهو أول من اعترض على الأسود العنسي.

(٢) ابن باذام بن ساسان بن بهرام جور: وباذام أول أمير على اليمن في الإسلام وأول من أسلم من ملوك العجم من الأبناء وكانت إمْرَتُه بأمر رسول الله ﷺ.

وهو من أبناء فارس الذين قدموا مع الملك سيف بن ذي يزن. فلما مات تولى ابنه شهر، هذا على =

وقيل إن علياً رضي الله عنه دخل عدن أبين وخطب على منبرها خطبة بليغة(١). وأما معاذ وأبو موسى فقيل بعثا معاً أميرين، وقيل بعث أبو موسى أولاً ثم معاذ. وسار معاذ حتى قدم صنعاء ثم توجه نحو الجند. وأوصل كتابه عليه الصلاة والسلام إلى بني الأسود(٢) وكانوا قد أسلموا ثم إنهم اجتمعوا في أول جمعة من رجب ووعظهم معاذ. فمن ذلك اليوم ألف الناس إتيان مسجد الجند في أول جمعة من رجب يأتونه ويصلون فيه الصلاة(٣)

= صنعاء وأعمالها. وهو الذي قتله العنسي في خبر طويل، وباذام بالذال المعجمة بعد الموحدة والألف آخره ميم كما هنا. وبالإصابة بالدال المهملة وآخره نون قال ويقال ميم، وبالذال المعجمة آخره نون.

(١) رواية دخول أمير المؤمنين عليّ إلى صنعاء ثم إلى عدن أثبتها الجندي وغيره، من مؤرخي اليمن الذين منهم الديبع والذي في تاريخ الطبري، والسيرة النبوية لابن هشام إنما وصل إلى «نجران». وكان رجوعه من نجران في حجة الوداع وكان معه هدية. وأهلّ بما أهل رسول الله ﷺ كما سيأتي في ترجمته. وفي رواية الجندي أنه إنما دخل إلى عدن لاعه.. والموضوع يحتاج إلى تمحيص ودقة بحث. وقد حققنا الموضوع في تاريخنا. ونجران من اليمن راجع تاريخنا.

(٢) بنو الأسود كانوا مقاول الجند وساداتها آنئذ وكانوا مساميح وصّالين للكرم وعليهم نزل معاذ فأكرموا وفادته وأنزلوه منازل العز والكرامة واحتفوا به احتفاء عظيماً واستعان بهم على بناء مسجد الجند الأثري ولم أقف على كتاب النبي ﷺ إلى بني الأسود فيما تحت أيدينا من المراجع وهذا مما غاب وغفل على العالم الرحالة محمد حميد الله حيدر أباد في كتابه الوثائق السياسية. انظر كتابنا الوثائق السياسية.

(٣) يزعم أهل اليمن أن الإسلام بسط ظله الظليل على الخضراء في أول جمعة من رجب ولهذه النعمة العظماء وتقديراً لذلك اليوم العظيم التاريخي اتخذوه يوم عيد وأفراح وتناقلوه خلفاً عن سلف مما يدل على أن لذلك أصلاً، فاليمن الأعلى يصبغون ذلك اليوم بصبغة العيد فيتبادلون فيه الزيارة وعبارات الهناء والود والإخاء ويصلون فيه أرحامهم ويعطلون فيه أعمالهم ويكثر فيه الذبائح والصدقة ويلبسون فاخر الثياب.. واليمن الأسفل يلونونه بلون آخر فيتقاطر أهله من كل صوب إلى مسجد الجند زرافات ووحداناً معهم الأزواد والنعم وكل ما يحتاجون، وذلك قبل حلول الأجل فما تأتي جمعة أول رجب إلا وهم عدد كثير وآلاف مؤلفة تغص بهم المدينة أيام ازدهارها فيقيمون في المسجد المذكور الصلوات ويتحنثون ويذكرون الله كثيراً وتعقد فيه حلق الذكر لا سيما المتصوفة وأهل الخرق كما تقام في المدينة الأسواق أعظم ما تكون وتنحر الجزر وغيرها وتكثر فيه الصدقة والإحسان.

وقد ذكر مسجد الجند «لسان اليمن» فقال ومسجده من المساجد الشريفة. كان اختطه معاذ بن جبل ولا يزال به مجاوره وبه زوار... وقال عمارة: رأيت الناس يحجون إلى مسجد الجند كما يحجون إلى البيت الحرام ويقول أحدهما لصاحبه إذا كان عليه دين أصبر لنقضي الحج يريدون به حج مسجد الجند.. قلت وأنا عرفت قبل نيف وعشرين سنة ينتابه الناس للزيارة ويستعدون لذلك اليوم عدته من قبل أيام ويزورونه من كل صقع وفي الأيام الأخيرة قلّ شأن الزيارة لانصراف الناس إلى ضرورة الكسب وطلب المعاش.

وأما خالد بن الوليد [1] فبعث إلى بني الحارث بن كعب [2]

---

(١) هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبيد الله بن عمرو بن مخزوم المخزومي القرشي. بطل الفتوحات وأيام الردة. كان في الجاهلية أحد الأشراف، وكان قائد الخيل لقريش التي شهد مشاهدها ضد المسلمين إلى صلح الحديبية سنة ٦ هـ. ثم أسلم فجعله رسول الله ﷺ قائد الخيل. وكان موفق الراية، ميمون النقيبة، شديد المراس للحرب، متفوقاً في الكر والفر. لم يعرف أنه فشلت له خطة من خططه الحربية الممتازة. ولما فتح رسول الله ﷺ مكة دخل خالد من أسفلها فوضع السيف فيمن أراد مقاومته فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فكره ذلك. ثم أرسله إلى بني جذيمة من كنانة. فلما رأوه أخذوا السلاح. فقال خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا. فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد فكتفوا ثم عرضهم على السيف، فقتل من قتل. فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ رفع يده إلى السماء ثم قال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ثلاثاً.. ثم بعث علياً وأمره أن يدي لهم الدماء وما أصيب لهم من المال، فأدى ذلك حتى ودى لهم ميلغة الكلب. وفيه قال رسول الله ﷺ خالد سيف من سيوف الله. وقصته مع مالك بن نويرة معروفة، توفي بحمص حتف أنفه سنة واحد وعشرين من الهجرة عن بضع وأربعين سنة. وقال وهو يجود بالنفس الأخير: تعرضت للموت في نيف وسبعين وقعة، وما مني قيد شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح وها أنا أموت حتف أنفي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء.

(٢) بنو الحارث، ويقال بلحارث - دوحة باسقة الظلال أصلها ثابت وفرعها في السماء وعمارة من القبائل اليمنية الكبرى المتأثلة بالمجد والسؤدد وإحدى جمرات العرب الثلاث وفصحاؤها الذين تضرب بفصاحة منطقهم الأمثال. كما أنهم ضخام الأجسام، كبار الهام، وهم سنام مذحج وغاربها وأشرافها وفرسانها.

نسبت إلى الحارث بن كعب بن علة بن جلد بن مالك وهو مذحج. وبقية النسب معروف مما تقدم، ومن أشرافهم بنو عبد المدان، وهم غيوث ندى، وليوث وغى. قال شاعر الإسلام حسان بن ثابت الأنصاري:

وقد كنا نقول إذا رأينا ... لذي جسم يُعد وذي بيان

كأنك أيها المعطى بياناً ... وجسماً من بني عبد المدان

وبلحارث أول من وفد على رسول الله ﷺ في السنة العاشرة من بعثته ﷺ وقبل الهجرة بثلاث سنوات. ولما سمعوا القرآن آمنوا به وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب مِنْ قَبْلِهِ وهم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا مِنْ قَبْلِهِ مسلمين﴾ (٥٣) من سورة القصص. وكانوا على دين المسيح بن مريم.

بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في السنة العاشرة من الهجرة، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثاً قبل أن يقاتلهم فإن أجابوا فاقبل منهم وأقم فيهم وعلمهم كتاب الله وسنة نبيه فدعاهم إلى الاسلام فأجابوه وأسلموا. وكتب بإسلامهم إلى رسول الله وأمره أن يقبل معه وفدهم.. فوفد مع خالد قيس بن الحصين ذو الغصة، ويزيد بن عبد المدان، ويزيد بن المحجل، وعبد الله بن قراد، وشداد بن القناني، وعمرو بن عبد الله الضبابي.

بنجران [١] فدعاهم إلى الإسلام، فأسلموا بغير قتال. وعن محمد بن إسحاق [٢] قال قدم على رسول الله ﷺ كتاب ملوك حمير مقدمه من تبوك [٣] بإسلامهم ومفارقتهم الشرك. فقبله وهم: الحارث ونعيم ابنا عبد كلال، والنعمان قيل ذي رعين [٤] ومعافر وهمدان [٥]

= فلما قدموا على رسول الله ﷺ ورآهم قال: من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟ قيل يا رسول الله هؤلاء رجال بني الحارث. فلما وقفوا على رسول الله ﷺ قالوا نشهد أنك رسول الله وأنه لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ وأنا أشهد أن لا إله إلا الله. ثم سألهم ما الذي تغلبون به الناس وتقهرونهم؟ قالوا: لم نَقِل فنذل، ولم نكثر فنتحاسد ونتخاذل، ونجتمع فلا نتفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم، ونصبر عند البأس.. وأقاموا مدة يتعلمون فرائض الدين ثم استأذنوه ﷺ في الرجوع إلى بلادهم فأذن لهم وأمر عليهم قيس بن الحصين وكتب له كتاباً وبعث إليهم بعد رجوعهم عمرو بن حزم الأنصاري يفقههم في الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام. وكتب له كتاباً جم فأوعى من أحكام الإسلام وهو مشهور معروف. انظر الوثائق السياسية اليمنية.

(١) نجران مخلاف مشهور من غرر مخاليف اليمن الشمالية وأوديتها الخصبة كريم التربة، نقي الهواء. راجع صفة جزيرة العرب وتاريخنا.

(٢) هو أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار بن جبار المطلبي بالولاء المدني صاحب المغازي والسير وكان ثبتاً في الحديث، بحراً في المغازي والناس عيال على ابن إسحاق. قال شعبة بن الحجاج: محمد بن إسحاق أمير المؤمنين في الحديث.

مات ببغداد سنة إحدى وخمسين ومائة هـ.

(٣) تبوك تقع في مشارف الشام بينها وبين المدينة نحو أربع عشرة مرحلة وبينها وبين «عمان» عاصمة الأردن يوم. وهي اليوم من ممتلكات الملك فيصل آل سعود وبها مركز لإدارة تلك الناحية وقبائلها من جهينة ثم من قضاعة.

وكانت هذه الغزوة آخر غزوات النبي ﷺ. وأقام فيها عشرين ليلة، وكانت في السنة التاسعة من الهجرة وكان الوقت شديد الجدب مع عسر المعيشة فسمي الجيش جيش العسرة.

(٤) القيل في عرف أسلافنا ما دون الملك في الرياسة، وجمعه أقيال ومقاول وقيول وقول وغير ذلك. والأقيال كثيرون.

وذو رعين علم مركب من مضاف ومضاف إليه، وذو بمعنى صاحب وقد يطلق على ما دون القيل في المرتبة ولا تزال بطون اليمن تحتفظ بهذا اللقب وتعتز به. ويطلق اليوم على قبائل وبطون وقرى وجرب وحصون، وجمعه أذواء. وهذا اللقب مما امتازت به القبائل اليمنية. والذي تسمى بذي رعين ثلاثة أقيال فخام، ذو رعين الأكبر وبه سمي مخلاف ذي رعين، والأوسط، والأصغر، والثلاثة في سلسلة نسب. وهذا النعمان لعله ذو رعين الأصغر. وقد نسب إلى ذي رعين من العلماء والأدباء عالم منهم صاحب الشاطبية القاسم بن فيرة الرعيني، راجع ترجمة المذكورين، الإكليل ج ٢ ص ٣٦٤.

(٥) همدان مخلاف مترامي الأطراف، راجع صفة جزيرة العرب والجزء العاشر من الإكليل.

وصل بـه ذو يـزن بـن مـرارة الرهـاوي [١] وروى سيـف عـن عبـادة الليثـي أنـه عليـه الصلاة والسلام أفرد كل رجل بخبر فصرف عمالة حضرموت [٢] بين ثلاثة .. وعلى نجران : عمرو بن حزم [٣] . وعلى ما بين نجران ، ورمع ، وزبيد ، خالد بن سعيد بن العاص [٤] وعلى همدان عامر بـن شهـر وعلى صنعـاء شهـر بـن بـاذام [٥] وعلى عـك [٦] والأشعـريين ،

(١) اسمه مالك وفي الأصل مرة ، والتصحيح من المراجع ، والرهاوي نسبة إلى « رَها » بفتح الراء ، أبو قبيلة وهو رهاء بن منبه بن حرب بن علة بن جلد بن مذحج . وأما الرها بضم الراء فمدينة في الجزيرة قرب الموصل . وهي التي تسمى اليوم « أرفة » .

ولمالك بن مرارة صحبة ، ولما انصرف إلى قومه كتب معه رسول الله ﷺ ما نصه : فإن مالكاً قد بلغ الخبر وحفظ الغيب . وأوصيكم به خيراً فإنه منظور إليه .. فجمعت له همدان ثلاثة عشر وسبعين بعيراً . وجاء في الخبر أن رسول الله ﷺ لم يوص عند موته إلا بثلاث لكل من الداريين ، والرهاويين ، والأشعريين ومائة وسق من خيبر ... ووصيته بالأنصار بقوله ﷺ : يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد . وإنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم . ولعل الثالثة أن لا يبقى دينان في جزيرة العرب ، ولم أقف من تاريخ هذا الصحابي على عير هذا . كما أن سيف بن عبادة الليثي المذكور في الأصل لم أجد له ترجمة عندي .

(٢) راجع صفة جزيرة العرب وتاريخنا اليمن الخضراء .

(٣) هو عمرو بن حزم بن زيد الدين لوذان بن عمرو بن عبد بن عوف بن غنم بن مالك بن النجار الأنصاري . يكنى أبا الضحاك وأول مشاهده الخندق . واستعمله النبي ﷺ على أهل نجران وهم بنو الحارث ، وهو ابن سبع عشر سنة ليفقههم في الدين ويعلمهم القرآن ويأخذ صدقاتهم وذلك سنة عشر بعد خالد بن الوليد وكتب له كتاباً هو المرجع في الفرائض والسنن والصدقات والديات . انظر الوثائق السياسية .

ومات بالمدينة سنة إحدى وخمسين كما في الإصابة وله كلام قوي لما كلمه معاوية في بيعته ليزيد لم أطلع عليه بعد .

(٤) هو خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي ، من السابقين الأولين للإسلام . كان رابعاً أو خامساً من الذين دخلوا في الإسلام . وكان سبب إسلامه رؤيا رآها أنه على شعب من نار فأراد أبوه أن يرميه فيها فإذا النبي ﷺ أخذ بحجزته . فلما أصبح أتى أبا بكر فقال اتبع محمداً فإنه رسول الله فجاء فأسلم فبلغ أباه فعاقبه ومنعه القوت ومنع إخوته من كلامه فتغيب فخرج بعد ذلك الى الحبشة فكان ممن هاجر إلى الحبشة وولد له بنته أم خالد . وشهد عمرة القضاء وما بعدها واستعمله ﷺ على صدقات مذحج . هذا هو الأصح . وأمره أبو بكر على مشارف الشام في الردة واستشهد بمرج الصفَّر وقيل يوم أجنادين .

(٥) قد تقدم ذكرهما سابقاً .

(٦) مخلاف عك مصاقب لمخلاف الأشعريين من تهامة آخذ إخذه من قرب وادي رمع جنوباً وعلى سمته طولاً وعرضاً . نسب هذا المخلاف إلى عك بن عَدْثان ـ بنونين أو بالثاء المثلثة ثالث =

الطاهر بن أبي هالة[1] وعلى مأرب، أبو موسى الأشعري وعلى الجند يعلي بن أمية. قال ولا خلاف أن باني مسجد الجند معاذ بن جبل. وأما مسجد صنعاء فقيل بناه أبان بن سعيد بن العاص[2]. وقيل وبر بن يحنس الخزاعي[3].

= الحروف ـ عدثان بن عبد الله بن الأزد بن الغوث بن النبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ على أصح الأقوال في نسبة عك إلى الأزد وفي مقدمتهم العلامة النسابة أبو عبيدة.

قال في شمس العلوم وسبب نسبتهم في معد أن غسان وقت خروج الأزد من مأرب نزلوا تهامة وبها عك فتلاحت عك وغسان واقتتلوا فقتلت غسان عكا قتلاً ذريعاً وأجلتها عن كثير من الأوطان فمن ثم انتفت عك من اليمن وانتسبت في عدنان. قال الشاعر:

ألم تـر عكـا هـامـة الأزد أصبحـت مـذبـذبـة الأنسـاب بين القبـائـل
وعقت أبـاهـا الأزد واستبـدلـت بـه أبـاً لم يلـدهـا في القـرون الأوائـل

ومن قبائلها القديمة غافق الذي منها أمير الأندلس التابعي المشهور أحد أبطال الإسلام المعدودين والقادة المقاديم جمع إلى الشجاعة والإقدام، العدل في الأحكام والسهر على مصالح الأنام وبعد النظر في السياسة عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الأزدي الذي لا يزال يتردد اسمه إلى يوم الناس هذا.

وقبيلة عك إحدى القبائل التي هاجرت إلى الشام أيام الفتوحات. وفتحت مصر ولها خطة معروفة آنئذ وكانوا في صفين مع معاوية.

(١) هو التميمي الأسدي أخو هند بن أبي هالة ربيب رسول الله ﷺ أمه خديجة زوج النبي ﷺ روي أنه قال: بعثني رسول الله ﷺ خامس خمسة على مخاليف اليمن. أنا، ومعاذ بن جبل، وخالد بن سعيد بن العاص، وعكاشة بن ثور، وشهر بن باذام، وعامر بن شهر. وذكر جماعة فبعثنا متساندين وأن نتياسر وأن نيسر ولا نعسر، ونبشر ولا ننفر. وأن إذا قدم معاذ طاوعناه ولم نخالفه. وذكر تمام الخبر وذلك بعد قتل باذام وأنشد له المرزباني في معجم الشعراء من شعر له في قتال الردة:

فلم تـر عيني مثـل يـوم رأيتـه بحيـث المخـازي في جميـع الأخـابـث
فـوالله لـولا الله لا رب غيره لما قـص بـالأجـزاع جمع العثـاعـث

(٢) ستأتي ترجمة أبان قريباً، قال في الجزء الثامن من الإكليل: وأما مساجدهـا الإسلاميـة ـ يعني اليمن ـ فمسجد صنعاء، ومسجد صعدة، ومسجد الجند. وكل هذه المساجد بنيت على مبارك ناقة رسول الله ﷺ. قلت وناقة رسول الله ﷺ لم تكن إلا مع معاذ ويتبين من هذا ان معاذاً هو أول من بنى المساجد المذكورة. وهو الصحيح. والقول ما قالت حذام. ويؤيده ما في خبر وبر الآتي بعد هذا.

(٣) في الأصل: وبر الحنش، والتصحيح من المراجع. وفي ابن الأثير: الأزدي. وفي الاستيعاب: الخزاعي. كما في الأصل، وكذا في الطبري. وخزاعة من الأزد.. وفي الإصابة: الكلبي. ولعله وهم ولوبر صحبة بعثه رسول الله إلى الأبناء ليقتلوا الأسود العنسي. روى ابن عباس قال: قاتل رسول الله ﷺ الأسود وطليحة ومسيلمة بالرسل، ولم يشغله ما كان به من الوجع عن القيام بأمر الله والذب عن دينه. وذكره الواقدي فيمن أسلم من أهل سبأ وروى عنه أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ إذا قدمت =

ولما ظهر الأسود العنسي باليمن [١] فادعى النبوة بايعه طائفة فاستفحل أمره فكتب عمال اليمن إلى النبي ﷺ بخبره فأمر [٢] بمحاربته ومن معه فحاربوه فأعز الله الإسلام بقتله. وكان بين ظهوره وقتله نحو أربعة أشهر وكان قاتله فيروز الديلمي [٣].

وقيل قيس بن المكشوح المرادي [٤] والله أعلم.

= صنعاء فأت مسجدها الذي بجبال (ضين) جبل شمال صنعاء بهمدان يطل على ضروران وغيرها ـ فصلِّ فيه. فلما قتل الأسود قال وبر هذا الموضع الذي أمرني به ﷺ أن أبني فيه المسجد.

(١) اسمه الأسود بن كعب وقيل مسعود بن كعب بن عوف العنسي من جشم بن عنس بن مذحج. يلقب عبهلة وذا الخمار لأنه كان معتماً مختمراً أبداً.

كان أحد أقيال اليمن المرموق إليهم والمتطلعين للملك والسلطان. فلما أوشك أن يخرج من يده ثار من وادي خب أعلى الجوف ودخل نجران. ثم دخل صنعاء فاتحاً ووضع السيف في الأبناء وبعث البعوث وعقد البنود وطبقت اليمن طاعته. ثم كان ما كان من أمره وقتله في خبر طويل، راجع الطبري.

وكان ممدحاً وفد إليه أعشى قيس فمدحه فاستبطأ جائزته، فقال له الأسود ليس عندنا عين ولكن نعطيك عرضاً فأعطاه خمسمائة مثقال ذهباً وبخمسمائة حللاً.

(٢) كذا في الأصل، والذي في الخزرجي «أمرهم» وهو الأصح.

(٣) فيروز من أبناء فارس الذين بعثهم كسرى نجدة للملك سيف بن ذي يزن فنفوا الحبشة عن اليمن وأقاموا بها فلما بلغهم أمر رسول الله وفد فيروز هذا على رسول الله ﷺ موفداً من باذان نائب كسرى بصنعاء فأسلم وسمع منه. وسأل رسول الله عن شراب القمح. فقال: أيسكر؟ قال نعم. قال لا تشربوا. فقال يا رسول الله إنّا بأرض باردة وإنا نستعين بشرابه. فقال رسول الله ﷺ أيسكر؟ قال نعم. قال لا تشربوا. فقال إنهم لا يصبرون. قال فإن لم يصبروا فاقتلهم.. قلت ولعل هذا قبل النسخ. وإلا فحد شارب الخمر معروف. وكان يكنى أبا عبد الله. وكان فيمن قتل الأسود ومات سنة ثلاث وخمسين هجرية بعد أن تولى لمعاوية وقيل مات والياً.

(٤) قيس بن المكشوح يكنى أبا شداد، والمكشوح لقب لأبيه لأنه ضرب على كشحه أو كُوي فيه واسم المكشوح عبد يغوث بن هبيرة بن الغربل بمعجمتين مصغراً، ابن بدا بن عامر بن عوثبان بن زاهر المرادي.

اختلف في صحبته ولم يفد إلا في أيام أبي بكر أو خلافة عمر. وكان قيسّ زعيماً عظيماً من زعماء مذحج ثم من مراد، ورئيساً كبيراً وفارساً نجداً وشاعراً مجيداً وسيداً كريماً. من كبار علماء النجوم والأنواء من ذلك ما روي أن سليك بن سعد سأل قيساً المذكور أن يصف له منازل قومه، ثم هو يصف منازل قومه فتوافقا وتعاهدا أن لا يتكاذبا. فقال قيس بن المكشوح: سر ما بين مهب الجنوب والصبا ثم سر حتى لا تدري أين ظل الشجرة فإذا انقطعت المياه فسر أربعاً حتى تبدو لك رملة وقف بينها الطريق فإنك ترد على قومي «مراد وخثعم». قلت وخثعم أول قبائل اليمن من مهب الشمال ومراد من مهب الصبا. فقال السليك: خذ ما بين مطلع سهيل ويد الجوزاء اليسرى العاقد لها مرافق السماء فثم منازل قومي. =

الفصل الثالث

في ذكر عمال اليمن بعد وفاته ﷺ

توفي رسول الله ﷺ، وعماله على اليمن يومئذ ثلاثة: أبان بن سعيد بن العاص [1] على

= لما ظهر الأسود العنسي كان هو فارسه المعلم وقائده البطل الذي بجهوده تم له النصر والظفر ودخولها صنعاء فاتحين. فلما تربع الأسود على العرش واحتل من غمدان محراب الدمى تطاول على قيس تيهاً وكبراً ونسي أو تناسى أياديه البيضاء شأن كل مستبد فخور بنصره الذي واتته الظروف وتاح له المقدور. فلما أحس قيس بهذا الانقلاب السريع وشعر بالقلا والإعراض من جانب العنسي دبر مؤامرة مع الأبناء الموتورين على قتله وفي الوقت نفسه كان يطمع بالدست ويحقد على الأبناء لحكمهم ولإساءة سلفت منهم إلى ذويه فجعل منهم سلاحاً يقضي به إربه ثم يقضي عليهم فيصيب عصفورين بحجر. فلما قتل الأسود انثنى فقتل داذويه كبير الأبناء وحاول الفتك بالآخرين والاستيلاء على ناصية الأمر ففشل فانقلب إلى خولان ومراد حيث بقي يرقب مجرى الحوادث عن كثب. فلما جاءت القوة من أبي بكر يقودها قواد محنكون استسلم للأمر الواقع وحاول الأبناء الاقتصاص منه فلم يفلحوا كما يأتي في ترجمة أبان. ولما قدم مع قومه أيام الفتوح للغزو خاطب أبا بكر أو عمر من شعر له:

أتتك كتائب منا سراعاً ... ذوو التيجان أعني من مراد

فقدّمنا أمامك كي ترانا ... نبيد القوم بالسيف النجاد

فبعث إلى العراق وشهد الفتوح وله فيها آثار شهيرة لا سيما في القادسية ونهاوند وهو ابن أخت عمرو بن معدي كرب. وكان يناقضه في الجاهلية وكانا في الإسلام متباغضين وهو القائل لعمرو بن معدي كرب:

فلو لاقيتني لاقيت قرناً ... وودعت الحبائب بالسلام

لعلك موعدي ببني زبيد ... وما قامعت في تلك اللئام

ومثلك قد قرنت له يديه ... إلى اللحيين يمشي في الخطام

(١) أبان بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي أخو خالد بن سعيد المتقدم. تأخر إسلامه بعد إسلام أخيه خالد وعمرو فقال لهما:

ألا ليت ميتاً بالضريبة شاهد ... لما يفتري في الدين عمرو وخالد

أطاعا معاً أمر النساء فأصبحا ... يعينان من أعدائنا من نكابد

ثم أسلم وحسن إسلامه وهو الذي أجار عثمان بن عفان حين بعثه رسول الله ﷺ إلى قريش عام الحديبية وحمله على فرس حتى أدخله مكة وقال له:

أقبل وأدبر لا تخف أحداً ... بنو سعيد أعزة الحرم

وأمره رسول الله ﷺ على بعض سراياه. منها سرية نجد، واستعمله على البحرين فلم يزل عليها «أبان» إلى أن توفي رسول الله ﷺ. =

صنعاء وأعمالها. ومعاذ على الجند ومخاليفها. وزياد بن لبيد البياضي على حضرموت وأعمالها. وقيل استعمل عليه الصلاة والسلام المهاجر بن أبي أمية المخزومي على كندة بحضرموت، فمرض بالمدينة ولم يطق الذهاب إلى حضرموت فكتب عليه الصلاة والسلام إلى زياد بن لبيد [1] ليقوم على عمل المهاجر، فلما توفي ﷺ أقره أبو بكر [2] على عمله. ولما دخل

= قلت وهذا ما في الإصابة وهو مخالف لما هنا من كلام المؤلف من أن النبي ﷺ مات وأبان عامله على اليمن والذي يظهر مما يأتي في بقية ترجمته أن أبا بكر هو الذي بعثه عقب حادثة الأسود وبعد وفاة رسول الله ﷺ حيث قال في الإصابة «وبعث أبو بكر أبان إلى اليمن. فكلمه فيروز في دم داذويه الذي قتله قيس بن المكشوح فقال أبان أقتلت رجلاً مسلماً فأنكر قيس أن يكون داذويه مسلماً وإنما قتله بأبيه وعمه فخطب أبان فقال: إن رسول الله ﷺ قد وضع كل دم في الجاهلية فمن أحدث في الإسلام أخذناه به. ثم قال أبان لقيس إلحق بأمير المؤمنين عمر وأنا أكتب لك أني قضيت بينكما فكتب إلى عمر فأمضاه.

واختلف في قتل أبان بن سعيد قيل يوم اليرموك سنة ١٥ هـ في خلافة عمر وقيل يوم أجنادين في خلافة أبي بكر وقيل غير ذلك.. وكان لسعيد بن العاص أبي أبان ثمانية أولاد منهم ثلاثة ماتوا على الكفر وباقيهم أسلموا ولا عقب لواحد منهم إلا العاص بن سعيد بن العاص. ومن ولده عمرو بن سعيد الأشدق الذي ادعى الخلافة ثم قتله عبد الملك بن مروان.

(١) زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان بن عامر بن عدي بن أمية بن بياضة البياضي من بني بياضة بن عامر بن زريق الأنصاري. يكنى أبا عبد الرحمن، خرج إلى رسول الله ﷺ وأقام معه حتى هاجر مع رسول الله ﷺ وكان يقال له مهاجري أنصاري شهد العقبة وبدراً واحداً والخندق والمشاهد كلها، وكان عاملاً للنبي ﷺ على حضرموت وولاه أبو بكر قتال أهل الردة من كندة مات سنة ٤١ من الهجرة.

(٢) اسمه عبد الله، وكنيته أبو بكر ـ وهي التي غلبت عليه ـ ابن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمي القرشي. يلتقي مع النبي ﷺ في مرة. وكان أبو بكر يسمى في الجاهلية عبد الكعبة. فسماه رسول الله عبد الله، وعتيقاً، والصديق. لأنه أول من بادر إلى تصديق النبي ﷺ. ولا سيما صبيحة الإسراء.

ولد أبو بكر بمكة بعد عام الفيل بعامين وأشهر. وعرف بالخصال الكريمة واشتهر بالعفة ولم يكن يشرب الخمر. وكان من سراة مكة في الجاهلية، عالماً بأنساب العرب وأخبارها وكان إليه الأشناق وهي الديات والمغارم. وكان بزازاً يتاجر في الثياب وقد بلغ رأس ماله أربعين ألف درهم وهو أول من أسلم من الرجال وسرعان ما ترك التجارة بعد خلافته إلى شؤون المسلمين. وكان إيمانه بالرسول شديداً وكان رفيقه عندما هاجر إلى المدينة وهو صاحب الغار الذي فيه نزل قوله تعالى: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾.

ولما استقر الرسول ﷺ في المدينة كان أبو بكر ساعده الأيمن وقد خصه الرسول بمزايا لم يخص =

المهاجر بن أبي أمية صنعاء كتب معاذ وسائر العمال إلى أبي بكر رضي الله عنه يستأذنونه في القفول. فقال من كان منكم أنفذ ما أمره به رسول الله ﷺ وأحب أن يرجع فليرجع ويستخلف على عمله من أحب. ومن أحب أن يقيم فليقم.

فاستخلف معاذ عبد الله بن أبي ربيعة[1] والد عمر بن أبي ربيعة الشاعر. واستخلف أبان، يعلي بن أمية التميمي. فأقر أبو بكر رضي الله عنه كلاً منهما على ما استخلف فيه.

وحكى صاحب نزهة الأبصار[2] عن الشريف إدريس بن علي بن

= أحداً سواه. وتولى الخلافة بعد رسول الله ﷺ بعد حادثة السقيفة المشهورة ومات سنة ١٣ من الهجرة ومدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً ودفن بجوار النبي ﷺ.

(١) واسم أبي ربيعة عمرو، وقيل حذيفة ويلقب ذا الرمحين ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومي القرشي. يكنى أبا عبد الله وهو من مسلمة الفتح ويقال إنه الذي استجار بأم هانئ بنت أبي طالب وكان مع الحارث بن هشام. وأراد علي قتلهما فمنعته منهما أم هاني. ثم أتت النبي ﷺ فأخبرته بذلك فقال قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ.

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة استلف من عبد الله بن ربيعة مالاً ببضعة عشر ألفاً. فلما رجع من حنين قال ادعوا لـي ابن ربيعة. فقال له خذ ما استلفت بارك الله في مالك وولدك إنما جزاء السلف الحمد والوفاء.

وعبد الله هذا المترجم لـه هو الذي بعثته قريش مع عمرو بن العاص إلى الحبشة ليغروا النجاشي بإرجاع المسلمين. وذكر الزبير بن بكار أن رسول الله ولى عبد الله بن أبي ربيعة هذا «الجند» ومخاليفها فلم يزل والياً عليها حتى قتل. وقال هو وغيره إن عمر ولاه صنعاء والجند. ثم لما ولي عثمان ولاه ذلك أيضاً.

والصحيح أنه إنما تولى الجند باستخلاف من معاذ وكان موجوداً باليمن إذ ذاك، أرسله رسول الله ﷺ إلى معاذ ثم استمر في خلافة عمر وعثمان إلى أن جاءوا لنصرة عثمان فسقط عن راحلته بقرب مكة فمات.

ويقال إن عمر قال لأهل الشورى: لا تختلفوا فإنكم إذا اختلفتم جاءكم معاوية من الشام وعبد الله بن أبي ربيعة من اليمن فلا يريان لكم فضلاً لسابقتكم، وإن هذا الأمر لا يصلح للطلقاء وأبناء الطلقاء.

وتزوج عبد الله بن أبي ربيعة في اليمن من حمير فأتت له بعمر بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر المشهور ومن هنا أتاه الغزل، يقال غزل يماني، ودل حجازي. وعمر بن عبد الله بن أبي ربيعة مشهور، وأخباره في العشق وغيره تكثر، وديوان شعره مطبوع منشور.

(٢) الذي اطلعت عليه في التواريخ أن نزهة الأبصار مسمى لثلاثة مؤلفين أحدهما لابن حميد المقراي من مذحج المنسرح. والثاني للعلامة المقري الزبيدي، وكلاهما في تاريخ اليمن. والثالث نزهة الأبصار إلى اختراق الأمصار للشريف الإدريسي صاحب المغرب الذي ألفه لصاحب صقلية، وغالب موضوعاته في جغرافية العالم القديم، ولهذا الكتاب شهرة عالمية. وكلها لم أطلع عليها. والمراد هنا نزهة الأبصار في اختصار كنز الأخيار للملك الرسولي. وهذه هي الرابعة.

عبد الله [1] ما ذكر في كتابه كنز الأخيار. قال: قالوا توفي رسول الله ﷺ وعماله على مكة [2] عتاب بن أسيد [3] وعلى بلاد عك، من تهامة [4] الطاهر بن أبي هالة وعلى

---

(١) هو الأمير الخطير إدريس بن علي بن عبد الله الحمزي من ولد حمزة بن أبي هاشم العلوي. كان من علماء الزيدية وفقهائهم. ضليعاً في علم التاريخ والأنساب مشاركاً في سائر العلم، واتصل بخدمة الملك المعظم المظفر يوسف بن الملك عمر بن علي رسول الغساني وولده المؤيد، ونال منهما خيراً كثيراً وأقطعه إقطاعات جسيمة وله مؤلفات منها التاريخ المذكور غريب في بابه في أربعة مجلدات. فرغ من تأليفه يوم الاثنين في رجب سنة ٧١٣ هـ. وقال الخزرجي في تاريخه وذكر وفاة الشريف المذكور: وكان شاعراً طريفاً كريماً متلافاً عالماً لبيباً أريباً متصفاً بصفات الإمامة، ومدحه عدَّة من الشعراء فكان يجيزهم الجوائز السنية. ومن شعره في السيف:

ومنصلت يبكي الدماء وقلما ... بكت عينُه إلا تبسم عن نصر
من البيض إلا أنه كلما انبرى ... بحادثة يختال في حُلل حُمر

ومات سنة عشرين وسبعمائة وقيل سنة ٧١٤ هـ (أربع عشر وسبعمائة). وترجم له السلطان الأشرف ابن الملك الأفضل العباس الرسولي الغساني. وأجاد في وصفه وذكر شيئاً من محاسنه، والجندي في ترجمة والده الشريف علي، وقد عدّ علماء الزيدية من سيئاته مخالطته للملك الأعظم المظفر، ولكنهم بعد ذلك يعتذرون له بأنه تاب توبة نصوحاً. وهكذا يرمون الناس فيما يقعون فيه.

(٢) مكة هي أشهر من أن توصف أو يتناولها قلم بليغ؛ فلها تواريخ كثيرة. وأول من تكلم عنها الأزرقي.

(٣) عتاب - بالتشديد - ابن أسيد - بالفتح - ابن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس الأموي القرشي أسلم عام الفتح واستعمله النبي ﷺ على مكة لما سار إلى حنين. وقيل إنما استعمله بعد أن رجع من الطائف وترك له معاذ بن جبل يفقهه في الدين ويعلمه القرآن، وحج عتاب بالناس تلك السنة على ما كانت العرب تحج. وعاد رسول الله ﷺ في ذي الحجة أو في ذي القعدة، وجعل له رسول الله ﷺ كل يوم درهماً فقام عتاب فخطب الناس فقال: أيها الناس أجاع الله من جاع على درهم فقد رزقني رسول الله ﷺ درهماً كل يوم فليست لي حاجة إلى أحد. وكان عمره حين استعمل نيفاً وعشرين سنة.

روى البخاري في تاريخه أن عتاباً أسند ظهره إلى بيت الله يقول ما أصبت في عملي هذا الذي ولاني رسول الله ﷺ إلا ثوبين معقدين كسوتهما مولاي كيسان. وكان شديداً على المريب ليناً على المؤمنين، وكان يقول والله لا أعلم متخلفاً عن هذه الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه. ولا يتخلف عنها إلا منافق. فقال أهل مكة يا رسول الله استعملت على هذا البلد أعرابياً جافياً. فقال إني رأيت فيما يرى النائم أنه أتى باب الجنة فقعقعها حتى فتح الله له. وفي يوم وفاته خلاف قيل يوم مات أبو بكر وقيل غير ذلك.

(٤) تهامة بالكسر سميت بذلك لشدة ريحها وركودها والنسبة إليها تهام بفتح التاء وإسقاط ياء النسبة تخفيفاً كما قالوا رجل يمان، وشام. وقوم تهامون كيمانون. وقال سيبويه منهم من يقول تهاميّ =

الطائف[١]، عثمان بن أبي العاص الثقفي[٢] وعلى نجران عمرو بن حزم الأنصاري وأبو سفيان بن الحارث[٣] وعلى ما بين زبيد ونجران، خالد بن سعيد بن العاص، وعلى صنعاء

= ويمانيّ وشامي بالتشديد. وهي قسم اليمن الواطي وسهوله التي تتكون معظمها من أراضي رملية تمتد على ضفاف البحر الأحمر.

(١) الطائف ثالث مدن الحجاز، ومصيف ومخرف أهل مكة، وهي عن مكة شرقاً أو في الشرق الجنوبي بمسافة ثلاثة أيام بسير القوافل ويومين بغيرها، وثلاث ساعات سيراً بالسيارات.

(٢) هو أبو عبد الله عثمان بن أبي العاص بن بشر الثقفي. استعمله النبي ﷺ على الطائف فلم يزل عليها حياته وخلافة أبي بكر، وسنتين من خلافة عمر. ثم عزله وولاه عمان والبحرين. وكان من الوافدين عليه ﷺ في وفد ثقيف، وكان أصغرهم سناً له سبع وعشرون سنة. ولما توفي رسول الله ﷺ عزمت ثقيف على الرّدة. فقال لهم: يا ثقيف كنتم آخر الناس إسلاماً فلا تكونوا أولهم ردة. وكانت وفاته سنة خمسين من الهجرة في البصرة وقيل سنة واحد وخمسين.

(٣) هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي ابن عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة أرضعته حليمة بنت أبي ذئب السعدية. واسمه كنيته وقيل غير ذلك. وهو أحد من كانوا يشبّهون بالنبي ﷺ. وهم: جعفر بن أبي طالب، والحسن بن علي بن أبي طالب، وقثم بن العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان هذا؛ والسائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم. وكان أبو سفيان هذا من الشعراء المطبوعين. وكان قد سبق له هجاء في رسول الله ﷺ وإياه عنى حسان بن ثابت شاعر الإسلام بقوله:

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... مغلغلة فقد برح الخفاء
هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

القصيدة المشهورة. ثم أسلم فحسن إسلامه. فيقال إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ حياء منه، وكان إسلامه يوم الفتح قبل دخول رسول الله ﷺ مكة لقيه هو وابنه جعفر بن أبي سفيان بالأبواء فأعرض رسول الله ﷺ عنهما. فقالت له أم سلمة لا يكن ابن عمك أشقى الناس بك. وقال علي بن أبي طالب لأبي سفيان بن الحارث: إئتِ رسول الله من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف «تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين» فإنه لا يرضى أن تكون أحسن قولاً منه. ففعل ذلك أبو سفيان. فقال له رسول الله ﷺ: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» وأنشد في إسلامه:

لعمرك إني يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمطلع الحيران أظلم أهله ... فهذا أواني حين أهدي فأهتدي
هداني هاد غيرَ نفسي ودلني ... على الله من طردته كل مطرد
أصدُّ وأنأى جاهداً عن محمد ... وأدعى وإن لم أنتسب من محمد

فذكروا أنه حين أنشد رسول الله ﷺ قوله من طرّدته كل مطرد. ضرب رسول الله ﷺ صدره وقال أنت طردتني كل مطرد. =

فيروز الديلمي. وعلى الجند يعلي بن أمية. وعلى مأرب، أبو موسى الأشعري. وكان معاذ بن جبل[1] ينتقل إلى عمل كل أحد منهم، يعلمهم القرآن، ويفقههم في الدين.

= وشهد أبو سفيان حنيناً وأبلى فيها بلاء حسناً. وكان ممن ثبت ولم يفر يومئذ ولم تفارق يده لجام بغلة رسول الله ﷺ حتى رجع الناس إليه.

ولما مات رسول الله ﷺ رثاه أبو سفيان بأحر المراثي. وروي أنه لما حضرته الوفاة قال: لا تبكوا عليّ فإني لم أنتطف بخطيئة منذ أسلمت. وكان سبب موته أنه حج فلما حلق الحلاق رأسه قلع أثلولاً كان في رأسه فلم يزل مريضاً حتى مات بعد مقدمه من الحج بالمدينة سنة ٢٠ عشرين من الهجرة وصلى عليه عمر بن الخطاب.ولم يذكر له ولاية باليمن لا في الإصابة ولا في الاستيعاب.

(١) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن كعب بن عمرو بن أدي بن سعد بن علي بن أسعد بن يزيد بن جشم بن باني بن تميم بن كعب بن سلمة بن الخزرج الخزرجي الأنصاري.

أبو عبد الرحمن الإمام المقدم في علم الحلال والحرام. وإمام الفقهاء وكنز العلماء؛ أحد السبعين الذين شهدوا العقبة، وأحد من جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ.

أسلم وهو ابن ثماني عشر سنة، وشهد بدراً وهو ابن إحدى وعشرين سنة، والمشاهد كلها، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبد الله بن مسعود. وقيل بينه وبين جعفر بن أبي طالب.

وكان معاذ بن جبل طوالاً، حسن الشعر عظيم العينين أكحلها، أبيض براق الثنايا، شاباً جميلاً، من أفضل شباب قومه الأنصار، حليماً، حبيباً، ذا وسامة، سخياً سمحاً لا يمسك. فلم يزل يُدان حتى أغلق ماله كله من الدين - أي استحقه المرتهن - فأتى النبي ﷺ فطلب إليه أن يسأل غرماءه أن يضعوا له فأبوا ولو تركوا لأحد من أجل أحد لتركوا لمعاذ من أجل رسول الله ﷺ. فباع النبي ﷺ ماله كله في دينه حتى قام معاذ بغير شيء. حتى إذا كان عام الفتح فتح مكة بعثه النبي ﷺ إلى طائفة من أهل اليمن ليجبره.

فمكث معاذ باليمن وكان أول من اتجر في مال الله بإذن من رسول الله ﷺ. فمكث حتى أصاب وحتى قبض رسول الله ﷺ. فلما قدم قال عمر لأبي بكر: أرسل إلى هذا الرجل فدع له ما يعيشه وخذ سائره منه. فقال أبو بكر إنما بعثه النبي ﷺ ليجبره ولست بآخذ منه شيئاً إلا أن يعطيني. فانطلق عمر إليه إذ لم يطعه أبو بكر فذكر ذلك لمعاذ. فقال إنما أرسلني إليه ليجبرني ولست بفاعل. ثم أتى معاذ عمر فقال قد أطعتك وأنا فاعل ما أمرتني فإني رأيت في المنام اني في حومة ماء قد خشيت الغرق فخلصني منه يا عمر. فأتى معاذ أبا بكر فذكر له ذلك كله. فقال عمر هذا حين حل وطاب فخرج معاذ عند ذلك إلى الشام.

ولما أراد رسول الله ﷺ أن يوجهه إلى اليمن صلى صلاة الغداة ثم أقبل بوجهه الشريف فقال يا معشر المهاجرين والأنصار أيكم ينتدب إلى اليمن. فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال أنا يا رسول الله فسكت عنه ولم يجبه. ثم قال يا معشر المهاجرين والأنصار أيكم ينتدب إلى اليمن. فقام عمر فقال أنا يا رسول الله فسكت ولم يجبه. ثم قال يا معشر المهاجرين والأنصار أيكم ينتدب إلى اليمن فقام معاذ فقال: =

= أنا يا رسول الله. فقال: أنت يا معاذ وهي لك. يا بلال ائتني بعمامتي فعممه بها وشدّ له على راحلته وشيّعه بجميع المهاجرين والأنصار وفتيان الناس. ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي إلى جنبه يوصيه. فقال معاذ يا رسول الله أنا راكبٌ وأنت تماشيني ألا أنزل فأمشي معك ومع أصحابك؟ فقال: يا معاذ إنما أحتسب خطاي في سبيل الله. ثم قال يا معاذ لو أنا نلتقي بعد يومنا هذا لقصرت إليك في الوصية. ولكنا لا نلتقي إلى يوم القيامة. ثم قال له كيف تقضي إذا عرض لك القضاء؟ قال بكتاب الله. قال فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال فبسنة رسول الله. قال فإن لم تجد في سنة رسول الله؟ قال أجتهد رأيي ولا آلو. فضرب رسول الله صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله.

ومن وصيته له: إنك تأتي قوماً أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإن هم أطاعوك بذلك فاعلمهم أن قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة فإن هم أطاعوك بذلك فأعلمهم أن قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم فإن هم أطاعوك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب. وقال لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم. وإني عرفت بلاءك في الدين والذي ركبك من الدَّين، وقد طيبت لك الهدية فإن أهدي لك شيء فاقبل، فلما رجع في خلافة أبي بكر كان معه ثلاثون رأساً وقال له لما ودّعه «حفظك الله من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك ومن فوقك ومن تحتك ودرأ عنك شر الإنس والجن».

وكان حمله على ناقته ﷺ وقال له يا معاذ انطلق حتى تأتي الجند فحيث ما بركت بك هذه الناقة فأذّن وصلّ وابتن فيه مسجداً. فلما انطلق معاذ انتهى إلى «الجند» فدارت به الناقة وأبت أن تبرك فقال هل من جند غيرها؟ قالوا نعم «جند ركامة» فلما أتاه دارت وبركت فنزل معاذ بها فنادى بالصلاة ثم قام وصلى. وذلك بعد أن نزل بصنعاء وقرأ كتاب النبي ﷺ لأهل صنعاء فأتاه صناديدها. فقالوا يا معاذ هذا نُزلٌ قد هيأناه لك ومنزل قد فرغناه لك. فقال ما هذا أوصاني حبيبي.

يا معاذ اذكر الله عند كل شجر ومدر، وأحدث لكل ذنب توبة. السر بالسر، والعلانية بالعلانية، ويسر ولا تعسر، وبشر ولا تنفر، وستقدم على قوم أهل كتاب يسألونك عن مفاتيح الجنة قل شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

فلما ودَّعه بكى معاذ فقال رسول الله ﷺ ما يبكيك يا معاذ؟ قال أبكي لفراقك بأبي وأمي. فقال: لا تبك فإن البكاء فتنة. فذكروا أن معاذاً قدم «الجند» في جمادى الآخرة، وأوصل كتاب رسول الله ﷺ إلى بني الأسود وقد كانوا أسلموا ثم إنهم اجتمعوا في أول جمعة من رجب وخطبهم وفيهم جمع من اليهود فسألوه عن مفاتيح الجنة فقال صدق رسول الله، مفاتيح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. فقالوا: عجباً من إصابتك الجواب وقولك صدق رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ أخبر بسؤالكم هذا. فكان قوله لهم سبباً لإسلام من تأخر من اليهود وكان في محفل عظيم قد اجتمع فيه الناس من أماكن شتى. ومن ثم ألف الناس إتيان مسجد الجند في أول جمعة من رجب.

وكان بعثه رسول الله قاضياً إلى الجند من اليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم، وجعل إليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن وكان يتردد بين المخاليف وتزوج من كندة. وكان معاذ من كبار الصحابة وفضلائهم أردفه رسول الله ﷺ خلفه وقال فيه: معاذ أعلم أمتي بالحلال =

وبعث أبو بكر جرير بن عبد الله البجلي إلى نجران فأقام بها، وكان قد بعث المهاجر بن أبي أمية إلى اليمن.

فلما قدم نجران أتاه قيس بن المكشوح المرادي، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي على غير أمان.

فأوثقهما وأشخصهما إلى أبي بكر. فعاتبهما وحقن دماءهما، واستبقاهما وردهما إلى قومهما.

ومن عجيب ما جرى في أيام أبي بكر رضي الله عنه أنه حصل مطر عظيم باليمن فأبرز السيل عن باب مسدود فهاب الناس فتحه وظنوه كنزاً، فكتبوا إلى أبي بكر يعلمونه فعاد جوابه أن لا يقر به أحد حتى يقدم أمناؤه فقدموا وفتحوا الباب فنفذ بهم إلى مغارة فدخلوها. فإذا فيها سرير عليه رجل ميت، عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب، بيده اليمنى لوح مكتوب فيه:

= والحرام. معاذ إمام العلماء يوم القيامة، وغير ذلك. وقال ابن مسعود: كنا نشبه معاذاً بإبراهيم الخليل «أمة قانتاً لله». وعن فروة الأشجعي قال: كنت جالساً مع ابن مسعود فقال: إن معاذاً أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين. فقلت: يا أبا عبد الرحمن إنما قال الله «إن إبراهيم أمة قانتاً ولم يكن من المشركين». فأعاد قوله إن معاذاً أمة الخ. فلما رأيته أعاد عرفت أنه تعمد الأمر فسكت. فقال أتدري ما الأمة، وما القانت؟ قلت الله أعلم. فقال: الأمة الذي يعلم الخير ويؤم به ويقتدى، والقانت المطيع لله. وكذلك كان معاذ بن جبل معلماً للخير ولرسوله وكان عبد الله بن عمر يقول: حدثونا عن العاقلين العالمين قيل من هما قال هما معاذ بن جبل، وأبو الدرداء. وخطب عمر بالجابية من أرض الشام: من أراد الفقه فليأت معاذاً. وقال لو كان معاذاً حياً لاستخلفته. فإن سألني الله عن ذلك قلت سمعت نبيك يقول: إن الله يبعثه يوم القيامة إمام الناس. وفي رواية بين يدي العلماء على «رتوة» بفتح الراء وسكون المثناة من فوق وفتح - ما أشرف من الأرض - وكان الصحابة متى تحدثوا وهو فيهم لم ينظروا إليه إلا هيبة.

ومما يدل على عمق فقهه، وأصالة رأيه، ودقة فكره أنه كان يوماً بمجلس عمر بن الخطاب من جملة جماعة كثيرين إذ رافَع رجل امرأته فقال يا أمير المؤمنين غبت عن هذه زوجتي سنتين، ثم جئت وهي حامل. فاستشار عمر برجمها. فقال له معاذ إذا كان لك عليها سبيل فما لك على ما في بطنها من سبيل دعها حتى تضع. فلما وضعت بعد أيام عرف زوجها شبهه بالولد. فقال: إبني ورب الكعبة إذ ولدته له سنتان. فقال عمر عجزت النساء أن يلدن كمعاذ لولا معاذ لهلك عمر. وروي أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن لما بعثه: «إني بعثت لكم خير أهلي». ومناقبه كثيرة جداً.

وكان دخوله اليمن وسنه ثمان وعشرون سنة. وكان عمر قد ولاه الشام بعد وفاة أبي عبيدة بن الجراح فمات في عامه بطاعون عمواس سنة سبع عشرة أو التي بعدها. وعاش أربعاً وثلاثين سنة وقيل غير ذلك، ودفن بوادي الأردن من الشام.

إذا خــان الأميــر وكــاتبــاه وقــاضي الأرض داهــن في القضــاء
فــويــل ثـم ويــل ثـم ويــل لقــاضي الأرض مــن قــاضي السماء

وفي يده الأخرى خاتم مكتوب فيه: ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ الآية. وعند رأسه:

يــا لائمـي في هجـرهــم جــاهــلاً عــذري منقــوش على خــاتمي

وسيف أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه: هذا سيف هود بن عاد بن إرم[1].

ولما تــولى عمـر بــن الخطــاب رضي الله عنــه[2] أبقــى عمال اليمــن على حــالهم

---

(١) لسنا بصدد حكمنا على هذه الأعجوبة بجملتها وتفاصيلها بأنها أسطورة من الأساطير وضعها القصاصون والوراقون لترويج بضاعتهم ونفاق تجارتهم. ولكن نقول غير مؤمنين بالخرافات والأباطيل التي تتنافى مع العقل ان لهذه القصة أصلاً ولكن ليست بهذه الصورة التي صارت أشبه بأسطورة منها بحادثة تاريخية واقعية. بل أضافوا إليها شيئاً من الخيال، أبعدوها عن الحقيقة كمثل الآية القرآنية المدرجة في القصة وغيرها. وهذا أمر ملموس فإنا نسمع لأول وهلة في حادثة غريبة تأتي بثوبها الصحيح فما تلبث أياماً حتى يضاف إليها من التهاويل ما يكسبها روعة واستغراباً ويخالف أصلها وجوهرها وما هي عليه في نفس الأمر ثم تصبح بمرور الأيام كأنها حقيقة.

وأما هود بن عاد بن إرم فهو نبي الله الذي ذكره في عدة سور ومنها سورة الأحقاف حيث قال: ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ الخ، وهو جد القبائل القحطانية وهو هود بن عابر، وكانت مساكنهم بالأحقاف بين عدن وحضرموت وقبر النبي هود عليه السلام بالكثيب الأحمر ثم منه في كهف مشرف في أسفل وادي الأحقاف وهو واد يأخذ من بلد حضرموت إلى بلد مهرة مسيرة أيام، وأهل حضرموت يزورونه هم وأهل مهرة في كل وقت. كذا في صفة جزيرة العرب.

قلت وهم يزورونه إلى هذه الغاية، انظر تاريخ حضرموت للبكري اليافعي.

(٢) هو أمير المؤمنين أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي العدوي القرشي يجتمع مع النبي ﷺ في كعب بن لؤي.

وهو ثاني الخلفاء الراشدين الملقب بالفاروق ولد لثلاث عشرة سنة من ميلاد النبي ﷺ وتربى على النجدة والجرأة على قول الحق لا يرى فيه هوادة. فلما تشرف رسول الله ﷺ بالرسالة كان حرباً شديداً عليها فنال المسلمون منه أذى كثيراً. حتى كانت هجرة الحبشة ورأى تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى ومفارقة الأوطان في سبيله فكان ذلك مما دعاه إلى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح. فآمن وصدق. فاعتز به الإسلام وكان به للمسلمين قوة وذهب إلى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقه بالدين الإسلامي فأصابه من أذى المشركين ما كان يصيب إخوانه وكادوا يقتلونه لولا أن أجاره بعض القرشيين، وقد أثر عن رسول الله أنه قال: اللهم أعز الدين بأحد هذين الرجلين. وفي رواية بأحد العمريـن، يعني عمر بن الخطاب وأبا جهل. وتولى الخلافة بعد أبي بكر ومات شهيداً سنة ٢٣ عن ستين سنة ومدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وسبعة أيام ودفن بجوار أبي بكر.

إلا يعلي بن أمية [1] صاحب صنعاء فإنه عزله عن صنعاء مرتين لسببين [2] ثم أعاده. وأقره عثمان رضي الله عنه [3] أيضاً على ولايته إلى أن توفي عثمان. ثم

---

(١) أمية بضم الهمزة والياء المثناة المشددة من تحت بعد هاء نسبة إلى أبيه. ويقال ابن منية بضم الميم وسكون النون والياء المثناة من تحت وبعدها تاء التأنيث نسبة إلى أمه «مُنية».

يكنى أبا صفوان بن أمية بن أبي عبيد بن الحارث بن بكر بن زيد التميمي. من حلفاء قريش، ثم من حلفاء بني نوفل بن عبد مناف. وهو ابن أخت عتبة بن غزوان الصحابي المشهور وابن عمه أسلم يعلي عام الفتح وشهد حنيناً وخرج إلى «اليمن» مع أبان بن سعيد بن العاص. فلما قدم كتاب أبي بكر إلى «أبان بن سعيد» يخيره بين الوقوف وبين الاستخلاف والعود، استخلف أبان يعلى بن منية فأقام على صنعاء ومخاليفها إلى آخر أيام «عثمان».

ولما تولى «علي بن أبي طالب رضي الله عنه» وولى عبيد الله بن العباس على اليمن جمع يعلي بن منية كل شيء من أموال الله، وكانت ستمائة ألف ألف درهم وحملها ستمائة بعير بما فيها الجمل المسمى عسكر الذي سميت معركة يوم الجمل المشهورة باسمه وكان الجمل من وادي ضهر. وخرج به إلى «مكة» فأناخ بالأبطح خارج «مكة»، وصادف وصوله خروج «طلحة» و«الزبير» و«عائشة» إلى «العراق» للطلب بدم عثمان فأعانهم بالمال والإبل ورافقهم، وشهد يوم الجمل مع عائشة. ثم شهد «صفين» مع علي وقتل في المعمعة سنة ٣٧ هـ سبع وثلاثين.

(٢) بل ثلاث مرات لثلاثة أسباب، إلا أنه في الثالثة رجع من أثناء الطريق. راجع «الجندي» وتاريخنا.

(٣) هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان بن أبي العاص بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي. يلتقي بالنبي ﷺ في عبد مناف. ويلقب ذا النورين. وهو ثالث الخلفاء الراشدين وزوج بنتي رسول الله ومجهز جيش العسرة.

أسلم قديماً فقد كان ثالث ثلاثة من الرجال وهم: بلال وأبو بكر وعثمان. وأول من هاجر إلى الحبشة مع زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ. ثم هاجر الهجرة الثانية إلى المدينة وشهد مشاهد رسول الله ﷺ كلها سوى «بدر» فإنه تخلف لتمريض «رقية» التي توفيت عقب غزوة «بدر» وأسهم له رسول الله ﷺ في غنائم «بدر» ثم زوجه بنته الثانية «أم كلثوم» وكان في عمرة القضاء عام «الحديبية» سفيراً بين رسول الله وبين قريش. فلما شاع غدرهم بعثمان بايع النبي ﷺ أصحابه «بيعة الرضوان» وقال بيده، هذه بيد عثمان فضرب بها على يده اليسرى.

ولد عثمان في السنة الخامسة من ميلاد رسول الله، وشب على الأخلاق الكريمة والسيرة الحسنة، حيياً عفيفاً وانتخب بأغلبية أهل الشورى خليفة شرعياً في السنة الرابعة والعشرين من الهجرة، وفتحت في زمنه خراسان وكرمان وسجستان وأفريقية، ومن أعماله الخالدة جمعه القرآن في مصحف وهو الذي عرف بمصحف الإمام وإتلاف ما عدا ذلك لما بلغه ما وقع في أمر القرآن من أهل العراق وأنهم يقولون قرآننا أصح من قرآن أهل الشام لأننا قرأنا على أبي موسى الأشعري وكذلك أهل الشام يعيبون غيرهم ويفضلون قرآنهم وكذلك غيرهم فأمر بإحضار المصاحف التي بأيدي الناس وحرقها وسلقها بالماء الحار =

تولى[1] علي رضي الله عنه[2]، فاستعمل على اليمن عبيد الله بن عباس[3] على صنعاء

= ثم أمر بإحضار المصحف الذي كان عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر حيث أجمع عليه، ونسخ عليه عدة مصاحف وسيرها إلى الأمصار للعمل على مقتضاها وكان ذلك سنة ٣٠ هـ.

وكان قتله وهو يتلو القرآن في أيام التشريق سنة ٣٥ هـ بعد أن حكم اثنتي عشرة سنة إلا أياماً. وكان عمره نيفاً وثمانين سنة وقيل تسعون سنة ومكث ثلاثة أيام لم يدفن من شدة الفتنة، ومن يومئذ افتتح على المسلمين باب الشر على مصراعيه، وسالت بحور من الدماء وتوقف سير الفتح.

ولم أعثر في زمان عثمان على حوادث ذات بال فيما يخص السعيدة مما بيدي من التواريخ سوى هدمه قصر غمدان.

(١) في (خ) ثم لما تولى.

(٢) هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم خاتم الخلفاء الراشدين وابن عمّ الرسول الأمين وأول الصديقين الفادي لرسول الله ﷺ بنفسه يوم الهجرة. الفرّاج للكرب الشداد عن رسول الله ﷺ في المآزق الحرجة وصنو رسول الله الذي نزله منزلة هارون من موسى. وزوج بنته البتول الزهراء. وفضائله أكثر من أن تحصى.

كان عالماً ضليعاً، وخطيباً مصقعاً. كلامه في أعلى طبقات البلاغة. وقائداً محنكاً، وفارساً باسلاً تفر من اسمه الليوث الكواسر، وتتحامى عن قربه الأسود القواسر.

ولد قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة فنشأ وترعرع في أحضان والده أبي طالب إلى أن بلغ من العمر سبع سنوات، فأصاب والده ضائقة شديدة. فضمه رسول الله ﷺ إليه رحمة بأبيه أبي طالب حيث خصص رسول الله ﷺ جانباً كبيراً من عنايته في تربيته والاهتمام بتهذيبه تهذيباً روحياً سداه ولحمته ينابيع النبوة ومعين الرسالة الفياض فعَلّ منها ونهل وصارت فيه صفة راسخة متحكمة تجلت في أعماله وأقواله وجميع حركاته وسكناته.

وهو أول صبي أسلم فلم يسجد لصنم قط، ولذا يقال كرم الله وجهه. ثم كان لرسول الله سيفه الباتر وحسامه القاطع فشهد المشاهد كلها. فكان المجلي والسابق في المعارك العنيفة التي تطيش فيها الأحلام، وتذهب بقلب الشجاع شعاعاً ما عدا غزوة تبوك فإن رسول الله ﷺ خلفه فيها على أهله.

وكان كاتب رسول الله ﷺ وعيبة سره. وقد ألفت في سيرته وتقشفه وعدله وشمائله التي تلحق بأسباب النبوة مؤلفات عدة قديماً وحديثاً.

(٣) هو أبو محمد عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي، ابن عم النبي ﷺ وأحد من تشبه به. وهو شقيق الفضل، وعبد الله، وقثم. أمهم أم الفضل «لبابة» بنت الحارث الهلالية أخت ميمون زوج النبي ﷺ رأى النبي ﷺ، وسمع منه، وحفظ عنه، وكان أصغر سناً من أخيه عبد الله بن عباس. يقال كان بينهما سنة. ومات النبي ﷺ وله اثنتا عشرة سنة. وكان سخياً جواداً يتخرق يذبح ويطعم في موضع المجزرة بسوق مكة.

قالوا كان عبد الله، وعبيد الله ابنا العباس إذا قدما مكة: أوسعهم عبد الله علماً، وعبيد الله طعاماً. =

وأعمالها. وعلى الجند سعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري [1]. ولم يزل عبيد الله بن عباس، على صنعاء اليمن يحج بالناس إلى آخر أيام علي رضي الله عنه.

= وكان رسول الله ﷺ يصفّ عبد الله، و «كثيراً» ابني العباس ويقول من سبق إلي فله كذا وكذا.. فيستبقون إلى ظهره وصدره فيقبّلهم ويلزمهم، وكان جميلاً، جهير الصوت. واختلف في وفاته قيل سنة ٨٧ هـ وقيل غير ذلك. استعمله علي رضي الله عنه على اليمن وكان يحج بالناس نيابة عن الإمام. وفي سنة ٤٠هـ بعث معاوية بسر بن أبي أرطاة إلى اليمن فتنحى عنه عبيدالله. فبعث عليّ جارية بن قدامة فهرب بسر. ورجع عبيدالله فلم يزل على اليمن حتى قتل علي رضي الله عنه.

ولكن هذا يشكل عما جاء في رواية أخرى أن عبيد الله كان أحد قواد الحسن ابن علي حينما أراد المسير لحرب معاوية بالجيش الذي كان قد أعده أمير المؤمنين. وكان قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري أيضاً أميراً على الجند المذكور. فلما علم عبيد الله بما يريده الحسن من خلع نفسه وتسليم الأمر إلى معاوية. كتب إلى معاوية يسأله الأمان لنفسه على ما أصاب من مال وغيره، وزيادة مائة ألف. فأجابه معاوية إلى ذلك. وفي قوله: فخرج عبيد الله متسللاً ليلاً وترك الجند. فقام قيس بن سعد خطيباً في الجند بعد ما بايعوه على الموت. فمما قاله منددا، على عبيد الله: وأما أبوه فأسره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري فأتاه رسول الله فأخذ فداءه فقسمه بين المسلمين. وإن أخاه ولاه أمير المؤمنين عليٌّ البصرة فسرق مال الله ومال المسلمين واشترى به الجواري وزعم أن ذلك له حلال. وأن هذا أيضاً ولاه علي اليمن فهرب من بسر وترك ولده حتى قتلوه، وصنع الآن هذا الذي صنع فتنادى الناس الحمد لله الذي أخرجه من بيننا انهض بنا إلى عدونا.

اللهم إلا أن يكون رجع إلى اليمن ثم لحق الحسن بعد موت عليّ كما في هذه الرواية وهو الظاهر فليحقق.

(١) هو سعيد بن سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن حرام بن خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصاري ابن سيد الخزرج وحامل لواء المعارضة يوم السقيفة وبطلها وابن الجواد، وأخو قيس بن سعد الجواد ابن الجواد ابن الجواد.

له صحبة، قليل الحديث. كان والياً لعلي على اليمن وحديثه في النسائي وابن ماجة. روى عنه ولده شرحبيل بن سعيد وعن ابن ابنه عمرو بن شرحبيل. كذا في الإصابة وفي الاستيعاب.

قلت وعمالة سعيد بن سعد بن عبادة لعليّ على الجند باليمن يكاد أن يكون أمراً مجمعاً عليه عند المؤرخين وفي ابن أبي الحديد: أن عامل علي على «الجند» سعيد بن نمران الناعطي الهمداني، وأنه لما قدم سعيد بن نمران من «اليمن» على «عليّ» وهو بالكوفة عتب عليه وعلى «عبيد الله بن عباس» أن لا يكونا قاتلا «بسراً» فقال سعيد: قد والله قاتلت ولكن ابن عباس خذلني وأبى أن يقاتل، ولقد خلوت به حين دنا «بسر» فقلت إن ابن عمك لا يرضى مني ومنك بدون الجد في قتالهم. قال لا والله ما لنا بهم طاقة ولا يدان. فقمت في الناس فحمدت الله ثم قلت: يا أهل اليمن من كان في طاعتنا وعلى بيعة أمير المؤمنين عليه السلام فإليّ إليّ. فأجابني منهم عصابة فاستقدمت بهم فقاتلت قتالاً ضعيفاً وتفرق الناس عني. انتهى كلام ابن أبي الحديد. وفيه إشكال فإن سعيد بن نمران كان كاتب علي =

ثم إن معاوية سير جيشاً إلى اليمن أمر عليهم بسر بن أرطاة العامري [1] وأمره أن يقتل شيعة عليّ فبلغ المدينة وقتل بها جماعة وهدم دوراً ثم أتى إلى مكة فقتل قوماً من ولد أبي لهب، فلما قرب من صنعاء جمع عبيد الله بن عباس أهل صنعاء فخطبهم وحضهم على القتال، فقال له فيروز الديلمي: احترز في نفسك. فلما أيس من نصرهم استخلف عمرو بن أراكة الثقفي [2] على عمله وسار يريد عليًّا عليه السلام وترك ولدين له صغيرين.

فلما قدم صنعاء انحازت عنه همدان إلى شبام [3] فاستدعى الولديـن الصغيرين وقتلهما، وقيل ذبحهما بيده، وقبرهما بصنعاء مشهور مزار [4] وكان الأكبر منهما ابن ثمان سنين، ثم قتل خليفة عبيد الله بن عباس [5] وقتل من الأبناء [6] اثنين وسبعين رجلاً كانوا قد شفعوا

= وحضر موقعة الجمل. ولعل ابن أبي الحديد وهم من تشابه الاسمين. كما أنه ليس في ترجمة سعيد بن نمران التي في الإصابة أنه ولي لعلي أمراً باليمن فليرجع إلى مصادر أخرى.

(١) ويقال ابن أبي أرطاة من بني عامر بن لؤي العامري. ويكنى محرقاً لكثرة من حرّق.

وهو أول طاغية شيطان مريد دخل اليمن، وأول من سبا نساء مسلمات، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عملها إلى اليوم القيامة.

وكان قاسي القلب، فظاً غليظاً وأعرابياً جلفاً سفاكاً للدماء، لا رأفة عنده ولا رحمة. رجل سوء ارتكب أموراً عظاماً في الإسلام. وحاول اليمانيون قتله فأخفقوا وقتلوا له ابنين، ومات وقد تهوس بالجنون سنة ٨٠ من الهجرة.

(٢) كان عمرو بن أراكة قد تحصن بصنعاء، ومنع بسراً من الدخول إلى أن فتحها فظفر بعمرو ابن أراكة فقتله فرثاه أخوه عبد الله بن أراكة بقوله:

لعمري لقد أردى ابن أرطأة فارساً ... بصنعاء كالليث الهزبر أبي الأجر
تعز فإن كان البكاء رد هالكاً ... على أحد فاجهد بكاك على عمرو
ولا تبك ميتاً بعد ميت أحبه ... علي وعباس وآل أبي بكر

(٣) شبام بكسر الشين المعجمة وآخره ميم، هي التي صارت علماً بالغلبة على مدينة شبام حمير. وشبام أقيان بن زرعة بن سبأ الأصغر. وكانت تسمى قديماً «يحبس».

وهي مدينة حميرية أثرية قديمة متأثلة تمتاز بمناظرها الجميلة الفاتنة. ومآثرها الغنية بالمساند الحميرية والنقوش الأثرية بمختلف أنواع القلم المسند، وكانت أحد جنان اليمن. تقع على سفح جبل ذخار ذات سور محكم الصنع. كان الأمير الخطير يعفر بن عبد الرحمن الحوالي الآتي ذكره قد ضربه عليها. وقد أكل عليه الدهر وشرب. وكانت دار ملكه وتقع في الغرب الشمالي من صنعاء.

(٤) حتى إلى اليوم ويسمى المسجد الذي فيه قبرهما: مسجد الشهيدين.

(٥) هو عمرو بن أراكة مقدم الذكر. وفي الجندي أن الولد الكبير ابن عشر سنين، والصغير ابن ثمان، وكما اختلف في سنهما اختلف في اسمهما وأمهما. فقيل اسمهما عبد الرحمن وقثم وأمهما من بالحارث بن كعب. وقيل من كنانة.

(٦) هم بقايا الجيش الفارسي الذي خرج نجدة للملك المنقذ سيف بن ذي يزن الحميري. وقد =

بالولدين فدفن الولدين حيث قتلا، وبنى عليهما مسجداً يعرف بمسجد الشهيدين مشهور الفضل والبركة.

ولما بلغ علياً رضي الله عنه دخول «بسر» اليمن وما فعله جهز ألفي فارس من الكوفة، ومثلها من البصرة. وأمر على الجميع جارية بن قدامة السعدي (١) وأمره بدخول اليمن ومتابعة «بسر» حيث كان، ومطالبته بما أحدث في اليمن من قتل وفساد.

فلما دخل اليمن هرب بسر وتفرق أصحابه. فنكل جارية بمن ظفر من أصحابه وقتل مستحق القتل منهم. ثم عاد إلى مكة. فلما دخلها بلغه موت علي رضي الله عنه فأخذ جارية البيعة على أصحابه وعلى أهل مكة لمن بايع له أصحاب عليّ عليه السلام، وكان الحجاز

= اختلفوا في تسميتهم بالأبناء على أقوال: أوجهها أن كسرى لما جهز مع الملك سيف الجيش المذكور قال له مرازيته أمدّه بمن في سجونك فإن ظفروا فأبناؤك وإن قتلوا فأعداؤك. فأمده بهم ووهبهم له. وقيل إنما سموا بالأبناء لأنه كان يقال لهم هؤلاء أبناء سيف، وقيل غير ذلك. وقد ذابوا في المجتمع اليمني وتلاشوا، فلا يعرف منهم إلا النزر اليسير في بادية «خولان العالية» لمن تتبع ذلك واستقرأ، ومنهم في قرية الفرس وقرية الأبناء في السر.

(١) جارية ـ بالجيم آخره تاء التأنيث ـ وهو جارية بن قدامة بن مالك بن زهير بن حصن بن رزاح بن سعد بن بحير بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم السعدي. يقال إنه عم الأحنف بن قيس، وقيل كان عمه على سبيل التعظيم. يكنى أبا عمر، وله صحبة. وفي سند قال: قلت يا رسول الله، أوصني وأقلل. قال: لا تغضب. ولجارية قصة مع «معاوية» يقول فيها سل حاجتك يا أبا قندس. قال: تقر الناس في بيوتهم فلا توفدهم إليك فإنما يوفدون إليك الأغنياء، ويذرون الفقراء.

وكان جارية من فرسان «علي» المعدودين، وقواده المساعير، وأصحابه المخلصين. شهد مشاهده كلها. ولما ندب علي أصحابه لبعث سرية في أثر «بسر» تثاقلوا. وأجابه «جارية» المذكور فبعثه في ألفين. فشخص إلى البصرة، ثم أخذ طريق الحجاز حتى قدم اليمن. وسأل عن بسر؟ فقيل أخذ في بلاد بني تميم. فقال أخذ في ديار قوم يمنعون أنفسهم.

وبلغ بسر مسير «جارية» فانحدر إلى اليمامة، وجدّ «جارية» في السير ما يلتفت إلى مدينة مر بها ولا أهل حصن ولا يعرج على شيء. إلا أن يرمل بعض أصحابه من الزاد فيأمر أصحابه بمواساته، أو يسقط بعير رجل، أو يحفى دابته فيأمر أصحابه أن يعقبوه. حتى انتهى إلى أرض اليمن. فنكل بشيعة «عثمان» ومثّل قريباً دور بسر في أصحاب علي. وهرب منهم بشعاف الجبال. فتبعتهم شيعة علي، وتداعت عليهم من كل جانب، ولا زال يطارد «بسراً» حتى أخرجه من أعمال اليمن.

ثم أقام بجرش نحواً من شهر حتى استراح وأراح أصحابه. ووثب الناس ببسر في طريقة لما انصرف بين يدي جارية لسوء سيرته، وفظاعة أعماله، وفظاظة طباعه.

وهكذا منيت اليمن بكارثة عنيفة، إثر كارثة أتت على البقية الباقية التي أفقدتها ساداتها وزعماءها، وما أبقت الأيام منها.

واليمن وخراسان والعراق تحت علي عليه السلام يستخلف على ذلك من يشاء من صالحي أصحابه رضي الله عنهم.

الفصل الرابع

في ذكر عمال بني أمية[1] على اليمن

ولما صار الأمر بعد موت علي رضي الله عنه إلى معاوية بن أبي سفيان[2]

---

(١) نسبت هذه الدولة إلى جدها أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وتبتدئ بمؤسسها «معاوية بن أبي سفيان» وبمبايعته المبايعة العامة سنة ٤١ هـ. وتنتهي بمقتل مروان بن محمد بن مروان سنة ١٣٢ هـ اثنتين وثلاثين ومائة. ومدة حكمها واحد وتسعون سنة وتسعة أشهر. وفي مروج الذهب: ألف شهر لا تزيد ولا تنقص. وعدتهم أربعة عشرة خليفة من بني حرب بن أمية، ثلاثة «معاوية» وابنه «يزيد» وابنه «معاوية». ومن بني العاص بن أمية أحد عشر يأتي ذكرهم. والنسبة إلى أمية «أموي» بالفتح على غير قياس. قال ابن حزم: وكانت دولة بني أمية على علاتها دولة عربية لم تتخذ منها قاعدة ولا أكثروا من اختزان الأموال ولا بناء القصور. ولا استعملوا على المسلمين بأن يأمروهم ويخاطبوهم أو يكاتبوهم بالعبودية أو المولوية، ولا تقبيل أرض ولا رجل ولا يد وإنما غرضهم الطاعة الصحيحة من التولية والعزل في أقاصي البلاد وأدانيها لا غير.

(٢) واسم أبي سفيان «صخر» بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف يجتمع هو والنبي ﷺ في عبد مناف. ومع عثمان بن عفان في «أمية» يكنى أبا عبد الرحمن.

ولد معاوية بمكة قبل الهجرة بخمس عشر سنة وفي يوم الفتح كان سنه ٢٣ سنة. وفي ذلك اليوم دخل في دين الإسلام مع أبيه وأمه «هند بنت عتبة» وغيرهم من مسلمة الفتح، وكان هو وأبوه من المؤلفة قلوبهم، وكتب بعد إسلامه بين يدي رسول الله ﷺ، وشهد «حنيناً» وفي خلافة «أبي بكر» ولاه قيادة جيش وأرسله مدداً لأخيه «يزيد بن أبي سفيان» وأمره أن يلحق به غازياً تحت إمرة أخيه، وكان على مقدمته في فتح مدينة «صيدا» وسواحل «دمشق» ثم ولاه «عمر» ولاية «الأردن» ولما توفي أخوه يزيد في طاعون «عمواس» ولاه «عمر» ما كان تحت يد أخيه، وفي عهد «عثمان» جمع لمعاوية «الشام» كلها فكان ولاة أمصارها تحت أمره، وظل أميراً عشرين عاماً لعهد الخليفتين المذكورين. ولما قتل عثمان لم يبايع لعليّ، وقام مطالباً بدم عثمان متعللاً أنه وليُّه وأقرب الناس إليه فكان من هذا الخلاف مجازر صفين التي أفنت كثيراً من سرواة القبائل وعِلْيَة الناس ومن أفنائهم، لا سيما من اليمانية ثم انتهت بالتحكيم الذي باء بالفشل، وبايعه أهل الشام بالخلافة فصار إمام أهل الشام، وعليّ الإمام الشرعي. ثم بايعه أهل العراق بيعة أخرى وما زال الخلاف محتدماً على أشده، حتى قتل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وقام بعده ابنه الحسن ومكث ستة أشهر، ثم تنازل عن الخلافة لمعاوية لأسباب مذكورة في التاريخ، ومن حينئذ اجتمعت الكلمة على بيعة «معاوية» من أهل العراق وأهل الشام =

استعمل على اليمن عثمان بن عفان الثقفي [1] مدة، ثم عزله بأخيه عتبة بن أبي سفيان [2] وجمع له ولاية المخلافين صنعاء والجند، ثم استخلف على اليمن فيروز الديلمي، ثم النعمان بن بشير الأنصاري [3]. ثم عزله ببشير بن سعد

= وسمي ذلك العام، الحادي والأربعون من الهجرة، عام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين وبذلك يكون ابتداء خلافته الخلافة العامة في ربيع الأول سنة ٤١ هـ. وصارت الخلافة ملكاً عضوداً.

وكان معاوية أحد دهاة العرب الخمسة وهم معاوية، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة الثقفي، وسعيد بن قيس الهمداني. وقد يبدله بعضهم، ببديل بن ورقاء الخزاعي، وكان حليماً ذكياً ذلقاً ذا مكر وخديعة وسياسة خارقة، وقد لا يوجد تصوير أدق لسياسة معاوية وطريقة حكمه من قوله «لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت» وقيل وكيف؟ قال: «كنت إذا مدوها خليتها، وإذا خلوها مددتها» وكان يقول: «لا أحمل السيف على من لا سيف معه، وإن لم تكن إلا كلمة يشتفي بها مشتف جعلتها تحت قدمي ودبر أذني...» فهذا القول يبين حلمه وطول باعه في السياسة، وهدوء أعصابه إذا جابهته المعضلات أو نزلت بساحته الكوارث والمشكلات، وطالبه أهل العراق بعزل عامل فعزله، فقيل له في ذلك فقال لأن أعزل عاملاً لهم خير من أن أشهر عليهم مائة سيف ثم لا أدري لي أم علي.

ومعاوية هو المؤسس الأول لدولة بني أمية وإن كان قد سبقه عثمان بن عفان وهو أول من خطب قاعداً وأول من وضع الخراج وأول من جعل الحرس وأول من اتخذ ولاية العهد في الإسلام وغير ذلك.

(١) كذا في الأصل وفي الإصابة «عثمان بن عثمان» بتكرير عثمان الأب ولعله الأصح وإنما جاء الغلط لما علق في الأذهان اسم الخليفة عثمان الثالث، ولعله من النساخ.

نزل حمص. قال ابن أبي حاتم: كان من أصحاب النبي ﷺ، وقال ابن مندة كان أميراً على صنعاء الشام. قلت: ولعله وهم ابن مندة فأبدل صنعاء اليمن بصنعاء الشام، ثم ساق له حديث «إن الله يقبل التوبة عن عبده قبل موته قبل أن يغرغر» هذا ما وقفت عليه في الإصابة.

(٢) هو أخو معاوية لأبويه، ولد في عهد رسول الله ﷺ ولاه عمر بن الخطاب «الطائف» ثم طوى ذكره التاريخ وظهر يوم الدار يوم قتل عثمان ثم اختفى مرة أخرى حتى ظهر عاملاً بالطائف لأخيه معاوية وحج بالناس سنة إحدى وأربعين وخطب خطبة بليغة، ثم ولاه مصر فمات بالإسكندرية ولم يذكر في الإصابة توليته اليمن. قلت: وأقام عاملاً لأخيه بمدينة «الجند» سنتين وقيل ثلاثاً ثم لحق بأخيه.

(٣) هو النعمان بن بشير ـ بفتح الباء الموحدة ـ ابن سعد بن نصر بن ثعلبة بن حلاس بن زيد بن مالك بن الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الخزرجي الأنصاري، وأمه «عمرة بنت رواحة» أخت عبد الله بن رواحة.

كان هو وأبوه من كبار الصحابة، كما كانا من أشراف الأنصار وسادة قومهم وكانا من بيت شعر =

= معرق في الشعر نبغ منهم عدة شعراء حتى النساء منهم، ووالد النعمان هو أول من كسر على سيد الخزرج سعد بن عبادة يوم السقيفة نفاسة.

والنعمان أول مولود في الإسلام من الأنصار وكان شاعراً مفلقاً وخطيباً مفوهاً وفارساً مغواراً وكريماً نجداً، ولما قتل عثمان كان هو أول من طار بقميص عثمان إلى معاوية بالشام لأنه يرى أنه قتل مظلوماً ولأياد سلفت من عثمان إليه فصار مكيناً أثيراً عند معاوية، كريماً عليه رفيقاً به وعند ابنه يزيد. وسيداً مطاعاً ينفذان أمره ورأيه، ويقبلان مشورته ويحترمه قومه وعشيرته، وكان يغار على قومه إن مسهم ضيم أو نالهم هضم في حقوقهم فيدخل على معاوية مشمخر الأنف ينشده الشعر الجزل يهدده فيه فما يخرج من عنده إلا وقد أرضاه وقضى حقوقه وله في ذلك عدة مواقف.

شهد «صفين» مع معاوية ولم يكن مع معاوية من الأنصار سواه وهو أحد من بعثهم معاوية إلى عليّ ليسلم إليه قتلة عثمان.

ولاه معاوية الكوفة وأقام بها سبعة أشهر وأمره معاوية بزيادة عشرة دنانير في أعطيات أهل الكوفة فأبى تنفيذ ذلك لأنه كان يكرههم لتشيعهم وكان هو عثمانياً فشكاه أهل الكوفة فعزله وعقد له ولاية اليمن فدخلها ومكث بها والياً سنة وتزوج من كندة بنت الأمير هانئ الكندي وهي أم ولده يزيد وقال في ذلك:

إني لعمر أبيك يا ابنة هانئٍ … لو تصحبين ركائبي لشقيت
وتسر أمك أننا لم نصطحب … فدعي التبسط للسفار نسيت
واقني حياتك واقعدي مكفية … إن كنت للرشد المصيب هديت
ولعل ذاك أن يراد فتكرهي … وهناك إن عفت السفار عصيت
أنى تذكرها وغمرة دونها … هيهات أين قناة من برهوت

ثم عزله معاوية عن اليمن وولاه مقاطعة «حمص» ولا زال والياً عليها إلى أن قام ابن الزبير في التاريخ الآتي، فبايع ابن الزبير ومال إليه، فلما غلب مروان على الشام وثب عليه أهلها وذلك سنة ٦٥ خمس وستين، فقتلوه.

يروى أن أعشى همدان خرج إلى الشام في ولاية مروان بن الحكم أو غيره فلم ينل منه حظاً فجاء إلى النعمان بن البشير الأنصاري وهو عامل على «حمص» فكلم اليمانية وقال هذا شاعر اليمن ولسانها واستماحهم له، فقالوا نعم يعطيه كل واحد منا دينارين من عطائه. فقال لا أعطوه ديناراً ديناراً واجعلوها معجلة، فقالوا: أعطه إياها من بيت المال واحتسبها على كل واحد من عطائه، ففعل النعمان، وكانوا عشرين ألفاً فأعطاه عشرين ألف دينار وارتجعها عند العطاء فقال الأعشى يمدحه:

ولم أر للحاجات عند التماسها … كنعمان نعمان الندى بن بشير
إذا قال أوفى ما يقول ولم يكن … كمدل إلى الأقوام حبل غرور
متى أكفر النعمان لم ألف شاكراً … وما خير من لا يقتدي بشكور
فلولا أخو الأنصار كنت كنازل … ثوى ما ثوى لم ينقلب بنقير

ومن شعر النعمان بن بشير:

وإني لأعطي المال من ليس سائلاً … وأدرك للمولى المعاند بالظلم =

الأعـرج [1] . ثم استعمـل بعـده الضحـاك بـن فيروز الديلمي [2] . فلم يـزل واليـاً على اليمـن إلى أن تـوفي معـاويـة ، ولما ولي يـزيـد بـن معـاويـة [3] ،

= وإني متى مـا يلقني صـار مـالـه | فما بيننا عند الشدائـد مـن صَرم
فـلا تعـدد المولى شريكـك في الغنـى | ولكنما المولى شريكـك في العـدم
إذا مـت ذو القـربـى إليـك بـرحمه | وغشـك واستغنـى فليس بـذي رحـم
ولكـنَّ ذا القـربـى الذي يستخفـه | إذاك ومـن يـرمـي العدو الذي تـرمـي

(١) قال الجندي بشير بن سعد بن عبد الله بن عاقل ، عرف بالأعرج وكان معيناً ليعلي بن أمية بإشارة عمر بن الخطاب ، حكى أنه قدم على عمر فلما سلم عليه سأله أين تريد ؟ قال العراق ، قال ارجع إلى صاحبك « يعلي » فإن عملكما صالح بحق جهاد حسن ، وخذ صدقة الماشية فلا تعيبوا الحسنة ولا ترزأوا صاحبها واقسموها ثلاثاً ، ويختار صاحب الغنم ثلثاً واختاروا الصدقة من الثلثين الباقيين قال فقمت من عند عمر وعدت صنعاء وبعثت إلى معونة « يعلي » واعتمدنا ما قاله عمر . ومتى اجتمع معنا شيء فرقناه في موضعه على فقرائه ثم نرجع ليس معنا إلا أسياطنا .

وقال الجندي في موضع آخر وذلك عن تعداد عمال « معاوية » ثم عزل - يعني النعمان بن بشير الأنصاري - بشير بن سعد الأعرج الخ . ثم عزل برجل من أهل الجند يقال له سعد بن ذادويه فأقام والياً تسعة أشهر ومات عقبها . قلت : فأثبت الواسطة بين بشير الأعرج وبين الضحاك بن فيروز ، ومثله في بغية المستفيد . إلا أنه قال : سعيد بن داذويه الفارسي بزيادة الفارسي ، وفي الإصابة سعد بن مالك الأعرج ، ويقال الأقرع اليماني أدرك النبي ﷺ ، ووفد على عمر ، روى البخاري من طريق سماك بن الفضل عن شهاب بن عبد الله عن سعد الأعرج فقال له عمر أين تريد ؟ قال الجهاد ، قال ارجع إلى صاحبك ، يعني يعلي بن منبه وكان على اليمن - فإنّ عملاً بحق جهاد حسن ، وأخرجه عبد الرزاق مطولاً ، فأنت ترى أن الذي في الإصابة سعد بن عبد الله بحذف بشير وكذلك فيما تقدم عند ترجمة « يعلي » أن سعد بن عبد الله كان عامله على « حفاش » و« ملحان » وما في الأصل ، وما في الجندي بشير بن سعد بن عبد الله فليرجع إلى الأصول القديمة ، فإن صاحب البلاد أعرف بتاريخ وطنه من غيره .

(٢) الضحاك بن فيرون تابعي جليل من أبناء فارس وقد سبقت ترجمة والده فيروز في ص ٨٦ وقد تولى لمعاوية ثماني سنوات . وكان مجتهداً بالعبادة ، قال مؤذنه راشد بن أبي الحرش : « ما أتيت الضحاك أؤذنه بالصلوة إلا وجدته مستعداً » أسند عن أبي هريرة ، وكانت وفاته سنة أربع عشرة ومائة .

(٣) يزيد بن معاوية من سنة ٦٠ هـ إلى سنة ٦٤ هـ ، هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي ، وأمه ميسون بنت بحدل الكلبية ، ولد سنة ٢٦ هـ وأبوه أمير على الشام لعثمان بن عفان ، فتربى في حجر الإمارة ونما وشب في خلافة أبيه . ولما أراد معاوية أن يرشحه للإمامة ولاه الحج مرتين وولاه الصائفة وأرسله في الجيش الذي غزا القسطنطينية وكان مغرماً بالصيد والقنص وتوفي يزيد بن معاوية « بحوران » من الشام وسنه تسع وثلاثـون سنة وخلافته ثلاث سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً . =

استعمل على اليمن، بحير بن ريسان الحميري [1] على المخلافين معاً إلى أن توفي يزيد، ولما تولى عبد الله بن الزبير رضي الله عنه [2] استعمل على اليمن الضحاك بن فيروز الديلمي، ثم

= ولم أعثر فيما بين أيدينا من المصادر على حوادث في اليمن السعيدة أيام معاوية وولده يزيد، ولعله لم يكن إذ كانت الأمة منهوكة القوى بعد فظائع بُسر وما تلاها من فعلات جارية بن قدامة ووقعة الجمل وصفين وغير ذلك.

(١) بحير بن ريسان - بالباء الموحدة والحاء المهملة ثم ياء مثناة من تحت وراء - وريسان بالراء المكسورة بعدها ياء مثناة من تحت وسين مهملة آخره نون ويجوز فتح الراء، لم أجد سلسلة نسبه فيما عندي من الكتب.

كان سيداً كريماً وزعيماً نبيلاً وأميراً عظيماً يعطي العطاء الجزل ويثيب المادحين بأسنى الجوائز وأعظم الرغائب فهو أحد أجواد اليمن وخاتم خاتمها. وكان يأنف أن يُسأل شيئاً يسيراً وربما عاقب سائله، حكي أن رجلاً قصده من الحجاز وامتدحه بشعر منه قوله:

بحير بن ريسان الذي ساد حميراً ... ونائلة مثل الفرات غزير
وإني لأرجو من بحير وليدة ... وذاك من الحرّ الكريم كثير

فغضب عليه «بحير» وقال ترحل من الحجاز لا ترجو إلا وليدة ثم أمر به فضرب أسواطاً وبعث له بعشر ولائد وأحسن جائزته... وكان قد التزم من يزيد خراج اليمن بمال يحمله كل سنة ما بقيت ليزيد ولاية، وكان شفيقاً على الرعية رفيقاً بهم متين الأخلاق حسن السيرة نشر العدل في ربوع اليمن ومد عليه سرادق الاستقرار والرخاء ولم أقف على تاريخ وفاته.

(٢) خلافة ابن الزبير من سنة ٦٤ هـ. إلى سنة ٧٣ هـ. هو أمير المؤمنين أبو عبد الرحمن وقيل أبو خبيب، عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب الأسدي القرشي. يجتمع بالنبي ﷺ في قصي وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق الملقبة بذات النطاقين، فهو صحابي ابن صحابي، وجدته صفية عمة رسول الله وعمة أبيه خديجة بن خويلد وأبوه حواري النبي ﷺ وهو أحد العبادلة وأحد الشجعان وأحد أباة الضيم وأحد من ولي الخلافة والنساك المجتهدين في العبادة، وأول مولود في الإسلام من المهاجرين، وأحد الطلس الأربعة الذين لا لحنة لهم ولا شعر في وجوههم، وثانيهم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري وثالثهم القاضي شريح الكندي والرابع الأحنف بن قيس؛ وقد جمعهم بعض الأدباء في بيتين بقوله:

إن السراة الطلس كانوا أربعة ... الأحنف بن قيس أيضاً ومعه
قيس بن سعد وشريح القاضي ... وابن الزبير الحسن التقاضي

ولد بالمدينة بعد عشر من الهجرة، وكانت ولادته «بقبا» ولما ولدت به «أسماء» أتت به رسول الله ﷺ فوضعته في حجره، فدعا بتمرة فمضغها ثم وضعها في فمه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ وبرك فيه وأمره أبوه أن يبايع النبي ﷺ وهو ابن ثمان فتبسم رسول الله ﷺ حين رآه وبايعه، وقيل إنه جاء في غلمة من المهاجرين والأنصار الذين ولدوا في الإسلام فتكعكعوا، فاقتحم عبدالله بن الزبير أولهم فتبسم رسول الله ﷺ وقال: إنه ابن أبيه. =

عزله بعبد الله بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد [١]، ثم عزله بعبد الله بن المطلب بن أبي وداعة السهمي، ثم عزله بأخيه عبيدة بن الزبير. ثم عزلـه بحنش بن عبد الله الفقيه [٢]، ثم

= بويع لعبد الله بـن الزبير بالخلافـة سنة أربع وستين بانتخـاب أكثر الأمة فكان خليفة شرعياً مستمداً سلطته من الأمة والشعوب التي دخلت تحت طاعته برضائها وطواعية منها، وبدون أن يشهر عليها سيفاً أو يعلن لها حرباً فبايعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان ومصر، وبالشام الضحاك بن قيس الفهري بدمشق، والنعمان بن بشير الأنصاري بحمص، وزفر بن الحارث الكلابي بقنسرين، إلا طائفة من اليمانية من أهل الأردن فإنهم ظلوا متمسكين بالبيت الأموي وهواهم فيهم وحينئذ أصبح بالشام حزبـان حزب يدعو إلى ابن الزبير وهم القيسية وبعض من اليمانية، وحزب يدعو للأموية وهم اليمانية، فنفر مروان بن الحكم مـن المدينة فاراً من ابن الزبير فاتصل باليمانية فتم معهم على شروط أملوها عليه فقبلها وبايعوه وكان على أثرها وقعة «مرج راهط» انتصرت اليمانية على القيسية وتغلب مروان على الشام وقيل إن مروان كان خارج «المدينة» وكان يريد مبايعة ابن الزبير فصده عبيد الله بن زياد، وهاتان الروايتان هما المشهورتان، وفي الجندي أن ابن الزبير وجه مروان ليأخذ بيعة أهل الأردن فلما ورد الأردن خلع طاعة ابن الزبير وكان أول من شق عصا الطاعة بلا تأويل ولا شبهة.

ظل ابن الزبير خليفة شرعياً رؤوفاً بالمؤمنين عادلاً في أحكامه وسياسته يمثل السلف الصالح ويقتدى بسيرة الخلفاء الراشدين إلى أن سقطت مكة بيد الطاغية «الحجاج بن يوسف الثقفي» بعد حصار دام أربعة أشهر تجلت فيه بطولته النادرة التي صارت مثالاً للإباء والشمم وموضع إعجاب التاريخ وسجل أروع صفحات الشجاعة والبأس ولقد كانت تمر حجر المنجنيق بين يديه وهو راكع فلا يبدي أي فزع واضطراب وتخلى عنه أولاده وغالب جنده إلا بعض من كره الحياة. ولوالدته أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها مواقف رائعة في تشجيعه على الثبات والمضيّ قدماً في أمره حتى يلفظ النفس الأخير. وهونت له الموت وما ينجم بعده من السلخ والشماتة. وله معها حوار طويل إن دل على شيء فإنما يدل على نفسية كبيرة للسيدة أسماء، وأنها تأنف حياة الذل والهوان.. ولما تكاثر عليه أصحاب الحجاج صاح بهم وتقدم نحوهم كالأسد الهصور ففروا من أمامه حتى بلغوا الحجون. فرماه رجل منهم من «السكون» فأصابته في وجهه فأرعش ودمي وجهه فلما وجد الدم على وجهه قال:

فلسنـا على الأعقـاب تـدمـى كلـومنـا ... ولكـن على أعقـابنـا تقطـر الدمـا

وقاتلهم قتالاً شديداً فتعاوروا عليه حتى قتلوه يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ وله ثلاث وسبعون سنة وتولى قتله رجل من «مراد» وكانت مدة خلافته تسع سنين وشهرين ونصف.

(١) هو ابن عبد شمس الملقب بالأزرق أحد أجواد العرب وليس من ولد خالد بن الوليد بن المغيرة إذ انقطع نسبه بعبدان.

(٢) هو أبو رشيد بن حنش بن عبد الله بن حنظلة بن فهد بن قينان بن ثعلبة بن تامر السبائي الصنعاني وأمه من الأبناء ولذلك يظن أنه أبناوي. وهو تابعي كبير ثقة عـدّه مسلم في تابعي الجند، والبخاري في تابعي صنعاء ويقال الصنعاني المصري لأنه صار إلى مصر في آخر عمره. وكان مع «علي» =

عزله بقيس بن يزيد السعدي[1]. ولما صار الأمر إلى عبد الملك بن مروان[2] واستولى

= بالكوفة وقدم مصر بعد قتل عليّ وغزا المغرب مع رويفع بن ثابت، والأندلس مع موسى بن نصير اللخمي.

ولاه ابن الزبير على صنعاء فأقام أربعة أشهر وقتل ابن الزبير ووصل أصحاب الحجاج فأسروه وجيء به إلى مكة مقيداً فوجه به إلى عبد الملك فلما وصل إليه أطلقه فانتجع مصر ثم كان دخوله أفريقية، والأندلس فنزل «سرقسطة» وأسس جامعها ومات فيها ودفن عند بابها الغربي وله رواية في الحديث وقد وهم من نسبه إلى صنعاء الشام.

(١) لم أجد لهذا ترجمة. وأقام والياً باليمن عشرة أشهر. واستعمل ابن الزبير ولاة لا يقفون إلا أربعة أشهر ونحوها. وكذلك من قبله يقيم سنة فصاعداً أو سافلاً.

ولم أعثر على حوادث لها شأن في عصر ابن الزبير سوى غزاة نجدة بن عامر الحنفي. وكان من أعاظم الخوارج، فإنه سار من اليمامة بخف من جيشة إلى صنعاء فدخلها على غرة فبايعه أهلها وظنوا أن وراءه جيشاً كبيراً. فلما لم يروا مدداً يأتيه ندموا على بيعته وبلغه ذلك، فقال: إن شئتم أقلتكم وجعلتكم في حل وقاتلتكم فقالوا لا نستقيل بيعتنا. فبعث إلى مخاليفها فأخذ منهم الصدقة، وبعث أبا فديك إلى حضرموت فجبى صدقات أهلها وأقام برهة ولم يحدث حدثاً ثم عاد من حيث أتى وذلك سنة واحد وسبعين. ولم يزل اليمن في ولاية ابن الزبير إلى أن قتل في تاريخه المتقدم.

(٢) «عبد الملك بن مروان من سنة ٧٣ هـ إلى سنة ٨٦ هـ».

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. وكنيته أبو الوليد وأبو الذبان لبخر في فيه، ولقبوه «رشح الحجر» لبخله.

يقال إنه ولد لستة أشهر وذلك سنة ٢٦ هـ بالمدينة؛ فشب عاقلاً حازماً أديباً لبيباً عابداً وكان معدوداً من فقهاء المدينة يقرن بسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير. وكان يقال له حمامة المسجد لملازمته له. وجاءت الخلافة عبد الملك وهو في المسجد وفي حجره المصحف فقام وطبق المصحف وقال هذا فراق بيني وبينك. ومن طريف ما يحكى، ما رواه الإمام الشعبي. قال: لقد رأيت عجباً، كنا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، ومصعب بن الزبير، وعبد الملك بن مروان. فقال القوم بعد ما فرغوا من صلاتهم: ليقم رجل منكم فليأخذ الركن اليماني وليسأل حاجته فإنه يعطى من ساعته. فقالوا قم يا عبد الله بن الزبير فإنك أول مولود في الهجرة. فقام وأخذ بالركن اليماني، ثم قال اللهم إنك عظيم ترجى لكل عظيم أسألك بحرمة عرشك وحرمة وجهك وحرمة نبيك أن لا تميتني حتى توليني الحجاز ويسلم عليّ بالخلافة وجاء حتى جلس. فقال قم يا مصعب، فقام حتى أخذ بالركن اليماني. فقال اللهم إنك رب كل شيء، وإليك المصير يصير كل شيء أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني العراق وتزوجني سكينة بنت الحسين. وجاء حتى جلس. فقال قم يا عبد الملك. فقام وأخذ بالركن اليماني وقال اللهم رب السموات السبع ورب الأرض ذات القفر أسألك بما سألك عبادك المطيعون لأمرك وأسألك بحرمة وجهك وأسألك بحقك وحق الطائفين حول بيتك أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني شرق الأرض ومغربها ولا ينازعني أحد إلا أتيت برأسه ثم جاء حتى جلس. فقال قم يا عبد الله بن عمر. =

الحجاج[1] على مكة، استعمل على صنعاء أخاه محمد بن يوسف، وعلى الجند واقد بن سلمة

= فقام حتى أخذ بالركن اليماني ثم قال اللهم إنك رحمن رحيم أسألك برحمتك التي سبقت غضبك وأسألك بقدرتك على جميع خلقك أن لا تميتني من الدنيا حتى توجب لي الجنة.. قال الإمام الشعبي فما ذهبت عيناي من الدنيا حتى رأيت كل رجل أوتي ما سئل. ويبشر عبد الله بن عمر بالجنة ورويت له.

بويع بعهد من أبيه فتغلب على الصعاب كلها وهي كثيرة وقضى على الخليفة الشرعي ابن الزبير وأصلت على الأمة سيفه النزق وحكمها بالقهر والغلب.

قال الحافظ الذهبي: إن مروان لا يعد في أمراء المؤمنين بل هو متغلب على ابن الزبير. وكذلك عهده لولده عبد الملك غير صحيح وإنما صحت من حين قتل ابن الزبير.

ويعد عبد الملك المؤسس الثاني لدولة بني أمية ولبني مروان خاصة وكل الخلفاء من أولاده وأحفاده إلا عمر بن عبد العزيز ومروان بن محمد فإنهما من ولد أخويه.

وعبد الملك بن مروان أول من ضرب الدنانير الإسلامية، وكانت الدنانير رومية والدراهم كسروية وحميرية. وأول من عمم اللغة العربية في دواوين الممالك الإسلامية. وأول من غدر في الإسلام. وأول من منع الكلام في الإسلام بحضرة الخلفاء.

يروى أن عبد الملك قال: كنت أسير في الزرع فأتوق الجندب - نوع من الجراد - لأن أطأه فصار الحجاج يكتب إلي بقتل فئام - جماعة - من الناس فلا أحفل بذلك - قلت لأنه قد ران على قلبه حتى قسا نعوذ بالله من ذلك.

مات بدمشق في منتصف شوال سنة ٨٦ عن ستين سنة ومدة خلافته منذ بويع بالشام إحدى وعشرون سنة وبعد قتل ابن الزبير ثلاث عشر سنة، وخلف من الولد سبعة عشر ولداً تولى منهم أربعة.

(١) هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي. ولد بالطائف ولا زال يرتقي به الحال إلى أن صار من كبار قواد عبد الملك، أخمد له الثورات ببطشه وعنفه وقضى على ابن الزبير ومهد لعبد الملك سبيل الملك. وكان عبد الملك يحبه ويكرمه وأوصى بنيه بذلك. فقال أكرموا الحجاج فإنه وطأ لكم المنابر وأذل لكم الناس. وكان الحجاج ظلوماً غشوماً سفاكاً للدماء قتل كثيراً وحبس أكثر. وله في ذلك غرائب لم يسمع بمثلها. ويقال إن زياداً أراد أن يتشبه بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب في ضبط الأمور بالحزم والصرامة وإقامة السياسة إلا أنه أسرف وتجاوز الحد وأراد الحجاج أن يتشبه بزياد فأهلك ودمر وله أخبار كثيرة.. قال بعضهم لو لم يكن لعبد الملك إلا تولية الحجاج وتمكينه من رقاب الناس لكفاه مقتاً وخسراناً ومات سنة ٩٥ هـ عن أربع وخمسين سنة.

وكان آية في البلاغة وقوة العارضة وكثرة الاستشهاد بالقرآن، قال الأصمعي أربعة لم يلحنوا: الشعبي وعبد الملك بن مروان، وابن القرِّية، والحجاج. والحجاج أفصحهم..

وهو أول من وضع الشكل والنقط للمصحف. وأول من أنزل الجنود على الأهالي واحتلوا البيوت، أي ما يسمونه اليوم عندنا معاشر اليمانيين «الخطاط» ومع جبروت الحجاج فقد كانت له محاسن مذكورة في التواريخ.

الثقفي، وعلى حضرموت الحكم بن أيوب الثقفي [١] ولما مات أخو الحجاج استناب ابن عمه أيوب بن يحيى على اليمن، ولم يزل والياً عليها مدة أيام الوليد بن عبد الملك[٢] وهو الذي

---

(١) لم يكن عندي لمحمد بن يوسف ترجمة إلا مساءات وجرائم وجرائر ارتكبها باليمن بدون سابقة عداوة أو مبرر لها. فترك أسوأ الأثر وزاد تاريخه حلكة على ظلمة ولا غرابة فهو أخو الحجاج. فمنها أن عصبيته أملت عليه محو آثار اليمن وطمس معارفها، فعمد إلى ما أبقته الأيام عن أيدي المخربين فأنزل عليها الضربة القاسية ثم انثنى نحو مقابر حمير ومقاولها وتتبعها فنثلها كما تنثل الكنانة، واستخرج منها كمية كبيرة لا يستهان بها كانت من أنفس الذخائر وأعلى أعلاقها. فباع منها واستغل أثمانها وكون ثروة طائلة. ومنها ما أرسله إلى عبد الملك حيث ذهبت في خبر كان. وأتلف كثيراً من مساندها عدا ما أفسدته معاول الهدم والتخريب.

ومنها أنه جار واعتدى على ظلم اليمانية، وضرب عليهم أفدح الضرائب فبينما كانت اليمن عشرية جعلها خراجية. وتعب اليمانيون من أجل ذلك تعباً شديداً ولم يقدروا على رفع هذا الجور وهذا النير عن أعناقهم لكون الدولة في ميعة شبابها ثم أزالها عمر بن عبد العزيز الإمام العادل رضوان الله عليه كما يأتي في ترجمته.

ومنها أنه اتجر في مال الله واحتكر التجارة فيه وفي أهله واكتسب مالاً عظيماً وتضخمت ثروته، وذلك بإذن عبد الملك. وهو الذي هم بإحراق المجذومين وجلب لذلك الوقود والحطب.

وظل عاملاً باليمن لعبد الملك وصدراً من خلافة ولده إلى أن توفي لليال خلت من رجب سنة إحدى وتسعين فكتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج يعزيه. فكتب يا أمير المؤمنين ما التقيت أنا ومحمد كذا وكذا سنة إلا عاماً واحداً وما غاب عني غيبة أنا نقرب اللقاء أرجى من غيبته هذه في دار لا يتفرق فيها مؤمنان وروي أن عمر بن عبد العزيز خرج يوماً فقال الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، وفروة ابن شريك بمصر وعثمان بن حيان بالحجاز، ومحمد بن يوسف باليمن. امتلأت الأرض والله جوراً.

قيل لما قدم الحجاج «مكة» أرسل إلى طاووس بن كيسان الحميري. فقعد معه في الحجر فإذا هو بأعرابي أقبل من اليمن فأرسل إليه فأتاه فقال كيف تركت محمداً يعني صنوه قال تركته ظلوماً غشوماً. قال: ما سألتك عن هذا، كيف تركت سيرته. قال تركته ظلوماً غشوماً. قال لا أراك علمت مكاني؟ فقال أتراك أنك أعز مني بالله. ثم ولى وتركه. قال طاووس فما قرت عيني مثل جواب الأعرابي.

(٢) «الوليد الأول من سنة ٨٦ هـ إلى سنة ٩٦ هـ».

هو أبو العباس الوليد بن عبد الملك الأموي. تولى الخلافة يوم وفاة والده سنة ٨٦ ست وثمانين هـ، بعهد من أبيه بعد عمه عبد العزيز فمات عبد العزيز قبل أن يتولى.

وكان معدوداً من أعاظم ملوك بني أمية، وكان يقظاً حازماً محبباً إلى الرعية، معمراً خلف آثاراً حسنة.. فهو أول من أحدث المارستانات للفقراء وذوي العاهات والعجزة والأيتام، وأعطى كل مقعد خادماً. ولكل ضريراً قائداً. وأول من أجرى الطعام في المساجد لا سيما في رمضان وكتب إلى عمر بن عبد العزيز في تسهيل الثنايا «العقبات» وحفر الآبار وأمره أن يعمر القنوات بالمدينة فعملها وأجرى ماءها فلما حج الوليد ورآها أعجبته فأمر له بقوّم يقومون عليها وأمر أهل المسجد أن يستقوا منها. =

بنى الجامع بصنعاء حين زاد فيه الوليد ما زاد[1]، ولما تولى سليمان بن عبد الملك[2] استخلف على اليمن عروة بن محمد السعدي مدة خلافته، فلما تولى بعده ابن عمه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه[3] أقر عروة على عمله واستقضى وهب بن منبه عوف الكلبي مدة

= ومنع المجذومين من الخروج عن الناس وأجرى لهم الأرزاق واستوسقت له الأمور ووطئت جيوشه أصقاعاً وممالك لم يطأها المسلمون من قبل. وفيها الفردوس المفقود «الأنـدلس» التي فتحها القائد الشهير الأمير موسى بن نصير اللخمي.

وإلى الوليد بن عبد الملك ينسب الجامع الأموي بدمشق. وكانت ولادته سنة سنة خمسين من الهجرة وتوفي في دير مروان سنة ست وتسعين، عن ست وأربعين ومدة خلافته تسع سنين وستة أشهر.

(١) الذي جدد الجامع بصنعاء أيوب بن يحيى الثقفي المذكور ولم أجد له ولا الذين من قبل تراجم.

(٢) «سليمان بن عبد الملك من سنة ٩٦ هـ إلى سنة ٩٩ هـ».

هو أبو أيوب سليمان بن عبد الملك الأموي ولد سنة ٥٤ من الهجرة. بويع بالخلافة بعد موت أخيه الوليد بعهد منه وكان بالرملة من أرض فلسطين. ولما تولى أحسن التدبير والسياسة ورد المظالم وآوى الغرباء وفرج عن المسجونين واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيراً وكان سليمان يبغض الحجاج وأهله وكان الحجاج يخشى أن يموت الوليد قبله فيقع في يد سليمان فيعذبه وينال منه فمات الحجاج قبل الوليد وكان سليمان يميل إلى الأمير يزيد بن المهلب الأزدي وآله. وكان عدو الحجاج فولى سليمان يزيد المهلبي العراق وبلاد الشام فنكل بآل الحجاج أشر تنكيل وفتح يزيد فتوحات عظيمة وكان آل المهلب غرة في جبين الدهر. وكان لهم مآثر صالحات تجل عن الحصر. وكما أحسن سليمان إلى آل المهلب أساء إلى القائد الخطير موسى بن نصير اللخمي فاتح الأندلس فإنه جازاه جزاء «سنمار» فحبسه بعد أن عزله عن جميع أعماله وأغرمه مالاً عظيماً لم يقدر على وفائه لولا شفاعة يزيد بن المهلب فعاتبه سليمان وقال ليزيد: حركتك الرحم. ويروى أن سليمان أرسل من يقتل الأمير بن عبد العزيز وأخاه عبد الله ابن موسى بن نصير وأن موسى مات لما بلغه ذلك وقد عدت فعلة سليمان هذه بقائده من مساءاته ومن أعظم هناته.

وتوفي سليمان بن عبد الملك يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة ٩٩ هـ عن أربع وأربعين سنة من أرض قنسرين بعد أن حكم سنتين وخمسة أشهر.

(٣) «عمر بن عبد العزيز من سنة ٩٩ هـ إلى سنة ١٠١ هـ».

هو الخليفة الصالح العادل أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي الملقب بالأشج لشجة في رأسه.

ولد رحمه الله «بحلوان» قرية بمصر ووالده أمير عليها سنة ٦٢ هـ وكان يعد خامس الخلفاء الراشدين.

فسيرته سيرتهم بحذافيرها. قال سفيان الثوري الخلفاء خمسة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز.. وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

ولما ولي الخلافة أبدل جور بني أمية عدلاً. فملأ الأرض محاسن وإحساناً ومناقبه كثيرة أفردت بالتأليف وفي أول خلافته أرسل كتاباً عاماً إلى جميع العمال بالأمصار هذه نسخته: =

= أما بعد فإن سليمان بن عبد الملك كان عبداً من عبيد الله أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفني ويزيد بن عبد الملك من بعدي وان الذي ولاني الله من ذلك وقدر لي ليس علي بهين. ولو كانت لي رغبة في اتخاذ أزواج واعتقال أموال كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ لي أفضل ما حد من خلقه. وأنا أخاف فيما ابتليت به حساباً شديداً ومسئلة غليظة إلا ما عافاني الله ورحم وقد بايعت من قبلنا فبايع من قبلك.

وهذا الكتاب ينبىء عن نوايا الرجل الصالح وتواضعه وبعده عن الزهو والكبرياء وشعوره بالمسؤولية بما ألقى على عاتقه من أمور المسلمين.

وفد عليه القيل نعيم بن سلامة الحميري أحد قادة اليمن وسراتها. فقال يا نعيم قومك الذين قالوا «ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم» فقال يا أمير المؤمنين قومك أشد جهلاً من قومي بعث الله إليهم نبياً قد عرفوا صدقه وأمانته فقالوا «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء» هلا قالوا فاهدنا؟ فتبسم عمر وكتب إلى عامله باليمن بالاقتصار على العشر وترك هذه الوضيعة. ويروى أنه كتب لعامله «أما بعد فدع ما أنكرت من الباطل، وخذ ما عرفت من الحق بالغاً بك ما بلغ فإن بلغ مهج أنفسنا فإن الله يعلم انك إن لم تحمل إلي إلا حفنة من كتم فإني بذلك مسرور إذا كان موافقاً...» ولما ولي يزيد عبد الملك أمر بردها وقال لعامله خذها منهم ولو كانوا حرضاً «هلكى».

ومات عمر رضي الله عنه يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة سنة. عن تسع وأربعين سنة، وظل حاكماً سنتين وأربعة أو خمسة أشهر وخمسة أيام. ودفن بدير سمعان. قريب دمشق. وقال فيه بعض الشعراء يرثيه:

قد قلت إذ أودعوك التراب وانصرفوا ... لا يبعدن قوام العدل والدين
قد غيبوا في ضريح الترب منفرداً ... بدير سمعان قسطاس الموازين
من لم يكن همه عيناً يفجرها ... ولا النخيل ولا ركض البراذين

وروي أن صاحب الدير دخل على عمر في مرضه الذي مات فيه بفاكهة أهداها له فأعطاه ثمنها فأبى الديراني أخذها فلم يزل به حتى قبض ثمنها. ثم قال يا ديراني إنه بلغني أن هذا الموضع ملككم فقال نعم. فقال إني أحب أن تبيعني منه موضع قبر سنة فإذا حال الحول فانتفع به. فبكى الديراني وباعه فدفن به فهو الآن يعرف وقال كثير عزة الخزاعي:

سقى ربنا من دير سمعان حفرة ... بها عمر الخيرات رهناً دفينها
صوابح من مزن تقاد غوارباً ... دوالج دهماً ماخضات دجونها

وفيه يقول أبو فراس بن أبي فرج البزاغي وقد مر به فرآه خراباً:

يا دير سمعان قل لي أين سمعان ... وأين بانوك خبرني متى بانوا
وأين سكانك اليوم الألي سلفوا ... قد أصبحوا وهم في الترب سكان
أصبحت قفراً خراباً مثل ما خربوا ... يا موت ثم انقضى عمر، وعمران
أجابني بلسان الحال أنهم ... كانوا ويكفيك قول أنهم كانوا =

على اليمن، فأقام عروة[1] على عمله إلى أن توفي عمر.

فلما تولى بعده يزيد بن عبد الملك[2] استعمل على اليمن مسعود بن عوف الكلبي مدة ولاية يزيد. فلما تولى بعده أخوه هشام بن عبد الملك[3]

= وقفت أسأله جهلاً ليخبرني هيهات من صامت بالنطق تبيان

(١) كان من أصلح العمال الذين دخلوا اليمن وأزهدهم في المال وأتقاهم لله وقد حفظ له التاريخ هذه المنقبة العظيمة. فخلدته بالرحمات والذكر الحسن. قال علي بن المديني: لما خرج عروة عن اليمن قال يا أهل اليمن هذه راحلتي فإن خرجت بأكثر منها فأنا سارق.. ويقال إنه قام عشرين عاماً وصرف عن اليمن سنة ١٠٣هـ لم يخرج إلا بسيفه ورمحه.

(٢) «يزيد الثاني من سنة ١٠١هـ إلى سنة ١٠٥هـ».

هو أبو الوليد يزيد بن عبد الملك بن مروان. ولد سنة ٦٥هـ وعهد اليه أخوه سليمان بن عبد الملك بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز. ولما تولى عمد إلى كل صالح فعله عمر بن عبد العزيز فأعاده إلى ما كان وإلى كل ما صنعه ولم يوافق هواه فرده ولم يخف شناعة عاجلة ولا إثماً آجلاً. فمن ذلك ما سبق ذكره وكلمته في حق اليمانية إلى غير ذلك.

وهو أول خليفة من بني أمية عرف بالشراب وقتل الوقت وله في ذلك أخبار، وتوفي يزيد ليلة الجمعة لأربع بقين من شعبان سنة خمس ومائة من أرض دمشق. وسنه ثمان وثلاثون سنة، أقام فيها خليفة أربع سنين وشهراً من ٢٥ رجب سنة ١٠١ إلى ٢٥ شعبان سنة ١٠٥هـ.

(٣) «هشام من سنة ١٠٥هـ إلى سنة ١٢٥هـ»

هو أبو الوليد هشام بن عبد الملك بن مروان عاشر الأمويين وسابع المروانيين. ولد سنة سبعين من الهجرة. وفي محاضرة الخضري سنة اثنين وسبعين هـ. وهو وهم. وتوفي لست خلون من شهر ربيع آخر سنة خمس وعشرين ومائة. وكانت خلافته تسع عشر سنة وأحد عشر يوماً من ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ إلى ٦ ربيع سنة ١٢٥ وعمره خمس وخمسون سنة وقيل غير ذلك.

وكان هشام عاقلاً حازماً صاحب سياسة حسنة ذا رأي ثاقب ودهاء نافذ مع علم مشهور، وعفة فائقة وقلة شره وكان معدوداً من خيار بني أمية وأبطال فحولها. وصلت المملكة الإسلامية في مدته أقصى ما وصلت اليه من اتساع وصارت أكبر مما ملكته الرومان في قرون كثيرة.

وكان حين مات أخوه يزيد مقيماً بحمص وهناك جاءه البريد بالعصا والخاتم وسلم عليه بالخلافة فأقبل حتى أتى دمشق وتمت له البيعة فأقام خليفة الى أن مات في التاريخ المذكور.

وكان هشام بعيد النظر فأول ما فكر عزل أمير العراقين ابن هبيرة وأبدله بأمير مكة خالد بن عبدالله القسري. وكان من عظماء سادة اليمن إرضاء للقبائل اليمانية إذ هم عصب الدولة ومادتها وبشكائمهم وعزائمهم تأسست هذه الدولة كما أنها انهارت بغصبهم وليد سلفت من خالد الى هشام. فلما تولى خالد ولاه، أخاه أسد بن عبدالله خراسان وكان شهماً مقداماً عالي الهمة سامي النفس شديد الشكيمة اتسعت في أيامه الفتوحات وبلغ ما لم يبلغ قبله أحد وامتلأت أيدي المسلمين بالغنائم والسبي وفيه يقول الشاعر: =

أقـر مسعـود بـن عـوف على ولايتـه سنـة ثم عـزلـه بيـوسـف بـن عمـر الثقفـي(١) وأقام على المخاليف كلها ثلاث عشرة سنة. ثم أمره هشام بالتقدم إلى العراق فاستخلف على اليمن ابنـه الصلـت بـن يـوسـف الثقفـي. فـأقـام الصلـت بـاليمـن إلى وفـاة هشـام.

لـو سرت في الأرض تقيس الأرضـا تقيس منهـا طـولها والعـرضـا
لم تلـق خيراً مـرة ونقضـاً مـن الأمير أسـد وأمضـا
أفضى الينـا الخير حين أفضـا وجمع الشمـل وكـان رفضـا
مـا فـاتـه خـاقـان إلا ركضـا قـد فـض مـن جموعه مـا فضـا

ومما يروى عن عفة هشام وحلمه أنه شتم مرة رجلاً من الأشراف فقال له الرجل أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في الأرض فاستحى منه هشام وقال اقتص مني قال إذا أنا سفيه مثلك قال فخذ مني عوضاً من المال. قال ما كنت لأفعل. قال فهبها لله قال هي لله. فنكس هشام رأسه واستحيا وقال والله لا أعود لمثلها.

قال عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس جمعت دواوين بني أمية فلم أر ديواناً أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان «هشام» ولا شك أن صلاح الديوان وصحته من أعظم ما يمتاز به الخلفاء بعضهم على بعض. والمراد بالديوان «ديوان الخراج وهو عبارة عن جريدة فيها تحديد ميزانية الدولة التي تعرف ما يرد على الدولة وما يصرف من الأموال» وبسبب ضبط ديوان الخراج رمي هشام بالبخل وكان يلقب بالأحول لحول فيه.

(١) هو أبو يعقوب يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي. فهو ابن عم أبي الحجاج.

كان يوسف بن عمر من ذوي الأخلاق المتناقضة كان طويل الصلاة ملازماً للمسجد ظابطاً لحشمه وأهله من الناس لين الكلام متواضعاً حسن الملكة كثير التضرع والدعاء، فكان يصلي الصبح ولا يكلم أحداً حتى يصلي الضحى. حسن الصوت قارئاً فصيحاً ومع هذا كان شديد العقوبة مسرفاً في ضرب الأبشار. وكان أعظم الناس لحية وأصغرهم قامة. وكانت لحيته تضرب صدره. وكان يضرب به المثل بالتيه والحمق. يقال أتيه من أحمق ثقيف. فمن حمقه أن حجاماً أراد أن يحجمه فارتعدت يده فقال لحاجبه قل لهذا البائس «لا تخف» وما رضي أن يقول له بنفسه. وكان الخياط إذا أراد أن يفصل ثيابه فإن قال إنه يحتاج إلى زيادة ثوب آخر أكرمه وحياه، وإن فضل شيئاً أهانه وأقصاه لأنه قد نبه على قصره وذمامته. وتولى مع ابن عم أبيه الحجاج. فلما أخذ آل الحجاج سليمان بن عبد الملك لينكل بهم كان يوسف معهم يعذب ويطلب منه مالاً فقال أخرجوني فدفع إلى الحارث بن مالك الجهظمي يطوف به يستجدي الناس. وكان مغفلاً فانتهى به إلى دار لها بابان فقال يوسف دعني أدخل هذه الدار فإن فيها عمة لي أسألها فأذن لها فدخل وخرج من الباب الآخر وهرب.

وكان يوسف يسلك طرائق ابن عم أبيه الحجاج في الصرامة والشدة في الأمور وأخذ الناس بالمشاق ولم يزل ذلك إلى أن مات... قدم اليمن والياً لهشام بن عبد الملك لثلاث بقين من رمضان سنة ست ومائة فلم يزل والياً بها حتى كتب اليه هشام بن عبد الملك في سنة عشرين ومائة بولاية العراق.

فلما تولى بعده ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك(١) استعمل على اليمن جميعه مروان بن محمد بن يوسف الثقفي وهو ابن أخي الحجاج بن يوسف الثقفي.

فاستخلف على اليمن ابنه الصلت وقيل إنه لما أراد هشام صرف خالد بن عبد الله القسري عن العراق كان قد جاء رسول يوسف بن عمر الثقفي من اليمن فدعا هشام بالرسول وقال له صاحبك فعل الله به وصنع وسأل فوق قدره وأمر بتخزيق ثيابه وضربه أسواطاً وقال لـه امـض إلى صـاحبـك فعـل الله بـه وصنع، ودعا بسالم اليماني وكان على ديوان الرسائل وقال اكتب الى يوسف بن عمر بشيء أمره واعرض الكتاب عليّ. فمضى سالم ليكتب ما أمره به وخلا هشام بنفسه وكتب كتاباً صغيراً بخطه الى يوسف وفيه « سر إلى العراق فقد وليتك إياه وإياك أن يعلم بك أحد واشفني من ابن النصرانية » وعاله يعني خالداً إن أمه نصرانية وعماله. وأمسك الكتاب بيده وحضر سالم بالكتاب الذي كتبه وعرض عليه فغافله وجعل الكتاب الصغير في طيه وختمه ودفعه الى سالم وقال ادفعه الى رسول يوسف ففعل ذلك وانصرف الرسول فلما وصل الى يوسف قال له ما وراءك قال الشر، أمير المؤمنين ساخط عليك وقد أمر بتخزيق ثيابي وضربي فلم يكتب جواب كتابك وهذا كتاب صاحب الديوان. ففض الكتاب وقرأه فلما بلغ الى آخره وقف على الكتاب الصغير فاستخلف ابنه الصلت وسار في ثلاثين من أصحابه حتى صار في الكوفة في سبعة عشر يوماً فعرس قريباً منها ثم استلقى على ظهره ورفع إحدى رجليه على الأخرى وقال:

فما لبثتنا العيس أن قذفت بنا ... نوى غربة والعهد غير قديم

ثم قبض على خالد القسري وأصحابه وصادرهم بدون رحمة ولا هوادة وآذاهم أذية بالغة. ولما بلغ هشاماً كتب إلى يوسف بن عمر: أعطي الله عهداً لئن شاكت خالداً شوكة لأضربن عنقك فخل سبيله وثقله. فأتى خالد الشام يغزو الصوائف حتى مات هشام وقتل في أيام الوليد بن يزيد. فتألبت اليمانية وقتلت الوليد ويوسف بن عمر كما يأتي قريباً. وكان سالم اليماني قد أوحى الى خالد وعماله بما قد كان اعتزم هشام بهم فلم يلقوا لكلامه بالاً لأمر قضاه الله. ومن أحداث اليمن أيام يوسف بن عمر الثقفي « ثورة الأمير الغضوب عباد الرعيني الحميري... »

(١) « الوليد من سنة ١٢٥ هـ الى سنة ١٢٦هـ ».

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، ولد سنة ٩٥هـ فلما احتضر أبوه يزيد بن عبد الملك لم يمكنه أن يستخلفه لأنه صبي فعقد لأخيه هشام بن عبد الملك فلما مات هشام فاجأه الكتاب بموته وبيعة الناس له فأقبل تواً الى دمشق وكتب الى العباس بن عبد الملك أن يأتي الرصافة فيحمي ما فيها من أموال هشام وأولاده وحشمه إلا مسلمة بن هشام فانه كلم أباه في الرفق بالوليد فقدم العباس ففعل ما أمر به الوليد.

وكان يهم الوليد الانتقام من كل من أعان هشاماً وهم كثيرون من رؤساء الأمة والبيت الأموي، وشهوة الانتقام لا يكون معها صلاح. وإذا كان الانتقام يقبح بالناس بعضهم لبعض فهو بالملوك أقبح ولذهاب ملكهم أسرع.

وكان من جملة من انتقم منهم « خالد بن عبد الله القسري » وهو من عرفتَ عزة ومنعة فتحرش به بعذران يبايع لابنيه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده فلما أبى عليه ذلك بعث به الى يوسف بن عمر

فلما قتل الوليد وتولى ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك (١) استعمل على اليمن الضحاك بن وائل السكسكي (٢) فأقام مدة ولاية يزيد .

الثقفي المتقدم الذكر فنزع ثيابه وعذبه عذاباً مبرحاً وهو يحتمل ذلك بصمت وإباء وشمم . ثم حمله الى الكوفة حيث أنزل به كل ألوان العذاب حتى مات . وما مات إلا بثمن باهظ دفعه الوليد عن نفسه وعن البيت الأموي فغضبت اليمانية وقوضت عرش الأموية . فأول ما بدأت به أن سارت إلى يزيد بن الوليد وأرغمته على قبول البيعة والقيام بأعباء الخلافة فبايعه الناس سراً ثم انثنت اليمانية وحاصرت الوليد في داره وبعد أيام تسلقوا الجدار ودخلوا عليه فذبحوه . ومن جملة من قتله يزيد بن خالد القسري والأمير معيوف الحجوري الهمداني ، والسري بن زياد بن أبي كبشة السكسكي ، وعبد السلام اللخمي . وفي ذلك يقول أبو الأسد مولى خالد بن عبد الله القسري :

فإن تقتلوا منا كريماً فإننا ... قتلنا أمير المؤمنين بخالد
وإن تشغلونا عن ندانا فإننا ... شغلنا وليداً عن غنا الولائد
تركنا أمير المؤمنين بخالد ... مكباً على خيشومه غير ساجد

وقال دعبل بن علي الخزاعي :

قتلنا بالفتى القسري منهم ... وليدهم أمير المؤمنينا
ومرواناً قتلنا عن يزيد ... كذاك قضاؤنا بالمعتدينا
وبابن السمط منا قد قتلنا ... محمد بن هارون الأمينا
فمن يك قتله سوقاً فإنا ... جعلنا مقتل الخلفاء دينا

وكان قتله سنة ١٢٦هـ . وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر عن واحد وثلاثين عاماً . وكان الوليد من أكمل بني أمية أدباً وفصاحة وأعرفهم بآداب العرب ولغتهم ، شاعراً مجيداً ظلوماً غشوماً مستخفاً بأمر الأمة .

وأما يوسف بن عمر الثقفي فإنهم طاردوه حتى أتى أهله بالبلقا فاستخفى ولبس زي النساء وجلس بينهن فأتى به على تلك الحالة في وثاق فحبس بدمشق حتى قتل سنة ١٢٧هـ . عن نيف وستين سنة .

(١) « يزيد الثالث مدة خلافته خمسة أشهر وعشرين يوماً »

وهو أبو الوليد يزيد بن الوليد بن عبد الملك الملقب بالناقص لأنه نقص أعطية الجند بما زاده الوليد بن يزيد وردها إلى ما كانت عليه زمن هشام وكانت العرب تقول : الأشج والناقص أعدلا بني مروان . وأمه أم ولد اسمها شاه افريد بنت فيروز بن شهريا بن كسرى وفي ذلك يقول :

أنا ابن كسرى وأبي مروان ... وقيصر جدي وجدي خاقان

بويع تحت ضغط التيارات السياسية وكانت قد قامت ثورات ضده فأخمدها واستتب له الأمر لولا أن المنية عاجلته فمات بعد المدة التي ذكرناها قيل بالطاعون وذلك لعشر بقين من ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ . عن خمس وثلاثين سنة وكان قد عهد بالولاية من بعده لأخيه أبي إسحاق إبراهيم بن الوليد فمكث سبعين ليلة ثم خلع نفسه بعد أمور وبايع لمروان بن محمد ثم قتل فيمن قتل من بني مروان أيام العباسية .

(٢) لم أجد له ترجمة .

فلما غلب مروان بن محمد[١] استعمل على اليمن القاسم بن عمر الثقفي[٢] وفي أيامه ثار بحضرموت الخارجي الأعور وهو عبدالله بن يحيى[٣] ثم قصد صنعاء

(١) « مروان بن محمد الثاني من سنة ١٢٧ إلى سنة ١٣٢ هـ ».

هو أبو عبد الملك مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي، الملقب بالحمار لأنه كان لا يجف له لبد في محاربة الخارجين عليه يصل السير بالسير ويصبر على مكاره الحروب ويقال في المثل « أصبر من حمار » ولذلك لقب به. ويلقب أيضاً بالجعدي نسبة إلى معلمه الجعد بن إبراهيم القائل بخلق القرآن وبالقدر وغيرهما.

ولد مروان بالجزيرة أيام كان والده والياً عليها، وعلى أرمينية وذلك في سنة ٧٢ هـ. وتولى قبل الخلافة ولاية كثيرة وكان مشهوراً بالفروسية والدهاء.

وبويع بدمشق بعد انتصاره على من بها سنة ١٢٧ هـ. وكانت أيام مروان مملوءة بالفتن والاضطرابات منذ بويع إلى أن قتل فلم يهنأ بالخلافة يوماً ما، ومما زاد أيامه بلاء عليه وقسوة سياسته نحو اليمانية إذ كانت سياسة هوجاء خرقاء فقد تعصب للقيسية على اليمانية فأوغر قلوبهم وأثار حفائظهم وهكذا « إذا أراد الله أمراً فتألبوا عليه وناوبوه وطلبوا له أسباب القضاء وكايدوه حتى أردوه قتيلاً وثلوا عرش الأموية ونقلوا الخلافة إلى العباسية كما هو مشهور مذكور في مطولات التواريخ. قال شاعر الجزيرة محمد محمود الزبيري من قصيدته العصماء:

غضبوا على مروان فانقلبت به ... الدنيا وصارت ضده الأيام

وهم الألى اقتحموا على أسبانيا ... أسوارها فتحكموا وأقاموا

هُمُ الجبال الراسيات وأنفس ... مثل الجبال الراسيات عظام

وكان قتل مروان بن محمد في ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ. ببوصير من أرض مصر عن ستين سنة وكانت خلافته ست سنوات. وبقتل مروان انتهت الدولة الأموية من المشرق وتأسست لهم دولة فتية بالأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بالداخل والذي لقبه المنصور العباسي « صقر قريش » وكان دخوله إليها فاراً من جيوش العباسية سنة ١٣٨ هـ. ودامت دولتهم هنالك زهاء ثلاثة قرون فأولهم الداخل عبد الرحمن المذكور، وآخرهم محمد بن هشام. وكانت دولة قوية بسطت نفوذها على معظم جزيرة الأندلس وتجاوزت إلى غيرها. وكانت دولة علم وعرفان وحضارة وعمران. خلفت آثاراً زاهية لا زالت بقاياها إلى هذه الغاية موضع إعجاب الشرق والغرب..

(٢) هو أخو يوسف بن عمر الثقفي المذكور آنفاً وفي بعض التواريخ القاسم بن عمير بالتصغير. وقد قتل القاسم هذا وابن أخيه الصلت بن يوسف بن عمر الثقفي بيد الثائرين الخوارج.

(٣) هو الملقب طالب الحق الكندي من بني شطان كان من رؤوس الخوارج وكبارهم وأخيارهم صاحب فقه وعلم وزهد فصيحاً بليغاً خطيباً مفوهاً. له خطبة آية في البلاغة، مجتهداً في العبادة حسن السيرة عدلاً رحيماً ولقب بالأعور لأن إحدى عينيه ذهبت في إحدى المواقع الحربية...

كان خروجه سنة ١٣٩ هـ لسبب جور الولاة وشدة العسف والظلم والقبيح والسيرة السيئة، فثار بحضرموت مع جموع من الخوارج فقبضوا على أميرها وحبسوه يوماً واحداً ثم أطلقوه ونصبوا على

وهزم القاسم بن عمر الثقفي. وغلب على اليمن سنة وأربعة أشهر. ثم سار يريد الشام [١] فلقيه جموع الشام الذين بعثهم مروان بن محمد [٢] فقتلوهم وهزموهم وتبعوهم إلى مكة ثم إلى بيشة [٣] ثم إلى اليمن، وساروا بعدهم إلى حضرموت. ثم ولى مروان بن محمد الوليد بن عروة

حضرموت أميراً منهم. وتوجهوا إلى صنعاء فاحتلها بعدما دارت معارك لا يستهان بها وقتل من ذكرنا آنفاً.

ولما دخل صنعاء أعاد الطمأنينة إلى أهلها وبسط رواق العدل والأمان في ربوع اليمن وخوطب بأمير المؤمنين. ووجه قائده أبا حمزة بلج بن عقبة الأزدي الى مكة لإقامة الحج وكان بها عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك فتهادنا إلى يوم النفر الأخير. وبعد ذلك سار متوجهاً الشام فدخل المدينة بعد موقعة « قديد » ذهب ضحيتها سبعمائة نفس غالبها من قريش وذلك بعد أن أعذر لهم بأن قال: ما لنا بقتالكم حاجة دعونا نمضي إلى عدونا. فأبى أهل المدينة ولما دخلها ارتقى منبرها وخطب خطبة رائعة وأقام بالمدينة ثلاثة أشهر. ثم تجهز نحو الشام حيث التقى بقائد مروان بن محمد بوادي القرى. وحلت الهزيمة بالخوارج في حديث طويل.

(١) لم يسر طالب الحق بنفسه إلى الشام وإنما الذي سار قائده أبو حمزة كما بيناه.

(٢) انتخب مروان بن محمد من عسكره أربعة آلاف فارس واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي وأمره أن يجد السير وأن يقاتل الخوارج حتى يبلغ اليمن ويقاتل عبد الله بن يحيى طالب الحق. فسار ابن عطية، فالتقى بالخوارج بوادي القرى فكانت موقعة هائلة كانت الدائرة فيها على الخوارج. ولا زال ابن عطية يتابع الخوارج ويوالي هزماته عليهم حتى إذا كان قرب جرش خرج إليه طالب الحق من صنعاء فنشبت بينهم عدة معارك انتهت بقتل طالب الحق ودخول عبد الملك بن محمد بن عطية صنعاء سنة ١٣٠ هـ فما لبث ابن عطية المذكور بصنعاء أياماً حتى استدعاه مروان بن محمد ليحج بالناس فسار في اثنى عشر رجلاً فلما كان في الجوف انقض عليه ابنا جهانة المراديان في جمع فقتلوه وقتلوا أصحابه.

(٣) قرية غناء ووادي كثير الأهل كثير النخل يتجاوز المليون نخلة كثير الأصناف، جيد الحلاوة عظيم الحجم ويجلب منه إلى صنعاء كهدايا وتحف وغيره من الفواكه وأصناف الحبوب.

ويبلغ طول الوادي من منبعه إلى مصبه ٤٥٠ متراً. وتقوم على أطراف الوادي قرى مبثوثة نحو إحدى وعشرين قرية يتراوح سكانها بين أربعين أو خمسين ألف نسمة. وبيوتها مبنية من اللبن على طبقتين أو ثلاث. والوادي المذكور من آخر حدود اليمن الطبيعي وأول حدود الحجاز. وهو عن مكة في الشرق الجنوبي يبعد عنها بخمس مراحل أو ست. وبينه وبين « تبالة » أربعة وعشرون ميلاً. وبينه وبين « صعدة » قرابة ستة أيام وإلى « أبها » عاصمة عسير سبع مراحل.

وكانت لعهد دول اليمن تابعة لتاج التبابعة. ولما جاء الإسلام صار مربوطاً بمخلاف صنعاء والأكثر بأعمال مكة وهي اليوم مشمولة بالنفوذ السعودي وقبائله من قحطان من خثعم وبجيلة.

وكانت في القديم مشتجراً كثير الأسد لهذا ذكرته الشعراء بكثرة.

ومن ذلك قول الملك سيف بن ذي يزن الحميري من قصيدة له:

ابن محمد (١) على اليمن إلى أن انقطعت دولة بني أمية بالشام وقتل مروان بن محمد ببوصير (٢) من أرض مصر وذلك في آخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

الفصل الخامس

في ذكر عمال اليمن في الدولة العباسية (٣)

قال أهل السير: لما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية تولى بعده أبو العباس

من كل أبيض في الحروب كأنه من أسد «بيشة» دامي الأظفار

وقد نفى ذلك الهمداني.. و«بيشة» بكسر الباء الموحدة وآخره هاء.

(١) في الجندي عروة ولم يزد على ذلك. وهو يوافق ما تقدم في ص ١٥١ من أن عروة بن محمد السعدي ظل والياً على اليمن عشرين سنة.

وفي ابن الأثير أن عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي الذي أرسله مروان لقمع الخوارج طالب الحق ومن إليه. ولى على المدينة الوليد بن عروة بن محمد ويحتمل أنه لما قتل عبد الملك السعدي ولى مروان الوليد بن عروة السعدي وأرسله المدينة.

وفي اليعقوبي قال وولى أبو العباس داود على الحجاز. فقدم وعامل مروان، الوليد بن عروة بن عطية السعدي مقيم بمكة. لم يعلم بأن الناس بايعوا أبا العباس فلما علم هرب. انتهى.

(٢) «بوصير» بضم الموحدة بعدها واو مضمومة وصاد مكسورة، وياء ساكنة، وراء.. اسم لأربع قرى بمصر. والتي قتل فيها مروان هي:

«بوصير قوريدس» من كورة الأشمونين.

(٣) هذه الدولة الثانية الفتية من دول الإسلام، نسبت هذه الدولة إلى الجد الأعلى لها وهو العباس ابن عبد المطلب بن هاشم عم النبي ﷺ.

وهي أكبر دولة إسلامية عاشت حاكمة زهاء خمسة قرون وأربع وعشرين سنة. تبتدئ بقيام أبي العباس سنة ١٣٢ هـ. وتنتهي بسقوط بغداد بيد التتار وقتل الخليفة المستعصم أحمد سنة ٦٥٦ هـ. هذا إذا ما استثنينا الدولة العثمانية. فإنها تعمرت نيفاً وستمائة سنة. وعدد خلفاء العباسية سبعة وثلاثون خليفة كلهم من ولد المنصور. ثم من ولد حفيده هارون الرشيد. وكانت عاصمتهم «بغداد» من أرض العراق العربي إلى أن دمرها التتر، وتحول منهم جماعة إلى «مصر» حيث أقاموا منهم خليفة صورياً ليس له من الخلافة الظاهرة إلا الخطبة والمظلة ونحوهما. حكم منهم بمصر خمسة عشر خليفة ومدة حكمهم لها ٣٨٥ عاماً من سنة ٦٦٠ حين أتى إلى مصر «المستنصر العباسي» وأنزلوه على الرحب والسعة وأثبت نسبه في مدة السلطان «بيبرس» فبايعه، ثم بايعه الناس إلى سنة ٩٤٥ هـ التي مات فيها المتوكل آخر العباسية بمصر وصارت مصر في حوزة الدولة العثمانية.

وبموته انقرضت الخلافة العباسية من جميع الأرض فسبحان من لا يدوم إلا سلطانه ولا يبقى إلا ملكه، وهو العزيز القهار.

=

= قال الفخري في تاريخه: واعلم علمت الخير أن هذه الدولة ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك فكان خيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تديناً، والباقون يطيعونها رهبة ورغبة «ثم مكثت فيهم الخلافة والملك إلى حدود ستمائة سنة». وقال في محل آخر. إلا أنها دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم، أسواق العلوم قائمة، وبضائع الآداب فيها نافقة، وشعائر الدين فيها معظمة، والخيرات فيها دائرة والدنيا عامرة، والحرمات مرعية، والثغور محصنة. وما زالت على ذلك حتى كانت أواخرها فانتشر الحبل واضطرب.

وقال ابن حزم كانت دولتهم أعجمية سقطت منها دواوين العرب. وغلبت عجم خراسان على الأمر وعاد ملكاً كسروياً غير أنهم لم يعلنوا سب الصحابة بخلاف ما فعل بنو أمية إذ كانوا يستعملون «لعن» عليّ صلوات الله عليه حتى جاء عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقطع ذلك، وأكده يزيد بن الوليد الملقب بالناقص.

قلت وقد نفى البهاء الجندي سب علي في منابر اليمن إلا ما كان في صنعاء أياماً قلائل. هذا وأنت ترى كلمة المؤرخين متفقة على أن هذه الدولة بلغت من الرقي العمراني والثقافي والاجتماعي اقصى درجات الكمال وأنها خلقت نهضة جبارة في العلوم والفنون وسائر مناحي الحياة لم يشهدها الشرق قبل وازدهرت بالحضارة أيما ازدهار ولكن ويا للأسف الشديد يا ترى ما كان حظ اليمن السعيدة من تراث هذه الدولة؟ الجواب: أن حظها كالدولة السالفة الذكر، أسوأ الحظوظ. فقد أصبحت مسرحاً للمحن والقلاقل والفتن والحرب والخراب الذي سببه جور الولاة وعسف الحكام، وبعد الحكومة من أن تقبض على أيدي الطغاة الطغام عدا ما كانوا يحملون في صدورهم من شنآن وحقد لهذه الديار وأهلها كما سيمر بك.

وفي الوقت نفسه أصبح اليمن ميدان نشاط الثائرين الذين يناوئون البيت العباسي من آل علي إذ وجدوا فيه مرتعاً خصباً ومعقلاً حصيناً لنشاطهم السياسي وتربة صالحة لبذر بذورهم التي اقتلعت الأصل.

وما زالت مقالة عبدالله بن عباس للحسين بن علي مدوية في آذان خلفه من أهل البيت حين رآه مصراً على الخروج الى الكوفة ومحاربة يزيد. فقال له: فإن كنت لا بد فاعلاً فعليك باليمن فإن فيه شعاباً وأودية وحصوناً ومعاقل، ولأبيك فيها شيعة.

قال ابن الأثير في كاملة: قال أبو بكر الصولي، الناس يقولون إن كل سادس يقوم بأمر الناس من أول الإسلام لا بد أن يخلع وربما يقتل. فتأملت ذلك فرأيته كما قيل. فإن أول من قام بأمر هذه الأمة رسول الله ﷺ ثم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والحسن رضي الله عنهم فخلع ثم معاوية، ويزيد، وابنه معاوية بن يزيد وعبد الملك بن مروان، وعبد الله بن الزبير، فخلع وقتل.. ثم الوليد بن عبد الملك، وأخوه سليمان، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك، والوليد بن يزيد بن عبد الملك فقتل بعد خلعه. ثم لم ينتظم أمر بني أمية. ثم ولي السفاح، والمنصور، والمهدي، والهادي، وهارون الرشيد، والأمين، فخلع وقتل. والمأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل، والمنتصر، والمستعين. فخلع وقتل. والمعتز، والمهتدي، والمعتمد. والمعتضد، والمكتفي، والمقتدر. فخلع =

السفاح (١)، فاستعمل على اليمن والحجاز عمه داود بن علي بن عبد الله بن

= ثم رد ثم قتل. ثم القاهر، والراضي، والمتقي، والمستكفي، والمطيع، والطائع. فخلع ثم القادر، والقائم، والمقتدي، والمستظهر، والمسترشد، والراشد. فخلع وقتل.

قلت: وفي هذا نظر لأن البيعة لابن الزبير كانت قبل البيعة لعبد الملك بن مروان وكونه جعله سادساً لا وجه له، والصولي إنما ذكر إلى أيام المطيع لله، ومن بعده ذكره غيره. قلت: ثم المقتفي والمستنجد، والمستضيء، والناصر، والظاهر، والمستنصر، والمستعصم وهو الذي قتله التتار سنة ٦٥٦ هـ انتهى كلام ابن الأثير.

قال ابن خلدون في مقدمته في الفصل الخامس عشر: إن نهاية الحسب في العقب والواحد أربعة آباء. وتفلسف حول ذلك الموضوع بما فيه شفاء. قلت وقد خبرت ذلك وسبرته فوجدته صحيحاً إلا ما ندر والنادر لا حكم له. تأمل في الخلايف من بني أمية وبني العباس فأول الأموية معاوية وانتهى في ابن ابنه معاوية بن يزيد. وكذلك مروان بن الحكم ثم ابنه عبد الملك ثم ابنه الوليد وانتقلت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك، ومن العباسية أبو عبد الله المنصور ثم ابنه المهدي، ثم ابنه الهادي وانتقلت إلى هارون الرشيد. وهكذا في سائر الدول والممالك وبيوتات الحسب والشرف.

قال الحوالي: وقد ظل اليمن تحت النفوذ العباسي من أول يوم تقلد الحكم فيه أبو العباس بن عبد الله بن محمد سنة ١٣٢ هـ يتولاه ولاة من قبلهم مباشرة تارة وأخرى بالنيابة إلى أن استقلت التهائم استقلالاً اسمياً سنة ٢٠٤ هـ وفي الجبال إلى أيام الأمير الكبير يعفر بن عبد الرحيم الحوالي سنة ٢١٤ هـ كما سنبين ذلك في موضعه إن شاء الله، ثم من بعد ذلك لم يبق لهم غير السلطة الروحية واحترام هيبة الخلافة كالدعاء لهم في الخطبة والاعتزاء إليهم والاعتزاز بهم. وما زالت هذه الخطة سائدة إلى أن انقرضت الدولة الرسولية سنة ٨٥٧ هـ وقامت على أنقاضها الدولة الظاهرية فكانت بطبيعة الحال دعوتها وانتسابها إلى العباسيين الذين كانوا بمصر إلى أن طواها الزمن وصارت خبراً من الأخبار، وذلك بسقوط «عدن» بأيدي الأتراك العثمانيين سنة ٩٤٥ هـ. والعوامل التي أدت إلى انتقال الحكم من الأموية إلى العباسية كثيرة طويلة الذيول فمثل هذا الانقلاب لا يتأتى بين عشية وضحاها أو في ليلة ويوم.

ومن أهمها ثلاثة عوامل اضطلعت بها الدولة العباسية. الأول: أنها قامت بتعظيم الدين على مرتكبي مخالفته والدين له المكان الأول في النفوس، أو كما يقول فلاسفة العصر: إنه أفيون الشعوب، ولا زال سلاحاً قوياً بأيدي القائمين الذين يريدون قلب الأوضاع وحياة الملك والمستبدين الطغاة العابثين لا سيما اذا وهى حبل أباطيلهم وأشرفوا على الانهيار.

الثاني: اعتزاز العباسية بالموالي فقد كانت الموالي مضطهدة من قبل بني مروان بأنواع الاضطهاد فقاموا مع العباسية بحرارة شديدة.

الثالث: نشوب الخلاف بين القبائل اليمانية والقيسية وبعبارة أوسع النزارية، فقد وجدت العباسية من القبائل اليمانية أكبر نصير وأعظم معين فلما تم لها الدست نبذت الفريقين نبذ الحذاء المرقع.

(١) «الخليفة الأول أبو العباس من سنة ١٣٢ هـ إلى سنة ١٣٦ هـ».

هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، الملقب

العباس[1]، فاستعمل داود على اليمن عمر بن عبدالمجيد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب القرشي العدوي[2]. وكان أول من قدم اليمن نائباً لبني العباس. فأقام بصنعاء شهراً ومات. فبعث السفاح محمد بن يزيد الحارثي[3] إلى صنعاء. وبعث أخاً له إلى عدن[4]. فساءت

= بالسفاح لكثرة ما سفح من الدماء وقيل لقوله في خطبته «أنا السفاح المبيح، والثائر المبير» وأمه ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان ابن الديان الحارثي.

وهو أول من تربع على عرش الدولة العباسية. وكان ابتداء الدعوة من محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ولما قربت وفاته عهد إلى ابنه «إبراهيم» الملقب بالإمام. فبلغ خبره «مروان بن محمد» المنبوذ بالحمار. فقبض عليه وسجنه ثم قتله «بحران» فعهد إلى أخيه «عبدالله السفاح» وكان مستتراً بالكوفة فأخرجه أتباعه، وسلموا عليه بالخلافة لأن أمه عربية وعدلوا عن أخيه أبي جعفر مع أنه أكبر منه لأن أمه كانت أم ولد. وكان ذلك في اليوم الثالث من شهر رمضان سنة ١٣٢ هـ اثنتين وثلاثين ومائة.

وفي يوم الجمعة أقام الخطبة فخطب على المنبر قائماً فحياه الناس. وقالوا أحييت السنة يا ابن عم رسول الله وظل خليفة إلى أن توفي بالجدري بالأنبار الذي اتخذه قاعدة لملكه وذلك في الحجة سنة ١٣٦ هـ عن ثلاث وثلاثين سنة ومدة خلافته أربع سنين وتسعة أشهر.

قضى السفاح معظم عهده في محاربة قواد العرب الذين ناصروا بني أمية وتتبع أعقاب الأمويين إلى آخر سلسلة الفتك والقتل بما تقتضيه سياسة الملك الغشوم.

وكان كريماً حليماً وقوراً عاقلاً كاملاً كثير الحياء حسن الأخلاق أسخى الناس ما وعد عدة فأخرها عن وقتها ولا قام من مجلسه حتى يقضيها. وكان أول من وقع عليه اسمَ الوزارة في دولة بني العباس أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال الهمداني مولى السبيع. ثم قتل بإيعاز أبي مسلم الخراساني.

(١) هو خطيب بني العباس وأحد مؤسسي دولتهم. نشأ هو وإخوته وكانوا اثنين وعشرين رجلاً في قرية «الحميمة» من أعمال «عمان الأردن» وكان الوليد بن عبد الملك نفى علي بن عبدالله بن عبـاس وأهل بيته إليها سنة ٩٥ هـ غضباً عليه. وكان داود بن علي أحد النابغين من إخوته وأول وال لأبي العباس السفاح عقب بيعته في الكوفة وسوادها ثم ولاه إمارة الحج في نفس السنة وأنابه الحجاز واليمن واليمامة. وهو أول موسم أقامه بنو العباس فقتل من ظفر به من بني أمية بالمدينة ومكة وبعث بعمر بن عبد المجيد أميراً على اليمن ومات داود قبل أن يستطير سلطانه سنة ١٣٣ هـ.

(٢) في الأصل داود بن عبد المجيد، والتصحيح من الجندي. ويقال إن عمر هذا أول من بوب جامع صنعاء ولم تكن له أغلاق من قبل.

(٣) في الأصل محمد بن زيد وهو غلط، وفي الجندي محمد بن عبد الله بن يزيد بن عبد المدان فقدمها في رجب سنة ١٣٣ هـ.

(٤) عدن بفتح المهملتين، آخره نون. سميت باسم من اختطها عدن بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.. وهي الميناء الطبيعي لليمن وأعظم أسواقه التاريخية من أيام التبابعة والعصور الأولى. ولا زالت محتفظة بهذه الأخصية.

سيرتها، وهمّ صاحب صنعاء بإحراق المجذومين[1] وأمر بجمع الحطب لهم. وقال لو كان بهم خيراً لما أوقع الله بهم هذا، فمرض يسيراً ثم مات قبل أن يفعل بهم. ومات أخوه في عدن، وكان موتهما في يوم واحد[2]. فبعث السفاح مكانهما عبد الله بن مالك الحارثي فأقام أربعة أشهر ثم عزله بعلي بن الربيع بن عبد المدان فمكث أربع سنين وأشهراً[3].

وفي أيامه كانت حكومة بين أهل صنعاء والأبناء في الرحبة[4]، فوكل أهل صنعاء عمر بن ثمامة، ووكل الأبناء إبراهيم بن فراس، فأخرج إبراهيم ابن فراس كتاب رسول الله ﷺ أنها للأبناء. فقال عمر بن ثمامة إنه يكفر بهذا الكتاب. فغضب الأمير علي بن الربيع، وقال له تكفر بكتاب رسول الله ﷺ وجرده عن ثيابه وضربه خمسة وسبعين سوطاً. وقال: إما أنه لا يخرج من الدنيا حتى تصيبه عاهة. فأقام حتى ولي منصور بن يزيد الحميري. ودعا وجوه صنعاء إلى حائط له وفيهم عمر بن ثمامة فأكل جؤجؤ طائر فغص به ومات من ساعته.

ولما تولى أبو جعفر المنصور العباسي[5] استعمل على اليمن عبدالله بن الربيع الحارثي أخا

---

(١) تقدم في ص ١٠٠ في ترجمة محمد بن يوسف الثقفي أنه هو الذي هم بإحراق المجذومين وهو الذي يتفق وجفاف الرحمة من نفس الثقفي وجفاء بداوته ويمكن أن تعدد الواقعة ولم نقف على إساءة سيرة المذكورين وما أحدثاه كما قاله المؤلف.

(٢) يقال إن أهل صنعاء بعثوا رسولاً الى عدن لينعي عاملهم إلى أخيه، وأهل عدن عملوا كذلك فاتفق الرسولان في بعض المحاط وأخبر كل واحد صاحبه بالمهمة التي جاء بها ثم عادا من موقفهما حاملاً كل واحد منهما كتاب نعي الآخر وهذا من غرائب الصدف.

(٣) هذا لا يتفق وسني خلافة السفاح التي هي عبارة عن أربع سنين وتسعة أشهر أو ثمانية أشهر وإلا فإن عمالة علي بن الربيع هذا تأكل أيام عمالة من سبقه.

(٤) الرحبة، هو القاع الفسيح الممتد من الروضة شمال صنعا حتى بلد أرحب. وهو معدود من حقول اليمن المشهورة. نسبت إلى صاحبها، الرحبة بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي. من وُلد حمير الأصغر.

(٥) «أبو جعفر المنصور من سنة ١٣٦ هـ إلى سنة ١٥٨ هـ».

هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. المنبوذ بالدوانيقي لبخله وحرصه. ويلقب المنصور.

ولد أبو جعفر سنة ١٠١ هـ في الحميمة من أرض الشراة وهي على مقربة من عقبة مصر وذلك في خلافة عمر بن عبد العزيز، وأمه سلامة البربرية. فتربى في وسط كبار الرجال من جلة بني هاشم. وصحب أباه فنشأ أديباً فصيحاً ملماً بسير الملوك والأمراء. ولما بويع السفاح استعان بأخيه أبي جعفر في مبهمات الخطوب فكشف عنها النقاب ورفع بعزمه الارتياب وجلى عن مهارة ومقدرة أكسبتاه شهرة وشخصية رهيبة ثم ولاه السفاح إمارة الحج فمات السفاح وأخوه أبو جعفر يقيم للناس حجهم، فأرسل

علي بن الربيع المذكور فأقام مدة[1]، ثم استخلف ابنه فأقام باليمن حتى قدم عليه معن بن زائدة الشيباني[2] والياً في سنة أربعين ومائة. وفي تلك السنة تناثرت النجوم مثل المطر نحو

عمه عيسى بن موسى إلى أبي جعفر يعلمه بموت أبي العباس السفاح وأخذ البيعة له وذلك بعهد من أخيه المذكور.

وقد واجهت أبا جعفر المذكور أحداث خطيرة استطاع بحزمه وكيده أن يتغلب عليها واحدة واحدة ويقهر العلويين بالقتل والتشريد والساخطين من العرب وعلى رأسهم عمه عبد الله بن علي، والساخطين من الفرس وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية.

(١) قال البهاء الجندي: أقام عبد الله بن الربيع أربع سنين ونصفاً ثم عاد إلى العراق واستخلف ابنه فمكث سنة وثلثاً ثم عزل بمعن، فعلى كلام الجندي يكون قدوم معن سنة اثنتين وأربعين. وكذا ما في اليعقوبي، وابن الأثير، لا كما في الأصل من أنه قدم والياً في سنة ١٤٠ هـ.

(٢) هو أبو الوليد معن بن زائدة بن مطر، من ذهل بن سيبان، ثم من ربيعة بن نزار الشيباني. كان أحد أجواد العرب المشهورين وفتاكهم الشجعان المغاوير، جزيل العطاء كثير المعروف ممدحاً مقصوداً وكان معن في آخر أيام بني أمية متنقلاً في الولايات ومعتزياً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزازي أمير العراقين.

فلما انتقلت الدولة إلى بني العباس ووقعت بين أبي جعفر وبين ابن هبيرة وقعات آلت إلى محاصرة ابن هبيرة بمدينة واسط، أبلى معن بن زائدة بـلاء حسناً، فلما قتل المنصور ابن هبيرة بعد تأمينه وعهده وذمته فخاف معن من أبي جعفر فاستتر عنه، وجرى له مدة استتاره غرائب مذكورة في التواريخ.

ولما أراد المنصور أن يولي معناً اليمن قال له: قد أمّلتك لأمر فكيف تكون فيه؟ قال كما يحب أمير المؤمنين. قال قد وليتك اليمن فابسط السيف فيهم حتى تنقض حلف ربيعة واليمن وأبلغ من ذلك ما يحب أمير المؤمنين. فولاه اليمن وتوجه إليها فبسط السيف فيهم حتى أسرف.

قال اليعقوبي في تاريخه: وخرج أبو جعفر في هذه السنة، أي سنة ١٤٢ هـ إلى البصرة يريد الحج فلما صار بالجسر الكبير أتاه الخبر بأن أهل اليمن قد أظهروا المعصية وأن عبدالله بن الربيع قد هرب ممن وثب عليه وضعف عنهم فوجه معن بن زائدة الشيباني وقدم اليمن فقتل من بها قتلاً فاحشاً وأقام بها تسع سنين.

قلت ومهما يكن فليرجع القارئ البصر لهذه الوصاية من الدوانيقي وكيف استباح دماء اليمانيين الزكية التي لا يزال المرء في فسحة في دينه ما لم يسفك دماً حراماً. وبدون مبرر أو رعاية قانون سماوي أو عقلي أو وضعي. بل حزازات النفوس واستجابة لنهمة الوحوش وبدلاً من أن يكون درعاً واقياً وهو خليفة الله في أرضه والأمة في عنقه أمانة إذ أصبح سلاحاً عليها يبري منها ويفري ما يشاء.

وإذا كانت الحكومة وهي التي قامت لحماية الناس بعضهم من بعض، وحفظ الأرواح والدماء والأعراض هي التي تسل سيف البغي فكيف يكون حال الأمة الآمنة المسلمة أمرها إليه؟ الجواب: أن نصيبها الفناء المحقق، والموت الأبدي، ولا غرابة من المنصور وأضرابه الذين يقال عنهم انهم المؤسسون فإنهم ينبذون كل القوانين ظهرياً. =

المغرب من أول الليل إلى آخره وعوفي في تلك الليلة كثير من المجانين فأصبحوا لا بأس بهم.

ثم ان أهل حضرموت انتفضوا على معن فسار إليهم فأوقع بهم عدة وقعات حتى بلغ قتلاهم خمسة عشر ألفاً.

ثم استدعاه المنصور بعد ست سنين إلى العراق. واستخلف ابنه زائدة ابن معن على اليمن، بأمر المنصور. فأقام بعد أبيه ثلاث سنين [1]. ثم استعمل المنصور على اليمن الحجاج ابن منصور. ثم عزله بالفرات بن سالم العبسي [2]. ثم عزله بيزيد بن منصور خال المهدي [3] فأقام بها إلى أن توفي المنصور سنة ثمان وخمسين ومائة.

ولما تولى محمد المهدي [4] بعد أبيه المنصور أقر خاله يزيد بن منصور الحميري، ثم كتب إليه المهدي بعد سنة أن يستخلف على عمله ويسير إلى مكة ليقيم الحج ففعل. ثم استعمل

وقتل معن على أيد يمانية سنة ١٥١ هـ راجع الإكليل وتاريخنا.

(١) تقدم عن اليعقوبي أن إقامة معن باليمن تسع سنين. وقال في موضع آخر منه وكتب المنصور إلى معن وهو على اليمن سنة ١٥١ هـ أن يقدم فاستخلف ابنه زائدة على اليمن.. الخ. فهذا مخالف لما في الأصل من أن إقامة معن وابنه ثلاث سنين. والأصح ما في اليعقوبي وابن الأثير على ما هنا.

(٢) لم أطلع على ترجمة للمذكورين.. ولا أدري هل هو العنسي بالنون أو العبسي بالباء الموحدة.

(٣) هو يزيد بن منصور بن عبد الله بن يزيد بن شهر بن مثوب من ولد شمر ذي الجناح الأكبر الحميري. وكان أميراً سرياً شهماً كريماً، تولى ولايات عديدة منها البصرة ومنها اليمن. أقام فيها أيام المنصور خمس سنين ثم عزله بالفرات بن سالم وولاه اليمن فأقام ثلاث سنين. ثم عزله وولاه المهدي اليمن وأقام فيه سنة واحدة... وانفصل عنه في شوال سنة ١٥٩ هـ لإقامة الحج، ومات بعد ذلك وقيل إنما مات في سنة ١٦٥ هـ، ويقال إنه لما انفصل على اليمن استخلف عبد الخالق بن محمد الشهابي. ووهم الكبسي وتبعه بعض المعاصرين فأبدل الشهابي بالشيباني، كما وهما أيضاً بنسبة يزيد بن منصور الحميري الى الحارثي. والحال أنه من حمير بدون ارتياب، وفي ذلك يقول أبو نواس الشاعر المشهور يمدح الأمين ابن هارون الرشيد من قصيدة:

وما مثل منصوريك منصور هاشم ... ومنصور قحطان إذا عُدَّ مفخر

فمن ذا الذي يرمي بسهميك في العلا ... وعبد مناف والداك وحمير

وإلى يزيد بن منصور الحميري هذا نسب أبو محمد بن يحيي المبارك اليزيدي النحوي المقرئ لأنه صاحبه وأنزله معه صنعاء، وله في ذلك أشعار وكان مؤدب أولاده. وفي اليعقوبي أن وفاة يزيد بن منصور سنة ١٦٨ هـ.

(٤) «المهدي من سنة ١٥٨ - ١٦٩ هـ».

هو أبو عبدالله محمد بن أبي جعفر المنصور وأمه أم موسى أروى بنت منصور بن عبدالله الحميري. ولد بالحميمة سنة ١٢٨ هـ واستخلف سنة ١٥٨ هـ بعد موت أبيه، وتوفي سنة ١٦٩ هـ عن اثنتين

المهدي على اليمن رجاء بن سلام بن روح الجذامي [1]. ثم فصله بعلي بن سليمان العباسي [2]. فأقام بها اثنتي عشرة سنة[3] ثم سار إلى العراق، فاستخلف واسع بن عصمة. ثم بعث المهدي عبد الله ابن سليمان أخا علي بن سليمان[4] ثم أبدله بمنصور بن يزيد [5]. ثم عزله بعبد الله بن

= وأربعين سنة ومدة خلافته عشر سنين. وكان شهماً فطناً كريماً شديداً على أهل الإلحاد والزندقة لا تأخذه شفقة ولا رحمة فتتبعهم وقطع شأفتهم وأفنى منهم خلقاً كثيراً.

ولما بويع المهدي قدم الربيع بن يونس من مكة وبيده مفاتيح خزائن الأموال فجلس المهدي للناس فأمر الربيع فأحضر دفتر القبض ووجه إلى كل من كان والده قبض عليه شيئاً من ماله وأقبل عليهم وقال: إن أمير المؤمنين المنصور كان بما حمله الله من أموالكم وقلده من رعايتكم يدبر عليكم كما يدبر الوالد البار لولده فحرس لكم من أموالكم ما لم يأمن ذهابه، هذه أموالكم مبارك لكم فيها. وأرجعها إلى أهلها.

وقال عبد الله بن الربيع الحارثي: لما فعل المهدي ما فعل سمعت المنصور يقول للمهدي لما ودعه عند خروجه مكة إني تركت الناس ثلاثة أصناف، فقير لا يرجو إلا غناك. وخائف لا يرجو إلا أمنك. ومسجون لا يرجو الفرج إلا منك. فإذا وليت فأذقهم طعم الرفاهية ولا تمد لهم كل المد.

فمن أول أعماله أنه أمر بإطلاق المسجونين وأمر لهم بصلات إلا من كان أكثرهم شراً وفساداً، ورد المظالم إلى أربابها وغير ذلك.

(١) في الأصل: رجاء بن روح، بإسقاط سلام. والتصحيح من الجندي إذ يقول: رجاء بن سلام بن روح بن زنباع: ومن غيره وهو الذي يتفق مع التاريخ. وكذا في نسخة خليل لأن روح بن زنباع كان من أعيان دولة عبد الملك بن مروان، وصاحب مشورته. وذكر في الإصابة أن له صحبة وروى حديث الإيمان يمان وبارك لجذام. وكان عبد الملك يقول فيه جمع روح طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز. وكان يقول روح: لم أطلب باباً من أبواب الخير إلا تيسر، ولا طلبت باباً من أبواب الشر إلا لم يتيسر. وكان إذا خرج من الحمام أعتق رقبة. والجذامي نسبة إلى قبيلة جذام من قحطان. وأقام رجاء بن سلام في اليمن ثلاثة عشر شهراً.. أما الكبسي وتبعه بعض المعاصرين فجعله «رجاء بن حيوة» ولم ينسبوه وهو وهم فرجاء بن حيوه هو الكندي تابعي جليل مشهور بالعبادة والزهادة وهو صاحب عمر بن عبد العزيز، وكان له كوزير صدق. وتوفي سنة ١١٢هـ.

(٢) هو علي بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس. قدم اليمن سنة إحدى وستين ومائة، فأقام بها سنة وخمسة أشهر. ولبث خلفه واسع بن عصمة إحدى عشر شهراً.

(٣) كذا في الأصل. وهو غلط فاحش إذ مدة خلافة المهدي عشر سنين وشهر ولعله تصحيف من النساخ، والذي في جزيرة العرب ص ٩٤، وأقام بها سنة ونصف إلى ثمانية عشر شهراً.

(٤) قدم اليمن لسبع بقين من ربيع آخر سنة ثلاث وستين، وأقام سبعة أشهر وقيل تسعة أشهر. وقال ابن الأثير في سنة ١٦٤ هـ عزل المهدي عبد الله بن سليمان عن اليمن عن سخط ووجه من يستقبله، ويفتش متاعه ويحصي ما معه. واستعمل على اليمن منصور بن يزيد بن منصور.

(٥) هو ابن خال المهدي قدم سنة خمس وستين، ومكث سنة واحدة. وجاء خلفه النوفلي. =

سليمان النوفلي [1]. ثم توفي المهدي سنة تسع وستين ومائة.

ولما تولى بعده ولده موسى بن المهدي [2] استعمل على اليمن عبدالله ابن محمد العباسي. ثم عزله بإبراهيم بن سليمان الباهلي [3]. ثم توفى الهادي سنة سبعين ومائة.

ولَمّا تولّى بعده أخوه هارون الرشيد [4] استعمل على اليمن خاله

---

(١) أقام النوفلي سنة، وزاد في بغية المستفيد في أخبار زبيد أنه عزل النوفلي بيزيد بن عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله الحارثي. ومكث سنة وعشرة أشهر، وفي النسخة المشتبهة بسليمان بن يزيد بن عبد الله بن عبيد الله الحارثي، وهو كذلك في اليعقوبي وزاد بعد هؤلاء عبد الله بن محمد بن إبراهيم الزينبي وهو ابن بنت سليمان. ثم إبراهيم بن سليمان العبدري. ثم الغطريف بن عطاء خال موسى وهارون. ثم الربيع بن عبد الله.

(٢) «الهادي من سنة ١٦٩ - ١٧٠ هـ».

هو أبو موسى الهادي بن المهدي العباسي، وأمه وأم أخيه الرشيد واحدة وهي «الخيزران» بنت عطاء الجرشي يقال إنها من حمير ثم من خيوان وقيل إنها من الحارث بن كعب من أهل نجران. ولد بالريّ سنة ١٤٧ هـ، وبويع بالخلافة بعد أبيه بعهد منه سنة ١٦٩ هـ ومات سنة ١٧٠ هـ عن سبع وثلاثين سنة، ومدة حكمه سنة واحدة، وكان فصيحاً قادراً على الكلام البليغ أديباً تعلوه هيبة وسطوة وشهامة. وكان أطبق لأن شفتيه كانت تقلص فكان أبوه وكَّلَ به في صغره خادماً كلما رآه مفتوح الفم قال: موسى أطبق. فيفيق على نفسه ويضم شفتيه فشهر بذلك وهو أول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والأعمدة والقسيّ المتوترة فاتبعه عماله في ذلك وكثر في عصره ولم يأت بشيء جديد جدير بالذكر سوى قتله الزنادقة تبعاً لوصية والده.

(٣) في النسخة المشتبهة عبد الله بن محمد بن إبراهيم الزينبي ثم بإبراهيم. وفي اليعقوبي فاضطربت اليمن على الربيع بن عبدالله الحارثي فاستعمال الحصين بن كثير العبدري. ثم صرفه واستعمل مكانه أيوب بن جعفر الهاشمي. ثم رد الربيع بن عبدالله على البلد خلا صنعاء فلم تزل البلاد مضطربة أيام موسى كلها.

(٤) «الرشيد من سنة ١٧٠ هـ - ١٩٣ هـ».

اسمه هارون بن محمد المهدي، ولقب بالرشيد. ولد بالري لثلاث بقين من شهر ذي الحجة سنة ١٤٥ هـ، وأمه الخيزران المذكورة آنفاً، وفيها يقول مروان بن أبي حفصة:

يا خيزران هناك ثم هناك ... أمسى يسوس العالمين ابناك

وولاه أبو المهدي العهد بعد أخيه الهادي، وولاه عدة ولايات تجلت فيه المقدرة السياسية والحنكة الحربية ثم ولي الخلافة في الليلة التي توفي فيها أخوه الهادي وهي ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ وهي ليلة مات فيها خليفة وجلس فيها خليفة وولد فيها خليفة. فالخليفة الذي مات فيها هو الهادي. والذي جلس فيها على سرير الخلافة هو الرشيد. والذي ولد فيها خليفة هو المأمون.

الغطريف[١] . فأقام في اليمن ثلاث سنين ثم سار نحو الرشيد . واستخلف عباد بن محمد بن محمد الشهابي[٢] . فبعث الرشيد إلى اليمن الربيع بن عبد الله بن عبد المدان الحارثي . فقدم صنعاء آخر سنة أربع وسبعين ومائة .

وفي أيامه حصل الثلج بصنعاء ولم يكن حصل قبل ذلك مثله . ثم عزله الرشيد بعاصم بن عيينة الغساني . ثم عزله بالربيع بن عبد الله الحارثي والعباس بن سعد مولى بنى هاشم . فجعل الربيع على الحرب والصلاة والعباس على الجباية ، ثم عزلا بمحمد بن إبراهيم الهاشمي وجمع له الحجاز واليمن

= ويعتبر هارون الرشيد أشهر خلفاء بني العباس فقد بلغت بغداد في عهده درجة لم تصل إليها من قبل فأصبحت مركزاً لتجارة العالم كله وكعبة رجال العلم والأدب وعصره أزهى عصور التاريخ واشتهر اسمه في بلاد الغرب كما اشتهر في الشرق. قال الفخري : وكانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً ، وأوسعها رقعة. جبى الرشيد معظم الدنيا ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد . وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ويرفعه إلى أعلى درجة .

وكان فاضلاً شاعراً راوية للأخبار والأشعار ، صحيح الذوق والتمييز ، مهيباً عند الخاصة والعامة . وقال : كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم . وكان يحج سنة ، ويغزو سنة مدة خلافته إلا سنين قليلة . وكان يصلي كل يوم مائة ركعة ، وحج ماشياً ولم يحج ماشياً غيره . وكان إذا حج ، حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم . وإذا لم يحج ، أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة . وكان إذا رأى السحاب قال أمطري حيث شئت فإن خراجك إليّ ـ لاتساع مملكته .

ومات يوم السبت لأربع ليال خلون من شهر جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة . فكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة ، ومات وهو ابن أربع وأربعين سنة .

(١) هو ابن عطاء الجرشي الحميري . قدم اليمن والفوضى منتشرة ، والحبل مضطرب والخلاف على أشده بين المخلافين ، الجند ومخلاف صنعاء . فوصل الحبل ورأب الصدع ، ولأم ما بينهما من شقاق وخلاف . وعادت الأمور إلى مجاريها الطبيعية ، والأحوال إلى هدوء وطمأنينة . وفي الجندي : أنه أقام ثلاث سنين وسبعة أشهر وكان الغطريف كيساً لبيباً بصيراً بالأمور ، تولى للهادي والرشيد خراسان واليمن وغيرهما وبرهن على مقدرة .

(٢) وفي الجندي : عباد بن ميمون الشهابي . والصحيح عباد بن محمد ولكنه لم يتول للعباسية لا أصالة ولا نيابة إذ كان زمانه متقدماً على زمان هارون الرشيد بكثير كما حكيناه .

وكان عباد بن محمد الشهابي أحد أجواد اليمن الذي لا يباري وله حكايات وقصص غريبة حكي بعضها في الإكليل ، وكان موجوداً أيام معن بن زائدة الشيباني . وكان يحسده على كرمه . ومن ذريته الإمام المشهور ، مطرف بن شهاب صاحب الفرقة المطرفية باليمن ، وأما الذي تولى للعباسية فهو عباد ابن الغمر الشهابي ، وكان في أيام المأمون ، وكان جواداً فارساً مغواراً . (راجع الجزء الأول من الإكليل ص ٣٦٥ وما بعدها) . =

فأقام بالحجاز وبعث ابنه العباس إلى اليمن فشكاه الناس فعزله الرشيد بعبد الله بن مصعب بن ثابت بن الزبير . ثم عزله بأحمد بن إسماعيل الهاشمي . ثم عزله بـأحمد بـن إسماعيـل العبـدري [١] ثم عزل بمحمد بن برمكي [٢] فدخل صنعاء فأقام بها حتى جَرَّ إليها النهر المعروف بالبرمكي [٣]

---

(١) في المراجع بعض تخليط واشتباه مخالف بعضها لبعض عن أسماء هؤلاء العمال ومدد إقامتهم فكانت إقامة الربيع بن عبد الله الحارثي للمرة الأولى سنة، وللمرة الثانية مع صاحبه العباس بن سعد سنتين، وإقامة الغساني سنة واحدة. وفي النسخة المشتبهة أنه عزل الغساني بأيوب بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس فلبث سنة وكانت مدة إقامة محمد بن إبراهيم الهاشمي وولده العباس بـن محمد سنة وستة أشهر وشكاه الناس حين حج هارون. وفي الجندي: أن نسب عبد الله بن مصعب بن ثابت ابن الزبير إنما هو ابن ثابت بن عبد الله بن الزبير، بمعنى أنه من ولد عبد الله بن الزبير لا من ولد الزبير نفسه ولبث العبدري سنة واحدة وكان فيها تخليط عظيم وفي اليعقوبي وكان الرشيد ولى اليمن العباس بن سعيد مولاه فضج منه أهل اليمن، وحكي عنه مذاهب قبيحة فصرفه الرشيد وولى مكانه إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإمام ثم صرفه وولى عبد الله بن مصعب الزبيري ثم صرفه وولى أحمد بن إسماعيل بن علي مكانه.

(٢) كذا في الأصل. وفي الجندي والنسخة المنقطعة «محمد بن خالد بن برمك. أخو يحيى بن خالد» لا عمه. فليرجع إلى مظان آخره، قدم محمد بن خالد، أو محمد بن برمك اليمن في جمادى سنة ثلاث وثمانين ومائة. وهو جدير بما وصفه به التاريخ من الأخلاق الفاضلة التي خلدت له صفحة بيضاء تذكرة بالإكبار والتمجيد والرحمة والغفران. وأنه خير الولاة القادمين عدلاً ورحمة ورفقاً وسياسة عمت بركته اليمن وقام بمشروعات عمرانية جليلة أضفته ثناء حسناً وذكراً جميلاً

منها حفره الغيل الآتي ذكره، وتعبيد الطرقات المحتاجة إلى إصلاح في طريق مكة، وعمر منازلها بالعدل واليقظة الشديدة. وكان له عدا هذه المبرات. فكان كثير الصدقة في جميع أحواله بحيث أنه إذا ركب حمل الدراهم في كمه وكل من سأله أناله من تلك الدراهم.

ومن محاسنه في الرفق بالرعايا والرحمة بهم أنه كان أيام جباية الخراج ينتقل من صنعاء إلى مدينة «منكث» ليتوسط المخاليف رفقاً بالرعايا من المشقة والأتعاب.

من ذلك ما حكاه البهاء الجندي أنه خرج يوماً إلى سواد صنعاء فوافاه أهلها، وعليهم ثياب الصوف التي تسمى شمالا ـ جمع شملة ـ فظنهم سؤالاً فقال لحفدته: تصدقوا على هؤلاء المساكين: فقيل له: إن هؤلاء هم الرعية الذي تأخذ منهم المال. فقال ما ينبغي أن يؤخذ منهم شيء ورفع عنهم الطلب وبقي ينفق من ماله الذي خرج به من العراق. ثم إنهم بطروا وأرادوا الخروج عليه. وأما أهل تهامة خصوصاً «عك» فإنهم خرجوا عن طاعته.

(٣) وفيه يقول الشاعر الشعبي:

واعـويلاه إذا غـاب الحبيـب ... عـن حبيبـه إلى مـن يشتكـي
يتشكـى إلى وآلى البلـد ... ودمـوعـه مثـل غيـل البرمكـي

وكان من أحسن ولاة اليمن عدلاً ورفقاً وحسن سيرة، ولما فرغ من عمارة النهر المذكور جمع أهل صنعاء وحلف لهم الأيمان المغلظة أنه لم يصرف في عمارته شيئاً من مال السلطان ولا من حرام ولا شبهة، ثم أوقفه على المسلمين. وبنى مسجداً بصنعاء عند سوق اللساسين[1]. وخرج عن طاعته أهل تهامة فشكاهم إلى الرشيد فبعث الرشيد مكانه مولاه حماد البربري فقال له أسمعني أصوات أهل اليمن. فقدم اليمن[2] وعاملهم بالعسف والجبروت وقتل جماعة من رؤسائهم وشرد جمعاً كثيراً حتى دانوا له وسلموا الواجب وزيادة وعمرت اليمن في أيامه خاصة صنعاء وأمنت السبل واشتد العسف على أهل اليمن فحجوا واشتكوا إلى الرشيد فلم يستمع منهم[3] وخالف عليه خلق كثير من اليمن بسبب ما نالهم من العسف. وقائدهم الهيصم بن عبد الصمد[4] فكتب حماد إلى الرشيد يستمد فهرب الهيصم وظفر به وأشخص إلى الرشيد مع جماعة من أهل بيته فأمر الرشيد بضرب عنق الهيصم، وحبس من كان معه.

قال ياقوت: وهذا شعر غير موزون وهو مع ذلك ملحون أوردناه كما سمعناه من الشيخ أبي الربيع سليمان بن عبد الله الريحاني صديقنا أيده الله.

قلت وهو المعروف عندنا معاشر اليمانيين بالشعر الحميني. وهو ملحونة أوزانه مخالفة لأوزان الشعر المدونة، قلت وهو قديم في اليمن يساير كل زمان وقد ذكر ما يشبه هذا الإمام الهمداني في «الإكليل» وأعتقد أن ما جاء الزجل لأهل الأندلس إلا عن طريق اليمنيين الفاتحين لها فإن أغلبهم يمانية. واستيفاء هذا الموضوع في كتاب «تاريخ الأدب العربي» الذي سيقوم به نخبة جلة من مثقفي شباب اليمن الذي يهمهم أمر وطنهم ورفع مستواه الثقافي والعمراني والاجتماعي إلى مصاف الأقطار الشقيقة وإعادة مجده وربما نزيد الموضوع إيضاحاً في ترجمة الشاعر عبد الله المزاح إن شاء الله.

والغيل المذكور قد اندثر ولا تعرف مجاريه ومنابعه إلا أني اطلعت في «أنباء الزمن» ما لفظه: يقال إن هذا النهر من بيت عقب من بني بهلول تحت جبل «غيمان» وأنه وجد في حدود بصائر قديمة محددة في شعوب.

وقال البهاء الجندي: إنه مستمر إلى عصرنا سنة أربع وعشرين وسبعمائة. قلت وهو غيل بيت معياد من ظاهر جنوب مدينة صنعاء وقد اختفى اليوم.

(١) لا أعرفه اليوم وقد قال الرازي في تاريخه: أدركته خراباً.. والرازي موجود في القرن الخامس. راجع كتاب مساجد صنعاء.

(٢) قدم حماد اليمن في شوال سنة ١٨٤هـ وكان مولى لهارون الرشيد ثم أعتقه.

(٣) زاد الجندي: أنه حج أناس من بعض أهل اليمن يشكون حماداً إلى الرشيد في بعض حجاته فلم يشكهم وأغلظوا للرشيد فلم يجبهم حتى انهم قالوا إن كان لك بحماد طاقة فاعزله عنا فلم يلتفت اليهم.

(٤) في الأصول كلها الهيصم بن عبد الحميد والتصحيح من الجزء العاشر والثاني من الإكليل وهو الهيصم بن عبد الصمد من ولد بُجر بن عمرو بن زيد ثم من ولد القيل ذي خليل بن شرحيل بن مالك ابن زيد بن سدد بن زرعة بن حمير الأصغر الحميري.

وكان الأمير الهيصم سيداً سرياً وهماماً بحرياً وقائداً محنكاً وفارساً صنديداً وبطلاً عنيداً وكريماً سمحاً من أباة الضيم وحماة الحقيقة لا يرهب الردى ولا يخاف الموت ويورد نفسه حياض القنا ويراه أشهى من عناق العواتق في سبيل كرامته وكرامة وطنه وقومه فأذاق الجيوش العباسية أشد النكال وأشربها كؤوس المنون وأسامهم سوء العذاب.

وكان مقر عزة وبيت شرفه في جبل «تيس» من مغارب «صنعاء» وبلد حمير والذي هاج هذا الزعيم العظيم أمران: الأول أنه لما رأى ما نزل بقومه من الخسف والعسف وحاق بوطنه من إذلال وسلب ونهب وخراب ودمار على أيدي عمال العباسية هب نشيطاً غير متثاقل إذ لم يطق صبراً ولا تحملت نفسه مناظر البؤس والشقاء تمر بين يديه أسراباً فاتقدت نيران الغضب بين جوانحه وتأججت جذوة الحماسة والغيرة فامتشق الحسام وخاض المعارك برباطة جأش وإيمان كامل وذلك في ولاية أحمد بن اسماعيل العبدري ومن قبله وطرد عمال العباسية واستولى على جبل مسور واتخذه مركز مهاجمته ودفاعه وتحصن به وأجابته الضمائر الحية من أقيال حمير وأذوائها كالضحاك المعمري الهمداني، وعمر بن أبي خالد الحميري، والصباح بن أبرهة الحميري وغيرهم وانضوت تحت لوائه أكثر أصقاع اليمن وهزت ثورته أركان الدولة العباسية وامتلأت قلوب المتغلبين بالرعب واستولى عليهم الذعر وأوجسوا خيفة وهموا بالفرار وترك الديار.

فلما بلغ هارون الرشيد بعث حماداً المذكور فأوصاه بتلك الوصاية القاسية التي إن دلت على شيء فإنما تدل على العداوة التي تأكل قلبه أو كأن له لديهم له وتراً.

فقدم البربري بما في طباع البربرة من غلظة وهوج، وما حمله من رغبة مخدومه وتحريضه على استعمال الشدة والقمع اللذين يدفعانه بدون رحمة ولا هوادة لينال رضا مولاه ويحوز عنده المقام الأعلى واستعمل مع اليمانية كل ما أوتي من سياسة البطش والاضطهاد والإذلال وغاية الجور والظلم، ونهاية البربرة. ولكن الأمير الهيصم جرد من نفسه جيشاً فضايقه وأخذ بمدارج أنفاسه وحاصره حصاراً شديداً وأنزل به وبجنوده أفدح الخسائر وأعظم النكبات وأحل بهم أشنع الهزائم النكراء حتى كاد يقضي عليه القضاء المبرم لولا استنجاد حماد ببغداد وهي في إبان عظمتها وعنفوان سلطانها فإنه والى الصرخات طالباً المدد فأمده هارون بجيوش جرارة تدفقت على اليمن تدفق السيل الآتي انحط من عل. وكلما قدم جيش كسره ودحره وفل حده. يقال إن القواد بلغوا إلى عشرة قواد من أمهر وأحنك القواد تحت كل قائد عشرة آلاف مقاتل من راجل وفارس حتى صارت اليمن كتلة عسكرية تموج بالدماء والدمار ونهب النفوس وسلب النفيس.

ورغم هذه القوى الهائلة فقد وقف لها الأمير المذكور وقفة الأسد الهصور يحامي عن أشباله ويدافع عن عرينه كالجبل الراسي أمام العواصف والزلازل لم يتزعزع ولا ونى ولا فتر، غاية ما في الأمر أن قوى الشر تألبت عليه فطوت بساط نفوذه شيئاً فشيئاً إلى أن حوصر بمسور وصيروه مدافعاً لا مهاجماً وطالت المصابرة وتضررت جنود العباسية من المطاولة كما داخل بعض أهل الأمير ومن معه اليأس من النصر وطلب العافية ومنهم أخوه ابراهيم «وأن الحديد بالحديد يفل» والحجر لا تكسر إلا أختها.. فراسل حماداً تحت ستار الكتمان على أن يخرج الى حماد مؤمناً فقبل منه حماد ذلك وتسلل ابراهيم على حين غفلة وأتى حماداً فلم يشعر الأمير الهيصم إلا وأخوه في محطة حماد قد دله على عورات الحصن

= ونقط الضعف هنالك وسقط في يده وعرف الهيصم أنه قد أوتي من مأمنه فدب الخلل في صفوف جنده وخامرهم الوجل وواجهته حقيقة مرة. وحماد في ذلك يستدرجه بالمصالحة والمباغاة وأمسى الأمير تلك الليالي التي تمر في خلده في عراك مع أفكاره أيستسلم لحماد صاغراً ذليلاً وما يدري أيصدق حماد بعهوده ووعوده أو يتم الشوط إلى نهايته ويموت كريماً؟ فقرر الأخير.

وقال لقومه موتوا كراماً ورفض أن يمد يده إلى يد البربري إباء وشمما. وفضل عز الممات على ذل الحياة ثم انسحب تحت جنح الظلام وخرج من الحصن مع بقية خلصائه ولا زال في جلاد وجهاد ومن واد إلى واد حتى ألجأوه إلى وادي بيش بمخلاف الحكم بن سعد بتهامة حيث ألقى عليه القبض بعد إعياء ونصب فأرسل إلى حماد وهو بدوره بعثه إلى الرشيد حيث لقي حتفه مع بعض أهله ومن تأخرأجله منهم زجوا في غياهب السجون إلى أن أطلقوا أيام الأمين أو المأمون.. هذه إحدى لروايات.

وأما السبب الثاني فقاي الفيلسوف في لسان اليمن: والذي هاج خلاف الهيصم بن عبد الصمد وخروجه على السلطان أن حماداً استعمل على «لاعة» رجلاً حجبياً ـ كأنه من سدنة الكعبة وحجبتها ـ فأخبر أن عند أخت الهيصم جارية مولدة نفيسة فبعث إليها في شرائها فكرهت، وأعلمته أن أمرها إلى أخيها وكانت المرأة بـ «لاعة» وأخوها بجبل «تيس» فعجل وبعث من هجم عليها فأخذها وبلغ الخبر إلى الهيصم فانحدر إلى لاعه فضرب رقبة العامل وكتب إلى حماد يعلمه أنه ركب منه عظيماً وأنه بدر به بعض الموالي وتعرّض لطاعته والنصف في دم العامل فكره حماد مسالمته وحمل نفسه عليه فلم يجد الهيصم بداً من مقاومته فحاربه وقتاً ثم ظفر به حماد عن خديعة فبعث به إلى العراق في جماعة من أصحابه الذين أسرهم معه وكان فيهم الضحاك بن كثير المعمري. فلما وصلوا لهارون قال للهيصم أنت الخارج على أمير المؤمنين وقاتل أجناده والمطل على الكعبة البيت الحرام بالفتن؟ وكان حماد قد دس إلى الهيصم من ينصح له وقال إذا سألك أمير المؤمنين عن جرمك فأقر له ليعفو عنك ولا آمنه عليك ان جحدته وقد صح عنده العلم، فقال نعم. فلما أقر، استحل هارون قتله فأمر به فضربت عنقه ثم دعا بالضحاك بن كثير فذكر له مثل مقالته للهيصم فقال الذي فعل ذلك خادمك حماد. فقال وكيف؟ فقص له الخبر من مبتدأ مشاقة الهيصم فلما علم الخبر سقط في يده وتندم على قتل الهيصم. وأطلق الضحاك وأصحابه وحباهم وأمر بحملهم إلى اليمن وغضب على حماد إلى أن مات.

وقال اليعقوبي: وولى حماد البربري مولاه فجار على أهل اليمن وغلب عليهم ووثب الهيصم بن عبد المجيد الهمداني سنة ١٧٩ هـ وغلب عليها فكان معقله بجبل يقال له «مسور» وكان معه عمر بن أبي خالد الحميري مقيماً بعشتان وكان معه الصباح بناحية يقال لها «حراز» فلقوا حماداً البربري فكانت بينها وقائع قتل فيها نيف وعشرون ألفاً من الناس، وأسر حماد عمر بن أبي خالد فوجه به إلى الرشيد واتصلت الحرب بينه وبين هيصم تسع سنين ثم صار إلى حماد رجل من أهل البلد فأعلمه أن الهيصم قد نزل من قلعته وصار إلى قرية من القرى متنكراً يتجسس الأخبار فوجه معه إلى تلك القرية بقائد يقال له «حراد» فأخذ الهيصم فقال الهيصم والله إن القتل لشيء ما أنكره وما خلقت الرجال إلا للموت والقتل فحمله حماد على جمل وأدخله إلى صنعاء فوجه به إلى الرشيد وأنشده في شعر طويل:

فشفاء ما لا تشتهيه النفـ ـس تعجيل الفراق =

ببغداد [1] فأقاموا إلى أن هلك الرشيد سنة ١٩٣ ولما تولى ولده محمد الأمين [2] أقر حمادا

فدعا بالهيصم فأمر بضرب عنقه وانحرف حماد البربري إلى صباح فتضرع صباح إلى الأمان فأعطاه الأمان وقيل لم يعطه إياه ولكنه أسره ووجه به إلى الرشيد مع ستمائة رجل من أصحاب الهيصم فضرب أعناقهم جميعاً وصلب الهيصم وصباحاً معاً. وأقام حماد البربري على اليمن ثلاثة عشر سنة، وسام أهلها سوء العذاب حتى صاح قوم منهم بالرشيد وهو بمكة نعوذ بالله وبك يا أمير المؤمنين أعزل عنا حماداً إن كنت تقدر فقال لا ولا كرامة. ثم عزل الرشيد حماداً، واستعمل على اليمن مكانه عبدالله بن مالك فلم يزل بالبلد محمود السيرة جميل المذهب حتى توفي هارون. وهذا يؤيد كلام الهمداني أن هارون غضب على حماد.

قلت: فهذا عهد الرشيد باليمن وهذا هو زعيمنا الخالد الذكر الذي أبقى لنا دروساً حية شريفة وصفحة ناصعة من البطولة بما فيها من معاني العزة والكرامة وسمو النفس. والرشيد آخر من حج من الخلفاء وفي أيامه دخل اليمن من الحفاظ الإمام الشافعي وأحمد بن حنبل والبخاري وابن معين وغيرهم ليأخذ عن حفاظها مثل عبد الرزاق وأبي قرة الجندي وعبد الملك الذماري وغيرهم.

(١) حاضرة بني العباس الكبرى ومدينتهم. أنفق المنصور على مدينته هذه ثمانية عشر ألف ألف دينار على ما حكاه ياقوت. ولما أتم بناءها حشر اليها المنصور العلماء من كل بلد وإقليم فأمها الناس أفواجاً ولم تزل تتعاظم ويزداد عمرانها حتى صارت ام الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية وأربى سكانها على مليونين. وهي غنية عن التصوير والإشادة بذكرها فقد شغلت التواريخ دهراً طويلاً ناهيك بمدينة جمعت فيها فطاحل العلماء وعباقرة الفلاسفة ونوادر الأدباء وأفذاذ الشعراء وجميع الصنائع والفنون والعجائب والغرائب... راجع تواريخ بغداد.

(٢) «الأمين» من سنة ١٩٣ - ١٩٨ هـ».

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد. وأمه زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور. وليس في خلفاء بني العباس خليفة هاشمي أمه هاشمية غيره. يكنى أبا عبد الله ويقال: أبا موسى. ولد بالرصافة سنة ١٧٠ هـ، واستخلف سنة ١٩٣ هـ بعهد من أبيه، وقتل سنة ١٩٨ هـ وعمره ثمان وعشرون سنة على خلاف بين المؤرخين. فكانت ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وثمانية أيام.

وكان غزير الأدب كريماً جواداً، يروى أن جماعة من بني هاشم اجتمعوا وفيهم أولاد المتوكل، وكان فيهم ابن الضحاك وهو أحد الأدباء، وكان خصيصاً بالأمين له مراث حسان فيه. فسألوه عن الأمين وأدبه فوصف ابن الضحاك أدباً كثيراً، فقيل فالفقه فإن المأمون كان فقيهاً، فقال ما سمعت فقهاً ولا حديثاً إلا مرة واحدة.

ويروى عن أبي محمد عبد الله بن ايوب الشاعر، قال أنشدت محمداً - يعني الأمين - أول ما ولي الخلافة:

لا بد من سكرة على طرب ... لعل روحاً يذال من كرب
فعاطنيها صهباً صافية ... تضحك من لؤلؤ على ذهب
خليفة الله أنت منتخب ... لخير أم من هاشم وأب

على اليمين سنة ثم عزله بمحمد بن عبد الله الخزاعي [1] ثم عزله بعد سنة بمحمد بن سعيد الكناني [2]، وأقام باليمن حتى ثارت الفتنة [3] بين الأمين والمأمون [4]. ولما ضعف الأمين وحصره

= فأمر له بمائتي ألف ألف ـ صالحوني على مائة ألف ـ وأخباره تكثر فكان الأمين يميل إلى اللهو واللعب ومجالس الطرب والتبذير، وأخباره مشهورة.

(١) كذا في الأصول كلها. وفي اليعقوبي كما تقدم في ص ٨٩، أنه تولى والده عبد الله بن مالك، وأن ولايته في أيام هارون وقد أثنى عليه. وكان رئيساً فخماً مقدماً عند الخلفاء. وقد قدم اليمن حاملاً بين جنبيه الرحمة والعفاف والعدل والإنصاف. فإنه ما حط أثقاله إلا وأرجع الحق إلى نصابه فرد المظالم إلى أهلها وأدخل روح الاستقرار والراحة إلى كل قلب. وصادر عمال « حماد البربري » واستخرج منهم الأموال التي كسبوها من غير حلها وأجلبوا عليها بالسوط والإرهاب، وسلمها إلى أربابها وساس الناس سياسة لين ورفق.

والحاصل أنه خير خلف لشر سلف أحبه أهل اليمن وأحبهم ورعى حرمتهم وآسى جراحهم وهم قدروه واحترموه ولكن ويا للأسف لم تطل مدته بل أقام سنة وعزل وكأن الحكام المستبدين وبطانتهم لا يروقهم هذا النوع الممتاز الذي يقضي على سمعتهم ويطغى على شخصيتهم لأنه يصير المصباح الذي يشع بالخلال الكريمة والصفات الجميلة.

(٢) قال الخزرجي: قدم سنة ١٩٥ هـ ولبث إلى أن ثارت الفتنة كما بيناه. وفي النسخة المنقطعة أنه لبث ثمانية أشهر ثم عزل بجرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي. هذا وهم وإنما القسري الآتي وراء هذه الصفحة.

وكذا في الجندي. وفيه إشكال فإن جريراً هذا كان في أيام المنصور. وكان أوحد زمانه وداهية عصره.

وهو الذي خدع أبا مسلم الخراساني وقاده إلى أبي جعفر المنصور في قصة طويلة. فأين زمن الأمين من زمن المنصور فليراجع.

(٣) سبب الفتنة معروف في التواريخ فارجع إليها. وما هنا موافق للخزرجي من ان الأمين لم يعين أحداً بعد الكناني فما في الجندي والنسخة المنقطعة محط نظر.

(٤) « المأمون » من سنة ١٩٨ هـ إلى سنة ٢١٨ هـ ».

اسمه عبد الله بن هارون الرشيد، وكنيته أبو العباس، ولقبه المأمون، ولد سنة ١٧٠ هـ في الليلة التي مات فيها الهادي فقال الناس: مات خليفة، وقام خليفة، وولد خليفة، وقد تقدم ذكر ذلك.

وأمه أم ولد اسمها « مراجل » فارسية الأصل ولهذا أثرت في سياسته تأثيراً عميقاً، ولما بلغ مبلغ الرجال أسند إليه والده ولاية خراسان وما يتصل بها إلى « همذان » بالذال المعجمة بعد الميم. ولما توفي أبوه لم يف له أخوه الأمين بعهده كما تقدم. ولم يبايع له بالخلافة إلا بعد قتل أخيه. وكان المأمون إذ ذاك في « الري » المسمى الآن « طهران » وظل مقيماً بخراسان حتى قدم بغداد في منتصف صفر سنة ٢٠٤ هـ.

وقد وصفه صاحب الفخري فقال: واعلم أن المأمون كان من عظماء الخلفاء، ومن عقلاء الرجال،

طاهر بن الحسين[1] دخل أهل الأطراف في طاعة طاهر. وبعث طاهر إلى اليمن

وله اختراعات كثيرة في مملكته منها أنه أول من فحص عن علوم الحكمة وحصل كتبها وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها وحل إقليدس، ونظر في العلوم وتكلم في الطب وقرب أهل الحكمة. وأول من أمر الناس بخلق القرآن وضرب عليه.

وكان المأمون يتحلى بكثير من الصفات التي امتاز بها عن سائر الخلفاء، من ذلك العفو عن العقوبة وكراهيته للانتقام. وليس أدل على ظهور هذه الصفة عفوه عن ابراهيم بن المهدي عمه الذي تربع على كرسي الخلافة نحواً من سنتين. وعلى الفضل بن الربيع الذي حرمه من السلاح والعتاد الذي كان أبوه الرشيد قد أمره بتسليمه إليه بعد وفاته ومع ذلك لم يعمل على التخلص منه. وقال أما الفضل فلا أقتله ولكن أجعله بحيث إذا قال لم يطع وإذا دعا لم يجب. وهذا أقل ما كان ينتظر من المأمون لا سيما بعد أن بلغه ما كان من تنازع الفضل بن الربيع مع علي بن ماهان وتوجهه معه قيداً من فضة بعد أن تنازع في الفضة والحديد ليقيده بها. ومما أثر عن حلمه أنه لما هجاه دِعبُل بن علي الخزاعي الشاعر المشهور بقوله:

أيسومني المأمون خطة عاجز ... أو ما رأى بالأمس رأس محمد
يوفى على رأس الخلافة مثلما ... توفي الجبال على رؤوس القردد
ويحل من أكناف كل ممنَّع ... حتى يذلل شاهقاً لم يصعد
إن التراث مسهَّد طلابها ... فاكفف لعابك عن لعاب الأسود
إني من القوم الذين سيوفهم ... قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله ... واستنقذوك من المحل الأوهد

لم يزد على أن قال: قاتل الله دعبلاً متى كنت خاملاً. وفي حجر الخلافة ولدت، وبدرها غذيت.

(١) هو أبو الطيب طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق، وقيل ابن طلحة بن رزيق بن ماهان الخزاعي الملقب: ذا اليمينين. أحد أعلام الدهر وحماة الدولة جوداً وشكيمة وحنكة وشجاعة.

ومن شعره:

إذا أعجبتك خلال امرئٍ ... فكنه يكن منك ما يعجب
فليس على المجد والمكرمات ... إذا جئتها حاجب يحجب

ومن شعره أيضاً:

ويكفيك من قوم شواهد أمرهم ... فخذ صفوهم قبل امتحان الضمائر
فإن امتحان القوم يوحش بينهم ... وما لك إلا ما ترى في الظواهر
وإنك إن فتشت لم تر مخلصاً ... وأبدى لك التفتيش خبث السرائر

ومن كلامه: ما أحوج الكاتب إلى نفس تسمو به إلى أعلى المراتب، وطبع يقوده إلى أكرم الأخلاق وهمة تكفه عن دنس الطمع ودناءة الطبع.

وسمي ذا اليمينين لأنه ضرب شخصاً في مواقعته علي بن عيسى بن ماهان فقدَّه نصفين وكانت الضربة بيساره. فقال فيه بعض الشعراء:

يـزيـد بـن جـريـر القسري[1] فقبحـت سيرتـه في اليمـن وذلـك أنـه وجـد قـومـاً من الأبناء الذين بعث بهم كسرى[2] مدداً لسيف بن ذي يزن[3] قد تزوجوا في العرب،

= كلتا يديه يمين حين تضربه

فلقبُه المأمون ذو اليمينين.

وكانت ولادة طاهر «بيوشنج» سنة تسع وخمسين ومائة، ومات سنة ٢٠٧ سبع ومائتين.

(١) هو يزيد بن جرير بن يزيد بن خالد بن عبد الله بن يزيد القسري، وتمام نسبه معروف، وقسر بطن من ولد عبقر بن أنمار بن أراش بن الغوث بن النبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ.

وبيت القسري هذا من البيوتات اليمنية ذات الرياسة والشرف والذلاقة والفصاحة، جاهلية وإسلاماً، فجدهم شق الكاهن المذكور في ص ٢٧ كان اليه المرجع في التحاكم وفض الخصام بين القبائل التي كانت لذلك العهد وظيفة من أعظم الوظائف مضافة لما عنده من كهانة وتنبؤ. ويزيد بن أسد له صحبة وكان مقدماً عند معاوية وكانت اليه أعنة الخيل، وابنه عبد الله كان رئيس الشام، في العراق ولم يشهد يوم «مرج راهط» من يمانية العراق سواه، وعياش بن أبي خيثمة بن عبد الله المرهبي الهمداني.

وأما خالد فأشهر من أن يعرف فكان أميراً لمكة أيام عبد الملك ومن بعده ثم أمير العراقين أيام هشام بن عبد الملك وأخباره في الجود والكرم مأثورة وفي الفصاحة والبلاغة مذكورة بل كانت مضرب الأمثال.

ويزيد بن خالد أحد الخطباء المشاهير وأحد قتلة الوليد بن يزيد وأما يزيد صاحب الترجمة فكان قائداً محنكاً ورئيساً فخماً من القواد الذي انضموا تحت لواء طاهر بن الحسين الخزاعي في حرب الأمين. وأبلى بلاء حسناً فلما تداعت الأطراف أمام قوة طاهر كانت اليمن في جملة ذلك فبعثه طاهر والياً عليها. وإليك نص ابن الأثير قال: ولما كانت ست وتسعين وجه طاهر بن الحسين يزيد بن جرير بن يزيد بن خالد بن عبد الله القسري حاملاً على اليمن وبعث معه خيلاً كثيفة فلما قدم الى اليمن دعا أهلها إلى خلع الأمين والبيعة للمأمون، ووعد بالعدل والإحسان وأخبرهم بسيرة المأمون وأجابوه إلى ما طلب وخلعوا محمداً وبايعوا المأمون وكتب إلى طاهر والمأمون وسار فيهم أحسن سيرة وأظهر العدل انتهى كلام ابن الأثير... تأمل كلام ابن الأثير على جلالة قدره وإمامته في التاريخ غير المنكورة كيف أثنى على صاحبنا في حين أن المؤلف قبّح سيرته لذلك السبب التافه الذي ربما لا أساس له وإنما أملته عصبية فارسية وهي التي جرأت الحسن بن سهل إلى عزل القسري ومن ورائه المأمون الذي كانت أمه فارسية وغذي بلبان فارس.

(٢) كسرى لقب لكل ملك على بلاد فارس والعجم وأخبارهم مدونة في مطولات التواريخ فراجعها إن شئت.

(٣) هو الملك القرم الحلاحل منقذ اليمن الأكبر من استعمار الحبشة والذي ضرب مثلاً أسمى في البطولة وبعد الغاية والإباء والشمم، وسجل أروع صفحة حافلة بضروب المغامرة وأصناف المجازفة، وارخص النفس والنفيس في سبيل إنقاذ وطنه وأملى درساً رائعاً للأجيال والأحفاد صور فيه أكمل =

فأمر بطلاق من في أيديهم من نساء العرب. فلما بلغ المأمون عزله بعمر بن إبراهيم من أحفاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1]، ثم عزله بإسحاق بن موسى العباسي[2] وظهر في أيامه الإمام محمد بن ابراهيم المعروف بطباطبا[3] على الكوفة واستولى عليها.

= معاني الوطنية وكيف تنتزع الحقوق المغصوبة... راجع التاريخ القديم. ولله در ابن دريد الأزدي في مقصورته حيث يقول:

وسيف استعلت به همته ... حتى رمى أبعد شأو المرتمى
فجرع الأحبوش سماً ناقعاً ... واحتل من غمدان محراب الدمى

ولما استهوت القلوب مغامرة الملك سيف بن ذي يزن، واحتلت مكانة سامية لدى الخاص والعام وضع بعض المصريين الذين يقدرون الأجداد حق قدرهم، رواية لهذا الشجاع المغوار وحرصت كتب الأدب على روايتها ورواية ما قيل فيها من الشعر حتى أثرت في القصص العربي أثراً قوياً.

والملك سيف بن ذي يزن آخر ملوك حمير التبابعة، وبموته انطفأت آخر لمعة من الحضارة اليمنية.

(١) هو عمر بن إبراهيم بن محمد بن واقد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب. هكذا نسبه صححناه من أوثق المصادر. أما الجندي فأسقط اسم إبراهيم. وأما الديبع فأسقط محمداً. ومثله الخزرجي. انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٢٤.

قال الجندي نقلاً عن ابن حزم: إن المأمون كتب إليه - يعني إلى عمر بن إبراهيم - بولاية اليمن، وكان إذ ذاك يسكن مع أخواله بني أرحب، بظاهر همدان.

وفي بعض التواريخ أن الحسن بن سهل أملت عليه فارسيته فأوعز إلى العمري بالقبض على يزيد القسري، ومصادرته وإيداعه السجن وإيذائه بصنوف الأذى إلى أن مات تحت العذاب بعد سنة من ولايته استجابة لعواطفه.. نعوذ بالله من غلبة الهوى. وأقام العمري في ولايته سنة، وقيل أشهراً أو شهراً واحداً.

(٢) هو إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس. قدم اليمن سنة ١٩٨ هـ ثمان وتسعين ومائة، من ذي القعدة. فأقام على ولايته سنة تسع وتسعين ثم سار يريد الحجاز، واستخلف على اليمن ابن عمه القاسم بن إسماعيل، وذلك حين بلغه ظهور محمد بن إبراهيم بن طباطبا. فلما سار عن صنعاء أياماً وثب عليه الأعراب فرجع صنعاء فأقام الى أن وصل الجزار الآتي قريباً.

(٣) كنيته أبو عبد الله واسمه محمد بن إبراهيم بن طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب. ولقب والده بطباطبا لأنه كان فيه لثغة فكان كلما سئل عن القِبا - وهو ثوب معروف وهو صغير - فيقول: طباطبا. أي قباقبا.

تحكي المصادر الزيدية نقلاً عن المؤرخين أن محمداً هذا اختفى خوفاً من المنصور وظل كذلك إلى أيام المأمون فقدم نصر بن شبث من أرض الجزيرة حاجاً فلما رجع من الحج عرج على المدينة يفتش عن رجل علوي يقوم بزعامته ضد العباسية ويضمن له النصرة فلم يجد لدى الذين عرض لهم رغبته سوى ابن طباطبا هذا فإنه هبَّ لإجابته وذهب معه إلى أرض الجزيرة فلما قدما عرض نصر بن شبث ما جاء به =

= على قومه فقابلوه بالسخرية والاستهزاء وحذروه مغبة الأمر وغضب السلطان. ومما قالوا له: فإن ظفر بك السلطان فلا خلاص لك بعدها، وإن ظفر صاحبك فإن كان عادلاً كنت عنده رجلاً من افنأ أصحابه، وإن كان غير ذلك فما حاجتك إلى التعرض بنفسك وأهلك وأهل بلدك لما لا قوة لك به، ثم إن أهل بلدك أعداء لآل أبي طالب فإن أجابوك الآن فروا عنك منهزمين إذا احتجت إليهم لأنك إلى اختلافهم أقرب إلى اجتماعهم. ثم تمثل بعضهم بقوله:

وأبـــذل لابـــن العـــم نصحـــي ورأفتي ... إذا كـان لي بـالجهـر في النـاس مكـرمـا
فـإن زل عـن نفسي وخـالـف مـذهبي ... قلبـت لـه ظهـر المجـنّ لينـدمـا

فانثنى نصر عن نصرته، وفترت نيته وردّه رداً جميلاً وصرفه بخمسمائة دينار فعاد محمد بن إبراهيم مغضباً إلى الحجاز فلقي في طريقه أبا السرايا السري بن منصور أحد بني ربيعة بن ذهل بن شيبان. وكان قد خالف السلطان وعاث في نواحي العراق، وكان علوي المذهب فدعاه محمد إلى بيعته فأجاب وسرّ بذلك ثم أدخله الكوفة واستولى عليها، ووجه أخاه قاسم بن إبراهيم إلى مصر داعياً له، وهو صاحب القصة المشهورة مع عبدالله بن طاهر بن الحسين الخزاعي. ثم بدأ محمد يشن الغارات على جنود العباسية فكان ينتقل من نصر إلى نصر، ولكنه لم يمهل طويلاً. وهنا اضطربت الرواية، فقيل سمَّه أبو السرايا خوفاً من أن يستقل بالأمر دونه ويبعده. وقيل مات فجأة. وقيل أثخن بالجراحات فمات منها. وأوصى، في أحد الروايات، إلى علي بن عبدالله العلوي فلم يقبل فبايعوا محمد بن محمد العلوي الآتي.

أما رواية التواريخ الأخرى فهي تروي أن نصراً المذكور قام بثورة على المأمون لأنه كان غائباً، ويتعصب للأمين الذي يمثل العنصر العربي. وأحرزت جيوش نصر المظفر وأراد بعض العلويين أن يستغل هذا النصر فيقيموا منهم خليفة فذهبوا اليه فقالوا له قد وترت بني العباس وقتلت رجالهم فلو بايعت لكان أقوى لأمرك. فقال من أي الناس؟ فقالوا تبايع لبعض آل أبي طالب. فقال: أبايع أولاد السوداوات فيقول خلقني ورزقني. قالوا فتبايع لبعض بني أمية. قال أولئك قوم قد أدبر أمرهم، والمدبر لا يُقْبِل أبداً ولو سلم عليّ رجل مدبر لأعداني إدباره وإنما هواي في بني العباس وإنما حاربتهم محاماة على العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم.

وكان ظهور محمد بن ابراهيم طباطبا لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٩ هـ بالكوفة التي كانت مركزاً للمعارضة العنيفة للحزب العلوي وكان يدعو إلى الرضى من آل محمد ﷺ والعمل بالكتاب والسنة، وكانت مدة ظهوره إلى أن مات شهراً إلا كسراً إذ كانت وفاته يوم الخميس أول رجب في السنة المذكورة نفسها.

وفي هذه السنة وفيما بعدها أظهر المأمون مذهب الاعتزال وحمل بعض العلماء على القول بخلق القرآن ووقع الاختلاف والجدال. وكذلك أظهر القول بنكاح المتعة وأمر منادياً ينادي بإباحته فأنكر عليه علماء السنة، فرجع عن هذا القول وفيها تفرقت المذاهب إلى شيع وأحزاب. وكان اليمن جميعه من أهل السنة، وكذلك أرض الإسلام جميعاً وإن كان يوجد روافض وقدرية لكن لا استقلال لهم في أمرهم. =

وسمع إسحاق بن موسى[1] بقدوم إبراهيم بن موسى بن جعفر[2] أميراً على اليمن من قبل ابن طباطبا فقدم اليمن فأسرف في القتل حتى تسمى الجزار ولم تزل أموره مستقيمة في اليمن إلى أن مات محمد بن إبراهيم بن طباطبا.

---

(١) في العبارة هذه وما بعدها قلق إذ مقتضى السياق أن يقول: فسمع إسحاق بن موسى بقدوم إبراهيم بن موسى ففر وخرج من اليمن كما قدمنا بالتعليق في ترجمته، ثم يقول فقدم إبراهيم.

(٢) هو إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وهو أخو علي بن موسى الرضا الذي كان رشحه المأمون لولاية العهد، وأخو زيد بن موسى الذي كان يقال له: زيد النار لكثرة من حرق بالنار من دور البصرة، وكان إذا أتى برجل من المسوِّدة كانت عقوبته أن يحرق بالنار.

وإبراهيم هذا أحد الطغاة السفاكين غلاظ الأكباد الذين دخلوا اليمن ومن وسمه التاريخ بميسم العار والخزي الذي لا يمحى فأسماه «الجزار» لإسرافه في سفك الدماء الزكية البريئة وإراقتها بدون مبرر سوى حب الانتقام من بني عمومتهم العباسيين الذين هم مصدر شقائهم.

وهو أول طالبي أقام الحج، وأول طالبي ظهر باليمن على مسرح التاريخ بهذه الصورة الفظيعة التي شوهت تاريخه وسودت بيته الشريف وهو بحق «بسر الثاني».

كانت الأقدار قد قذفت الجزار إلى اليمن نتيجة مطاردة العباسية له ولأمثاله من البيت العلوي المناوئين لهم فاهتبل انتشار الحبل على المأمون بالعراق لضعف القيادة وقيام الثورات عليه في كل مكان والذين منهم ابن طباطبا بالكوفة داعياً بالإمامة. وكان إبراهيم هكذا بمكة لائذاً بالحرم فطالب الناس بالبيعة فمن أبى قتله بدون قيد ولا شرط فأذرع في القتل واستباح الحرم ثم جرَّد حملة من اللصوص الذين هم أتباع الفوضى ومن المضطهدين من الحزب العلوي وغزا اليمن ليقوى بمادته الغزيرة ويتخذه مركزاً لنفوذه. فلما بلغ إسحاق بن موسى المذكور عامل المأمون فتكات ابراهيم هذا والثورات التي قامت بأرجاء المملكة وبما فيها العراق كرسي الخلافة، وكان فيه ضعف لا يقوى على النطاح، ارتفع عن اليمن ونفسه ترعد فرقاً وسار نحو مكة فأتى المشاش وهو قرب عرفة فعسكر بها واجتمع اليه جماعة من أهل مكة هربوا من العلويين.

ودخل إبراهيم اليمن في صفر سنة ٢٠٠ هـ يحمل سموماً قتالة فأفرز حممه على الأبرياء الوادعين وعلى من لا ذنب له ظاناً أنه قد برد غلته وشفى علته من أعدائه العباسيين وما درى أنما غرر على نفسه وساقها إلى عذاب الهون فقتل ما شاء هواه أن يقتل، وسبى النساء والذرية ونهب الأموال وأخاف السبيل وارتكب أشياء قبيحة كانت في منتهى الوحشة والقسوة أبانت عن نفس شريرة ثم لم تقف شهوته الجنونية عند سفك الدماء وهتك الحرم والسلب والنهب حتى تجاوز أذاه وشره إلى الجمادات فخرب مدينة صعدة وهدم سداً لخانق العظيم برحبان صعدة الذي أبقته معاول الهدامين الأولين، وكان عليه حظائر وبساتين تجلُّ عن الحصر.

وقام بعده محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين [١] ثم انحلت أمور الطالبيين باليمن والحجاز بعد أمور وقعت [٢] فبعث المأمون محمد بن علي بن عيسى بن ماهان [٣] إلى اليمن فكانت بينه وبين ابراهيم بن موسى [٤] وقائع استظهر فيها ابن ماهان على ابراهيم بن موسى ولم يزل ابراهيم يتردد حول صنعاء حتى قدم عليه عهد المأمون بولاية اليمن فأبى ابن ماهان أن يسلمها إليه، فالتقيا بجدر [٥] عند صنعاء فانهزم ابراهيم ولم يستقم له أمر بعد ذلك. ثم

---

(١) ابن علي بن أبي طالب، وكان كما وُصف أمرد حدثاً بايعته الشيعة بعد وفاة محمد بن ابراهيم طباطبا المذكور آنفاً وقام بأمره أبو السرايا فجرت بينه وبين جنود العباسية معارك عنيفة أكرهت جنود العباسية على التقهقر. فلما كانت في بعض الوقعات انكسرت عساكر أبي السرايا ولم تبق إلا شرذمة قليلة فأسر وأتوا به إلى الحسن بن سهل فهمّ بضرب عنقه فنهاه بعض أصحابه وأشار عليه بإرساله إلى المأمون وهو بخراسان فأقيم بين يدي المأمون فجعل يتعجب من حداثة سنه ثم أمر له بدار فأسكنه فيها فأقام على ذلك مدة يسيرة مقدارها أربعون يوماً ودس إليه شربة فمات وهو ابن ثمان عشر سنة.. كذا قيل.

وأما أبو السرايا فضرب عنقه وصلب رأسه بالجانب الشرقي من بغداد، وبدنه في الجانب الغربي منها. والفضل في انتهاء هذه الثورة لهرثمة بن أعين القائد المحنك، وذلك بعد أن اتهمه الحسن بن سهل بمالأته للحزب العلوي، وشرح ذلك يطول. وأغرى المأمون بقتله. والحقيقة أن الحسن نافس هرثمة على هذه اليد فدس به إلى المأمون حتى قتله ثم ندم المأمون على ذلك حيث لات مندم. وكان بين خروج أبي السرايا وابن طباطبا ومقتله عشرة أشهر.

(٢) لأنه تغلب على الكوفة ابن طباطبا وبعده محمد بن محمد، وعلى البصرة العباس بن محمد بن موسى ابن جعفر وزيد النار أخو الجزار، وأخذ اليمن ابراهيم الجزار، وأخذ الحجاز محمد بن جعفر الملقب بالأفطس.

قال الخضري انتهت هذه الفتن العلوية بالضرر على العباد والبلاد وكان للطالبيين أسوأ الأثر.

(٣) كذا في الأصل. وفي المراجع كلها حمدويه بن عيسى ولعله يسمى بالاسمين، وكان قدومه اليمن سنة ٢٠٠ هـ، وكان الجزار متغلباً عليها فحاربه ابراهيم بمن معه من اليمن وكانت وقفات منكرة تأخذ من الفريقين فخرج الجزار من اليمن يريد مكة وكان بها يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي فواقفه إبراهيم في أصحابه فانهزم يزيد المخزومي فلحقه بعض أصحابه فقتله ودخل إبراهيم الى مكة وغلب عليها واستقامت له غير أنه يدعو الى المأمون فقدم عيسى الجلودي معه الخضرة وبيعة الرضا فخرج إبراهيم فتلقاه وبايع الناس للرضا بمكة ولبسوا الأخضر، كذا في اليعقوبي.

(٤) هو الجزار لم تنته الينا تفاصيل المعارك إلا أنها وقفات منكرة كما حكيناها عن اليعقوبي.

(٥) بفتح الجيم وكسر الدال المهملة آخره راء. وهما قريتان متقابلتان على بعد ساعتين ونصف شمالاً عن صنعاء، وهي من أول قاع الرحبة، ويسكنها من قبائل بالحارث وهم من أنجد بلحارث ولا يزالون مستعدين كلما سنحت فرصة للفوضى والاضطراب ويثبون على صنعاء والسابلة... وفي نسخة خليل بخدار بالخاء المعجمة ويأتي ذكرها وهي بعيدة موضعاً. وما في الأصل هو الصحيح.

بعث المأمون عيسى بن يزيد الجلودي التميمي (١) فجمع له ابن ماهان عشرة آلاف مقاتل. وخرج بهم ابنه عبدالله من صنعاء فالتقوا فهزمهم الجلودي ودخل بعدهم صنعاء وانهزم عبدالله حتى دخل مكة واختفى أبوه محمد بن ماهان بصنعاء فدل عليه الجلودي فقبضه وحبسه ولما استقر الجلودي بصنعاء فرَّق عماله في المخاليف وسار نحو العراق واستخلف حصن ابن المنهال.

وفي سنة ثلاث ومائتين قلد المأمون محمد بن زياد الأعمال التهاميَّة وما استولى عليها من الجبال فقدم اليمن سنة أربع ومائتين واستعمل على قضاء تهامة محمد بن هارون التغلبي جد بني عقامة، واستولى ابن زياد على التهائم بعد حروب جرت له مع العرب واختط مدينة زبيد رابع شعبان وسنذكر ذلك فيما يأتي إن شاء الله تعالى. ثم قدم على حصن إبراهيم الأفريقي الشيباني فأقام باليمن مدة، ثم عزله بنعيم بن الوضاح الأزدي، والمظفر بن يحيى الكندي (٢) واشتركا في العمل، ثم أبدلا بمحمد بن عبدالله بن محرز مولى المأمون (٣).

وكان في ولايته ضعف فسعى أهل الجند عليه فخرج نحو الحجاز واستخلف عباد بن غمر الشهابي. فأقام حتى قدم عليه إسحاق بن العباس العباسي (٤) وأساء السيرة، وظلم ونال

---

(١) نسبة إلى جلود بالفتح والضم وسكون الواو ثم دال مهملة، بليدة بافريقية، وقيل وهو الصحيح إن جلود قرية بالشام معروفة، والتميمي نسبة إلى تميم القبيلة المعروفة.

وكان الجلودي من أمهر قواد المأمون الذين استعان بهم في إخماد الثورات، وكان ميمون النقيبة موفق الراية فقد بعثه المأمون إلى مصر عدة مرات لقمع الثائرين وتولاها للمأمون، وإلى البصرة والكوفة ومكة واليمن وغير ذلك ويعود موفوراً.

(٢) قدم الأزدي والكندي في صفر سنة ٢٠٦ هـ فسار الكندي إلى الجند فأقام مدة يجبي مخاليفها ثم رجع إلى صنعاء فمات بعد رجوعه بأيام، واستقل بالأمر نعيم الأزدي.

(٣) ثم عزل بمحمد بن عبدالله بن محرز وكان قدومه سنة ٢٠٨ هـ ثمان ومائتين فأرسل ولده إلى الجند فأساء السيرة فشغب عليه أهل الجند فكان منه ومن أبيه الخروج إلى الحجاز. هكذا في الخزرجي.. أما الجندي فانه طوى ذكر الولاة المذكورين، وأتى باسم أحمد بن عبد الحميد مولى المأمون، وأن قدومه في ثلاث عشرة ومائتين. وفي اليعقوبي: سنة ٢١٢ هـ اثنتى عشرة ومائتين ثم أتى الجندي بعد مولى المأمون بإسحاق بن العباس الآتي الذكر. والموضوع يحتاج إلى الاستقراء من أقدم المصادر.

(٤) قال الخزرجي: كان قدومه آخر شهر رجب سنة ٢٠٩ هـ قال ووفاته سنة ٢١٦ هـ ست عشر ومائتين. أما الجندي فلم يذكر إسحاق بن العباس العباسي بل ذكر بعد حوادث الجزار ولاية أحمد بن عبد الحميد مولى المأمون وحادثته مع إبراهيم المناخي التي سنذكرها قريباً في الصفحات التي تلي هذه الصفحة، قال: وحين بلغ الخبر المأمون بعث إلى اليمن إسحاق بن موسى المذكور أولاً ـ أي الذي هرب من الجزار ـ فقدم صنعاء سنة خمس عشرة ومائتين فأقام بها سنة ثم توفي. ثم ساق ما وقع لابنه يعقوب =

من اليمانية كل منال وتعصب عليهم تعصباً لم يفعله أحد قبله حتى كان لا يتوقف عن قتل من انتسب إليهم حتى أداه تحامله إلى أن أمر بقطع الخوخ الحميري[1]. وفي أيامه كانت الزلزلة المشهورة بصنعاء سنة اثنتى عشرة ومائتين ثم توفى.

واستخلف على عمله ولده يعقوب فلم يصف له اليمن بعد أبيه وحصل بينه وبين أهل صنعاء شقاق أفضى إلى قتل جماعة منهم ثم انهزم إلى ذمار[2]. فعزله المأمون بعبد الله بن علي العباسي[3]. فلم يزل بها إلى أن توفي المأمون سنة ثماني عشرة ومائتين فلحق بالعراق واستخلف عباد بن غمر الشهابي، ولما تولى المعتصم[4] الخلافة بعد أخيه المأمون، أقر عباداً

= مع أهل صنعاء. قلت: ولعل ما في الجندي أصح وأن يعقوب هو ولد إسحاق بن موسى لا ولد إسحاق بن العباس.

(١) تأمل هداك الله كيف حال اليمن فما تخرج من محنة إلا تلقفتها محنة أدهى وأمر ومن لون جديد مخترع. وهذا ممن لهم نسب وقربى إلى النبي ﷺ الذي جاء منابذاً لحمية الجاهلية وزارياً لمرتكبيها ولو جاءت من غيرهم لأصلتوا عليه أسيافاً حداداً وسلقوهم بألسنة سلاط.

(٢) ذمار، بفتح الذال المعجمة أول الحروف. وهي المدينة الفيحاء، طلقة المحيا باهية المزايا، جمعت بين صحة المناخ، واتساع المرافق، وكثرة المياه، خفيفة المؤن.

وهي ثاني مدن اليمن النجدية بعد العاصمة صنعاء التي تبعد عنها جنوباً بثلاث مراحل لسير الأثقال. قديمة متوغلة في القدم حتى نسب إليها مُلك اليمن، إذ روي أنه وجد مسند عليه مكتوب لمن مُلك ذمار قيل لحمير الأخيار الخ ما ذكر في المسند. كما نسبت إلى ذمار بن يحصب بن دهمان ثم إلى حمير بن سبأ.

وهي نقطة اتصال بين جنوب اليمن وشماله وغربه وشرقه، وعلى طريق القوافل ومحطة كبيرة لتجارة شرقي اليمن تقع في فسيح من الأرض وحقلها المشهور يكاد يعد من حقول اليمن الثمانية وفي شمالها يقع حصن هران المشهور.

(٣) كذا في الخزرجي، وأنه قدم سنة ٢١٠هـ عشر ومائتين وهذا مخالف لكلامه الأول الذي نقلناه عنه في ص ١٤٧. والذي في الجندي أنه عبدالله بن عبيدالله بن العباس بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس فقدم في المحرم سنة ٢١٧ هـ سبع عشرة ومائتين فأقام إلى ثماني عشرة في رجب فمات المأمون فيه واستمر عبد الله إلى شوال، وقد قام بعد المأمون أخوه المعتصم فاستخلف على اليمن عباد بن الغمر الشهابي ثم عزله في سنة عشرين ومائتين بعبد الرحيم بن جعفر.. قلت: وكلام الجندي هو الصحيح وهو مطابق لما نقلناه عن لسان اليمن في ص ١٤٧ إلا أن اسم أبي عبد الله بن علي هو عبيد الله بن علي. ويؤيد ذلك ما في ابن الأثير في حوادث سنة ٢١٦ هـ أنه حج بالناس عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وكان المأمون ولاه اليمن وجعل إليه ولاية كل بلد يدخله.

(٤) «المعتصم من سنة ٢١٨ - ٢٢٧ هـ».

هو أبو إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد، وأمه أم ولد واسمها «مارد» من الترك ولم =

على عمله سنتين، ثم عزله بعبد الرحيم بن جعفر الهاشمي[1]. ثم عزله بجعفر بن دينار[2] مولى

تدرك خلافته. ولد بمحلة تسمى «الخلد» من بغداد سنة ١٨٠ هـ واستخلف في شهر رجب سنة ٢١٨ هـ وتوفي سنة ٢٢٧ هـ وعمره ثمان وأربعون سنة وأقام في الخلافة ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام.

وكان يقال له الثماني والمثمن لأنه ولد في سنة ثمانين ومائة في الشهر الثامن من شعبان وهو ثامن الخلفاء وثامن ولد العباس في سلسلة النسب، وفتح ثمانية فتوح، وولد له ثمانية بنين وثمان بنات وخلافته كما قدمنا وخدمه ثمانية ملوك من العجم وخلف ثمانمائة ألف دينار وثمانية عشر ألف ألف درهم وثمانين ألف فرس ومن الجمال والبغال مثل ذلك وثمانية آلاف من المماليك ومثلها من الجواري، وبنى ثمانية قصور، وقتل ثمانية أعداء. بابك الخرمي، وباطس، ورئيس الزنادقة، والأفشين، وعجيفاً، وقارون، وقائد الرافضة، والثامن غاب عن ذهني. وهذا إن صح فمن عجائب الصدف.

وتولى الخلافة وعمره ثمان وثلاثون سنة، وبويع بعهـد من أخيه المأمون وكان غائباً بالشام لما مات المأمون، ودخل بغداد بأبهة عظيمة وقد أوصى المأمون أخاه بوصية جاء فيها: يا أبا إسحاق أدن مني واتعظ بما ترى وخذ بسيرة أخيك في القرآن واعمل في الخلافة إذ طوقكها الله على المريد لله الخائف من عقابه وعذابه ولا تغتر بالله ومهلته فكأن قد نزل بك الموت، ولا تغفل أمر الرعية، الرعية العوام فإن الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم الله الله وفي غيرهم من المسلمين ولا ينهين إليك أمراً فيه صلاح للمسلمين ومنفعة إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك، وخذ من أقواهم لضعفائهم، ولا تحمل عليهم في شيء، وأنصف من بعضهم لبعض بالحق بينهم وقربهم وتأمنهم الخ.

وكان المعتصم سديد الرأي، شديد المنة، يحمل ألف رطل ويمشي به خطوات وله غرائب في هذا.. شجاعاً، حسن السيرة، شفيقاً بالفقراء والضعفاء، لولا ما ألحق بالعلماء من النكاية والضرب على القول بخلق القرآن. وكان عامياً لا يقرأ ولا يكتب إلا بضعف وسبب ذلك أنه كان معه غلام في «الكتاب» يتعلم معه فمات الغلام فقال له الرشيد: مات غلامك؟ قال: نعم سيدي واستراح من الكتاب. قال الرشيد: وإن الكتاب ليبلغ منك هذا المبلغ، دعوه حتى ينتهي لا تعلموه شيئاً.

ولما كانت أمه تركية فقد صبغ دولته بالعنصر التركي وزاحم العنصر الفارسي والعربي حتى غلب عليهما وقبض على ناصية الحكم وصارت الدولة متأثرة تحت هذا العنصر الغريب. والمعتصم أول من أضيف في لقبه من الخلفاء اسم الله، وجرى الأمر على ذلك.

(١) هو عبد الرحيم بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس دخل اليمن سنة واحد وعشرين ومكث خمس سنين وعزل سنة ست وعشرين، وهو الذي حاربه يعفر بن عبد الرحمن الحوالي وأسر ولده جعفر وخفر ذمته في عباد بـن الغمر الشهابي كما في الإكليل.

(٢) هو جعفر بن دينار بن عبدالله المعروف بالخياط. وكان دينار قائداً من قواد المأمون وولده جعفر هذا من مشاهير القواد، وقد حضر حرب بابك الخرمي وأبلى بلاء حسناً وكان يغزو الصائفة وكان يوليه المعتصم في موسم الحج لمراقبة الطريق والأحداث وكـانـت تـوليتـه اليمـن المرة الأولى سنـة ٢٢٤ هـ واستناب مكانه منصور التنوخي المذكور ثم غضب عليه المعتصم لأجل وثوبه على من كان معه

المعتصم. فأرسل خليفة يقال له منصور بن عبد الرحمن التنوخي [1]. فقدم اليمن وضبط البلاد ووجه عماله إلى المخاليف. فقدم عليه عبدالله بن محمد بن علي بن عيسى بن ماهان [2]. وقد أشرك مع جعفر في الولاية فأقاما في اليمن وقتاً. ثم عزل جعفر بإيتاخ التركي [3] مولى المعتصم فأقر منصوراً وعبد الله بن محمد بن علي على عملها فلم يزالا حتى مات المعتصم سنة

= من الأصحاب وحبسه عند اشناس خمسة عشر يوماً ثم رضي عنه وعزله عن اليمن واستعمل عليها إيتاخ. قال هذا ابن الأثير في حوادث خمس وعشرين، وأما ولايته الثانية ففي أيام الواثق سنة ٢٣١ هـ وسيأتي الكلام عليها. ولما ارتفع جعفر بن دينار عن اليمن وأناب ابنه محمد بن جعفر لا زال يتولى أعمالاً جساماً منها: أنه كان يتولى غزو الصائفة في بلاد الروم. ولم أقف على تاريخ وفاته.

(١) التنوخي لم أجد له ترجمة ونسبته إلى تنوخ قبيلة مشهورة ذات تاريخ مجيد، تنسب إلى قضاعة ابن مالك بن عمرو بن مرّة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ الأكبر. نزلت الشام في الجاهلية الجهلاء ولا زالت لها بقية إلى يوم الناس هذا. ونبغ منها فطاحلة من القواد والزعماء والعلماء والأدباء وانتفعت بهم الأمة العربية في شتى الميادين، ومنهم أبو العلاء المعري الشاعر المشهور والفيلسوف العظيم.

(٢) عبدالله بن محمد الخ هو الذي فرّ من عيسى بن يزيد الجلودي إلى مكة فيما تقدم ذكره. وأبوه الذي يسمى بحمدويه.

(٣) كان إيتاخ غلاماً طباخاً لسلام الأبرش فاشتراه المعتصم منذ سنة تسع وتسعين. وكان شجاعاً فرفعه المعتصم والواثق وضم اليه أعمالاً كثيرة. وكان المعتصم إذا أراد أن يقتل أحداً فبيد إيتاخ يقتل وبيده يحبس. وكان مع المتوكل في مرتبته واليه الجيش والمغاربة والأتراك والأموال والبريد والحجابة ودار الخلافة فلما تمكن المتوكل من الخلافة صدر منه ما يؤذي إيتاخ فهم إيتاخ بقتل المتوكل. فاعتذر له المتوكل وقال أنت أمي وأنت ربيتني ثم وضع عليه من يحسن له الحج فاستأذن فيه المتوكل فأذن له وصيره أمير كل بلد يدخله، وخلع عليه وسار العسكر بين يديه. فلما فارق جعلت الحجابة إلى وصيف. فلما عاد من حجه كتب المتوكل إلى إسحاق بن إبراهيم يحبسه وأنفذ المتوكل كسوة وهدايا إلى إيتاخ فلما قرب ايتاخ من بغداد خرج إسحاق إلى لقائه وكان ايتاخ قد أراد المسير إلى سامرا، فكتب إسحاق إليه إن أمير المؤمنين قد أمر أن تدخل بغداد ليلقاك وجوه بني هاشم والناس وأن تقعد لهم في دار خزيمة بن خازم وتأمر لهم بالجوائز، وكان في ثلثمائة من غلمانه فلما صار بباب دار خزيمة وقف إسحاق وقال له أصلح الله الأمير يدخل فدخل إيتاخ ووقف إسحاق على الباب فمنع أصحابه من الدخول عليه ووكل بالأبواب وأقام عليها الحرس فحين رأى إيتاخ ذلك قال قد فعلوها ولو لم يفعلوا ذلك ببغداد ما قدروا عليه، وأخذوا معه ولديه منصوراً ومظفراً وكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد. وأرسل إيتاخ إلى إسحاق: قد علمت ما أمرني به المعتصم والواثق في أمرك وكنت أدافع عنك فلينفعني ذلك عندك، فأما أنا فقد مرّ بي شدّة ورخاء فما أبالي ما أكلت وما شربت. وأما هذان الغلامان فلم يعرفا البؤس واجعل لهما طعاماً يصلحهما فقبل إسحاق ذلك وقيد إيتاخ وجعل في عنقه ثمانين رطلاً. فمات في جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين ومائتين.

سبع وعشرين ومائتين. فلما تولى الواثق بن المعتصم[1] أقر إيتاخ التركي. فوجه أحمد بن العلاء العامري.

فلما وصل صعدة[2] أرسل الأمير يعفر بن عبد الرحمن

---

(١) «الواثق من سنة ٢٢٧ - ٢٣٢هـ».

هو أبو جعفر هارون بن المعتصم، وأمه أم ولد رومية تسمى «قراطيس». ولد سنة ١٧٦ هـ وكان منذ حداثته راجح العقل بصيراً بتصريف الأمور سياسياً ماهراً موصوفاً بكثير من الخلال التي جعلت أباه يعتمد عليه في أثناء غيابه عن مقر خلافته فتركه في بغداد سنة ٢٢٠ هـ حين سار لبناء «سامرّاء» التي اتخذها قاعدة لخلافته كما أنابه عنه في سنة ٢٢٣ هـ في استقبال الأفشين بعد رجوعه منتصراً من حرب بابك الخرّمي.

ولي الخلافة بعهد من أبيه في شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ، واقتدى بأبيه في الاعتماد على الأتراك الذين كثر عددهم وشغلوا المناصب العالية في الدولة. فولى أشناس التركي السلطة وتوجّه بتاج مرصع بالجواهر. قال السيوطي: وأظن أنه أول خليفة استخلف سلطاناً، فإن الترك إنما كثروا في أيام أبيه.

وسار الواثق على سياسة أبيه في الانتصار للمعتزلة وتشديد فرض آرائه الدينية على الناس كخلق القرآن وغيره مما غير عليه قلوب العامة، وكان لا يبارى في علمه وأدبه حتى سمي المأمون الأصغر لأدبه وفضله. وشغف بالوقوف على آراء العلماء والحكماء. وكان شاعراً يقول الشعر ويجزل العطاء للشعراء الذين زخر عصره بكثير منهم، من هؤلاء أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الذي مهد طريق الحِكم والأمثال لأبي الطيب المتنبي وأبي العلاء. وقد حكم الواثق الدولة أقل من ست سنين ولم يول عهده أحداً. وسئل في مرض موته أن يوصي بالخلافة فلم يقبل وقال: لا أتحمل أمركم حياً وميتاً.

وتوفي الواثق في شهر ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ عن ست وثلاثين سنة، وقيل اثنتين وثلاثين. وبموته انتهى العصر الذهبي للدولة العباسية كما يقال، وذلك نتيجة طبيعية لهذه السياسة التي نهجها أبوه المعتصم الذي اعتمد على الأتراك وأحلهم أسمى المنازل وما جره هؤلاء من إثارة خواطر الأهلين بسبب تمسكهم بالبدع الدنيئة.

(٢) بالفتح والسكون وهاء آخر الحروف، من أحسن مدن اليمن النجدية وألطفها هواء وأطيبها تربة، مع غزارة المياه وعذوبتها وكثرة الفواكه المتنوعة الأصناف التي من أجلها العنب بجميع أنواعه. ومنها العنب الأسود الذي يفوق سائر أنواعه مع عظم حجمه وكبر عنقوده، حتى قيل إن العنقود الواحد زهاء عشرة أرطال فصاعداً.

تقوم على سهل مستو في حقل صعدة المشهورة، مسوّرة بسور من لبن، وتحوطها الجبال من جهاتها الأربع من مسافة قصيرة ومن يمانيها قلعة السنارة، ومن غربيها حصن تلمص التاريخي واشتهرت بدباغ الأديم وكثير من الصناعة اليدوية كعمل الأطباق وغيرها من الأواني كالحراضي- وهو حجر أدكن ينحت من جبال رازح ويستخدم آنية للأطعمة لأنه يحفظ حرارة النار لحظات - وفيها معهد علمي شهير خرج منها بشر من العلماء والأدباء ومن في طبقاتهم، وكان من أشهر بيوتاتها آل أبي النجم، وهم من آل =

الحوالي[1] غلامه طريف بن ثابت[2] في عسكر نحو صنعاء فخرج إليهم منصور ابن عبد الرحمن[3] في أهل صنعاء فهربهم وقتل من موالي « يعفر » نحواً من ألف رجل[4]. وقدم أحمد بن العلاء صنعاء بعد الواقعة، فأقام بها حتى توفي، واستخلف أخاه عمرو بن العلاء فأقام بها مدة ثم إن إيتاخ استخلف هرثمة بن البشير[5] مولى المستعصم على اليمن. فقدم اليمن وخرج لمحاربة « يعفر » بن عبد الرحيم فحاربه ثم عاد إلى صنعاء. ثم إن الواثق عزل إيتاخ عن اليمن، واستعمل عليها جعفر بن دينار فسار إلى اليمن وحاصر « يعفر بن عبد الرحيم » ثم اصطلحا[6]. فعاد إلى صنعاء فأقام بها إلى وفاة الواثق سنة ٢٣٢هـ. فلما تولى المتوكل أخو الواثق[7] أقر جعفر

عبد كلال الأقيال الحميريين. وآل الدواري من أشراف بني عبد المدان بالحارث بن كعب. راجع تراجم الأعلام. وقد اختفى منها كل شيء.

وتبعد عن صنعاء شمالاً تسعون ميلاً إذ هي آخر مدن اليمن، وشهرتها تغني عن الإشادة بها.

(١) راجع أخبار ملوك الحواليين وأنسابهم ج ٢ ـ ص ١٧٧ الإكليل وتاريخنا عصر الاستقلال ويعفر بضم الياء المثناة من تحت وسكون العين المهملة وتكسر الفاء آخره راء.

(٢) كان قائداً عظيماً من قواد الأمير يعفر، ونسبه في آل ذي كبار سادة حاشد ورؤسائها ولكن مسهم الرق ليعفر الحوالي لخبر عجيب كما قاله لسان اليمن في العاشر من الإكليل.

وقد قتل هذا القائد في بلاد يريم « يحصب » قتله التراخم في أيام الأمير محمد بن يعفر ولذلك تشرّد التراخم إلى مكة وزبيد في خبر طويل.

(٣) هو التنوخي مقدم الذكر.

(٤) من هذا العدد الضخم تتجلى عظمة الأمير يعفر ومقدرته على تجهيز جيش كهذا الذي قتل منه ألف رجل بكامل عتاده وهذا من مواليه فضلاً عن الجنود المرتزقة، وليس عندنا معلومات عن أسباب الغزو والفشل. وفي الخزرجي أن القتلى ألف والأسرى آخرون ضربت أعناقهم.

(٥) في الخزرجي أن هرثمة بعث كتاباً إلى منصور بن عبد الرحمن التنوخي بنيابته على اليمن. ثم قدم هرثمة في آخر المحرم سنة ثلاثين ومائتين فأقام أياماً وخرج لمحاربة الأمير يعفر بن عبد الرحيم الحوالي وهو بشبام فحاربه أياماً ثم عاد إلى صنعاء.

(٦) قال أبو محمد: وكان يعفر قد دخل صعدة فخرج عبد الله بن محمد بن عباد الأكيلي حتى أناخ بباب الواثق بالله سنة ٢٢٩هـ فخبره بتغلب « يعفر » وسأله المدد فبعث معه « الشاربامیان » فعرب فقيل البشير. فدخل صنْعاء في سنة ثلاثين ومائتين. راجع الإكليل ج ١ ص ٢٤١.

(٧) « أبو الفضل المتوكل من سنة ٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ ».

هو أبو الفضل جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بالله عاشر الخلفاء العباسية. أمه أم ولد، اسمها « شجاع ». ولد سنة ٢٠٧هـ وبويع له في الخلافة في ذي الحجة سنة ٢٣٢هـ وهو ابن خمس وعشرين سنة وأول ما قام به أنه أظهر السنة ونصر أهلها ورفع المحنة، وهي القول بخلق القرآن والضرب عليه، وكتب بذلك إلى سائر أجزاء المملكة وذلك سنة ٢٣٤ هـ واستقدم =

= المحدثين إلى « سامرا » وأجزل عطاياهم وأكرمهم وألزمهم بأن يتحدثوا بأحاديث الصفات والرؤية ومن ثم توفر دعاء الخلق للمتوكل على الله وبالغوا بالثناء عليه والتعظيم له حتى قال قائلهم: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر رضي الله عنه، في قتال أهل الردة، وعمر بن عبد العزيز، في « رد المظالم »، والمتوكل على الله في « إحياء السنة وإماتة التهجيم ».

روى عبد الأعلى بن حماد أبو يحيى الباهلي المحدث قال قدمت على المتوكل بسُرَّ من رأى فدخلت عليه يوماً فقال لي: يا أبا يحيى قد كنا هممنا لك بأمر فتدافعت الأيام به. فقلت يا أمير المؤمنين سمعت مسلم بن خالد المكي قال سمعت جعفر بن محمد يقول: من لم يشكر الهمة، لم يشكر النعمة، وأنشد يقول:

لأشكرنك معروفاً هممت به ... إن اهتمامك بالمعروف معروف

ولا أذمك إن لم يمضه قدر ... فالشيء بالقدر المحتوم مصروف

وكان المتوكل قد بايع بولاية العهد لابنه المنتصر ثم المعتز ثم المؤيد ثم أراد أن يقدم المعتز لمحبته لأمه فسأل المنتصر أن ينزل على العهد فأبى فكان يحط من منزلته فيتهدده ويشتمه ويتوعده. واتفق أن الترك انحرفوا عن المتوكل لأمور فاتفق الأتراك مع المنتصر على قتل أبيه فدخل عليه خمسة في جوف الليل، هو ووزيره الفتح بن خاقان فقتلوهما، وكان ذلك في خامس شوال سنة ٢٤٧هـ عن اثنتين وأربعين سنة. عن اليعقوبي. وكانت خلافته أربع عشر سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام. وابن الأثير يقول: إن مولده بفم الصلح في شوال سنة ست وثمانين ومائة وكان عمره نحو أربعين سنة. وقد وهم ابن الأثير فلو أن مولد المتوكل على الله سنة ست وثمانين لكان عمره إحدى وستين. والصحيح ما قاله اليعقوبي لأنه معاصر ولأنه اتفق مع ابن الأثير في تحديد عمر المتوكل مع تفاوت يسير، والله أعلم. وكان الشاعر المشهور أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري الطائي المتوفى سنة ٢٨٤ هـ في ذلك المجلس الذي قتل فيه المتوكل فلم يقتل ولكنه وفى لسيده وفاء عظيماً وبكاه بكاء حاراً ووصف بشاعة قتلها وغدر الغادرين بها، وصرح أن الدافع إلى القتل هو ولاية العهد ودعا عليه بإزالة الملك عنه الذي خاض اليه دم أبيه فقال:

أكان ولي العهد أضمر غدرة ... ومن عجب أن ولى العهد غادره

فلا ملك الباقي تراث الذي مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره

بل لقد حرّض على القاتل في قوله من هذه القصيدة:

حرام عليّ الراح بعدك أو أرى ... دماً بدم يجري على الأرض حائره

وهل أرتجي أن يطلب الدم وأثر ... يد الدهر والموتور بالدم واتره

وقد استجاب الله فلم يتمتع المنتصر بالخلافة ولم يهنأ بها وبقتل المتوكل سهل على المماليك الذين استكثرهم المتوكل وأبوه من قبله القتل فكان الخليفة في يدهم كالعصفور في يد الطفل الصغير يفعل به ما يشاء.

ولما اعتمد المعتصم وولداه على الأتراك وتركوا العرب قال يزيد المهلبي:

لما اعتقدتم أناساً لا حلوم لهم ... ضعتم وضيعتم من كان يعتقد

ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم ... حمتكم السادة المذكورة الحشد

قوم هم المجد والأنساب تجمعهم ... والمجد والدين والأرحام والبلد

إذا قريش أرادت شد ملكهم ... بغير « قحطان » لم يبرح به أوَد

ابن دينار [1] على اليمن فأقام بها مدة ثم استخلف ابنه محمد بن جعفر على عمله وسار إلى العراق فأقر المتوكل ابنه محمداً على اليمن فلم يزل إلى أن قتل المتوكل سنة سبع وأربعين ومائتين.

فلما تولى المنتصر بن المتوكل [2] أقر محمد بن جعفر على عمله باليمن فأقام إلى أن مات المنتصر سنة ثمان وأربعين ومائتين.

ولما تولى بعده ابن عمه أحمد المستعين بالله بن المعتصم [3] أقر محمد بن جعفر على اليمن حتى خلع المستعين سنة إحدى وخمسين ومائتين.

---

(١) هو الخياط.

(٢) «المنتصر بالله من سنة ٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ».

هو المنتصر بالله أبو جعفر محمد بن المتوكل على الله، أمه أم ولد اسمها «حبشية» ولم أقف على مولده، بويع له في الليلة التي قتل فيها أبوه سنة ٢٤٧ هـ وكان مهيباً وافر العقل راغباً في الخير قليل الظلم وأظهر العدل والإنصاف فمالت اليه القلوب مع شدة هيبتهم له. وكان كريماً حليماً رحيماً. ومن كلامه «لذة العفو أعذب من شدة التشفي وأقبح أفعال المقتدر الانتقام». مات في خامس ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين عن ست وعشرين سنة أو دونها، ولم يتمتع بالخلافة سوى أشهر معدودة، وهي دون الستة أشهر. ويقال إنه لما جلس على سرير الملك رأى في بعض البسط أثره فيها رسم فارس عليه تاج، وعليه كتابة فارسية فأمر بها فترجمت فإذا هي «أنا شيرويه بن كسرى بن هرمز، قتلت أبي فلم أتمتع بالملك إلا ستة أشهر» فتغير وجه المنتصر فأمر برفع البساط فحصل له حمى كانت سبباً في موته. وقيل ان الأتراك خافوا أن يفتك بهم فجاءته حمى، فأراد أن يفصد فأرشوا الطبيب ففصده بريشة مسمومة فمات من ذلك ولما احتضر قال لأمه يا أماه ذهبت مني الدنيا والآخرة عاجلت أبي فعوجلت نسأل الله العافية.

(٣) كذا في الأصل والصواب أحمد المستعين بالله بن محمد بن المعتصم بالله. وفي بعض التواريخ أنه ابن المعتصم كما هنا وهو وهم. ولايته «من سنة ٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ» وهو الثامن عشر من العباسيين.

ولد سنة إحدى وعشرين ومائتين. وأمه أم ولد اسمها «مخارف»، وكان بوجهه أثر جدري. ولما مات المنتصر اجتمع القواد وتشاوروا وقالوا متى وليتم أحداً من أولاد المتوكل لا يبقي منا باقية. فقالوا: ما لها إلا أحمد بن المعتصم ـ وعلى القول انه ابن للمعتصم ـ ولد أستاذنا فبايعوه وله ثماني وعشرون سنة. فاستمر إلى أول سنة إحدى وخمسين ومائتين. ولما قتل بغا التركي ووصيفاً للذين فتكا بالمتوكل تنكر له الأتراك فخافهم وانحدر من سامرا إلى بغداد فأرسلوا اليه يعتذرون ويسألونه الرجوع فامتنع فقصدوا الحبس وأخرجوا المعتز بالله وبايعوه بعد وقائع بينه وبين المستعين ثم قبض عليه وحبس وقتل غدراً في ثالث شوال سنة ٢٥٢ هـ عن إحدى وثلاثين سنة. وكانت خلافته أربع سنوات الا أشهراً.

ولَمّا تولى بعده ابن عمه المعتز بالله الزبير بن المتوكّل[1] مدته[2] ثم تولى بعده ابن عمه محمد المهتدي بالله بن الواثق[3].

---

(١) « المعتز بالله من سنة ٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ ».

هو أبو عبدالله محمد وقيل الزبير بن المتوكل على الله. ولد سنة اثنتين وثلاثين ومائتين من أم اسمها « قبيحة » بويع له بالخلافة سنة ٢٥٢ هـ عند خلع المستعين وله تسع عشرة سنة ولم يل الخلافة قبله أصغر منه. وأول عمل قام به هو خلع أخيه المؤيد إبراهيم بن المتوكل على الله من ولاية العهد وضربه وقيده فمات بعد أيام وحرض على قتل المستعين فقتل وأتي برأسه اليه وهو مشتغل بلعب الشطرنج. فلم يلتفت إليه وقال حتى أفرغ من اللعبة.

وفي أيامه ابتدأت الدولة الطولونية بمصر. ثم اتفق الأتراك على خلعه، ودخلوا عليه ومنعوه من الطعام والشراب ثلاثة أيام. ثم أدخلوه سرداباً وجصصوا عليه فمات في رجب سنة ٢٥٥ هـ، وعمره ٢٤ سنة. ومدة خلافته ثلاث سنين وستة أشهر. وقيل إنهم أخذوه إلى الحمام وعطشوه ومنعوه الماء ثم سقوه ماء مثلج فسقط ميتاً.

(٢) كذا في الأصل، والذي في الخزرجي: ولي الخلافة بعده ابن عمه المعتز بالله الزبير بن المتوكل؛ وكان مغلوباً على أمره إلى أن خلع وقتل في سنة ٢٥٥ هـ خمس وخمسين ومائتين.

(٣) « المهتدي بالله من سنة ٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ ».

هو أبو إسحاق محمد المهتدي بالله بن هارون الواثق بن محمد المعتصم. ويقال أبو عبد الله ولد سنة ٢٠٩ هـ.

وأمه أم ولد. اسمها « قرب ». بويع بعد خلع المعتز بالله سنة خمس وخمسين، ودعي له يوم الجمعة أول يوم من شعبان بسر من رأى. ولم يدع له في بغداد إلا في الجمعة الثانية، لأن المعتز كان حياً. وكانت مدة خلافته أحد عشر شهراً وستة أيام.

قال الخطيب البغدادي: كان المهتدي بالله من أحسن خلق الله مذهباً، وأجلهم طريقة، وأطهرهم ورعاً، وأكثرهم عبادة، وروى عنه حديثاً واحداً. وروى عن عبد الله بن إبراهيم الإسكافي. قال: حضرت مجلس المهتدي بالله وقد جلس للمظالم فاستعداه رجل على ابن له. فأمر بإحضاره، فأقامه إلى جنب الرجل فسأله عما ادعاه عليه فأقر فأمره بالخروج من حقه. فكتب له في ذلك كتاباً. فلما فرغ قال الرجل والله يا أمير المؤمنين ما أنت إلا كما قال الشاعر:

حكمتموه فقضى بينكم ... أبيض مثل القمر الزاهر
لا يقبل الرشوة في حكمه ... ولا يبالي غبن الخاسر

فقال له المهتدي: أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك. وأما أنا فما جلست هذا المجلس حتى قرأت المصحف ﴿ونضع الموازين القسط يوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ فقال عمي: فما رأيت باكياً أكثر من ذلك اليوم. وكان يتشبه بعمر بن عبد العزيز وله في ذلك أحاديث وحكايات كثيرة. وكان يقول: أما يستحي بنو العباس أن لا يكون فيهم مثل عمر بن عبد العزيز؟.

=

ثم تولى بعده ابن عمه المعتمد أحمد بن المتوكل (١) وكل منهما يقر محمد بن جعفر على عمله باليمن (٢). وكانت أمور المعتمد كلها بيد أخيه الموفق طلحة بن المتوكل (٣). فوردت

= ولما وقعت الفتنة بسر من رأى، خرج المهتدي بالله يوم الأحد مع الزوال فحاربهم وصار ضد الأتراك فمكث بقية يومه، ويوم الاثنين. ثم قتل وصلي عليه يوم الثلاثاء لأربع عشر بقين من رجب من السنة المذكورة وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام. وكان نقش خاتمه: «من تعدى الحق ضاق مذهبه».

(١) «المعتمد بالله من سنة ٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ».

هو أبو العباس أحمد بن المتوكل على الله وقيل أبو جعفر. ولد سنة تسع وعشرين ومائتين. وأمه رومية اسمها «فتيان» ولما قتل المهتدي بالله كان المعتمد محبوساً فأخرجوه وبايعوه، وانهمك باللهو واللذات واشتغل عن الرعية؛ فكرهه الناس. وكان أخوه طلحة الموفق هو الغالب على الأمر والنهي. وفي أيامه خرج أحمد بن طولون واستولى على الشام، واستفحل أمره. وكان الموفق قد ضيق على أخيه فلم يكن له من الأمر شيء سوى الاسم والدعاء والخطبة حتى إنه اتفق أنه طلب في بعض الأيام ثلثمائة دينار فلم يحصل عليها فقال:

أليس من العجائب أن مثلي ... يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء في يديه
إليه تحمل الأموال طراً ... ويمنع بعض ما يجيء إليه

وتوفى المعتمد في شوال سنة تسع وسبعين ومائتين ببغداد، وعمره خمسون سنة وخمسة أشهر وعشرون يوماً. ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة. وكان نقش خاتمه «السعيد من كفي بغيره».

(٢) رواية الخزرجي عن الشريف إدريس في كتابه كنز الأخيار، من أن كل الخلفاء يقرون محمد بن جعفر بن دينار. ثم روى ما في الجندي، قال: وقال الجندي لما توفي الواثق وقام بعده أخوه المتوكل أقرَّ جعفر بن دينار على اليمن مدة ثم عزله واستعمل حمير بن الحارث فلم يتم له أمر مع الأمير «يعفر بن عبد الرحمن الحوالي» فعاد حمير إلى العراق هارباً واستولى يعفر بن عبد الرحمن الحوالي على اليمن ومخاليفها. ثم ساق قيام الخلفاء ولم يذكر الولاة باليمن إلى زمن المعتمد فذكر الأمير محمد بن يعفر. وهكذا في النسخة المنقطعة وفي أنباء الزمن في حوادث سنة ٢٤٨ هـ وفاة المنتصر وقيام المستعين وأنه أقر محمد بن يعفر. وقال في خلافة المهتدي أقر محمد بن يعفر. فأنت ترى ما في هذه المصادر من اضطراب، ولعل ما في الجندي أقرب إلى الصواب لما فيه من رائحة الموافقة لكلام «لسان اليمن» المؤرخ الثبت الفيلسوف.

وإلى سنة ٢٥٩ تسع وخمسين ومائتين انتهى تاريخ اليعقوبي المعروف بابن واضح والمطبوع بليدن وبيروت.

(٣) هو الملقب الناصر لدين الله. وغلب بالأمر على أخيه المعتمد. وهو أول خليفة حجر عليه فاشتدت شوكته ومال الناس له وأعاد إلى الدولة شيئاً من المهابة والاحترام والرونق. وكان يدعى له

كتـب لموفق طلحة إلى محمد بن يعفر بن عبد الرحيم الحوالي، بولاية اليمن. فوجه عماله إلى المخاليف، وفتح حضرموت وكانت قد تمنعت على من قبله. وكان مع غلبته على صنعاء والجند وحضرموت يوالي ابن زياد صاحب زبيد. ويحمل الخراج إليه يريد أنه نائب عنه لعجزه عن مقاومته. وفي أيام الأمير محمد بن يعفر حصل في صنعاء سيل عظيم وهو السيل الثاني في الإسلام[1] فأخرب دوراً كثيرة، وأتلف أموالاً عظيمة. وهلك عالم لا يحصون. يقال إن الدور التي خربت يومئذ ستة آلاف دار وذلك سنة اثنتين وستين ومائتين، وهي السنة التي حج فيها الأمير محمد بن يعفر واستخلف على اليمن ابنه إبراهيم[2].

على المنابر أيام أخيه الخليفة المعتمد بالله وكان عليه أمر المشرق فخرج عليه صاحب الزنج فحاربه إلى أن قتله سنة ٢٧٠ هـ وقصته فيها طول.

وكان طلحة شديد الوطأة، حبس ابنه المعتضد لأسباب. فلما حضرته الوفاة أطلقه للقيام بالأمر وأجراه المعتمد على ما كان يجري أمر أبيه. ومات طلحة الموفق سنة ٢٧٨ هـ، وكان عادلاً حسن السيرة يجلس للمظالم وعنده القضاة وغيره فينصف بعضهم من بعض. وكان عالماً بالأدب والنسب والفقه وسياسة الملك. قال يوماً إن جدي عبد الله بن عباس، قال: إن الذباب ليقع على جليسه فيؤذيني ذلك. وهذه نهاية الكرم وأنا والله أرى جلساي بالعين التي أرى بها إخواني والله لو تهيأ لي أن أغير أسماءهم لنقلتها من الجلساء والإخوان. وقال يحيى بن علي: دعا الموفق يوماً جلساءه فسبقتهم وحدي، فلما رآني وحدي أنشد يقول:

واستصحب الأصحاب حتى إذا دنوا ... وملوا من الإدلاج جئتكم وحدي

راجع الإكليل ج ٢ ص ١٧٧ وما بعدها.

(١) السيل الأول في أيام أبي بكر رضي الله عنه، وقد تقدم ذكره.

(٢) يكنى أبا يعفر، قال الهمداني: وأمه سلامة بنت ابراهيم بن الصباح بن الوضاح بن ابراهيم بن ماتع بن عوف بن يدرس بن عامر ذي حوال الحوالية، وكانت سيدة نساء حمير وكانت تسمى بلقيس الصغرى حلماً وعلماً وعقلاً وجوداً وديناً. ولما خطبها عثمان بن عبد الرحمن على ابن أخيه محمد بن يعفر كرهت وأبت وكرهته لأن أختها كانت تحته فتوفيت فأنفت أن تخلف أختها على فراشها فغضبت على ذلك. فقالت أو عزمتم؟ قالوا لا حيلة. قالت إني أرى من جمعتم بيني وبينه أني سألد منه فرعون يضرب عنقه. فكذلك كان. فأولدت منه ابراهيم أبا يعفر فقتل أباه محمداً وعمه أحمد ابني يعفر سنة سبعين ومائتين. وكان إبراهيم داعراً إذا سكر، عالماً أديباً خطيباً بليغاً إذا صحا، ويعد من مفاخر اليمن. وحمله الإدمان على الشراب أن قتل أباه وعمه، وكان شاعراً مفلقاً ومن شعره:

حكم السيف إذا ما لم تجد حـ ... ـكماً يعدل فالسيف الحكم

لم أر الناس بذي رفق بهم ... إنما المهيوب فيهم من غشم

هذه رواية لسان اليمن ـ والحق ما قالت حذام.

وفي الخزرجي أن الأمير يعفر بن عبد الرحمن، جد إبراهيم أوعز لإبراهيم بقتل ولديه محمد بن يعفر =

ولما رجع من الحج بنى جامع صنعاء على الحال التي هو عليه الآن، وذلك في سنة خمس وستين ومائتين. ولم يزل إبراهيم بن محمد بن يعفر على ولايته إلى سنة سبعين ومائتين.

ثم خرج عليه أهل النواحي، ومالوا إلى جعفر بن إبراهيم المناخي فوجه إبراهيم على المخالفين من حاربهم وكانت الحرب بينهم سجالاً. ثم اجتمع أهل صنعاء من الأبناء وغيرهم على عمال أبي يعفر إبراهيم بن محمد بن يعفر بصنعاء فقاتلوهم وأخرجوهم وأخربوا دار أبي يعفر وحرقوها، ولم يلبث أبو يعفر أن قتل بشبام. فقام بالأمر بعده ابن عم له[1] أياماً حتى قدم من العراق علي بن الحسين المعروف «بجفتم»[2] عاملاً على صنعاء فقاتله الدعام[3] أحد ولاة إبراهيم بن محمد بن يعفر[4] فهزمه جفتم، ودخل صنعاء قهراً وطرده منها. ولم يزل جفتم مالكاً لصنعاء إلى أن توفي المعتمد سنة تسع وسبعين ومائتين[5] فلما تولى بعده ابن أخيه المعتضد بن الموفق طلحة[6] أقرّ علي بن الحسين جفتم على

= وأحمد بن يعفر فقتلا بعد المغرب في صومعة مسجد شبام وأنا أستبعد هذا، وكان قتل محمد بن يعفر وأخيه سنة سبعين ومائتين كما في الإكليل.

وفي الجندي أن إبراهيم قتل أباه وعمه وابن عمه وجدته أم أبيه. وقد وهم الجندي أن قتل الأمير محمد كان في سنة تسع وسبعين، والحق ما تقدم. وإنما هو إبراهيم محمد بن يعفر. راجع تاريخنا.

(١) ما هنا موافق للخزرجي. والمراد بقوله ابن عم له هو عبد القاهر بن أحمد بن يعفر.

(٢) ستأتي ترجمته وله قدمتان هذه إحداهما وذلك في سنة ٢٧٩، والثانية سنة ٢٨٢ هـ.

(٣) كان في الأصل محمد الدعام، والتصحيح من الجزء العاشر من الإكليل هو الأمير الخطير أوحد دهره شهامة ومروءة، الدعام بن إبراهيم بن إياس الأصغر. «راجع تمام نسبه وأخباره ج ١٠ ص ١٧٢» الإكليل وتاريخنا.

(٤) أي باعتبار ما كان وإلا فدخول الأمير الدعام صنعاء إنما كان على جهة التغلب والاستقلال كما سبق قريباً.

(٥) كان خروج جفتم في شهر صفر من سنة تسع وسبعين. ووفاة المعتمد في شهر رجب من السنة المذكورة.

(٦) «من سنة ٢٧٩ هـ - ٢٨٩ هـ».

هو أبو العباس المعتضد بالله أحمد بن طلحة الموفق بن المتوكل على الله العباسي. ولد في ذي القعدة سنة اثنتين وأربعين ومائتين، وأمه أم ولد اسمها «صواب». بويع في شهر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين بعد عمه المعتمد. وكان من فحول الملوك شجاعاً مهيباً ظاهر الجبروت وافر العقل شديد الوطأة من أفراد خلفاء بني العباس. كان يقدم على الأسد لشجاعته. وكان قليل الرحمة، إذا غضب على قائد أمر بأن يلقي في حفرة ويطم عليه، وكان ذا سياسة حسنة، وقام بالأمر أحسن قيام وهابه الناس ورهبوه، وسكنت في أيامه الفتن. وكان يسمى السفاح الثاني لأنه جدد ملك بني العباس، وكان قد خلق =

ولايته [١] بصنعاء.

وكان لا ينام الليل بل يكون قاعداً وأبواب الدروب [٢] بين يديه. والعسس يختلف اليه ومن له حاجة وصل إليه وقضاها حتى يطلع الفجر ثم يقعد حتى يتغدى مع خاصته ونوابه ثم ينام إلى الظهر.

ثم انه عاد إلى العراق فلما رحل قصدها الدعام [٣] فدخلها ثم هرب منها ورجع الأمر إلى بني يعفر الحواليين. ولم يزل إبراهيم بن يعفر على صنعاء ومخاليفها وهو يهادن ابن زياد. ولم تطل مدة إبراهيم هذا [٤]. فقام بالأمر من بعده ابنه أسعد بن أبي يعفر [٥] إبراهيم بن محمد ابن يعفر بن عبد الرحمن [٦]. وفي أيامه ظهرت القرامطة [٧]. فخرج قوم من اليمن إلى

وضعف وكاد يزول، ومات في ربيع الآخر لثمان بقين منه سنة تسع وثمانين ومائتين. وله من العمر ست وأربعون سنة، ومدة خلافته تسع سنين وتسعة أشهر. ولما حضرته الوفاة أنشد:

تمتع من الدنيا فإنك لا تبقى … وخذ صفوها ما إن صفت ودع الرنقا
ولا تأمنن الدهر إني أمنته … فلم يبق لي خِلا، ولم يرع لي حقا
قتلت صناديد الرجال ولم أدع … عدواً ولم أمهل على طعنه حلقا
وأخليت دار الملك من كل نازع … فشردتهم غرباً ومزقتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزاً ورفعة … وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقا
رماني الردى سهماً فأخمد جمرتي … فها أنا ذا في حفرتي عاجلاً ألقى
ولم يغن عني ما جمعت ولم أجد … لذي الملك والأحياء في حسنها رفقا
فيا ليت شعري بعد موتي ما ألقى … إلى نعم الرحمن أم ناره ألقى

(١) أقام من سنة ٢٧٩ إلى سنة ٢٨٢ هـ أي أربع سنوات ثم عاد إلى العراق وكان قدومه للمرة الأولى كنجدة لأبي يعفر ابراهيم بن محمد الحوالي على الخارجين عليه، والمرة الثانية في سنة ٢٨ هـ وستأتي. وكان علي بن الحسين جفتم حازماً ضابطاً للأمور صاحب عقل ودهاء بصيراً بالأمور ومنافذها. شجاعاً لبيباً. وكانت له أقوال مأثورة منها ما قاله في أهل صنعاء إن فيهم خصال شؤم منها أنهم يرجفون على أنفسهم وسائر الأمصار يرجفون لأنفسهم. قلت ولا تزال هذه الخصلة فيهم. ومنها لو أن حجاماً خدم السلطان حملوه على رؤوسهم، ولا يطيعون أهل العلم، وفي رواية أنهم يعظمون خدم السلطان وإن كان داني النسب. ومنها أنهم يهرقون ماء سواقيهم على أبواب بيوتهم أي مياه المراحيض.

(٢) على حذف مضاف، أي مفاتيح أبواب الدروب. والعسس الحرس الذين يطوفون بالليل.

(٣) هذه المرة الثانية لتغلب الدعام على صنعاء كما تقدم في ترجمته.

(٤) هذا تكرار. وهو كذلك في الخزرجي.

(٥) في الأصل أسعد بن يعفر والأصح ما حررناه، وقد تقدم تفصيل ذلك وما هو الأرجح في ص ٢٣٦.

(٦) ستأتي ترجمة أسعد بن أبي يعفر إبراهيم بن محمد بن يعفر الحوالي.

(٧) القرامطة فرقة من الباطنية. واحدها قرمطي بكسر القاف وسكون الراء وكسر الميم بعدها طاء =

جبل الرس بالمدينـة فقـدمـوا بـالإمـام الهادي يحي بـن الحسين الطـالبي عليـه السلام [1]

مهملة وياء النسبة، والقرمطة تقارب الشيء بعضه من بعض يقال «خبط مقرمط» إذا كان متقارب الحروف «ومشي مقرمط» متقارب الخطو، سمي به أبو سعيد الأشعب، لأنه كان قصيراً دمياً مجتمع الخلق أسمر كريهاً فلذلك سمي قرمطياً. فنسبت إليه القرامطة لأتباعه.

قال الإمام نشوان: والقرمطة عند أهل اليمن عبارة عن الزندقة وصاحبها عندهم قرمطي، وجمعه قرامط وقرامطة.

قلت: وهي منظمة سرية خطيرة تكونت من جماعة فارسية من المجوس اندست بين المسلمين متظاهرين بالدين والورع وهدفها تقويض دعائم الإسلام وإعادة السيادة الفارسية ثم اتخذت التشيع لها شعاراً لما أعجزتها الحيل. وكان منشأها بفارس ولها خلايا بكل مكان ثم امتدت جذورها الى العراق وكر التشيع وأصبح مركزاً هاماً لبث دعوتهم في ظل البكاء والعويل على ما نال أهل البيت من التشريد والتنكيل والفوا قلوباً حانية على هذا المبدأ الذي استهوى بريقه ضعفة النفوس والسذج من الناس واعتنقه البعض عن طيب خاطر وسماحة نفس بدون مناقشات للغايات والأهداف، والبعض اعتنقه طمعاً في الوصول الى المناصب والجاه والمال. واستفحل أمر هذه العصابة وعم خطرها وتطاير شررها وقوضت ممالك. وكانت فتنة صماء جرَّت على الإسلام والمسلمين ويلات وحروب لا ينادي وليدها، ونال منها اليمن شرارة انطفأت بعد حين.

وكان ظهور دعوتهم زمان المأمون وانتشرت أيام المعتصم، فوكل لحربهم الأفشين، ثم عبد الله بن طاهر، وأبا دلف العجلي حتى قضى عليهم. كما حاربهم الإخشيديون بعدما رأوا من استفحال شرهم وانتشار ضلالتهم، ولكن لا زالت عقائدهم كامنة في قلوبهم كمون النار تحت الرماد حتى هذا العصر.

ولما كانت مبادئهم سراً مطلسماً لا يبدونه إلا لمن يثقون به ثقة كاملة، فقد اختلف فيهم المؤرخون وصالحـو سلف الأمة وعن معتقداتهم اختلافاً كثيراً حتى عدهم بعض الأئمة من غير الفرق الإسلامية وأنها أخطر فرقة عرفها التاريخ. وقد بنوا أصول دعوتهم على دعوات تسع. فصلها المقريزي في خططه وتنتمي الدعوة التاسعة إلى الانحلال والتعطيل، وقد تسمى هذه الفرقة الإسماعيلة لاتخاذهم إسماعيـل بـن جعفر الصادق إماماً، ويقال لهم السبعية، لأنهم ذهبوا إلى أن النطقاء بالشريعة سبعة وهم: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، ومحمد المهدي، سابع النطقاء. وبين كل اثنين من النطقاء سبعة أئمة يقتدى بهم، ويقال لهم الباطنية، لأنهم يقولون لكل ظاهر باطن، ومنهم طائفة الحشاشين ولعل الصليبيين هم الذين أطلقوا عليهم هذا الاسم لأن الشائع أن أتباعهم كانوا يتعاطون الحشيش ويلجأون إلى أشد العنف تحت تأثير ذلك المخدر، وغير هذه الأسماء المعروفة في كتب الفرق والتواريخ ولا جرم أن هذه التسميات لم يتخذها أهل منتحلي هذا المذهب بل نبزهم بها من لم يكن من نحلتهم، أما هم فكانوا يسمون أنفسهم: الشيعة، أو الفاطميين أو نحو ذلك من الألقاب التي تخفي على الناس غايتهم، ومنهم طائفة البهرة «بثغر عدن» وجمهرتهم بالهند. ويوجد منهم طوائف بالشام ولبنان وغير ذلك. وفي اليمن في محال سنبينها إن شاء الله فيما يأتي.

(١) الذين استقدم الهادي وتبنى قضيته رجال من خولان صعدة. ثم من آل أبي فطيمة بأسباب اضطراب الحبل على الدولة الحوالية واختلال الأمن حتى قضت الفوضى مضاجعهم وأخذ التناحر القبلي =

إلى اليمن سنة أربع وثمانين[1] ومائتين. فملك بين صنعاء وصعدة. وأقام بصعدة وبعث عماله إلى النواحي.

= يأكلهم ويفني جمهرتهم، وكان آل أبي فطيمة قد تعرفوا إلى الهادي حينما خرج للمرة الأولى كما سنوضح ذلك، وكان فيهم نزعة تشيع فأرادوا أن يكيدوا لبني عمومتهم آل الأكيليين الذين ينزعون بالولاء والحب إلى العباسية. فذهبوا إلى الرس أحد جبال المدينة فأتوا بالهادي وليس السبب لطلب الهادي ما ذكره المؤلف، تبعاً للخزرجي الذي تبع الشريف إدريس، أنه ظهور القرامطة فلم يكونوا قد ظهروا كشبح خطير.

قال لسان اليمن: وهم ـ أي آل أبي فطيمة ـ الذين خرجوا ليحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم إلى الرس فملكوه بلدهم وساروا معه إلى اليمن حتى ملكها وكانوا عمود أمره ووكر عزه ونظام دولته، فأقاموا على ذلك حياته وحياة ابنه محمد بن يحيى وحياة ابنه الناصر حتى سجن الهمداني فتباعدوا عنه وأظهروا له الخلاف.

(١) هو الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. يكنى أبا الحسين ويلقب بالهادي الى الحق.

وكان إماماً عالماً متضلعاً بسائر الفنون، ورعاً زاهداً شجاعاً مقداماً. قوياً أيداً سريع النهضة كلما سمع بهيعة بادر إليها. وكلما دعى لنجدة أجاب بهمة لا تعرف الملل ولا يتقهقر إذا فقد الأمل، وهو أول من أسس الإمامة باليمن، وأول من دعا إلى مذهب الزيدية. ونشر مذهبهم. وكان مجتهداً في في الأحكام الشرعية. فاستقل بمذهب خالف فيه زيد بن علي وغيره من العلماء. وله آراء غريبة تفرد بها كغيره من العلماء وتواليفه مشهورة بين شيعته. وانتشر مذهبه في سنام نجد اليمن فيما بين يحصب وصعدة من القرن العاشر الهجري لتغلب الأئمة على هذه الأصقاع، ويعتقدون أنهم الفرقة الناجية وتشدد معتنقو مذهبه باتباع آرائه حتى قال الإمام نشوان في ذلك مقطوعه منها:

إذا جادلت بالقرآن خصمي   أجاب مجادلاً بكلام يحيى

في حين يخالفون أقواله وأفعاله حتى اختلط عليهم الحابل بالنابل وأخذ أحرار العلماء منهم يناقشون المذهب، وقيلت في ذلك أشعار مشهورة. انظر نيل الوطر للمؤرخ المشهور زبارة. ولد في سنة ٢٤٥ هـ بجبل الرس من جبال المدينة قرب ذي الحليفة. حيث كان أبوه وجده وأهله وذووه يعيشون هنالك بعيدين عن التيارات السياسية وعن أعين الرقباء متوجسين خيفة من الدولة العباسية التي طاردتهم واستقصت آثارهم حتى أضناهم الاختفاء إلى هذه البقاع الجرد التي كانوا يعيشون في شظف من العيش.

وكان جده الإمام القاسم بن إبراهيم قد خرج إلى اليمن متنكراً، ومكث أياماً وتحصل على كمية من المال اكتسب بها أرضاً بجوار المدينة المنورة وانتقل إليها بعدما خف الطلب عليه وعاش بين أهله على حساب غلال تلك الأرض حتى كان يباشر عمليتها بيده حتى توفاه الله سعيداً بتلك العيشة الهادئة الراضية.

فنشأ الهادي نشأة تقوى وصلاح وعفاف ودين، وأخذ العلوم عن أهله بالمدينة المنورة ثم انتقل الى العراق فتتلمذ على أبي القاسم البلخي وغيره. ممن اشتهر بالعلم وحب الآل. =

= « حياته العملية ورحلته إلى آمل بلد في فارس »

عاد من العراق إلى الرس وقد امتلأ أفكاراً من حياة العراق وترفها وعيشة أهلها وحضارتها، وبهرته قصور الخلفاء العباسية، وما يتمتعون به من العظمة والأبهة والجاه والنفوذ والحالة هذه يراهم خصومه الألداء الغاصبين لحقوقهم تراث الخلافة، ولم يكتفوا بسلب الخلافة فحسب بـل تنـاولـوهـم بـالقتـل والتشريد فثارت فيه نعرة الانتقام وحرارة الثأر. وفي الوقت نفسه ظهر رجل من أهله وأقاربه بجرجان وآمل من أرض فارس، هو محمد بن زيد مظاهراً له، الناصر الأطروش متزعماً الإمامة وحركة المقاومة للجيوش العباسية بحيث أحرزت جيوشه انتصارات عديدة أكسبته شهرة وصيتاً وانتشرت أخباره حتى وصلت مسامع الهادي وذويه، فرأى الإمام الهادي أن يشترك في هذه المعارك. ويقوم بأوفر نصيب ليقضي بعض التراث أو على الأقل يجد هناك قلوباً حانية تخفف عنه وعن أهله ومن يعنيه أمرهم شدة وطأة الحياة التي قد ملوها. فارتحل هو وأبوه وعمومته وبعض مواليهم الى « آمل » ولكن سرعان ما اصطدم بخيبة الأمل ـ وما أشدها إذا جاءت من صديق أو حميم أو مؤمل ـ فلم يجد ما حدثته نفسه، ولا بعضه. بل وجد القسوة والجفاء والإعراض. فعـاد أدراجه متعثر الخطا يحرق الأرم.

قال في الإفادة: قدم آمل وقد ظهر الناصر مع محمد بن زيد بجرجان ومعه أبوه وعمومته وبعض الموالي فنزلوا خاناً فامتلأ الخان بالناس حتى كاد سطح الخان يسقط. وعلا صيته فكتب إليه الحسن بن هشام وكان على وزارة محمد بن زيد « بأن ما يجري يوحش ابن عمك » فأجابه ما جئنا ننازعكم أمركم ولكن ذكر لنا أن في البلد سعة وأهلاً فقلنا عسى الله أن نفيدهم منا وخرجوا مسرعين وثيابهم عند القصار وخفافهم عند الإسكاف وحملنا إليهم من منازلنا اللحمان ودججنا وشيئاً مما يصطنع به من الحصرم وغيره. فتناولوه إلا اللحمان فإنها ردت إلينا كهيئتها. فسألنا الموالي سبب ردها؟ فقالوا إنه يقول إنه بلغني أن الغالب على هذا البلد التشبيه والجبر فلم آمن أن يكون من ذبائحهم فقد سمعت أن أهلنا بهذا البلد لا يتوقون ذبائحهم. انتهى..

« إلى اليمن، رحلة استطلاع »

انثنى راجعاً من فارس بالصورة التي شرحناها كئيب النفس مضطرم الجوانح بخيبة الأمل. ولكن اليأس لم يخامره ولم يضنه السفر الذي أسفر عن نتيجة سيئة. ولا استولى عليه الفشل بل ظل مفكراً مسهداً يفتش عن قطر ينشب فيه أظفاره، ويملأ فراغه، ويشبع طموحه. وقد ضاق بالبقاء ذرعاً بين حرات المدينة السوداء التي صار فيها أشبه بمحصور فلم يجد غير اليمن مأوى المشردين، والأم الحنون للمتغربين الطالبي السلطان. وكان قد سمع من جده عن جبال اليمن وشعابها وأهلها كما بلغه أن حبل دولة اليمن مضطرب. والناس أوزاع وكل حزب بما لديهم فرحون.

فخرج إلى اليمن سنة ٢٨٠هـ ثمانين ومائتين. فدخل صعدة وتعرف إلى أهلها ثم تقدم نحو بلد همدان مجتازاً على الجوف، إلى نهم حيث حط رحاله في قرية « الشرَفة » ليطل على عاصمة التبابعة عن كثب، وما يجري فيها من التيارات السياسية. ولا زال يتطلع الأخبار ويتنطس الأحوال من الأعوان والأنصار، ولكنه لم يجد الضالة المنشودة إذ لم يكن الوقت قد حان لبث مبادئه وما يهدف إليه فعاد من حيث أتى. ولكنه قد بذر البذرة الأولى التي ينتظر جناها. =

« إلى اليمن مرة ثانية »

غادر اليمن وقد ارتسمت في مفكرته عدة صور وداعبه الأمل لما رأى تفكك اليمن وانحلالها، وما يدرينا أنه قد عمل في قرارة نفسه خريطة شاملة لدعوته وثورته وكره وفره.

وكانت عوامل الضعف المتفاعلة بدولة الحواليين قد. هيأت الجو السياسي لعودة الهادي لا سيا في بلاد صعدة التي مني أهلها بفتن عظيمة، وعضتهم الحروب وفني الرجال وذهبت بالأموال ولم تستطع الإمارة اليعفرية كبح جماحهم، وإخماد أنفاسهم، وكف عادية ما بينهم رغم ما أرسلت من جيوش وقواد لإصلاح ذات بين قبيلتي سعد والربيعة وتذهب محاولاتهم باطلاً. حتى إنه روي أن قائداً من قواد آل يعفر كان معه ألوف من الجنود أتاهم فأراد الصلح فيما بينهم وأنهم يقتتلون وهو واقف ما له فيهم حيلة لشيء يعلمه الله.

وكانت الرحلة الأولى للهادي قد تركت في نفوس آل فطيمة أثراً بعيد المدى فأوفدوا في موسم سنة ٢٨٣هـ وفداً حاملين رسائل من زعمائهم يستدعونه، ويتزعمون نصرته، وضمنوا له النجاح، وقبلوا كل شرط يطلبه منهم. فلما قضوا حجهم عرجوا على المدينة حيث يقيم في جبالها فاستجاب لرغبتهم وكأنما استجاب لرغبة نفسه، ولما يصبو إليه هواه، وخرج مشيعاً له أهله وأقاربه فرحين مستبشرين لما يأملون منه الخير والمعروف. وكان فيمن ودعه عمه محمد بن القاسم. ومما قاله الهادي في خاتمة الوداع « لو حملتني رجلاي لكنت معك يا أبا الحسين. أتراني أعيش إلى وقت توجه إلي مما غنمته ولو بمقدار عشرة دراهم أتبارك بها » وقد ظل أقاربه يتقاضونه المعونة ومد يد المساعدة. ويبعثون إليه الرسائل مستجدين كرمه وإحسانه بين حين وآخر. فتارة يجود عليهم، وتارة يعتذر إليهم، وقد قال في ذلك أشعارا مدونة في سيرته. ومن قصيدة له:

تظنــون أن المال عنــدي مــراكم وأني بــه عنكــم ضنين ممانــع

ووصل خولان لست خلون من صفر سنة ٢٨٤هـ أربع وثمانين ومائتين. ودخل صعدة وحسم الخلاف الناشب بين سعد والربيعة. « وألقت عصاها واستقر بها النوى ».

« في ميدان الصراع »

ولما اتخذ صعدة مركزاً له جعل يشن غاراته على القبائل التي لم ترحب بوصوله ولا سارعت لإجابة دعوته، كما أنه لم يلق ارتياحاً من جميع قبائل خولان وهمدان بل نساوأه كثير من الزعماء البارزين وعلى رأسهم أحمد بن عبد الله بن محمد عباد الأكليلي زعيم المعارضة وسيد الأكيليين وكليب، وابن الضحاك سيد حاشد وغيرهم. كما أن دعوته لم ترق كثيراً في أعين الساسة ولا في الأوساط السياسية، بل وجدت مقاومة عنيفة من جميع العناصر اليمنية حتى أن سيد الأكيليين استنجد بالخلافة ودخل بغداد ومثل بين يدي الخليفة المكتفي العباسي وأعلمه بما قصد. فقال له أتيت على حاجتك وبلغت مني أقصى مرادك. ثم دخل عليه بعد ذلك ليتأكد في بعثه الذي يبعث معه وقال يا أمير المؤمنين إنهم خدمك يصيرون الى بلدك وإلى جوار رعيتك وطاعتك. فقال له إن لأهل اليمن وثبات كوثبات السباع النهمة. قال فما لبثنا إلا أياماً حتى أتى كتاب عج بن حاج يذكر إخراج العلوي من صنعاء. قال له الوزير كيف رأيت قول أمير المؤمنين. قال: قلت الله أعلم حيث يجعل رسالته. ما جعل الله عميد هذا الخلق بأمر قريب.

= ولو بسطنا القول في تفاصيل الوقائع وما قام به من الغارات لطال بنا السري. ولكن نقتصر على إشارة من ذلك. ناهيك أن أبا محمد الحسن بن أحمد الهمداني، يقول في الإكليل: إن ابن الضحاك شهد مائة وقعة وخمسين وقعة بين حزبه وحزب يحي بن الحسين العلوي.

فما بالك في حربه مع السفيانيين والدعام وآل طريف وآل يعفر وبالحارث أهل نجران، وقال الإمام المتوكل أحمد بن سليمان في كتابه «حقائق المعرفة»: إن الهادي أجابه قوم من أهل اليمن وخالفه أكثرهم فحارب الظالمين وحاربوه، وأخافهم وأخافوه، وباينهم وباينوه.

والشيء الذي يستلفت النظر هو ما شحنته كتب التواريخ أن نيفاً وتسعين وقعة كانت بينه وبين القرامطة، وأنه هو الذي طهر اليمن من القرامطة، وأبادهم بسيفه ذي الفقار الوارث له من جده أمير المؤمنين صلوات الله عليه. في حين أن سيرته وهي أوثق وأقدم المراجع وأقرب إلى الحقيقة والواقع لم تشر لا من قريب ولا من بعيد عن نشوب أي موقعة بينه وبين القرامطة مما نستريب في نقلة الأخبار اللهم إلا نزراً يسيراً في نجران ذكرت القرامطة.

ودخل نجران قرابة ثلاث عشرة مرة ونال منهم ونالوا منه وفي أحدها قتلوا عامله بها محمد بن عبد الله العلوي العباسي هو وعائلته وأولاده ومثلوا بهم.

وكان الهادي كثيراً ما يلجأ إلى الخراب والدمار وقطع الأشجار والزروع، وتحريق الفواكه والثمار، بل إلى أبعد حد من ذلك وهو التمثيل بالأسرى وصلبهم وتنكيس رؤوسهم، وكان يسن بهم سنة الكفرة المشركين. وقتل سيد آل عبد المدان علي بن الربيع وهو في أسره. ودخل جبل برط سنة ٢٨٥ هـ ولاءمه الدعام سيد بكيل لأمور سياسية ودخل صنعاء مرات أولاها في سنة ٨٨ ثمان وثمانين - في ظل المؤامرة التي حاكها أبو العتاهية، ونزل إلى جيشان بذي رعين ودخل ثاة رداع، واستغرقت رحلته هذه شهرين. ثم عاد إلى صنعاء حيث استمرت حوادث ذات بال بينه وبين آل طريف وآل يعفر دامت إلى شهر جمادى سنة ٢٨٩ هـ منها يوم ظبوه أصيب الهادي بإصابات بالغة كادت تقضي عليه وقتل جميع حزبه من الطبريين. ويوم: بيت بوس. ويوم حدين قتل فيها يوم الجمعة في شهر شوال سنة ٢٨٩ هـ خمسمائة من الصنعانيين كما قتل فيها علي بن سليمان بن القاسم بن عم الهادي، وأبو العتاهية وغير ذلك من الأيام مما يطول شرحه.

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٢٨٨ هـ وفيها تغلب بعض العلويين على صنعاء فقصده بنو يعفر في جمع كثير فقاتلوه فهزموه ونجا هارباً في نحو خمسين فارساً وأسروا ابناً له. ودخلها بنو يعفر وخطبوا فيها للمعتضد، ولما رأى الهادي أن منافسيه أقوياء انزوى أخيراً إلى صعدة راضياً بما في يده وبما قسم الله له من الولاية. وقد كانت تخرج منه نفاثات تدل على حرج صدره مما قاساه ولاقاه، وظل على تلك الحال إلى أن وافاه الحمام المحتوم وذلك يوم الأحد لعشر بقين من ذي الحجة سنة ٢٩٨ هـ عن ثلاث وخمسين سنة. وكانت مدة ولايته ثماني عشرة سنة، ودفن بجامع صعدة وقبره مشهور مزور. وفيه يقول بعض الشعراء:

عــــرج على قبـــر بصعـــــدة ... وابــك مــرمــوســاً بــآمــل
واعلــم بـــأن المقتـــدي بها ... سيبلـــغ حيـــث يـــأمـــل

وقال الحاكم: كان جامعاً لشروط الإمامة ويضرب به المثل في الشجاعة، وابتلى بحرب القرامطة كان =

ثم إن أبا العتاهية المذحجي [1] استدعى الإمام الهادي إلى صنعاء فدخلها ودعى إلى نفسه فبايعه الناس ووجه عماله إلى المخاليف.

وكان بعض آل يعفر، وآل طريف في سجن صنعاء فطردوا نائبه بها [2] وكسروا السجن وأخرجوا من فيه من آل يعفر وآل طريف وخرج الهادي من شبام ثم عاد إلى صنعاء في جيش عظيم فدخل صنعاء وانحازت آل يعفر الى شبام. وتولى الأمر فيهم أسعد بن أبي يعفر وابن عمه [3] عثمان بن أبي الخير أحمد بن يعفر [4] فأقامت الحرب بينهم سجالاً والناس في ضيق من العيش وانقطاع من الطرق. ثم رجع الهادي إلى صعدة وعادت صنعاء إلى آل يعفر. وتوفي المعتضد سنة تسع وثمانين ومائتين.

ولما تولى بعده ولده المكتفي علي بن المعتضد [5] استعمل على اليمن

له معهم ثلاث وسبعون وقعة، ومات مسموماً. وقال ابن مظفر في شرحه لبسامة ابن الوزير انه سم على يد بعض خواصه، وقال له هل استجدت الجعل، ورثاه إبراهيم بن محمد بن الجدويه الأنباوي بقصيدة رائعة. وكان يسلك مسلك الكميت وأولها:

وهت عضد الإسلام واندق كاهله … وغالت بنيه في الزمان غوائله

وممن مدحه ابن أبي البلس الخيواني بكلمته السينية التي يقول فيها:

لو كان سيفك يوم سجدة آدم … قد كان جرد ما عصى إبليس

(١) اسمه عبد الله بن بشر، ثم من بنى الروية المذحجي. ولم يكن عندنا له ترجمة ومهما يكن فإنه لم يظهر على مسرح التاريخ إلا في هذه الفينة حينما أصبح عميلاً للمؤامرة ضد آل يعفر، وآل طريف. وكأنه نَفَسَهم على الإمارة والسلطان ولم يستطع مزاحمتهم إلا بهذه الطريقة التي تمت على يده، وبلغ بها مأموله لأن المؤامرة كانت مبنية على شروط أملاها على الهادي. منها تقليده إمرة صنعاء وغيرها. وتحدثنا المصادر أنه كان متزمتاً قد أشربت قلبه التشيع. وكان رجلاً ثرياً وضع إمكانيته وماليته تحت تصرف الهادي، وقد أخلص للهادي حتى النهاية غير أنه لم يمهل طويلاً ليتمتع بثمرة مؤامرته فقد قتل يوم حدين في يوم الجمعة شهر شوال سنة ٢٨٨ هـ.

(٢) كان نائب الهادي بصنعاء أخاه عبد الله بن الحسين فأقام أياماً ثم أرسله الهادي إلى الحجاز ليأتي ببقية أسرته واستخلف ابن عمه علي بن سليمان. وهو المطرود من صنعاء ثم قتل في حدين كما تقدم ذكره.

(٣) في نسخة خليل «وابن عم له يسمى».

(٤) هو ابن عم أبي يعفر إبراهيم بن محمد، لا ابن عم أسعد. وكان في الأصل ابن أبي الخير بن يعفر فالزيادة لاسم أحمد منا بياناً للكنية.

(٥) «علي المكتفى من سنة ٢٨٩ هـ - ٢٩٥ هـ».

هو أمير المؤمنين المكتفي بالله أبو محمد علي بن المعتضد بالله. تولى الخلافة بعد موت أبيه في جمادى

عج ابن حاج[1] فوردت كتبه إلى الأمير أسعد بن أبي يعفر وعثمان بن أبي الخير بتجديد ولايتهما، وفي ذلك الوقت اشتد القحط باليمن، وأكل الناس بعضهم بعضاً ومات كثير من الناس جوعاً وخربت عدة قرى من اليمن[2].

ثم قدم علي بن الحسين جفتم والياً على اليمن وهي الولاية الثانية[3]. فلما صار في بلد بني شهاب[4] خرج إليه جراح وإبراهيم بن خلف[5] كالمسلمين عليه فقبضاه وحبساه وانضم

= الأولى سنة ٢٨٩ هـ. وكان أول ما عمل أنه أمر بهدم المطامير التي كان أبوه اتخذها لأهل الجرائم، وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوماً. وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة. وكان ربعة جميلاً رقيق البشرة حسن الشعر وافر اللحية. أمه أم ولد اسمها «جيجك» وطال عليه مرضه عدة شهور.

(١) في الأصل «نجح بن نجاح» وكذا في نسخة خليل، والتصحيح من مصادر موثوقة. ولم أقف له على ترجمة غير أنه كان والياً للمعتضد بالله على مكة في سنة إحدى وثمانين ومائتين. ثم لولده المكتفي كما سيأتي عن ابن الأثير عند الكلام على ابن الفضل. وكانت العادة سائدة أن بغداد تصدر أوامرها إلى اليمن بواسطة ولاة مكة، وقد أنفذ عج بن حاج أوامر بغداد بأن أرسلها إلى أسعد بن أبي يعفر وعثمان بن أبي الخير كما رأسل أخاه المظفر بن حاج إلى منطقة تهامة كما سيأتي.

(٢) وكانت حطمة شديدة وكانت في سنة تسعين ومائتين. وفني فيها عالم وأقفرت بيوت، وحكى الهمداني أن جماعة من همدان فني ما لهم ورقت وجوههم من المسئلة فاعتفدوا، وأوصدوا عليهم وعلى أهليهم أبوابهم فماتوا فلم يبق منهم إلا طفلة درجت من خلل حجرتين، فأخذها بعض الحي.

(٣) هذه هي القدمة الثانية لجفتم. وكان قدومه لنجدة آل يعفر، ودخل اليمن في شوال سنة ٢٩٠ هـ تسعين ومائتين. وصادف وصوله وقد انشق على آل يعفر بنو طريف الذين هم بمثابة موالي لآل يعفر ولهذا كان قبض جفتم من قبلهم.

(٤) بنو شهاب مقاطعة قرب صنعاء سميت بشهاب بن العاقل من حمير. وتسمى اليوم بلاد البستان. ومن قراها «حدَّة» وسبب تسميتها بذلك أن بني شهاب أنجدوا سيف بن ذي يزن في أيام حروبه مع الخارجين عليه، فأقطعهم هذا الصقع فسكنوا فيه إلى يومنا هذا.

(٥) أما جراح فلعله أخو أبي العتاهية المذحجي وليس ابناً لخلفٍ بن طريف الكباري كما يدل على ذلك من سياق الحوادث في سيرة الهادي تلويحاً وتصريحاً وقد شغل الحوادث ولعب دوراً رئيسياً في تاريخ اليمن وتكيف بتكيف الظروف السياسية فقد كان في بادئ تاريخه يصاحب أخاه أبا العتاهية ثم أظهر الخلاف على أخيه وانضم مع آل طريف الذين جاهروا بالخلاف لآل يعفر. ثم انقلب فجأة مع آل يعفر وحارب القرامطة ثم نزل تهامة وانضم مع ولاتها. وكيف ما هبت به الريح رخاء وإعصاراً. وأخيراً قتل يوم الثلاثاء ليوم بقي من شهر ربيع أول سنة ٣٠٠ ثلثمائة بزبيد، وهو في صف ابن الفضل على يد ابن ملاحظ. وكان شجاعاً متهوراً وبطلاً مقداماً. =

جيشه اليهما، فمكث مدة محبوساً ثم احتال في الخروج فخرج إلى صنعاء [1] فانضم إليه أصحابه الذين وصلوا معه والجند الذي بها. وكان الأمير أسعد بن أبي يعفر وابن عمه عثمان بن أبي الخير يغدوان إليه في كل يوم فسألهما تسليم الأمر اليه فاستنظراه فجمع أصحابه يوماً وكبسهما فأرادا الهرب فلم يمكنهما فخرجا في مواليهما ومن انضم اليهما من أهل صنعاء فاقتتلوا فقتل علي بن الحسين جفتم مع جماعة من أصحابه، ومال الجيش إلى آل يعفر.

ويقال إن بعض أهالي صنعاء أكل من لحم جفتم. ثم إن أسعد بن أبي يعفر حبس ابن عمه عثمان بن أبي الخير [2] واستبد بالأمر وحده إلى سنة ثلاث وتسعين ومائتين. وفي هذه

وأما ابراهيم فهو ابن خلف بن طريف بن ثابت الكباري الحاشدي. وكان يلقب الوقاف ويوسف = أخوه كان يلقب الحرون. ولا يخفى ما في هذين اللقبين من دلالة على الثبات والإقدام ورباطة الجأش. وكانوا فرسان اليمن وشوكتها. ناصبوا الهادي وحاربوا آل يعفر ولي نعمتهم وملكوا اليمن ولهم حوادث ووقائع وملاحم لا يسعها هذا التعليق. وانتهت حياة هذا البطل أن قتل غدراً في جبل «جرابي» من مغارب صنعاء وحزّ رأسه وأرسل إلى آل يعفر وذلك في المحرم سنة ٢٩٢ هـ اثنتين وتسعين ومائتين.

(١) كان موقّفاً في قرية «أرتل» من بني شهاب التي لا تزال عامرة إلى اليوم في اليوم السابع من شوال سنة ٢٩٠ هـ كان القبض على جفتم وعلى ابنه وابن أخيه فأطلعوهم إلى بيت بَوس محبوسين ومكثوا أياماً ثم حولوهم إلى ضهر. ولما انتهت أمور إبراهيم بن خلف بعد عوده من مشرق صنعاء ورجعت الأمور إلى آل يعفر كان إطلاق جفتم ودخل صنعاء. ثم كان ما ذكره في الأصل. ولعل قتل جفتم كان في سنة ٢٩١ هـ. فلم يكن عندنا تفاصيل أكثر من هذا.

(٢) هو الأمير الثائر عثمان بن أبي الخير أحمد بن يعفر الحوالي. كان من خيرة رجالات ذي حوال مع شجاعة خارقة وورع كامل، وقد زامل أسعد في الحوادث وقاسمه الحياة حلوها ومرها، وكانا فرسي رهان، وخاض المعارك بقلب جريء ثابت وحبس في ضهر وبيت بوس مع «علي بن الحسين جفتم» على يد خصومه بني طريف ونجا من الموت مرات كأسعد. ولم يكن أسعد هو البادئ بالإساءة إلى الأمير عثمان بل إن عثمان هو الذي انتفض على ابن عم أبيه فقد حدثت بينهما مشاجرة كما تقع عادة بين الأهل والإخوة تحمس لها عثمان بن أحمد وأظهر الخلاف على أسعد وصعد بيت ذخار «كوكبان» وأعلن العصيان على أسعد في حين ذهب أسعد إلى صنعاء فلما بلغه الخبر جهز جيشاً تقدمه وقبضوا على حامية تسيطر على مواقع عثمان. ثم تبعهم أسعد ونشبت الحرب وانتهت بقبض عثمان، واستأمن جميع أصحابه ثم حبس بشبام. وكان هذا في صفر سنة اثنتين وتسعين ومائتين، ولا زال محبوساً إلى شهر المحرم سنة ٢٩٣ هـ حيث هاجم منصور القرمطي شبام وفيها أسعد فخلى سبيل ابن عمه، وخرجا معاً وأهلهما إلى «غُرَق» ثم طوى ذكره التاريخ الذي بين أيدينا فلم نقف له على عين ولا أثر.

السنة دخلت القرامطة صنعاء [١]، وانحاز الأمير أسعد بن أبي يعفر إلى بلاد قدم [٢] والله أعلم.

الفصل السادس

في ذكر القرامطة باليمن وظهور علي بن الفضل وبدء أمره

قال علماء السير كان علي بن الفضل شيعياً على مذهب الإثني عشرية [٣] فحج في بعض السنين وزار قبر الحسين بن علي عليه السلام [٤]، فبكا عنده بكاء شديداً، وأظهر من الأسف

---

(١) كان دخول القرامطة صنعاء للمرة الأولى يوم الخميس لثلاث مضت من رمضان سنة ثلاث وتسعين ومائتين بإخلال المهلب الشهابي، وسيأتي بعض تفاصيل ذلك إن شاء الله.

(٢) كان في الأصل إلى ثُلا وقُدم. وكان التصحيح من الخزرجي وهو الذي رجحناه إذ من البعيد أن تبقى ثلا تحت نفوذ الحواليين في حين أن شبام قد صارت تحت سيطرة صاحب مسور والحال أن بين ثلا وشبام فرسخاً.

ويؤيد ما ذهبنا إليه من أن الأمير أبا حسان أسعد ذهب فاراً من علي بن الفضل إلى بلاد قدم، ما ذكره الهمداني في قصيدة الجار بقوله:

ونحن حمينا بالكلابح سربه ... غداة أتانا خائفاً أن يذعرا

والكلابح من قدم. وقدم بضم القاف وفتح الدال وآخره ميم - مقاطعة من أعمال حجة تقع في الغرب الشمالي من صنعاء على بعد يومين وهي في متوسط جبال سراة همدان، «سميت بقدم من قادم بن زيد بن عريب بن جشم بن عريب بن حاشد» وهي قرية في الشمال الشرقي من حجة لمسافة ثلاث ساعات، وأخرى بشرقي حجة بمسافة ثلاث ساعات وكلاً قد عرفت، وقد ذكرت الشعراء قدم. فمن ذلك قول زياد بن منقذ. وقد وفد على معن بن زائد:

لا حبذا أنت يا صنعاء من بلد ... ولا شعوب هوى مني ولا نُقم

ولن أحب بلاداً قد رأيت بها ... عنساً ولا بلداً حلت به قدم

(٣) فرقة من فرق الشيعة يقال لها الإمامية وتارة الاثناعشرية لأنهم يقولون إن الأئمة إثنا عشر ويزيدون ولا ينقصون. أولهم: علي، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علي بن الحسين، ثم محمد بن علي، ثم جعفر بن محمد، ثم موسى بن جعفر، ثم علي بن موسى الرضا، ثم محمد بن علي، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي العسكري، والثاني عشر هو ولد العسكري. هذا المستور الذي ادعوه المهدي المنتظر.

وافترقت الإمامية إلى فرق عديدة منها الاثناعشرية، ولهم آراء سخيفة، ومقالات ركيكة تدل على ضعف حلومهم. وهذه الفرقة منسلخة من الفرقة الباطنية إن لم تكن هي نفسها، وكلها ترجع إلى أصل واحد، ومن أراد الاطلاع على حقيقة أمرهم فليرجع إلى كتب هذا الفن وإلى شرح رسالة الحور العين للإمام نشوان الحميري.

(٤) هو أبو عبد الله سبط الرسول وابن البتول الزهراء وسيد شباب الجنة الحسين بن علي بن أبي =

والكآبة ما أطمع ميمون القداح(١) في اصطياده. وكان ميمون يخدم الضريح هو وولده عبيد الله وهو جد العبيديين(٢) الباطنية والإسماعيلية الذين ملكوا مصر فخلى ميمون بعلي بن الفضل وحادثه فوجده مائلاً إلى مذهبهم مع ما تبين له فيه من النجابة.

= طالب صلوات الله عليهم. ولد في شعبان سنة أربع من الهجرة وقيل سنة ست وقيل سنة سبع.

وهو أبو الأحرار وسيد الشهدا، والثائر على الظلم، ومنابذة الظالمين، الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، الذي ضحى بحياته في غاية شريفة ومقصد نبيل. حتى صارت قضيته ومبدأه الشريف سنة متبعة وأصلاً من أصول بعض المذاهب الاستقلالية. وقد انتهت حياته الشريفة بتلك الحادثة المحزنة التي جرّت على الأمة وبال الفرقة والاختلاف، وزعزعت عماد ألفتها إلى يومنا هذا.

قال الخضري في محاضرته: وقد أكثر الناس من الكتابة في هذه الحادثة. لا يريدون إلا أن تشعل النيران في القلوب فيشتد تباعدها. غاية ما في الأمر أن الرجل طلب أمراً لم يتهيأ له ولم يعد له عدته فحيل بينه وبين ما يشتهي وقد ذهب الجميع إلى ربهم يحاسبهم على ما فعلوه، والتاريخ يأخذ العبرة وهي أنه لا ينبغي لمن يريد عظائم الأمور أن يسير اليها بغير عدتها الطبيعية. فلا يرفع سيفه إلا إذا كان معه من القوة ما يكفل له النجاح أو ما يقرب ذلك. كما أنه لا بد أن يكون هناك أسباب لمصلحة الأمة. بأن يكون هناك جور ظاهر لا يحتمل، وعسف شديد ينوء الناس بحمله.

قلت: وأي ظلم وعسف وجور من أعمال يزيد وابن زياد. وكيف وقد خير جيش العراق بثلاث خصال ثم ان أهل العراق خانوه وغرروا به في ذلك المكان.

حدثنا بعض الإخوان يرويه عن بعض: أن من قرأ مأساة الحسين هو وجماعة فإنه لا يطول اجتماعهم بل يحصل الافتراق، وأنه قد جرب ذلك، وفعلاً جرب في معتقل حجة.

(١) هو أصل البلاء الذي منه انتشر الشر بكله في البلاد العربية والإسلامية وقد انتسب الى محمد بن جعفر الصادق وسمي القداح لأنه كان يقدح العيون أي يعالجها.

(٢) اختلف المؤرخون في نسب العبيديين الذين يدعون تارة بالفاطميين اختلافاً كبيراً. فمنهم وهم الأكثرية الساحقة ومن يعول عليهم قالوا بنفي نسبهم إلى ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، وأنهم من أصل مجوسي أو يهودي وأدلوا بحجج واضحة وبراهين مقنعة ونزهوا النسب الشريف أن يكونوا منهم. لأن أعمالهم هي التي برهنت على فساد نسبهم وخساسة أصلهم، فقد ارتكبوا أموراً عظيمة منافية للشريعة ومصادمة للقوانين الإلهية ولو أن أدعياء الأنساب مشوا على الطريقة المستقيمة لما نقبوا عن أنسابهم بل اكتفوا باستقامتهم وعدوها لهم نسباً. والفضل في هذا فضل الله في قوله تعالى لنوح: ﴿إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾.

وفرقة قليلة أثبتت نسبهم بعمود النسب الشريف، ومن القائلين بهذا ابن خلدون وتلميذه المقريزي الذي يمت اليهم بصلة النسب، ومهما يكن في الأمر من اشتباه فقد تكفلت بأخبارهم وحقيقة أمرهم كتب التواريخ كخطط المقريزي. وكشف أسرار الباطنية لابن حماد المعافري. وابن الأثير وغيرها كثير.

والذي يهمنا في هذا التعليق هو التاريخ، وهو أن عبيد الله بن ميمون قد تملك بالمغرب ولقب =

وكان ميمون منجماً يشهد له علمه أنه سيكون لابنه عبيد الله شأن عظيم، يفضي إلى الملك ويتوارثه بنوه من بعده دهراً، وبعد عليه وجه اتصاله بالملك، ويقال إنه كان يهودياً لكنه تظاهر بالإسلام وخدم مشهد الحسين عليه السلام وادعى أنه من ولده.

وكان قدم عليه ولد من ولد عقيل بن أبي طالب يقال له منصور بن حسن [1] اثنا عشري المذهب أيضاً ذكي فطن فجمعهما ميمون وباح لهما وأخبرهما أن ابنه إمام الزمن وأنه لا بد له من دعاة وقال لهما: يمان والحكمة يمانية، وكل أمر مبتدأه من اليمن فهو ثابت لثبوت نجمه فعاهد بينهما ووصى كل واحد منهما بصاحبه وأمر علي بن الفضل أن يأخذ عن طاعة منصور، وأمر منصور بالإحسان إلى أبي الفضل، وأمره بأخذ السيرة، ووجههما إلى اليمن فسارا فوصلا إلى اليمن عقيب اختلاس يعفر [2] وافترقا من غلافقة فقدم منصور عدن

= بالمهدي أمير المؤمنين، وكانت له حروب وملاحم يطول ذكرها، وبنى هنالك المهدية واتخذها عاصمته، وغزا مصر وارتد من أسوارها وملك أفريقية وطار صيته كل مطار. ومات سنة ٣٢٢ هـ، وقام بعده ابنه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد بن عبيد الله بن ميمون.

قال الذهبي: وكان القائم العبيدي شراً من أبيه المهدي أظهر سب الأنبياء عليهم السلام. وكان مناديه ينادي العنوا الغار وما حوى، وقتل خلقاً من العلماء وكان يراسل أبا طاهر القرمطي الى البحرين وهجر. وأمر بإحراق المساجد والمصاحف. ثم تسلسل الملك في عقبه نحو مائتين واثنتين وسبعين سنة وملكوا من بني العباس بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والحرمين، وخطب لهم ببغداد نحو أربعين خطبة وقاسموا العباسية في المملكة شق الأبلمة وعجزت عسكر العباسية عن مقاومتهم.

وكانت مدة دولتهم بالمغرب ومصر منذ قام عبيد الله اثنتين وسبعين ومائتي سنة وأياماً، منها بمصر مائتان وثماني سنين. ومنها أربع وستون ببلاد المغرب والذين قاموا بالمغرب عبيد الله المهدي وولده القائم بأمر الله، والمنصور. وأول من فتح مصر وجعلها تحت مملكته المعز لدين الله وهو الذي اختط القاهرة التي تسمى تارة بقاهرة المعز عاصمة الدولة إلى هذه الغاية، والجامع الأزهر على يد القائد جوهر المعزي فاتح مصر. وأولهم عبيد الله وآخرهم العاضد الذي أزاله السلطان الأعظم صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ وانقطعت الدعوة الفاطمية دخلت الأرض منهم فسبحان العزيز القهار.

(١) يكنى أبا القاسم وتارة أبا الحسن منصور بن حسن بن فرح بن حوشب بن راذان بن المبارك الكوفي ومنهم من يرفع نسبه إلى مسلم بن عقيل بن أبي طالب وهو مشكوك في ذلك فأنت ترى أن في آبائه أسماء أعجمية وقيل ان منصوراً لقبه واسمه المعلم حسن.

(٢) في كشف أسرار الباطنية وهو أقدم مصدر لنا أن قدومه أيام تنسك الأمير محمد بن يعفر وأنه أقام سنتين بعد قتل محمد بن يعفر واختلاف بني حوال فيما بينهم، وقال المقريزي انه كان بعثه في سنة ٦٨ فاظهرا أمرهما أي مع ابن الفضل وأشهر الدعوة في سنة ٧٠ وكذلك في بعض تواريخ اليمن مع زيادة هذه العبارة.. «حتى قدمت الجند وهي أيضاً بيد الجعفري ومنع ابن يعفر منها» وفي النسخة المنقطعة: وكان خروجه إلى اليمن سنة ٢٦٨ وظهر مذهبهم سنة ٢٧٧ وذلك في أيام المعتمد كما قاله =

لاعه[١]. وقصد علي بن الفضل سرو يافع[٢]، وأقام كل منهما مكانه يظهر الزهد والتقشف والصلاح حتى شكل كل منهم مسموع القول في ناحيته وأمرهم بجمع زكواتهم فاجتمع لكل منهما مال عظيم. ثم إن منصوراً أمر من حوله فبنوا له موضعاً يسمى عين محرم[٣] وهو حصن

= اليافعي في المرهم وأنا أميل إلى هذا القول لأن الدعوة لا بد أن تأخذ أمداً بعيداً حتى يتغلغل في نفس العامة ويتهيأ للداعي أن يشهر دعوته ويعلن الثورة.

(١) غلافقة هي التي تسمى اليوم غليفقة. وكانت في القديم ميناء هاماً، ومرسا عظيماً من مراسي تهامة التي تقع على ساحل البحر الأحمر، والواقعة غرب مدينة «بيت الفقيه»، ولم تخلق جدتها الأيام إلا بعد أن حلت بها كوارث وحوادث حوالى القرن العاشر، وتلاشى عمرانها حتى صارت للقرصنة وصيد الأسماك، ومحلاً لإقلاع السفن الشراعية والزوارق بين ساحل اليمن وبين الحبشة وأرتيريا. وأما عدن لاعه فكانت بلدة وسوقاً كبيراً من أسواق العرب الذي يغشاه آلاف من الناس من جميع الأصقاع، وبها كان أول ظهور الدعوة الإسماعيلية باليمن وفيها عشعشت وأفرخت وترعرعت، ولمع اسمها في التاريخ.

والآن هي أطلال خوالي انطمست معالمها والتفت عليها الأشجار الباسقة وذات الأشواك وكأنها غابة ولم يبق ما يمثل قدمها سوى أنقاض جامعها وخاناتها ولا يعرف موقعها اليوم إلا الأقلون.

ولاعة: مقاطعة مربوطة بقضاء حجه في الجنوب الشرقي منها، وتبعد عنها بنصف يوم واشتهرت بخصب أرضها كما اشتهرت بمنتوجات البن الفاخر. وهي كثيرة المياه والينابيع التي تصب إلى مور، وثم بليدة تسمى «عدن» بدون إضافة إلى شيء تقع في جبل تيس من أعمال قضاء المحويث وفي جنوبي عدن لاعة.

(٢) السرو بفتح أوله وسكون ثانيه. على وزن غزو. وهو من الجبل ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل. والسرو: الشرف، والسرو السخا في مروة. نسب إلى سرو بن قاول بن زيد بن ناعتة بن شرحبيل؛ ثم من ذي رعين، والسرو: سروان. سرو حمير وهو بلد يافع. وسرو مذحج وهو ما طل على يافع وأبين وما قابلهما كبلاد البيضاء والنخع والكور. وهما في جنوبي وشرقي اليمن. قال الأعشي:

وقد طفت للمال آفاقه عمان وحمص فأورى شَلم
فنجران فالسرو من حمير فأي امرئ ماله لم أرم

وقال شاعر الإسلام حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه:

ونحن جلبنا الخيل من سرو حمير إلى جاسم بالمحنقات السناجر

(٣) لقد أخفيت السؤال عن موضع «عين محرم» فلم أقف على ذلك.

ولعله قد تحول إلى اسم آخر. ووجدت في النسخة المنقطعة مضبوطة بالقلم بضم الميم وتشديد الراء. وكان حصناً لبني العرجاء قوم من همدان. فدخله منصور بمعاملة من السلطان المذكور.

تحت مسور [١] فلما حصنه نقل إليه المال والطعام وجمع من رجال الحرب نحو خمسمائة وعاهدهم على القيام بدعوة الإمام المهدي الذي بشّر به النبي ﷺ [٢] فانتقلوا إليه بأموالهم وأولادهم، واستوطنوا الحصن. فأنكر الناس أمره فقال: إنما تحصنت من السلطان. فلم يقبلوا قوله فقاتلوه فهزمهم هزيمة شديدة فعظم شأنه وشاع ذكره. فعمل لنفسه

---

(١) مسور: بفتح الميم وسكون السين المهملة بعدها واو وراء. جبل عظيم من أفضل جبال اليمن، وأكثرها بركة وأنماها ثمرة وأغزرها ديمة وأنهاراً وأمرعها ريفاً وخصباً، ومن أمنع حصون اليمن ومعاقله الباذخة ذات الصيت الذائع ولذهابه في الهواء تظل السحب مكللة رأسه. وأعلاه واسع جداً. راجع صفة جزيرة العرب ص ٣٤٥ والإكليل ج ٢ ص ٨٠.

(٢) أول ما ظهرت كلمة المهدي في عالم الوجود على لسان الثائر المختار بن أبي عبيد الثقفي زاعماً أن محمد بن علي بن أبي طالب، الملقب بابن الحنفية أرسله إلى الكوفة سنة ٦٦ هـ للأخذ بثأر الحسين ولقبه بالإمام المهدي. ثم ظهرت ثانية بصورة أكبر محاطة بهالة من النعوت والسمات المستهوية للجمهور، وصبغوها بصبغة دينية فأسموه المهدي المنتظر الذي يخرج آخر الزمن يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً اسمه كاسمي الخ، ما أحدثوه مما لم يأت به من سلطان. وذلك في سنة ١٤٥ هـ عندما خرج على المنصور محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بالنفس الزكية. وقتل، فزعمت فرقة من الشيعة وهم: الجارودية أنه لم يمت ولم يقتل وأنه المهدي المنتظر إلى آخر ما زعموا ومن حينئذ توسع مدلول هذه اللفظة ودسوا أحاديث زوراً وبهتاناً زعموا أن النبي ﷺ قالها، وهي أحاديث لا آثار لها من الصحة بل موضوعة لا تمت إلى الدين ولا إلى الحقيقة بصلة، والنبي ﷺ منها براء.

والذي وسع نطاقها ونمق أحاديثها ووضع لها الأخبار قوم ليسوا من الملة بل اندسوا في الإسلام، وتزيوا بزيه ونهجوا منهجه، واتخذوا شعارهم التشيع لأنه أدعى لانصياع الناس إلى هذه الأسطورة ليلبسوا الحق بالباطل ويكيدوا للإسلام حنيناً إلى ملتهم وانتقاماً من الإسلام وتسنما إلى المناصب والكراسي والدليل على ذلك أن مدار أحاديث المهدي على رجال الشيعة وهم الذين تمكنوا من التدليس على أئمة الحديث الكبار كالترمذي وأبي داود وأضرابهما. ومع تقادم الزمن صارت كعقيدة إسلامية شغلت بال المسلمين حيناً من الدهر وإلى يوم الناس هذا وملئت بها الكتب بالأحاديث الموضوعة وأفردت بالتآليف واستغلها كثير من الدعاة والقائمين الذين لم يجدوا سلاحاً أخاذاً الى أغراضهم سوى هذه الخرافة. فمنهم من واتاه الحظ فملك أصقاعاً وبلداناً ودوخ ممالك وأوطاناً كمثل المهدي العبيدي وأضرابه. ومنهم من نابذه الدهر وعانده، وكان لهذه العقيدة أثرها في نفوس المسلمين بحيث أوهت قواهم وكسرت شوكتهم وخدرت أعصابهم واتكلوا عليها ينتظرون العون والنصرة من الإمام المهدي المنتظر لأنه المنقذ الأعظم للإسلام والمسلمين ولأوطانهم حتى تداعت عليهم الأمم من كل جانب ينتقصون أرضهم ويقلمون أظفارهم ويستعمرون أوطانهم وهم في غفلة يعمهون. حتى قيض الله رجالاً للإصلاح كمثل الشيخ محمد عبده وأضرابه فأيقظوا الأمة، وأعادوا لها رشدها وهي في طريقها في الانتفاضات والانتباه لإعادة مجدها، ونفض غبار التخاريف والأساطير عن ظهرها. والحاصل أنها خرافة وأسطورة لا أقل ولا أكثر.

طبولاً ورايات [1] وأظهر مذهبه ودعا إلى المهدي. وقال ما أخذت هذا بحالي ولا برجالي [2] وإنما أنا داعي المهدي. فدخل عامة الناس في مذهبه ثم سمت همته إلى ارتكاب جبل مسور فجمع له الرجال والعدد وعامل عشرين رجلاً من المرتبين [3] في حصن مسور فطلع في وقت معلوم ففتح له العشرون فقال ادخلوها بسلام آمنين [4] وطلع في ثلاثة آلاف رجل وأمن مستحفظ الحصن ومن كان معه [5] وحصن سائر الجبل ودربه من كل ناحية وجعل له بابين. ولم تزل عساكره تغزو على القبائل حوله حتى أبادهم [6] وأخذ أموالهم وملك جميع تلك المخاليف وسار إلى بلاد بني شاور [7] فاستفتحها ثم خرج إلى ناحية شبام فحارب الحواليين فكسروه وقتلوا طائفة من عسكره. ثم عامل رجلاً من مواليهم [8] كان

---

(١) قبل كانت طبوله ثلاثين طبلاً. فإذا أقبل من مكان سمعت الى مسافة بعيدة ولا يخفى ما في هذه المظاهر من الأبهة الأخاذة بأفئدة الدهماء ضعاف القلوب والنهى. وإدخال الرعب والخوف على السذج البسطاء.

(٢) كذا في جميع النسخ. وفي كشف الأسرار: بمالي ولا بكثرة رجالي.

(٣) من قِبل الحواليين.

(٤) في كشف أسرار الباطنية: فقالوا «يعني العشرين رجلاً» وهو الوحيد إذ كان جواب منصور عليهم أخرجوا منها فإنا داخلون.

(٥) قال في كشف أسرار الباطنية وسأل صاحب الحصن الأمان على نفسه ومن معه فأمنهم فلما رأى منصور صاحب الحصن نزل عن دابته ومشى اليه واعتنقه فزال عنه الرعب وقال له إن معي مالا للسلطان فمن يقبضه فقال منصور لسنا ممن يرغب في مال السلطان وما طلعت هذا الجبل لأخذ أموال الناس وإنما طلعت لإصلاح الاسلام والمسلمين خذ مال صاحبك فأدّه إليه.. قلت وهكذا الموسوسون الدجالون يضلّلون الناس بضروب المكر والخداع وباسم الاسلام والدين والغرض أبعد من ذلك وما يدرينا أن ما قاله منصور لخائن الحصن إلا لجس النبض أو لمبرر لقتله إذا ردّ المال لصاحبه وامتنع عنه كما وقع لغيره.

(٦) في الخزرجي: حتى أذلهم. وهو أنسب.

(٧) بلد شاور في شمال مسور مربوطة بناحية كحلان عفّار من بلد حجة. نسبت إلى شاور بن قدم بن قادم بن عريب بن جشم بن حاشد، وقد يقال: إن منها بلد «الشغادرة» الواقعة في الجنوب الغربي من حجة بمسافة بعض يوم. ويحاذي أرض تهامة بملحقات المهجم وينسب إليها أعلام. وكان صاحبها والسلطان فيها أبا إسماعيل الشاوري. وقد دامت محاصرته سبعة أشهر حتى استنزله من حصنه. واستعمل على جميع مخاليف المغرب رجلاً من أهل مذهبه يقال له أبو الملاحف.

(٨) هو الحسين بن الجراح ـ وكان من موالي آل ذي حوال ـ عاملاً لهم على ضلع شبام، وعقد مع منصور حلفاً على أن يعضده على فتح شبام ويكون أمرها إليه.

مستحفظاً على حصن الضلع [1] وسار نحو الحواليين فهزمهم وغنم جميع ما لهم بشبام [2] فنقله إلى مسور. ثم ندم المولى الذي عامله على الحصن فاستدعى عساكر من صنعاء [3] فكبسوه إلى شبام فخرج منهزماً إلى مسور وترك كل ما هناك. وكتب إلى ميمون القداح وولده عبيد الله يخبرهما بالفتح الذي فتح الله عليه من البلاد وبعث هدايا من طرف اليمن وذلك سنة تسعين ومائتين [4]. أما علي بن الفضل [5] فهو رجل من أهل اليمن خنفريٌّ النسب من ولد خنفر بن سبأ الأصغر.

---

(١) هو المسمى ضلع شبام، وضلع كوكبان، وضلع هو الجبل المستطيل الذي يبتدئ من كوكبان حتى يطل على الطويلة. وهو يشتمل على قرى عديدة وضياع كثيرة. والحصن لا يزال معروفاً لهذه الغاية، وضلع هذا أحد البقاع التي تسمى بهذا الاسم. وثانيها ضلع همدان، وضلع الشروّة من حاشد قريب حوث. وضلع المصانع. ولا يسمى بهذا إلا ما كان يشبه الضلع في الانحناء والتقويس.

(٢) وكانت الأموال شيئاً كثيراً من ذخائر الملوك وتحفهم وأقام بشبام شهراً.

(٣) بعد ما تم للمنصور النصر بفتح شبام لم يف بعهده للحسين بن الجراح الأمر الذي سبب ندمه على خيانته لأولياء نعمته. فكتب للحسن بن كبالة أحد موالي آل يعفر وقوادهم. فجاش ابن كبالة بقبائل حمير وهمدان. وخالف ابن الجراح على منصور فصار في وجهه وابن كبالة على درب شبام. فضاق حال منصور وخرج منهزماً بالليل هو وأصحابه إلى مسور، فذكروا أنه ما خرج إلا بنفسه وترك خيله وأمتعته ودخلت قواد الحواليين شبام ولعل ذلك في سنة واحد وتسعين، ولم يعد منصور لمهاجمة شبام إلا عندما دخل ابن الفضل صنعاء سنة ٢٩٣ هـ مستولياً عليها وكانت إقامة منصور بعد فتح شبام حتى جاءت الغارة شهراً واحداً.

(٤) وقد وهم بعض التواريخ أن ذلك سنة سبعين، ولعل ذلك من النساخ لقرب الاشتباه بين سبعين وتسعين. ولما وصلت الهدايا إلى القداح فرح وسر وقال لولده هذه دولتك قد أقبلت.

(٥) كان يكنى أبا الفتح، علي بن الفضل بن يعلي الجدني الخنفري الحميري. ولد ونشأ بمدينة «جيشان» في أسافل بلد ذي رعين من العود. وكانت آهلة بالسكان والعلماء والأدباء والشعراء، وكان التشيع قد غزا اليمن عن طريق أبناء فارس. وأفرخ في بعض مدنه منها جيشان هذه حيث كانت قريبة إلى عدن السوق العالمي لجميع الملل والنحل وعلى الخصوص مذهب الاثني عشرية فقد كان فيها شائعاً. فرحل إليها ابن الفضل وازدادت ثقافته وتوسعت معارفه واتصل برجال هذا المذهب واكتسب منهم وتشبع بروح مبادئهم الرامية إلى تسنم الملك الذي تطمح نفسه إليه. حتى تهيأ له الحج ثم زيارة قبر الحسين بن علي عليه السلام حيث توفق بضالته المنشودة وكان منه ما كان.

وقد سود صحيفته التاريخ، وأخرج منه شيطاناً مريداً، وعاهرا فاجراً، وعمليقاً غاشماً، وفاسقاً زنديقاً، ومنافقاً مارقاً. يكفر بالشرائع وينتهك الحرمات ويرتكب البدع والشنائع، ورموه بكل حجر ومدر. وكادت تكون كلمة المؤرخين كلمة إجماع في تصوير ابن الفضل بهذه الصورة التي تشمئز لها النفوس الأبية والدنيئة معاً.

=

كان ساقطاً في أول عمره لا شهرة له إلا أنه أديب ذكي شجاع فصيح. رحل إلى الكوفة وتعلم مذهب الإسماعيلية ورجع الى اليمن داعية هو ومنصور كما تقدم فطلع علي بن الفضل إلى الجند [١] ثم إلى أبين، ثم إلى يافع فوجدهم رعاعاً فجعل يتعبد في بطون الأودية ويأتونه بالطعام فلا يأكل شيئاً. فإن أكل أكلاً يسيراً ويريهم أنه يديم الصيام والقيام ففتنوا به وجعلوا أمرهم بيده وسألوه أن ينزل من جبل كان يختلي فيه للعبادة بزعمه. فاشترط عليهم إن أرادوا ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتوبة من المعاص والإقبال على الطاعات فأجابوه إلى ذلك وأخذ عليهم العهود بالسمع والطاعة ثم أمرهم بعمارة حصن في ناحية السرو ففعلوا فأنهبهم أطراف البلاد زاعماً أنه جهاد في سبيل الله للعاصين ليدخلوا في دين الله طوعاً وكرهاً.

وكان يومئذ بلحج [٢] وأبين رجل يعرف بابن أبي العلاء فقدم [٣] له ابن الفضل بمن معه من يافع وغيرهم [٤] فهزمهم ابن أبي العلاء الى صهيب [٥] وقتل من أصحابه خلقاً كثيراً، فقال ابن الفضيل بصهيب لأصحابه المنهزمين: الرأي أن نرجع فوراً ونهجم عليهم فإنهم قد

= إلا أني أبصرت في أنباء الزمن كلمة تبرىء ساحته من هذه الموبقات وما رموه به من الفظائع، وهي: «وقيل لم يشتهر عنه وعن أتباعه من أهل دولته شيء من إباحة المحرمات. غير أنه أعرض عن التجسس عن أهل الفساد ولم يبحث ولم يعاقب والله أعلم». ولنا رأي خاص أثبتناه في التاريخ.

(١) كان وصوله الجند وقد غلب عليها جعفر بن إبراهيم المناخي ومنع ابن يعفر منها وهذا يدل أن خروج ابن الفضل ومنصور بعد قتل محمد بن يعفر كما في «كشف أسرار الباطنية».

(٢) مخلاف من مخاليف اليمن في منتهاه في الجهة الجنوبية. قال الشاعر:

تقول عنسي وقد وافيت مبتهلاً ... لحجاً وبانت لنا الأعلام من عدن
أمنتهى الأرض يا هذا تريد بنا ... فقلت كلا ولكن منتهى اليمن

وهو مخلاف مترامي الأطراف فيأخذ غرباً الى سواحل بني مجيد باب المندب وقرب المخا وشرقاً يافع وجنوباً ساحل عدن وشمالاً صهيب والضالع. راجع صفة جزيرة العرب وتاريخنا اليمن الخضراء مهد الحضارة.

(٣) هو محمد بن أبي العلاء الأصبحي الحميري، وفي نسخة الخليل فقصده ابن الفضل.

(٤) من سرو مذحج.

(٥) منطقة بين لحج وقطيب. فلحج من الغرب والقطيب من الشرق. وأشهر قراها «القشعة» ويسكنها الشيخ صالح العلوي شيخ مشايخ آل علي. وعدد سكان «صهيب» زهاء ثمان مائة شخص وتدعى بسبأ صهيب. وهم أهل منعة وجد. وكانت في القديم تمر عليها القوافل من عدن الى صنعاء، وبينها وبين قعطبة ثلاث مراحل بسير الأثقال. (راجع صفة جزيرة العرب واليمن الخضراء مهد الحضارة).

أمنوا فوافقوه. فلم يشعر ابن أبي العلاء بخنفر [1] إلا وهم معه على حين غفلة وافتراق من أصحابه فقتل ابن أبي العلاء في طائفة من عسكره واستباح ما كان لهم، ويقال إنه وجد في خزانة ابن أبي العلاء سبعين بدرة، البدرة عشرة آلاف درهم. وعاد إلى بلد يافع فعظم شأنه وشاع ذكرُه [2] ثم قصد المذيخرة [3] سنة أحد وتسعين ومائتين وبها جعفر بن إبراهيم المناخي وهو الذي ينسب إليه مخلاف جعفر [4].

---

(١) خنفر في مقاطعة يافع السفلى وتبعد عن أبين نحو خمسة عشر ميلاً، وبها آثار ومبان قديمة، وقد أصبحت اليوم نقطة اتصال بينها وبين عدن ومحمياتها وأدخل عليها شيء من التحسينات العصرية.

(٢) وقيل إنه قد غنم ثلاث مائة كيس نقد، وغيره من الأمتعة النفيسة والفراش والثياب والدواب.

(٣) المذيخرة بضم الميم وبفتح الذال المعجمة ثم ياء وخاء وراء معجمة. وهي عزلة تعد روضة من الرياض الغناء ذات البساتين النضرة، والحدائق الزاهية والقصور الزاهرة، والمياه المتدفقة، والفواكه الدانية، والخضرة الدائمة، والفن الرفيع، والجو المعتدل، والمناخ الطيب. ولولا وقوعها في فجوة بين الجبال الشامخة لكانت من عجائب اليمن. كما أنه لو دخلها الإصلاح لكانت مصيفاً عالمياً تزري بلبنان وسويسرة. وهي دائمة الريف والخصب.

وتقع في سرة بلد ذي الكلاع «العدين» وعاصمته القديمة وهي في الغرب الجنوبي من مدينة إب، بمسافة تفوق على عشر ساعات. وتبعد عن تعز شمالاً بيوم واحد للمجد، وقد وهم ياقوت الحموي في معجمه حيث جعلها في رأس جبل صبر. كما وهم عمارة اليمنى حيث قال: وهو جبل بلغني أن أعلاه نحو عشرين فرسخاً. وتبعه ياقوت وقد بينا وجه الغلط في تاريخ عمارة بإخراجنا.

ويقال ان ابن الفضل لم يقصد المذيخرة إلا بعد أن أزال ما أمامه من عقبات كانت تعترض طريقه إلى المذيخرة، فقد حارب الأمير أحمد بن منصور بن أبي المغلس صاحب الدملؤة من المعافر فحاصره حتى استنزله وقتله. ثم حاصر الأمير محمد بن إسماعيل الكرندي صاحب جبا والسمدان من المعافر ففتحها وقتل صاحبها المذكور. وقيل إنما قتل صاحب جبا بعد ما استفتح تهامة وطلوعه منها، وسيأتي ذلك.

(٤) هو الأمير الخطير جعفر بن إبراهيم بن محمد بن ذي المثلة الحميري. (راجع نسبة في الإكليل ج ٢ - ٩٣).

وآل ذي مناخ لهم قديم عز، وأثيل مجد. فمنهم الأقيال العباهلة، والأذواء الميامين. ولا زال الملك والسيادة في عقبهم إلى أن أزالهم الملك المعظم علي بن محمد الصليحي. ثم انتقلوا من مقر عزهم «ريمة المناخي» إلى «قياض» من ملحقات مدينة «تعز» وهم سلاطينها قاله الجندي وهم بيت كرم وعز عميم وورع مستقيم. وكان مقر عزهم «ريمة» التي تنسب إليهم فقال «ريمة المناخي»، وهي مصاقبة للمذيخرة من غربيها وفيها مآثر عظيمة.

وآل ذي مناخ من بيوتات حمير الشريفة التي لها مميزات شتى. وهم ممن ناصبوا الدولة العباسية، واستقلوا بأماراتها استقلالاً داخلياً. وملكوا في الإسلام مائة وخمسين سنة. وكان لهم بلاد ذي الكلاع =

وكان جعفر قد قطع على حجر بالمذيخرة ثلاث مائة يد من أهل دلال[1] فكتب ابن الفضل اليه أن يدفع لهم دية ما قطعت من أيديهم ثم جمع ابن الفضل جموعه وسار إلى المعافر، وهو ما بين ذبحان وجبا[2] وجمع المناخي جموعه[3] وسار نحوه فلزموا نقيل «بَرَدَان»[4] وقاتلوه هنالك فانهزم ابن الفضل وأصحابه وعاد إلى يافع ثم قصد المذيخرة مرة آخرة فأخذها وأخذ حصن التعكر[5] وانهزم جعفر إلى تهامة فيقال إنه بلغ

= «العدين»، وقد تغلبوا على الجند، وامتدت مملكتهم الى غيرها. راجع تاريخنا اليمن حامل لواء الإسلام.

(١) دلال بفتح الدال المهملة أول الحروف، إحدى مقاطعات جبل بعدان وتسمى في عرفنا معاشر اليمنيين «عزلة دلال» وهي التي تشتمل على مزارع وقرى وأودية. وهي مشهورة بخصب التربة والعسل الطيب.

(٢) تقدم الكلام على المعافر في ص ٦٠، وأما ذبحان، فهي بضم الذال المعجمة بعدها باء موحدة، ثم حاء مهملة وألف ونون. بلدة في أصل المعافر، لا تزال حية الى هذه الغاية وبها وبذي إقيان قصور آل نعمان. وتقع في الجنوب الغربي من تعز بمسافة يومين.

وأما جبا فهي بالجيم والباء الموحدة كورة المعافر وعاصمته القديمة الأثرية الذائعة الصيت، جاهلية الاختطاط لها ذكر حسن فيما قبل الإسلام، إذ كانت مركزاً هاماً للتجارة التي تخرج من باب المندب وسواحل المخا. وتقع في فجوة جبل صبر في الجانب الغربي منه، وينحدر إليها ماء عذب زلال. وبها مسجد جامع وآثار عديدة، والحديث عنها يطول. وكانت عاصمة الملوك آل الكرندي إلى القرن السادس.

(٣) من جملة جموع جعفر المناخي ألف فارس.

(٤) كان في الأصل، نقيل الزواد: وفي خ نقبل البزوان، والتصحيح من «كشف الأسرار» وهو النقيل الذي يسمى اليوم نقيل المحرس، أو نقيل النجد الأحمر. وفي شمال أعلاه قرية تسمى «بردان» بفتحات.

وفي كشف الأسرار زيادة «عند التعكر» وهو كذلك. وأسماه الهمداني بنقيل «نخلان» وهو واقع في بلد الكلاع، وبينه وبين مدينة إب ساعتان ونصف جنوباً بغرب. والنقيل في عرفنا معاشر اليمنيين «العقبة» المبلطة في الغالب ذات تعارج والتواء. لأن الإنسان ينتقل من درجة لأخرى، ويسمى: منقل، وكانت الوقعة يوم الخميس لثمان خلون من رمضان سنة ٢٩١ هـ.

(٥) التعكر أشهر جبال اليمن وأبعدها صيتاً، وأمنعها حصانة، وأعلاها شموخاً، وهو خزانة الملوك، وحافظ مهجها من غارات المغيرين وعاديات الأيام. يقع في أرض ذي الكلاع من مخلاف جعفر، يطل من الجنوب على وادي ظباء، ونخلان، فالجند، فصبر. فالمعافر، وقد ترى من أعلاه أيام الصحو جبال باب المندب، ومن الشرق الجنوبي على الحشا وجبل حرير، وما صافحها من ياقع. ومن الشمال على الإقليم الأخضر والوادي المستقبل إب، ووادي السحول وإلى ما لا نهاية له حتى وصاب وريمه.

القرتب[1] فاستمد صاحب زبيد[2] فأمده بجيش كثيف فرجع جعفر يريد بلده فلقيه ابن الفضل في جموعه بوادي نخلة[3] فقتل جعفر بأكمة خوالة[4] هو وابن عمه أبا الفتوح سنة إحدى وتسعين ومائتين في رجب[5] وقويت شوكة القرامطة واستولى علي بن الفضل على بلاد المناخي فجعلها مستقر ملكه ثم سار ابن الفضل إلى بلاد يحصب[6] فدخل منكث[7]. فأخربها فلما صار بذمار وجد جيشاً عظيماً بهرّان[8] من أصحاب الحوالي[9] فكتب إلى والي هران يستميله[10] فاستجابه ودخل في ملته. ثم قصد صنعاء فهرب منه أسعد بن أبي

---

(١) القرتب بضم القاف وسكون الراء وتاء مثناة من أعلا وباء موحدة، محل بظاهر مدينة زبيد ونسب إليه أحد أبواب مدينة زبيد وهو باب القرقب. ولا تزال لها بقية إلى يومنا هذا.

(٢) الذي أمده إبراهيم بن محمد بن زياد. انظر كلام على بني زياد في الجندي.

(٣) وادي نخلة: أحد ميازيب اليمن الغربية التي تصب إلى حيس، حتى تنتهي إلى البحر الأحمر. وهو مشهور بمنتجات الفواكه ونحوها. راجع «صفة جزيرة العرب».

(٤) حصن خوالة: بالخاء المعجمة، معروف وهو قرب «الرواهد» سافل بلد ذي الكلاع «العدين وفي خ بالخاء المعجمة، وهما حصنان هنالك في نخلة في الشمال العربي من تعز وتعد من مخلاف شرعب.

(٥) الذي في الخزرجي: أن دخول المذيخرة وافتضاضها في صفر سنة ٢٩٢ هـ اثنتين وتسعين ومائتين، وأن قتل جعفر وأخيه أبو الفتوح بوادي نخلة يوم الجمعة في رجب من السنة المذكورة، ودخلت رؤوسهم المذيخرة يوم السبت أول يوم من شعبان من السنة المذكورة، وفي بعض التواريخ أن من جملة القتلى ولدين لجعفر المناخي. الأصح ما في ج ٢ من الاكليل ص ٩٤.

(٦) يحصب: بالياء المثناة من تحت والحاء والصاد المهملتين ثم باء موحدة مخلاف من مخاليف اليمن المعدودة التي بعضها في نجد اليمن ويسمى يحصب العلو. والآخر في سراته ويسمى يحصب السفل - وهو ما يسمى اليوم ببلاد يريم - راجع الإكليل ج ٢ وصفة جزيرة العرب.

(٧) منكث بفتح الميم وسكون النون آخر الحروف ثاء مثلثة. وهي مدينة المخلاف المذكور وعاصمة آل الصوار السخطيين أشرف ملوك حمير وأكرمهم، وقد كان لهم في الجود أحاديث مستطابة أرغب من الخيال حتى نساؤهم في الكرم. وكن أجمل نساء حمير، راجع الإكليل ج (٢) وصفة جزيرة العرب.

(٨) هران بكسر الهاء وتشديد الراء بعدها ألف ونون. قلعة في ضواحي شمال مدينة «ذمار» يبعد عنها بميلين، وبها آثار حميرية، ومدافن عادية، وقد زارها بعض المستشرقين وذكر بعضاً من ذلك. ويطلق هران على نفس القلعة، وعلى السواد الذي يكون كتلاً صخرية مترامية الأطراف يتخللها حروث وزروع وكانت عامرة يسكنها قبيلة جنب ولا زالت الأحداث تنتقص منها حتى أصبحت خراباً يباباً. وفيه معادن الحجار النفيسة اليمانية من العقيق الأحمر والأبيض والأصفر والوردي. إلا أنه اليوم لم يعدن.

(٩) هو أبو حسان الأمير أسعد بن يعفر الحوالي.

(١٠) كان والي هران عيسى بن معان اليافعي. وكان خير يافع، ولعب في هذه الحقبة دوراً لا يستهان به، وتقلبت به الأحوال إلى أن قتله القرامطة في مسيب سنة ٢٩٤ هـ كما يأتي.

يعفر [١]. فلما صار بصنعاء [٢] أظهر مذهبه الخبيث، ودينه المشؤوم. وارتكب محظورات الشرع، وادعى النبوة. وكان المؤذن يؤذن في مجلسه أشهد أن علي بن الفضل رسول الله. وأباح لأصحابه شرب الخمر ونكاح البنات وسائر المحرمات [٣] وأنشد أبياته المشهورة على منبر صنعاء. وقيل على منبر الجند [٤]، التي يقول فيها لعنه الله:

خذي الدف يا هذه واضربي [٥] وغني هزاريك ثم اطربي

(١) هو أبو حسان باعث الدولة الحوالية من جديد وباني مجدها، ومؤسسها الثاني أسعد بن أبي يعفر بن إبراهيم بن محمد بن يعفر الحوالي.

وقد أضفى عليه التاريخ سمات العظمة ونعته بأنبل الألفاظ وأشرف المعاني. وهو جدير بذلك فله من المآثر والمفاخر والمحامد ما خلد ذكره في زمرة الخالدين قال لسان اليمن:

هو أبو حسان ملك عصره وذهب على من قبله بالصيت. وهو فارس حمير في عصره والقائل: إذا تم لي مقدم الحصان فيأكل مؤخره الذئب. وهو الذي اجتث عرقاة القرامطة باليمن. وجوادها ومهيبها وله تواقيع معجزة لا يجارى فيها مع حسن سياسة وعظم دهاء. وبعد الغور وكتمان ما في النفس. وإذا غضب، غضب. وإذا رضي، رضي. ولا يعدله على قومه ولا عصبية ولا ولد له. وتوفي في يوم السبت لثمان خلون من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، وأخباره وسيره تكثر. وهو الذي جدد كحلان الحداد سنة ٣٠٣ هـ.

قلت: وهو باني الجناح الشرقي بجامع صنعاء ذلك الفن المعماري الرائع. وله من المبرات ما تجل عن الحصر. ولو لم يكن له إلا وقف شاهره التي يأتي ذكره. فكان فيه آية خلوده. راجع المفيد في أخبار صنعاء وزبيد بإخراجنا، واليمن حامل لواء الإسلام.

(٢) تحركات ابن الفضل زاحفاً على صنعاء في مستهل المحرم مفتاح سنة ثلاث وتسعين ومائتين، وقد تقدم خبر اليافعي عامل أبي حسان أسعد علي ذمار، وانضمام بعض الجيش المرابط بذمار مع ابن الفضل.

(٣) لم يذكر صاحب سيرة الهادي هذه الفضائح الشنعاء. وإنما ذكر استباحة القرامطة لصنعاء ونهب الأموال واستخراج ما تحت الأرض، وأقاموا خمسة عشر يوماً، وكفوا القتل. فلم يقتل إلا نفر قليل وقهر أهل صنعاء. هذه نص عبارته.

(٤) هنا اضطربت كلمة المؤرخين. فمنهم من يقول: إنه أظهر مذهبه الخبيث الخ. عقب دخوله المذيخرة للمرة الأولى، وقيل في المرة الأخيرة حينما انتهى من القضاء على منافسيه، وصفت له اليمن. في حين يقول آخرون: عند دخوله صنعاء. وقيل في زبيد، وقيل في الجند في موسمها أول جمعة من رجب، وكما اضطربت كلمتهم في الزمان والمكان اضطربت كلمتهم في قائل هذا الشعر. فمن قائل انه من قول ابن الفضل نفسه، ومن قائل إنه من قول شاعرهم. بينما يقول الإمام نشوان الحميري. فقال فيه بعض شعراء عصره. وأنا أميل إلى هذا القول وأنه من إنشاء شاعر من شعراء خصومه قصد التشهير به والقضاء على سمعته، وتنفير الناس منه. انظر العسجد المسبوك بتحقيقنا.

(٥) في بعض النسخ: والعبى كما في خ.

تــــولى نبــي بنــي هـــــاشم وهـــــذا نبــي بنــي يعـــــرب

لكـــل نبــي مضــى شرعـــــة وهـــاتي شريعـــة هــــذا النبــي

فقــد حــط عنَّــا فــروض الصــلاة وحـــط الصيـــام فلـــم يتعـــب

إذا النـــاس صلـــوا فلا تنهضــي وإن أمسكـــوا فكلــي واشربــي [1]

ولا تطلبي السعــي عنــد الصفـــا ولا زورة القبـــر في يثـــرب

ولا تمنعـــي نفســـك المغـــرسين مـــن الأقـــربين أو الأجنبــي

فلم[2] ذا حللــت لهذا الغــريـــب وصـــرت محرمــــــة لــلأب

أليـــس الغـــراس لمــن ربَّـــه وسقـــاه في الزمـــن المجـــدب

ومـــا الخمــــر إلا كمـــاء السمـــاء حـــلالاً فقـدّســت مـــن مـــذهـــب

وهي طويلة حلل فيها سائر المحرمات في الشرع لعنه الله ما أجراه على الكفريات [3] وكان ينبغي تنزيه الألسن والأقلام عن كتابة شعره هذا وإنما أتينا به ليتحقق السامع أنه كافر أخزاه الله وأبعده وفي الدرك الأسفل خلده.

ولما علم صاحبه منصور بن حسن بدخوله صنعاء سرَّه ذلك وسار إليه [4] فالتقيا وأقام عنده أياماً وابن الفضل يجلّ منصوراً ويقول إنما أنا سيف من سيوفك. وكان منصور يهاب علي بن الفضل ويخافه لما يرى فيه من الشهامة والصرامة. ثم عزم ابن الفضل على نزول تهامة فنهاه صاحبه منصور وقال: الصواب أن تقف بصنعاء وأنا بشبام حتى نصلح جميع ما استفتحنا فلم يقبل منه وجمع ثلاثين ألفاً ما بين فارس وراجل [5] وسار على طريق اللحب [6] فلما توسط مضايق البلاد ثاروا عليه ولزموا الطريق.

---

(١) في بعض النسخ: «وإن صَوَّموا» بدل وإن أمسكوا.

(٢) في خ فم وفي الهامش لما.

(٣) جارينا الأصل بإثبات اللعن وفاء بأمانة النقل، وإلا فأين نحن من قول النبي ﷺ: المؤمن ليس بلعان ولا طعان، ويقول في دعائه: اللهم ما لعنت من لعن فعلى من لعنت الخ.

(٤) وذلك بعد أن انقض على شبام واستباحها.

(٥) كان خروج ابن الفضل في يوم الخميس آخر المحرم من السنة المذكورة. وكانت قبلاً قد انتشرت القرامطة إلى ضهر واستأمن إلى ابن الفضل الحسن بن كبالة مولى آل يعفر.

(٦) اللحب: بالحاء المهملة من بلد الشرف؛ من ملحقات حجة اليوم. في الجهة الشمالية الغربية منها.

فلم يقدر على التخلص[١] فعلم منصور فجمع جموعاً وسار فاستنقذه[٢] فعاد إلى صنعاء ورتب بها وصار إلى حراز[٣] وملحان[٤] ونزل المهجم[٥] وقتل صاحبها. ثم سار إلى الكدرا[٦] فأخذها وسار إلى زبيد[٧] فهرب صاحبها إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن زياد[٨]

---

(١) كان اتجاه ابن الفضل نحو قدم، وهي جبال ومضايق، وكان زعيم الثورة وبطلها الأمير موسى ابن محمد بن الخطاب الحوالي؛ فواقعة نيفاً وخمسين وقعة دحره فيها وفلَّ جيوشه وأرجعه على أعقابه مخلفاً وراءه خسائر فادحة وفي هذه الملاحم العظيمة سولت لابن الفضل قتل ابن الأمير عيسى بن معان اليافعي، الذي كان أبوه عاملاً لأسعد «بذمار» ومعه جماعة.

(٢) في سيرة الإمام الهادي أن ابن الفضل صار إلى شبام وأقام عند منصور شهراً ثم صار إلى المغرب ونزل ببيت «خولان» حضور، واستباح المغرب فنهبوه وسبوا النساء وأخذوا الأموال ثم خرج في عساكره يوم الاثنين لثلاث ليال من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائتين يريد تهامة، فلما صار في نقيل السود تخلف عنهم ابن كباله وعاد إلى صنعاء فثار في وجه القرامطة الخ.

(٣) حراز أحد مخاليف اليمن الكبيرة الواقعة في غرب صنعاء ومن جبال السراة. وهو كثير الخيرات نامي البركات ومن أكثر منتوجاته البن ويوجد فيه شجرة الزنجبيل وغيره من الآفاوية والعقاقير راجع «صفة جزيرة العرب».

(٤) بكسر الميم ملحان وآخره نون، وهو مخلاف شمال حراز يطل على المهجم وما ناوحه واشتهر بصعوبة مرقاه ووعورة مسالكه.

(٥) المهجم أحد المدن التهامية ذات الشهرة التاريخية. فكانت زاخرة العمران، كثيرة الخيرات وأنجبت علماً وأدباً، وكانت تعد العاصمة الثانية للقطر التهامي، وهي مقابلة لساحل اللحية، وتقع في شرق «الزيدية» المدينة الحالية، وعلى شط نهر «سردد».

وهي اليوم أطلال خوالي يسكنها البوم والغربان، ويدخلها الظباء والثعالب. وكان بها جامع كبير تنافس في تأسيسة الملوك والأمراء، وأعظم من جدده، وزين بناءه وزاده الملك المظفر الرسولي، ووقف عليه وقفاً عظيماً، ويقال: إن عدد دعائمه على عدد أيام السنة، وفيه من العناية أمر عظيم وسقفه قبب وقد تشعث ولم تبق إلا منارته الأثرية.

وبلغني أنها قد ركعت على الأرض.

(٦) الكدرا: من المدن التهامية الواقعة على شط ميزاب سهام في الجنوب الشرقي من الحديدة التي تبعد عنها بخمس ساعات أو ستة عشر ميلاً، وتبعد عن المراوعة بساعة وربع من الجنوب الشرقي، وقد أخذت في التاريخ شهرة كبيرة ويقال: إنه قام على أنقاضها قرية «الحدادية» وهي في الشمال الشرقي من المراوعة بمسافة ساعة ونصف، واليوم خاوية على عروشها ولا ندري متى عصفت بها الحوادث.

(٧) هنا طوى المؤلف تفاصيل حوادث تهامة التي كانت قاصمة الظهر على رجالات تهامة من ابن الفضل ومدنها، ولا بد أن نلم بشيء من ذلك تتميماً للفائدة وقد أثبتناها في تاريخنا.

(٨) الذي في سيرة الهادي: الذي حاربه ابن الفضل من آل زياد هو إبراهيم بن محمد انظر الجندي ج ١ ص ٢٢٢.

وهجم على زبيد وقتل من فيها واستباحهم وسبى من زبيد أربعة آلاف عذراء [١] ثم خرج فلما صار بجنده في موضع يسمى المشاحيط [٢] فقال لأصحابه إن نساء الحصيب فتنة [٣] فاذبحوهن فإنهن يشغلنكم عن الجهاد . فذبحوهن جميعاً في ساعة واحدة ثم رجع إلى المذيخرة وجعلها دار ملكه وأمر بقطع الحج [٤] ثم إن أهل صنعاء استدعوا بالإمام الهادي . وكان بصعدة فسار إليهم [٥] ووجه إليهم ابنه محمد المرتضى إلى ذمار ومخاليفها واستعمل العمال ، ثم تعاظم أمر القرامطة وقصدوا المرتضى إلى ذمار ، فخرج إلى أبيه وكان بصنعاء وذلك سنة أربع وتسعين ومائتين ، ثم إن موالي بني يعفر [٦] جمعوا لحرب الهادي بصنعاء فندب أهل صنعاء لحربهم فتخاذلوا فخرج من صنعاء إلى صعدة فدخل أسعد بن أبي يعفر [٧] صنعاء

(١) الذي في سيرة الهادي أنه استباح زبيد للمرة الثانية ، وقتلوا بها خلقاً كثيراً ، وسبوا منها فيما بلغنا خمسمائة وثلاثين ألف امرأة وأقاموا بزبيد سبعة أيام ، ولم يذكر ذبح النساء لا في المرة الأولى ولا في الثانية . . . وفي هذا العدد مبالغة غير مقبولة .

(٢) كان يسمى الملاحيط . فسمي المشاحيط لأن الشحط : الذبح لغة .

(٣) الحصيب بالتصغير اسم الوادي الذي منه زبيد . وقيل اسم مدينة زبيد . وزبيد اسم الوادي . نسب إلى الحصيب بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدان بن قطن بن غريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير بن سبأ .

قال الشاعر لما فرَّ اليها الأمير عيسى الترخمي من الأمير محمد بن يُعفر :

رام عيسى ما لا يرام فأمسى ثاوياً في الحصيب نائي المزار

(٤) تروي المصادر أنه أمر قومه بأن يحجبوا إلى « الجرف » ويعتمروا إلى « التالبي » وكلا الموضعين من « المذيخرة » وإني أدع التحليل لهذه الأعمال للقراء ذوي البصائر النافذة .

(٥) هذه هي الدخلة الثالثة للهادي إلى صنعاء . وكان دخوله لأربع ليال من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائتين . ودخل معه آل يعفر والدعام وولده محمد ، وابنا الروية ، وولد جعفر بن ابراهيم المناخي ووجوه اليمن .

وكان ابن كباله ، قد حارب القرامطة في وادي ضهر . وأجلاهم عنه وكذلك من كان في شبام .

(٦) هم : ابن كبالة ، وجراح بن بشر المقدم ذكره وغيرهما من موالي آل يعفر ، وذلك في مستهل سنة ٢٩٤ هـ أربع وتسعين ومائتين ، فخرج منها الهادي ولم يعد اليها بتاتاً .

(٧) كان أسعد قد خرج إلى بلد همدان قبل الهادي . ثم عاد إلى صنعاء باستدعاء من مواليه . ولعل ذلك عن مؤامرة ولكن من بعد غور أسعد وعظيم شهامته وحنكته السياسية أراد أن لا يجرح شعور الهادي ويتصدى لإخراجه بنفسه بل جعل ذلك الى غيره من مواليه .

وكان خروج القرامطة إلى مسيب ومحيب . وقائدهم ابن أبي الطوق القرمطي وعيسى اليافعي فخرج اليهم جراح بن بشر وابن كباله في أهل صنعاء وعسكرهم فقاتلوهم فانهزموا عنهم بعد أن خلفوا أربعمائة قتيل . فلما كان يوم النصف من شهر صفر سنة ٢٩٤ هـ . وثب ابن الطوق على عيسى بن معان اليافعي فقتله وجماعة من أصحابه غدراً .

فملكها، ثم إن ذا الطوق اليافعي[1] أحد قواد ابن الفضل قصد ابن الروية المذحجي[2] إلى ذمار فهرب إلى رداع[3] فقصده ذو الطوق إلى رداع فقتله[4] ثم سار ذو الطوق نحو صنعاء فلقيه أسعد بن أبي يعفر في جمع، فهزمه ذو الطوق وقتل من أصحابه ثلاثمائة رجل، ثم دخل ذو الطوق صنعاء فملكها[5] فاستدعى أهل صنعاء بالإمام الهادي فبعث إليهم عسكراً وتبعهم

---

(١) هو من يافع وأحد قواد ابن الفضل المحنكين الذي كان يقود الجحافل لقمع المعاندين. وفتح البلدان وقد لازمته الانتصارات في كل مواقعه الحربية الى أن قتله الأمير الكبير عبد الله بن يحيى بن أبي الغارات المجيدي في نجد المعافر سنة ٢٩٩ تسع وتسعين ومائتين.

(٢) هو أبو العشيرة أحمد بن محمد بن الروية المذحجي وهو الذي أخل على الدعام حينما أدخل صنعاء أيام أبي يعفر الحوالي. ولما دخل صنعاء الهادي كان من أنصاره. والحاصل أنه شغل حوادث التاريخ وقتاً غير قصير وكان خروج ذي الطوق لمطاردة ولد الهادي وهو بذمار ففر منهم الى صنعاء، وفر ابن الروية الى «ثاة» من رداع وهي مسكنهم الأصلي وديارهم.

(٣) رداع بفتح الراء آخر الحروف عين، مدينة من أجل وأحسن مدن اليمن النجدية موقعاً، وأجلها منظراً، وألطفها هواء. مع اعتدال المزاج وصحة المناخ ورقة النسيم: وهي عروس مشرق اليمن ذات الحدائق الغناء، والقصور الشماء، والهواء الطلق الذي يكسب الإنسان صحة وقوة ونشاطاً وجمالاً: قال العلامة عبد الرحمن الآنسي المتوفى سنة ١٢٥٠ من قصيدة له:

أسند الطرف مرسلات السماع　　إن خير البقاع بلدة رداع

وتقع في قلب وادي رحب، يتصل به قلعة شهباء امتطت هضبة جبلية في قلب المدينة وكأنها عرش ملكة الجبال، أو خطيب مصقع يقص عليهم وقائع الدهر، ويملي عليهم دروس العبر.

وبها ستة عشر جامعاً من أروعها فناً وأتقنها صنعة، وأسمقها علواً، وأعجبها زخرفة، وأعظمها بناء العامرية التي هي أشبه بقلعة من القلاع: وهي من مفاخر اليمن ومحاسنة.

نسبت إلى السلطان صلاح الدين عامر بن عبد الوهاب بن عامر. الآتي ذكره في آخر الجزء الثاني: وفي رداع حمام واحد من مخلفات المذكور.

(٤) لم يكن قتل أبي العشيرة بن الروية بنفس رداع بل في وطنه «ثاة» التي تبعد عن رداع ساعتين في الشمال الغربي منها، وكان قتل ابن الروية بعد قتال مرير. واستبيح البلد، ولاذ ضعفة الناس والنساء والأطفال إلى مسجدها الجامع وذلك لتسع ليال خلت من ذي الحجة سنة ٢٩٣ هـ ثلاث وتسعين ومائتين.

(٥) الذي في سيرة الهادي أن ابن الفضل نهض من المذيخرة في آخر جمادى زاحفاً الى صنعاء حتى صار بجزيرة فالتقى بجيش على رأسه الأمير أبي حسان أسعد فدارت المعارك التي كان من ضحاياها ستون قتيلاً من أصحاب ابن الفضل وعاد أسعد إلى صنعاء. وهنا يجيء ابن ذي الطوق فيلتقي بصاحبه ابن الفضل فيفتضان صنعاء ويهرب منهم أسعد إلى قدم واستباحا صنعاء ونال أهلها وبال عظيم. وأما ذلك النفر الذين اختبأوا في منازل العلويين فإنهم قتلوا عن بكرة أبيهم وكانوا نفراً قليلاً.

المرتضي في جيش، فخرجت القرامطة من صنعاء ودخلها المرتضى فأقام بها زماناً حتى جاءته القرامطة بما لا قبل له فخرج من صنعاء وخرج معه منها جيش عظيم فلقيه أبوه الهادي بورور[1] وقد انتشرت القرامطة في البلاد فعادوا جميعاً إلى صعدة، ولم يلبث الهادي أن توفي سنة ثمان وتسعين ومائتين.

لما عظم أمر القرامطة جمع آل يعفر مواليهم ومن قدروا عليه وقصدوا القرامطة بصنعاء فقتلوا بعضهم وهرب الباقون، ودخل أسعد بن أبي يعفر صنعاء وملكها، ثم قصد ابن الفضل صنعاء فدخلها وخرج منها أسعد بن أبي يعفر هارباً[2] ولما رأى علي بن الفضل أنه قد استحكم له أمر اليمن

= وأقام القرامطة في صنعاء ونواحيها ثلاث سنين يخربون ويقتلون الناس. وأصابتهم علة فمات منهم ما لا يحصى، هذا معنى عبارة السيرة.

(١) وَرور: واد من أدوية بكيل تصب إليه السيول التي تأتي من شبام حمير والبون حتى تنتهي إلى الجوف ويتصل من أعلاه العقل وأسفل المناخي، ويطل عليه من الجنوب ظفار، وظفر من الشمال. وتسكنه بدو سفيان وتحج. بينه وبين حوث سلسلة من السراة والهضاب.

(٢) يقول صاحب سيرة الهادي: إن الهادي بعث رجلاً عباسياً من ولد العباس بن علي بن أبي طالب وكتب معه إلى الدعام وكان بصنعاء أن تحاربوا قائد القرامطة فحاربوه وأخرجوه منها وذلك يوم الخميس لإحدى عشر ليلة باقية من رجب سنة سبع وتسعين ومائتين. ثم بعث الهادي ولده المرتضى بجيش من خولان وهمدان فدخل صنعاء يوم الاثنين لعشر ليال خلت من شعبان من السنة المذكورة فأقام بصنعاء وبعث بالعمال إلى المخاليف وقتل من دعاة القرامطة جماعة. وبلغ ابن كبالة وهو بتهامة مع مظفر بن حاج ووصل إلى الهان وطرد عمال ابن الهادي من جميع المخاليف. فكتب المرتضى إلى والده بما عمله ابن كبالة فأمره بالانصراف كيلا تجتمع عليه حرب ابن كبالة وحرب القرامطة. وعاد إلى والده بمن معه يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال سنة سبع وتسعين ومائتين وأتى من كان بشبام من القرامطة فدخلوا صنعاء وأقاموا بها أربعة عشر يوماً. ثم أتى جراح بن بشر، فحارب القرامطة وكانوا قليلاً، فأخرجهم منها. ثم نهض أسعد من قدم فدخل صنعاء ليلة النحر من ذي الحجة من السنة المذكورة وابن كبالة بذمار وبيده مخاليفها. ثم إن أسعد نازل القرامطة الذين بشبام وكانت الحرب بينهم سجالاً، فتارة يدخل شبام وتارة يخرجونه منها. وفي هذه الحروب قتل عبد القاهر ابن أحمد بن يعفر - وفي السيرة عبد القهار - وكانت هذه الحروب من شهر ربيع أول سنة ثمان وتسعين ومائتين هـ. ثم وصل ابن كبالة صنعاء يوم الاثنين لعشر بقين من شعبان سنة ثمان. فطرد جرّاحاً من صنعاء فصار إلى بلد قدم، وانصرف ابن كبالة إلى ذمار واستقل أسعد بصنعاء. وفي يوم الخميس لثمان بقين من ذي الحجة من السنة المذكورة خرج أسعد لحرب من بشبام من القرامطة فأجلاهم عنها وأخذ حصونها فبلغ ابن الفضل، فنهض من المذيخرة يريد صنعاء. فانهزم عنه ابن كبالة بذمار ودخل صنعاء يوم السبت لثلاث ليال خلت من المحرم سنة تسع وتسعين ومائتين. ودخل ابن الفضل صنعاء ليلة الجمعة يوم عاشوراء. وهذه هي دخلة صنعاء الثالثة لابن الفضل. فأقام أياماً بها وخرج إلى مدر فأقام أياماً.

خلع طاعة عبيد الله المهدي العبيدي وكاتب صاحبه منصوراً بذلك فأجابه يعاتبه ويقول كيف تخلع من لم تنل خيراً إلا به والدعاء إليه. أما تذكر العهود، بينك وبينه وما أخذ علينا من الوصية بالاتفاق وعدم الافتراق. فلم يلتفت إليه وكتب إليه[1] إن لي بأبي سعيد الجناني[2] أسوة إذ دعا إلى نفسه، وأنت إن لم تدخل في طاعتي نابذتك الحرب. فطلع منصور جبل مسور وحصنه من كل ناحية وقال إني لا آمن من هذا الطاغية، وقد عرفت الشر في وجهه يوم اجتمعنا بصنعاء، ثم إن علي بن الفضل سار لحرب منصور في عشرة آلاف رجل من الأبطال[3] وحصره ثمانية أشهر فلم يظفر منه بطائل وشق به الوقوف فراسله منصور بالصلح. فاشترط ابن الفضل أن يرسل له ببعض ولده يقف معه على الطاعة ويشيع عند العالم أنه تركه فضلاً لا عجزاً. فأرسل منصور بعض ولده إليه فطوقة طوقاً من ذهب وسار به الى صنعاء وكان أسعد بن أبي يعفر ومولاهم الحسن بن كباله بذمار.

---

(١) ومما كتب إليه: إنما هذه الدنيا شاة، من ظفر بها افترسها.

(٢) اسمه الحسن بن بهرام الجنابي كبير القرامطة ودعامة من دعائمهم. وأحد الرهط الذين أفسدوا في الأرض.

كان عالماً فيلسوفاً، وشجاعاً سفاكاً. وكان أصله كيالاً فاستغوى خلقاً من القرامطة والأعراب وغلب على القطيف وهجر، وشغل المعتضد عنه الموت، واستفحل أمره ووقع له من عسكر المكتفي وقائع وأمور كبيرة. وقتل الحجيج وأفسد البلاد وفعل ما لم يفعله رجل يدعي الإسلام.

وكان ابتداء ظهوره سنة ٢٨٦ هـ. بناحية البحرين. فاجتمع اليه الرعاع والدعارة والقرامطة وقوي أمره، وصار يغزو ما حوله من القرى. وكان يدعو الى المهدي. وكان يفعل أموراً خبيثة، ثم دعا إلى نفسه فجهز إليه المعتضد العباس بن عمر الغنوي في ألفين من الجنود عدا المتطوعة. فأسر الغنوي وجنده بعد الوقعة ثم استعرض الأسرى بالسيف فبقي الغنوي عنده أياماً ثم أطلقه وقال امض إلى صاحبك وعرفه ما رأيت، وحمله على رواحل. فوصل بغداد في رمضان فدخل على المعتضد فخلع عليه.

وقال ابن الأثير بما معناه ان عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال، عجائب الدنيا ثلاث: جيش العباس بن عمر الغنوي يؤسر وحده، وينجو وحده ويقتل جميع جيشه. وجيش عمرو بن الصفار، يؤسر وحده ويسلم جيشه، وأنا أنزل بيتي ويتولى ابني الجسرين ببغداد.

وقتل أبو سعيد الجنابي سنة واحد وثلاثمائة. قتله خادم له صقلبي في الحمام أراده على الفاحشة فخنقه ثم قتل أربعة من رؤسائهم وأكابر القرامطة بحيلة استدعائهم إلى مولاه أبي سعيد. ولما استدعى الخامس فطن له فأمسك بيده الخامس وصاح ثم دخل الناس وقتل الخادم بعد مناظرة.

وقام بعده ابنه أبو الحسن طاهر الذي غزا مكة وأخذ الحجر الأسود إلى « هجر » ومكث هناك عشرين سنة والجنابي نسبه إلى جنابة بفتح الجيم وقيل بضمها وتشديد النون وألف وباء موحدة وهاء. بلدة صغيرة على سواحل فارس.

(٣) كان غالب جيوش ابن الفضل مؤلفاً من قبائل يافع، ومذحج، وعنس، وزبيد.

فلما توجه علي بن الفضل نحو المذيخرة وثب ابن أبي يعفر على مولاهم الحسن فقتله واصطلح هو وابن الفضل، فولاه صنعاء، وخطب له ولبس البياض [1] وقطع ذكر بني العباس، ومع ذلك كان أسعد خائفاً من غدر ابن الفضل، ولا يستقر بصنعاء خوفاً من غارة تهجم عليه.

وكان عنوان كتاب ابن الفضل إذا كتب: من باسط الأرض وداحيها، ومزلزل الجبال ومرسيها، علي بن الفضل إلى عبده فلان.

وفي مدة نيابة أسعد بن أبي يعفر لعلي بن الفضل قدم رجل غريب من أهل بغداد يزعم أنه شريف فصحبه أسعد واختص به، وكان ماهراً في الجراحات. فلما رأى شدة خوف أسعد من ابن الفضل قال له: قد عزمت أن أهب نفسي لله وللمسلمين، وأريح الناس من هذا الطاغية، فقال له أسعد: لئن فعلت ثم عدت إليَّ لأقاسمنك فيما أنا فيه، فعاهده على ذلك. ثم قصد المذيخرة وخالط رجال الدولة بها وسقاهم الأدوية النافعة وانتفع به الناس فرفع ذكره إلى ابن الفضل وأثني عليه عنده وقيل له إنه لا يصلح إلا لمثلك. فأحبَّ الفصاد يوماً فطلبه وجرده عن ثيابه وغسل المبضع وكان قد دهن أطراف شعر رأسه بسم قاتل: فلما دنا منه ليفصده مصَّ المبضع تنزيهاً لنفسه ثم مسحه بأطراف شعره كالمجفف له فعلق به من السم ما علق. ثم فصده في الأكحل وربطه وخرج من فوره هارباً من المذيخرة متوجهاً إلى أسعد بن أبي يعفر فأحس ابن الفضل بالموت بعد ساعة فطلب الحكيم فلم يجد أحداً وأيقن بالموت [2] وأمر بلحاقه حيث كان.

---

(١) لبس البياض كان شعار العلويين. مخالفة لشعار السواد الذي هو شعار العباسيين.

(٢) التواريخ التي تحت سمعنا وبصرنا تنطق بأن قتل ابن الفضل كان على يد رجل بغدادي قدم من العراق ولكي تكون الرواية مقبولة وسائغة فقد أحاطوها بإطار من السبك ليقربها من الحقيقة، بينما رواية كانت مخزونة في كتب الإسماعيلية كشفها لنا الأستاذ البحاثة الحسين بن فيض الله الهمداني رحمه الله يقول في كتابه المطبوع «الصليحيون» تقول إن القاتل لابن الفضل رجلان من العراق أرسلهما المهدي العبيدي من أهل دعوته وقتله أحدهما الخ. وفي تاريخ وصاب يقول: إن العلماء كانوا ينكرون أعمال ابن الفضل وهو لا يقبل لهم قولاً حتى تلطف بعض العلماء فقال لبعض أصحاب ابن الفضل امتحنوه لتحققوا عدم نبوءته. وقربوا له طعاماً مسموماً فإن أخبره الطعام المسموم كما أخبره النبي ﷺ سكتنا عن الإنكار عليه وعليكم. وإن لم يخبره علمتم أنه شيطان ففعلوا ذلك فمات.

فأنت ترى تضارب هذه الروايات باختلاف المصادر مما يحمل على الريب في أن ابن الفضل قتل مسموماً على أي نوع من تلك الروايات التي يظهر فيها الصنعة والتحيز والذهاب بفخر الانتصار.

ولكن الحقيقة الصارخة هو أنه مات حتف أنفه موتاً طبيعياً كما ينص مصدر تاريخي معاصر لابن =

فأدرك في السحول [١] عند المسجد المعروف بقينان [٢] فأرادوا إمساكه، فامتنع وقاتلهم حتى قتل، وقبره هناك رحمه الله. وتوفي علي بن الفضل عقب ذلك سنة ثلاث وثلثمائة، وكانت مدة محنته وملكه تسع عشرة سنة [٣] فلا رحم الله مثواه ولا بلّ بشيء من الرحمة ثراه، فلما علم أسعد بن أبي يعفر بموته فرح فرحاً شديداً وسار في جيش نحو المذيخرة [٤] وبها

الفضل وهو «سيرة الهادي» فاسمعه يقول: وأصاب ابن الفضل لعنه الله مرض في بطنه فتفجر من أسفل بطنه واماته الله على أسوأ حالة لعنه الله. فكانت وفاته يوم الأربعاء للنصف من شهر ربيع الآخر سنة ٣٠٣هـ ثلاث وثلثمائة. وقام من بعده ابنه لعنهما الله بالمذيخرة وقتل نفراً كثيراً من أصحاب أبيه.

فلو كان قتل ابن الفضل بالسم كما قيل لرفع عقيرته صاحب السيرة، وطبل ولزمر كما يكيل له اللعن والشتم لأنه يراه ردياً كفوراً. ومن ألد خصومهم.

(١) السحول بفتح السين المهملة وآخره لام، نسب إلى سحول بن سوادة بن عمرو بن عوف بن عدي، ثم إلى حمير الأصغر. وتنسبه العرب اليوم إلى سحول بن ناجي بن أسعد التباعي الحميري. فيقال سحول بن ناجي.

وتقول «يا هارب من الموت ما من الموت ناجي، يا هارب من الجوع عليك سحول ابن ناجي» وسيأتي الكلام على آل ناجي التباعي.

(٢) قينان بالقاف والياء المثناة من تحت ونون وألف ونون. ومع الأسف لم أقف على تحديد موضع قينان. ولكن الجندي يقول: قرية بأسفل نقيل صيد «سمارة» وفيها مسجد جامع له منارة، يزار ويتبرك به دخلته في المحرم سنة ست وثلاثين وسبعمائة. بعد هذا قالوا لنا إنه الموضع الذي يسمى «المنارة» الذي يبعد عن مركز المخادر مسافة ساعة نحو الشمال الشرقي.

(٣) في الجندي، وكشف أسرار الباطنية، سبع عشرة. وكثيراً ما يحصل الاشتباه بين سبع وتسع. في الكتب الخطية التي لم تضبط.

(٤) كان نهوض الأمير أبي حسان أسعد من صنعاء في غرة رجب، وقيل لتسع من سنة ثلاث وثلثمائة بجيش لجب جرار تحوطه عصابة كريمة غر غطارفة من رؤساء اليمن وزعمائها حتى صار إلى ذمار فقدمت عليه وجوه أهل البلد. ثم نهض من ذمار إلى كحلان خبان فأقام بها أياماً وانضم إليه ملوك يحصب آل السخطي والتراخم، ولما صار بمخلاف جعفر اجتمع به ملوك الكلاع. منهم الأميران يزيد الكلاعي، والتبعي، وبنو المحابي الحميريون ووصل اليه عبد الله بن يحيى بن أبي الغارات المجيدي الحميري ملك بني مجيد، وأحمد بن محمد الكرندي صاحب المعافر، وعبد الله بن إسماعيل السكسكي قيل حمر بن ماوية وموسى بن الهرامي الحميري قيل الحشا وما جاورها وغيرهم من أمراء اليمن وملوكها. ثم وصل أمير زبيد ابراهيم - أو زياد - بن محمد بن زياد واجتمعوا بالسحول. وزحف الجيش نحو المذيخرة. وأول ما استفتحوا حصن التعكر. ثم تقدم الجيش فاحتل جبل الثومان وبه ضرب الأمير أسعد مضاربه هو وسائر من معه من ملوك اليمن، وحاصروا المذيخرة من كل جهاتها وكلما خرج جيش هزم وقتل منه حتى ذلوا وخضعوا. ثم نصب أسعد على المذيخرة المنجنيقات فهد من غالب قصورها وكان يرمي بها بنفسه. ويقال إن أسعد لم ينزع سلاحه، ولا وضع لامة حربه طيلة المحاصرة

ولد [1] لعلي بن الفضل قد انضم إلى أهل مذهبه، فنصب عليها المنجنيقات وصابرهم سنة حتى أخربها بالمنجنيق ودخلها قهراً بالسيف وقتل من ولد علي بن الفضل وسبى بناته وكن ثلاثاً ففرقهن في رؤوس العرب وانقطعت دعوة القرامطة من مخلاف جعفر، ولم تزل المذيخرة خراباً إلى عصرنا هذا وسيرة علي بن الفضل مستوفاة بالتواريخ والله أعلم.

واستولى أسعد بن أبي يعفر على البلاد من سنة أربع وثلثمائة إلى سنة موته وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة هجرية.

وفي أيامه قدم الوزير علي بن عيسى بن الجراح [2] من العراق فأقام بصنعاء على أوفى كرامة.

= التي دامت عاماً حتى في أوقات الصلاة، وقبض المذيخرة ودخلها بالسيف قهراً ونزل من بها على حكمه وظفر بهم في رجب سنة ٣٠٤ هـ. وقتل منهم خلقاً كثيراً وأخذ أموالاً عظيمة يقصر عنها الوصف. وقتل محمد بن علي بن الفضل الذي صابر على المحاصرة وأبدى جلداً منقطع النظير، وسبى بنات ابن الفضل وكن ثلاثاً إحداهن تسمى معاذة وهبها لابن أخيه قحطان بن عبد الله، فولدت له عبد الله بن قحطان أمير اليمن. واثنتان صيرهما إلى زعماء من ذي رعين.

وأخذ أسعد ولدين لعلي بن الفضل وجماعة من رؤساء القرامطة معه إلى صنعاء وأمر بهم فذبحوا جميعاً وطرحت أبدانهم في بئر في الجبانة وأخذت رؤوسهم ووجه بها في أربعة صناديق الى مكة فنصبت هناك أيام الموسم. وأجاز أسعد من معه الجوائز السنية الكثيرة.

ثم إن أسعد نقل إدارة مخلاف جعفر الى حصن التعكر وعين له والياً وهو الأمير أبو جعفر ابراهيم ابن اسماعيل العياشي المحابي الحميري. وعلى مخلاف الجند أحمد بن محمد الكرندي. ودانت له البلاد وعاد الى صنعاء فدخلها في مستهل شوال سنة أربع وثلاثمائة هجرية ثم ظهر زعيمان من زعماء القرامطة في سر حمير، أو مذحج فحاربهم أسعد وتمكن من إخماد ثورتها بالقبض والقتل.

قال ابن حماد المعافري: وأباد القرامطة على يد الأمير الحوالي بمنه وسعادته. وجعل لا يسمع بأحد منهم إلا قتله. ورجع الى صنعاء - يعني أسعد - وقد أطفأ جمرة الشرك، وملك جميع البلاد وزالت الفتنة وأراح الله الناس من القرامطة، وطهر البلاد، وأمن منهم العباد، وسار الأمير بأحسن سيرة وعدل في الرعية ورد بني المحابي الى مخلاف جعفر. وجرت المكاتبة بين الأمير ابراهيم بن زياد والناصر أحمد بن يحيى الإمام الهادي صاحب صعدة وتعاقدوا على المعاضدة والمناصرة وقتل القرامطة حيثما وجدوا.

(١) وفي خ فهذه أخبار علي بن الفضل مستوفاة والله أعلم.

(٢) كان قدوم الوزير علي بن عيسى الى اليمن منفياً سنة عشر وثلاثمائة، وفي ذلك يقول أبو القاسم جعفر بن قدامة الكاتب المشهور:

أصبح الملك واهي الأرجاء ... وأمور الورا بغير استواء
منذ نادت نوى علي بن عيسى ... واستمرت به إلى صنعاء
فوحق الذي يميت ويحيي ... وهو والله مالك الأشياء =

= لقـــد اختـــل بعـــده كـــل أمـــر واستبـــانـــت كـــآبـــة الأعـــداء
ثـــم صـــاروا بعـــد العـــداوة واللّـــ ـــه جميعـــاً في صـــورة الأوليـــاء
يتـــألـــون كلهـــم في علـــي أنـــه قـــد خلـــى مـــن النظـــراء

ومكث بصنعاء سنتين ثم شفع له مؤنس الخادم بإعادته إلى مكة فعاد الى مكة وأذن للوزير المذكور بممارسة أعمال مصر والشام فكان يتردد بين هذه الأصقاع بين الحين والحين اهـ. معجم الأدباء لياقوت.

هذا ولا بد لي أن أطرف القراء بترجمة هذا الوزير لما اشتمل على برديه من المحاسن الجمة، والمكارم الفذة والأحاديث الحسنة. فهو علي بن عيسى بن داود بن الجراح بن عبد الله الحكمي المذحجي، وتمام نسبه في جمهرة الأنساب لابن حزم الأندلسي إذ لم أقف عليها.

كان آل داود الجراح من الأسر العريقة في الرياسة وخدمة الدولة، وكلهم ذو نباهة وشأن عظيم. فالجراح بن عبد الله شهرته أعظم من أن توصف. وكان أحد دعائم الدولة الأموية والقواد العظام الذي لا يسد مسده أحد. وأما علي هذا فقال ابن النديم في الفهرست: وكان بمنزلة من الرياسة يجل وصفها ومن الصناعة والفقه بما هو أشهر وأظهر. وزّر للمقتدر ثلاث دفعات. وتوفي في اليوم الذي عبر فيه معز الدولة، وهو يوم الجمعة انتصاف الليل من شهر ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة. ودفن في داره. وله من الكتب: كتاب جامع الدعاء. وكتاب معاني القرآن وتفسيره. وكتاب الكتاب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء. وقال غيره: كان رجلاً كاملاً متديناً متصوفاً عارفاً بالأعمال حافظاً للأموال كثير الوقار والجد بعيداً عن التبذل والهزل على شح غالب في طباعه وتجهم في أخلاقه. صدوقاً ديناً خيراً من خيار الوزراء، ومن صلحاء الكبراء. كثير البر والمعروف والصلاة والصيام ومجالسة العلماء.

قال أحمد بن كامل القاضي: سمعت علي بن عيسى الوزير يقول كسبت سبعمائة ألف دينار أخرجت منها في سبيل البر ستمائة ألف.

وقال الصولي: لا أعلم أنه وزر لبني العباس وزيراً يشبهه في عفته وزهده وحفظه للقرآن وعمله بمعانيه. وكان يصوم النهار ويقوم ليله، ولا أعلم أن أحداً خاطبت أعلم منه بالشعر ولما نكب وعزل عن الوزارة قال أبياتاً منها:

ومـــن يـــك عني ســـائلاً بشماتـــة لما نـــابني أو شـــامتـــاً غير ســـائـــل
فقـــد أبـــرزت مني الخطـــوب ابـــن حـــرة صبـــوراً عـــلى أهـــوال تلـــك الزلازل

وحدث عن أحمد بن شعيب النسائي صاحب السنن بمكة أيام ولايته عليها، وروى عنه الطبراني الحافظ وغيره: قلده المعتضد سنة ٢٨٦ هـ ديوان المغرب وعمه محمد بن داود ديوان المشرق. وكان من الثقة والصناعة والصيانة على جانب عظيم. عامل المصادرين من الوزراء والعمال بالرفق وكتب إلى كل واحد من العمال بما جرت العادة به من تشريف أمير المؤمنين إياه بالخلع وورد أمر الدواوين والمملكة اليه. وأقرهم على مواضعهم وأمرهم بالجد والاجتهاد في العمارة وكتب اليهم بإنصاف الرعية والعدل عليها ورفع صغير المؤن وكبيرها عنها. كما كان يطالب برفع حقوق السلطان وتصحيحها وصيانة الأموال وحياطتها ونظر الى من تعود اقتطاع الأموال السلطانية وإقـامـة مـروة نفسـه فيهـا. وعمـر الثغـور والبيمارستانات وأدر الأرزاق لمن ينظر فيها. وأزاح علل المرضي وعمر المساجد الجامعة وكتب الى جميع البلدان بذلك ووقع الى العمال وكتب اليهم في أمر المظالم. وأمر أن يستوفى الخراج بغير محاباة للأقوياء =

= ولا حيف على الضعفاء وساس الناس أحسن سياسة. ورسم للعموم الرسوم الجميلة وأنصف الرعية وأزال السنن الجائرة ودبر أمر الوزارة والدواوين وسائر أمور المملكة بكفاية تامة وعفاف وتصون حتى أسقط الزيادات في إقطاعات الجند والعمال وغيرهم لما رأى نفقات السلطان زائدة على دخله زيادة مفرطة تحوج الى هدم بيوت الأموال وصرفها في نفقات يستغنى عنها.

وكان يجري على خمسة وأربعين ألف إنسان تكفيهم. وخدم السلطان سبعين سنة. لم يزل فيها نعمة عن أحد ولما فهم أن الخليفة لا يريد قتال الروم عمد الى طريق سلمية فندب بطريك أنطاكية وجاثليق القدس أن يكتبا الى الروم يقبحان هذه المعاملة ويتواعدان. فاضطرت دولة الروم أن تحسن معاملة المسلمين.

وفي سنة ٣٣٠ هـ أرسل ملك الروم الى المتقي بالله يطلب منه منديلاً زعم أن المسيح مسح به وجهه فصارت صورة وجهه فيه وأنه في «بيعة الرُّها» التي تسمى اليوم أرفة. وذكر أنه إذا أرسل المنديل أطلق عدداً كثيراً من أسارى المسلمين.

فأحضر المتقي بالله القضاة والفقهاء واستفتاهم فاختلفوا. فبعضهم رأى تسليمه الى ملك الروم وإطلاق الأسرى. وبعضهم قال: هذا المنديل لم يزل من قديم الزمن في بلاد الإسلام ولم يطلبه ملك من ملوك الروم، وفي دفعه غضاضة وكان في الجماعة علي بن عيسى فقال: إن خلاص المسلمين من الأسر ومن الضرر والضنك اللذين هم فيه أولى من حفظ هذا المنديل. وأمر الخليفة بتسليمه اليهم وإطلاق الأسرى. وأرسل المتقي بالله من يتسلم الأسرى من الروم وكانوا شيئاً كثيراً.

وعلي بن عيسى صاحب جريدة الخراج المنظمة. وهو الذي أثبت النص القرآني مع ابن مقلة سنة ٣٢٢ هـ بمساعدة العلامة ابن مجاهد الذي أجاز قراءات سبعاً كانت قد نشأت لخلو مصحف عثمان من النقط والشكل.

وكانت وفاته سنة ٣٣٤ هـ. ثلثمائة وأربع وثلاثين، عن تسعين سنة. وفي سنة ٣٣٨ هـ مات أخوه عبد الرحمن وكان من الكفاة الأعيان الأماثل، تولى الولايات الجليلة من الوزارة فما دونها. وأما عمهما محمد بن داود بن الجراح فقال ابن النديم إنه يكنى أبا عبد الله ولم ير في زمانه أفضل منه. ووزر لابن المعتز في يوم خلافته. وكان عالماً قد لقي الناس وأخذ عن العلماء والفصحاء والشعراء. وكتب بخطه ما لا يحصى كثرة وله مؤلفات.

قيل إنه لما بلغ أبا جعفر الطبري خلافة ابن المعتز، قال ومن رشح للوزارة؟ قالوا محمد بن داود بن الجراح. ومن ذكر للقضاء قالوا أبو المثنى أحمد بن يعقوب. ففكر طويلاً وقال: هذا لا يتم. قيل ولماذا؟ قال لأن كل واحد من هؤلاء مقدم في نفسه عالي الهمة فكان كما ذكر. اهـ.

وأما ولد الوزير علي بن عيسى، وهو عيسى بن علي. فكان أوحد زمانه في المنطق والعلوم القديمة. وكان فاضلاً، منشأ، عالماً بعلوم الإسلام. وكان يجلس للتحديث. وروى عنه الناس. وسمع الحديث الكثير. وكان صحيح السماع كثير العلوم. روى عن البغوي، ومن في طبقته، وكان عارفاً بالمنطق وعلم الأوائل فاتهم بشيء من مذهب الفلاسفة. ومن جيد شعره:

رب ميت قد صار بالعلم حياً ... ومُبقي قد مات جهلاً وغيا

فاقتنوا العلم كي تنالوا خلوداً ... لا تعدوا الحياة في الجهل شيا =

وقدم له أسعد الحوالي مالاً كثيراً، ورجع الوزير إلى بغداد شاكراً لأسعد بن أبي يعفر الحوالي فعمل في رفع الخراج عن اليمن فجزاه الله خيراً. ثم تولى اثنان من بني يعفر مدّة بعد أسعد [1] والله أعلم.

وأما منصور بن حسن صاحب علي بن الفضل فكان عاقلاً لبيباً كاملاً ورعاً وادعاً يحب المباقاة. ولم يزل في جهة لاعه إلى أن توفي سنة اثنتين وثلثمائة [2]. ولما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه الحسن بن منصور، وإلى رجل من أصحابه، يقال له عبد الله الشاوري [3] وكان خصيصاً به فأمرهما منصور بالمحافظة على مذهبه وأن لا يقطعا أمراً دون عبيد الله المهدي، وأن يكاتباه فإذا ورد أمر بولاية أحدهما سمع الآخر وأطاعه. فكتب الشاوري إلى المهدي برسالة مع هدية. وعرفه أنه قائم بالدعوة بعد موت منصور. وبعث بالكتاب مع الحسن بن منصور [4] فقدم على المهدي وهو

= ومولده سنة ٣٥٢ هـ. ووفاته سنة ٣٩١ هـ. وأخبار الوزير علي بن عيسى وأسرته كثيرة جميلة.

(١) لعلهما أبو يعفر أحمد بن عبد الرحيم بن أبي يعفر ابراهيم بن محمد بن يعفر الحوالي. والآخر أخوه الخطاب أبو الفتوح بن عبد الرحيم. وكلاهما ابنا أخوي الأمير أسعد. فأبو يعفر كان خليفة عمه بكحلان، وأبو الفتوح كان أمير صنعاء في حياة عمه وبعد وفاته، كذا قاله لسان اليمن.

(٢) وفي بعض نسخ الخزرجي أن وفاة منصور سنة ٣٣٢ هـ وكذا في الكبسي وقد حققنا الموضوع في تعليقنا على الخزرجي وولي بعده أبو يعفر سبعة أشهر. ثم ولي البلاد عبد الله بن قطحان، وهو الذي أمه معاذة بنت علي بن الفضل.

(٣) هو عبد الله بن العباس الشاوري، ولم أقف على ترجمته، إلا أنه كان له سابقة ومعرفة بعبيد الله المهدي، لأن المهدي كان قد بعثه مع أبي عبد الله الشيعي الصنعاني الخارج بكتامة من بلاد المغرب الأفريقية الى منصور اليمن.

(٤) الذي في كشف أسرار الباطنية ـ وهو الذي يتمشى مع العقل والواقع ـ أن عبد الله الشاوري سأل الولاية لنفسه وعزل أولاد المنصور. وخرج ولد المنصور بنفسه إلى القيروان يسأل الولاية لنفسه ولا ينزع الأمر منهم بعد أبيهم. وقد كانت وصلت هدايا ابن عباس وكتابه وولاه الأمر وكتب له. فلما وصل ابن المنصور أمره بطاعة ابن عباس وبعث لابن عباس بسبع رايات وفي الأصل تسع رايات ـ وكثيراً ما تحصل بين هذين العددين أغلاط ـ وكذلك في الخزرجي فرجع ولد المنصور وقد يئس مما كان يرجو من الولاية فلقيه عبد الله بن عباس بنفسه وأهل دعوته فبجله وعظمه ولقيه أخواه جعفر وأبو الفضل وبقية أولاد القرمطي فسألوه بما ورد الأمر فعرفهم بصرف الأمر عنهم الى عبد الله بن عباس دونهم فتبين لجعفر في وجه أخيه الحسن الشر والعداوة والحسد لابن عباس فنهاه عن ذلك. وقبح عليه، وزجره. وقال له إنك تعلم أنه غرس أبينا وأنه لا يقدم علينا سوانا في هذا الأمر. قال والله ما تركته ينعم في ملك عني به غيره، ونحن أحق به منه. فقال له أخوه جعفر إن أمرنا إذاً يتلاشى ويزول =

بالمهدية[١] فعزاه وأمر الشاوري بالاستقلال وبعث إليه تسع رايات ورجع الحسن بن منصور خائباً، فعمل الحسن على قتل الشاوري فنهاه إخوته[٢] فلم ينته. وكان أولاد منصور يواصلون الشاوري وهو يكرمهم، فدخل الحسن على الشاوري في بعض الغفلات فوجده وحده فقتله، واستولى على البلاد، فلما تم له الأمر جمع الرعايا من كل مكان وأشهدهم على نفسه أنه قد خرج من مذهب القرامطة إلى مذهب أهل السنة[٣] فأحبه الناس ودانوا له وقتل القرامطة الذين حوله وشرَّدهم ثم إنه خرج من مسور إلى عين محرَّم وفيه نائب له يقال له ابن العرجي، فاستخلف على مسور ابراهيم بن عبد الحميد السبَّاعي، وهو جد بني المنتاب[٤] فلما دخل الحسن عين محرَّم وثب عليه نائبه ابن العرجي فقتله واستولى على ما تحت يده، وبلغ الخبر إلى ابراهيم النائب بمسور فلزم مسوراً وادعى الأمر لنفسه وأخرج أولاد منصور وحريمهم من مسور إلى جبل بني أعشب، فوثب عليهم المسلمون وقتلوهم ولم يبقوا على أحد منهم وسبوا حريمهم. ثم اتفق ابن العرجي وابراهيم السباعي. فاقتسما البلاد نصفين. ورجع ابراهيم إلى مذهب أهل السنة، وخطب للخليفة العباسي وكاتب الأمير ابراهيم بن زياد صاحب زبيد ودخل في طاعته

= ملكنا ويفترق هذه الدعوة ويذهب الناموس الذي نمسناه على الناس. فلا تحدث نفسك بهلاكه فتهلك. فلم يلتفت الى قوله وكتم السر في نفسه.

(١) المهدية، مدينة اختطها المهدي عبيد الله بن ميمون بأرض أفريقية من المغرب وحصنها وأدار عليها سواراً وجعل له أبواباً زنة كل مصراع منه مائة قنطار من الحديد. وجعلها دار مملكته. وكان ابتدأ عمارتها سنة ثلاث وثلثمائة.

(٢) هم جعفر الذي لاحى أخاه عن قتل الشاوري وقال له بعد قتل الشاوري قطعت يدك بيدك وخرج جعفر الى ولد عبيد الله المسمى القائم فكان له هناك شأن عظيم. والثاني الفضل وغير هذين. وكان هذا سنة اثنتين وعشرين وثلاث مائة، كما في النسخة المنقطعة. وهذا يشكك بأن ابراهيم بن عبد الحميد المنتاب قد صار أميراً على مسور وكانت وقعة نغاش بينه وبين أحمد الناصر في سنة سبع وثلثمائة. فلتراجع الأصول.

(٣) هي أكبر الفرق الإسلامية وأعظمها انتشاراً في جميع الممالك الإسلامية التي قضت على سائر الفرق وبقيت ظاهرة بصورة عمومية الى عهدنا هذا.

ورأس هذه الفرقة الإمام الأعظم أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري المتقدم الذكر في ص ٦٨ ولما اعتنق مذهبه فطاحلة العلماء كالباقلاني وابن فورك والغزالي والرازي وغيرهم سموه رأي أهل السنة والجماعة.

(٤) هو ابراهيم بن عبد الحميد بن محمد بن الحجاج بن الشوال بن شرحبيل بن زاد بن نوف أزاد بن عبد الحميد بن ربب بن فائس بالسين المهملة - بن مسور بن عمرو بن معدي كرب بن شرحبيل بن ينكف بن شمر ذي الجناح بن العطاف بن المنتاب الأكبر بن عمرو بن زيد بن علاف بن عمرو بن ذي أبين بن ذي يقدم بن الصوار بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان بن قطن بن عريب بن =

وسأله أن يبعث إليه رجلاً من قبله، فبعث اليه رجلاً يقال له السراج، وأوصاه أن يقتل ابراهيم السباعي إذا أمكنته الفرصة فتلقاه ابراهيم وأنصفه فعامل عليه السراج من يقتله، فبلغ العلم إلى ابراهيم فقبض على السراج، وحلق رأسه ولحيته ونفاه وقطع مواصلة ابن زياد وتتبع القرامطة بالقتل والسبي حتى أفناهم ولم يبق إلا طائفة قليلة بناحية مسور كاتمين أمرهم مقيمين ناموسهم برجل منهم يقال له ابن الطفيل[1] فقتله ابراهيم، وانتقلت الدعوة إلى رجل يقال له ابن دحيم[2] وفي أيام المنتاب بعد موت أبيه ابراهيم بن عبد الحميد السباعي. فكان ابن دحيم خائفاً على نفسه من المنتاب لا يستقر بموضع، فلما احتضر استخلف يوسف بن الأشج[3] رجلاً من شبام فقام بدعوته مدة حياته فلما احتضر استخلف سليمان بن عبد الله الزواحي الحميري[4] وكان داعياً في أيام الحاكم والظاهر وأول المستنصر، العبيديين[5] وكان كثير المال والجاه فاستمال الرعاع والطغام إلى مذهبه وكلما هم به المسلمون

= هبير بن أيمن بن الهميسع بن حمير بن سبأ الأكبر الشمري الحميري. صاحب الوقائع والأيام وفيهم كانت القيادة والبعوث وكفاة الحرب وأصحاب المقانب والغزو لبني الملطاط. ولا زالت لهم مملكة وإمارة على مسور وبلاد حجة إلى أن سلبها الملك علي بن محمد الصليحي في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، ولهم بقية إلى هذه الغاية، وابراهيم هذا كان من عظماء الشمريين بني المنتاب وخيرهم حسباً.

(١) كان قبله داعية رجل لم يذكر اسمه في كشف أسرار الباطنية قتله الحسن بن منصور.

(٢) كان في الأصل ابن جفثم والتصحيح من الكشف ومن النسخة المنقطعة.

(٣) كان في الأصل يوسف بن الأسد والتصحيح من الكشف والنسخة المنقطعة.

(٤) الزواحي نسبة إلى قرية بحراز تسمى «زواج» لا تزال حية إلى يومنا هذا. وزواح بلدة ذات مسجد جامع في بلد حبيش من الكلاع. وقرية ثالثة من أعمال حيس.

وبنو الزواحي من الأسر العريقة في الرياسة قاموا بدور إيجابي في تأسيس دولة الصليحي وغيرها ولهم بقية الى هذه الغاية في بلاد شبام وينسبون الى ذي حوال يجتمعون في عامر بن عوسجة وسليمان بن عبد الله قد قام بهذه الدعوة بنشاط متواصل كي ينال الملك عن طريق الدين والانتساب الى المهدي لأنه لم يبق للأنساب الشريفة كبير أمر في استرداد الملك اليهم. وقد انتقل من وطنه زواح الى ضلع شبام ونشر الدعوة بهذه الصورة التي يرويها المؤرخون.

(٥) هؤلاء ثلاثة من خلفاء العبيديين. أحدهم الحاكم بأمر الله واسمه منصور بن العزيز نزار بن المعز معد بن المنصور اسماعيل بن القاسم محمد بن المهدي عبيد الله. يكنى أبا علي. وكانت مدة خلافته إلى أن فقد خمساً وعشرين سنة وشهراً. وفقد وعمره ست وثلاثون سنة وسبعة أشهر في ليلة السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة. وكانت له أخبار في الخلاعة والمناقضات يطول شرحها. وكان جماعاً للكتب النفيسة، محباً للعلم غير أن أعماله تنافي الأخلاق الرفيعة. وهو ثالث الخلفاء العبيديين الذين في مصر. =

دفعهم بالجميل وقال أنا مسلم أقول أشهد أن لا إله إلا الله فيمسكون عنه. وكان فيه كرم نفس وأفضال. فلما احتضر استخلف علي بن محمد الصليحي الذي سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

الفصل السابع

في الأمراء المتغلبين على صنعاء

قال علماء السير: لما أهلك الله علي بن الفضل القرمطي لا رحمه الله تعالى في التاريخ المذكور استولى على صنعاء ومخاليفها والجند وأعمالها وسائر جهة اليمن الأعلى أسعد بن أبي يعفر ابراهيم بن محمد بن يعفر بن عبد الرحمن الحوالي إلا صعدة وأعمالها فإنها كانت تحت يد الإمام المرتضى محمد بن الهادي عليه السلام [1] وكان وادعاً ناسكاً مؤثراً للعبادة والعلم ولم

= وقام بعده ولده الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي بن الحاكم. ولد بالقاهرة يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان سنة خمس وتسعين وثلثمائة. وبويع بالخلافة يوم النحر سنة إحدى عشرة وأربعمائة وعمره ست عشر سنة فخرج لصلاة العيد وعلى رأسه المظلة وحوله العسكر وصلى بالناس في المصلى وعاد وكتب بخلافته إلى الأمصار وشرب الخمر ورخص فيه للناس وفي سماع الغناء فأقبل الناس على اللهو وجرت في أيامه شدة وفقر، وقطعت الطرقات واختل النظام وضربت الفوضى أطنابها بالقطر المصري بما لم تعهد وهو سادر في غلوائه سكراً وعربدة. وتطاول غلمانه إلى أموال الرعية وانتهابها. ومات الظاهر للنصف من شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة. عن اثنتين وثلاثين سنة إلا أياماً. فكانت مدة خلافته خمس عشر سنة وثمانية أشهر وأياماً. وكانت مملكته بافريقية ومصر والشام والحجاز.

وقام من بعده ابنه المستنصر أبو تميم معد. ومولده في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة عشرين وأربعمائة. وبويع له بالخلافة يوم مات أبوه وعمره سبع سنين. وأقام بالخلافة ستين سنة وأشهراً. وكانت في أيامه غرائب وعجائب يطول ذكرها فراجع التواريخ إن شئت. ومات في سنة سبع وثمانين وأربعمائة. عن سبع وستين سنة. وهو الذي خطب له البساسيري في بغداد.

قال الأمير شكيب أرسلان في ص ٦ من كتابه «الارتسامات اللطاف» عند ذكر السلطان إسماعيل: واستمر حكمة أربعاً وستين سنة. منها سبع سنوات بالنيابة عن أخيه الرشيد. وسبع وخمسون بالأصالة. حتى كان جهلة الأعراب يعتقدون أنه لا يموت. وكانوا يلقبونه «بالحي القيوم» فهو والمستنصر العبيدي ولويس الرابع عشر وفرانسوا جوزيف من قبيل واحد في طول مدة الحكم.

(١) يكنى أبا القاسم وأمه وأم أخيه الناصر واحدة. يقال إن مولده سنة ٢٧٢ هـ. وقيل سنة ثمان وسبعين ومائتين. وهذا أمر لا يعقل: بأن يحضر معارك والده ويذب عنه ويتزعم حركة المقاومة ويتولى الولايات منفرداً وسنّه عشر سنين إن قلنا ان مولده سنة ثمان وسبعين، وأما إذ كان مولده سنة اثنين وسبعين فذلك أدخل في الإعجاز إذ يبلغ سنة آنئذ ستة أعوام فلتراجع المصادر القديمة. =

يزل بصعدة إلى أن توفي سنة ٣١٠ عشر وثلثمائة فقام بالأمر بعده أخوه الناصر (١) واستولى

= وكان عالماً فاضلاً زاهداً متقللاً من متع الحياة، له مؤلفات في الأصول والفروع، وكان شاعراً أديباً، خرج مع والده من الرس واشترك مع والده في المعارك التي دارت بصنعاء وغيرها وأبدى شجاعة خارقة وثباتاً محموداً، حتى قال في سيرة الهادي إنه الذي أنقذ أباه من الموت في حادثة صنعاء، ثم كان يبعثه والده للنجدات منفرداً فينهض إليها غير متثاقل؛ ثم يؤيده باللحوق على أثره تارة كما سلف ذكره في الأصل. وأسر يوم أتوه من أرض همدان وذلك سنة ٢٨٨ هـ. أسره الزعيم الشهير بابن الضحاك، وأدخل صنعاء وطيف به بالأسواق على جمل ليس عليه إلا قتب. ثم حبس بصنعاء أياماً مع محمد بن سعيد أحد خواص الهادي. ثم نقلا إلى بيت بوس، حيث أثخنا بالقيود وجموهما مع جماعة من آل يعفر. ولم ينقذه من هذه المحنة إلا الأمير أسعد بن أبي يعفر هو وجميع رفاقه في قصة طويلة. حتى ان أسعد تولى بنفسه فك قيد محمد المرتضى بن الهادي، وأرسله أسعد إلى شبام مرفهاً عليه وأركبه بغلته وأبقاه هنالك بينما أسعد يتم مهمته، فمل المقام بشبام فدبر الفرار ولكنه لم يفلح إذ أعيد من الطريق، فعاتبه أسعد حيث لا مبرر لفراره وهو في ضيافته وكرامته، ولما عاد أسعد إلى شبام جهزه إلى أبيه حيث كان في انتظاره في قرى همدان، بأحسن جهاز وأركبه بغلته وقلده سيفاً، فشكر الهادي هذه اليد لأسعد وعادا معاً الى صعدة. وله أشعار إلى والده قالها في الحبس.

وفي قيامه بأعباء الخلافة بعد أبيه اضطراب في التواريخ، والذي صححه المؤرخ الكبير أبو الغمر مسلم بن محمد اللحجي أنه لم يدع الإمامة وأنه انعزل لوقته ومال إلى التزهد والعبادة. وبعض الزيدية لا تقول بإمامته كما نص على ذلك الإمام المهدي أحمد بن يحي المرتضى في يواقيت البر. وفي السيرة: أنه بويع له يوم الخميس مستهل المحرم سنة ٢٩٩ هـ. وأقام بصعدة وبيده همدان وخولان ونجران.

وكانت وفاته بالإجماع في يوم الأحد غرة المحرم سنة عشر وثلثمائة بصعدة ودفن يوم الاثنين بجانب والده الهادي، وفيها مات المؤرخ الكبير محمد بن جرير الطبري ببغداد صاحب التاريخ والتفسير وغيرهما.

(١) هو أبو الحسن الناصر أحمد بن الإمام الهادي إلى الحق، لم أقف على تاريخ ولادته كما أنه لم يظهر على مسرح الحوادث التي كانت أيام أبيه حتى ولا تلويحاً بما يدل على أنه فضل البقاء بجبال الرس، وكان حدثاً يشتغل بالدراسة ولم تتوفر فيه مؤهلات الاشتراك في المعارك وقد ظل قابعاً في جبال الرس حتى موت أبيه بسنتين، وفي أواخر الحجة سنة ثلاث مائة قدم صعدة ولا ندري هل باستدعاء أم من ذات نفسه فالأسباب لدينا مجهولة ومهما يكن فقد اجتمع بأخيه محمد المرتضى وأقاما معاً إلى شهر صفر سنة ٣٠١ واحد وثلثمائة. فاجتمع وجوه خولان وأرادوه للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجاب وبايعوه وأخذ منهم المواثيق الشديدة والعهود الغليظة ولقب بالناصر وبعث عماله إلى جميع مخاليفه وكانت اليه بلاد صعدة ونجران، ثم اصطلح مع الأمير أبي جعفر أحمد بن محمد بن الضحاك سلطان حاشد وناصره وسلم إليه بعض بلد همدان.

قال في الأنباء: ولما وصل - أي الناصر - خيوان بعث دعواته إلى كثير من أقطار اليمن وأنها وصلت إلى حجة فأخذها بعضهم ومزقها. ولم يلبث القرامطة أن دخلوا بلادهم فمزقوهم كل ممزق.

وهذا يدل على أن بلاد حجة لم تدخل في حوزة الناصر. =

على كثير من البلاد ودخل عدن في ثمانين ألفاً [1] منها أربعون ألف قوس فدان له كثير من البلاد إلى أن توفي سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة. ولم يزل أسعد بن أبي يعفر مستولياً على صنعاء وأعمالها إلى أن توفي سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة، وكانت وفاته بكحلان، ثم حمل في

= ومن أكبر الأحداث بينه وبين خصومه ـ يوم نغاش بوادي عقار من ظاهر البون ـ كانت وقعة بينه وبين ابن المنتاب استظهر فيها الناصر بسواعد الأمير ابن الضحاك وآل الدعام، ولا ندري ما الذي هاجها. وكانت وفاة الناصر سنة ٣٢٢ اثنتين وعشرين وثلثمائة. وهذه أصح رواية في وفاة الناصر لأنها عن سيرة الهادي وقبل سنة عشرين.

وقال الحاكم سنة خمس وعشرين. وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة على الأصح. وله أولاد وغالب القائمين باليمن من أولاده. وله سيرة لم نطلع عليها بعد، وله مؤلفات في الفقه والأصول خالف فيها والده في بعض المسائل.

(١) هذه غلطة من غلطات بعض المؤرخين والله أعلم من أول من غلط بها فتسلسل الغلط الى جميع كتب التواريخ التي بأيدينا. ولكن سيرة الهادي لم تشر إلى هذه الحادثة لا من قريب ولا من بعيد مما يدل على عدم صحة هذه الرواية.

قلت وقد أطلعت على كلمة بقلم السيد العلامة الأديب أحمد بن عبد الوهاب الوريث الذماري على هامش شرح البسامة، فأحببت نقلها بفصها ونصها، وصاحب البيت أدرى بالذي فيه قال رحمه الله:

تتبعنا أحوال الناصر وقرأنا سيرته فلم نجد ذكراً لكونه غزا عدن أبين وفتحها مع أن مؤلف سيرته ذكر حركاته خطوة خطوة حتى توفي. ولم يتكلم عن هذا الفتوح الكبير الذي لا يتصور أن يهمله مؤلف سيرته في حين يذكر جزئيات الأحوال وكلياتها. يضاف إلى هذا أن دول جنوب اليمن كانت إذ ذاك قوية. وكانت حركة الهادي وأولاده مقصورة على نجران والجوف وشمال اليمن فإن قوي أمرهم تجاوز إلى صنعاء فقط ـ لم يتجاوز الناصر البون ـ لذلك ترجح عندنا أن يكون بعض المؤرخين المتقدمين ذكروا وقعة نغاش وحرب القرامطة القاطنين في مسور ولاعه وحكى أن جنود الناصر دخلت عدن ويريد بها عدن لاعه فيأتي المتأخر فيظنها عدن أبين المشهورة. انتهت كلمة الوريث.

قلت: ولم تدخل جنود الناصر عدن لاعه. وإنما وصلت الى قرب مصانع حمير ثم اندحرت. واليك كلمة صاحب السيرة بعد انتهائه عن موقعة نغاش: وكاتبوا الحرملي وأرسلوا إليه بمال فأرسل عسكراً في نصرتهم. فلما بلغ ذلك أحمد بن يحيى كره حربه لئلا يقع عند السلطان أنه يحارب قائده فينقطع الموسم عمن في بلده من التجار وأخل عليه بعض أهل البلد فصرف عساكره وخلى البلد وعاد إلى بلده سنة ثماني وثلثمائة.

وأنت ترى أن هنالك سلطاناً يخاف الناصر سطوته وما ذاك السلطان إلا ملك اليمن أسعد بن أبي يعفر أو ابن زياد. وحينئذ فالغلطة لا تزال غلطته سواء كانت عدن لاعه أو عدن أبين. والمؤلف نفسه والخزرجي يقولان ان أسعد لا زال مستولياً لصنعاء إلى أن توفي سنة ٣٣٢ اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وراجع كلمة الأنباء في ص ٣١١ ـ سطر ٥ فإن فيها صراحة أن دعوة الناصر وجيوشه لم تبلغ حجة ومن الطبيعي أن من ملك حجة ملك لاعة والعكس.

تابوت إلى شاهره[١] وهي التي وقفها على جامع صنعاء ودفن هناك، وفي أيامه كان قيام الإمام الناصر أحمد بن الهادي ولم تزل صنعاء في يد بني يعفر ومواليهم مع كثرة اختلافهم وقيام من يقوم عليهم إلى سنة أربع وأربعين وثلثمائة.

وفي السنة التي بعدها وصل المختار بن الناصر أحمد بن الهادي[٢] إلى ريدة[٣] فخرج من صنعاء من كان بها من بني الضحاك. فولاها المختار القاسم بن يحيى بن خلف[٤]. ثم لم يلبث الضحاك[٥] أن

---

(١) أما كحلان فهو المسمى كحلان الحداد. وكحلان خبان الواقع في ذي رعين من خبان يطل على وادي سبّان ووادي خبان المشهورين.

قال المسعودي في مروج الذهب ج ١. ص ١٢٤ وذكر قلعة كحلان، وهذه القلعة من مخاليف اليمن فيها أسعد بن أبي يعفر ملك اليمن في هذا الوقت يحتجب عن الناس إلا خواصه وهو من بقية ملوك حمير حوله الجنود من الخيل والرجال نحو خمسين الفاً مرتزقة يقبضون الرزق «الجراية» ويدعى في وقت القبض «البركة» فيجتمعون هناك وينحدرون من تلك المخاليف «المخاليف: القلاح» وقد كانت لهذا الرجل حروب باليمن مع القرامطة وصاحب المذيخرة وهو علي بن الفضل وذلك بعد التسعين والمائتين. وقد كان لعلي بن الفضل شأن عظيم حتى قتل وتوطأت اليمن لهذا الرجل. قلت: وقد اتخذها الأمير أسعد دار مملكته واستقر بها من سنة ست وثلثمائة إلى أن مات في التاريخ المذكور وكان نائباً عنه على صنعاء ومخاليفها أخوه عبد الله وأبو الفتوح.

وأما شاهره: فتقع في الغرب الشمالي من صنعاء الذي يقدر بمسافة ساعة، ولا زال قبر الأمير أسعد معروفاً مزوراً باسم أنه ولي. ويقال له قبر اليعفري. ووقفه بضلع على غيل الريشة مغله اليوم زهاء عشرة آلاف ريال ولا يسمع بوقف أقدم منه. وفي مشجرة الحواليين أن الموقف له الأمير محمد بن يعفر. ولعل أبا حسان زاد على وقف جده والمسودة السنانية تحكي أن ذلك الوقف من أبي حسان.

(٢) لم أجد له ترجمة. حتى أن العلامة المؤرخ زباره أهمله إلا أنها وقعت له حروب مع إخوته في صعدة. وآل الدعام، وقصة حسان بن عثمان الحوالي وابن الضحاك طويلة الذيول. طويتها رعاية للاختصار. راجع تاريخنا والمختار لقب له. واسمه القاسم.

(٣) ريدة بفتح الراء آخر الحروف هاء. بلدة من وطن همدان، بينها وبين صنعاء عشرون ميلاً شمالا. تقوم في منتهى حقل البون الأسفل. وفي قلب المدينة المذكورة قلعة صغيرة بها بئر. ويقال إنها البئر المعطلة والقصر المشيد في هذه البلدة. إذ كان فيها قصور شامخة، ومباني عظيمة. وبها آثار جليلة، ومن قصورها «تلفم بالتاء والفاء» وكان للملك ذي لعوة. الذي يقول فيه علقمة ذو جدن:

وذا لعـــوة المشهـــور في رأس تلفـــم ... أزلـن وكـان الليـــث حـامـــي الحقـائـــق

(٤) لا أعرف عنه شيئاً.

(٥) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن الضحاك بن العباس بن سعيد بن قيس بن أحمد أبي معيد المعيدي الحاشدي. وبقية النسب في الجزء العاشر من الأكاليل. قال في حقه لسان اليمن: سيد همدان في عصرنا، وصاحب الوقائع والأيام. وهو الذي يمدحه الهمداني ويقيد أيامه. وهو منه خل وصاحب وشهد مائة وقعة واستوفى بعض النسخ مائة وخمسين وقعة. وكان أكثرها بين حزبه وبين يحيى بن الحسين العلوي، =

غدر بالمختار ابن الناصر فحبسه ثم بعد شهر قتله في سنة خمس وأربعين وثلثمائة، وكان علي بن وردان من موالي آل يعفر قد غلب على صنعاء فثار الأسمر يوسف بن أبي الفتوح الخولاني[1] وقامت معه خولان[2] فعارض بني يعفر وبني الضحاك فقصدوه وهو بخدار[3] فهرسهم وقتل من همدان خلقاً كثيراً، وتوفي ابن وردان سنة خمسين وثلثمائة، واستخلف أخاه سابور فقام بالأمر وصار الضحاك معه كما كان مع أخيه، فخرجا جميعاً لقتال ابن أبي الفتوح إلى خولان فلم يظفروا منه بشيء، فعاد الضحاك إلى صنعاء، وسار سابور نحو ذمار فلحقه الأسمر الخولاني فقتله في نقيل يكلى[4] سنة إحدى وخمسين وثلثمائة، وكتب الضحاك إلى أبي الجيش ابن زياد صاحب زبيد في بذل الطاعة، وخطب له بصنعاء وكتب الأسمر الخولاني إلى الأمير عبد الله بن قحطان الحوالي[5]

وأسر ابنه محمد بن يحيى العلوي، يوم أتوه. ثم صافاه ابنا يحيى، محمد وأحمد. وكان لهما نعم الصاحب والوزير على أمورهما ثم باعده القاسم بن الناصر. فجرى بينهما ما ينطق به شعر الهمداني. ودخل صعدة ثلاث مرات وأخربها. ودخل صنعاء مرتين فأحسن فيها. إلى أن قال: وكان مظفراً لا تفل له راية. وقتل أبوه وهو ابن سبع سنين فراعى ثأره في بني يعفر سبعاً وخمسين سنة. ثم قتل منهم خمسة خديعة. وأخباره كثيرة.

وهـذا البيت من المعيديين لا يرون لهم كفؤاً من حاشد. وقد طمع محمد بن يحيى العلـوي بالصهر اليهم فأعجزه.

هذا ما وقفت عليه في نعت هذا السلطان العظيم الذي كانت له وقائع وأيام دونها قلم البليغ الفيلسوف مفخرة اليمن. ولكن مع الأسف الشديد لا تزال في طي الخفاء حتى يجيء اليوم الذي يأذن الله ببعث التراث اليمني من مقبرة الفناء.

وقد تسلسلت فيهم الإمارة إلى أن أزالها الملك المعظم علي بن محمد الصليحي في أواسط القرن الخامس.

(١) لم أقف على ترجمته إلا أن مسكنه كان في بلدة السرين فقط من سنحان. ويكفي أنه قد ظهر على مسرح التاريخ كزعيم وقائد. ويقال إن لهم بقية إلى عهدنا في خولان يقال لهم بنو الفتوح.

(٢) المراد بخولان هذه خولان العالية التي تسمى لعهدنا خولان الطيال.

(٣) خدار بكسر الخاء المعجمة ودال مهملة وألف وراء. بلدة على نشز من الأرض أمام الصاعد من نقيل يسلح. معدودة من بلاد الروس وفي القديم من خولان العالية ومخلاف جرة. وبينها وبين صنعاء مرحلة.

(٤) يكلى بفتح الياء زنة يعلى ثنية دون العقبة جنوب صنعاء على مرحلة وكسر عدادها اليوم من الحـدا وكانت أحد الطرق الرئيسية صنعاء ـ عدن.

(٥) هو أمير اليمن عبد الله بن قحطان بن عبد الله بن أبي يعفر ابراهيم بن محمد بن يعفر الحوالي. وأمه معاذة بنت علي بن الفضل التي تقدم ذكرها. وتاريخ هذا الأمير العظيم الذي ظل قابضاً على ناصية الحكـم على أجزل سنام اليمن قرابة خمس وخمسين سنة. وفتح في خلالها مدينة زبيد وأنزل بها وبصاحبها ضربة قاضية. لا يزال مجهولاً ومن البعيد أن لا يكون له سجل حافل بوقائعه وأيامه وعسى الأيام تجود =

وهو بشبام أن يقوم بالأمر فخرج إلى السرين[1] فأقام مع الأسمر أياماً ثم سار نحو كحلان[2] فأقام به مدة ثم رجع فدخل صنعاء. وخرج منها الضحاك منهزماً، ثم خرج ابن قحطان من صنعاء فاستعادها الضحاك وأعاد الخطبة لابن زياد فلم يستقر له الأمر وعاد أمر البلاد إلى عبد الله بن قحطان وامتدت أيامه، وفي أيامه قام يوسف بن يحيى بن الناصر بن الإمام الهادي[3] فسار إلى صنعاء فدخلها وخطب لنفسه، ثم بعد أمور طويلة خرج منها فدخلها قيس بن

= بتواريخ هذه الأسرة العريقة في المجد والسؤدد. وقد طالت مدته وكان مقر عزه «كحلان خبان» وينتقل في ولايته بين صنعاء وشبام وغيرهما. ولم أقف على أكثر من هذا الذي سطره المؤلف. إلا أن في الخزرجي قال: وكانت ولايته في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة وكانت له وقعات مشهورة منها أن أبا يعقوب المحابي وازر الحسين بن سلامة على قتال بني الحوالي فالتقوا للحرب في اليوم الثاني عشر من شوال سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة فقتل منهم مقتلة عظيمة: نحواً من ألفي رجل وكانت الدائرة على ابن أبي يعقوب المحابي وهو من جهة الحسين بن سلامة.

وقلت: وفي هذه العبارة ما فيها من الخلط والخبط إذ ولايته في سنة ٣٥٢هـ والواقعة المذكورة في سنة ٣٤٣هـ. بينما يقول الخزرجي نفسه إن الذي تولى بعد أسعد بن أبي يعفر هو أبو يعفر ومكث سبعة أشهر ثم ولي البلاد عبد الله بن قحطان يعني هذا ووفاة أبي حسان أسعد في سنة ٣٣٢هـ.

(١) السرين تثنية سر ضد العلانية بلدة عامرة من مخلاف سنحان جنوب صنعاء.

(٢) المراد به كحلان خبان المتقدم الذكر فهو المشهور لذلك الحين.

(٣) هو الملقب يوسف الداعي. ولم تحدد مولده الكتب الموجودة معنا بل ألغت ذلك ونطقت أنه قام ودعا بريدة سنة ٣٦٧هـ. وقيل في سنة ٣٦٨هـ. ودخل صنعاء يوم الجمعة من جمادى الأخرة من السنة المذكورة وخطب لنفسه وفي ثاني يوم دخوله هدم ما بناه قيس بن أبي جعفر الضحاك. فعمره قيس فأخربه الداعي مرة أخرى. ثم جرت أمور أعجزته عن دخوله صنعاء فعمد إلى الآبار التي حول صنعاء فطمها وأخربها. ثم سار إلى ضلع فقطع أعنابها وكذلك في ضهر. وفي شعبان سنة ٣٦٩ هـ اتفق مع أسعد بن أبي الفتوح الخولاني وكان يقاتلهم بنو شهاب وعلى رأسهم سلمة بن محمد الشهابي فانهزمت بنو شهاب ودخلها أسعد ويوسف فنهبا صنعاء نهباً شنيعاً، وكان سلمة بن محمد الشهابي قد اختفى في دار بني خلف فأخرج وقتله يوسف وقتل معه جماعة قدرت بأربعين رجلاً وسبى من دار ابن خلف ودار أبي جعفر نساء كثيرة. قال الإمام المنصور بن عبدالله بن حمزة بعد أن سرد القصة بأوسع من هذا: فهل تظن يستجيز السبي من غير دار الكفر. فتأمل. وأمر بهدم درب صنعاء وأمر أهل صنعاء بهدمه، وكان إذا خرج لهدمه أخرج معه السياط فمن لم يجتهد في الهدم أو امتنع من أهل صنعاء جلده، فجلد خلقاً كثيراً وعاقب قاضي صنعاء وهو أبو سلمة بن يحيى بن عبد الله بن كليب التقوى الحميري لكونه من أهل السنة، وضلت صنعاء بين مدّ وجزر بين المتغلبين من تقوى دخلها، حتى قال بعض المؤرخين إن صنعاء أصبحت في هذه الحقبة كالخرقة الحمراء تسفعها الحداء.

وظل يوسف يتردد بين صنعاء وصعدة فتارة له وتارة عليه الى سنة ٣٩٨ هـ. حيث استقر بصعدة الى أن مات في صفر سنة ٤٠٣ هـ. أربعمائة وثلاث.

الضحاك[1]. وأسعد بن أبي الفتوح الخولاني، ثم اختلف أهل صنعاء على أسعد فأخرجوه من صنعاء فكتب أسعد إلى الإمام يوسف بالسمع والطاعة له وحزّب أهل صنعاء فالتقيا ودخلا صنعاء بعد قتال شديد. ثم فسد ما بين الإمام وبين أسعد بن أبي الفتوح. واتفق الإمام والضحاك وجعل له الإمام جباية صنعاء. ثم بعد أمور طويلة رجع إلى مكاتبة ابن أبي الفتوح وبذل له نصف جباية صنعاء فصار إليه وطرد عمال ابن الضحاك ودخلها وخطب للإمام ولعبد الله بن قحطان من غير أن يؤمر الإمام في ذلك فلامه على ذلك. فقطع ذكر الجميع.

وفي سنة تسع وسبعين وثلاثمائة تجهز عبد الله بن قحطان لنزوله تهامة فلقيه صاحبها ابن زياد[2] إلى حجرة حراز[3] فاقتتلوا وانهزم ابن زياد. ثم دخل ابن قحطان زبيد فنهب دور بني زياد أقبح نهب، ونهبت بيوت زبيد[4] وفي هذا التاريخ ترك خطبة بني العباس في بلاده وخطب للعزيز العبيدي[5] صاحب مصر وتوفي ابن قحطان سنة سبع وثمانين وثلثمائة[6]. وقام بالأمر بعده ابنه أسعد بن عبدالله بن قحطان بن عبدالله بن أبي يعفر إبراهيم بن محمد بن يعفر بن عبدالرحمن الحوالي[7] وكان أمر صنعاء مضطرباً تارة يغلب عليها الإمام

(١) هذا الزعيم اليمني وأضرابه ممن ضيعه قومه. أو تاريخه ضائع.

(٢) هو أبو الجيش إسحاق بن ابراهيم بن محمد بن زياد.

(٣) لعلها التي تسمى اليوم حجرة ابن مهدي في الحيمة غربي صنعاء.

(٤) زاد الخزرجي أنه كان نهوض الأمير عبد الله بن قحطان في شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة وأقام بزبيد ستة أيام ثم عاد إلى كحلان. ثم قصد مخلاف جعفر فملكه واستولى عليه في سنة ثمانين وثلاثمائة وأقام بياب واضطرب عليه أمر المخلاف فأمر بعمارة المنظر وتحول إليه من إب.

(٥) هو ثاني خلفاء العبيديين بمصر. فأقام بعد أبيه المعز لدين الله فلقب بالعزيز بالله. وكنى أبا منصور. واسمه نزار بن معد وأقام بالخلافة إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف لأن قيامه كان سنة خمس وستين وثلاثمائة، ومات في الثامن والعشرين من رجب سنة ست وثمانين وثلاثمائة بمدينة بلبيس وحمل إلى القاهرة وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً.

(٦) في مشجر آل ذي حوال أن الأمير عبد الله بن قحطان بعد أن عاد من زبيد واستولى على مخلاف جعفر ثم عاد منه الى صنعاء حيث قضى نحبه بها.

(٧) هذا الأمير كأسلافه الذين لا يزالون في ضمائر الغيب فلم أعثر على أكثر من هذا إلا أن في تاريخ وصاب يقول: ومنهم - أي من الحواليين - أسعد بن عبد الله، وساق نسبه كما هنا إلى أن قال وهو الذي لبس التاج المعلق بالسلاسل في الإسلام. فتأمل هداك الله.

ويقال إن وفاة أسعد بن عبد الله في سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة وان قومه من حمير أقاموا بعده أحمد بن يعفر وقيل في شهر ربيع الأول سنة ٣٩٢. وفي مشجر الأكوع أن وفاة أسعد بن عبد الله في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.

يوسف بن يحيى، وابن أبي الفتوح الخولاني وتارة آل الضحاك، وكانت العرب من همدان وحمير وخولان [١] مفترقة من كثر جمعه غلب على صنعاء، فلما كان سنة تسع وثمانين وثلاثمائة وصل الإمام المنصور القاسم بن علي الحسني العياني [٢] وكان مقيماً بخثعم [٣] فخالف عليه أهل صعدة فجمع لهم همدان فأخرب دربها، وطرد [٤] منها الإمام يوسف بن يحيى وولاها ابنه جعفر بن القاسم، ثم وصل إلى ريدة فأطاعه جعفر بن الضحاك وكافة أهل البون [٥] وبايعوه، فأرسل إلى صنعاء من قبله شريفاً يعرف بالقاسم بن حسين الزيدي [٦] من ولد زيد بن علي عليه السلام. فتصرف في صنعاء بأحكام الزيدية وعاد الإمام القاسم إلى

---

(١) المراد بحمير هنا البلاد الواقعة في غرب صنعاء كبلاد الطويلة وشبام وحمير، وحضور، والحيمتين والمصانع ومسور وبخولان، خولان العالية.

(٢) هو الإمام القاسم بن علي بن عبد الله بن محمد بن القاسم الرسي. مولده سنة عشر وثلاثمئة بتبالة من بلد خثعم، فنشأ على التقوى والصلاح، ثم عنَّ له الدعوة إلى الإمامة فمهد لها برحلة قام بها إلى صعدة حيث لقي الظروف مهيأة لبث دعوته ونشر ما تصبو إليه نفسه، فعاد إلى مسقط رأسه فأعلن الدعوة وطالب الناس بالأموال ليتقوى بها على الهجوم على صعدة عاصمة الأئمة التي هي قابلة لذلك فاجتمع له مال من الزكاة فنهض إلى صعدة في المحرم من سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، فكان منه ما ذكره المؤلف، وتوالت له انتصارات أطمعته على التقدم إلى بلد همدان، ثم كانت له خطوب وحروب منها ما ذكره المؤلف ومنها ما طويت للاختصار.

(٣) خثعم صقع في منتهى شمال اليمن متاخمة لأرض بيشة وحلالها وأبو قبيلة يمنية عنيدة نسبت إلى خثعم بن أنمار بن أراشة بن عمرو بن الغوث بن النبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن حمير ولها بقية الى يومنا هذا، ومن قراهم بلاع والوسن والفرع وتعرى.

(٤) يقال إنه كان قد فشا فيها الفساد وأكثر أخذ المكوس من ضعفة الناس والأفاقين كالصنعانيين ونحوهم فكأنما جاء الإمام القاسم كالمنقذ لهم. وقد لقيت صعدة مصرعها من الدمار والخراب جزاء ما قيل عنها من الفساد، وقد تكون هذه من الذرائع التي تعتمد عليها الإمامة والساسة ليبلغوا إلى درجة الحكم.

(٥) البون: بفتح الباء الموحدة وآخر الحروف نون، حقل رحيب مترامي الأطراف، وهو بونان، البون الأعلى، والبون الأسفل، فالبون الأسفل من قراه ريدة، وجوب وغيرهما، ومن قرى البون الأعلى قاعة وقارن وغيرهما، ومدينته عمران ذات الآثار الخالدة والقصور المشيدة في الزمن القديم. وهو من أخصب قيعان اليمن ويقع شمال صنعاء بمسافة ثمان ساعات.

(٦) قد استشكل بعض مؤرخي الزيدية بين هذا القاسم بن حسين الزيدي، وبين الحسين بن القاسم ابن الحسين الزيدي المقبور عند جامع ذمار وخرج من الإشكال بأن المقتول على يد الحسين بن القاسم العياني، وهو محمد بن القاسم الزيدي المذكور في الأصل.

عيان[1] ، ثم بعث الشريف الزيدي إلى بلد عنس[2] وذمار فملكها وصارت كلها في طاعة الإمام القاسم . وكتب الزيدي الى أسعد بن عبد الله بن قحطان صاحب كحلان يرغبه في طاعة الإمام القاسم فأجاب وخطب له بكحلان[3] ثم سار الزيدي إلى صنعاء في جمع عظيم فأقام بها أياماً ثم عاد إلى ذمار وكان الإمام بوورور فصارت اليه همدان وسألوه النفقات فكتب إلى عامله بصنعاء فلم يجدوا عنده ما يقوم بكفايتهم فساروا إلى ابن أبي الفتوح وابن أبي حاشد[4] فحلفوا لهما ودخلوا بهما صنعاء وأخرجوا ولاة الإمام . فعلم الشريف الزيدي فخرج من ذمار . فقطع أعناب بني أبي الفتوح[5] فخرج ابن أبي حاشد من صنعاء وعاد نائب الإمام إلى صنعاء ثم وصل ابن الإمام القاسم إلى صنعاء والتقى بابن أبي الفتوح ورد عليه جميع مخلافه ولحق الناس من جعفر شدة عظيمة . ثم تقدم الإمام إلى صنعاء ووصله ابن أبي الفتوح وتغير الإمام على الشريف الزيدي فخالف عليه وأقام حتى جاء الإمام من صنعاء[6] واستخلف بها ابنه جعفر فقصده الزيدي إلى صنعاء فأسره مع جماعة من إخوته وحارب ابن أبي الفتوح . ثم إن الإمام راسل الشريف الزيدي واستطاب نفسه فأطلق أولاده وحملهم وسار ولقي الإمام إلى ريدة فأقام أياماً عنده وتعاملا على أحوال لم تظهر لأحد . ثم كتب له الإمام بولاية عدن[7] سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة فعاد الزيدي الى صنعاء فولاها الشريف هلال بن جعفر . ثم إن الإمام القاسم دخل صنعاء . ثم بعد ذلك وصل الزيدي إلى صنعاء وكتب إلى الإمام الأول يوسف بن يحيى أحمد الناصر بالوصول فسار نحوه فالتقيا في

---

(١) عيان بكسر العين المهملة آخر الحروف نون، بليدة من همدان ثم من سفيان وإليه نسب الإمام القاسم العياني لأنه أقام بها بعد أن انزوت عنه الإمامة ثم قبر بها .

(٢) قال الهمداني : وهو مخلاف نفيس كثير الخير عتيق الخيل كثير الأعناب، والمزارع والمآثر منها بينون وهكر وغيرهما . ومنها مدافه وبؤسان نسب الى عنس بن مذحج، ويقال لعنس بن زيد بن سدد ابن زرعة بن سبأ الأصغر راجع صفة جزيرة العرب .

(٣) ويقال إن الأمير أسعد بن عبد الله الحوالي أمد الإمام بمال جزيل وخلع وخيل . وخطب لأسعد مع الإمام على منابر صنعاء .

(٤) هو من سلالة آل الضحاك من ولد أبي حاشد بن محمد بن الضحاك الحاشدي المعيدي .

(٥) كانت الأعناب بمنطقة حصن نعض من سنحان المتاخمة لخولان العالية الذي أخرب في تلك الغارة التي أتت على الحرث والأعناب والجهادات .

(٦) في هذه العبارة قلق وهكذا في الخزرجي وفي بعض التواريخ « فخرج الإمام من صنعاء » وهو الصواب الذي يطابق السياق .

(٧) وفي الخزرجي أنه كتب ولايته من عجيب إلى عدن . وهذا أمر عجيب وأين عدن من عجيب . إذ عجيب هي العقبة التي تطل على قاع البون من شماله، ولكن هذا شأن الدعاة يجيدون الروايات المسرحية التي فيها تخدير أعصاب وتبلبل الألسنة ليرهبوا به الأعداء .

مشرق همدان وتحالفا وأقام الإمام يوسف بريدة ورجع الزيدي إلى صنعاء فخطب للإمام يوسف بن يحيى وقطع خطبة الإمام القاسم بن علي. ووصل الإمام يوسف إلى صنعاء ثم سار إلى الهان[1] ثم عاد الى ذمار وخرج الإمام يوسف من صنعاء فبقيت بلا إمام وأتى الخبر بوفاة الإمام القاسم بن علي العياني سنة ٣٩٣ هـ ثلاث وتسعين وثلاثمائة. فوصل أبي حاشد إلى صنعاء وخطب للشريف الزيدي. ثم تغيرت الحال عليه فخرج من صنعاء وتركها بغير سلطان ولم يزل كذلك حتى اصطلح ابن أبي حاشد وابن عمه أبي جعفر فسارت اليه همدان. فدخل صنعاء وصالح ابن أبي الفتوح سنة خمس وتسعين وثلاثمائة فلما كانت ليلة النصف من رجب سنة ٣٩٦ هـ طلع نجم مثل الزهرة فارتفع مرات بعد غروب الشمس بنصف ساعة ولم يكن مدوراً بل هو إلى الطول أقرب وفي أطرافه شعب مثل الأصابع وله حركة عظيمة كأنه في ماء يضطرب وله شعاع كشعاع الشمس كان طلوعه في منزلة الغفر من برج الميزان ولم يزل كذلك إلى ليلة النصف من رمضان. ثم نقص فوره واضمحل. ووقفت صنعاء بغير سلطان الى سنة سبع وتسعين فتعاورها آل الضحاك إلى سنة ثمان وتسعين فقدمها الشريف الزيدي ومعه الإمام يوسف بن يحيى بن الناصر فلم يتم لهما بها أمر فخرجا منها وقامت الفتنة على صنعاء بين همدان وخولان وحمير والأبناء وبني شهاب. في كل شهر لها أمير وعليها رئيس وفي أكثر أوقاتها تخلو من السلطنة والغالب عليها آل الضحاك إلى سنة أربعمائة. ثم سار الشريف الزيدي من ذمار في جماعة من همدان فدخل صنعاء ثم وصل الإمام الحسين بن الإمام القاسم[2] بن علي إلى

(١) الهان مخلاف أنس متقاذف الأرجاء واسع الأعمال يحده من جنوبه مخلاف مُقري بلاد مغرب عنس قرب ذمار ومن الشرق جهران وبلاد الروس ومن الشمال ريمه جبلان الأشابط ومن الغرب يطل على تهامة وهو من أعتق وأكرم مخاليف اليمن مشتبك العمران يلحق بكثرة المحاصيل والضرائب بقضاء إب، ونسب إليه عالم من رجالات العلم والفضل وقومه ممن هاجروا في الفتوحات وكان لهم أبعد الأثر وأحسن البلاء، ومركز أعماله ضوران في الجنوب الغربي من صنعاء بمرحلة ونصف.

(٢) وهو ابن القاسم العياني متقدم الذكر مولده سنة ست وسبعين وثلاثمائة وكان ذكياً بارع الذكاء فصيحاً بليغاً. وله مؤلفات في أصول الدين وخاض إلى الإمامة وهو حدث السن وذلك بعد وفاة ابيه القاسم. وقد نقد خلافته وخلافة أبيه القاسم العياني، المؤرخ الكبير مُسَلّم بن محمد اللحجي بأشياء لاذعة حتى ألحقهما بمذهب الباطنية وأكثر من مؤاخذة الحسين هذا. وذكر أنه ادعى أنه ينزل عليه الوحي. وقال الجلال وظهرت على الحسين أقوال وأفعال أنكرها كثير من العلماء وكان يأخذ من أموال الناس الخمس على رأي الباطنية. ولما تجلت له أعمال الحسين بن القاسم استنكرها وخلع طاعته وودي القتيل وقال ابن أبي الرجال إن قاسم بن جعفر بن علي العياني الملقب بالفاضل أخاذي الشرفين كان يأخذ ثلاثة أرباع المال مع الأعشار وما تصطفى من الصوافي قدره سبعون ألف دينار.

قاعة[1] سنة إحدى وأربعمائة وادعى أنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ فأجابه حمير وهمدان وسائر أهل المغارب[2] وتخلوا عن الشريف الزيدي فوصل الزيدي إلى صنعاء وكان قد خرج إلى مغاربها وأمر محمد بن القاسم بن علي[3] أن يدعو إلى نفسه فبلغت دعوته من ذمار حسين بن القاسم فأجاب بنقضها، فخرج الزيدي من صنعاء وأقام ابنه زيداً بصنعاء فحصن دروبها وعاد إلى ذمار فتعطلت صنعاء من السلطنة إلى سنة اثنتين وأربعمائة. ثم وصل الإمام الحسين بن القاسم إلى صنعاء في آخر سنة اثنين وأربعمائة وجعل أخاه جعفراً عليها فلم يستقم لجعفر بها أمر وحاربه أهلها وسط المدينة فاغار عليه أخوه الإمام فهدم دوراً لأهل صنعاء واستصفى أموالهم وعاد وترك أخاه فكتب أهل صنعاء الى الزيدي يستدعونه فقدم عليهم سنة ثلاث وأربعمائة. فخرج جعفر من صنعاء فلما قدمها الزيدي أمر بهدم دور الشيعة للإمام الحسين ثم قصد الإمام الحسين الزيدي إلى صنعاء بجمع من همدان وحمير فانهزم الزيدي في طريق الفج[4] ودخل الإمام الحسين صنعاء بعسكره وخرج في أفراس فلحقوا الزيدي في الحقل[5] فقتلوه فلما قتل

---

(١) قاعة قرية في البون الأعلى يسكنها خليط من حمير وهمدان وكانت معهداً علمياً شهيراً أنجبت كثيراً من قالة الأدب والشعر والفقه والأصول وأكثرهم علماً المطرفية: وكانت آهلة بالسكان ثم خربتها همدان ثم عادت إليها الحياة وكان أهلها قد قتلوا بعض أهل عبد الأكبر بن وهيب وكان سيد همدان في عصره فأذلَّ أهلها لهذا السبب فرأى بعض الصالحين في النوم سبعة رجال عليهم ثياب نظيفة في أولهم رجل بيده عصى قد أقبل حتى وقف على « ماجل » قاعة - السد - وأشار بعصاه الى القرية وقال:

ألا أيتها القرية إذا ما متّ أياماً ... فلا بد إله العرش أن يحييك أعواما
وإن يهلك أقواماً بما أولوك أقواماً ... وإن ينصر مظلوماً وإن يهلك ظلاما

فلم يلبث أن خرج الملك المعظم علي بن محمد الصليحي فقتل همدان وأذل بني وهيب. وكان قيس بن وهيب سيد همدان في عصره فقتله « بحاز. ودوخ البلاد » وكثيراً ما يقع فيها حوادث ذات بال في جميع أطوار التاريخ.

(٢) كثيراً ما يتردد هنا لفظ « المغارب » والمراد بها مغارب صنعاء كبلاد لاعه وحجة ومسور وبلاد شبام وغيرها.

(٣) هكذا في الأصل. وفي الخزرجي ما لفظه: فأمر ابنه محمد بن القاسم على أن يدعو لنفسه بالإمامة. فوصل كتابه من ذمار بالدعوة فبلغت الحسين بن القاسم فأجابه بنقضها، فليتأمل وليراجع المصادر التي لم تكن بأيدينا.

(٤) الفج هو في الجنوب الغربي من صنعاء بمقدار ميلين ويسمى فج عطان.

(٥) هو حقل صنعاء.

نهض ابن الزيدي في جمع عظيم من مذحج فهزم ثم استمد بعنس واستمد ابن مروان [1] بابن زياد [2] صاحب زبيد فأمده بأموال فوصل ابن الزيدي وابن مروان إلى الهان فكادوا أن يستولوا على ابن أبي الفتوح فاستمد بالإمام فسار اليه بجيوش عظيمة فلما قاربها الإمام، انفض من معها وهرب ابن الزيدي وابن مروان خفية فاستولى الإمام على أموالها [3] ثم عاد إلى صنعاء وقد خالف عليه المنصور بن أبي الفتوح وخالف بخلافه بنو شهاب وجماعة فنهبوا دار الإمام واستمد ابن أبي الفتوح بابن زياد فأمده بمال وخرجت الشيعة من صنعاء وجمع الإمام عسكره فقاتلوه وهزموه وأعاد الناس أبا جعفر أحمد بن موسى بن قيس بن الضحاك على إمارة صنعاء وأقام بها إلى سنة أربع وأربعمائة وجمع الإمام جمعاً عظيماً وجمع ابن الضحاك سائر القبائل المخالفة على الإمام وسار بهم الى ذي بين [4] فانهزم الإمام الى الجوف [5] فعلمت به همدان فقتلوه بعد حرب شديدة في صفر سنة أربع وأربعمائة. وفي جهلة الشيعة من يقول إنه حي لم يقتل وانه المهدي المبشر به [6] وأما أئمة أهل البيت

---

(١) كان بنو مروان ملوك اشيح والهان واستمروا إلى أيام الملك المعظم علي بن محمد الصليحي حيث ضمهم تحت لوائه وفي كنفه.

(٢) اسمه عبد الله وهو الذي كفله، ومولاه مرجان وسيأتي ذكره.

(٣) قال في الأنباء: «واستولى على مائتي فرس وقد كان بعض البلاد خالفت عليه فلما عاد فعل بهم أفعال الطغاة إذ قبض على مشايخهم وصلبهم منكسين وألزم جماعة منهم بالجزية وقبضها منهم وسار إلى صعدة فخرب دربها وولاها أخاه جعفراً» تأمل أيها القارئ.

(٤) قرية من همدان ثم من حاشد من بني جُبَر ثم من وادعة في القديم. تتكون من بيوت صخرية وبها مسجد جامع. وتقوم بين هضبتين كبيرتين. ومناخها حار في الصيف. وتقع في الشمال الشرقي من ريدة وبها كروم ذات حلكٍ وحلاوة وهو المشهور بالعنب الجبري.

(٥) الجوف أحد أودية اليمن وميازيبه الشرقية التي تصب فيه أربعة أودية عظام. ويقع شمالي صنعاء بمسافة يومين أو ثلاثة أيام. راجع صفة جزيرة العرب.

ونسب إلى حمار بن نصر الأزد وكان له بنون فماتوا فحلف ليميتن من أحياه الله من أهل الجوف فلا زال يقتل منهم حتى أفناهم فقالوا: أخلا من جوف حمار، وأكفر من حمار.

(٦) مرجع ذلك إلى الكلمة المخدرة التي ألقاها جعفر بن القاسم أخو الإمام الحسين في حفل من الأشراف ثم سرى التخدير إلى البله وضعفة النفوس وسذج العامة حتى صارت عقيدة عند أكابرهم ليحفظوا مركزهم من التداعي والانهيار وإليك نص كلام المؤرخ ابن أبي الرجال في ترجمة ابراهيم بن المحسن قال، رحمه الله:

إن الأشراف اجتمعت وسائر الناس إلى طلحة الملك من ناحية الجراف من ظاهر بني صريم. وهم لا يرون إلا أن الحسين قد قتل بذي عرار فعزوه إلى أخيه علي بن القاسم والأشراف لم ينصرفوا حتى أقبل أخوه الأمير جعفر بن القاسم بن علي من بلاد خولان فلما تلقاه الأشراف معزين غضب وقال لا يكون =

فمجمعون على أنه اختلط عقله في آخر عمره وكان من أفصح الناس وأعلمهم ولم يبلغ عمره ثلاثين سنة وسار ابن أبي حاشد إلى صنعاء بعد قتل الإمام الحسين بن القاسم ولم يتم له أمر مع همدان.

وتعطلت صنعاء من السلطنة الى سنة خمس ووصلها أبو جعفر بن الضحاك فأقام بها سنة ثم خرج منها وتعطلت من السلطنة الى سنة ثمان وأربعمائة وراجعت همدان أبا جعفر بن الضحاك في الرجوع إلى الأمر فأجابهم ثم وصل الشريف جعفر بن الإمام قاسم أخو الإمام الحسين بن القاسم بن علي من صعدة فاستدعته همدان وحمير فسار إلى صنعاء فدخلها سنة ثلاث عشرة وأربعمائة.

ثم وصل صعدة وقد كان ذعفان وابن أبي حاشد مخالفاً عليه عند مسيره إلى صعدة. ودخل صنعاء ثم وقع الخلف بين ذعفان وهمدان وابن أبي حاشد. فاستدعوا جعفر بن الإمام القاسم فأدخلوه صنعاء وأقام بها مدة يحارب ذعفان وابن أبي الفتوح.

وفي سنة ثمان عشرة وأربعمائة ظهر إنسان بناعط [1] ولم يعرف الناس باسمه وذكر أنه يتسمى عند ظهور رايته من المشرق وسار إلى مأرب وبها عبد المؤمن بن أسعد بن أبي الفتوح فتلقاه بالبشر وسطر كتبه الى النواحي يقول فيها: من عبد الله المعيد لدين الله الداعي إلى الله الدامغ لأعداء الله [2] وأنفذها إلى سائر النواحي. فبلغ القائد مرجان الحبشي صاحب

إن شاء الله ومال بوجوه أهله وبوجوه الأشراف ناحية ولامهم على الاعتراف بقتل الحسين. وقال: بمثل هذا القول تلاقون الناس «إن همدان وكرنا فإذا نسبنا إليهم قتله ونقمنا بالثأر لم يصلح وإن تركناه لحق النقص فأظهروا هذا».

أي أنه المهدي المنتظر المبشر به وأنه شبه لهم قتله حتى قال الشريف فليته من شعر له:

أنا شاهد لله فاشهد يا فتى ... بفضائل المهدي على فضل النبي

وبسبب هذه الدعوى العريضة الكاذبة نشبت المعركة الكلامية المشهورة بالنقائض بين الإمام نشوان الحميري وبين الأشراف القاسميين حيث قيل على لسانه. راجع عمارة بإخراجنا.

(١) ناعط أشهر محافد اليمن.

(٢) هو أحد الهابطين شذاذ الآفاق الذين تقاذفت بهم البلاد ولفظتهم الأرض ورمت بهم أم قشعم الى أرض صالحة لكل نبات وأمة بلهاء تسودها الفوضى وتتلاعب بها الأهواء حيث الجهل ضارب أطنابه، والفقر كاشر أنيابه يتناحرون فيما بينهم والسلطان بيد غيرهم فقادهم من قبل ميولهم وأتاهم من حيث يجهلون والحال أنه مدخول في نسبه متهم في دينه جاهل في معلوماته فتارة يقال عنه انه أبو القاسم محمد بن عبد الله بن علي بن محمد بن ابراهيم بن موسى بن جعفر الصادق. وتارة يروى أنه من أهل «الري» وحيناً يخبر عنه أنه حبس بمصر هو وعلي بن محمد التهامي الشاعر المشهور واعتقلا معاً في خزانة البنود التي فيها المثل المشهور بين المصريين «خزانة البنود داخلها مفقود والخارج منها مولود»، فدرس =

الكدرا قيام عبد المؤمن معه فغضب على المنصور بن أسعد وأعاد كتبه مختمة. فغضب

= المعيد مذهب الباطنية وخرج داعياً إلى مذهبه وهو أول من قدم برسائل إخوان الصفا إلى اليمن. إلى غير ذلك من التلفيقات. ومما يدل على جهله وغباوته أنه لما دخل صنعاء في قوة سلطانه جاء الناس يستفتون الإمام العلامة تبع بن المسلم الحميري عن مخالطته وهل هو إمام حق وسألوه أن يجتمع به فامتنع وقال لهم اطرحوا عليه مسائل كذا وكذا عينها لهم فإن أجاب عنها فهو عالم. فلما وقف عليها المعيد وطالبوه بالجواب اعتذر بعدم القرطاس فأحضروه فاعتذر بعدم الدواة فأحضروها فقال سما قتات والله لئن ظفرت به لأخرجن لسانه من قفاه فتخوف منه «تبع» وسكن بجبل صليل بالبون فكان المعيدي يتقرب إليه أن يخالطه فأبى وعوّل على السلطان يحي بن أبي حاشد بن الضحاك أن يتوسط فقال له يحي وما تخوفك من تبع إنما هو متخلي والعجب منك تدخل صنعاء بعشرة آلاف سيف ثم تخاف منه، وكان لا يزال ينشد «والبلاء موكل بالمنطق» هذين البيتين:

البـــــدر في داركـــم يغيـــــب وعنـــدكم يقتـــل الغـــريـــب
يـــا قـــوم في داركـــم سقـــامـــي وعنـــدكم يـــوجـــد الطبيـــب

فقتل غريباً كما قال: وقد روى هذا الشعر:

يـــا قـــوم قـــد كـــان لي حبيـــب وهُـــو مـــن نـــاظـــري قـــريـــب
حتى قـلانـــي وخـــان عهـــدي فـــالموت مـــن دون ذا يطيـــب
أحـــــب في داركـــم ثلاثـــــاً النـــاي والعـــود والقضيـــب

وكان كثيراً ما يتمثل:

لـولا لما كـان يلقـى كـل ذي خطـل للعلم منتحـــل بين النحـــاريـــر
لم أشـــد على مـــن لا يقـــوم بها مـــن وقعـــة السمـــر والبيـــض المبـــاتير

وكان ينشد:

نهـــج الهدايـــة واضـــح لمريـــده والنـــاس عـــن نهج الهدايـــة في عمـــي
ولقـــد عجبـــت لهالـــك ونجاتـــه مـــوجـــودة ولقـــد عجبـــت لمن نجـــا

وروى الإمام نشوان بن سعيد الحميري أن المعيدي المذكور كان واقفاً بالمنقب قبل دخوله صنعاء وكان يأتيه رجال الزيدية فيدنيهم. ويأتيه رجال الباطنية فيقصيهم ثم ينشد:

ألا رب نصـــح يغلـــق البـــاب دونـــه وغش إلى جنـــب السريـــر يقـــرب

وروى أنه كتب إليه بعض أهل صنعاء كتاباً فيه مسائل فاستحسنه فقال مجيباً في ظهر الورقة:

كتـــابـــك أعمـــى لا المعـــاني مبينـــة ولا اللفـــظ مفهـــوم ولا الخط واضـــح
تلبس حتى كـــل مـــا فيـــه مشكـــل وهجّـــن حتى كـــل مـــا فيـــه فـــاضـــح

وكتب المعيدي من هران ذمار كتاباً إلى صنعاء فأجابوه بخط اسماعيل بن محمد الأصبهاني فشابه خطه خط المعيدي وكتب في ذيل كتابه فحلف إن ظفر به ليقطعن يده. فلما دخل صنعاء وصل إليه اسماعيل بن محمد وقال: يا ابن رسول الله روي في الحديث عنه ﷺ قال: تشبهوا بالصالحين من أهل بيتي فإن كنت منهم فقد تشبهت بك وإن لم تكن فهذه يدي فاقطعها فقال بل منهم فصفح عنه ـ مطلع البدور لابن أبي الرجال.

المنصور وكتب إلى سبأ [1] أن تنهض مع الإمام وأخيه عبد المؤمن فساروا إلى مسور [2] فلقيهم المنصور في جيش عظيم فدخل الإمام صنعاء سنة ثماني عشرة وأربعمائة ثم خرج الإمام إلى هران سنة إحدى وعشرين لمكاتبة عنس له فتعامل عليه قوم فقتلوه في ذي الحجة من السنة المذكورة وفي هذه السنة اشتد القحط باليمن الى سنة اثنتين وعشرين و صنعاء خالية من السلطنة إلا أن لبني مروان بعض الأمر.

وفي سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ظهر الإمام أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن [3] إماماً ومعه ولده حمزة الذي ينسب إليه الأشراف الحمزيون فقصد صنعاء فهرب منه ابن أبي حاشد ووصله المنصور بن أبي الفتوح فبايعه واستقوى الشيعة على السنية [4] فأقام أمر الإمام أبي هاشم إلى سنة تسع وعشرين. ثم خالفت عليه همدان فدخل ابن أبي حاشد صنعاء ثم خرج منها فتعطلت من السلطنة الى سنة إحدى وثلاثين واستدعت همدان جعفر ابن الإمام القاسم بن علي فدخل صنعاء في السنة المذكورة فافترقت همدان عليه وعلى ابن أبي حاشد. وكان الأكثر مع ابن أبي حاشد فخرج جعفر من صنعاء الى علب [5]. وانهزم منها ثم بعد

---

(١) أي قبائل سبأ هي الضاربة بمأرب.

(٢) مسور هذا هو مسور خولان العالية المشهورة بالعنب البياض الذي قيل فيه المثل العربي الحميري « أحلك الأرض مسور، وأختها بتوعر، وأحور فأحور. وسعوان لو تمطر » ويقع في شرق صنعاء بمسافة يوم وهو من كرائم أودية اليمن وأطيبها تربة وأجودها إنتاجاً وأكثر حقوله مغروس بالفواكه الجنية والحدائق الباهرة تسقيها آبار من معين. حكى الخزرجي في تاريخه أن معن بن زائدة لما مر بوادي مسور غازياً حضرموت عظم في عينيه ورأى من جرين الزبيب ما حمله أن يوصي نائبه أن لا يقبل منهم إلا عشرة آلاف ذهباً. فلم يزالوا به حتى حط لهم ألفاً ذهباً بنوا به مسجدهم.

(٣) هو أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم بن ابراهيم الرسي فهو من ولد أخي الإمام الهادي للحق.

لم تهدنا المصادر التي بين أيدينا أين ولد وكيف نشأ. ولا من أين أتى وكيف مهد للخلافة السبيل وخاض معركة الإمامة حتى تربع على دستها لينقذ الإنسانية من الظلم والعسف داعياً إلى الله أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر سالكاً سبيل آبائه الطاهرين الذين قد مر ذكرهم في هذا الفصل وسيأتون في غضون التاريخ، إلا أني وقفت أخيراً أنه وصل من الحجاز إلى ناعط وادعى الإمامة كما أني لم أقف على تاريخ وفاته وكيف كان مصير أمره.

(٤) قد تقدم بيان الفرقة المسماة بأهل السنة. أما الشيعة فهي طائفة أغرمت بحب أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه وتعصبت لأبنائه. وهي في الحقيقة في بادئ الأمر أمرها سياسي. وأول منشئها أبناء فارس.

(٥) ويقال لها حمرا علب. وتقع في الجنوب الشرقي من صنعاء بمسافة ميلين وبها قبر الحافظ الحجة عبد الرزاق الصنعاني. قال الملك تبع الكامل لما غزا مكة واصفاً كثرة جنوده: =

حروب شديدة استدعت همدان جعفر بن القاسم الى صنعاء بأمر ابن أبي حاشد فوصلها. وكان تارة يجبي الأموال وتارة تضعف. ثم إن ابن أبي حاشد كره مقام جعفر بصنعاء فعامل عليه من أخرجه منها واستدعى ابن أبي حاشد الإمام أبا هاشم فدخل صنعاء فأقام بها يسيراً ثم خرج وولّى عليها والياً ولم تزل صنعاء خالية من السلطان إلى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة فوصل الإمام أبو الفتح بن ناصر الديلمي[1] مدعياً للإمامة وصار في البون مع همدان وجمع العساكر بصعدة ونهبها وخرب بها دوراً وقتل من خولان[2] مقتلة عظيمة. ثم رجع فدخل صنعاء وكان قد دخلها قبله ابن أبي الفتوح وابن أبي حاشد فنصر الشيعة على السنية وقبض الإمام أبو الفتح في صنعاء الزكاة والأخماس وتم له الأمر وأقام بذيبين إلى سنة ثمان وثلاثين. فوصل ابن أبي الفتوح فبنى له في علب قصراً وكتب إلى عنس فأطاعه منهم مائة فارس. واستدنى له أيضاً جعفر بن الإمام القاسم فجعله أمير الأمراء وصرف له ربع ما يحصل للإمام. ثم فسد الأمر بينهما ولم يتم. ثم تمالأ جعفر بن الإمام وابن أبي حاشد على حرب الإمام أبي الفتح وخرجا من صنعاء فأمر الإمام بخراب دور بني الحارث ودور بني مروان فغضب ابن أبي الفتوح وابن ابي حاشد لذلك ودخلا صنعاء ورفعا أيدي ولاة الإمام

= أولهم في زمـــزم شــــارب   وآخـرهـم في حمرا علـب هـاذل

وعلب بفتح العين المهملة وكسر اللام آخره باء موحدة، وبها قلعة وجامع قد تشعثا.

(١) كذا في الخزرجي، والذي في تواريخ الأئمة أنه الإمام أبو الفتح الناصر بن الحسين بن محمد بن عيسى بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن ابي طالب المعروف بالديلمي.

يقال إن مولده ونشأته بقرى الديلم من بلاد إيران. وأنشأ دعوته هناك ولكن لم تصادف رواجاً فجاء اليمن ونزل صعدة في شوال سنة ٤٣٧ هـ. ليطهر البلاد ويريح العباد من درن الظالمين ويعيد للدين الحنيف جدته. فنشر الدعوة والتف حوله أوزاع من الناس وثار بهم على درب صعدة فأخربه ونهب وسلب بعض أهلها. ثم لم يزل ينتقل في مراكز اليمن حسب ما شرحه في الأصل. ولما ظهر الملك المعظم علي بن محمد الصليحي. وعلا شأنه وقهر من ناوأه وطغت شخصيته على المتغلبين، كان الإمام أبو الفتح ممن ضاقت بهم البلاد ذرعاً فلم تقله أرض في نظره ولا أظللته سماء إذ طارده الصليحي وأخذ يلاحقه حتى قتله بنفسه بردمان ذمار المسمى اليوم قاع الديلي وذلك سنة ٤٤٤هـ. وقيل سنة ٤٤٦ وقيل سنة أربعين وأربعمائة وقيل غير ذلك وهذا يحتاج إلى بحث. وله مؤلفات منها البرهان في تفسير غرائب القرآن، فيه غرائب التفسير وحمل بعض آي القرآن ما لا تحتمله وله ذرية صالحة أخيار وأكابرهم علماء أثبات أهل سنة وجماعة وأحد أعلامهم له الفضل بإدخال كتب السنة إلى مدينة ذمار في الزمن الأخير لتدرس علناً وجمهرتهم بمدينة ذمار وفيهم اليوم الكثير الطيب.

(٢) المراد بها خولان صعدة وكانت الموقعة في «مجز» التي تبعد عن صعدة شمالاً بأربعة فراسخ أو أكثر.

فطردا الشيعة من الجامع ومكنا منهم أهل السنة وقطعا اسم الإمام عن الخطبة فخرج هارباً من علب الى الجوف ثم رجع الى بلد عنس ووصلها جعفر بن الإمام فأقاموا في صنعاء مدة وتوفي السلطان يحيى بن أبي حاشد أول سنة أربعين وأربعمائة. وأغلقت أبواب صنعاء ولم يتبايع الناس ثلاثة أيام. ووصل المنصور بن أبي الفتوح في مائة فارس معزياً فيه إلى همدان فأقام الناس ابنه أبا حاشد وحلفت له همدان.

وفي ليلة الاثنين الثالث من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وأربعمائة[1] وهي ليلة قران المشتري ظهر علي بن محمد الصليحي في اليمن واستولى عليه في أقرب مدة وسنذكر في هذا الفصل الآتي ما لا بد منه من أخبار الصليحيين باليمن إن شاء الله.

الفصل الثامن

في ظهور الدولة الصليحية

قال الإمام أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي: أجمع المؤرخون والإخباريون من أهل اليمن أن القاضي محمداً والد علي بن محمد الصليحي[2] كان فقيهاً سني المذهب حسن السيرة

---

(١) هذا على أصح الأقوال وأثبتها إذ سير الحوادث المسرودة آنفاً تقضي بهذا وهو كلام المؤرخ المعاصر ابن حماد المعافري في كتابه كشف أسرار الباطنية حيث قال: وكان طلوعه ـ أي الصليحي ـ ليلة الخميس من جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة.

وقال ابن سمرة في طبقاته، وهو قريب من أيام الصليحيين: وكان قيام الصليحي في شوال سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، وظهور سعيد بن نجاح الحبشي من زبيد يوم الأربعاء السابع من ذي القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة. فقتل علي بن محمد الصليحي وأخويه عبد الله وابراهيم يوم السبت العاشر من هذا الشهر المؤرخ به وكانت إمارته عشرين سنة.

فأنت ترى اتفاق كلمة المؤرخين المذكورين على نفس السنة التي ظهر فيها الصليحي ولا يهمنا اختلاف اليوم والشهر فلعل ذلك يرجع إلى الرواة وكثيراً ما يقع هذا في الحادثة الواحدة.

وقال ابن الأثير في حوادث سنة ست وأربعين وأربعمائة: وفيها ظهر باليمن إنسان يعرف بأبي الكامل علي بن محمد الصليحي. واستولى على اليمن وكان معلماً فجمع إلى نفسه جمعاً وانتمى إلى صاحب مصر وتظاهر بطاعته فكثر جمعه وتبعه. واستولى على البلاد وقوي على ابن شاول وابن الكرندي المقيمين بها على طاعة القائم بأمر الله وكان يتظاهر بمذهب الباطنية.

قلت ولعل ظهور الصليحي سنة ٤٤٦ هـ. هو الظهور الكامل الذي قضى على آخر منافسيه من أقيال اليمن. وهو ابن الكرندي بالمعافر وابن شاول بثغر عدن.

(٢) قال الملك الأشرف الرسولي في كتابه «طرفة الأصحاب» هو علي بن محمد بن علي بن يوسف =

مرضي الطريقة مطاعاً في أهله وجماعته. وكان الداعي سليمان بن عبدالله الزواحي[1] يلوذ به ويركب إليه كثيراً لرياسته وسؤدده وصلاحه وعلمه فرأى يوماً ولده علياً فلاحت له فيه النجابة، وكان يومئذ لم يبلغ الحلم وكان إذا وصل إلى أبيه يخلو به ويحدثه ويطلعه على ما عنده حتى استماله وغرس في قلبه من علومه وأدبه محبة مذهبه. ويقال إن الداعي كان عنده كتاب «الصور» وهو من الذخائر القديمة فأوقفه منه على ما يكون من حاله، وشرف ماله سراً من أبيه وغيره، ثم لما احتضر الداعي أوصى بجميع كتبه له وأعطاه مالاً جزيلاً كان قد جمعه من أهل مذهبه، وكان قد رسخ في ذهن الصليحي ما رسخ، فعكف على الدرس، وكان ذكياً ولم يبلغ الحلم حتى تضلع في معارفه التي بلغ بها غرضه. فكان فقيهاً في مذهب الإمامية متبصراً في علم التأويل، ثم صار يحج بالناس على طريق السراة[2] نحو خمس عشر سنة. وكان قد شاع عند الخاص والعام أنه يملك اليمن بأسره، ويكون له شأن فكان يكره أن يقال له ذلك، فلما كانت سنة تسع وثلاثين[3] وأربعمائة ثار في رأس مسار[4] وهو أعلى جبل هناك ومعه ستون رجلاً قد حالفهم في مكة في السنة التي قبلها على الموت أو الظفر لقيام الدعوة وكل منهم في عزة ومنعة من قومه ولم يكن في الجبل يومئذ بناء إنما هو قلة

= ابن عبد الجبار بن الحجاج الصليحي الحجوري الهمداني. نسب إلى موضع يسمى صلاحه بالأخروج «الحيمة» قرب حراز لا تزال عامرة إلى يومنا هذا. وأما اتصال نسبهم بعد الحجاج إلى قحطان فلا يوجد مفصلاً ثم عدد أولاد علي بن يوسف ومن تملك منهم ومن له بقية إلى عصره سنة ٦٩٣ هـ.

قلت ولهم بقية إلى هذه الغاية سنة ١٤٠٨هـ ألف وأربعمائة وثمان وفي قرية المريس ببعدان بيت يسمون بني الصليحي، وبني البتول.

(١) كان في الأصل عامر بن عبد الله الزواحي. كذلك في الخزرجي والتصحيح كما سبق، ومن كشف أسرار الباطنية الذي هو أقدم مصدر لنا.

(٢) جبال السراة هي ما تسميه العامة اليوم «ساق الغراب» لأنها فحمية اللون تشبه ساق الغراب في الانتصاب والاتساق والسواد عندما ترى من بعد. وهي جبال متقاطرة آخذ بعضها برقاب بعض. وتبتدئ من قعرة المعافر وتنتهي بجبال الطائف ثم إلى جبال لبنان والشام مأخوذة من سراة الظهر وهي فقراته. وسراة الأديم. راجع صفة جزيرة العرب. ومن غريب ما وقع لي أني كنت مجتازاً ببلد ذي عين ثم آل عمار، إذ مررت برجل فتاقت نفسي إلى سؤاله عن اسم الجبال التي أمامي. فقلت له ما اسم هذه الجبال؟ فأجابني في الحال هذه السراة. فكان فرحي لذلك عظيماً حيث لا تزال هذه الكلمة حية. ومن حيث كان هذا الجواب خلاف ما أترقب إذ كنت أطلب منه اسم العلم منها والحصون التي فيها.

(٣) كان في الأصل تسع وعشرين وأربعمائة. وهو كذلك في الخزرجي فصححناه لما تقدم إيضاحه.

(٤) مسار بفتح الميم والسين المهملة وآخر الحروف راء، واقع في بحبوح مخلاف حراز من جباله الشامخة المنيفة ذو الخصب والريف والقرى الكثيرة التي كل واحدة منها أشبه بحصن وحامية للأخرى.

عالية. فلم ينتصف النهار الذي ملكها فيه إلا وقد أحاط به عشرون ألف سياف فحصروه وشتموه وقالوا إن نزلت إلينا وإلا قتلناك، ومن معك. فقال إنما فعلت هذا خوفاً أن يملكه غيركم فإن تركتمونا نحرسه لكم وإلا نزلت فانصرفوا عنه وتفرقوا ولم يمض شهر إلا وقد بناه وحصنه ودربه، ولم يزل شأنه يظهر شيئاً فشيئاً حتى استفحل أمره ووصله الشيعة من أنحاء اليمن وجمعوا له الأموال الجزيلة فاظهر الدعاء إلى المستنصر معد بن الظاهر العبيدي، فلما ظهر بمسار وكان معه جمع كثير فحصره جعفر بن الإمام القاسم بن علي المذكور أولاً وسار معه رجل اسمه جعفر بن العباس شافعي المذهب في ثلاثين الفاً كان مجاباً في مغارب اليمن الأعلى فأوقع الصليحي بجعفر فقتله وقتل جمعاً من أصحابه [1] ثم سار الصليحي الى صنعاء فملكها وطوى اليمن سهله ووعره وبره وبحره في مدة قريبة وهذا لم يعهد في جاهلية ولا إسلام [2] وكان قتله لجعفر في شعبان من السنة المذكورة وقبل أن يسير إلى صنعاء استفتح جبل حضور [3] وأخذ حصن يناع [4] فجمع له ابن أبي حاشد جمعاً والتقوا بصوف وهي قرية بين حضور وبلد بني شهاب [5] فقتل ابن أبي حاشد وألف رجل من أصحابه. وبهذه الوقعة يضرب المثل. فيقال قتلة صوف.

---

(١) المقتول هو جعفر بن العباس. أما جعفر بن الإمام القاسم فقد لاذ بالفرار وفضل الهزيمة على المصابرة حيث صار فيما بعد في قبضة الهزبر الملك علي بن محمد الصليحي في وقعة صيد البزار من البون. وظل أسيراً في مسار فترة من الزمن ثم سرحه ومن عليه بعد أن حمله العهود وأكد عليه العقود أن لا ينصب له حرباً ولا يحارب له حزباً فوفى بعهوده وغيب نفسه بأن صار إلى الحجاز ومكث بها ثم عاد وعاش لائذاً بحظوة الملك الأشم علي محمد الصليحي في سعادة إلى أن مات بصنعاء في سنة خمسين وأربعمائة وقبر بمقابر الصليحيين.

(٢) راجع عمارة باخراجنا.

(٣) قال لسان اليمن الهمداني: هو جبل عظيم البركة ولا يزال متعصباً بالغمام ولم ينزل الثلج على جبل باليمن إلا عليه ومسجده اليوم في رأس جبل حدة حضور وعنده معين ماء ولا يزال الناس يزورونه ويصلون فيه ويسمى رأس الجبل «بيت خولان» وفيه قصور مشيدة بالسقوف العجيبة والأبواب الحريزة والأغلاق المحكمة. وقومه من قح حمير. قلت: وهذه الأوصاف لا تزال فيه إلى هذه الغاية إلا القصور فلا وجود لها بتلك الصفة.. ويقع غرب صنعاء بنصف يوم.

ونسب إلى حضور بن عدي من ولد حمير الأصغر، وقد يسمى جبل النبي شعيب عليه السلام لأنه بعث إليهم وفي ذلك خبر طويل. وهو غير شعيب مدين.

(٤) يناع بالياء المثناة التحتانية والنون والألف والعين المهملة. حصن من أعمال الأخروج «الحيمة» الواقعة في مغرب صنعاء.

(٥) قرية صوف هي اليوم خراب ولعلها من زمان بعيد وتقع قرب قرية يازل في بني سوار من بني =

ومن أخبار الصليحي أنه خطب يوماً على منبر الجند وقال في مثل هذا اليوم نخطب على منبر عدن إن شاء الله تعالى. ولم يكن ملكها حينئذ فقال بعض الحاضرين مستهزئاً: سبوح قدوس، فأمر الصليحي بحفظ الرجل، فلما كانت الجمعة الثانية خطب على منبر عدن فقال الرجل: سبوحان قدوسان وتغالى في القول ودخل في مذهبهم.

وفي سنة إحدى وأربعين هبت ريح شديدة بشبام حمير فاقتلعت شجر الفرقوق بأصوله وحملت الكلاب وكانت تنبح في الهواء. وكان الصليحي يدعو للمستنصر العبيدي ويخاف نجاحاً صاحب زبيد وكان يتلطف له ظاهراً وهو يعمل الحيلة في قتله بالسم على يد جارية أهداها إليه سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة بالكدرا [1] وفي سنة ثلاث وخمسين كتب الصليحي إلى المستنصر العبيدي يستأذنونه في إظهار الدعوة ووجه إليه هدية جليلة منها سبعون سيفاً قوائمها من عقيق. وبعث مع الهدية رجلين من قومه أحمد بن محمد والد السيدة وأحمد بن المظفر والد السلطان سبأ بن أحمد فقبل المستنصر هديته وأمر له برايات وكتب عليها الألقاب وعقد له الألوية وأذن له في نشر الدعوة. فلما أذن له سار إلى التهايم فافتتحها. وكان نجاح قد مات كما ذكرنا ولم تمض سنة خمس وخمسين وأربعمائة إلا وقد ملك من مكة الى حضرموت [2] سهلاً وجبلاً فامتنعت عليه صعدة بعض التمنع بأولاد الناصر، ثم إنه لما

= مطر بني شهاب على محجة صنعاء الغربية. وكانت وقعة صوف في شهر ربيع الأول سنة ٤٤٤ أربع وأربعين وأربعمائة.

وليست وقعة صوف وحدها هي التي مهدت السبيل للملك علي بن محمد الصليحي ليقضي على آخر تاج من تيجان اليمنيين. بل كانت له وقعات منكرة وأيام عظيمة. ولم تخضع اليمن إلا بعد عراك شديد وحروب لا ينادي وليدها بل الذي مهد له السبيل واختصر له الطريق حتى أصبح اليمن في قبضته بتلك السرعة الفائقة هو توالي الانتصارات التي كان يحرزها بين فترة وأخرى بحيث إنه لم تكسر له راية.

ومن أيامه المذكورة: يوم الهرابة، ويوم حاز. ويوم الزرائب. ويوم السمدان. ويوم ريمة المناخي ويوم ذروة الذي يقول فيه:

وطالعت ذروة منهن عادية ... وانصاعت الشيعة الشنعاء شرادا

ويوم بيش الذي يقول فيه شاعره ربيعة الجوبي:

قرنت إلى الوقائع يوم بيش ... فكان أجلها يوم السباق

راجع قصيدة الصليحي التي احتوت على وقائعه كلها.

(١) يقال إن نجاحاً واقع تلك الوصيفة. ولما انتهى من عمليته ورام أن يمسح مذاكيره بادرته تلك الوصيفة بمنديل قد لوثته بالسم وعلى أثره تناثرت مذاكيره وخرَّ ميتاً.

(٢) قال ابن الأثير في حوادث سنة ٤٥٥ هـ أربعمائة وخمس وخمسين، وفيها دخل الصليحي صاحب اليمن إلى مكة فأحسن السيرة فيها وجلب إليها الأقوات ورفع جور من تقدمه وهم الأشراف.

قتل القائم فيهم وملكها [١] واستقر ملكه في صنعاء وأخذ معه ملوك اليمن [٢] الذين أزال ملكهم وأسكنهم معه واختط بصنعاء عدة قصور [٣] وولى أسعد بن شهاب [٤] التهايم بعد أن حملت له أخته أسماء بنت شهاب مائة ألف دينار. وكان قد حلف أن لا يولي تهامة إلا من

= وظهرت منه أفعال جيلة. وقال في حوادث سنة ٤٥٩ هـ أربعمائة وتسع وخمسين في ذي القعدة قتل الصليحي أمير اليمن بمدينة المهجم قتله أحد أمرائها وأقيمت الدعوة العباسية هنالك وكان قد ملك مكة على ما ذكرنا سنة خمس وخمسين وآمن الحجاج في أيامه فأثنوا عليه خيراً وكسا البيت الحرير الأبيض الصيني ورد حلى البيت وكان بنو حسن قد أخذوه وحملوه الى اليمن فابتاعه الصليحي منهم.

فأنت ترى كيف أنصف الصليحي المؤرخ النزيه على ما بينهما من تباين في العقائد.

(١) لم أظفر على اسم القائم الذي كان بصعدة ولا متى كان دخول الصليحي إليها والأمل عظيم على العثور على تواريخ لهذه الدولة وما ذلك على الله بعزيز.

(٢) هم بنو السخطي أشراف حمير أهل منكث والاتبوع ملوك بعدان وما ناوحها والكلاعيون ملوك وحاظه. وبنو العتمي الحميريون ملوك عتمه. والشراحيون ملوك وصاب. والحواليون أقيال شبام وملحقاتها وكحلان. والهيانم أمراء التعكر. وبنو مروان زعماء أشيح والهان، وآل أبي الفتوح سلاطين خولان العالية. وآل الروية سلاطين مذحج. وآل الضحاك ملوك حاشد. وابن شاول صاحب عدن. وآل الكرندي مقاول المعافر. وبنو معن الآصبحيين ملوك لحج وحضرموت. وغيرهم ممن كانت لهم إمارة ومقاطعة ومخاليف.

(٣) كانت من أروع القصور وأبدعها على الطراز اليمني القديم النفيس. وقد قاومت عاديات الحوادث زمناً غير يسير. حتى ملك صنعاء من طمس معالم من قبله ومحا آثارهم فدك بناءها ودمر دورها. حتى قيل إن أكثر بيوت صنعاء كانت من تلك الأنقاض ولا أدري أين كانت مواقعها من العاصمة صنعاء.

(٤) هو الأمير الأفخم أسعد بن أحمد الذي يلقب شهاباً ابن الأمير علي بن يوسف بن عبد الجبار بن الحجاج الصليحي. فهو ابن عم الملك علي بن محمد الصليحي وصهره.

كان من كملة الرجال وأفذاذهم جيل المذهب ميمون النقيبه محمود الشمائل محباً للخير كثير الفضل حسن الهدى مثال النزاهة والعفة. طلق الوجه سمح اليدين. وهو أحد الدعائم القوية التي ثبتت قواعد الدولة الصليحية وله أخبار كثيرة.

من ذلك ما يرويه عن نفسه قال: سكنت في دار سحار بن جعفر مولاي محمد بن زياد فاستلقيت يوماً على ظهري سنة ثمان وخمسين وأربعمائة. أفكر في أمري وأقول إن الصليحي ولاني زبيد وهو يرى إبراهيم بن الزواحي وفلان وفلان من الملوك ووجدت في نفسي شيئاً من الدخول تحت منة أسماء وكرهت ظلم أحد فغفوت فإذا بتراب ينثر على وجهي من السقف فكشفت السقف فوجدت صناديق بين سقفين وفيها من الصامت والذخائر ما يزيد على ثلاث مائة ألف دينار فتصدقت بثلثها وسيرت ثلثها إلى مولاتي أسماء وتأثلت أموالاً بالثلث الثالث وعاهدت الله تعالى لا ظلمت أحداً من خلقه أبداً فأقمت والياً خمس عشر سنة لم يتعلق بذمتي شيء منها إلا ما لم أعلم. وكانت وفاته سنة ٤٨٢ هـ على قول، وسنة ٤٥٦ هـ على قول آخر.

حملها إليه ثم ندم على يمينه. فلما حملتها إليه قال يا مولاتنا أنى لك هذا؟ قالت من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. فتبسم وعلم أنها من ماله وخزائنه فقبضه وقال هذه بضاعتنا ردت إلينا. فقالت له أسماء: ونمير أهلنا ونحفظ أخانا. فولاه مدينة زبيد فدخلها سنة ست وخمسين وأربعمائة. وأحسن سيرته لكافة الرعية وأذن لأهل السنة في إظهار مذهبهم وكان يحمل إلى الصليحي في كل سنة بعد أرزاق الجند وغيرها من الأسباب اللازمة ألف ألف دينار وعامل الحبشة ومن يتهم بالدولة بالصفح والإحسان حتى زرع محبته في قلوب الناس. وأقام الصليحي بصنعاء إلى سنة تسع وخمسين وأربعمائة[1] ثم توجه إلى مكة واستخلف ابنه المكرم على الملك[2] وسارت معه أسماء بنت شهاب أم ولده المكرم وكانت من أعيان النساء مقصودة يمدح بها زوجها وابنها. وكان الصليحي يكل إليها التدبير ولا يخالفها لكمالها ويجلها إجلالاً عظيماً وكانت لا تستر وجهها من الحاضرين وكان فيها من الكرم والحزم والتدبير ما لم يكن في غيرها[3] وفيها يقول الشاعر ابن القم قوله[4]:

قلت إذ عظموا لبلقيس عرشاً ... دست اسماً من ذرى النجم أسما

---

(١) على أصح الأقوال كما تقدم.

(٢) يقال إن الملك الكامل علي بن محمد الصليحي لما ودع الملك المكرم أوصاه بوصايا حكيمة. وفي ذلك الوداع يقول شاعر الملك عمرو بن يحيى بن أبي الغارات الهيثمي:

ما لمن فارق الأحبة عذر ... إن نهى دمعه عن الفيض صبر
إن سيف الإمام كالبحر ذي المو ... ج له في البلاد مد وجزر
ولئن ساءنا فراق علي ... فبأحمد ابنه لنا ما يسر
ذاك بحر سقى به مكة الله ... وهذا لِوَفْدِ صنعاء بحر

(٣) وكان لها من المناقب الجمة والمحاسن العظيمة ما يجل عن الوصف. وكان يخطب لها على المنابر فيخطب أولاً للمستنصر ثم للملك علي بن محمد الصليحي ثم لزوجته فيقال: اللهم وأدم أيام الحرة الكاملة السديدة كافلة المؤمنين.

ومن مآثرها الخالدة العديدة ما أبقته لها الأيام ـ المسجد الذي في ظاهر صنعاء أمام باب اليمن المعروف اليوم بمسجد الصعدي ـ ومسجد آخر أخربه بعض خصومهم.

ومن مكارمها ما روي أن أخاها أسعد بن شهاب أوفد إليها وإلى ابنها المكرم عامله أحمد بن سالم بارتفاع تهامة. فلما وصل بالمال فرقت على وفود العرب معظمه فنتف ابن سالم لحيته وقال تعبت في جمعه وصار هكذا فأنشدت:

إذا المال لم تصرفه في مستحقه ... فما هو إلا حسرة ووبال

ثم كتبت لأخيها بأن يحتسب لابن سالم من ارتفاع السنة المقبلة بعشرين الفاصلة وبراً ولها غير هذه المكارم. وكان وفاتها في سنة ٤٧٩ هـ تسع وسبعين وأربعمائة.

(٤) سيأتي ترجمة ابن القم قريباً. وفي عمارة إن قائل هذا الشعر شاعر الملك الخاص عمرو بن يحيى =

فلما أراد الصليحي التقدم إلى مكة[1] سار في خمسين ملكاً من ملوك اليمن وفي مائة وخمسين أو سبعين من آل الصليحي[2] وفي ألفي فارس من العسكر وبين يديه خمسمائة فرس مجنوبة عليها مراكب الفضة، وخمسمائة هجين عليها أكوار الفضة ومن الآلات ما لا يحصر. فلما نزل المهجم في ضيعة تعرف بأم الدهيم وبئر أم معبد خيمت عساكره حوله[3] فلما كان الثاني عشر من ذي القعدة لم يشعر الناس نصف النهار حتى قيل لهم قتل الصليحي فذعروا[4]

= ابن أبي الغارات الهيثمي من قصيدة أولها:

« حشمت بيضاء الأنامل حشما »

ومنها:

رسمت في السماح سنة جود لم تدع من معالم البخل رسما

(١) فسر هذه الغزوة أو القدمة إلى مكة صاحب كتاب « الصليحيون » بأنها لابتغاء حاجة في نفس الملك الكامل وهي تطهير نفسه من دنس الدنيا والقضاء على الفساد في الأراضي المقدسة وزيارة خليفته المستنصر.

وكل هذا يجوز. ولكن ثم سبباً أقوى من كل هذا وهو طموح الملك الكامل لغزو العراق التي كانت في حالة الاحتضار تلفظ النفس الأخير، وقد أصبح اسم المستنصر يدوي على منابر العراق وفي نفس عاصمة العباسيين. قال مسلم اللحجي: لما أراد علي بن محمد الصليحي الخروج للعراق برز جهازه من الأموال والذخائر إلى المسجد الجامع بصنعاء وملأ جانبه الذي عليه السقف من غربيه وشرقيه صناديق الذهب والفضة وجعله كالخزانة. وهذا يدل على أن الملك الكامل كان يرمي في قدومه إلى أبعد من مكة. فإن هذا الجهاز العظيم يبرهن على شأو المرتمى. وإنما ورَّى بمسيره إلى مكة ولم يعلم مقصده غير الخاصة.

(٢) وفي الخزرجي: تبعاً لعمارة: في مائة وستين أو سبعين من آل الصليحي خوفاً من أن ينافقوا أو يغيروا على ولده.. وفي الفيء فارس من العسكر.

(٣) في كتاب « الصليحيون » أن جيوش الملك الكامل من ذوي البأس والحفاظ قد تقدموا بعيداً عن مخيم الملك ولم يبق إلا في خاصته وإخوته وبعض عمومته الذين أبلوا بلاء عظيماً وتحزموا في سبيل الذود عن الحريم وحفظ البيضة. كما أنه كشف الستار عن خيانة العبيد.. فراجعه ففيه الرواية الثالثة عن الحادث المشؤوم.

(٤) لا شك أن المفاجأة بأمر جلل تهز ذوي الأحلام والنهى وتعصف بالعقول ولو كانت كالجبل الراسي وتطير لها القلوب شعاعاً وتحصل الدهشة والذهول وتتخدر الأعصاب ولا يدري ما يعمل تجاهها كما هو مشاهد حتى في أبسط الأشياء وقلما يثبت الشجاع في هذه المواطن فضلاً عن الجبان. وفي هذا الحادث الجلل استولى الوله على النفوس وتفشى القتل في المعسكر والسعيد من نجا بنفسه تاركاً البيضاء والصفراء لا سيما إذا كان قد داخلهم ما يقال له الإيحاء النفسي وهو الشعور بالضعف والهزيمة، ولم يثبت إلا القليل الذين انتضوا السيوف دفاعاً عن الشرف. راجع تاريخ عمارة بإخراجنا. قال المسلم في تاريخه، وأخبر عن ابن الضراب الصنعاني وكان من خدم الصليحي، قال: لما قتل الصليحي بالمهجم من =

وكان علي بن محمد الصليحي شاعراً فصيحاً من أعيان اليمن وسادات الزمن وأذكياء الملوك ودهاتهم[1]. ومن شعره قوله:

أنكحت بيض الهند سمر رماحهم ... فرؤوسهم عوض النثار نثار
وكذا العلا لا تستباح وصالها ... إلا بحيث تطلق الأعمار[2]

ولما قهر الملوك باليمن ألزمهم أن لا يفارقوا ركابه حيث كان بعد أن توثق منهم بالرهائن والأيمان المغلظة. وكان سبب قتل الصليحي أنه لما قتل نجاحاً بالسم على يد الجارية وملك زبيد كما ذكرنا تفرق أولاد نجاح وهربوا إلى الحبشة وكانوا خمسة: سعيد الأحول، وجياشاً، ومعاركاً، والذخيرة، ومنصوراً.. أما معارك فقتل نفسه غيظاً وكان قد شاع على

= سردد وظفر بتلك الأموال فانتهبها أهل تهامة ومن حضرها. نودي على الفضة من مدلاة للبيع بدينار. والمدلاة عشرة أرطال. وأن إنساناً فر بصندوق مملوء دنانير أسعدية فرغب عنها وقال أريدها حاشدية فالتفت إليها ليأخذها فلم يجدها. والأسعدية ضرب «أسعد ابن أبي يعفر» إلى أن قال: وأنه تحصل لبعض من انتهب من تلك الصناديق الغناء والثراء.

(١) كان يكنى أبا الحسن ويلقب الكامل. وكان له صفات امتاز بها قل أن تجد في غيره منها تسامحه العظيم تجاه أهل السنة بأن ولاهم الأعمال وقلدهم مناصب القضاء وتركهم يمارسون عقائدهم الدينية بكامل حريتهم ولم يتعرض لأحد منهم بأذى. ناهيك أنه لما دخل الجند سنة ٤٥٤ هـ وعرف من بين فقهائها علامة عصره أبا عبد الله جعفر بن محمد بن عبد الرحمن المحابي الكلاعي الحميري وزهده وورعه رامه على القضاء وقال له: يا فقيه القضاء متعين عليك ونريد منك أن تقبله فرفض المحابي وأعرض عن الصليحي وتشاغل بالحديث مع غيره في مجلسه العام أمام الملوك والرؤساء فلم يؤاخذه وأغضى على إساءة أدبه.. ولكن مع الأسف لم يسلم من خصوم شوهوا سمعته وقلبوا المدائح قبائح والفضائل رذائل.. وغشوا التاريخ والأجيال.

(٢) ومن شعره أيضاً وهو عازم على السفر إلى العراق عن طريق مكة:

وألذ من قرع المثاني عندنا ... في الحرب الجم يا غلام وأسرج
خيل بأقصى حضرموت مجالها ... وصهيلها بين العراق ومنبج

وقوله: وقيل قالها ابن أبي الغارات على لسانه:

سلي فرسي عني ودرعي وصعدتي ... وسيفي إذا ما المشرفية سلت
أنا ابن ربيع المنشد بن محمد ... إذا المعصرات السود بالماء صبت
وسميت في قومي علياً لأنني ... علوت فأحذيت الكواكب همتي

وقوله على لسانه:

الحزم قبل العزم فاحزم واعزم ... وإذا استبان لك الصواب فصمم
واستعمل الرفق الذي هو مكسب ... ذكر القلوب وجد وأجمل واظلم
وإذا وعدت فعد بما تقدر على ... إنجازه وإذا اصطنعت فتمم

ألسنة المنجمين أن سعيد الأحول يقتل علي بن محمد الصليحي فاستشعر الصليحي ذلك[1] وترقت همة سعيد إلى ذلك ودخل سعيد « زبيد » واختفى عند بعض أصحابه وسأل عن أخبار الصليحي حتى تحققها وكتب إلى أخيه جياش يستدعيه ويخبره بانقضاء دولة الصليحي وإقبال دولتهم. فلما قدم جياش زبيد ظهر سعيد في سبعين رجلاً لا سلاح معهم ولا خيل قد ركبوا المسامير في جريد النخل فوجدوا جندياً فقتلوه وركب سعيد فرسه. وكانت أخبار الصليحي عند سعيد في كل حين، فلما بلغه عزم الصليحي للحج خرج من البحر معارضاً له في خمسة آلاف حربة من الحبشة قد انتقاهم حتى خرجوا من ساحل المهجم[2]،

---

(١) وزاد في الخزرجي. وصورت له صورة سعيد بن نجاح على جميع حالاته... وقد أرجعوا ذلك إلى التنجيم وقد يكون ذلك. فقد كان التنجيم رائجاً لذلك التاريخ ولكن يلزم أن يكون الصليحي هو الآخر قد عمل بالنجوم فيأخذ الحيطة والحذر حتى لا يقع فيما وقع فيه. والملوك بوجه خاص لهم ولع وشغف في علم النجوم ومراقبة حركاتها. وأعتقد جازماً أن مؤامرة قد حيكت من المغلوب على أمرهم وامتدت خيوطها إلى الأحول ليقوم بالدور الإيجابي بنفسه. ولهذا يقول المؤلف « وكانت أخبار الصليحي عند سعيد كل حين » وما ذاك إلا أن ثم نقطة اتصال بين سعيد الأحول وبين المتآمرين المغلوب على أمرهم المرافقين للملك الصليحي سفراً وحضراً. ولكن هذه المؤآمرة ظهرت قبل تنفيذها على السنة الناس ولهجوا بها ولونوها كل على ما هداه إليه فكره وأدى إليه علمه شأن كل مؤامرة. ولم يأبه لها الملك ولا اتخذ حيالها عملية حاسمة أو أن اتخذ لها الحيطة ولكن هناك من يحبطها أو يسهل أمر الأحول ويصغر من شأنه. لأمر قضاه الله أو من قبيل: اذ انزل القدر عمي البصر.

(٢) المؤلف خلط بين رواية الخزرجي عن الشريف إدريس صاحب كتاب « كنز الأخيار » وبين رواية الخزرجي عن عمارة اليمني. فمن قوله في أول صفحة ٣٥٢ وكان قد شاع - إلى قوله في نفس الصفحة « وترقت همة سعيد إلى ذلك من كلام الخزرجي عن الشريف إدريس » ومن قوله في نفس الصفحة « ودخل سعيد زبيد، إلى وله في نفس الصفحة فقتلوه وركب سعيد فرسه » من كلام الخزرجي عن عمارة.. ومن قوله في نفس الصفحة « فلما بلغه عزم الصليحي » إلى قوله « من ساحل المهجم » في أول هذه الصفحة من كلام الخزرجي عن الشريف إدريس. ومن قوله « قال جياش » إلى آخر الحادثة من كلام الخزرجي عن عمارة.

والخلاصة أن الروايتين قد تجاذبتا هـذا الحادث. الأولى: روايـة الخزرجـي عـن الشريـف إدريس صاحب « كنز الأخيار » وهي أن الأحول خرج في خمسة آلاف حربة من الحبشة من ساحل المهجم تاركاً وراءه زبيد وأمراءها من قبل الصليحي لم يغير عليهم ولا لهم دراية. كما أن الصليحي ليس له دراية بهذه المجازفة التي لم يعمل إزاءها الرقابة الكافية حتى قضي عليه ومن معه في عقر مخيمه.

الرواية الثانية: رواية الخزرجي أيضاً عن عمارة وهي أن الأحول قد أعد للأمر عدته وتهيأت له الأسباب وخرج من زبيد بعد أن شعر به أمراؤها بحيث طير الخبر أسعد بن شهاب بسرعة إلى الملك الصليحي فرماهم بخمسة آلاف حربة جلهم من أبناء جلدتهم الحبش ليأتوه برأس الأحول وأخيه فخالفوهم بالطريق وخانهم التوفيق حتى أدركوا ثأرهم مخاطرين بحياتهم مع السبعين نفراً الأسرى =

قال جياش: وكان أسعد بن شهاب[1] قد علم بخروجنا وعددنا قبل أن نصل المهجم فسير من ركابه خمسة آلاف حربة وأكثرهم مماليكنا وبنو عمنا وقال لهم خذوا رأس الأحول وأخيه فخالفناهم في الطريق فسرنا حتى هجمنا على المحطة انتصاف النهار. وأهل المخيم يعتقدون أنا من جملة العسكر فلم يشعر بنا إلا عبد الله بن محمد الصليحي فإنه ركب فرسه وقال لأخيه يا مولانا اركب هذا والله الأحول بن نجاح فركب عبد الله[2] وكان علي بن محمد الصليحي قد دخل الخلى. قال جياش فكنت أول من طعنه ثم طعنه أخي فجززنا رأسه وركبت فرسه المسمى بالذيال. وحمل أخوه عبد الله فقتل منا رجالاً ثم اعتنقه رجل فسقطا إلى الأرض فنادى صاحبنا اقتلوني أنا والرجل[3] فشكهما الملك سعيد بحربته وحز رأس عبد الله بن محمد الصليحي[4] وهو يظنه علي بن محمد ثم ركب سعيد فرس عبد الله وجعل الرأسين أمامه على باب المسجد الذي فيه السيدة أسماء بنت شهاب زوجة الصليحي فقال لها أخرجي صبحي على السلطانين فقالت لا صبحك الله يا أحول بخير. واستولى سعيد الأحول على خزائن الصليحي وأمواله[5] وكان قد استصحب أموالاً جليلة كما ذكرنا لأنه كان

= والفرس التي قتل صاحبها... وأنا أستبعد كل البعد أن سعيد الأحول وأخاه جياشاً والسبعين حربة هؤلاء وحدهم قد فعلوا الأفاعيل من قتل الصليحي وجيشه اللجب ومن في صحبته من الملوك الأشاوس وأسروا وغنموا الخ. لأن عمارة قد اعتمد في نقله على جياش نفسه من مفيده وهو غير مأمون النقل في هذه المواضيع التاريخية لأنه عدو قد غالط حقائق التاريخ في صالحه شخصياً وصالح أخيه سعيد الأحول وصالح الحبشة الذين في زبيد وتهامة وصور آل نجاح تصويراً خيالياً في ثوب من البطولة النادرة في حين صور خصومهم في صورة الجبان الرعديد بل إن رواية الشريف إدريس أقرب إلى الحقيقة والعقل. وبعد هذا اطلعنا على رواية ثالثة في كتاب «الصليحيون»، فراجعه...

(١) هذه العبارة تركناها على أصلها وليست في الخزرجي ولا عمارة. والذي في الخزرجي: قال جياش: وسرنا في طريق الساحل خوفاً من العسكر فكتب أسعد بن شهاب إلى الصليحي يعلمه بخروجنا وعددنا فلما بلغه الخبر سير من ركابه خمسة آلاف حربة الخ.

(٢) لا أصل لهذه العبارة لا في الخزرجي ولا في عمارة.

(٣) زاد في مقالته: فإن عز قومي رخيص بقتلي كما في عمارة.

(٤) وقتل مع عبد الله الصليحي صنوه إبراهيم والأمير الموفق بن علي بن محمد الصليحي وغيرهم من الكبراء والرؤساء.

(٥) ويروى أن من جملة ما غنمه الأحول ألف فرس وثلاثة آلاف جمل بِعُدَدها. وتفرقت جنود الصليحي وقواده أيدي سبأ. حتى إن بعضهم تاه بوجهه نحو طريق يام وصعدة حتى خرجوا إلى خيوان ثم وصلوا صنعاء عند المكرم بعد أن وقعت بينهم حروب كبيرة مع القبائل في الطرقات. ومن جملة هؤلاء القادة القائد المقدام عمران بن الفضل اليامي، وعامر بن سليمان الزواحي، ومدافع بن الحسن

قصده دخول مصر إلى أهل دعوته من العبيديين. وقتل سعيد من وجده من الصليحيين ثم ارتحل إلى زبيد بعد ثلاثة أيام من الوقعة وأركب أسماء بنت شهاب هودجاً وجعل رأس الصليحي وأخيه أمام هودجها. ولما دخل زبيد أنزلها بدار شحار فأقامت في الأسر سنة كاملة[1] لم يمكنها الكتابة إلى ابنها المكرم حتى تلطفت إلى رجل مشرقي فرمت اليه برغيف فيه كتاب إلى المكرم تخبره أنها قد صارت حاملاً من العبد[2] ولم يكن الأمر كذلك ولا

= الجني، والحسن بن عمر السنحاني وغيرهم. يقال إنهم أوقعوا في طريقهم سبع عشرة وقعة، فوصلوا إلى الملك المكرم وهو في أشد الحاجة إلى آرائهم وسواعدهم فكان فرحه بهم شديداً.

(١) قد يظن القارئ أن الملك المكرم تساهل أو تغافل عن إنقاذ والدته الملكة أسماء من الأسر طيلة هذه السنة أو تجاهل ما عليه من واجب أمام والدته، وليس كذلك بل إنها واجهته ثورات عارمة زلزلت كيانه وكادت تقضي على صرح الدولة الصليحية قضاء مبرما فقد انتشر الحبل وسادت الفوضى وانتقض اليمن من أقصاه إلى أقصاه حتى حوصر في عقر إمارته صنعاء وفقد المعين والمناصر فاشتغل عن والدته في إخماد الثورات وجرد من نفسه عزماً ومن قلبه جيشاً ومنحه الله النصر حتى عادت المياه إلى مجاريها وتسنى له غزو زبيد لإنقاذ أمه أسماء، أما أن السيدة أسماء أقامت في أسر الأحول سنة كاملة فهذا القول معوّل عليه وقد تواترت به الرواية المجمع عليها في كتب المؤرخين التي بين أيدينا، حتى قال ابن سمرة إن استنقاذ المكرم لأمه كان في سنة واحد وستين كما يأتي النقل عنه في صفحة ٣٦٨ وفي الكبسي ان الملكة أسماء أقامت في أسر الأحول ثمانية أشهر. وقيل سنة حتى استنقذ أمه الخ.

أما صاحب كتاب «الصليحيون»، تبعاً لصاحب العيون فإنه جعل مدة بقاء الملكة أسماء في أسر الأحول «أربعة أشهر» وإن المكرم قام بإنقاذها ودخل زبيد ظافراً في شهر صفر سنة ٤٦٠ ستين وأربعمائة. وأنت ترى أن هذه المدة غير كافية لإخضاع القوى التي تألبت على المكرم حتى تنكر له من كان منه خلاً وصاحباً. ثم إن جميع المصادر تفيد أن المكرم أناب على زبيد خاله أسعد بن شهاب وأنه لم يتركها بلا وال ويتولى رعيها الأسد في حين صاحب كتاب الصليحيون يهمل هذه النقطة الحساسة.

(٢) من البعيد أن الملكة أسماء هي التي استخدمت الرجل الغريب المشرقي وأنفذته بذلك الكتاب الحار ا لذي يثير الجمادات فضلاً عن الإنسان، وبدون أن يسبق لها معرفة به فإن السجناء كمثل السيدة أسماء عليها ألف رقيب وحارس، كما أن السجين ضنين على حياته فلا يجازف بها مخاطرة إلى رجل لا يثق به ولا يعرفه. وكذلك الرسل الحاملون رسائل الاستعلامات ونحوها بصفة مكتومة لا يغامرون بأنفسهم بالاستعلامات وإعطاء الرسائل لمن لا يثقون به ولا قد أحاطوا علماً بحال السجين وقانون السجن ولا يظهرون بمظهر المشبوهين خوفاً من العاقبة الوخيمة التي تترتب على ذلك. بل إن من البديهي أن الملك المكرم هو الذي يهمه أمر والدته فيبعث البعوث ليأتوا له بأخبار أمه فيأتوا له بأحوالها وجلية أمرها وخفيته، ويبذل رغائب الأموال في إيصال الطمأنينة إلى قلب أمه وإعلامها بقرب يوم الخلاص. ومن جملتهم هذا الرجل الذي هو بصفة غريب كيلا يلفت الأنظار إليه وهو مزود بكل إرشاد ومادة يستطيع أن يتوصل إلى أعماق السجن وينفذ من خلله ويبلغ مأربه ولو ضحى بأي ثمن ليبرهن على إخلاصه ومغامرته، وفي نفس الوقت يعقد الأمل بأنه سيرزق الحظوة لدن السيدة أسماء، ولدى ولدها =

رآها الأحول قط وإنما أرادت استثارة حفائظهم وحفائظ العرب جميعاً. فلما وصل كتاب أسماء بنت شهاب إلى ولدها المكرم جمع رؤساء القبائل وقرأ عليهم الكتاب، فأخذتهم الحمية فثارت حفائظهم [1] فخرج فوراً في ثلاثة آلاف فارس غير الرجل فخطبهم المكرم وعرفهم أنهم سيقدمون على الموت فمن أراد الرجوع فليرجع وتمثل بقول المتنبي [2]:

وأورد نفسي والمهنــــد في يـــــدي ... مــوارد لا يصــدرن مــن لا يجالـــد

فساروا حتى وصلوا قرية التربية شرقي زبيد [3] فدخل المكرم مسجداً فوجد رجلاً قد صلى الصبح وقعد يتلو ﴿والسماء ذات البروج﴾ فوقف المكرم حتى ختم القرآن ودعا وأمن المكرم وأصحابه على دعائه [4] ثم ركبوا خيولهم قاصدين باب الشبارق فخرج سعيد الأحول في جموعه من زبيد وصف رجاله وعبأهم وكانوا عشرين ألف حربة فجعل المكرم خاله

= وسيكون له مقام محمود. وفي لفظ المشرقي دلالة واضحة إلى ما نذهب إليه. وما يدرينا أن هذا المشرقي قد تكرر مجيئه وذهابه حتى تيقنت الملكة أنه من عند ابنها أو كانت تعرفه من قبل معرفة تامة كأن يكون خادمها الخاص أو نحو ذلك فحملته رسالة الإنقاذ وقد مارسنا هذه القضايا ونحن في السجن وجرت لنا حوادث وغرائب ليس هذا موضوع ذكرها ولا ينبئك مثل خبير.

(١) يقال إن المكرم قرأ الكتاب وهو على المنبر فضجّ الناس بالبكاء وتهاتفوا بالعار وأخذ الثأر.

(٢) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجُعفي المذحجي الكوفي. ولد بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة وقتل يوم الأربعاء لست بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، والمتنبي أحد نوابغ الدنيا والذي أصبح كالقطعة من تاريخ الأدب فالكلام عنه متداول مشهور وحسبك أن العلماء تناولوا ديوانه بالشرح والتعليق حتى بلغت قرابة خمسين شرحاً ولا زال معيناً لا ينضب نسب إلى جعفي ـ ككرسي ـ ابن سعد العشيرة بن مذحج، وهو مالك بن أدد بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ.

(٣) التربية ـ بضم التاء المثناة من فوق بعدها راء وياء تحتية وباء موحدة وهاء ـ بلدة كبيرة عامرة إلى هذه الغاية وهي من بلاد الأشاعر وملحقات مدينة زبيد، وبها قرابة عشرين مسجداً وبيوتها من الخوص واللبن والطوب على منوال مباني تهامة في الحال الحاضر وما قبله.

(٤) والرواية أوسع من هذه وهي، قال محمد بن علية: كنت عند طلوع الفجر في يوم الجمعة بمسجد التربيه أتحزب في السماء ذات البروج. إذ بفارس يهيلني فركز رمحه وصعد إليّ ما رأيت من ولد آدم أتم خلقة منه ولا أحسن منظراً وله روائح الملوك وصلى إلى جنبي وتجلى الصبح وقال لي اختم حزبك فختمت وهو مصغ إلى التلاوة وأمرني أن أدعو عند الختم فدعوت وهو يؤمن وإذا بخيل قد أقبلت وكل من وصل يحييه أنعم الله صباح مولانا وأدام عزه فيقول مرحباً يا وجوه العرب. فلما كملوا خطب خطبة حسنة قال فيها: قد كنت أعرض عليكم الرجوع وفي المسافة إمكان وأما اليوم فإنما هو الموت أو العار بفرار لا يجدي أو النصر وهو المرجو من الله تعالى. قال ابن علية: ولم أعرف إلا أسعد بن شهاب لكونه كان والياً علينا فسألته فقال: أما هذا فالمكرم الملك السعيد أحمد بن علي الصليحي وأما هذا =

أسعد بن شهاب على الميمنة، وعم أسعد بن شهاب على الميسرة. ووقف المكرم في القلب فلما اصطدم الجيش قاتلت الحبشة قتالاً شديداً ساعة من نهار فانطوى عليها الجناحان فانكسرت الحبشة كسرة شنيعة فجالت عليهم الخيل جولة واحدة فانطحنوا طحن الرحاء وأتى القتل على أكثرهم وكان المكرم قد قال لخاله أسعد بن شهاب وعم أمه أسماء: لستما كأحد من الجيوش لأنكما موتوران، إن مولاتنا أخت أحدكما وابنة أخي أحدكما [1] وكان المكرم شجاعاً مقداماً في الحرب[2] وكان الأحول قد أعد خيلاً على باب المدينة باب النخل[3] وأعد سفناً في البحر فلما أن هزم ركب فيمن سلم من أصحابه سار إلى البحر فركب السفن وسار نحو دهلك[4] ثم دخلت العرب زبيد وكان المكرم أول فارس وقف تحت طاقة أسماء والدته فسلم عليها فلم تعرفه وقالت له من أنت؟ فقال أحمد بن علي فقالت إن أحمد بن علي في العرب كثير فرفع المغفر عن رأسه فعرفته. وقالت مرحباً بمولانا المكرم فأصابته حينئذ ريح ارتعش لها واختلجت بشرة وجهه وعاش بقية عمره على هذه الحال. وروي أنها قالت حين أسفر عن وجهه من كان مجيئه كمجيئك فما أخطأ وما أبطأ.

قال عمارة: وأدركت أهل زبيد إذا شتم أحدهم آخر وقيل له أتشتم الرجل فيقول

= فالمكرم اليامي، وأما هذا فعامر الزواحي أكرم عربي تمشي به الخيل. ثم سألته عن أكابر من معه وهو يجيبه بأوصاف ضخمة.

(١) في خ: وابنة أخي الآخر.

(٢) وكان ضخماً أيداً عظيم الخلقة لا يحمل درعه إلا البغال ولا يقبض رمحه إلا بكلتا اليدين لعظمها، أديباً خطيباً مصقعاً.

(٣) في الخزرجي: وقد أعدّ خيلاً مضمرة على الباب الغربي المسمى باب النخل بزبيد.

(٤) ودهلك بفتح أوله وسكون ثانيه ولام مفتوحه وآخره كاف ـ اسم أعجمي معرب ـ عدة جزر من جزر اليمن في البحر الأحمر وفيها بلدة ضيقة حرجة حارة كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها. وقال أبو المقدام:

ولو أصبحت بنت القطامي دونها ... جبال بها الأكراد صم صخورها
لباشرت ثوب الخوف حتى أزورها ... بنفسي إذا كانت بأرض تزورها
ولو أصبحت خلف الثريا لزرتها ... بنفسي ولو كانت بدهلك دورها

وقال أبو الفتح نصر الله بن قلاقس الاسكندري يذكر دهلك وصاحبها مالك بن شداد:

وأقبح بدهلك من بلدة ... فكل امرئ حلها هالك
كفاك دليل على أنها ... جحيم وخازنها مالك

وتقع مقابل بندر ميدي. ويقال إنها عدة جزر وسكانها قد قلوا بعد انسحاب الطليان منها ودخلت في ممتلكات ملك الحبش.

الرجل: والله من فك أمه من الأسر وقتل دونها عشرين ألف إنسان[1] يعنون المكرم، وأقام المكرم في زبيد أياماً مهد فيها قواعد البلاد ثم سار يريد صنعاء بوالدته[2] وولى خاله أسعد بن شهاب زبيد والأعمال التهامية. ولما وصل المكرم صنعاء فوض الأمر إلى زوجته الحرة السيدة الملكة الصليحية بنت أحمد الصليحي. وكان أبواها قد توليا تربيتها وكان الصليحي يقول لزوجته أسماء هذه والله كافلة ذرارينا القائمة بهذا الأمر لمن بقي منا. وكان يجلها ويكرمها بما لا يكرم به بناته.

---

(١) تمام المثل هذا، لعمري هو الرجل.

(٢) وقبل أن يغادر المكرم زبيد نقل الرأسين. رأس علي بن محمد الصليحي وأخيه عبدالله من أمام دار شحار وبنى عليهما مشهداً. قال عمارة: وأنا أدركت مشهد الرأسين. ويقال إن المكرم وصل إلى المهجم وأمر بحمل جثتي والده وعمه إلى صنعاء في تابوتين وقبرهما يماني الجبانة. قال في كتاب «الصليحيون» نقلاً عن صاحب العيون ما لفظه: ومشهد الصليحي اليوم قد عفى المتغلبون الظالمون آثاره، وهدموا مناره. فإن عنايتهم في ذلك كثيرة، وفي هدم القبور أفعال نكيره، وذلك شيء يتحاماه الكفار والمسلمون، ويأنفون عنه وهؤلاء يقدمون، وكتب بعض الشعراء على قبر الصليحي أشعاراً منها:

في القبر ليث وبحر زاخر وجدي ... جود وطود وضرغام وصمصام
فأعجب بأن ضم هذا كله جدث ... بدا له في قلوب الناس إعظام
فطف به واقض حق المجد إن له ... حقاً على كل حر جده سام
هذا الذي أمس رجت خوف سطوته ... نجدٌ وبغداد والأحساء والشام
حتى إذا قيل هذا ماله مثل ... من الأنام تولت قتله حام

ولما وصل المكرم بوالدته الملكة أسماء هنأته الشعراء بأبدع القصائد وغررها من ذلك للشاعر المفلق أحمد بن علي التهامي. جاء في أولها:

نفضت غبار العار عن ثوب يعرب ... وقد سحبت أعطافه كل مسحب
بشعوا في صنعاء قرع طبولها ... وريعانها بالعرق دون المحصب
أدرت على درب الحصيب مع الضحى ... رحى ذات قطب حاشدي ولولب
فأضحوا على الأبواب صرعى كأنهم ... قبائل عاد في الصباح العصبصب
وجئت وأم المؤمنين وسر بها ... كزينب يوم الطف حول المخضب

وقال شاعر الملك في رجوع الملكة أسماء إلى قصرها بصنعاء وخلاصها من الأسر:

أوبة أسماء إلى قصرها ... بعد فراق الملك الأوحد
وبعد عوصا الخطوب التي ... رمت بني قحطان بالمؤيد
كرجعة الشمس وقد جنها ... دجن وسر بال دجى أسود
فيا لها من نعمة أصلها ... بأس ابنها باني العلا أحمد

وقد أحسن المكرم بالأحباش صنعاً. فلم ينتهك لهم حرمة بل شملهم عفوه وطوى عن الماضي صفحاً. ولم يقتل منهم أحداً وهم في قبضته. خلاف ما فعل العبيد.

وكانت بيضاء مشربة بحمرة، مديدة القامة، معتدلة الجسم، كاملة المحاسن جهورية الصوت قارئة كاتبة حافظة للأشعار والأخبار عارفة بالأنساب والتواريخ وأيام العرب بحيث يقال لها بلقيس الصغرى لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها للملك وكانت تفضل بالمعرفة على كثير من الملوك. ولما استقر المكرم بصنعاء وفوض الأمر إلى زوجته الحرة السيدة تفرغ للشراب والسماع واستبدت بالأمور. ويقال إنها استعفته في نفسها وقالت إن امرأة تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر فدعني وما أنا بصدده. ثم ارتحلت في جيش جرار وتركته بصنعاء واتخذت جبلة من مخلاف جعفر داراً. وكان جبلة يهودياً يبيع الفخار في الموضع الذي بنت فيه دار العز [١] وبه سميت المدينة جبلة. وكان الذي اختط جبلة عبد الله بن محمد الصليحي كان أخوه قد ولاه حصن التعكر سنة ثمان وخمسين وأربعمائة. فاختط مدينة جبلة يومئذ وهي مدينة بين نهرين جاريين في الشتاء والصيف وفيها يقول الشاعر [٢]:

ما مصر ما بغداد ما طبرية ... كمدينة قد حفها نهران
خدد لها شام وحب مشرق ... والتعكر العالي المنيف يماني [٣]

وكان وفاة أسماء بنت شهاب سنة تسع وسبعين وأربعمائة بصنعاء.

وفي هذه السنة عاد بنو نجاح فأخرجوا أسعد بن شهاب من زبيد ثم أخرجهم المكرم [٤] منها. ولما توفيت والدة المكرم انتقل إلى ذي جبلة فاختط بها دار العز واستخلف على صنعاء عمران بن الفضل الهمداني [٥].

---

(١) لا زال موضع هذه الدار معروفاً إلى هذه الغاية. وتسمى دار السلطنة وكان بناء دار العز الثانية سنة إحدى وثمانين وأربعمائة.

(٢) هما لعبد الله بن يعلي الصليحي. وقبلهما:

هبَّ النسيم فكنت كالحيران ... شوقاً إلى الأهلين والجيران

(٣) سيأتي الكلام على حصن خدد وحصن حب.

(٤) الذي يظهر من سياق ما هنا وكذلك الخزرجي وعمارة عمدة المؤرخين المذكورين أن الأمير أسعد بن شهاب خال المكرم لا زال في قيد الحياة طيلة هذه المدة التي ظل والياً على زبيد والأعمال التهامية وذلك ست عشر سنة كما حدث عن نفسه فيما مضى من ترجمته وأن سعيد الأحول قد ظل هو الآخر مشرداً منكوباً نفس المدة بينما صاحب كتاب الصليحيون يرجح وفاة أسعد قبل هذه المدة بكثير. وأن المدة التي تخللت بين استنقاذ السيدة الملكة والقضاء على الأحول سنة ونصف لا غير كما يأتي قريباً في التعليق.

(٥) هو عمران بن الفضل بن علي بن أبي زيد بن العمر بن الصعب بن الفضل بن عبد الله بن سعيد بن الغوث بن الغز بن مذكر بن يام بن أصبى بن دافع بن مالك بن جشم الأوسط بن حاشد بن =

وأسعد بن شهاب[1] وذلك أن الحرَّة السيدة بصنعاء قالت للمكرم يا مولانا استحضر أهل صنعاء ومخاليفها إلى هذا الميدان. فلما حضروا قالت أشرف يا مولانا عليهم فلم يقع بصره إلا على لمعان السيوف وبريق الأسنة والبيض. فلما نزل معها إلى ذي جبلة أمرت الرعايا من مخلاف جعفر أن يحضروا فقالت يا مولانا أشرف عليهم فأشرف فلم يبصر إلا من يقود كبشاً أو يحمل براً أو سمناً أو عسلاً. فقالت له العيش بين هؤلاء أصلح. فقال المكرم صدقت ثم سكنا جبلة جميعاً.

فلما كانت سنة إحدى وثمانين وأربعمائة دبرت الحرَّة السيدة على قتل سعيد الأحول. فأمرت صاحب حصن الشعر[2] وهو الحسين بن التبعي[3] أن يكاتب سعيد ويعلمه أن

= جشم الأكبر بن حيران بن نوف بن همدان اليامي الهمداني. كذا ساق نسبه الملك الأشرف في الطرفة. قلت: وفي عدة الآباء إلى الغز بن مذكر قصر كما يعرف ذلك من له إلمام بمعرفة الأنساب.

كان عمران بن الفضل من أكابر الدولة الصليحية وأعيانها المشاهير الذي يشار إليهم بالبنان وأحد أقطابها الذين قامت على أكتافهم صرح هذه الدولة وأحد الذين انتشلها بعد أن أوفت على الانهيار، وكان له الطول في مواقف عديدة.

وكان يلقب بالقاضي عمران لفقهه وعلمه وورعه ومع هذا فكان يضم بين برديه شاعراً مفلقاً وخطيباً مفوهاً وهزبراً جريئاً وجواداً متلافاً. وكان لصدارته وتقدمه يجله الملك الكامل وولده الملك المكرم وإذا دخل على المكرم ينزل عن السرير ويقوم للقائه ويأخذ بيده فيصعد إلى السرير معه ولما عزله المكرم عن صنعاء عاتبه مع الأمير سبأ بن أحمد بشعر منه:

ولا تجرحا بالعزل أكباد معشر ... إذا غضبوا علَّ القنا وتكسرا

وله أخبار حسنة وله ذرية طيبة امتازت بالنبوغ والعبقرية وتربعت كراسي الملك زمناً طويلاً فحفيده السلطان حميد الدولة حاتم بن أحمد بن عمران وولده السلطان المعظم علي بن حاتم وسيأتي الإفاضة والإشادة عن هذه الأسرة قريباً إن شاء الله. وقتل القاضي عمران في وقعة الكظائم سنة ٤٧٩ هـ.

(١) ولاية أسعد مع عمران بن الفضل اليام لصنعاء في حالة اختلال الأحول لزبيد والأعمال التهامية.

(٢) حصن الشعر لعله بيت عز الذي سيأتي ذكره. أو حصن قيظان الذي يقع في منتهى جبل المنار وسيأتي ذكره في ص ٥٠٩ أو غيرها. والشعر مخلاف واسع يحتوي على اثنتي عشر عزلة وحدُّه من الشرق سائلة بنا ومن الغرب جبال بعدان ومن الشمال يحصب العلو ومن الجنوب سافلة ذي الكلاع بني مروسى المسماة الآن بلاد الأيوبي وهو مشهور بخصب التربة وكثرة المنتوجات الزراعية المتنوعة وكثرة الغيول. وهو مربوط بمركز النادرة. نسب إلى شعر بن عدي بن الحارث بن شرحبيل بن مثوب بن يريم بن ذي رعين. وحينئذ فهذا الصقع وقبائله من ذي رعين.

(٣) هو السلطان ابن السلطان الحسين بن المغيرة بن أبي الهيثم بن أبي جعفر التبعي، ينتهي نسبه إلى شرحبيل بن ذي تبع بن الحارث بن مالك بن أبي شرح بن يحصب.

المكرم مفلوج وقد عكف على الخمر وقلد أمره امرأة وأنت أقوى ملوك اليمن فإن رأيت أن تطبق على ذي جبلة من تهامة ونحن من الجبال فدولتكم أحب إلى المسلمين فحسن موقع ذلك عند سعيد. واستخفه الفرح فخرج إلى ذي جبلة في ثلاثين ألف حربة في يوم قد واعده فيه صاحب الشعر. وكانت السيدة قد كتبت الى عمران بن الفضل وأسعد بن شهاب أن يخلفوا سعيد على زبيد في ثلاثة آلاف فارس فوصلوا بعد خروج سعيد منها فأخذوا زبيداً وهرب بقية بني نجاح فلحق جياش بالهند وسنذكر رجوعه إلى زبيد وتملكه لها إن شاء الله تعالى. فلما وصل سعيد بجيشه تحت حصن الشعر أطبق عليه الجيشان فقتل وقتل من معه جميعاً [1]. وقيل إنه نجا منهم نحو ألفي راجل وأسرت زوجته أم المعارك وجعلوا يعرضون عليها القتلى واحداً واحداً. فلما عرض سيدها عرفته فأخذوا رأسه وحمل على رمح أمام هودجها وجيء بها إلى السيدة فأسكنت في دار العز بجبلة ونصب رأس سعيد الأحول أمام طاقتها فكانت الحرة السيدة تقول عند ذلك ليت لك عيناً يا مولاتنا أسماء حتى تنظري رأس سعيد الأحول تحت طاقة أم المعارك. وتوفي المكرم أحمد بن علي الصليحي سنة أربع وثمانين وأربعمائة [2] وأسند الوصية إلى الأمير الأجل أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي. وكان شجاعاً جواداً كريماً شاعراً فصيحاً يثيب على المدح ويمدح مادحه، وفي ذلك يقول الحسين بن علي بن القم الشاعر [3] في قصيدة يقول فيها:

أثنى عليهم الهمداني ثناء عاطراً وقال: «إنهم من أشراف اليمن ووجوهه. وكانوا ملوك بعدان وما صاقبه من السحول. وقال وكان منهم إسماعيل بن ابراهيم التبعي أخاً من الهمداني وقد نادمه ومدحه» ثم أتى بمقطوعة من شعره.

وهذا الحسين كان قيلاً فخماً ذا سلطان عريض الأرجاء ومكارم تخجل الديم وقد تلقى الرياسة كابراً عن كابر. ولعب دوراً هاماً في تاريخ اليمن. وتوفي في يوم الجمعة لست خلت من جمادى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة كما في طبقات ابن سمرة.

(١) قال ابن سمرة وقتل سعيد الأحول في جبل الشعر وقبره هنالك بنجد قيظان.

(٢) وقال ابن سمرة في طبقاته: وأما المكرم واسمه أحمد بن علي الصليحي فإنه ولي اليمن بعد أبيه واستنقذ أمه أسماء بنت شهاب سنة إحدى وستين وأربعمائة وكان موته في حصن أشيح وقيل إنه مات ببيت بوس من أعمال صنعاء سنة ثمانين وأربعمائة. وقيل سنة سبع وسبعين، وكانت ولايته وإمارته إحدى وعشرين سنة اهـ.

(٣) هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن محمد بن مضمون بن القم. ولد في زبيد ونشأ وتخرج على فضلائها وكانت زبيد إذ ذاك مطمح أنظار المتأدبين. وكان والده صاحب ديوان الخراج بتهامة. وأما الحسين هذا فمعدود من فضلاء اليمن ورؤساء شعرائها، وكان من المكثرين والشعراء المفلقين. راجع تاريخ عمارة بإخراجنا.

ولما مدحت الهزبري ابن أحمد | أجاز وكافاني على المدح بالمدح
وعوضني شعراً بشعر وزادني | عطاء فهذا رأس مالي وذا ربحي
شققت اليه الناس حتى لقيته | فكنت كمن شق الظلام إلى الصبح
فقبح دهر ليس فيه ابن أحمد | ونُزِّه دهر كان فيه من القبح

قال عمارة لما مدح ابن القم سبأ بهذه القصيدة كان قائماً فأمره بالقعود على مخدة رمى بها إليه. ولما فرغ من الإنشاد قال له: أنت عندنا كما قال أبو الطيب:

وفؤادي من الملوك وإن كا | ن لساني يرى من الشعراء

وكان الأمير سبأ دميم الخلق قصيراً وكان مقر عزه أشيح [١] وهو نظير مسار والتعكر في المنعة والعلو. وكانت حصون بني المظفر مصاقبة لزبيد قريبة الى تهامة. ولذلك كانت الحرب بين بني سبأ وبين جياش بن نجاح سجالاً. فكان إذا دخل الشتاء نزلت العرب تهامة وارتفع جياش عن البلاد فيقيم بها الشتاء نواب سبأ يجبون خراجها ويعدلون في الرعية ويحتسبون للعمال بما قبضه منهم جياش في مدة الصيف والخريف فإذا سخنت البلاد ارتفعت العرب إلى الجبل فيدخلها حينئذ جياش تارة بقتال وتارة بدونه. وبدخوله تنشر المصاحف ويظهر الفقهاء وتطاول العلماء ويحتسب أيضاً جياش للرعايا بما قبضه منهم سبأ ونوابه في مدة الشتاء والربيع [٢].

---

(١) حصن من أشهر حصون اليمن، واقع في بني سويد من بلد آنس يبعد عن ضوران في الشمال الغربي بنحو مرحلة وهو الآن خراب. وحصون آل المظفر هي: مقرى، والظفر، وظفار، وريمة، وحصون وصاب، وعتمة، وجعر ونعمان والشرف وقوارير من وصاب.

(٢) دامت هذه الحرب المضنية بين الفريقين المتحاربين برهة من الزمن حتى ملها جياش وكاد يمسح يده من ملك تهامة ويفارقها إلى غير رجعة لولا أن دبر له حيلة وزيره خلف بن أبي طاهر حيث قال له إذا أحببت أن لا تنزل العرب تهامة فاحبسني واقبض كل أملاكي وعشيرتي. ففعل ذلك ثم إن خلفاً نقب الحبس وهرب إلى سبأ وظهرت العداوة بين جياش ووزيره المذكور حتى إن جياشاً كتب إلى سبأ بأن يلتزم له ارتفاع نصف تهامة إذا طرد الوزير خلفاً. ولم يزل الوزير يحسن لسبأ نزول تهامة وضمن له من الحيل والمكايد ما يقطع دابر جياش. ومما زاد أطماع سبأ أن زعماء تهامة وزبيد كاتبوه بأنهم سيتخلون عن جياش إذا ما نزلت جيوشه وأسرُّوا الغدر والمكر فغزا سبأ زبيداً في ثلاثة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل. وكان جياش قد أعد الجموع واستنصر بالشريف يحي بن حمزة بن وهاس صاحب مخلاف بن طرف.

فلما انتهى سبأ وجيوشه إلى زبيد ظهر كمين عليهم من الخلف مباغتة فيهم الشريف المذكور وغيره فوقعت موقعة الكظائم في يوم الجمعة الخامس من ذي الحجة سنة تسع وسبعين وأربعمائة. حيث دارت الدائرة على سبأ وجنوده وانهزموا وقتل الأميران قيس بن أحمد بن المظفر ـ أخو الأمير سبأ ـ ومحمد

ثم إن الداعي سبأ بن أحمد خطب الحرة السيدة بنت أحمد فكرهت ذلك وأنكرته فجمع جيشاً وجمعت أكثر منه وتصاف العسكران بذي جبلة فاقتتلا أياماً ثم قال له أخوها لأمها سليمان بن عامر الزواحي: والله لا أجابتك إلى مرادك إلا بأمر المستنصر بالله العبيدي فترك سبأ قتالها ثم رجع إلى أشيح وكان مستقر ملكه فكتب إلى المستنصر بالله في أثناء ذلك وأرسل بكتابه رسولين. فكتب إليها المستنصر بالله في أثناء كتابه ثلاثة أسطر يأمرها فيه بنكاح سبأ وسير إليها أستاذاً فلما وصل الرسولان والأستاذ بعث بهم الداعي إلى الحرة بذي جبلة فدخلوا عليها وهي بدار العز من جبلة فتكلم الأستاذ وهو واقف ووزراؤها وكتابها قيام لقيامه فقال: أمير المؤمنين يرد السلام على الحرة الملكة وأثنى عليها بالصفات الجميلة ومجدها إلى أن قال ولية أمير المؤمنين ويقول لها ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً﴾ الآية، وقد زوجك أمير المؤمنين من الداعي الأوحد ونعته بالصفات الجميلة، سبأ بن أحمد على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار عيناً وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف وألطاف وطيب وكساوي. فقالت أما كتاب مولانا وأمره فأقول فيه إنه ألقى إلي كتاباً كريم الآيات، ولا أقول في أمري: ﴿يا أيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً﴾ الآية. وأما أنت يا ابن الأصبهاني، وهو أحد الرسولين من سبأ إلى المستنصر، فوالله ما جئت مولانا من سبأ بنبأ يقين، ولقد حرفتم القول عن موضعه وسولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون. ثم تقدم إليها الأعيان ولاطفوها حتى أجابت إلى عقد النكاح ولم يلبث سبأ أن سار في أمم إلى ذي جبلة فأقام شهراً والضيافات الواسعة تخرج إليه الى مخيمة كل يوم وأنفقت على عساكره مثل ما قدمه من المهر ورأى من عالي همتها ما حقر نفسه معه وندم على خطبتها فأرسل إليها سراً يستأذنها في الدخول فأذنت فاجتمع بها ليلة ثم ارتحل صبيحتها وقيل إنما أرسلت بجارية تشبهها فنمى ذلك الى سبأ فباتت الجارية واقفة على رأسه وهو جالس لا يرفع إليها رأسه. فلما طلع الفجر أمر بضرب الطبول[1] فلم يجتمعا بعدها.

بن مهنا الصليحيان وحمل الشريف يحي بن حمزة علي القاضي عمران بن الفضل اليامي فطعنه طعنة مات بسببها بعد أيام ولكن لم يطل دم القاضي عمران بل قتل الشريف المذكور بعد ذلك على يد أحمد وأخيه الحسين ابني القاضي عمران انتقاماً لقتل أبيهما وأخذا بالثأر فوراً. وعقر فرس الأمير سبأ. فاضطر أن يسير راجلاً في غمار الناس حتى حمله بعض جنده على جواد، ولم تنزل العرب بعد ذلك إذ كانت هذه الموقعة الفاصلة في تاريخ هذه الحروب. وقد قيل في ذلك أشعار.

(١) في خ: طبوله.

ويقال إن سبأ بن أحمد ما شرب مسكراً قط ولا وطئ أمة ولم يزل بحصنه أشيح إلى أن توفي سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة.

ولما مات الداعي سبأ بن أحمد الصليحي خرجت صنعاء وأعمالها من مملكة الصليحي وارتفعت أيديهم عنها ولم يبق لهم بها ذكر واستولى على صنعاء وأعمالها السلطان حاتم بن الغشم وسيأتي ذكره. وأقامت السيدة بعد موت سبأ للذب عن مملكتها والقيام لدولتها المفضل بن أبي البركات الحميري[1]، وذلك أن التعكر كان لعبد الله بن محمد الصليحي أخي علي بن محمد الصليحي فولاه المكرم بعد قتل أبيه وعمه ابن عمه أسعد بن عبد الله الصليحي فساءت سيرته فنقله عنه وعوضه ريمة[2] وجعل أبا البركات بن الوليد والياً في التعكر وأعماله. وولى أخاه أبا الفتوح بن الوليد حصن تعز[3] فلما توفي أبو البركات بعد موت المكرم وجعلت السيدة ولاية التعكر لابنه أبي خالد بن أبي البركات ولم ترض بخروج أخيه المفضل بن أبي البركات عن حضرتها. فقتل أبو خالد بعد سنتين فطلع أخوه المفضل ابن أبي البركات والياً على التعكر فأظهر عداوة الفقهاء لأن الذي قتل أخاه أبا خالد الفقيه عبد الله بن المصوع[4] قتله استحلالاً لدمه لكونه اسماعيلياً فأعمل الحيلة في قتله ثم صاح

(١) في الأصول وصوابه أبا البركات بن الوليد الحميري كما سيأتي قريباً.

(٢) ريمة مخلاف من أغنى مخاليف اليمن وأفضلها تربة وخصبة وإنتاجاً، واسع الأرجاء فيحده من الشمال مخلاف حراز ومن الجنوب مخلاف الهان وآنس. ومن الشرق بقلان وأعشار ومن الغرب تصاقب تهامة، وهي جبال شامخة الذرى صعبة المرتقى ذات شناخيب.

(٣) حصن تعز هو المسمى اليوم القاهرة المطلة على مدينة تعز ويقال إن أول من اتخذه حصناً عبد الله بن محمد الصليحي أخو الملك علي بن محمد الصليحي. وهي عامرة اليوم تحتفظ بمهمتها وتستخدم مخزناً للحبوب ومستودعاً للذخيرة والعتاد الحربي وقد تشعثت.

(٤) هو الفقيه أبو محمد عبد الله بن أبي جعفر بن عمر بن إسحاق المصوع. كان عالماً فاضلاً أخذ الفقه عن أبيه أبي جعفر عمر الذي كان له صيتاً ذائعاً وتآليف نافعة. وكان له ولوالده دنيا عريضة ومال ونشب وكان في الفقيه عبد الله بلاهة وسذاجة وهي التي قربته الى الولاة الذين من جملتهم أبو خالد بن أبي البركات. كما أن سعة ماله وضخامة ثروته كانت تقحمه على مواساة الحاكم والإهداء له من الفواكه الجنية وأطايب الثمار وهو بمجموع ذلك ودينه وصلاحه وسلامة صدره فقد كان أبو خالد بن أبي البركات يأتمنه ويدخل عليه بدون حجاب في أي وقت شاء. فسولت له نفسه قتل أبي خالد على النحو الذي ذكره في الأصل.. وقال الجندي إن الفقيه المذكور عامل سلاطاً من عادته أن يطلع الحصن بالسليط ويدق الحصن. فملأ بطاطه - أي أوعية السليط - دنانير ودراهم وطلعا معاً فلما خلا الفقيه بالأمير خالد قتله ثم ظهر وصاح بانزعاج فتبادر إليه أهل الحصن فرأوا الأمير مقتولاً فقتلوه. وكان وطن الفقيه عبد الله وأهله بذي السفال بوادي ظباء فصادرهم الملك المفضل وكانت أموالاً كريمة

فتبادر اليه أهل الحصن فوجدوا الأمير مقتولاً فقتل الفقيه لأنه لم يشاور في قتل الأمير أحداً بل قدر في نفسه أنه إذا وجد المرتبون المال أطاعوه على مراده ثم قبض المفضل أموال الفقيه وبساتينه وأراضي قومه. ولم تكن السيدة تقطع أمراً دون المفضل فعظم شأنه ولم يبق في أعيان الدولة من يدانيه. وغزا تهامة مراراً فتارة له وتارة عليه. وهبط إلى عدن مراراً. وكان شجاعاً شهماً له مكارم جواداً ممدحاً. ومن مداحه موهب بن حديد المغربي[1] فمن مديحه فيه قوله:

يا مالك الدين والدنيا وأهلها | ومن بعروته الوثقى ممتسك
قد قيل جاور لتغنى البحرَ أو مَلِكا | وأنت يا ابن الوليد البحر والملك

وهو الذي جر الغيل من خنوة إلى الجند[2] واستخرج للحرة السيد نصف خراج عدن من آل زريع حين تغلبوا عليها.

ومدحه القاضي أبو بكر اليافعي[3] فقال:

= وصيرها في حوزته. قال الجندي: وذكروا أن غالب الصوافي في ذي السفال له. وهرب معظم الفقهاء عن مجاورته خوفاً من سطوته.. وكان ذلك في حدود الثمانين.

قلت: وتوجد في مدينة ذي السفال ثم في قرية الأكمة أعلى وادي ظباء ضيعة جميلة تسقى بماء عد تسمى البساتين.. ويقال إنها في مسودة وقفية الملك المظفر الرسولي.

ولا زالت مقبرة علماء بني المصوع معروفة إلى هذا العهد بذي السفال، راجع تاريخ الشعبي.

(١) لم أجد له ترجمة فيما بين أيدينا من المصادر.

(٢) خنوة بكسر الخاء المعجمة والنون الساكنة بعدها واو وهاء. قرية تسمت بها عزلة خنوة الواقعة في منتهى مخلاف جعفر متصلة بوادي ظباء من أعمال ذي السفال وذي أشرق وفيها واد كبير خصيب يسقى بماء منهمر لأن مآتي مصباته من التعكر وجباله وهو أحد مصبات وادي لحج ومن محصولاته الكثيرة البطاط والطماطم والفاصوليا وغيرها. وقد أدخل إليها شجرة البرتقال واليوسفي.

(٣) هو أبو العتيق أبو بكر بن الفقيه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم اليافعي نسباً الجندي بلداً. ترجم له عمارة وأثنى عليه ثناء حسناً كما أطال في ترجمته الجندي. مولده سنة ٤٩٠ تسعين وأربعمائة وتوفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة وقبر بالجند.. قال: قاضي اليمن المنوطة به أحكام صنعاء وعدن وزر للدولتين الدولة الزريعية والدولة الوليدية الحميرية. أخذ علم الأدب عن النعمان والرشيد الزبير المصري ولازم كثيراً علامتي اليمن يحيى بن أبي الخير العمراني وزيد بن عبد الله اليفاعي المعافري حدث عن نفسه أنه بلغ عشرين سنة وهو لا يقلد أحداً في مسألة. وكان مسدداً في أحكامه سخي النفس مؤلفاً لأصحابه عالي الهمة باذلاً جاهه وماله في منافع الإسلام. استوهب خراج الفقهاء في الأجناد خاصة. ثم سئل لهم التخفيف عن أراضيهم الى حيث يبلغ الأذان فأجيب إلى ذلك واستمر ذلك إلى عصر الجندي.. قال عمارة: كان القاضي أبو بكر من فضلاء الإسلام وأعيان الأنام مجيداً وله بديهة

وأجـــل مكـــرمـــة لـــه وفضيلـــة ... إجـــراؤه للغيـــل في الأجنـــاد
شـق الجبـــال الشـــامخات ببـــأســـه ... وكـــأنما كـــانـــت تُعـــاب وهـــاد

وذلك أنه حفر في الصفا حتى أخرق بعضها إلى بعض وأجرى الماء في مواضع لا يصدق بها إلا من رآها[1] وبنى مسجد الجند ولم يزل على بنائه إلى أن هدمه مهدي بن علي بن مهدي فأخربه وأحرقه حتى قدم سيف الإسلام فزاد في سمك المسجد ما هو مبني الآن بالآجر. هكذا قاله الجندي في تاريخه.

= لا فضل في الرواية عليها أدركته خصيصاً بملكي اليمن المنصور بن المفضل والداعي محمد بن سبأ. وغالب ديوانه في مدحهما ولا سيما منصور. وكان حسن التأني في المقصد سهلها جامعاً لجواهر الفنون. خطيباً مصقعاً كامل الفضيلة. وكان يرتجل الخطبة من ساعته متى أراد وديوانه مجلدان معتدلان وشعره حسن رائق يحتوي على الجد والهزل والجليل والدقيق والجزل. وكان نزيهاً عن الحسد الذي يبتلي به مخالطو الملوك والرؤساء كما هو مشاهد لا يحبون أن يجري على أيديهم شيء من الخير إلا النادر وهو لا حكم له. وربما أن الملوك متى علمت خيراً سعوا في إفساده وتغييره لا سيما إن عملوه بغير سعايتهم أو إشارتهم وربما حملهم على أمور شتى، راجع تاريخ عمارة بإخراجنا.

(١) زاد الخزرجي ما لفظه: ثم لما جاء بين جبلين أمر الصناع فبنوا جداراً من الجبل إلى الجبل طوله مائتي ذراع وعرضه نحو من عشرة أذرع بالحديد وارتفاعه نحو من خمسين ذراعاً بحيث لو رآه شخص قال ما فعل هذا إلا الجن.. وبنى مسجد الجند وجدد بناؤه من المقدم والجناحين.

قلت وأنا شاهدت هذه المكرمة التي لا تزال آية من الآيات ولا غرابة إذا قيل إنها من صنعة الجن كما قال أبو العلاء المعري:

وقـــد كـــان أربـــاب الفصـــاحـــة كلما ... رأوا حسنـــاً عـــدوه مـــن صنعـــة الجن

فإن الوصف يقصر على الإحاطة بهذه العملية الجبارة، ومن توفيق الله للمفضل أنه أجرى الماء على طريق السابلة والماشية وعلى قرى الجند النازحة في تعاريج والتوى ليكون النفع بذلك عظيماً رغم ما في ذلك من صعوبة ومشاق وبعد مسافة، أما الجدار الذي كان موصولاً به الجبل ليمر عليه الماء إلى تلك المنطقة فإن سيلاً عظيماً دفع بشدة في العصور القريبة، فألقاه صريعاً كأنه تل عظيم وفيه صنعة غريبة الإتقان بفن معماري عجيب بحيث كانت بطانته متلاحمة الصخور بعضها في بعض من صغار وكبار قد صب عليها القطر والجص ونحوهما ولا يستطيع أي إنسان مهما كانت قوته نزع حجر من أختها إلا إذا كسر بالمعاول والزبر وانقطع الغيل عن الأجناد برهة من الزمن إلى أن قيض الله الشيخ العارف المفضال محمد بن عبد الله بن عمر بإسلامه الحضرمي الكندي فقام بتحويل مجرى الماء بأن عمل ساقية في تعاريج بمسافة بعيدة حتى أوصله بالجبل الذي فيه الفوهات والخروق فجزاه الله خيراً واليوم في سنة ١٣٩٨هـ ومن قبل خمس سنوات قد انقطعت الساقية إلى الجند وعن مسجده ومن القرى لسوء إدارة المسؤولين واشتغالهم بالترهات.

وكان التعكر مقر ذخائر بني الصليحي التي صارت إليهم من ملوك اليمن وكانت الحرة تطلعه من ذي جبلة في الصيف فإذا برد الوقت نزلت إلى ذي جبلة والمفضل يتصرف عن أوامرها ويدخل إليها مع خواص وزرائها، والأزمة الأكابر من عبيدها، فقال المفضل للحرة يوماً وهو في التعكر انظري إلى ما في هذا القصر من ذخائرك فانزلي به إلى دار العز واعزليه في بعض هذه القصور وأما هذه الحجرة فلا طاعة لك علي فيها بعد هذا اليوم فقالت له لو لم تقل بهذا القول ما أحوجتك إليه الحصن حصنك وأنت رجل البيت ولا حرج عليك فخجل منها وأطرق ونزلت إلى ذي جبلة ولم تغير من الأموال شيئاً فكان بعد ذلك يترضاها في طلوع الحصن كعادتها فلم تفعل وهي مع ذلك تواصل بره بالذخائر من الجواري الحسان وغيرها وفي سنة أربع وخمسمائة بعثت المفضل مع منصور بن جياش مناصراً له على أخيه لأنه استنجدها عليه، فأخذ له زبيد وهمَّ المفضل أن يغدر به ويأخذ زبيد فبينما هو على ذلك وصله الخبر بأخذ التعكر فخرج لا يلوي على شيء فحاصر التعكر مدة وكان الذي استولى عليه متوليه وهو رجل من الفقهاء حسن له فقهاء المخلاف ـ وليسوا من أهل السنة ـ الخلاف على المفضل، فاستولى عليه لما فيه من الأموال ووافقهم ابن عم المفضل فحصرهم المفضل حصراً شديداً فقال بعض الفقهاء المحصورين لا أموت حتى أقتل المفضل ثم بعد قتله أهلاً بالموت فعمد إلى حظايا المفضل وسراريه فأطلعهن سقوف الدار لابسات مصبغات الثياب وأمرهن بالضرب بالدفوف والمفضل يرى ذلك وكان غيوراً فأخذه بطنه وقيل مص بيده خاتماً مسموماً فأصبح ميتاً سنة أربع وخمسمائة [1] ثم إن السيدة استعادت الحصن صلحاً واشترط عليها الفقهاء شروطاً فوفت لهم بها وولت

---

(١) وذلك في شهر رمضان وقبر بحصن عزان كما في الخزرجي وعمارة في تحديد السنة وفي ابن سمرة أن ذلك سنة تسع أو ثمان وخمسمائة، وكان على رأس الثائرين عم الفقيه عمارة اليمنى وهو ابراهيم بن محمد بن زيدان ولعل هذه الثورة قامت بإيعاز من السيدة الملكة لما أساء إليها المفضل تلك الإساءة القارصة التي احتملتها على مضض ولم تقابله إلا بالجميل حتى أمكنتها هذه الفرصة لتعرفه قدر نفسه على أيدي الفقهاء المذكورين الذين يعدون من حملة العلم والبيان لا من حملة السيف والسنان ولا من أهل الضرب والطعان ولكن الفقهاء وحدهم غير قادرين لإدارة الثورة والثبات عليها فأوحت إلى بني الزر وسائر خولان وابن عم المفضل وهو أسعد بن أسعد بمؤازرتهم فلما رأت المفضل في مأزق حرج أمرت بني الزر أن يتخلوا عن الفقهاء الأمر الذي جعلهم يعدلون الى تلك الحيلة التي سببت إلى قتل المفضل وأرته غرضها ودهاءها من طرف خفي ومما يؤيد هذا ما في النخسة المنقطعة حيث قال: ولما فعل بالفقهاء ما فعل كرهوه واستحلوا دمه لقبح مذهبه وانقبضت منه السيدة إذ فهمت منه الطمع في ذخائرها التي معها في ذي جبلة.

الحصن مولاها فتح بن مفتاح [1] فلبث ما شاء الله ثم تغلب على الحصن ثم خرج منه بحيلة [2].

ثم أقامت السيدة مقام المفضل في الذب عن مملكتها ابن عمه أسعد بن أبي الفتوح بن العلاء بن الوليد إلى أن غدر به رجلان من أصحابه فقتلاه في حصن تعز [3] سنة أربع عشرة وخمسمائة. وكان قد قدم قبل ذلك علي بن ابراهيم بن نجيب الدولة داعياً سنة عشر وخمسمائة [4] وكان عاقلاً متبصراً في مذهب الشيعة فتركته السيدة على بابها فغزا الأطراف وقويت شوكته واستخدم أربعمائة فارس من همدان وأمنت البلاد.

ولما مات الأفضل ابن أمير الجيوش وزير الخليفة بمصر سنة خمس عشرة وخمسمائة قام بالوزارة بعده ابنه المأمون بن الأفضل [5] وكتب إلى ابن نجيب الدولة ففوض اليه الجزيرة اليمنية وشد أزره وبسط لسانه وأمده وسير اليه أربعمائة قوس وطرد خولان عن جبلة ونواحيها وكانوا قد احتقروا السيدة لعدم القيام بأمرها فلما رأت ذلك اسكنته الجند لوطائها وانكشاف جوها.

وفي سنة ثماني عشرة وخمسمائة غزا ابن نجيب الدولة زبيد فقاتل أهلها على باب القرتب

---

(١) كان في الأصل والخزرجي فتح بن فتح وفي النسخة المنقطعة فتح بن مصباح بالصاد بعد الميم وفي ابن سمرة، كما في الأصل.

(٢) الحيلة التي دبرتها السيدة الملكة لإخراج مولاها فتح بن مفتاح من حصن التعكر هي أنها أمرت بني الزر الخولانيين أن يخطبوا منه ابنة له لواحد منهم فزوجه بها فلما كانت ليلة الزفاف وصل منهم جماعة فلما دخلوا الحصن وتمكنوا منه أخرجوا فتح بن مفتاح منه ثم أعملت حيلة أخرى لإخراج بني الزر من التعكر وهذه من الحيل الكثيرة التي ضمنت للملكة السيدة أن تظل متربعة على كرسي ملكها محترمة مهابة زمناً طويلاً لحسن نواياها وطيب سريرتها وتوفيق الله لها إلى أن توفاها الله سعيدة خالدة.

(٣) قد تقدم الكلام على حصن تعز.

(٤) الذي في الخزرجي وعمارة أنه كان خروج ابن نجيب الدولة في سنة ثلاث عشرة وكان يلقب بالأمير المنتخب عن الخلافة الفاطمية فخر الدولة الموفق في الدين داعي أمير المؤمنين، وكان في ابتداء أمره على خزانة الكتب الأفضلية وكان غزير الحفظ قائماً على تلاوة القرآن على روايات.

وكان معه يوم خرج عشرون فارساً مختارين منتقين، ولما وصل إلى جزيرة دهلك اتصل به محمد بن أبي العرب المرسل من عدن للقائه فكشف لابن نجيب الدولة أسرار اليمن وأحوال الناس كلهم وأسماءهم وحلاهم وكناهم وتواريخ مواليدهم وما تحت ثيابهم من شامة وثلول أو جراح أو أثر نار فكان ابن نجيب الدولة إذا سألهم عن غوامض هذه الأشياء اعتقدوا أنه يعلم الغيب، وقد كانت نهاية ابن نجيب الدولة ما يأتي ذكره بعد.

(٥) راجع خطط المقريزي.

فرمى حصانه فـي منخره فشب به فصرع[١] وقاتل عنه فرسانه وأردفه أحدهم فسلم ثم رجع إلى الجند بعد أن أشيع قتله، وفي السنة التي بعدها ساءت سيرة ابن نجيب الدولة على السيدة فاستخف بها وقال إنها تستحق الحجر، وأظهر خلافها فجهزت له جيشاً فحاصره فأغرت به ملوك اليمن[٢] وكان لا يخالفها أحد منهم في حرب أو صلح فحصروه في الجند وكانت مسورة ومعه فيها أربعمائة فارس من همدان وغيرهم، وكان السلاطين الذين حاصروه في ثلاثة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل، وكانت فرسانه تقاتلهم على باب المدينة أشد قتال، فلما اشتد عليه الحصار بعثت الحرة إلى وجوه القبائل منهم بعشر آلاف دينار مصرية وقالت للرسول: أشيعوا في الناس أن هذا من ابن نجيب الدولة فطلبت العساكر من سلاطينها أن ينفقوا عليهم وإلا ارتحلوا فلم يعطوهم فارتحلوا وتفرق الناس، وقيل لابن نجيب الدولة هذا من تدبير التي قلت انها قد خرفت فركب إليها إلى ذي جبلة واعتذر مما كان منه وذلك في سنة عشرين وخمسمائة، ثم قدم رسول من مصر يسمى الأمير الكذاب[٣] فاجتمع بابن نجيب الدولة في مجلس حافل بذي جبلة فلم يحتفل به ابن نجيب الدولة بل أغلظ القول له وأراد أن يغض منه فقال له أنت وإلى الشرطة بالقاهرة فقال بل أنا أظلم[٤] جبار من فيها عشرة آلاف والتصق به أعداء ابن نجيب الدولة وأكثروا بره وأهدوا له التحف فضمن لهم هلاك ابن نجيب الدولة وقال اكتبوا معي أنه دعاكم إلى نزار[٥] وراودكم على البيعة واضربوا لي سكة نزارية فأنا أوصلها إلى الخليفة الآمر بأحكام الله[٦] ففعلوا وأوصل ذلك إلى

(١) شب الفرس: إذا رفع يديه في نفور. قال عمارة وكانت الوقعة ظهر يوم الجمعة فأصبح الفرس يوم السبت في الجند وبينها وبين زبيد أربعة أيام، ولم يمس الخبر إلا بذي جبلة وعاد ابن نجيب الدولة بعد أربعة أيام.

(٢) من السلاطين والملوك الذين استجابوا أوامر السيدة الملكة وحاصروا ابن نجيب الدولة سليمان وعمران ابني الزر وسبأ بن أبي السعود بن زريع وأبو الغارات بن زريع وأسعد بن أبي الفتوح والمنصور بن المفضل وغيرهم.

(٣) راجع ترجمته في ابن خلكان والخطط.

(٤) الذي في عمارة بل الذي يلطم جبار من فيها وفي الخزرجي الطم.

(٥) قصة النزارية طويلة الذيول، راجع خطط المقريزي.

(٦) يكنى أبا علي واسمه منصور بن المستعلي بالله أبو القاسم بن المستنصر العبيدي بويع بعد موت أبيه المستعلي سنة خمس وتسعين وأربعمائة وعمره خمس سنين وشهر وأربعة أيام وهو أصغر خليفة من خلفاء العبيديين تولى بهذا السن المبكر وأقام في الخلافة تسعاً وعشرين سنة وثمانية أشهر ونصفاً وقتل سنة ٥٢٤ وكان قبيح السيرة ظالماً للناس يأخذ أموالهم ويسفك دماءهم وارتكب المحظورات واستحسن القبائح فابتهج الناس بقتله.

الخليفة فبعث الخليفة ابن الخياط إلى اليمن بمائة فارس وأمره بقبض ابن نجيب الدولة فقدم على الحرة فامتنعت من تسليم ابن نجيب الدولة إليه وقالت أنت حامل كتاب فخذ جوابه وإلا قعدت حتى أكتب إلى مولانا ويعود جوابه فخوفها وزراؤها بسوء السمعة بالنزارية ولم يزالوا بها حتى استوثقت لابن نجيب الدولة من ابن الخياط بأربعين يميناً وكتبت إلى الخليفة وسيرت كاتبها محمد بن الأزدي رسولاً مع هدية سنية منها زبدية قيمة الجوهر فيها أربعون ألف دينار وشفعت فيه وسلمته إليهم فلما فارقوا ذي جبلة بليلة جعلوا في رجله لبنة حديد زنتها مائة رطل وشتموه وأهانوه وبات في الدهليز عرياناً في الشتاء وبادروا به إلى عدن وسفروه في جلبية سواكنية[1] وأخذوا رسولها ابن الأزدي بعد ذلك فغرقوه على باب المندب[2] فجزعت السيدة حيث لا ينفعها ثم ان الحرة أقامت الداعي ابراهيم بن الحسن الحامدي فتوفى سريعاً، وفي أثناء مدته مات الخليفة الآمر بأحكام الله العبيدي وقام الحافظ[3] بعده فأضافت الحرة دعوته إلى آل زريع بن العباس اليامي فوليها منهم سبأ بن أبي

---

(١) الجلبية: السفينة ولم أطلع على تفسيرها فيما تحت يدي من الكتب والسواكنية نسبة إلى سواكن وهي جزيرة حسنة آهلة بالسكان إلى هذا العهد محاذية لجدة ثم اطلعت على رحلة ابن بطولة فقال في ص ١٥٤ من طبعة ١٣٤٦ جزء أول «ثم ركبنا من جدة في مركب يسمونه الجلبية» ومن هنا يتبين أن الجلبية مركب، وفي الخزرجي أن حادثة ابن نجيب الدولة وابن الأزدي كانت في أول يوم من رمضان ولم يعين السنة.

(٢) لم أجد لمحمد بن الأزدي ولا للحامدي ترجمة ولعله المقبور في حراز.

(٣) هو الحافظ لدين الله عبد المجيد بن الآمر أبي القاسم بن المستنصر العبيدي فهو ابن عم الآمر بأحكام الله ولد بعسقلان حين ما كان والده مقيماً بها من شدة القحط بمصر سنة سبع وقيل ثمان وتسعين وأربعمائة ولم يبايع وإنما أقاموه لينظر في الأمور بالنيابة حتى يكشف عن حمل إن كان للآمر بأحكام الله، ولما تولى استوزر أبا علي بن الأفضل بن بدر الجمالي فاستبد بالأمر وتغلب على الحافظ وحجر عليه وأودعه خزانة البنود لا يدخل إليه أحد إلى أن قتل الوزير المذكور سنة ست وعشرين وخمسمائة فاستقامت أمور الحافظ حتى توفي ليلة الخميس من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة وكان حازماً سيوساً كثير المداراة عارفاً جماعاً للمال مغرى بالنجوم يغلب عليه الحلم.

روى القاضي المكين عن الحافظ أنه رأى وهو في معتقله كأنه جلس في مجلس القصر بغرفة وكأن الخلافة قد أعيدت إليه وكأن المغنيات قد دخلن يهنئنه ويغنين بين يديه وفي جلتهن جاريته الحافظية فأخذت عودها وغنت قول أبي العتاهية:

أتته الخلافة منقادة ... إليه تجرجر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ... ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره ... لزلزلت الأرض زلزالها

وكأنه قام إلى خزانة أخذ منها حقة فيها جوهر فملأ فمها منه ثم استيقظت فوالله يا قاضي ما كان =

السعود بن زريع ثم وليها عقبه من سيأتي ذكره بعد إن شاء الله. وتوفيت الحرة السيدة بذي جبلة سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وعمرها ثمان وثمانون سنة وقبرت بالجامع الذي أنشأته بذي جبلة في غربي المقدم وكان فيها من الكمال والكرم ما هو مشهور [1]. وانتقل ما كان تحت

= إلا يومان حتى كسر الحبس وقيل لي السلام على أمير المؤمنين فلما خرجت وأقمت أياماً جلست ذلك المجلس الذي رأيته في المنام ودخلت الجواري يغنينني فغنت جاريتي ذلك الصوت بعينه فقلت لها على رسلك حتى نقضي نحن أيضاً حقك وما يجب علينا وقمت إلى الخزانة فأخذت الحق الذي فيه الجوهر ثم جئت لها فقلت افتحي فاك ففتحته وحشوته جوهراً وقلت لك علينا كل سنة مثل هذا في مثل هذا اليوم.

(١) قلت ولها من المفاخر والمحاسن والمآثر الخالدة ما يجل عن الوصف ولا بد أن نحلي جيد هذا التعليق بجواهر يتيمة في وصف هذه الملكة الخالدة الذكر التي ملأت الزمن محاسن وعوارف وتدفقت ينابيع فضلها سلفاً وخلفاً لأنه لا يسع المؤرخ المنصف أن يمر دون أن يقف أمام تاريخ هذه الملكة الفذة موقف الإجلال والتعظيم ويحني القلم خاشعاً باهتاً لما سجلته من الأخلاق الرفيعة والمبرات العظيمة التي أزرت بأعظم الملوك وجعلتهم يستحقرون أنفسهم جنب ما خلفت من فواضل وفضائل.

فهي ربة التاج والجمال وصاحبة القلم الذي يقوم مقام الجحفل الجرار ذات العظمة الباذخة والعزة الشادخة والمجد الذي لا يزال على مر الأيام والدهور يرتل آيات أعمالها المعجزة في خشوع وقداسة ويتلو فخوراً صفحات تاريخها الناصع كافلة المؤمنين وسيدة ملوك اليمن الميامين بلقيس الصغرى غوث الضعفاء والأيتام.

حَصَانٌ رزان لا تزن بريبة

إسمها السيدة بنت أحمد بن محمد بن القاسم بن المظفر بن علي بن يوسف بن عبد الجبار بن الحجاج الصليحية كذا ساق نسبها الملك الأشرف في كتابه طرفة الأصحاب وتلقب بالحرة وبالسيدة الملكة وأمها رداح بنت الفارع بن موسى بن المظفر الصليحي، وكان ولادة السيدة في سنة أربع وأربعين وأربعمائة وكفلها الملك الكامل علي بن محمد الصليحي وزوجته الملكة أسماء بنت شهاب وهي صغيرة لأن أباها أحمد بن محمد مات تحت أنقاض الدار الذي انهدمت عليه بثغر عدن حيث كان والياً هنالك من قبل الصليحي فنشأت نشأة طيبة بحيث لقيت من عناية الملك والملكة الشيء العظيم وخصاها بعناية امتازت به عن سائر أولادهما فكانت مثال التقوى والصلاح والعفاف وكانت ربة القصر وسيدته بلا منازع وتعلمت الأدب وسائر الفنون وخصصت قسطاً من حياتها في مطالعة ذلك حتى أصبحت كاتبة فذة أديبة عالمة بأيام العرب وأحوالها والفنون ومكنونها، ذات دهاء وسياسة خارقة حتى روي أن الملك الكامل قال لزوجته أسماء أكرميها فهذه والله كافلة ذرارينا القائمة بهذا الأمر لمن بقي منا، وروي أن السيدة رأت رؤيا قصتها على الملكة أسماء قالت فيها يا مولاتنا إني رأيت في المنام أن بيدي مكنسة وأنا أكنس قصر مولانا، فقالت أسماء بنت شهاب: « والله لكأني بك يا حميراء قد كنست آل الصليحي وملكت أمرهم » فكان كذلك.

ولما أراد الملك علي بن محمد الصليحي أن يزوجها بابنه الملك المكرم أصدقها خراج عدن دائماً =

= ومستمراً وكان مائة ألف دينار وقد ظل يحمل إليها إلى أن توفي الملك المكرم في التاريخ المذكور آنفاً ثم لا زال كذلك ولكنه تارة ينقص وتارة يزيد إلى أن تغلب آل زريع على عدن كما يأتي وكما سبق ولما حان القران السعيد أقيمت المهرجانات الضخمة والمآدب الجفلى والأعراس الكبيرة والأفراح العظيمة حتى عم السرور طبقات الشعب بما أغدق عليهم الملك الكامل من النوال والإحسان، وتبارى الشعراء والأدباء في التهاني بغرر القصائد وملح الفوائد من ذلك قول ابن القم من قصيدة له:

وكــريمة الحسبين يكنــف قصرهــا　　أســد تخاف الأســد مــن صــولاتها

وتكـاد مـن فـرط الحيـا تغـض مـن　　تمثـــالها المرئـــي في مـــرآتها

ظفــرت يـــداك بها فبـــخ إنما　　لــك تــذخــر العليــاء مضنــونــاتها

فأنجبت للمكرم من الأولاد أربعة علي ومحمد وفاطمة وأم همدان فأما علي ومحمد فماتا طفلين، ويقول كتاب: «الصليحيون» إن علياً تولى الملك بعد وفاة والده الملك المكرم برهة قصيرة وهو دون الحلم وأما أم همدان فتزوجها أحمد بن سليمان بن عامر بن سليمان بن عبد الله لزواحي فرزقت منه بعبد المستعلي وتوفيت قبل أمها سنة ٥١٦ ست عشرة وخمسمائة، وأما فاطمة فتزوجها شمس المعالي بن الداعي سبا وكانت وفاتها بعد والدتها بسنتين وذلك في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، ولما تزوج شمس المعالي امرأة أخرى على بنت السيدة شكته إلى أمها فأمدتها بالمفضل الحميري وعساكر فلبست فاطمة بنت السيدة زي الرجال وخرجت من حصن زوجها «اشيح» وأوصلها المفضل إلى أمها الملكة وألح بالحصار على زوجها حتى أخرجه من ملكه وهرب من اليمن ثم عاد وملك بعض حصون أبيه حتى قتله المفضل بالسم سنة ٤٩٥ خمس وتسعين وأربعمائة.

ولما فوض الملك المكرم أمر المملكة إلى السيدة ومال إلى الدعوة والسكون قامت بنشاط سياسي منقطع النظير بحيث ضبطت الأمور وأحسنت التدبير وساست الناس أحسن سياسة بلين ورفق ورحمة وحنان فأغدق اليمن وأمرع في حين أخذت الحزم والصرامة في الأمور التي تحتاج إلى ذلك حتى صارت مضرب الأمثال وآية الإعجاب وهابها فحول الملوك ومردة السلاطين إلى أن مات المكرم فواجهتها مصاعب ومشاكل استطاعت بحنكتها السياسية ودهائها النادر وذكائها المشتعل وخبرتها الطويلة بدخائل الناس وضمائرهم أن تحتفظ بمنزلتها الرفيعة وتحوط ملكها بسياج من التبجيل والاحترام بحيث سيطرت على الملوك والأكابر واتخذت منهم عوناً ونصيراً للانتقام على من ينتقض عليها أو يحدث نفسه بخلافها وكانوا لها أطوع من البنان وأن مجرد جرة قلم يهرع الأعاظم والسلاطين ومن دونهم لتنفيذ سياستها وتحقيق آمالها ولحسن نواياها وصادق إيمانها تربعت قلوب الخاصة والعامة وكانت لهم كالأم الرؤوم وكانوا لها أولاداً بررة ولقد انتهجت من الدهاء والمكر ما يعجز عن ذلك أكبر سياسي محنك تخرج من اكبر جامعة حتى قال عمرو بن عرفطة الجنبي لما أمرته بقولها «إذا وقفت على أمرنا هذا فارتحل عن بلاد بني الزر مشكوراً»: «هذا وربك العز والطاعة».

وكان بابها ملتقى الأدباء والشعراء والعلماء والثقاة وامتدحت بغرر القصائد من ذلك قول ابن القم من قصيدة أولها:

أعلمــت أن مــن الرمــاح قــدوداً　　ومــن الصفــاح محاجــراً ونهودا =

يدها من الحصون والذخائر والأموال إلى منصور بن المفضل بن أبي البركات بن الوليد الحميري[1] فلما كبر وضعف عن كثير من الحركات وأحب السكون والدعة ابتاع الداعي محمد بن سبا بن أبي السعود منه الحصون والبلاد سنة ست وأربعين وخمسمائة بمائة ألف دينار. قال عمارة وهي ثمانية وعشرون معقلاً ما بين حصن ومدينة من ذلك جبلة وإب[2] والتعكر

= ومنها:

أعلى الأنام أباً وأكرم طينة ... وأتم أعرافاً وأصلب عودا
لو كان يعبد للجلالة في الورى ... بشر لكانت ذلك المعبودا
أو كان في أثوابها بلقيس ما ... هابت سليماناً ولا داوودا

راجع كتاب «الصليحيون» وأما مآثرها الجليلة فأكثر من أن تحصى ولا زالت ماثلة للعيان وعلى ألسنة العام والخاص فكم لها مساجد عامرة هي مثال العظمة والبهجة والرونق وأوقاف من أكرم الأموال تدر عليها وعلى الضعفاء والأيتام والعجزة والعلماء والمتأدبين بأجزل الغلال الأمر الذي جعلت ذي جبله مهبطاً لكل ذلك ولولاها لكانت أثراً بعد عين وكم عبدت طرقاً وأهملت أراضياً للماشية والسابلة ترعى وتسرح وتمرح وكم لها من فضل ومنة ونعمة ورحمة والخلاصة أن قلم البليغ يعجز عن الإحاطة بما سجلته ملكتنا الخالدة من صفحات أنصع من الشمس في رابعة النهار رحمها الله ورضي عنها وهذه قطرة من مطرة.

(١) الذي في طبقات ابن سمرة أنه تولى بعد وفاة السيدة الملكة ـ علي بن عبد الله الصليحي دون سنة ومات سنة ثلاث وثلاثين وبعده زوجته أسماء بنت محمد الصليحي استقامت مدة قصيرة وانضم إليها كحيل واسمه عبد الله بن محمد ثم خرج اليمن من أيدي بني الصليحي إلى الأمير منصور بن المفضل وانقضت دولة بني الصليحي سنة خمس أو ست وثلاثين وخمسمائة وكانت دولتهم تسعاً وتسعين سنة.

(٢) إب بكسر الهمزة ليست سوى مدينة الإقليم الأخضر تقوم على ربوة ذات قرار ومعين وتبدو مربعة الشكل على سفح جبل ريمان من بعدان مسورة بسور من الحجر المنحوت لها أربعة أبواب تحفها الأشجار المثمرة وتطل من الشمال على بطن السحول حتى منتهى عتمة ووصاب وكأنها عروس سافرة في جيدها عقد زبرجدي مستقبلة من الغرب واديها الجميل الأفيح وتلك المروج الواسعة فإذا اخضرت أرضه وبقلت ثماره ونمت زروعه واكتست هضباته انعكست أشعتها الزبرجدية على قصورها البيضاء الفضية حبتها روعة وجمالاً تخلب الألباب، ولها أصيل كأنه ذوب الذهب وحمرة خجل الحبيب، وتبدو قطعة منها على الجنوب كحسناء رائعة الجمال قد حسر بعض النقاب عن وجهها الفتان مهيمناً عليها من جهة الشرق جبل ريمان كأنه الأب الحاني على الأولاد الذي يمدها بخيراته في كل حين وبمائه العذب النمير الذي ينساب إلى منازلها كأنها ثعابين أو كأنها اللجين.

فهي فريدة الحسن والجمال ذات المناظر الطبيعية الخلابة لا سيما في موسم الصيف والخريف فإنها تصبح قطعة من الفردوس ولهذا قال الفيلسوف الأستاذ أمين الريحاني لما دخل اليمن واجتاز بها سنة ١٣٤١ «كأنها قبضة لؤلؤ على بساط أخضر» وقال القاضي علي بن صالح أبو الرجال من أعيان القرن الحادي عشر:

وحب[1] ونزل منصور بن المفضل إلى حصن تعز وصبر وهو أول من اتخذ ثعبات[2] منتزهاً وكان ينزل من الحصن فيقف بها أياماً ولم يزل كذلك إلى أن توفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة[3] فخلفه ابن له يسمى أحمد فقام مقامه إلى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ثم طلع مهدي بن علي بن مهدي من تهامة فابتاع منه الحصن وتعز وحب[4] وانتقل هو إلى الجند فسكنها إلى أن توفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة فهذا ما كان من أخبار الدولة الصليحية وما يتعلق بها وبالله التوفيق.

= تأمل إبا حين آب متيم كساها بديعاً من غلائلها الخضر
فشبهت مخضر الرياض ونهرها وقد ساح كالثعبان من شرقها يجري
زبرجدة خضرا جرى فوق وجهها قضيب من البلور والدور كالدر
إذا لبست ثوب الأصيل حسبتها عروساً كساها الحسنُ ثوباً من التبر
يكاد لمعناها ورقة طبعها تسيل على وسط البسيطة كالنهر
ولا عيب فيها غير أن ظباءها جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

(١) حب بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة المشددة هو المعروف قديماً بحصن القيل الكبير ذي رعين ومعقل عزه وهو جبل عال أشم نابت في بحبوحة جبل بعدان يسيطر على أجوائه وأرجائه وليس له معاند ولا ضد وهو من معاقله الفريدة.

(٢) حصن تعز قد تقدم ذكره. وأما صبر فإنه زنة كتف وهو من عيون جبال اليمن وأفضلها بركة وأغزرها مياهاً وأما ثعبات فهي بالثاء المثلثة والعين المهملة والباء الموحدة بعدها ألف وتاء مثناة من فوق فهي المحلة الواقعة في السفح المتصل بجبيل الجحملية والتي تبعد عنها بساعة إلا ربعاً في صعود تدريجي وكانت منتزهاً جيلاً ذات قصور فخمة وحدائق غناء بها أصناف الفواكه والخضارات تجري من تحتها الأنهار وقد أحاطتها السعادة حيناً من الدهر لا سيما في عصر الدولة الرسولية واليوم أنقاض وأطلال إلا بقايا بيوت ومساجد كالوشم متناثرة في ظاهر اليد وسوى فاكهة الرمان الكبير الحجم الحلو المذاق والخوخ ونحوه واليوم تدب اليها الحياة.

(٣) الذي في الخزرجي لبضع وأربعين وخمسمائة فما هنا مخالف لما ورد من أن منصور بن المفضل باع حصونه إلى محمد بن سبا الزريعي سنة ست وأربعين وخمسمائة إذ معنى هذه العبارة التي مرت إذا اعتبرناها أن منصور بن المفضل باع حصونه بعد موته وهو شيء لا يعقل فليراجع.

(٤) هذا مخالف لما تقدم إذ قد صار حصن حب في حوزة الداعي محمد بن الزريعي وهو المرجع.

الفصل التاسع

في ذكر ملوك صنعاء بعد الصليحيين

قال علماء السير والأخبار لما خرجت مملكة صنعاء من بني الصليحي بموت الداعي سبأ بن أحمد الصليحي سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة كما تقدم ذكره استولى على صنعاء وأعمالها السلطان الأجل حاتم بن الغشم المغلسي الهمداني [1] وكان من كملة الرجال [2] وكان له ثلاثة أولاد محمد وعبد الله ومعن فأما محمد فكان شجاعاً له وقعات مشهورة وفتكات عجيبة منها أنه سمع الطبول تضرب النوبة آخر النهار فارتاح ثم اهتز فأفرغ لأمته وركب جواده واعتقل رمحه ونادى في همدان فركبوا حتى بلغ بهم الموضع المسمى مصب الدروع [3] فقالوا له أين تريد وما عزمك؟ فقال: أريد أن نغزو نجران فقالوا له: إن بيننا وبينه عدة ليال ونحن بلا زاد ولا خيام ولا رواحل فقال ما لكم بد من ذلك فقالوا اتركنا نعود الليلة إلى صنعاء

---

(١) لا نعرف للسلطان حاتم هذا أوليات خولته إلى أن يتربع عرش التبابعة ولا ظهر على مسرح التاريخ أيام الدولة الصليحية كقائد وأمير أو قطب من أقطابها وإن كانت القصة التي تأتي تشير من بعيد إلى أنه قد تولى أعمال صنعاء للصليحيين وهذا مما يحتاج إلى بحث واستقراء. وكان آل المغلس من سادة همدان وأشرافها في سالف الأيام كما نوه بهم «لسان اليمن» في الجزء العاشر من الإكليل، وقد وهم القاضي أحمد بن صالح أبو الرجال في رفع نسبهم إلى آل عبيد الحجوريين كما وهم غيره في نسبتهم إلى الحجازيين القادمين لنصرة الصليحي.

(٢) مما يدل على كمال السلطان المذكور أنه لما غفل ملوك همدان سبا بن أحمد بن المظفر الصليحي وزريع بن العباس اليامي والمفضل بن أبي البركات الحميري والسيدة الملكة الصليحية ـ عن صنعاء بسبب غزوهم لأبين ولحج تحدث بنو شهاب لغزو صنعاء لقلة من فيها فاتفق حضور العلامة أبي السعود اليهري الحميري فقال لهم يا موالي هذا غير صواب لأن صنعاء لا تفتح بالهوينا وفيها حاتم بن الغشم وأنتم غير متيقنين الظفر فإذا غلبتم قصدتم إلى بلادكم وكانت الذلة، ولم يكن لأبي السعود غير النصح المحض لقومه فبلغ حاتم ذلك واتفق دخول أبي السعود صنعاء لبعض حوائجه فلم يشعر إلا برسول حاتم ففزع فأمنه ثم دخل عليه فتلقاه إلى الحجرة من داره بالترحيب والتكريم وقال أهلاً بك أبا حسان ثم أمره بالجلوس في موضع كرامة من المجلس ولم يدر أبو السعود ما السبب وقيل إنه أحضر له طعاماً للإكرام فاعتذر أبو السعود ثم أن حاتماً أمر خادمه سعيد بن نصر فأتى بدفتر يسميه كتاب الحسنات والسيئات فعلم منه على موضع من باب الحسنات وناوله أبا السعود وإذا فيه أبو السعود ابن أب ثور رجل من الشيعة حضر مشورة بني شهاب فقال كذا وكذا وإذا هو قد أثبت صفة كلام أبي السعود ثم أمر له بمائة دينار وجبة وقميص وثوب وعمامة فلم يقبل ولكن سأله أن يسهل له الحجاب.

(٣) لا يعرف اليوم بعد البحث عنه.

نتجهز ونخرج إليك في غد فقال لا بأس صبوا دروعكم ها هنا وادخلوا ففعلوا فسمي الموضع مصب الدروع من يومئذ ثم وافوه من الغد فغزا نجران فاستباحها وعاد وكان له خطرات واختلال فكان يقتل من أحبها من زوجاته فامتنع الناس من تزويجه وطرح جارية له كان يحبها وعليها حلي في قبة لليهود أو قدوها للفخار فاحترقت وندم وجاء ليطرح نفسه فمنع ثم تزوج امرأة من بني الصليحي[1] بعد جهد عظيم وكفالة أبيه أن لا يقتلها في محفل عظيم فقال له أبوه إن قتلتها قتلتك فتزوجها ثم قتلها بعد مدة ولحق بحصن براش صنعاء [2] فلم يزل أبوه يخادعه حتى نزل فلزم وقتله أبوه عند أكام الزبيب وقيل تحت المدرج [3] واحتز رأسه ودخل به صنعاء على رمح وكانت له بنت بصنعاء قد فقدته فلما علمت بخروج جدها للقاء أبيها فرحت وانتظرت وصوله ففوجئت برأسه فماتت لوقتها وتوفي حاتم الغشم سنة اثنتين وخمسمائة فولى بعده عبد الله بن حاتم سنتين وقتل بالسم فولي الأمر بعده أخوه معن ابن حاتم فحصل في دولته تشويش وتخليط على همدان أنكرته كبارها لا سيما القاضي أحمد ابن عمران[4] وهو يومئذ عالم همدان المرجوع إلى رأيه فجمع رؤساء همدان في الموضع

---

(١) زاد الخزرجي (أهل قيظان). ولا يزال لهم بقية في قرية المريس من عزلة الحرث: بعدان.

(٢) هو حصن منيع من جهة شرقي نقم ويسيطر عليه وله سور متين وباب واحد كبير ومساحة قطره ألف لبنة فأكثر فيه ما جل ومسجد وكهوف منحوتة ومدافن للحبوب وطريقه من شعوب فسعوان وتقدر مسافته من صنعاء اليه ساعة ونصف لما فيه من الالتواء والصعود. وهو اليوم خراب يباب قد تشعث وذهبت معالمه وبراش صنعاء أحد المواضع التي تحمل هذا الاسم وهو أشهرها ومنها براش صعدة، وبراش ضوران أنس وبراش حصن من نواحي أبين، وبراش عرش رداع وقد أصبح اليوم براش صنعاء موقعاً حربياً هاماً وفيه حامية مزودة بالعتاد الحربي الحديث.

(٣) آكام الزبيب معروفة لهذا العهد وكذا المدرج وهما سفح جبل نقم من غربيه وراء العرضي الأعلى بينهما وبين صنعاء ربع ساعة ولما قتل حاتم بن الغشم ولده المذكور للسبب الذي ارتكبه عيرته بنو الصليحي على غدر ابنه بقتل زوجته بعد أن ضمن عليه أمام وجوه العرب بأشعار جاء منها:

فقل للهمام الأريحي مجاهراً ... له بالذي تهوى وحل الجماجما
أتاني دني الفعل مذ أنت يافع ... وتكسب ما عنت الوفا واللوازما
فأصبح ما قد سنه ذهبت به ... زلازل هذا في القفا واللهازما

فأجابهم بعد أن قتل ابنه وحزن عليه حزناً عظيماً بأبيات يقول فيها:

وارتعت رأس الأريحي محمداً ... من البيض مشحوذ الغرارين صارما
وقلت له هذا جزاء بما جنت ... يداك وكان الله روحك راحما
وكنت إذا جشمته لملمة ... رأيت فتى للمعضل الخطب حاسما
وإن كشر اليوم العبوس رأيته ... إذا طاشت الأحلام أروع باسما

(٤) هو القاضي أحمد بن عمران بن الفضل اليامي والد السلطان حاتم الآتي ذكره وابن القاضي =

المسمى مصب الدروع وخلع معناً بمساعدة همدان سنة خمس وخمسمائة وقدم عليهم السلطانين الأجلين هشاماً وحماساً ابني القبيب[1] . فقبلوا ذلك على التزامهما العدل وحسن السيرة بالرعية فاجتمعت قبائل همدان ودخلوا بهما صنعاء وحصروا السلطان معن بن حاتم في الدرب[2] فخرج على يد القاضي أحمد بن عمران واستقر في حصن براش واستقام الأمر بأكبر ولدي ابن القبيب وهو هشام فحسن أمره واستقامت طريقته إلى أن توفي فانفرد بالأمر أخوه حماس إلى أن توفي أيضاً فتولى الأمر بعده السلطان حاتم بن الحماس بن القبيب وكان أعظمهم رياسة وأجرأهم شوكة[3] ، ولما حضرته الوفاة جمع إخوته وهم أبو الغارات وعامر وأبو الفتوح ومحمد وهو أصغرهم فحضهم على الألفة[4] وإن يجعلوا رئيسهم أبا الغارات وأن يحلفوا له فلم يفعلوا وقالوا لا نخلف ولا نقدم علينا إلا محمداً وكان أصغرهم فلما رأى ما هم فيه بكى فقالوا ما يبكيك فأنشد متمثلاً شعراً :

فما الموت أبكاني ولا القبر راعني ... ولا من حذار الموت يا صاح أجزع

ولكن أقواماً أخاف عليهم ... وأخشى بأن يعطوا الذي كنت أمنع

وتصبح آراء الرجال عليهم ... تجوز وإصلاح الدنية يوضع

ومات من ساعته فاختلفت إخوته وتفرقت آراؤهم فاعتزلهم أهل صنعاء فلما كانت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة اجتمعت همدان كافة وقصدت السلطان الأجل حميد الدولة حاتم ابن أحمد بن عمران بن الفضل اليامي[5] فحملته على القيام بالأمر والاضطلاع به فقام أتم قيام ودخل صنعاء بموكب في تسع مائة فارس من همدان وهو القائل شعراً :

= عمران المتقدم الذكر وإليه تنسب الروضة فيقال روضة أحمد ولا أعرف عن أحواله شيئاً ويكفي لعظمته برهاناً أنه استطاع أن يخلع سلطاناً ويقيم آخر .

(١) لعل القبيب بالتصغير فليس عندنا مصادر وأما الاسم الذي بعده فلم يظهر ضبطه فكتبناه على أصله وفي الخزرجي ابن « شخ » وهو أيضاً مشكل وبنو القبيب يا ميون ولم يحك لنا التاريخ عنهم سابقة ولا أولية ولا أين كان مقرهم.

(٢) كانت صنعاء مقسمة دروباً والذي كان ينزله الأمراء والملوك « درب القطيع » .

(٣) كانت تولية حاتم بن الحماس في السابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٢٧ وحكى الخزرجي أنه غزا بلاد جنب وقتل منهم مقتلة عظيمة في هران ذمار .

(٤) وقديماً حضوا على الألفة وتوحيد الصفوف وقد أرشد القرآن إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ وقال الشاعر :

كونوا جميعاً يا بني إذا اعترى ... خطب ولا تتفرقوا آحادا

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا ... وإذا افترقن تكسرت أفرادا

(٥) كان يلقب شجاع الدين وكان إماماً باللغة والأدب محققاً حافظاً لأيام العرب وأمثالها

يقولون لي قد حزت مملكة الدرب فادمن على اللذات واللهو الشرب
ولا تهجر الصهبا فهي لذيذة مسهلة ما كان من خلق صعب
فقلت اذهبوا عني فلست ببارحٍ على مذهبي حسبي به مذهباً حسبي
صبا القوم فانصبوا إلى أم دفرهم ولست بمنصب إليهم ولا صب

وكان له من المفاخر ما لم يكن لأحد قبله مع الفصاحة والرجاحة ولم يجتمع عتاق الخيل وجيادها عند أحد مثله، وكان حد ملكه من نقيل العابرة [1] إلى اليمن وإلى القبلة بركة جوب [2] المعروفة بالبحر، وكانت

وأشعارها متكلماً في كل نوع من أنواع الكلام والفنون بعبارات ملوك الكلام شاعراً مفلقاً له معرفة تامة بالطب والنجوم، وصفوة القول فقد كان السلطان حاتم فذاً في جميع الأخلاق الإنسانية السامية مع سماحة وجود ومكارم وإن أسرة القاضي عمران بن الفضل جد السلطان حاتم قد امتازت بالنبوغ والعبقرية والرياسة والسلطان واتسمت بأرفع الأخلاق فمن كرم وجود إلى وفاء ومروة إلى شجاعة وبطولة الى أدب وشعر الى فقه ولغة وكانوا مثال العظمة والإجلال بحيث كانوا مهبط القلوب تأوي إلى أكنافهم العلماء والشعراء الفضلاء والنبلاء ولعبوا دوراً هاماً في وطنهم العزيز وخلفوا سجلاً حافلاً بجلائل الأعمال وكتبوا صفحة ناصعة مكللة بالإعجاب والإكبار وستمر بك شذرات من ذلك ولعل لهم بقية فقد قال القاضي أحمد بن صالح أبو الرجال لما ذكر محمد بن حاتم قال عقبة على ما يقال قضاة غولة سعوان.

(١) نقيل العابرة بالعين المهملة وباء موحدة بعد الألف ثم راء وهاء جنوب صنعاء ويقع في بلد الحدا فوق قرية يكار الجهرانية.

(٢) جوب بالجيم والواو والباء الموحدة بلدة آهلة بالسكان من ظاهر البون الأسفل في الشمال الغربي من عمران البون ودعوتها من جبل عيال يزيد ثم من بكيل نسبت إلى جوب بن شهاب بن مالك بن معاوية بن دومان بن خيران بن بكيل بن جشم بن خيران بن نوف بن همدان، وكانت جوب في القديم معهد علم لمع منها كثير من حملة القرآن وطلاب العلم والأدب وجماع الكتب وقالة الشعر وقراء الحديث ومن شعرائها ربيعة الجوبي شاعر الملك علي بن محمد الصليحي وله خبر عجيب.

يروى أن ملك العرب علي بن محمد الصليحي دخل البون مرة فحط على بركة جوب فقام على رجليه وكشف عن ساعديه وأقبل على ملوك منهم ابن الكرندي ملك المعافر والتعكر وبنو مروان ملوك أشيح وأعمال الهان وبنو السخطي ملوك يحصب أهل منكث ودروان وبنو أبي الفتوح ملوك خولان العالية وابن شاول ملك عدن ونحوهم كالحواليين والهياثم والأتبوع وآل معن وغيرهم فقال يا سلاطين ويا مشايخ من كان أشجع أهل الجاهلية قالوا عنترة وعمرو بن معدي كرب وفلان وفلان قال والله إن عبد الأكبر بن وهيب أشجع من عنترة ومن أولئك، ثم قال من أكرم أهل الجاهلية قالوا حاتم طيء قال والله إن أبا عفير اللعوي أكرم منه رجل يقري الضيف من عدن إلى ريدة من صميم ماله. ثم قال من أشعر أهل الجاهلية قالوا امرؤ القيس قال، والله لإسماعيل بن علا أشعر منه. ثم قال من أعلم أهل الجاهلية =

صعدة[1] بيد الأشراف الهدويين.

وفي أيامه ظهر الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان عليه السلام[2] فاستولى على صعدة ونجران والجوف والظاهر[3] ثم بعد مدة طويلة اجتمع له العرب من كل مكان وهو ساكن بالجوف فخرج بهم لحرب السلطان حاتم بن أحمد وكان حاتم في نمو دولته ونفاذ صولته حتى قام له الإمام المتوكل أحمد بن سليمان سنة خمس وأربعين وخمسمائة فجاءته

= قالوا قس بن ساعدة الإيادي. قال والله إن تبعاً لأعلم منه ثم ركض برجله ثم قال اليوم ملكت اليمن اليوم ملكت اليمن يريد أنه لم يعتد مما كان ملكه قبل ملكه لأحيا همدان أبو العفير اللعوي الهمداني كان يسكن ريدة شهير، وعبد الأكبر بن وهب سيد همدان في عصره وآل وهيب الذي ذللهم الصليحي ويدل على شجاعة قيس بن الضحاك سلطان همدان في وقته أنه لما خرج إلى عبد الأكبر المذكور بعد قتل أبيه وقومه للمختار الناصر دخل البون في جيوش تكاد تملأ ما بين جبليه فهرب منه الناس فأتى آل وهيب إلى عبد الأكبر فقالوا ما وقوفك ها هنا وقد هرب الناس فقال ان لي صاحباً لا أعمل إلا برأيه فأشاوره قالوا فدخل على فرسه في معلفه وقال مخاطباً للفرس أهرب أم لا فصهل الفهرس فخرج إليهم وقال إن صاحبي أبي الفرار وأنا له مطيع ولم يبال بكثرة الجيوش ولا غير عليه. وأما تبع فهو التبع بن مسلم الحميري كان علامة عصره في شتى العلوم والفنون وأما إسماعيل ابن الأعلا فكان شاعراً مفلقاً من أعيان القرن الرابع الهجري.

(١) كان لفظ «صعدة» ساقطاً في الأصل وأثبتناها من الخزرجي.

(٢) هو الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان بن محمد بن المطهر بن علي بن الناصر أحمد بن الإمام الهادي يحيى بن الحسين الحسني وبقية النسب معروف.

كانت ولادته بظاهر حوث سنة خمسمائة ونشأ على البر والصلاح وارتشف معين العلوم على أعلام دهره حتى برع وفاق أقرانه وقرض الشعر وألف وصنف، ومن مصنفاته أصول الأحكام في الحديث محذوف الأسانيد يحتوي على قرابة ثلاثة آلاف حديث وهو مرجع ومعتمد الزيدية في علم الحديث وكتاب حقائق المعرفة والحكمة الدرية وقد ضمنها رفضاً شنيعاً وتشيعاً فظيعاً، ولما أدرك في نفسه استعداداً لتزعم الإمامة والقيام بأعباء الخلافة قام ودعا في بلد الجوف فظل متنقلاً في أحياء همدان لينظم حملة هجوم فأجابه من أجابه وغزا بهم نجران وذلك سنة ٥٣٢ اثنين وثلاثين وخمسمائة وما زال أمره يظهر وينتشر حتى سمعت به القبائل المجاورة لصنعاء وذمار فاستنهضوه لفتح صنعاء فتاقت نفسه لذلك فقدم إلى بيت بوس في سنة ٥٤٥ وهناك استجمع قواه للوثوب على صنعاء كما يذكره المؤلف في صلب الكتاب.

(٣) المراد بالظاهر هو ظاهر همدان وهما ظاهران: الظاهر الأعلى وسنامه بلاد وادعة والظاهر الأسفل وهو من وراء ريدة إلى البون وكلاهما من وطن همدان شمالي صنعاء.

القبائل كافة[١] وبنو شهاب وأهل حضور ومذحج وخولان[٢] فسار بهم نحو السلطان حاتم بن أحمد إلى صنعاء ووصل منه رسول إلى صنعاء خفية ليشتري له ورقاً وصابوناً وحوائج فعلم به السلطان حاتم فاستحضره واستخبر عن الإمام وأعطاه كتاباً يقول فيه شعراً :

أبالورق الطلحي[٣] تأخذ أرضنا — ولم تشتجر تحت العجاج رماح
وتملك صنعاء وهي كرسي ملكنا — ونحن بأطراف البلاد شحاح

فلما وصل إلى الإمام قال نعم والله لنأخذنّها إن شاء الله تعالى ثم نهض بعساكره من ذمار إلى الشرزة[٤] من بلاد سنحان[٥] وكان عسكره ثمانين ألفاً وخمسمائة فارس والباقي رجالة وفي ذلك يقول ولد السباعي[٦] :

ثمانون ألفاً كان عسكر أحمد — إليها فأمسى ملكه قبض خنصر

وكانت الوقعة بالشرزة فانكسرت همدان وقتل منهم خمسمائة وانهزم السلطان حاتم بن أحمد إلى صنعاء وتبعه عسكر الإمام قاصدين صنعاء فدخل حاتم صنعاء وخالف أهل صنعاء مع الإمام وأبلت همدان بلاء حسناً ، ولم تدع ممكناً من الشر ، فلما رأى الشيخ زيد بن عمر التعبري ما نزل بهمدان خاطب الإمام فيهم فأذم عليهم الإمام فخرج حاتم الى الإمام وهو

(١) لم تكن إجابة هذه القبائل بدافع رغبةٍ منها للإمام أو بوازع ديني لادخار ثواب الآخرة وإن كان المظهر ذلك بل ابتغاء حب العاجلة بالنهب والسلب لأن السلطان حاتم كان قد ضبط الأحوال وغل أيدي الفساد وضرب عليهم بيد من حديد فلما بلغتهم دعوة الإمام المتوكل استشرفوا إلى ما تصبو إليه نفوسهم، ودليل ذلك أن السلطان لما فرق جموع « جنب » كما سيأتي قريباً وصلت القبائل إلى الإمام وقالوا يا مولانا قد أخذنا بسببك لقمة كبيرة وإنا نحب أن تسوغها لنا وتهب لنا صنعاء أو عدن في هذه المرة ونخرج حيث شئت إما بيحان أو حضرموت أو نجران أو صعدة فقال أما صعدة والجوف فهي لي وأما غيرها فأخشى أن تحصل لكم لقمة أخرى فتأخذوننا وغضب عليهم وعاد إلى عمران الجوف.

(٢) المراد بخولان هذه خولان العالية.

(٣) الورق الطلحي نوع من القراطيس معروف لذلك الحين.

(٤) الشرزة بالشين المعجمة وراء وزاي بعدها هاء : موضع في جنوب صنعاء على مرحلة منها ، وهي مقابلة لقرية سيان وشرقي قرية شيعان.

(٥) سنحان ناحية من أعمال صنعاء ومخلاف ذي جرة ومن قراهم مقوله، وحزيز ووادي الأجبار ودار سلم وغير ذلك وهم بطون وقبائل وتقع في الجنوب الشرقي من صنعاء لمسافة ساعة ونصف.

(٦) في هذا العدد الضخم مبالغة جداً ، والذي في بعض التواريخ أن عسكر الإمام كان ألفاً وثمان مائة فارس فقط. وهذا أمر معقول ومقبول.

(٧) في الأصل ولده الداعي والتصحيح من الخزرجي.

في الجامع فلما استقبل الإمام قال له الإمام قد عفونا عنك يا سلطان العرب وأنصفه وأكرمه[1] فلما خرج السلطان حاتم من الدرب ورأى اجتماع الناس على حربه مع الإمام أنشد قوله:

غلبنا بني حوى بأساً ونجدة ولكننا لم نستطع غلب الدهر
فلا لوم فيما لا يطاق وإنما يلام الفتى فيما يطاق من الأمر

ثم خرج حاتم إلى المنظر[2] فأقام فيه أياماً وتفرقت همدان ثم نهض حاتم بن أحمد بعد أمور إلى حصن الظفر[3] ووقف إلى أن تفرقت جموع الأشراف ثم جمع همدان وقصد بهم صنعاء فلما علم بهم الإمام خرج وحط تحت براش وتحصن فيه واستنجد بجنب وبالعرب فسبقه حاتم بن أحمد وأوقع في المحطة التي للإمام فقتل منهم طائفة وعاد حاتم بن أحمد إلى صنعاء واستمر له الأمر في البلاد ثم عاد الإمام ثانية إلى بلاد جنب فأراد أن يجهزهم[4] الى صنعاء وكان بين جنب قتول كثيرة فأراد الإمام أن يصلح بينهم ويجمعهم فلما علم السلطان حاتم بذلك ركب في أفراس من همدان لا ثقل معهم ولا رجالة فوصل قريباً من ذمار وقد اجتمعت قبائل جنب[5] بأسرها لملقى الإمام أحمد بن سليمان ومن وافقه إلى العود إلى صنعاء، فلما أقبل السلطان حاتم ومن معه أنكرتهم جنب وقالوا نرى أفراساً وهي لا شك همدانية فعرفوا السلطان حاتم فرحبوا به ودخل منفرداً وسط الحلقة على حصانه معتقلاً

(١) راجع تاريخ عمارة من بإخراجنا.

(٢) المنظر هي الروضة المعروفة شمالي صنعاء بمسافة ساعتين، وهي مخرف عظيم ومنتزه جميل واليها ينسب العنب البياض الروضي الذي لا نظير له في الحلك وصدق الحلاوة حتى بولغ في ذلك بأن الطيور إذا أكلت منه ثملت ورؤيت سكرى بين خلبه وأفنانه، وتقوم في فسيح من الأرض قد أدير عليها سور من اللبن له بابان جنوبي وشمالي وفيها مسجد جامع وحمام.

(٣) وهو الذي يسمى اليوم «الظفير» من بلد بني شهاب وحضور وهو معاند لكوكبان من الجنوب وكان عداده من مخلاف شبام أقيان.

(٤) في خ فأراد أن يجيرهم.

(٥) جنب قبيلة عتيدة وجرثومة عظيمة لها صولات وجولات شغلت التاريخ بحوادثها طويلاً، وكانت مساكنها هران ذمار وسواده وما صاقب ذلك واليوم خاوية على عروشها لم يبق منهم باقية ولعلها انتقلت بعد حروب شديدة إلى مغارب ذمار فهناك مقاطعة تعرف بالجنبي نسبت إلى جنب بن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج، وبنو جنب ستة رجال منبه والحارث والعلي وسنحان وشمران وهفان، ويقال لهؤلاء الستة جنب لأنهم جانبوا أخاهم صدا وحالفوا سعد العشيرة وحالفت صدا بني =

رمحه فقال حياكم الله يا وجوه العرب لا يعيب عليّ من خلفي فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ولا وجهين في رأسه ثم قال وصلناكم يا وجوه العرب لأمر لكم فيه شرف ولنا فيه عز إلى حين، قال الخزرجي: يعني أن لكم شرف وصولنا إليكم ولنا فيه عز بكم لسلامة بلادنا من العدو. وهذا كلام مختصر بليغ فعرفت جنب مقصوده، فقال: لما علمت أنكم في طلب صلاح وأخذ ذمم بينكم وهدم قتول من عشائركم رأيت أن ألم شملكم وأقطع عنكم ما تحذرون وأتحمل من مالي ديات قتلاكم فحمدته على ذلك جنب ومن حضرهم من قبائل العرب ثم افترق ذلك الجمع وسار معهم إلى ذمار وكتب إلى أهله بصنعاء «مملوك بعضهم ووالد بعضهم، وشقيق بعضهم»، وهذا جامع:

ينبيهـــم حملـــي ديـــات عـــدة ... إن المكـــارم في الرقـــاب ودائـــع
فليسرعوا من فـورهـم تصـديـرهـا ... متعمـديـن نفاذ مـا أنـا صـانـع

ونفذ بكتابه رسولاً على الفور فما لبث إلا أن عاد الرسول بالمال وكانت ديات جمة فدفعها لجنب وفرق جموع الأشراف وعاد إلى صنعاء.

وكان السلطان حاتم بن أحمد فصيحاً بليغاً جيد السبك ومن شعره قصيدة له طويلة [1]:

ودمـت على ودي لـــه حين لم يـــدم ... وخير وداد المرء للمـــرء دائمـــه

= الحارث بن كعب، والقبائل التي تسمت بهذا الاسم عديدة منها هذه والثانية وهي الجرثومة الكبيرة التي تفرعت منها أخواتها ـ جنب التي في بلاد قحطان في حدود عسير معروفة للآن وجنب همدان وهي همدانية لا مذحجية وهي الواقعة في جنوب سودة خارف، ومخلاف جنب في بلاد بني شهاب من ملحقات صنعاء وهي حميرية وجنب في مراد على طريق ردمان وهي التي ذكرها لسان اليمن في صفة الجزيرة.

(١) وهي من فرائد الشعر وروائعه وأبياتها قرابة اثنين وأربعين بيتاً قد أثبتناها بأكملها في مفيد عمارة بإخراجنا فليرجع إليه من أحب الأدب وتراث آبائه وأولها:

أرقـت وطـال الليـل والعقـل نـائمـه ... وقـد أفلـت أشراطـه ونعـائمـه
وأورى زنـاد الهم في القلـب جـذوة ... إذا جـاشَ مـن تيـاره متلاطمـه

وآخرها:

فـدونكهـا كـالبـدر ليلـة تمـه ... وكـالعنبر الشحـري لاحـت لطـائمـه
يهـذبهـا فكـر تحضر بعـدمـا ... بـدا فهـو صمصـام الكـلام وصـارمـه
خبير بـأبكـار المعـاني وعـونها ... وبـالشعـر قـد نيطـت عليـه تمائمـه

وله قصيدة في مطاردة الذنب وكتبها إلى إخوانه راجع عمارة بإخراجنا.

وضاعت على قرب العهود عهوده وما نفعت أيمانه ولوازمه
أعاتبه حيناً وحيناً أصونه وطوراً أباديه وطوراً أكاتمه
وأرجو رجوعاً منه وهو مصمم على عيبه حتى كأني ظالمه
وما لامني إلا ملوم مفند ولا لامه إلا على النكث لائمه
وما أنا من إخلاصه الود أيساً وإن لج في إغرائه من ينادمه
دليل صفا الود في المرء بشره وشر خليل عابس الوجه واجمه
وللود ما بين الأخلا شاهد أحاديثهم عند المغيب تراجمه

وكان لحاتم بن أحمد من جياد الخيل ما لم يكن لغيره كما ذكرنا قبل هذا ومن جملتها الرازقي وهو مهر أحمر مصمت أقرح[1] جلب من نجد مع خيل كثيرة فاشترت كلها إلا الرازقي فإنه كان أعجف وكان الذين جلبوا الخيل قد ضربوا بيوتاً من الشعر في قرية المنظر فأشرف السلطان حاتم يوماً عليهم فرأى المهر المذكور قد ألجأته الكلاب إلى البيوت الشعر فوثب بيتين منها وثبة واحدة فقال أين نحن من هذا المهر فاشتراه من يومه وتولى تأديبه بنفسه وسماه الرازقي، وكان يصلي الظهر في المنظر ثم يركبه فيركضه[2] فيصلي العصر في شبام حمير تحت حصن كوكبان، فعل ذلك غير مرة وهو القائل فيه شعراً:

ليس للرازقي فيما علمنا الآن ذنب نعده في الذنوب
غير صبر وحدة ووقار ونشاط مع الوقار وطيب[3]

وتوفي السلطان حاتم بن أحمد في رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة في درب صنعاء ولما رأى جنازته الشيخ الأديب عبد الله بن علي[4] على أعناق الرجال من همدان وقد حملوه من درب صنعاء إلى المنظر قال شعراً:

---

(١) المصمت الذي لا جوف له ومن الخيل الذي يخالط لونه لون آخر، والأقرح الذي في جبهته قرحة بياض بقدر الدرهم أو دونه.

(٢) زاد الخزرجي «وما كان يطيب ويركضه إلا في قاع القبرين تحت المنقب وكان إذا ركبه قريباً من المنظر ركضه حوالى قرية ذهبان وأداره عليها خمسة أشواط، وهي أكمة كبيرة مائلة في الأرض متسعة ثم يلعبه وقدلان».

(٣) وقال فيه أيضاً:

ولي قائد نحو المنايا وسائق يسوق اليها أو إليّ يسوقها
وهن المنايا أي واد سلكته طريقي عليها أو عليّ طريقها

(٤) لا أعرف عن هذا الأديب شيئاً وقبر السلطان حاتم معروف الى اليوم شرقي الروضة ثم شمال الكلية الحربية اليوم، ويا ليت أنه يصان ويحافظ عليه بل قد هدم وسوي على الأرض.

حقـــاً أحـــاتم مـــا ينفـــك منصلتـــاً حيـاً وميتـاً أمـام الجحفـــل اللجـب
مـا أن رأينـا وهـذه عـادة خـــرقـــت طـــوداً يسير على الأعنـاق في خبـب

وتولى بعده ولده السلطان الوحيد علي بن حاتم فبايعته همدان ثم خالفت عليه وحلفوا لرجل يسمى محمد بن وهاس من آل القبيب فعلم بهم السلطان علي بن حاتم وكان قد خرج إلى حصن له فجمع القبائل ودخل صنعاء موكباً في مائة فارس [1] وقد اجتمع من همدان سبعمائة فارس عند باب الشعوب [2] فلما وصل السلطان تفرقوا وقصدوا مواضعهم وقاتله طائفة قتالاً عظيماً فدخل السلطان علي بن حاتم الدرب وخرج أخوه عمران بن حاتم وكان صبياً فقاتل في شوارع صنعاء فأصابه سهم وقيل حجر فمات فاضطربت همدان من موته خوفاً من أخيه السلطان فصاح الصائح أن السلطان قد وهب لهمدان دم أخيه عمران وهذا سيفه ذمة لمن أحب حضور دفنه فحضرت همدان وقبر الصبي في مقابرهم واستمرت الأمور على أحسن نظام وأخذ السلطان ذمرمر وكوكبان والعروس [3] وكان لبني الزواحي

---

(١) وفي الخزرجي « ومن الرجالة خلق كثير ».

(٢) هو الباب الشمالي لصنعاء والضاحية أمامه إلى قرب الروضة وفيها البساتين وأصرام وآبار كثيرة نسب الى شعوب بن جشم العظما بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير بن سبأ الأكبر.

(٣) ذمرمر حصن منيف شامخ الأركان صعب المرتقى ومساحة سوحه تقدر بسبعمائة ذراع مربع الشكل وفيه ما لا يقل عن ثلاثمائة مدفن لاختزان الحبوب وبه كريف للماء أروع مناظره عند هطول الأمطار إذ تصبح تلك الأراضي التي يطل عليها كأنها بحيرة ثم تنقلب بعد نضوب مـائهـا إلى بسـاط أخضر مكسوة بطنافس الزبرجد ويقع في الشمال الشرقي من صنعاء بمسافة ثلاث ساعات وهو معدود من بني حشيش ثم خولان العالية، واليوم أصبح سواء والعدم لأنه لم يبق للحصون والقلاع أهمية لاختراع الإنسان العصري مما قهر شموخها وذلل شماسها. وأما كوكبان فهو تثنية كوكب حصن أشم عالي الذرى منيع الجناب رحب الساحة عظيم الباحة:

عـــال على لحـــظ العيـــون كـــأنما ينظـــرن منـــه إلى بيـــاض المشتري

يقع في أصل جبل ذخار الذي في سفحه شبام حمير، وهو مربع الشكل تبلغ مساحته أكثر من ألف ذراع من الجبل المنحوت وله بابان شرقي وغربي وبه كانت قصور الحواليين على طراز يدهش الألباب وإلى ذلك أشار علامة عصره أبو العلكم المرّاني في قصيدته النونية:

وفي ظفـار بنـت آبـاؤنـا غـرفـاً في كـوكبـان وبيـت الملـك ريـدانـا

وبه مواجل وسدود للماء وجوامع للعبادة وهو قائم العمارة آهل بالسكان لهذه الغاية إلا أنه قد تناقص عمرانه وخربت قصوره الزاهية وتشعب سوره ويسكنه اليوم آل شرف الدين ونفر من ذي حوال وبيت من حمير قضاعة منهم الأمير الزعيم السياسي المحنك والقائد الموفق محمد بن عبد الله الشامي =

وكان براش والظفر وفدة[١] لوالده حاتم بن أحمد ثم أخذ بكر[٢] وعمره وحصنه وهذه حصون البلاد في ذلك الوقت ثم ملك الظاهرين الأعلى والأسفل والجوف وصعدة والمغارب كلها، وكان بنو شهاب تارة يطيعونه وتارة يعصونه وكانت ولاته في حضور والمغارب كلها وحجرة حراز، وكان جواداً عاقلاً عادلاً كريماً، كان يقطع الرجل من همدان البلد والبلدين وكان له في كل مخلاف وال عليه حفظ ما فيه فلا يسار فيه بظلم ولا عسف وكان نوابه يقاسمون الرعية على الخمس[٣] من أموالهم فيأخذ نائب السلطان نصف المبلغ ويأخذ المقطع النصف الثاني فإذا استوفيا لم يعترض للرعية في شيء وكان واليه على الظاهرين الأعلى والأسفل رجل يسمى شيظم فهما إلى الآن يسميان ظهارا شيظم وكان علي بن حاتم مسالماً للسلطان عمران بن الذئب السلمي الكندي[٤] في حصونه وجهاته ثم إن آل القبيب بعد أن أخرجهم السلطان من صنعاء بعد أن حلفت همدان لرجل منهم يسمى محمد بن وهاس كما تقدم قريباً[٥] توسلوا بكبار همدان وغيرهم ووصلوا الى صنعاء وطلبوا العفو منهم ففعل وأمنهم وفي سنة إحدى وستين وخمسمائة خالف على السلطان علي بن حاتم السلطان حاتم بن ابراهيم الحامدي[٦] وقام في شبام حراز[٧] وتبعه خلق كثير من همدان ونقلوه من حراز

= الحميري رحمه الله ولما تسلم السلطان علي بن حاتم كوكبان من الأمراء الزواحيين بما فيه دار الخراطيم التي كانت وحيدة في شكلها وهندستها المعماري مدحه بعض شعرائه بقوله:

أشرقت حجرة الصباح وقالت ... هكذا كنت حجرة للصباح
ورأى مجلس الخراطيم ملكاً ... ما رآه إلا بعصر الزواحي

وأما حصن العروس فمقابل لكوكبان من الجنوب ويعد اليوم من أعمال حضور وفي أسفله قرية تسمى العروس حية وأما الحصن فهو خراب.

(١) فده بكسر الفاء بعده دال مهملة وهاء قال لسان اليمن في الجزء الثامن. قلة جبل صلد معلقة لا ترتقي وتطل على وادي ضهر من الجهة الجنوبية، ويقولون ان فيها الجن يضرب بها أهل صنعاء وغيرهم المثل ثم حكى المثل على لغة حمير فارجع إلى الجزء الثامن من الإكليل بإخراجنا.

(٢) بكر بضم الموحدة والكاف آخره راء حصن في منتهى ضلع كوكبان ويطل على مركز الطويلة التي تعد من بلد مغارب حمير ولا يزال فيه أهل وسكن.

(٣) هذا على مذهب الباطنية وهكذا كانت دولة العبيديين الذين ملكوا مصر وحسين بن القاسم العياني كان مذهبه هذا.

(٤) لم أقف على أحواله، ثم وقفنا على أن بني الكندي من بني شهاب لهم بقية في بيت ردم.

(٥) «قريباً» زيادة من خ.

(٦) هو المقبور في حراز وقد ذكرنا أخباره في التاريخ الكبير.

(٧) شبام حراز جبل واسع متغلغل في الهواء وعمل تشتمل على قرى ومزارع وحروث كثيرة وتقوم على سفحه مناخة مركز قضاء حراز وشبام هذا أحد الأمكنة التي تحمل هذا الاسم وقد سبق في شبام =

إلى ريعان[1] لؤلؤة[2] ليكون قريباً من حرب السلطان علي بن حاتم فقامت الحرب بينهم مدة وهزمهم السلطان علي بن حاتم فهربوا إلى كوكبان وكان كوكبان ذلك اليوم لبني الزواحي فخرج السلطان في أثرهم وأخرب مدينة شبام حمير وما حولها ولم يزل يحاربهم حتى أخرجهم من كوكبان وتسلم الحصن من أبي النورين على الزواجي واستولى عليه وذلك في سنة أربع وستين وخمسمائة وكان مدة حصار السلطان لكوكبان ثلاث سنين وكان السلاطين بنو سلمة بن الحسن الكندي قد استولوا على حصن بيت بوس[3] بعد انقضاء الدولة الصليحية وهو من مآثرهم ومعاقلهم التي ملكتها همدان بعد بني الصليحي فلم تزل الحرب بين بني سلمة وبين السلطان علي بن حاتم وكانت بنو سلمة يحرون الأشراف[4] لحربه إلى أن تسلمه منهم في سنة خمس وستين وخمسمائة وفي آخرها حصل الحرب بين الإمام أحمد بن سليمان

= حمير وثالثها شبام بني سخيم الذي يحمل منه الرخام ويقع تحت حصن ذي مرمر من الغرب الشمالي وهو من محافد اليمن المشهورة ورابعها شبام حضرموت وشبام برع وسادسها شبام عسير كما بلغني في الأخيرين.

(١) ريعان بفتح الراء آخر الحروف نون ـ قرية لها سور تطل على وادي لؤلؤة الشهير من مخلاف مأذن ووادي ضهر وإليها ينسب سد ريعان الأثري القديم الذي كان يعود على اليمنيين بالخير العميم والفائدة الملموسة وكان للقيل ذي مأذن.

(٢) لؤلؤة بلدة جميلة كاسمها تقوم على قمة جبل في وسط واديها الذي تسمى باسمها وريعان ولؤلؤها يقعان في الغرب الشمالي من صنعاء بمسافة ساعة ونصف فصاعداً واليوم طريق السيارات معبدة إليها تقطعها لمسافة يسيرة.

(٣) يقع حصن بيت بوس في الجنوب الغربي من صنعاء مسير ساعتين وهو مستطيل الشكل مع عرض يسير وتقدر مساحته ألف قصبة وزيادة وله باب واحد يصعد إليه على محمولة فإذا أزيلت تعذر دخوله وفيه نفق ينزل منه إلى سد خارج الحصن وبئر عميقة تمتلئ من مياه الأمطار ورغم ملاسة حيوده فقد أدير عليه سور بأبواب وقد تشعث وهو حصن أثري قديم به آثار حميرية ومكتبات المسند وإنما جدده بنوا الصليحي واتخذوه حامية من غارة المغيرين على صنعاء وبجانب منه محل يسكنه حي من العرب يقال لهم بنو الطل، وقرية بيت بوس في عرض الحصن من الشمال ممتدة الى الجنوب وفيها بقية من الأبناء يدعون بني «بهرام» ونسب إليها الحافظ الحسن بن عبد الأعلى البوسي الصنعاني الأبناوي يروي عن عبد الرزاق وعنه الطبراني والعلامة ابراهيم بن محمد بن سليمان بن علي بن محمد بن عبد الله بن محمد البوسي تلميذ لسان الشرع قاضي صنعاء يوسف بن محمد بن عبد الله الأكوع الحوالي ـ الذي نظم مؤلفه الحفيظ في فقه الزيدية وهو من أجل كتب المذهب وأحواها للشوارد وهما من أعلام القرن الثامن الهجري.

(٤) المراد بهم حزب الإمام أحمد بن سليمان ومن ينتمي اليه من العلويين.

وبين الأشراف القاسميين [١] في الظاهر من بلاد وادعه فخرج الإمام يوماً للقاء جماعة من أهل البلاد . وكان في قلة من العسكر فخرج عليه القاسميون فأسروه وأخذوا ما معه من سلاح وتقدموا به إلى مصنعة أثافت [٢] فوصل أولاده إلى السلطان علي بن حاتم مستنجدين به على القاسمية وطالبين فكاكه فكتب إلى الأشراف فأطلقوه فوصل الإمام إلى حوث [٣] فأقام بها ثم تقدم إلى السلطان علي بن حاتم فشكره وطلب نصرته على القاسميين فخرج معه إلى الظاهر في جيش عظيم فوصلهم إلى مصنعة أثافت فحاربهم عليها فامتنعوا بالمصنعة فخرب قرى بني عبس [٤] وأعنابهم ودورهم وسائر حصونهم ووصل الشيخ حسن بن يعفر وسائر وادعة [٥] فصفح عنهم وأمنهم وعاد الإمام أحمد بن سليمان إلى

---

(١) هم الذين ينتسبون إلى الإمام القاسم العياني المار الذكر .

(٢) المصنعة واحدة المصانع تطلق على الحصن وعلى القصور ومنه قوله تعالى : ﴿وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾ وعلى محل صناعة الثياب وغيرها والمصانع كثيرة باليمن للمعاني المذكورة وإذا أطلق على الحصن فلا يكون في الغالب إلا مدور الشكل وهي هنا حصن أثافت وأثافت بالهمزة أول الحروف وآخره تاء مثناة ويقال أثافه بالهاء آخر الحروف وثافه بحذف الألف ، وكانت في القديم معدودة من مدن اليمن كما في صفة جزيرة العرب وبينها وبين ريده ستة عشر ميلاً كما اشتهرت بعصير الخمر قال الأعشى :

أحب أثافت وقت القطاف ووقت عصارة أعنابها

وكانت لسادة حاشد بني الكباري وهي اليوم خرائب ودمن لا يعرف موقعها بالضبط .

(٣) حوث بضم الحاء المهملة والواو والثاء المثلثة آخر الحروف بلدة في ظاهر همدان الأعلى نسبت إلى حوث بن السبيع بن السبع بن صعب بن معاوني بن كثير بن مالك بن جشم بن حاشد ونسب إليها الحارث الأعور الحوثي صاحب راية أمير المؤمنين علي رضي الله عنهما وغيره .

وكانت قديماً مدرسة يدرس فيها شتى العلوم والفنون وتخرج منها كثير من الأعلام كان لهم أحسن الأثر وأعظم الفائدة منهم بنو الرصاص الجهابذة الكبار وأصلهم من حمير قضاعة وبنو حنش وهم شهابيون ومنهم أعلام نحارير ومن ذي حوال ، ومنهم الحافظ الكبير أحمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي شيخ الإمام المنصور عبد الله بن حمزة والإمام المدرة نشوان بن سعيد الحميري وفيها يقول :

بشاطئ حوث من ديار بني حرب لقلبي أشجان معنى به قلبي

(٤) عبس بالباء الموحدة بعد العين المهملة ـ قبيلة معدودة اليوم من بني صريم ثم من حاشد ، والقبائل التي تسمى بهذا الاسم باليمن كثيرة ذكرناها في غير هذا الكتاب .

(٥) وادعة قبيلة من قبائل حاشد نسبت إلى وادعة بن عمرو بن عامر بن ناشج بن دافع بن مالك ابن جشم بن حاشد ، وكانت تنسب نفسها في القديم إلى وداعة الأزد ، وقد يهم بعض جهلة الأنساب من قبائل همدان أن وادعة من « بكيل » تحت تأثير قولهم يا وادعة وسط حاشد « ومن قراهم غربان والسر ونحوهما » ومن وادعة هذه وادعة التي يقال لها ربع وادعة الواقعة في همدان الصغرى قرب شمالي صنعاء ، ومن قراهم المعمر ووادعة الشام وهي شمالي صعدة ، ومن قراهم ظهران وباقم .

الشام[1] وتوفي ببلده خولان[2] عقب رجوعه من مصنعة أثافت سنة ست وستين وخمسمائة وعاد علي بن حاتم إلى صنعاء.

وفي سنة سبع وستين وصل المشايخ بنو الكسم بن محمد إلى السلطان علي بن حاتم وسلموا اليه مصنعة أثافت وخالف عليه الحسين بن يعفر[3] ومن معه من كافة وادعة واجتمعوا في موضع يسمى المدحك[4] فجهز لهم علي بن حاتم أخاه بشر بن حاتم[5] في جيش جرار واخذ مكانهم قهراً بالسيف وقتل جماعة منهم وأسر آخرين وخرب الموضع المذكور وذلك في سنة ثمان وستين وخمسمائة ودان أهل الظاهر بعد ذلك عن آخرهم ثم قامت دولة الغز[6] ووصل السلطان المعظم توران شاه بن أيوب سنة تسع وستين وخمسمائة واستولى على اليمن بأسره وسنذكر ما كان منه ومن السلطان علي بن حاتم في الباب بعد هذا إن شاء الله تعالى.

---

(١) يطلق الشام في عرفنا معاشر اليمانيين على بلاد صعدة لأنها شمالي اليمين، وعلى بلاد عسير التي هي من اليمن.

(٢) المراد بخولان هذه خولان صعدة التي تسمى خولان بن عمرو وتارة خولان قضاعة لنسبتها إلى خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ، وخولان الشام وخولان صعدة.

وهي مخلاف عظيم وبطون كثيرة قد جمع بطونها الإمام نشوان بن سعيد الحميري بقوله مع إخوانهم خولان العالية:

بصعدة من أولاد خولان سبعة	أحلهم فيها القنا والصفائح
صحار ورشوان وحي وهانئٌ	وأزمع أيضاً ثم سعد ورازح
مضوا مع حجر بن الربيعة قادهم	إلى الحقل من صرواح ليث مكافح
وإخوتهم ما بين صنعاء ومأرب	معائشه أوطانهم والمسارح
حبيب وذكران وعمرو وأصهب	وقيس جميعاً والنبيت الجحاجح
بنو القرم خولان ليوث قضاعة	بني حمير إن صاح بالجد صائح

راجع الجزء الأول من الإكليل، وقبر الإمام أحمد بن سليمان بحيدان هو والإمام نشوان بن سعيد الحميري من بلد خولان صعدة.

(٣) لعل هذا الحسين بن يعفر وأخاه الحسن من آل يعفر الحواليين فقد كانت لهم همدان وكراً وملجأ أيام الفتن.

(٤) المدحك من قرى وادعة وقد خربت منذ زمان.

(٥) ستأتي ترجمته.

(٦) الغز جنس من الترك أطلق هنا على بني أيوب لأن جيشهم كان من الغز.

الفصل العاشر

في أخبار الدولة الزريعية

واستيلاء الزريعيين على عدن

قال الإمام علي بن الحسن الخزرجي رحمه الله كان السبب في تملك آل زريع عدن وما ناهجها من البلاد أن الصليحي لما استولى على البلاد وافتتح عدن كان فيها بنو معن [1] قد تغلبوا عليها وعلى لحج وأبين والشحر [2] وحضرموت فأبقوها تحت أيديهم وجعلهم نواباً من قبله فلما زوج المكرم ابنه السيدة جعل الصليحي صداقها عدن وما ناهجها فكان بنو معن يرفعون خراجها إلى السيدة في أيام الصليحي فلما قتل الصليحي تغلب بنو معن على ما تحت أيديهم فقصدهم المكرم وأخرجهم منها وولاها العباس ومسعود ابني المكرم الهمداني، وكانت لهم سابقة محمودة في قيام الدولة المستنصرية مع الداعي علي الصليحي وولده المكرم عند نزوله إلى زبيد واستنقاذه أمه فجعل العباس حصن التعكر بعدن وباب البر [3] وما يدخل منه، وجعل للمسعود حصن الخضراء وباب البحر [4] وما يدخل منه واليه أمر المدينة واستخلفها للحرة السيدة فكان ارتفاع عدن يحمل إلى السيدة كل سنة مائة ألف دينار وقد يزيد وقد ينقص إلى وفاة العباس بن المكرم. فخلفه ولده زريع بن العباس على ما كان متولياً فيه وأبقى عمه مسعود على ما هو عليه وكل منهما يحمل ما عليه فملك زريع

---

(١) الذي كان متملكاً لعدن أيام الصليحي ابن شاول ولعله كان نائباً لبني معن.

(٢) الشحر هي المقاطعة الساحلية من حضرموت وينسب إليها اللبان الشحري وهي تحت نفوذ الملك القطيعي المتقدم الذكر راجع تاريخ حضرموت، ومن قبائله التعين والحموم وغيرهما وهي اليوم مشمولة بنفوذ الجمهورية الديمقراطية.

(٣) تعكر عدن هو المسمى جبل شمسان وهو المسيطر على ميناء عدن اليوم من الشمال وعلى سفحه مبنى رصيف عدن ومدينة التواهي والمعلي الحديثتان وباب البر هو الباب الأصلي القديم المنحوت من الجبل ويقال له باب السلب.

(٤) حصن الخضراء هو المسمى «جبل صيرة» المطل على البحر من الجنوب المسمى بحر حقات، وكان المرفأ القديم لعدن وفيه أرست سفن الملك المنقذ خالد الذكر سيف بن ذي يزن، وكان جبل صيرة هذا يتخذ منفى وفي ذلك يقول العلامة شمس الدين أحمد بن ناصر المخلافي الخولاني وقالها يوم الاثنين رابع جمادى الآخرة سنة ١١٠٢ ألف ومائة واثنتين.

إن يغشنـــي فـي صيــرة　　　كــرب أتــت متــواليــة
فلســوف تفجــر ليلهــا　　　والفجــر يتلــو الغــاشيــة

الدملوة[1] سنة ثمانين وأربعمائة فلما بعثت السيدة المفضل بن أبي البركات إلى زبيد كتبت إلى زريع وعمه مسعود أن يلقياه بزبيد فلقياه وقاتلا معه وقتلا معاً على باب زبيد فانتقل أمر عدن إلى ولديهما أبي السعود بن زريع وأبي الغارات بن مسعود فتغلبا على الحرة فبعثت إليهما المفضل في جيش عظيم فقاتلهما ثم اتفق الأمر على نصف الخراج خمسين ألف دينار كل سنة فلما مات المفضل تغلبا على الحرة أيضاً فبعثت إليهم ابن عم المفضل أسعد بن أبي الفتوح فقاتلهما ثم اتفقوا على الربع من الارتفاع ثم تغلبوا على الربع ولم يزل كل منهما موالياً لابن عمه حتى توفي أبو السعود وولى بعده جهته ولده سبأ بن أبي السعود ثم توفي أبو الغارات وتولى جهته ولده محمد بن أبي الغارات ثم توفي محمد هذا وتولى جهته أخوه علي بن أبي الغارات وهو صاحب حصن الخضرا ، والمستولي على البحر والمدينة فكان للداعي سبأ حصن التعكر وباب البر وما يدخل منه ومن البر الدملوة وسامع ومطران ويمين[2] وذبحان وبعض المعافر وبعض الجند وكانت أعماله واسعة كثيرة وكان له من الأولاد علي الأغر ومحمد الداعي والمفضل وزياد وروح وكان السبب في استيلاء الداعي سبأ بن أبي السعود وزوال بني أبي الغارات أن نواب علي بن أبي الغارات انبسطت أيديهم على نواب الداعي سبأ وعاثوا وأفسدوا ولم ينههم مولاهم عن ذلك ولم يزالوا يتكلمون بما يوجب الغيظ والداعي سبأ في أثناء ذلك مهتم بجمع الأموال والغلات سراً فكان كل من يلوذ بالداعي يهتضم والصولة لنواب علي بن أبي الغارات وكاد الأمر أن يخرج من يد الداعي سبأ من شدة احتماله ثم عـزم على

---

(١) الدملوة بضم الدال المهملة وسكون ثانيه وضم اللام بعدها واو وهاء قلعة شما يقصر الوصف عنها وآية في المناعة وصعوبة المرتقى وطالما استعصت على المغيرين واستهزأت بالملوك والسلاطين ورجعوا عنها حاسرين ناكصين وقد أجاد في وصفها لسان اليمن في كتابه المنقطع النظير صفة جزيرة العرب بوصف دقيق فراجعه ، وهي في أصل المعافر منسلخة من جبل الصلو من شرقيه وتقع عن تعز في الجنوب الشرقي بمسافة يـوم قال محمد بن زياد المأربي يمدح السلطان أبـا السعـود سبـأ بـن أبي السعـود بن زريع :

يـا نـاظـري قـل لي تـراه كما هـوه ... اني لأحسبـه تقمـص لـؤلـؤه
مـا إن نظـرت بـزاخـر في شـامـخ ... حتى رأيتـك جـالسـاً في الدملـوه

وهي اليوم لا شيء وبلغني أن لها تاريخاً مستقلاً اسمه « ضئوا الشمعة في تاريخ الجملون والقلعة ».

(٢) سامع مقاطعة من مخلاف المعافر في الجانب الشمالي بشرق من ذبحان وجنوبي صبر ومطران حصن في قدس وهو اليوم خراب وفي أسفله قرية تحمل اسم الحصن المذكور ، ويمين بضم الياء المثناة من تحت ثم ميم وياء بالمثناة من تحت ونون حصن في أرض العزاعز من المعافر في الغرب الشمالي من مركز التربة بمسافة ثمانية كيلومترات تقريباً وتوجد فيه بقية آثار وفيه يقول الشاعر محمد بن حمير :

وقلـت لا قصر إلا قصر دملـوة ... قـالـوا بـرأس يمين القصر والـدار

المشاجرة حين بلغه أن ابن عمه علي بن أبي الغارات ينتقصه وهم برفع يده من عدن فخرج الداعي الى الدملوة، وقدم الشيخ بلال فولاه وأمره بمفاتحة القوم وتحريك القتال ففعل، وكان شهماً فجمع سبأ من همدان وخولان وحمير ومذحج وهبط من الدملوة فنازل القوم بوادي لحج وكانت القرية بنا أبه [١] له فنزلها وكانت قرية الرعارع [٢] لابن عمه فنزل كل واحد في قريته واقتتلوا قتالاً شديداً حكى الداعي محمد بن سبأ قال كنت يوماً في طلائع والدي فواجهنا علي بن أبي الغارات وعمه منيع ابن مسعود ولم تحمل الخيل يومئذ أفرس منها فقال لي منيع يا صبي قل لأبيك يثبت فلا بد الليلة من تقبيل الجشميات [٣] اللاتي في مضربه فأخبرت أبي بذلك فركب بنفسه وقال لمن حضر من بني عمه بأن العرب المتشاجرة لا تصبر على حر الطعان ولا يمسك الثور إلا قيده فالقوا بني عمكم بأنفسكم وإلا فهي الهزيمة والعار قال ثم التقى القوم فحمل منا فارس على منيع بن مسعود فطعنه طعنة شرم بها شفته العليا وأرنبة أنفه وكثر الجلاد بالسيوف وعقر كثير من الخيل والعرب المشحودة نظارة ثم حملت همدان ففرقت بين الفريقين وتحاجز القوم وأقبل وادي لحج دافعاً بالسيل فوقفوا جميعاً على عدوتي الوادي يتحادثون فقال الداعي سبأ لمنيع بن مسعود كيف رأيت تقبيل الجشميات يا أبا المدافع فقال وجدته كما قال المتنبي:

والطعن عند محبيهن كالقبل

فلم يزل الناس يستحسنون هذا الجواب لموافقة شاهد الحال، قال عماره وأقامت فتنة

---

(١) بني أبه اسم مركب من بنا وأبه، وأبَّة بفتح الهمزة والباء الموحدة المشددة تنسب إلى بانيها وهو رجل من قريض يقال له أبّه منها أبو عبد الله محمد بن سعيد القريضي مؤلف كتاب المستصفى وكتاب القمر وغيرهما وكان بها جامع عظيم وقد ذكرها لسان اليمن في كتابه المنقطع النظير وقد خربت منذ زمان.

(٢) الرعارع بفتح الراء مشددة الأولى والعين المهملة بعدها وكسر الراء الأخيرة وآخر الحروف عين مهملة قرية كبيرة من قرى لحج التي قد اختفت منذ زمان قال لسان اليمن في ذكر المدن التهامية «والرعارع وبها بنو عامر قبيلة عزيزة» قلت ونسب إليها الحافظ موسى بن طارق اللحجي ويقال الرعرعي صاحب المسند المتوفى سنة ٢٠٢ مائتين واثنتين قال محمد بن زياد المأربي:

خلت الرعارع من بني المسعود فعهودهم عنها كغير عهود
حلت بها آل الزريع وإنما حلت أسود في مقام أسود

ولعلها خربت حوالى القرن الثامن أو التاسع ولا يعرف مكانها بالضبط، وقد وهم ياقوت في معجمه فوضعها في حرف الزاي.

(٣) الجشميات بضم الجيم وفتح الشين المعجمة وكسر الميم وتشديد ياء النسبة ثم ألف وتاء مثناة من تحت. نسبة إلى جشم بن حاشد انظر ج ١٠ من الإكليل.

الرعارع سنتين وكان ابن أبي الغارات ينفق الأموال جزافاً والداعي ممسك فلما ضعف حال ابن أبي الغارات بذل الداعي سبأ ما لم يخطر ببال، وحكى ولده محمد أيضاً قال جاء رجل من همدان إلى الداعي سبأ وهو في خيمته فقال له يا أبا حمير إن الحرب نار حطبها الرجال والخيل فادفع لي ديتي فأعطاه ألف دينار ففعل ثم قال ودية ولدي فأعطاه ألفي دينار فقال وثمن الخيل إن عقرت فأعطاه خمسمائة دينار فقال بقيت خصلة ما أظن كرمك يردني عنها قال ما هي قال عزمت على نكاح فلانة وليس معي مال أقابل به قومها لشرفهم فأعطاه مائة دينار قال أنعمت وتفضلت إلا أنه قبيح عليّ أن أتزوج وأنا أشيب ولي ولدان شابان بلا زواج فدفع إليهما مائتين فقام الهمداني فلما بلغ باب الخيمة رجع فقال لا سألتك حاجة بعد هذه التي رجعت لأجلها قال ما هي قال إن لي بنتاً لا زوج لها وقبيح منا أن نتزوج أنا وأخواها وتبقى هي أرملة قال الداعي فيكون ماذا قال تدفع لي مالاً أزوجها به فدفع له مائة أخرى ثم تمثل الداعي بقول الشاعر:

استنتفـــــت لحيـــــة زيـــــد فـــــانتـــــف

ثم إن علي بن أبي الغارات انهزم إلى ناحية صهيب وتحصن هو وبنو عمه بحصن منيف (١) ومن الاتفاقات العجيبة أن بلال بن جرير المحمدي افتتح الخضراء بعدن وأنزل بهجة أم علي بن أبي الغارات في اليوم الذي افتتح به الداعي سبأ الرعارع فأرسل كل منهما بشيراً إلى الآخر بما فتح الله عليه فالتقى البشيران بالطريق، ووجد بلال بن جرير المحمدي في الخضراء عند أم علي من الذخائر ما لا يوصف وأقامت أم علي بعدن حتى توفيت. قال الجندي دخل الداعي سبأ عدن فوقف بها سبعة أشهر ثم توفي سنة ٥٣٢ اثنتين وثلاثين وخمسمائة ودفن في سفح التعكر، وفي تلك الليلة والسنة توفيت السيدة بنت أحمد في ذي جبلة، ولما توفي الداعي سبأ تولى بعده ولده المعروف بالأعز فلم يلبث إلا قليلاً وتوفي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة وكان له أربعة أولاد أوصى بالأمر إلى ولده حاتم بن علي وكان الشيخ بلال بن جرير نائبه بعدن وكان يكره الأعز والأعز يكرهه وكان محمد بن سبأ يومئذ هارباً من أخيه علي بن سبأ فكتب إليه بلال لما توفي أخوه علي الأعز بن سبأ وكان محمد عند المنصور بن المفضل بن أبي البركات فأمره بالمبادرة إلى عدن ووعده بالقيام معه بالروح

---

(١) منيف بضم الميم وكسر النون بعدها ياء مثناة تحتية آخره فاء. والمنيف العالي المرتفع المشرف وهذا حصن في الصهيب المتقدم الذكر ومنيف ذبحان من أرض المعافر على جبل يقال له قوّر، ومنيف من أرض الكلاع ثم من بني موسى التي تسمى بلاد الشعيبي جنوبي إب بشرق بمسافة أربع ساعات وفيه دار عامر، ومنيف في أرض ذي رعين ثم في آل عمار في عزلة البكرة.

والمال فخرج مع الهمدانيين فتلقاه بلال قرب عدن وترجل بين يديه وسارا معه إلى المنظر وأقعده فيه ثم نزل فقعد للناس واستحلف له العسكر جميعاً واستولى على العباد وأطاعه كل من كان تحت طاعة أبيه من أهل السهل والجبل ببركة بلال ويمن وزوجه بلال بابنته فصرف في جهازها أموالاً جليلة ثم قدم من مصر رسول من خليفة مصر بتقليد الدعوة علي بن سبأ فوجده قد مات فقلد الدعوة أخاه محمد بن الداعي سبأ ونعته بالمعظم. ونعت وزيره الشيخ بلال بالنعوت الجليلة وكان الداعي محمد بن سبأ ملكاً كريماً جواداً مدحه جماعة من الشعراء منهم القاضي يحي بن عبد السلام بن أبي يحي وبنو أبي يحي قضاة صنعاء [1] ومن مدحه فيه، وقد عزم الى جبلة:

النصر من قرناء عزمك فاعزم   والدهر من أسرار حكمك فاحكم

ومن شعرائه الشريف يحي بن محمد الحسني ومن قوله فيه:

جلالك ألبس العيد الجلالا   ومجدك فيه مجد العيد طالا
وعزك ألبس الأعياد عزاً   تتيه به فصار له جمالا

ومن مداحه الشيخ سالم بن عمران التغلبي ومن قوله فيه:

هل للفضائل عن مديحك معزل   أم هل لها من دون بابك مؤمل
شغلت صفاتك ألسن الشعراء عن   أن ينسبوا معها وأن يتغزلوا

ومن مداحه حاتم بن محمد الصنعاني [2] ومن شعره فيه قوله [3]:

قسماً بمجدك انه لمشيد   حقاً وانك في الزمان وحيد
فاقعد بدست الملك غير منازع   والبس رداء المجد فهو جديد
وافخر على أهل الزمان فإنهم   خول وإنك فيهم لعميد

ومن مداحه الأديب أحمد بن محمد الخباز ومن قوله فيه:

---

(١) كان شاعر الإسماعيلية وفصيحهم قتله ابن مهدي بحصن المجمعة من مخلاف الشوافي وآل أبي يحي من الأبناء منهم علي ويحي الشاعر وأحمد بن عبد السلام بن أبي يحي قاضي الإسماعيلية وخطيبهم وصاحب رأيهم وهو أبو القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام عالم الزيدية مؤلف النكت وغيرها وأول من أخرج كتب المعتزلة من العراق إلى اليمن وهم بقية إلى اليوم.

(٢) في الخزرجي دجانة بن محمد الصنعاني.

(٣) هذه القطعة لم تكن في الأصل وأثبتناها من الخزرجي والشعراء المذكورون لم نعرف عن أحوالهم شيئاً لكونهم مع الأسف يمنيين أو أن المؤلفات التي ذكروا فيها اختفت وقد ذكرهم عمارة ذكراً مطلقاً راجع مفيدة بإخراجنا طبعة ثانية.

هـي الدولـة الغـراء والعـز والنصر وطيب الثنا والفضـل والمجـد والفخـر
لمن قـولـه فصـل وبـاطنـه حجـى وظـاهـره بشر ونـائلـه غمـر

ومن مداحه أيضاً وزير الدولة الهمدانية عبد الله بن أحمد الصنعاني حيث يقول:

لم يـدر كيـف يقـول فيـك المادح أم كيف ينصفك السنـاء مـدايـح
تـأبـى امتنـاعـاً أن ينـالـك واصـف أبـداً كما امتنـع السماك الرامـح

وفي أيامه توفي الشيخ بلال بن جرير المحمدي في سنة ٥٤٥ هـ فاستخلف الداعي ولده محمد بن بلال ثم أخاه أبا الفتوح ياسر بن بلال فأقام معه مدة أيامة ثم كان مع ولده عمران بن محمد بن سبأ وكان ياسر عظيم القدر من الأجواد الأمجاد ورد عليه عدة من فضلاء مصر منهم الرشيد بن الزبير (١).

---

(١) هو القاضي الأجل الرشيد بن علي ابو الحسين أحمد بن القاضي الرشيد بن محمد بن الحسين بن الزبير الغساني الأسواني. كان أبو الحسن من أهل الفضل والنباهة والرياسة عالماً بارعاً مجوّداً في فنون شتى أوحد عصره في الفقه والرياضيات والهندسة والأدب والشعر ومن شعره:

جلـت لـديّ الرزايـا بـل جلـت هممـي وهـل يضر جـلا الصـارم الذكـر
غيري يغيره عـن حسـن شيمتـه صرف الزمـان ومـا يـأتي مـن الغير
لـو كـانـت النـار لليـاقـوت محرقـة لكـان يشتبـه اليـاقـوت بـالحجـر
لا تغـرون بـأطماري وقيمتهـا فـإنما هـي أصـداف على درر
ولا تظـن خطـأ النجـم مـن صغـر فـالـذنـب في ذاك محمـول على البصر

ولـه:

إذا مـا نبـت بـالحر دار يـودهـا ولم يـرتحل عنهـا فليس بـذي حـزم
وهبـه بها صبّـاً ألم يـدر أنـه سيـزعجـه منهـا الحمام على الرغـم

وصنف وألف ومنها كتاب الجنان ورياض الأذهان وذكر فيه جماعة من مشاهير الفضلاء وله ديوان شعر ولأخيه القاضي المهذب الحسن ديوان شعر أيضاً وكانا مجيدين في نظمها ونثرهما ومن شعر القاضي المهذب وهو معنى لطيف غريب من جمله قصيدة بديعة:

وتـرى المجـرة والنجـوم كـأنها تسقـي الريـاض بجـدول مـلآن
لـو لم تكـن نهراً لما عـامـت بـه أبـداً نجـوم الحـوت والسرطـان

ودخل اليمن سنة ٥٣٤ واجتاز بزبيد وكان بها موالي آل زياد فعمل هنالك أعمالاً جليلة وأنشأ هناك المقامة الحصيبية غريبة في بابها وهي موجودة في دار الكتب بمصر، وهي تدل على علم غزير وفضل كبير ثم طلع الجند وبها الملك المنصور بن الملك المفضل الحميري فامتدحه بغرر القصائد فأجزل صلته وأجازه بأسنى الجوائز وتصدر للتدريس بجامع الجند وانتفع به جماعة من أهل اليمن وحل ضيفاً على قاضي اليمن أبي بكر اليافعي مقدم الذكر فكان منه تلميذاً وصديقاً حمياً. =

= ثم طلع صنعاء وبها السلطان الأجل حميد الدولة حاتم بن أحمد اليامي، وفي ابن خلكان علي بن حاتم فمدحه بقصيدة عصماء جاء فيها:

لئن أجدبت أرض الصعيد وأقحطت ... فلست أنال القحط في أرض قحطان
ومذ كفلت لي مأرب بمأربي ... فلست على أسوان يوماً بأسوان
وان جهلت حقي زعانف خندف ... فقد عرفت فضلي غطارف همدان

وخطط له قصراً فخماً وأحاطه بالأسوار العظيمة والحدائق الغنا فحسده الداعي في عدن فكتب بالأبيات إلى صاحب مصر فكانت سبب الغضب عليه فلما نزل عدن أمسكه الداعي وحبسه لديه مدة وأنفذه إلى صاحب مصر مقيداً مجرداً وأخذ جميع موجوده، ولما رجع إلى مصر قتله شاور ظلماً وبغياً لا لهذه الأسباب هذه رواية ابن خلكان في اعتقال الرشيد والرواية الأخرى التي في صلب الكتاب ويروى أنه لما بلغ اعتقاله أخاه مهذب الدين الحسن بن الرشيد بعث بقصيدة بليغة يستجلب عطف الداعي على أخيه ويتلطف له بخلاصه من السجن فاستجابه الداعي ومنَّ عليه وسرحه وأحسن جهازه ومن هذه القصيدة:

ما كان بعد أخي الذي فارقته ... ليبوح إلا بالشكاية لي فم
أقوت مغانيه وعطل ربعه ... ولربما هجر العرين الضيغم
ورمت به الأهوال همة ماجد ... كالسيف يمضي عزمه ويصمم
يا راحلاً بالمجد عنا والعلا ... أترى يكون بكم الينا المقدم
يفديك قوم أنت واسط عقدهم ... ما أن لهم مذ غبت شمل ينظم
لك في رقابهم وإن هم أنكروا ... منن كأطواق الحمام وأنعم
واعتضت بعدهم بأكرم معشر ... بدأوا لك الفعل الجميل وتمموا
فلعمر مجدك إن كرمت عليهم ... إن الكريم على الكريم مكرم
أقيال بأس خير من حملوا القنا ... وملوك قحطان الذين هم هم
متواضعون ولو ترى ناديهم ... ما اسطعت من إجلالهم تتكلم
وكفاهم شرفاً ومجداً أنهم ... قد أصبح الداعي المتوج منهم
هو بدر تم في سماء علاهم ... وبنو أبيه بني زريع أنجم
ملك حماه جنة لعفاته ... لكنه للحاسدين جهنم
أثني عليك بما مننت وأنت من ... أوصاف مجدك يا مليكاً أعظم
فاغفر له التقصير فيه وعده ... مع ما تجود به علي وتنعم

وهي قصيدة طويلة. ومن شعر الرشيد وهو في اليمن:

لئن خاب ظني في رجائك بعدما ... ظننت بأني قد ظفرت بمنصف
فإنك قد قلدتني كل منة ... ملكت لها شكري لدي كل موقف
لأنك قد حذرتني كل صاحب ... وأعلمتني أن ليس في الأرض من يفي

ويقال إن القاضي الرشيد والجليس أبي المعالي المصري استأذنا على الوزير ابن أبي الغسان فاعتذر عن =

وأبو الفتوح بن قلاقس الشاعر المشهور [1] وامتدحه بقصيدة أولها قوله:

= المواجهة ولقيا عنده غلظة في الحجاب فعادا ثم رجعا يوماً آخر فاستأذنا عليه فاعتذر وحجبا عنه وقيل إنه نائم فخرجا فقال القاضي الرشيد في ذلك:

توقع بأيام اللئام زوالها | فعما قليل سوف تنكر حالها
فلو كنت تدعو الله في كل حالة | لتبقى عليهم ما أمنت انتقالها

وقال صاحبه المعالي:

لئن أنكرتمو عنا ازدحاما | ليجتنبكم هذا الزحام
وإن نمتم عن الحاجات عمداً | فعين الله عنكم لا تنام

فلم يكن بعد أيام حتى نكب الوزير نكبة عظيمة وقد طالت ترجمة الرشيد ولكنها لا تخلو من فائدة وقد جمعناها من ابن خلكان وابن سمرة الجندي وغيرهم والغساني نسبة إلى غسان القبيلة المشهورة من قبائل الازد وملوك الشام والأسواني بضم الهمزة وسكون السين المهملة بعدها ألف ونون نسبة إلى أسوان بلدة بصعيد مصر.

(١) قال ابن خلكان في حقه هو أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي بن قلاقس اللخمي كان شاعراً مجيداً وفاضلاً نبيلاً ولعَ بكثرة الأسفار والأشعار وفي ذلك يقول:

والناس كنز لكن لا يقدر لي | إلا مرافقة الملاح والحادي

ولما دخل اليمن ومدح أبا الفرج ياسر بن ابي الندي بلال بن جرير المحمدي فأحسن اليه وأجزل صلته وفارقه وقد أثرى من جهته فركب البحر فانكسر المركب وغرق جميع ما كان معه قرب جزيرة «دهلك» وذلك يوم الجمعة خامس ذي القعدة سنة ٥٦٣ ثلاث وستين وخمسمائة فعاد اليه وهو عريان فلما دخل عليه أنشده قصيدته التي أولها:

صدرنا وقد نادى السماح بنا ردوا | فعدنا إلى مغناك والعود أحمد

ثم أنشده قصيدة يصف فيها غرقه وأولها:

سافر إذا حاولت قدراً | سار الهلال فصار بدراً
والماء يكسب ما جرى | طيباً ويخبث ما استقرا
وبنقله الدرر النفيسـ | ـة بدلت بالبحر نحرا
يا راوياً عن ياسر | خبراً ولم يعرفه خبرا
اقرأ بغرة وجهه | صحف المنى إن كنت تقرا
والثم بنان يمينه | وقل السلام عليك بحراً
وغلطت في تشبيهه | بالبحر فاللهم غفرا
أوليست نلت بذا غنى | جماً ونلت بذاك فقرا
وعهده هذا لم يزل | مداً وذاك يعود جزرا

وهي طويلة أحسن فيها كل الإحسان وله في جارية سوداء وهو معنى غريب.

وسودا وهي بيضاء معنى | نافس المسك عندها الكافور
مثل حب العيون يحسبه النـ | ـاس سواداً وإنما هو نور =

سافر إذا حاولت أمراً سار الهلال فصار بدراً

وهي مشهورة فأجازه عليها ألف دينار، وفي سنة سبع وأربعين وخمسمائة ابتاع الداعي محمد بن سبأ من السلطان منصور بن المفضل بن أبي البركات جميع ما تحت يده من المعاقل والحصون والمدن بمائة ألف دينار وطلع حصن التعكر المطل على جبلة ثم حصن حب وتوفي الداعي محمد بن سبأ بالدملوة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

ولما توفي الداعي محمد بن سبأ قام بعده ولده عمران بن محمد بن سبأ بن أبي السعود بن زريع بن العباس بن المكرم فاقتفى طريقة أبيه مع زيادة لائقة وأخلاق رايقة وكان جواداً كريماً مدحه القاضي يحي بقصيدة أولها قوله:

أيلوم طيفهم على هجرانه صبٌّ تجافى النوم عن أجفانه
سلبوا كراه عنه بخلاً منهم بالطيف أن يغشاه في غشيانه

حتى انتهى إلى قوله فيه:

كرم المكرم يذهل المشتاق عن أشواقه والصب عن أوطانه
كرم إذ أخبرته وخبرته حقرت قدر سماعه لعيانه
ليس البحار ولا السحائب تدعى بسماحهن الجري في ميدانه
يممته والدهر قد بلغت إلى أقصى المدى مني مدى حدثانه
فأجازني من جوره من لا يرى أن النجوم أعز من جيرانه
لا يطمع المخلاف في وأهله لا كنت بعد اليوم من سكانه
قد عاودت شعري الألوف جوائزاً يا من يرون البحر من أثمانه (١)

ومما شاع من كرمه أن الأديب أبا بكر العندي (٢) مدحه بقصيدة اقترحها عليه الداعي عمران بن محمد فوصف فيها مجلسه وما يحتوي عليه من الآلات وأولها قوله:

فلك مقامك والنجوم كؤوس بسعوده التثليث والتسديس

ومنها:

والبدر وجهك طالعاً في دسته لا البدر أجلى وجهه الحنديس

= وكان ولادته بثغر الاسكندرية يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الآخر سنة ٥٣٢ وتوفي ثالث شوال سنة ٥٦٧.

(١) كان الداعي قد أجاز الشاعر القاضي يحي قبل هذه القصيدة بألف دينار فلما مدحه بهذه القصيدة زاده ألفاً أخرى.

(٢) راجع ترجمته في مفيد عمارة بإخراجنا فإن عمارة أشبع الموضوع هنالك والعندي بالنون بعد العين المهملة نسبة إلى قبيلة الأعنود التي لها بقية إلى اليوم ما بين لحج وأبين.

يا داعـي الديـن الذي أنس العلا ... في جنب مغنى منـه فهـو أنيس
يا واحـد العـرب الذي يسمـو بها ... يـوم المفاخـر مجده القـدمـوس
يا مـن تطابـق فعلـه ومقـالـه ... فسمـي بـه التطبيـق والتجنيس
حق الكـواكـب أن تكـون مـدايحاً ... لـك والبروج صحـائـف وطـروس

وهي قصيدة جيدة جداً فسلم الداعي إليه ولده أبا السعود بن عمران قال قد أجزتك بهذا فاقعده عن يمينه فلم يلبث أن وصل أستاذ الدار يستأذنه في دخول الولد إلى أهل الدار فإذن له فالتفت الداعي عمران إلى الأديب فقال: إذا رغبوك في بيعه فاستنصف في الثمن فلم يلبث أن خرج الولد مع خادم في يده قدح من فضة فيه ألف دينار وسبعمائة دينار وخلعة فسأله الداعي عن المبلغ فأخبره فأطلق له عشور مركب بألفي دينار. ومن مدحه فيه أيضاً القصيدة المشهورة التي أولها:

حيـاك يـاعـدن الحيـا حيـاك ... وجـرى رضـاب لماه فـوق لماك
وافتر ثغـر الروض فيـه مضـاحكـاً ... بـالبشر رونـق ثغـرك الضحـاك
ووشـت حـدائقـه عليـك مطـارفـاً ... فـاختـال في حبراتها عطفـاك
فلقد خصصت بفضل سر أصبحـت ... فيـه القلـوب وهـن مـن أسراك[1]

ومنها:

وعلام أستسقـي الحيا لـك بعـدما ... ضمـن المكـرم بـالنـدى سقيـاك
وهمت مكارمه عليـك فصـافحـت ... عـن كفـه مغنـى الغنـا مغنـاك
وتـأرجـت ريـاك مسكـاً عنـدمـا ... عبقـت بـريـا ذكـره ريـاك

ومنها:

والجـود مبتسم الثغـور ببـذلـه ... أبـداً وبيـت المال منـه شـاك
مـن دوحـة الشرف الزريعـي الذي ... رسخت بأصـل في المفـاخـر زاكـي

ومن مدائحه فيه أيضاً القصيدة المشهورة التي أولها:

ذكـر العـذيـب ومـا يلات قبـابـه ... وقـف الفـؤاد على أليم عـذابـه
لله أيـام العـذيـب وإن ثنـت ... قلـب المعنـى المستهـام لما بـه
وسقـى نـدا كـرم المكـرم ملتقـى ... عقـدات أجـرعـه وشـم هضـابـه
ملـك لـو استسقـى الزمـان بجوده ... أغنـاه عـن سقيـا ملـث سحـابـه
ملـك أفـاض على الزمـان بهاؤه ... فـأعـاده في عنفـوان شبـابـه

---

(١) في خ من أشراك بالشين المعجمة وهو وهم وراجع تمام القصيدة مفيد عمارة بإخراجنا.

ملك يشف عليك نور كماله   فيكاد يلحظ من وراء حجابه
داني منال الجود من زواره   محل يزيل المحل عن طلابه
وكأن مجتمع الفضائل والغنا   ما بين نايله وبين خطابه
فكفى بقحطان بن هود مفخراً   أن أصبحت تعزى إلى أنسابه
يزدان حسن المدح فيه وإنما   يبدو جمال الشيء في أربابه

وهي طويلة، ومن مدحه فيه أيضاً قوله من قصيدة[1]:

عمران أكرم من جاء الزمان به   فرداً وأشرف من في حجره نشأ
كأن قحطان قدماً كان أودع في   ضمائرا الفضل سراً منه أو خبأ
من أوطأته على كيوان همته   لو كان يرضى على كيوان أن يطأ
وازداد فخراً على ما شاد والده   محمد وسبا في مجده سبأ
تناول الغرض الأقصى فأدركه   واختار غايات أملاك الورى وشأ
أغر أبلج لو يسري بغرته   في فحمة الليل بدر التم ما انطفأ

وهي طويلة، ومن مدحه فيه أيضاً قوله من قصيدة:

ملك تفرع في المعالي منزلاً   بنيت قواعده على كيوانه[1]
متجاوز أقصى العلو وان غدا   في دست دار العز من إيوانه
متهلل الإشراق منهل الندى   من سحب راحته وفيض بنانه
وإذا تصرف كاتباً أو خاطباً   فالدر در بنانه وبيانه

وكان الداعي عمران في غاية من السماح والجود وما أحسن قول عمارة فيه لله در الداعي عمران ما أغزر ديمة جوده وأكرم نبعة عوده وقال عمارة أيضاً لا يكذب من قال إن الجود والوفاء ملة عمران خاتمها بل خاتمها، وتوفي عمران المذكور في سنة ستين وخمسمائة، قال الجندي إن الأديب أبا بكر العندي الشاعر الذي مدحه في هذه الأبيات نقله إلى مكة ودفنه في مقابرها ومن مآثره بعدن المنبر المنصوب في جامعها واسمه مكتوب عليه وتوفي عن ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحلم فجعل كفالتهم إلى الأستاذ أبي الدر جوهر المعظمي، فكانوا عنده في حصن الدملوة وكان القائم بعدن والمدبر لها ياسر بن بلال بن جرير، وليس هو دون أبيه في حزم ولا عزم. ولم يزل الأمر كذلك إلى أن قدم السلطان الملك المعظم توران شاه بن أيوب من مصر سنة تسع وستين وخمسمائة فاستولى على عدن وغيرها من اليمن، ولم

(١) راجع مفيد عمارة بإخراجنا ففيه هذه القصائد كاملة.

يبق تحت يد بني عمران إلا الدملوة، ولما استولى توران شاة على عدن صرف ياسر بن بلال إلى الدملوة فأقام عند مواليه وعند الأستاذ جوهر المعظمي فلم تزل الدملوة بأيديهم حتى باعها جوهر علي سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، وأما ياسر فإنه أقام بالدملوة أياماً ثم خرج متنكراً إلى عدينة [1] ومعه مملوكه مفتاح فنم عليه إنسان فقبض عليه وعلى مملوكه وأعلم بهما شمس الدولة توران شاه فقتلهما معاً في سنة ٥٧١ واحد وسبعين وخمسمائة [2] وكان ياسر بن بلال آخر وزرائهم.

وقال عمارة وكان بنو المكرم [3]، يعني مسعوداً والعباس اللذين ولاهما المكرم بن علي الصليحي عدن بعد بني معن، يعرفون بني الذئب وهم بعد بني الصليحي أكبر العرب في اليمن. والله أعلم فهذه أخبار ملوك صنعاء وعدن محققة على حكم الاختصار.

الباب الثاني

في ذكر مدينة زبيد وأمرائها وملوكها ووزرائها

وفيه اثنا عشر فصلاً، الفصل الأول في ذكر اختطاط مدينة زبيد، وتملك بني زياد، قال الفقيه أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي رحمه الله حكى أبو الحسن عمارة في مفيده عن الإمام النسابة أحمد بن إبراهيم الأشعري ونزار بن عبد الملك المكي [4] وهما عالمان بأخبار الناس وأنسابهم أنه لما كان في سنة تسع وتسعين ومائة أتي إلى [5] المأمون بن الرشيد العباسي بقوم من بني أمية وقد وشى بهم فاستنسبهم فانتسب أحدهم إلى يزيد بن معاوية بن أبي سفيان [6] وآخر إلى هشام بن عبد الملك بن مروان [7] وآخر إلى تغلب بن وائل وزعم أن

---

(١) عدينة بالتصغير ربض من أرباض تعز القديمة وهي الآن القائمة العمارة المسماة اليوم تعز وبها جامع الملك المظفر وغيره من مخلفات الدولة الرسولية وفيها يقول الشاعر الشعبي قديماً:

رأيـــت في ذي عـــدينـــة يـــا رب بـــالأمـــس زينـــة

وكان لتعز ثلاثة أرباض هذه عدينة والمغربة والمشرقة، والربض ما حول المدينة من مساكن وبيوت ويطلق على سور المدينة. وكانت أشبه بسوق لتعز ولما يجلب إليه من البقر والماشية.

(٢) كان في الأصل إحدى وستين هو غلط والتصحيح من الخزرجي ومما تقدم في نفس الصفحة.

(٣) كذا في الأصول والأصح بنو الكرم بدون ميم انظر تاريخنا.

(٤) لم أجد لهما ترجمة فيما بين يدي من الكتب.

(٥) في الأصل بحذف (إلى) وأثبتناها من عمارة والخزرجي.

(٦) كذا في الخزرجي وهو الذي يتناسب معه قوله بقوم من بني أمية وفي عمارة بقوم من ولد عبيد الله بن زياد واسمه محمد بن فلان بن عبيد الله بن زياد أنظر مقدمة الطبعة الثانية من تاريخ عمارة بإخراجنا.

(٧) في خ فقال ابن زياد.

اسمه محمد بن هارون فبكى المأمون وقال: وأنى لي بمحمد بن هارون يعني أخاه الأمين وكان قد قتل في السنة التي قبلها فقال المأمون أما الأمويان فيقتلان، وأما التغلبي فيعفى عنه رعاية لاسمه واسم أبيه فقال له المنتسب إلى يزيد [1] بن معاوية وهو محمد بن زياد: والله يا أمير المؤمنين ما نزعنا يداً من طاعة فإن أردت قتلنا بجناية بني أمية فالله يقول: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ فاستحسن المأمون كلامه ثم عفا عنهم وأضافهم إلى ذي الرياستين الحسن بن سهل [2] فلما كان أول سنة اثنتين ومائتين ورد إلى المأمون كتاب عامله باليمن يخبره بخروج الأشاعر وعك عن الطاعة فأثنى الحسن بن سهل عند المأمون على محمد بن زياد وعلى المرواني والتغلبي، وأنهم من أعيان الكفاة وأشار أن يسيرهم إلى اليمن ابن زياد أميراً والمرواني وزيراً والتغلبي حاكماً ومفتياً فخرجوا فحج ابن زياد في سنة ثلاث ومائتين [3] وسار إلى اليمن فافتتح ابن زياد تهامة بعد حروب شديدة ثم اختط زبيد [4] في شعبان سنة أربع ومائتين وهي السنة التي توفي فيها الإمام الشافعي رضي الله عنه [5] وهي مدينة مدورة

---

(١) في الخزرجي فقال ابن زياد.

(٢) هو أبو محمد الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي. تولى الوزارة للمأمون بعد أخيه الفضل بن سهل وحظي عنده وولاه المأمون جميع البلاد التي فتحها «طاهر بن الحسين» وكان كثير العطاء عالي الهمة وقصده بعض الشعراء فأنشده:

تقــــول خليلتـــــي لما رأتنـــي ... أشـــد مطيتي مــــن بعــــد حــــل
أبعـــد الفضـــل تـــرتحل المطـــايـــا ... فقلت نعم إلى الحسن بـــن سهـــل

فأجزل عطيته فلما خرج إلى ولايته شيعه المأمون فلما عزم على مفارقته قال له المأمون يا أبا محمد ألك حاجة قال نعم يا أمير المؤمنين تحفظ عليَّ من قلبك ما لا أستطيع حفظه إلا بك، وكتب لرجل كتاب شفاعة فجعل الرجل يشكره فقال الحسن يا هذا علام تشكرنا إنما نرى الشفاعة زكاة مروءتنا، وكتب في رسالة «تعلموا النطق فإن فضل الإنسان على سائر البهائم به وكلما كنتم بالنطق أحذق كنتم بالإنسانية أحق» ولم يزل على وزارته الى أن اختلط في عقله من شدة حزنه على أخيه الفضل لما قتل وكانت وفاته سنة ست وثلاثين ومائتين في مستهل ذي الحجة، والسرخسي بفتح السين والراء المهملتين وسكون الخاء المعجمة وبعدها سين مهملة هذه النسبة إلى سرخس وهي من بلاد خراسان اهـ. ابن خلكان.

(٣) انظر الجندي ج ١ - ٢٢٢ فقد فندنا هذه المزاعم.

(٤) أي أول من اتخذها كمدينة وعاصمة لذلك وإلا فهي موجودة منذ الجاهلية الجهلاء كما تقدم في صدر الكتاب عند خبر وفد الأشعريين وكما يأتي قريباً.

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الشافعي المطلبي القرشي ينتمي نسبه إلى عبد مناف وبه يلتقي بنسب صاحب الرسالة ﷺ وأمه فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

وهو صاحب المذهب المشهور الذي يعتنقه أكبر مجموعة إسلامية فلا يخلو منه قطر من أقطار

الشكل عجيبة الوضع على النصف فيما بين البحر والجبل ومن جنوبيها الوادي المبارك المسمى زبيد الذي دعا رسول الله ﷺ فيه بالبركة فليس في اليمن واد أبرك منه ومن شماليها وادي رمع وقد دعا فيه الرسول ﷺ أيضاً بالبركة فهي مدينة مباركة بين واديين مباركين، ومن شرقيها الجبال الشامخة والحصون الباذخة والمعاقل المنيعة والمساكن الرفيعة ومن غربيها البحر الزاخر والسفن المواخر والنخيل الباسقة، والحدائق الفائقة فجعلها ابن زياد دار ملكه ثم حج جعفر مولى بني زياد بمال وهدايا في سنة خمس ومائتين وسار بما معه إلى العراق فصادف بها المأمون فأوصل اليها ما معه فسر بذلك ثم سيره إلى اليمن في السنة التي بعدها وصحبته ألف فارس فملك ابن زياد حضرموت بأسرها والشحر وعدن والتهائم الى حلي [١] ومن الجبل الجند وأعماله ومخلاف جعفر والمعافر وصنعاء وأعمالها[٢] ونجران والحجاز بأسره[٣] وقلد مولاه جعفر الجبال، ولم يزل يحمل الأموال لبني العباس والهدايا النفيسة وهو مالك لليمن بأسره إلى أن توفي سنة خمس وأربعين ومائتين ثم تولى بعده ولده إبراهيم بن محمد بن زياد فقام بالأمر أتم قيام وأقام متولياً ثمانياً وثلاثين سنة وتوفي [٤] فقام بالأمر بعده ولده زياد ابن إبراهيم فلم تطل مدته ولم يتحقق تاريخ وفاته وقام بالأمر بعده أخوه إسحاق بن ابراهيم ابن محمد بن زياد وهو المكنى أبو الجيش فطالت مدته في الملك ثمانين سنة فتشعبت عليه أطراف البلاد وتغلب عليه كثير ممن كان تحت طاعته منهم صاحب صنعاء أسعد بن أبي يعفر الحوالي إلا أنه كان يخطب له ويضرب الدرهم على اسمه ولا يحمل اليه هدية ولا ضريبة وكان مبلغ ارتفاع ابن يعفر في السنة أربعمائة ألف دينار يصرفها في سبيل المروة لقاصديه ومن وفد اليه، وثار بصعدة الإمام الهادي يحيى بن الحسين الرسي عليه السلام،

الإسلام والإمام الشافعي غني عن الوصف والإشادة فراجع الكتب المؤلفة في تراجمه وهي كثيرة مطبوعة.

(١) حلي بفتح الحاء المهملة وكسر اللام وتخفيفها آخره ياء ويعرف بحلي ابن يعقوب نسبة إلى سلطان من سلاطين اليمن كان حاكماً عليها في الزمن القديم وهو ميناء على ساحل البحر الأحمر في آخر حدود تهامة اليمن ومبتدأ تهامة الحجاز ولا زالت قائمة العمارة إلى هذا الوقت تحت نفوذ المملكة السعودية وبينها وبين مكة ثمانية أيام.

(٢) هذا خلاف لما تقدم من أن بغداد كانت ترسل ولاة لصنعاء ومخاليفها والجبال وأعمالها بما في ذلك حضرموت وقد تبع الديبع والخزرجي عمارة بدون أن يرجعوا إلى الورى بل قلدوه تقليداً أعمى وقد وفقنا لتحقيق هذا الموضوع راجع تاريخ عمارة الطبعة الثانية باخراجنا.

(٣) زاد عمارة والخزرجي بعد نجران وبيحان وزج المؤلف تبعاً لغيره ذكر «الحجاز» بأسره في ممتلكات ابن زياد بينما مضى قريباً للمؤرخين المذكورين أن ابن زياد لم يمتد سلطانه في التهائم إلا الى «حلي» أما في عمارة فليس فيه الحجاز بأسره فلعل هذه الزيادة غلط من النساخ.

(٤) كانت وفاة ابراهيم بن محمد سنة ٢٨٩ تسع وثمانين ومائتين في رواية الخزرجي.

وتغلب عليها وتغلب على ابن زياد أيضاً سليمان بن طرف[1] صاحب عثر[2]، وبلاده من الشرجة[3] إلى حلي وكان يضرب السكة ويخطب لابن زياد وبقي لابن زياد من عدن إلى شرجة حرض[4] ومن غلافقة إلى أعمال صنعاء[5] عرضاً، قال عمارة في مفيده رأيت مبلغ ارتفاع أعمال ابن زياد بعد تقاصرها في سنة ست وستين وثلثمائة من الدنانير ألف ألف دينار خارجاً عن الأعواد، والمسك والعنبر واللؤلؤ، وتوفي الأمير أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم سنة ٣٧١ إحدى وسبعين وثلثمائة وخلف ولده عبد الله وقيل زياد، وقيل ابراهيم فتولت كفالته أخته هند بنت أبي الجيش وعبد لأبيه حبشي اسمه رشيد ولم تطل مدة رشيد وهلك قريباً، وكان له مولى من أولاد النوبة اسمه حسين بن سلامة وهي أمة وكان حازماً عفيفاً شهماً حسن السيرة كان قد رأس في حياة سيده رشيد واستولى على أموره كلها فلما مات سيده قام مقامه وذب على ملك مواليه فكان وزيراً لولد أبي الحيش وأخته هند وكانت الدولة قد تضعضعت وتغلب ولاة الأطراف والحصون على ما بأيديهم فلم يزل يغزوهم حتى دانوا له وحملوا الأتاوة ودخلوا في الطاعة واستوسق له الأمر، ولم يبق مدينة ولا حصناً في

---

(١) هو سليمان بن طرف الحكمي وإليه نسب المخلاف فيقال المخلاف السليماني وهو مشهور بهذه التسمية إلى هذا التاريخ وقبائله كلها من الحكم بن سعد العشيرة وكان سليمان هذا أميراً خطيراً ذا شأن وصيت ناهيك أنه ضرب السكة باسمه، قال عمارة وعمله مسيرة سبعة أيام في عرض يومين ومبلغ ارتفاعه خمس مائة ألف دينار.

(٢) عثر قال في صفة جزيرة العرب عثر بالتخفيف وقد يثقل وفي موضع آخر منه «عثر ساحل جليل» وفي القاموس «عثر زنة بقم وتخفف كبحر كانت مدينة كبيرة مشهورة» قلت وكانت مقر ملك قديم وقد جاء ذكرها في المساند الحميرية ولها خبر في ذلك وكانت فرضة لوادي بيش وقد خربت من زمان ويقال ان قبالتها جزيرة تحمل اسمها.

(٣) الشرجة كانت فرضة مدينة حرض وقد أخذت شهرة كبيرة واليوم لا اسم ولا رسم.

(٤) حرض مدينة من المدن التهامية وهي اليوم تنتهي بها حدود مملكة الجمهورية اليمنية الحاضرة من الشمال بينها وبين زبيد قرابة سبع مراحل وهي اليوم تشغل مركز قضاء وواديها المشهور أحد الأودية التهامية التي يصب اليه عدة سيول من قمم الجبال وهي من مخلاف حكم بن سعد العشيرة وقد عثر تحت أنقاضها على آثار حميرية مما دل على حضارتها وقدمها، وحرض أيضاً واد من أودية ذي الكلاع «العدين» ثم أعالي وادي عنه.

(٥) قد تقدم أن أعمال صنعاء كانت بأيدي الأمراء الحواليين اللهم إلا أن يراد بهذا الكلام على جهة المجاز بمعنى أن الأمراء الحواليين يجاملون أبا الجيش ويهادنونه وينتمون إلى الدولة العباسية. راجع تاريخ عمارة بإخراجنا الطبعة الثانية. راجع تاريخ الجندي فقد ناقشنا كل ما جاء في عمارة وأرجعنا الأمور إلى نصابها.

اليمن إلا استتاب فيه من يرضاه[1] وعادت مملكة بني زياد الأولى واختط مدينة الكدري بسهام[2] ومدينة القحمة على وادي ذوال والمعقر هو المعروف برامان[3]، وكان حسن السيرة محسناً إلى الرعية كثير البر والصدقة معتمداً ومقتفياً لسيرة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في السلوك، وهو الذي بنى الجوامع الكبار، والمنائر الطوال في المدن وحفر الآبار وعمل المصانع ومبتدا عمارته من حضرموت الى مكة نحو ستين مرحلة، في كل مرحلة جامع ومئذنة ومنبر[4] وجدد عمارة جامع عدن وهو من عمارة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وعمر مسجد الجند المشهور وأول من بنى مسجد الجند معاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، قال عمارة ولحسين بن سلامة في طريق مكة العليا عدة أماكن ومآثر منها جامع الجؤه[5] ومسجد الجند ثم

(١) قد تقدم في فصل المتغلبين كيف كان اليمن الأعلى مجزء ومفككاً وفيه أمير المؤمنين ومنبر فما هنا مخالف لما تقدم.

(٢) الكدري قديمة الاختطاط ذكرها جغرافيو العرب القدامى كالهمداني والبشارى وغيرهما وسهام ككتاب واد حار تصب اليه روافد كثيرة وأحد ميازيب اليمن الغربية التي تأتيها من جبال آنس وريمه جبلان وغيرها راجع صفة جزيرة العرب. ويقع شرق ميناء الحديدة بيوم وشمال مدينة زبيد لمسير يوم ونصف نسب إلى سهام بن سهمان بن الغوث بن عدي من ولد سبأ الصغرى وقد ذكره الشاعر بقوله:

سقى الله جارينا ومن حل وليه قبائل جاءت من سهام وسردد

(٣) في عمارة والخزرجي «واختط مدينة المعقر على وادي ذوال» فلم يذكر القحمة ولا ما بعدها وفي «خ» ساقط قوله المعقر هو المعروف برمان فما هنا وهم والقحمة هي مدينة قديمة ذكرها الهمداني ومن سبقه من الجغرافيين وليست من بناء حسين من سلامة وقد تشعثت وتقع فيما بين بيت الفقيه والمنصورية والقحمة أيضاً فرضة في مخلاف حكم بين الشقيق والليث وذوال بضم الذال المعجمة آخره لام وهو معروف مشهور لعهدنا والمعقر بفتح الميم وكسر القاف قديمة الاختطاط وهي اليوم أطلال راجع تاريخ عمارة بإخراجنا الطبعة الثانية.

(٤) في خ وبئر بدل منبر فقد جاء في أول كتاب الخزرجي المسمى بالعسجد في القسم الخاص باليمن ما لفظه «وروى أن علي بن أبي طالب عليه السلام لما تجاوز أرض عك في تهامة وأن قبائل عك قاتلوه في حد بلادهم من ذوال وعقروا ناقته فسمي الموضع المعقر لذلك قال ياقوت ونسب اليها أبو عبد الله أحمد بن جعفر المعقري من رواة صحيح مسلم» قلت ولم يبق لها اسم ولا رسم ولا يعرف موقعها بعد البحث والله أعلم متى خربت وألوت بها الصبا والدبور.

(٥) الجؤة ضبطها الجندي بالجيم بعدها واو مهموزة وآخره هاء، وهي كورة المعافر الشرقية وتقع في جبل الصلو تحت قلعة الدملوة المذكورة آنفاً وكانت مدينة عامرة بالعلم والعلماء وسائر الطبقات وقد ألوى عليها الدهر منذ زمن وصارت قاعاً صفصفاً ذات مزارع وحروث وبلغني أن القطع الأرضية فيها المسماة بالجرب تسمى بأسماء الحارات التي كانت عامرة كجربت السوق وجربت الجامع الخ. وهي التي

ذي أشرق [1] ، ومن الجند إلى صنعاء مسافة ثمانية أيام في كل مرحلة جامع ثم جامع صنعاء ثم من صنعاء إلى صعدة عشرة أيام في كل مرحلة جامع ثم من صعدة إلى الطائف في كل مرحلة جامع وبينهما ستة عشر يوماً ثم عقبة الطائف [2] وهو مسيرة يوم للطالع من مكة ونصف يوم للهابط إلى مكة عمرها الحسين عمارة متقنة يمشي فيها [3] في عرضها ثلاثة جمال بأحمالها فهذه الطريق العليا [4] وأما طريق تهامة فإنها تفترق في طريقين ساحلية ووسطى وهي الجادة السلطانية في كل مرحلة من الطريقين

= كانت تسمى الجمنول ،قال بعض الشعراء يمدح أحمد بن محمد بن المفضل بن عبد الكريم بن أسعد بن سبأ الأبيني وكان في الدولة المنصورية الرسولية وقصده الشعراء وامتدحوه :

يا طالب الجود يمم للندا جؤة ... فإنه حل فيها الوابل السكب
واقصد بمدحي أمين الدين إن له ... مواهباً ليس يحصي عدها الكتب
واستصغرت نفسه الدنيا لقاصده ... فلو حواها لكانت بعض ما يهب

(١) ذو أشرق ويقال ذو شراقة بلدة على جبيل ممتد من الجنوب الشرقي إلى الغرب الشمالي مستقبلة على وادي نخلان وخنوة جميلة الموقع عليها مسحة من جمال الذي أخنى عليها الدهر ولم يبق إلا جامعها الكبير الأثري ومنارته الذاهبة في الهواء والجامع قد تشعث وأهمل من الترميم والإصلاح وقد شاهدته وهو في حالة يرثي لها وبلغني أن له أوقافاً جسيمة لا يعلم أين تذهب وفيه منبر أثري عليه كتابة بالقلم الكوفي حاولت قراءته فلم أستطع لاختلاط الحروف وملاستها لقدمها وكثرة ملامستها وقال عمارة ثم ذي أشرق وبها مسجد مكتوب على أحجاره فوق بابه مما أمر به عمر بن عبد العزيز بن مروان قلت ولا زالت الكتابة موجودة وقد ذكرتها في محل آخر ، وكانت تشغل مركز قضاء لذا يممها أرباب الصنائع ورواد العلم فنسب إليها عدد غير يسير من حملة العلم والفضل وقالة الشعر منهم أحمد محمد الأشرقي شاعر الملك المعز اسماعيل بن طغتيكن الأيوبي ومنهم العلامة قاضي اليمن مسعود بن علي بن المسعود الأشرقي المتوفى سنة ٥٩٠ تسعين وخمسمائة وكان بينه وبين الإمام عبد الله بن حمزة مراسلات في مسائل أصول الدين وغيره ومن جملة ذلك أنه سير له الإمام مسائل في صحة إمامة نفسه فصنف كتاباً أبطل فيه جميع مزاعمه وفند شبهه ، تقع في الجنوب الغربي من إب بمسيرة أربع ساعات وفي الشمال الشرقي من تعز بمسافة ست ساعات وعن الجند أربع أو ثلاث ساعات وبالسيارة في الوقت الحاضر نصف ساعة .

(٢) هي المعروفة اليوم عقبة لهدة وهي مبلطة مصلولة الى هذه الغاية ويقال لها هدة وقديماً تسمى كري وقرية كري معروفة لهذا العهد وقد عبد منها الطريق إلى مكة وعرفات .

(٣) لفظ فيها ساقط من خ وهو الصواب .

(٤) ولم يبق من هذه الجوامع في هذه الأمكنة ما هو معروف باسم القائد حسين بن سلامة غير جامع عدن يسمى مسجد حسين وجامع ذي أشرق وجامع بمدينة ذمار يقال له مسجد حسين حدثني والدي رضوان الله عليه أنه منسوب إلى الحسين بن سلامة ، وبنايته وأحجاره الضخمة ظاهرة القدم ولكن قد أصلح في العصر الحاضر على الأسلوب الحديث ومسجد بصنعاء يدعى بمسجد ابن الحسين.

الوسطى والساحلية جامع ومنبر فمن الساحلية، المخنق على ليلة من عدن وجامع المشهد ثم العارة ثم عبره ثم السقيا (١) ثم باب المندب ثم المخاثم السحاري (٢) ثم الخوهه ثم الأهواب (٣) ثم غلافقة ثم بيعة ثم الحردة ثم الزرعة (٤) ثم الشرجة ثم المعجر ثم العندرة (٥) ثم عثر ثم بيض (٦) ثم الدومة ثم حمضة ثم ذهبان (٧) ثم حلي ثم السربن ثم جدة (٨) ومن الوسطى ذات الحبيب (٩) ثم موزع ثم الجدون (١٠) ثم حيس (١١) ثم زبيد ثم فشال ثم الضجع ثم (١٢) القحمة ثم الكندري ثم

---

(١) كذا في الأصل وفي خ بإسقاطها.

(٢) راجع عمارة وصفة جزيرة العرب فقد حققنا هذه الأماكن.

(٣) والخوهة ضبطها الجندي بفتح الخاء المعجمة وخفض الواو وفتح الهاء الأولى وسكون الثانية واليوم يبدلون الهاء خاء مضمومة فينطقون بها الخوخة وهي فرضة عامرة غربي الصحارى على مسافة يسيرة، والأهواب هو المسمى «البقعة» غربي زبيد تماماً وهو الآن مجهول ولا يعرف إلا بآثار من العمارة القديمة.

(٤) غلافقة قد تقدم ذكرها وأما بيعة والحردة والزرعة فلا أعرف موقعهن بالضبط بعد البحث وهذه أسماء قد ماتت ولكن لم يخامرني اليأس عند تجديد البحث ومواصلته.

(٥) المعجز والعندرة كذلك لا نعرف عنها شيئاً.

(٦) أما عثر فقد تقدم التعريف به وأما بيض فهو واد مشهور إلى يومنا هذا.

(٧) هذه المواضع الثلاثة لا أعرف عن مواقعها شيئاً والبحث متواصل وذهبان هذه أحد البقاع التي سميت بهذا الاسم ومنها ذهبان قرية بين المدينة وجدة وذهبان بلدة على طريق الحاج في سراة عسير وبلدة تقدم ذكرها شمال صنعاء.

(٨) قد تقدم الكلام على حلي فأما السرين فلا أعرف عنها شيئاً ويظهر أنها قائمة العمارة وجدة بالضم هو الثغر الحجازي المشهور وبها ينزل الحجاج الوافدون من جهات الدنيا بحراً وجواً إذ لها مطار كبير وتقف بها أعظم البواخر البخارية وحاملات الحجاج وحاملات البترول وتجارتها واسعة وأهلها من أنشط الناس في التجارة والعمل وأكثرهم أفاقيون وقد أدخل عليها تحسينات واسعة ذات أهمية وبينها وبين مكة يومان وبالسيارات ساعة فصاعداً أو دون ساعة.

(٩) لم أظفر على محل ذات الحيب. كذا في الاصل وفي خ ذات الخبيت بالخاء المعجمة والباء الموحدة والياء المثناة من تحت ثم تاء مثناة من فوق ولم نعثر على هذا الاسم.

(١٠) موزع يأتي ذكره بعد ذلك وأما الجدون فلم أعثر على موقعها.

(١١) حيس مدينة عظيمة من المدن التهامية الحية حافلة بالأسواق والعمران والجوامع الكبار وكورة واسعة وتشكل مركز قضاء مربوط بمدينة زبيد وتقع في جنوبها لمسافة يوم للمجد ويقال لها حيس القنا ولا يسكنها إلا الأشعريون، قال مسلم بن نعيم المالكي ثم الحميري:

أمـا ديـار بني عـوف فمنجـدة ... والعـز قـومـي بحيس دارهـا الشعـف

مـن بعـد آطـام عـز كـان يسكنهـا ... منـا ملـوك وسـادات لهـم شـرف

(١٢) فشال في القاموس في مادة الفشل كسحاب بلدة قرب زبيد وقال ياقوت بلدة كبيرة بينها

المهجم ثم مور ثم الواديان [1] ثم جيزان ثم الساعد ثم تعشرة ثم الميناء ثم رباح، ثم الهجرة [2] ثم تلتقي بالطريق الساحلية ويفترقان من السرين وبينها وبين مكة خمسة أيام فأول ما تلتقي من عمارته بئر الرياضة ثم سبخة الغراب ثم الخبت [3] ثم يأتي الناس وادي يلملم وهو ميقات أهل اليمن وبه بئر من عمارته ثم بئر آدم [4] ثم تفترق الطريق فمن أراد مكة ورد من عمارته بئر البيضا [5] ثم الفريق ثم مكة ومن أراد عرفات ورد من عمارته بئر الوادي الرحمة ثم نعمان [6] ثم

وبين زبيد نصف يوم وفشال أم قرى وادي رمع ينسب اليها شاعر يقال له مسرور الفشال مجيد الخ قلت ولا يعرف مكانها بالضبط وقد خربت منذ زمان وإنما يعرف بوادي فشال وأما الضجع فهو بكسر الضاد المعجمة وهي الأخرى لا يعرف موقعها بالتحديد.

(١) قد تقدم الكلام على القحمة والكدري والمهجم وأما مور فهو الميزاب الأعظم من ميازيب اليمن الغربية بعيد المآتي يصب إلى تهامة وهو من أخصب أودية تهامة ووصفه طويل وأما الواديان فلا أعرف عنها شيئاً.

(٢) جيزان كذا في الأصل بالجيم وفي خ حيران بالحاء المهملة وبالراء المهملة وبقية الحروف كالأول وهو الصحيح إذ حيران هذا جنوب حرض والساعد شمال حرض وجيزان بالجيم والزاي من وراء تعشر وهي جازان والساعد لا تعرف وتعشر بفتح التاء المثناة من تحت وسكون العين المهملة ثم سين وراء قال سعيد بن محمد العبشمي:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بتعشر بين الأثل والركوان

قلت وقد ذكره لسان اليمن في كتابه صفة جزيرة العرب وأنه مأسدة ولا يزال معروفاً إلى الآن وأما الميناء وما بعدها فلا أعرف عنها شيئاً.

(٣) هذه الأماكن لم أقف على معرفة شيء منها.

(٤) يلملم بالفتح واد معروف في جنوب مكة على ليلتين منها وإدام ككتاب قال في القاموس بئر على مرحلة من مكة.

(٥) لا أعرف عن البيضاء شيئاً وقد ذكرها لسان اليمن وأنها أحد المراحل للحاج في الطريق التهامية وقال في القاموس والبيضا تطلق على أربع قرى بمصر وبلد بفارس وكورة بالمغرب وموضع بحمى الربذة وموضع بالبحرين وعقبة بجبل المناقب ماء بنجد لبني معاوية وبلد خلف باب الأبواب واسم لحلب الشهباء وموضع بالقطيف وعقبة التنعيم وماء «لبني سلول» قلت ولم يذكر هذه ولا التي باليمن وهي البيضا المدينة الأثرية في الجوف والبيضا في سرو مذحج التي يتردد ذكرها في هذه الأيام في الإذاعات ونحوها ويقال لها بيضا حصيّ والبيضا من ملحقات مدينة رداع ويقال لها بيضا صباح والبيضا في مخلاف ذي جرة ثم في بلاد الروس جنوب صنعا وبعد تحرير هذه أخبرني الأخ العلامة المفضال أحمد ابن محمد صاحب المعائن وهو رجل ذو أسفار أن بئر البيضا لا تزال حية قائمة وليس حولها عمران ولا بناء وإنما ينزلها الحاج للقيلولة هناك ليقضي وطره من مائها.

(٦) لا أعرف عن الفريق وبئر الوادي شيئاً وأما نعمان فزنة سحبان معروف مشهور واد وراء عرفات.

عرفات وله مسجد أعلى جبل الرحمة [1] بعرفات وكان حسين بن سلامة حسن السيرة صالح السريرة له محاسن كثيرة، وهو أول من أدار السور على مدينة زبيد، وكان مدة ملكه نحواً من ثلاثين سنة[2]، ثم أدار عليها سوراً آخر من الله الفاتكي الآتي ذكره ثم بني لها سور ثالث في أيام بني مهدي ثم سور رابع بناه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، ولمدينة زبيد أربعة أبواب أحدها شرقي ينفذ إلى قرية الشبارق واليها ينسب والى حصن قوارير [3] وغيره، والثاني غربي ينفذ إلى نخل الوادي زبيد وإليه ينسب فيقال باب النخل وكان من قبل يسمى باب غلافقة لأنه ينفذ اليها وإلى الأهواب وغلافقة على ساحل البحر كانت بندراً لمدينة زبيد وهي قرية عظيمة مشهورة وقد خربت في هذا الوقت وانتقل البندر إلى قرية الأهواب وهو المسمى بالبقعة [4] والثالث قبلي ينفذ إلى وادي رمع ثم إلى سهام واليه ينسب فيقال باب سهام [5] والرابع يماني ينفذ إلى قرية القرتب واليها ينسب وينفذ إلى الوادي زبيد، قال أبو الحسن الخزرجي مسحت زبيد في أيام الملك المجاهد الغساني فبلغت ستمائة معاد وثلاثين معاداً ونصف وثمن معاد [6] ثم مسحت في الدولة الأفضلية فنقصت على المساحة الأولى نحو من خمسين معاداً والله أعلم، ولما توفي الحسين بن سلامة رحمه الله ومات القائم من بني زياد انتقل الأمر من بعده إلى طفل من بني زياد اسمه عبد الله وكفلته عمة له وعبد حبشي اسمه مرجان من عبيد الحسين بن سلامة فاستقرت الوزارة لمرجان وكان لمرجان عبدان فحلان من الحبشة رباهما صغيرين وولاهما كبيرين: نفيس وهو الذي كان يتولى التدبير في

---

(١) يقع في قلب جبل عرفات ويعرف بمسجد الرحمة الى عهدنا هذا.

(٢) في الأصل زيادة قوله يقال إنه أول من أدار السور على مدينة زبيد فحذفناها لكونها مكررة وأيضاً لم تكن موجودة في الخزرجي.

(٣) قوارير حصن في مخلاف وصاب عجيب الشكل صعب لا يرام وقرية الشبارق لا تزال حية قائمة العمارة كبيرة الحجم وهي عن زبيد بمسافة ساعتين ونصف تقريباً.

(٤) قد تقدم ذكرها قريباً وأنها قد خربت وجهل موقعها وقد خلف الجميع ميناء الحديدة وسيأتي ذكرها.

(٥) رمع وسهام والقرتب قد تقدم الكلام عليهن وما أحسن قول العلامة بدر الدين الدماميني النحوي وقد وفد على الملك الناصر الغساني في طريقه إلى الهند في باب سهام:

قالت وقد فتحت جفوناً نعساً ... ترمي الورى بالجور في الأحكام
احذر هلاكك في زبيد فإنني ... لذوي الغرام فتحت باب سهام

(٦) المعاد في عرفنا معاشر اليمنيين ثمانون قصبة أو لبنة أو شكلة على اختلاف التعابير وأعراف جهات مناطق اليمن والمعاد يقدر بفدان مصري على جهة التقريب والشكلة وما رادفها مما ذكرنا تختلف باختلاف المناطق فمن اثنى عشر ذراعاً إلى أربعة وعشرين ذراعاً.

الحضرة ونجاح وهو الذي يتولى أعمال الكدري والمهجم ومور وكان نفيس ظلوماً غشوماً وكان نجاح رؤوفاً رحيماً وكان مولاهما مرجان يفضل نفيساً على نجاح وابن زياد وعمته يفضلان نجاحاً فأغرى بهما نفيس سيدهما مرجان فقبض عليهم وسلمهما إلى نفيس فبنى عليهما جدارا وهما قائمان ينشدانه الله حتى ختمه عليهما فكان ذلك آخر العهد بهما وذلك سنة سبع وأربعمائة، وكان نجاح يومئذ غائباً بالأعمال الشمالية عن زبيد فكان هذا الولد من بني زياد وعمته آخر من ولي من بني زياد وكانت مدتهم في الملك مائتي سنة وثلاث سنين من أول اختطاط مدينة زبيد الى سنة سبع وأربعمائة، وكان بنو زياد قد تغلبوا على ارتفاع اليمن لما سمعوا باختلال الدولة العباسية من قتل المتوكل وخلع المستعين وركبوا المظلة وساسوا قلوب الرعية ببقاء الخطبة لبني العباس، ولم يزالوا كذلك إلى التاريخ المذكور والله أعلم.

الفصل الثاني

في ذكر ملوك الحبشة باليمن من آل نجاح

قال الإمام أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي رحمه الله لما قتل نفيس مولاه ركب المظلة وضربت السكة باسمه فنمى الخبر إلى نجاح بفعله فاستنفر [١] الناس وتجهز لحربه وقصده إلى زبيد بجموع عظيمة وجمع نفيس أيضاً كذلك وحصلت بينهما عدة وقائع منها يوم رمع ويوم فشال على نجاح ومنها يوم العقد [٢] على نفيس ومنها يوم العرق [٣] وفيه قتل نفيس على باب زبيد وقتل فيه من الفريقين نحو خمسة آلاف وفتح نجاح، زبيد في سنة اثنتى عشرة وأربعمائة [٤] فقبض على سيده مرجان وسأله عن فعله بمولاه فقال هما في هذا المكان

---

(١) استفز بالزاي آخر الحروف كما في الأصل وفي خ استنفر بالنون بعد التاء والراء المهملة آخر الحروف.

(٢) كذا في عمارة أما في الأصل والخزرجي فكانت القعدة باسم الشهر المعروف ولا أعرف موقعها بعد البحث.

(٣) العرق بكسر العين وسكون الراء آخره قاف، وهي المحلة التي تعرف عند أهل زبيد بمقبرة السودان زاعمين أن بها كانت الواقعة الحاسمة بين الأحباش والملك سيف بن ذي يزن وهي اليوم مزرعة لبني الأنباري ويقع شمالي زبيد بمقدار ميل.

(٤) كذا في الخزرجي وعمارة وهذا مخالف لما تقدم أن القائد مرجان هدد عبد المؤمن بن أبي الفتوح بقبوله المعيد لدين الله والقيام بنصرته وأن ذلك في سنة ثماني عشرة وأربعمائة أي بعد أن صار خبراً من الأخبار فليرجع الى أقدم مصدر لتحقيق الموضوع.

فأخرجها نجاح وصلى عليها وبنى عليها في العرق مشهداً وجعل مرجان مكانها وبنى عليه حياً وأمر بإحضار جثة نفيس فجعلت عند مرجان فبنى عليهما الجدار حتى ختمه واستولى على البلاد وركب المظلة وضرب السكة باسمه وكاتب أهل العراق وبذل لهم الطاعة ففوضوا اليه النظر العام في الجزيرة اليمنية وتقليد القضاء لمن رآه أهلاً فلم يـزل مالكاً لتهامة قاهراً لأكثر أهل الجبال وكوتب بمولانا وبالملك وكان حبشياً من حبش يقال لهم الجزل (١) فضبط تهامة ضبطاً كلياً وهابته الملوك وهادنته وتغلب عليه أهـل الجبـال واستـولى أهـل الحصـون على ما بأيديهم فتغلبت همدان على صنعاء وبنو معن على عدن وأبين والشحر وحضرموت وليسوا من ولد معن بن زايدة الشيباني(٢) وتغلب بنو الكرندي من حمير على السمدان(٣) وهو حصن عظيم وعلى السواء(٤) وحصن الدملوة وصبر وذخر(٥) والتعكر وهو الحاكم على الجند ومخلاف جعفر ومخلاف عنه(٦) ومخلاف المعافر، قال عمارة ولبني الكرندي سلطنة

(١) الجزل بالجيم والزاي واللام قبيلة من قبائل الحبش موجود منها عدد كثير في بلاد الحبشة.

(٢) بل إنه أصبحيّ من ولد القيل ذي أصبح الحميري كما يأتي قريباً.

(٣) السمدان بفتح السين المهملة والميم ثم دال مهملة وألف ونون حصن أشم صعب المرتقى يناغي الجوزاء وهو منحوت في الصخر الأصم وليس له إلا باب واحد ومنه يصعد في درج منحوتة حتى تدخل إلى ساحته قد أبدعت يد الفن إتقانه وكان في قمته القصور الزاهرة والمباني العجيبة بفن معماري رائع وفيه مخازن المياه ومستودعات الحبوب والذخائر والكراع ولا تزال آثارها باقية تمثل الروعة والإعجاب وكان يضرب به المثل في المناعة والحصانة حتى قال عمارة وهو الذي ليس لمخلوق عليه اقتدار ما لم يعنه الخالق بماضيات الأقدار ويقع في بلد الرجاعية من مخلاف المعافر غربي مركز تربة ذبحان بمسافة خمسة عشر كيلومتراً والسمدان ومنيف ويمين تشكل سلسلة من الجبال بعضها آخذ برقاب بعض.

(٤) السوا عزلة من المعافر مصاقبة لجباء كورة المعافر قديماً في سهل ممتد وحصن السوا هو المعروف اليوم بقلعة بني خولان لأنه كان أخيراً في حوزة السبأيين من خولان.

(٥) ذخر بالذال المعجمة مفتوحة والخاء المعجمة مكسورة آخره راء مقاطعة كبيرة من المعافر وعمل مستقل يشكل في عمله الإداري ناحية يشتمل على أعمال جليلة وعزل وقرى عامرة وأودية خصبة ويسمى اليوم جبل حبشي ومركز إدارته «يفرس» التي فيها قبر الولي العارف أحمد بن علوان وحدوده شمالاً شمير وغرباً موزع وبلد المخا وشرقاً جبل صبر وجنوباً عزلة السوا وأعظم منتوجاتها القات والبن والبلح والموز وسائر الحبوب والخضراوات وقومه من حمير وشرذمة من السكاسك والأشاعر ومن عزله حمير وحراز وغير ذلك وقبائله عمائر وأفخاذ عديدة.

(٦) مخلاف جعفر هو المعروف بالإقليم الأخضر نسب إلى الأمير جعفر بن إبراهيم الحميري المناخي المتقدم الذكر، كما تقدم التعريف به أيضاً ولزيادة الإيضاح هو من نقيل صيد شمالاً حتى أسافل خنوة وعقبة القاعدة التي يهبط منها إلى قاع الجند ومن بني موسى شرقاً جبال بعدان وغرباً أسافل نخلة وهو مخلاف ذي الكلاع كما أنه قد يطلق على بلاد العدين فحسب وأما عنه فهي بفتح العين المهملة والنون المشددة بعدها هاء لا يعرف اليوم مخلاف عنه بالضبط ولا موقعه بالتحديد وإنما يطلق على =

ظاهرة ودولة قاهرة وتغلب الحسين بن التبعي على حب وهو نظير التعكر وعلى عزان[1] وعلى خدد وحصن الشعر[2] والسحول والشوافي[3] وتغلب بنو وائل بن عيسى على

= مجموع الأودية التي تنحدر اليها جبال ذي الكلاع التي يجتمع بعضها حوالى مركز العدين ثم تمده روافد أخر فتجتمع بالفتح أعلى وادي زبيد وهي أودية عظام قيل إنها تبلغ خمسين وادياً وبيئة مغيولة حارة لكثرة المياه الغزيرة التي لا تنقطع صيفاً ولا شتاء ملتفة الأشجار باسقة كأنها الصوامع وذات الجذور الضخمة على اختلاف أنواعها وأصنافها التي تزود المخلاف بالأخشاب ومواد النجارة، وبها شجرة البن الكثير والموز بأنواعه الذي يفوق الحصر حتى ضربت العرب بكثرة موز عنه المثل بقولهم « يا مهدي الموز إلى عنه وعنه قتوب » وكذلك المضار القند الكثير الطيب وسائر الخضار والفواكه وسائر الحبوب والرياحين كالكادي والفل ويسكنه قوم من حمير أهل منعة ونجدة وكرم ومروة وتقع غرب مدينة إب بمسافة ست ساعات نسبت إلى عنه بن مثوب الأكبر بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير بن سبأ ثم أطلعت على تاريخ الشعبي وذكر من عنه خباز والجبلين وبني مدسم وهذه عزل وجبال وقرى ومحال وأودية تصب مياهها إلى ما ذكرنا.

(١) عزان بكسر المهملة تثنية عز وهو المعقل الذي أعلى جبل ريمان وبعدان المطل على مدينة إب من الزاوية الشرقية الجنوبية وتقدر المسافة من إب اليه بمقدار ساعتين كلها صعود وهو اليوم أطلال وقد يتنزه اليه في آخر موسم الخريف الذي يسمى عندنا معاشر اليمنيين « العلان » لأنه أعلن بانقطاع الأمطار فصل الخريف واقبال فصل الشتاء وما يحمل في طياته والأرض مقبله بثمارها محملة بخيراتها مثقلة بنتاجها مكسوة مروجها فيكون المنظر أروع ما يشاهد في ربوع اليمن إذ يبصر منه أجل مخلاف جعفر فمن خضرة مدهامة وصفرة فاقعة وحمرة قانية إلى غياض ورياض وجبال شامخة وأودية ناعمة وهكذا جبال السراة في هذا الموسم الرائع وهذا عزاة أحد المعاقل التي تحمل هذا الاسم ومنها عزان التعكر وعزان العرش برداع وقد دخلته وهو رابع مأهول بالسكان وعزان بني عواص من الكلاع وسيأتي قريباً ذكره، وعزان بني مليك المطلة على سائلة عنه وعزان ريدة الجعاش بلد ذي السفال وعزان مصانع حمير المطلة على حجة وعزان كحلان عفار وعزان الصومعة من بلاد البيضا سر ومذحج وعزان ببلاد الواحدي المحاد لحضرموت وعزان ذخر وسيأتي ذكره وعزان باجل ويقع في الشمال الشرقي منه وهو عامر، قلت ودلالة الوضع العربي على معنى عزان أنه لا يكون إلا معقلاً منفرداً صنوبري الشكل كما شاهدته.

(٢) خدد بفتح الخاء المعجمة وكسر الدال المهملة وآخره مثله مخفد ومصنعة من مصانع اليمن وهيكل من هياكله القديمة ومعقل لا يرام كان فيه من الفن والإبداع ما هو غني عن الوصف ولم تبق منه العوادي إلا رسوماً وأطلالاً يدل الباقي منه على الفاني وعندما يشاهده الإنسان يعض بنان الندم وتأخذه الحسرة والألم وينحى اللائمة على المخربين العابثين. راجع صفة جزيرة العرب والجزء الثامن من الإكليل ويقع في متوسط ظاهر جبل جيش من بلد الكلاع ويطل على بطن السحول ويناوحه من الشرق المخادر وجبالها ونقيل سمارة وهو في الغرب الشمالي من مدينة إب بمسافة ست ساعات والشعر تقدم الكلام عليه وحصن الشعر يأتي ذكره إن شاء الله.

(٣) الشوافي مخلاف من ذي الكلاع والسحول والشوافي ويشتمل على أربع عزل كبار قممها تطل =

وحاظة[1] وحصونها يريس ودهران ويفوز وشعب وعزان والخضراء[2] وبنو وائل هؤلاء

= على العدين وأسافلها إلى بطن السحول ويبلغ ارتفاعه سنوياً ثمانية عشر ألف قدح من متنوع الحبوب ومنه قديماً جبل خضراء الذي فيه قرية الشوافي العامرة. نسب إلى الشوافي بن معدي كرب بن شرحبيل بن أساس بن يغوث بن علقمة من آل ذي جدن ثم من سبأ الصغرى.

(١) وحاظه بالضم ويقال أحاظه وكثير من الأسماء والأفعال على هذا النمط كوصاب وأصاب ووكد وأكد. وقد عقد المبرد في كامله باباً لبعض ذلك ـ وهي قلعة شماء ومصنعة فائقة الحسن والجمال ومحفد أثيل وأعجوبة اليمن في ذلك الزمان قال لسان اليمن: «وهي تشبه ناعط في القصور والكرف» وقد زرتها ووصفت منها ما وقعت عليه عيناي وعلق به خاطري وما أبقته الأيام منها في غير هذا التعليق إذ قد صارت الكرف والقصور حروثاً ومزارع وتقع في رأس مشرف من عزلة شباع المطلة على البلاد المنخفضة ـ الغربية من جبل حبيش وإلى ما لا نهاية له سميت باسم وحاظة بن سعد بن عوف من ولد سبأ الأصغر ثم أطلق على مخلاف وحاظة من الكلاع وهو فيما يظهر أنه يشمل أعمال جبل حبيش وأجزاء من بلاد العدين وهي معاندة لحصن خدد بينهما قدر ساعتين فخدد في الشرق الشمالي ووحاظة في الغرب الجنوبي، واشتهر أهلها بالفروسية قال الشنفري واسمه ثابت بن أوس الأزدي من قصيدته اللامية:

فغبت غشاشاً ثم مرت كأنها ... من الصبح ركب من أحاطة مجفل

وقد ازدهرت بالعلم والعلماء وأنجبت جملة صالحة من العلماء منهم الإمام العلامة اللغوي عيسى بن ابراهيم الوحاظي الحميري مصنف نظام الغريب المطبوع بمصر وهو مرجع من مراجع كتب اللغة على نمط فقه اللغة للثعالبي وعندي منه نسخة خطية قديمة ويا ليت أن نبلاء اليمن تتحرك فيهم المسؤولية والهمم فيعيدون طبعه على نمط جديد وطراز حديث وقد نشرناه وحققناه ومنهم صنوه مؤلف قيد الأوابد وهو قليل الوجود ومنهم زيد بن الحسن الفائشي الوحاظي الحميري مصنف التهذيب وغيرهم وهاجر منهم أيام الفتح كثير ونسب إليهم حافظ الشام يحيى بن صالح الوحاظي الحميري.

(٢) يريس بفتح الياء المثناة من تحت وراء مكسورة ثم ياء مثناة من تحت وسين مهملة كان حصناً في مخلاف وحاظة وبه سميت عزلة يريس التي من قراها شاحط وهو اليوم لا شيء ويريس وعزان وبفوز تشكل سلسلة هضاب من الجنوب الى الشمال كل حصن يسيطر على الآخر فأعلاها يفوز ثم عزان ثم يريس وعزان هذا هو الذي وعدنا بذكره وفيه دار عامر بالسكان وأما يفوز فإنه مضارع فاز إذا ظفر بالشيء وهو المسمى اليوم القفلة ويتألف من ثلاث قنن كأنها الثريا وفيما بينها الأسوار والكرف في الشعاب والمضايق ولا يصعد إليها إلا بسلالم ويقال إن أول من بناه وحصنه السلطان وائل بن عيسى الكلاعي في القرن الخامس والحصن معدود في عزله بني عواض من العدين، ومن طريف الصدف أني لما نزلت إلى هذه المنطقة خصيصاً لمعرفة معاقلها لم أجد من يعلمني موقع يفوز واسمه رغم إحفاء السؤال لأنه قد مات اسم يفوز وبينما كنت نازلاً في قرية شاحط لدن الرجل الشهم مصلح بن عبد الله بن علي الشاحطي دارت المذاكرة لهذه الحصون وكلهم واجون وينفون العلم عن وجود حصن يحمل اسم يفوز فبدر رجل اسمه أحمد محسن من بني عوض قائلاً هو القفلة والذي يسمى يفوز هو أحد القلاع الثلاث ثم =

هم من ذي الكلاع من حمير [١] فيهم حمق يرون أنهم أشرف بني آدم على الإطلاق [٢] ومن بني وائل هؤلاء أسعد بن وائل صاحب الكرم العريض والثناء المستفيض كان صالحاً سنياً يؤثر العبادة والقراءة ويعظم السلف ويعمر المساجد توفي مقتولاً سنة خمس عشرة وخمسمائة وقبره في جامع الجعامي [٣] وتغلب قوم من همدان على حصن أشيخ وهو مقر ملك الداعي

سرد في وصفه ما سرّى عني ما كنت أجد وما جعل لساني له ذاكراً شاكراً وضاعف سروراً عظيماً، ويفوز أيضاً حصن في عزله الرجاعية من المعافر بينه وبين ذبحان أربعة أميال ويفوز في عراس من بلاد دهران فهو بكسر الدال المهملة وسكون الهاء ثم راء وألف ونون وهرقلة منيفة يريم وأما قطرها متساوي الأضلاع تقع في شرقي الحصون المذكورة ويهيمن عليها وعلى ملكان وبنى عوض من جنوبها وليس فيه اليوم لا عين ولا أثر . وأما شعيب فهو حصن في جبل خضرا أعلى جبل جيش وليس بشيء وثم قرية هنالك تحمل هذا الاسم يقال انها الشعيب. وأما الخضراء فهي مقاطعة حسنة أعلى جبل حبيش ذات مزارع وحروث عظيمة وقرى كبيرة حافلة بالدور المبنية من الحجر الصلد ومن قراها الشوافي والثومان وفيها عدة حصون ومنها نهرة المشهورة في التاريخ وكل هذه الأماكن تقع في الغرب الشمالي من مدينة إب بمسافة سبع ساعات لأبعدها . ويطلق اسم الخضراء على هذه وعلى قلة مدورة الشكل أعلى نقيل نخلان نعيمه والنجد الأحمر وهضبة في عزله سير في مخلاف بعدان أمام حصن حب من الشرق وخضراء عدن المتقدمة الذكر وخضراء رداع، وخضراء في قضاء باجل، وخضراء في قضاء بيت الفقيه.

(١) بنو وائل لهم بقية اليوم ومقاطعة تسمى عزلة بني وائل حلال يريس وهم أهل حد ومنعة ولهم مكارم عربية ونخوة يعربية ولهم رياسة كما أن منهم جماعة كبيرة في حمير وصاب، ومن أخبارهم أن حمير تقول: « كل وايلي جبان فهو ولد زنى » لشهرتهم بالشجاعة والبأس. والكلاع بالفتح أفصح من الضم وهي قبيلة من حمير سميت باسم الكلاع، وذو الكلاع الأكبر اسمه يزيد بن النعمان والأصغر السميفع ابن ناكور. والكلام على الكلاع وذو الكلاع طويل الذيول إذ لهم تاريخ حافل بجلائل الأمور وتقدم في صفحة سابقة أن ذا الكلاع الأصغر وفد على أبي بكر مع قومه من حمير ونزل بر الشام وكان لهم أعظم الأثر في الفتح الإسلامي ومقام مرموق وامتاز منهم عظماء تبوأوا مكاناً علياً واشتهروا بالنبوغ والرياسة واتسمت باسمهم قلاع وأوطان ببر الشام وبر الأندلس ونيسابور وغير ذلك. ومن النبلاء في الوطن العزيز الحافظ الأديب الكاتب المنشئ الشاعر محمد بن الحسن الكلاعي أحد عجائب اليمن وزّر للقائد الحسين بن سلامة وهو من أعيان القرن الرابع الهجري. وله تاريخ وشرح على الدامغة التي أجاب بها على العدوى وقصيدته المفحمة وشرحها له غير ذلك وعما قريب تظهر هذه الكتب للطبع والنشر.

(٢) ومن حمقهم ما رواه عمارة في مفيده عن نفسه راجع عمارة في طبعته الثانية بإخراجنا.

وقد أثنى على هذا السلطان ابن سمرة ثناء عاطراً حتى قال وكانت وحاظة ببركة عبادها وفقهائها وعدل سلاطينها واسعة الأرزاق نضيرة البساتين والأسواق عامرة المساجد كاملة المحارث والموارد.

(٣) الجعامي بفتح الجيم بلدة في بحبوحة عزلة يريس وبها جامعها الذي أسسه السلطان أسعد بن وائل وبه قبره وقبر الإمام الحافظ زيد بن الحسن الفائشي الحميري رحمهما الله تعالى.

سبأ بن أحمد الصليحي وعلى حصن ظفر[1] وعلى مخاليف صعدة قوم من همدان ثم من بكيل[2] وتغلب علي بن محمد الصليحي صاحب الدعوة على مسار [3] وليس باليمن حصن يماثله إلا التعكر وحب والسمدان، وفي أيام نجاح ظهر الصليحي في حصن مسار وتغلب على صنعاء وأعمالها كما تقدم ذكره وقتل نجاحاً بالسم في خبر الدولة الصليحية وكان لنجاح من الولد سعيد وجياش ومعارك والذخيرة ومنصور ولما توفي نجاح سنة ٤٥٢ اثنتين وخمسين وأربعمائة أقام أولاده من بعده سنتين[4] والأمر لمولى لهم يقال له كهلان ولم يبلغوا حد الكمال وبعضهم لم يبلغ الحلم فتصدهم الصليحي إلى زبيد سنة ٤٥٥ خمس وخمسين وأربعمائة واستولى على تهامة والجبال كما تقدم فهرب بنو نجاح إلى دهلك ثم بعد أمور عظيمة قتل سعيد الأحول الصليحي كما تقدم في خبر علي الصليحي في سنة ٤٥٩ تسع وخمسين وأربعمائة قال جياش بن نجاح لما قتل سعيد الصليحي عزت نفسه وشمخ بأنفه حتى عليّ وأنا ابن أمه وأبيه وكنت أشرت إليه بعد قتل الصليحي أن يحسن إلى السيدة أسماء بنت شهاب ويعفو عمن قدر عليه من الصليحيين وغيرهم من أبناء الملوك وأن يكتب إلى المكرم أنا أدركنا ثأرنا واسترجعنا ملكنا وقد أحسنا إليك بصيانة والدتك والعفو عن بني عمك، وقلت إن فعلت هذا لا تنازعك قحطان في ملك تهامة وإن كرهت ذلك لتثيرن حفائظها، ولتطلبن بأثرها فإنهم أهل نفوس أبية وهمم عربية فأجابني بقول الشاعر [5]:

لا تقطعن ذنب الأفعى وتتركها　　　إن كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا

---

(١) ظفر بفتح الظاء المشالة وما يطلق عليه بهذا الاسم قلاع كثيرة في اليمن ولم يذكر المؤلف مكانه من المخاليف ولعله حصن ظفران الذي بوصاب لقربها من بلد آنس الذي فيه أشيح المذكور قال الوصابي في تاريخه وأما حصن ظفران فإنه كاللوح المنصوب لا يعد أوعر منه في الحصون لا يطلعه شيء من البقر لوعورته ولا من الناس وهو الحصن الذي ليس له نظير في تحصنه ولا يتصور أن يستولى عليه قهراً.

(٢) نكيل قبيلة معروفة ذات فروع وأفخاذ معروفة إلى هذه الغاية وهي وحاشد قبيلا همدان راجع الجزء العاشر من الإكليل.

(٣) هذا مناف لما تقدم أن الصليحي احتل مسارا في سنة ٤٣٩ والأصح ما تقدم لاجتماع كلمة المؤرخين الذين منهم المؤلف.

(٤) راجع مفيد عمارة بإخراجنا.

(٥) هذا البيت لأبي أذينة من قصيدة له يغري بها الأسود بن المنذر بقتل آل غسان وكانوا قتلوا أخاً له، وهكذا الشعراء في كل جيل ينهجون هذا السبيل الوعر مهيجين الملوك على قتل الناس وإراقة الدماء ويتبعهم كل غاو كبعض المتفيهقة الذين يفتون بالقتل لا لشيء إلا لينالوا الحظوة والزلفى عند الملوك وأول القصيدة:

ما كل يسوم ينال المرء ما طلبا　　　ولا يسوغه المقدور ما وهبا =

فقتل من ظفر به منهم، قال الجندي فاستبقى منهم ثلاثة نفر وائل بن عيسى صاحب وحاظة، وعلي بن معن صاحب عدن وابن الكرندي [1] صاحب المعافر ثم كانت قصة المكرم ونزوله من صنعاء واستنقاذ والدته كما تقدم وهرب سعيد إلى دهلك ثم رجع إلى زبيد سنة ٧٩ تسع وسبعين [2] وأخرج ولاة المكرم ولم يزل مالكاً لها إلى أن دبرت الحرة السيدة على قتله في سنة ٤٨١ كما تقدم ذكره في الدولة الصليحية فلما قتل سعيد الأحول هرب جياش إلى الهند وهرب معه الوزير خلف بن أبي الطاهر الأموي فأقام بالهند تسعة أشهر واشترى جارية فعلقت منه بولد ثم رجع الى اليمن آخر السنة المذكورة فوصل عدن وأرسل خلف بن أبي الطاهر إلى زبيد وأمره أن يشيع بموت جياش في الهند ويستأمن لنفسه ويكشف عمن بقي من أهله، وطلع جياش إلى جبلة فكشف عن أحوال المكرم حتى تحقق عكوفه على اللذات واضطراب جسمه وتفويضه الأمر إلى امرأته السيدة بنت أحمد ثم انحدر إلى زبيد فاجتمع بالوزير خلف فأخبره بما طابت به نفسه عن أوليائهم وبني عمهم وأنهم كثير وأنهم إنما يريدون رأساً يقومون معه قال جياش وجريت على عادة الهند فطولت أظفاري وشعري وسترت عيني بخرقة سوداء وكنت قريباً من الدار السلطانية فإذا افترق الناس قصدت مصطبة [3] علي بن القم، وهو وزير الوالي أسعد بن شهاب فسمعته يقول يوماً وقد وقع بينه

= وأحزم الناس من إن فرصة عرضت ... لم يجعل السبب المقدور منقضبا
وأنصف الناس في كل المواطن من ... سقى المعادين بالكأس الذي شربا
وليس يظلمهم من راح يضربهم ... بحد سيف به من قبلهم ضربا
والعفو إلا عن الأكفاء مكرمة ... من قال غير الذي قد قلته كذبا
قتلت عمراً وتستبقي يزيد لقد ... رأيت رأياً يجر الويل والحربا
لا تقطعن...
هم جرد والسيف فاجعلهم له جزراً ... وأوقدوا النار فاجعلهم له حطبا
إن تعف عنهم يقول الناس كلهم ... لم يعف حلماً ولكن عفوه رهبا
هم أهلة غسان ومجدهم عال ... وإن حاولوا ملكاً فلا عجبا
وعرضوا بفداء واصفين لنا ... خيلاً وإبلاً يروق العجم والعربا
أيحلبون دماً منا ونحلبهم ... رِسلاً لقد شرفوا بين الورى حِلبا

(١) اسمه يعفر بن أحمد الكرندي.

(٢) أي بعد قتل الملك علي بن محمد الصليحي وهنا يذهب إلى أن قتله في سنة ٤٧٩ تسع وتسعين وأربع مائة وقد فندنا هذه الرواية فيما سبق وأن ليس لها أساس من الصحة بل كان قتل الصليحي سنة ٤٥٩ تسع وخمسين وأربعمائة راجع مفيد عمارة بإخراجنا.

(٣) المصطبة بكسر الميم. وهي مكان ممهد قليل الارتفاع عن الأرض يجلس عليها وتكون في الغالب أمام الدرر وتسمى عندنا الدكة.

وبين أسعد بن شهاب شر : والله لو وجدت كلباً من آل نجاح لملكته زبيد ثم خرج ولده الحسين بن علي بن القم وهو الشاعر المشهور وكان يومئذ رأس طبقة أهل زبيد في الشطرنج فقال لي يا هندي تحسن تلعب الشطرنج فقلت نعم فتلاعبنا فغلبته فكاد يسطو علي فذكر ذلك لوالده فقال له ما يغلبك إلا جياش بن نجاح وقد مات بالهند ثم خرج والده فلاعبته فكرهت أن أغلبه فجعلت الدست مانعاً فاغتبط بي وخالطني بنفسه، وكان لا يزال يقول عجل الله لنا بكم يا آل نجاح وكنت أجتمع بالوزير ليلاً وأنا في أثناء ذلك أكاتب الحبشة المتفرقين وآمرهم بالاستعداد حتى حصلت خمسة آلاف حربة متفرقة في الحواز وفي زبيد ثم أمرت الوزير أن يأخذ خمسة آلاف دينار كانت لي مودعة هنالك [1] وينفقها عليهم ففعل ذلك، قال جياش فلقيت الوزير ليلة وقلت له رأيت الليلة القائد حسين بن سلامة في النوم وقال لي يعود لك الملك الذي تحاوله ليلة ولادة هذه الجارية الهندية ثم التفت إلى رجل إلى جانبه الأيمن فقال أليس كذلك يا أمير المؤمنين قال بلى ويبقى هذا الأمر في ولد هذا المولود برهة من الدهر، قال جياش وكنت يوماً ألعب مع ابن القيم فضرب ابنه الحسين عبداً له بسوط فنالني طرفه وأنا غافل فقلت أنا أبو الطامي، فقال لي الشيخ ما اسمك يا هندي فقلت بحر فقال بحر الله يصلح أن يكنى أبا الطامي [2] وكان جياش يكنى أبا الطامي، قال فلما أراد الله رجوع الأمر إلينا لعبت يوماً مع الحسين بن القم، وأبوه عندنا على سرير وهو يعلم ولده الحسين فتراخيت له حتى غلبني وكان أبوه قال له إن غلبت الهندي أقدمتك على المكرم والسيدة بارتفاع هذه السنة ودفعت إليك الوفادة التي يعطونها عامل تهامة وهي ألوف من الدنانير فتراخيت له عند ذلك تحبباً إلى قلب أبيه حتى غلبني فطاش عند ذلك وسفه عليّ بلسانه فاحتملته لأجل أبيه فمد يده إلى الخرقة التي على عيني فأحفظني فقام أبوه وقبح عليه فعله وقمت من الغيظ فعثرت فقلت أنا جياش بن نجاح على عادتي ولم يسمعني إلا الشيخ علي بن القم فوثب خلفي يجر رداءه حتى أدركني فأمسكني وأخرج المصحف وحلف لي بما طابت به نفسي وحلفت له ثم أمر بإخلاء دار الأعز بن الصليحي [3] ففرشت وحملت

---

(١) في الخزرجي تبعاً لعمارة فقلت للوزير إن لي عند عمر بن سحيم وديعة فخذ منه عشرة آلاف دينار الخ.

(٢) وفي عمارة زيادة قوله قال جياش وندمت وساءت ظنوني بالقوم الخ.

(٣) هو الأمير الأعز شمس المعالي محمد بن الملك الكامل علي بن محمد الصليحي كان أحد الصدور الكبار والأمراء الفخام وركناً قوياً من أركان دولة أبيه ولاه أبوه مدينة زبيد في شعبان سنة ٤٥٧ سبع وخمسين وأربعمائة فغمر البلاد ومد سرادق العدل في ربوع تهامة ولكن لم يمهله القدر بل توفي على أثر حمى حادة في الثاني والعشرين من المحرم سنة ٤٥٨ ثمان وخمسين وأربعمائة وعمره سبع وعشرون سنة ورثاه فحول شعراء عصره ومنهم القاضي عمران بن الفضل اليامي قال من قصيدة له : =

جاريتي الهندية إليها وحملت إليها وصائف ووصفان وما عونا وغير ذلك فأقمت عنده إلى الليل ثم انصرفت إلى البيت المذكورة فوجدت جاريتي قد ولدت ولدي الفاتك ثم جاءني علي بن القم وقال خبرنا لا يخفى على أسعد بن شهاب فذكرت له أن معي في المدينة وحولها خمسة آلاف حربة من عبيدنا وأهلنا معهم الخبر فقال قد ملكت البلاد فاكشف أمرك فقلت له إني أكره قتل أسعد لأنه قد عفا على أهلنا وذرارينا وأحسن إليهم قال فافعل ما تراه قال فأمر جياش بضرب الطبول والأبواق وثارت معه عامة أهل المدينة مع الخمسة الآلاف وأسر أسعد بن شهاب فأحسن إليه ثم سيره مع أولاده وجميع ما ملك من أهل ومال[1]، قال جياش فتسلمت دار الإمارة صبيحة وضع الولد وصحّت رؤيا الحسين بن سلامة ولم يمض شهر حتى صرت أركب في عشرين ألف حربة من عبيدنا وبني عمنا فسبحان المكثر بعد القلة والمعز بعد الذلة، ولم يكن من المكرم بعد ذلك نكاية أكثر من غارات على أعمال زبيد لا طائل تحتها فمدة مملكة جياش لتهامة من سنة ٤٨٢ اثنتين وثمانين وأربعمائة إلى أن مات سنة ٤٩٨ ثمان وتسعين وأربعمائة وذلك ست عشر سنة[2] ثم توفي جياش عن أولاده وهم فاتك بن الجارية ومنصور وابراهيم وعبد الواحد والذخيرة ومعارك وكان جياش متصفاً بالعلم وله شعر رائق وترسل متوسط قال عمارة رأيت ديوان شعره مجلداً فخماً وصنف المفيد في أخبار زبيد وهو عزيز الوجود وله رسالة بليغة كتبها إلى معلم ولده تدل على كماله ذكرها الجندي[3] ومن شعره:

= عال صبري فراق ذي المجدين　　　وجفاني الكرى وأسهد عيني
صاح إن الندى ونجل عليّ　　　سكنا في ضريحه لحدين
ما رأينا ولا سمعنا بقبر　　　قبل هذا مضمناً شخصين

وقال عمرو بن يحيى بن أبي الغارات الهيثمي من قصيدة طويلة جاء فيها:

فتزلزلت شم الجبال لفقده　　　وأضل مالكه الطريق اللهجم
والشمس كاشفة عليه حسرة　　　والجو في وقت الظهيرة مظلم
إن تهدم الأيام عمر محمد　　　فسناؤه فوق السهى لا تهدم

راجع «الصيلحيون».

(١) وفي الخزرجي وعمارة إن أسعد بن شهاب لما أسره جياش: قال، ما يومنا منكم يا آل نجاح بواحد والأيام سجال، ومثلي لا يسأل العفو فقال له جياش ومثلك يا أبا حسان لا يقتل الخ.

(٢) كان في الأصل سبع عشر سنة وهو وهم فصححنا ذلك.

(٣) والرسالة كما في النخسة المنقطعة هي الأمانة ديانة تحرم فيها الخيانة والمرء مرتهن عمله لمعاده فإن رعى فمرعى وإن أضاع فمجزى. أعلم أني ائتمنتك على بضعة مني والنوط المذهب ذهبت إلى نوط الأمانة بك والحازم من يوصي المال قبله، وأنا أوصيك بمن أكسب المال له فكن أيدك الله عند ظني بك استصفيتك فاصف ذهني لوصاتي فخذه بالتعبيس والابتسام، وعلمه وقار القعود وعدل القيام، ولا =

إذا كان حلم المرء عون عدوه عليه فإن الجهل أبقى وأروح
وفي العفو ضعف والعقوبة قوة إذا كنت تعفو عن كفور وتصفح

ومما أجاد فيه قوله:

كثيب نقا من فوقه خوط بانة بأعلاه بدر فوقه ليل ساهر

ولم يزل جياش مأمون القول والفعل إلى أن قتل القاضي الحسن بن أبي عقامة التغلبي [1] فأنكر الناس منه ذلك وكان سبب قتل القاضي أن جياشاً خطب امرأة من الفرسانيين أهل موزع [2] وهم وبنو أبي عقامة ينسبون إلى ربيعة

= تسيمه طول المكث بين يديك ولا ترخص له الإبطاء إن استأذنك ورضه بالصلوات في أوقاتها ليمرن على أداء مفترضاتها، وعلى إسباغ الطهارة من ابتدائها إلى انتهائها وإذا أراد الكتابة فسو قلمه وصور له وضع الخط تمثال التصوير في مواضعه وعلمه الفرق بين الواوات والقافات، وعلمه المختلفات ليسلم له قبول الصنعة من الآفات ولا تقبل من دواته إلا الإصلاح ومن أقلامه غير العقد الصحاح وعلمه كتاب الله فإنه الحبل المتين، ولا ترخص له في نسيانه فإنه الخسران المبين وعلمه قراءة أبي عمرو فإنها أشهر القراءات في البدو والحضر واختر له مذهب الشافعي محمد بن إدريس رحمه الله فإذا بلغ المأمول جزيتك الحسنى بمشيئة الله والله يبلغنا وإياك ويسعد عقبانا بعقباك، والسلام الجزيل على الموجز الجليل ورحمة الله وبركاته.

(١) هو الوزير الخطير والقاضي الفيصل مؤتمر الدين أبو محمد الحسن بن محمد بن أبي عقامة بن الحسن بن محمد بن هارون التغلبي فجده محمد بن هارون هو الذي خرج قاضياً مع ابن زياد أيام المأمون حاملاً معه مذهب الشافعي الذي اعتنقه كثير من أهل اليمن بادئ ذي بدء.

وكان أبو محمد هذا إماماً جليلاً محققاً في سائر العلوم والفنون التي أعلت قيمته ورفعت منزلته إلى مرتبة الوزارة وذوي الرياسة العليا مع دهاء وحذق وسياسة خارقة وله شعر رائق وترسل فائق وصنف وألف. ومن شعره قصيدته النونية التي أوردها الجندي بكاملها في ترجمته أولها:

إذا لم تسد في ليالي الشباب فلا سدت ما عشت من بعدهنه
وهل جل عمرك إلا الشباب فخذ منه حظاً ولا تهدرنه
إذا ما تحطم صدر القنا فلا ترجون من الزج طعنه

وكان يتولى القضاء أيام الدولة الصليحية ودولة الأحباش وكان حسن السياسة كثير العدل حتى نال فيه ما نال ولم يزل في حال مرضي إلى أن قتله جياش ولم يذكر الجندي تاريخ قتله وفي أي عام وكان محباً للعدل والنزاهة قال فيه الأمير أسعد بن شهاب الصليحي: أقام الحسن عني الشريعة قياماً يؤمن غيبه ويحمل عيبه.

(٢) موزع بفتح الميم بعدها واو ساكنة ثم زاي وعين مهملة قرية ومركز لإدارة ناحية ملحقة بقضاء المخا تقوم على فضاء متسع وحولها أرباض مأهولة بالسكان وأمام الجميع واد أفيح تصب اليه روافد كثيرة في مواسم الأمطار تأتي من المعافر وصبر وعلى أثرها تزرع سائر أجناس الذرة والدخن والجلجلان =

بن نزار [١] فأجاب بعض أوليائها وامتنع بعضهم فقال لهم الحسن بن أبي عقامة لا يصلح إلا برضى الكل فأصروا على الامتناع فيقال إن ذلك كان بإشارته لعدم كفاءة جياش فاستدرجهم بالمال حتى أجابوه فلما زفت المرأة إليه أخبرته بقول القاضي الحسن فوجد عليه باطناً ثم قتله وفي قتله يقول الحسين بن علي بن القم في القصيدة المشهورة:

أخطأت يا جياش في قتل الحسن فقأت والله به عين الزمن
ولم يكن منطوياً على دخن مبرأ من الفسوق والدرن
كان جزاه حين ولاك اليمن قتلكه ودفنه بلا كفن

وهو أول من اشتهر باليمن بعد جدهم القادم صحبة ابن زياد حين أسس زبيد وإنما استعظم الناس ذلك من جياش لأنه كان موصوفاً بالحلم والعدل معظماً للعلماء لا سيما الحسن المذكور لأنه كان أحد أسباب أخذ جياش ملك تهامة. وتولى فاتك بن جياش بعد أبيه فخالف عليه أخوه إبراهيم وكان فارساً شجاعاً جواداً وأخوه عبد الواجد بن جياش وكان العسكر يحبونه وحصل بين بني نجاح عدة وقائع وافترقت بينهم عبيد أبيهم وظفر فاتك بأخيه عبد الواحد فعفا عنه وأكرمه وأرضاه وأما أخوه إبراهيم فنزل بأسعد بن وائل الوحاظي فأكرمه بما لم يسبق اليه أحد وكانت عبيد فاتك قد عظم شأنها واشتدت شوكتها وتوفي فاتك بن جياش سنة ثلاث وخمسمائة وترك ولده منصور بن فاتك دون الحلم فملكه عبيد أبيه فهبط ابراهيم بن جياش بعد موت أخيه فاتك بجمع إلى تهامة فوقع بينه وبين عبيد

= والبطيخ وتحصد بأقرب مدة لحرارة الأرض ثم ينشأ نشأ آخر وهكذا ثلاث غلال في السنة كسائر أودية تهامة وتحفها النخيل والموز والعنب وتتألف بيوتها من اللبن والقش والطوب وبها نحو عشرة مساجد معمورة بالطوب والحجر المنحوت وأجلها وأجلها وأنضرها الجامع الكبير الذي أسس على طراز جميل وشكل يستوقف النظر وماؤها من الآبار حلو وهي شديدة الحرارة لأنها تلحق بالقسم التهامي، وكانت لعهد قديم نقطة اتصال من موانئ اليمن ومدنه التهامية لهذا كثر فيها العلماء والصوفية وأهل الثرى ونسب إليها علماء منهم المؤرخ الموزعي وغيره واليوم الجهل العميق ضارب أطنابه بصورة تشمئز له النفوس فمن أخلاق قبيحة وعوائد بوهمية سببت تفشى فيهم الأمراض الفتاكة وتقع غربي تعز بمسافة يومين ونصف بسير الجمال وباثنى عشر فرسخاً تقريباً وفي شرق المخا على بعد أربع ساعات.

(١) هكذا كان يزعم الفرسانون الساكنون بموزع والذي ولد هذا الزعم الأجوف أن بعضهم أراد إلحاق نسبهم في عمود نسب النبي ﷺ ليحرزوا شرف الانتساب إليه لما وجدوا أن من يستغل هذه الطريقة ينال مقاماً علياً كما وقع ويقع لأناس عرفوا بهذا والحق أن الأنساب لا تغني من الله شيئاً ما لم تقرن بالأعمال الصالحات وتبرهن عن أخلاق فاضلة وشمائل نبيلة سامية.

أما نساب حمير وهم أقعد بأوطانهم وأنسابهم وصاحب البيت أدرى بالذي فيه فإنهم ينسبونهم إلى حمير.

أخيه وقعة بالهويب [1] من وادي زبيد وعند خروج عبيد فاتك لقتال ابراهيم خلت زبيد فثار بها عبد الواحد بن جياش فملكها وحاز دار الإمارة فخرج الأستاذون والوصفان بمولاهم منصور بن فاتك وأدلوه من سور البلد خوفاً عليه من عبد الواحد فلما رأى ابراهيم أن أخاه عبد الواحد قد سبقه إلى ملك زبيد مع حب العساكر له أيس من الملك وتوجه إلى الحسين بن أبي الحفاظ الجحوري [2]، وبنو أبي الحفاظ بطن من همدان وكان الحسين يومئذ بالجريب [3] وأما منصور بن فاتك فسار في عبيده وعبيد أبيه الى المفضل بن أبي البركات الحميري صاحب التعكر وإلى الحرة السيدة الصليحية فأكرموا مثواه والتزموا عبيد فاتك للمفضل بربع البلاد على أن ينصرهم على عبد الواحد فسار المفضل إلى زبيد

---

(١) الهويب ككميت موضع بزبيد قاله في القاموس ولم أقف على تحديد مكانه بالضبط ويوجد موضع شمال مدينة زبيد تبعد عنها بمسافة خمس ساعات يقال لها « الهوب » وبها موضع يعتقد العوام إن تربته شافية للأمراض الجلدية يقصدها من أصيب بجراحات من أنحاء بعيدة وبها مسجد قديم بليت آثاره.

(٢) هو الحسين أو الحسن بن أبي الحفاظ بن شرحبيل بن الحارث الحجوري الحاشدي ثم الهمداني كان أميراً كبيراً وصدراً من الصدور الأجلة صاحب دنيا عريضة وسلطنة واسعة بسطت نفوذها على ربوع بلاد الشرف بما فيها حجور وأطراف تهامة وكان له مركز سياسي هام في الدولة الصليحية كما امتاز بمركز ديني ثابت القواعد إذ كان أرفع الدعاة بعد الداعي الذؤيب الوادعي.

وأنجب ولدين هما الخطاب وسليمان ابنا الحسن المذكور خلفا والدهما في مملكته وكان يركب الخطاب في خمسمائة وسليمان في ثلاث مائة فارس وتفوقا في العلوم والمعارف، والشعر والأدب حتى قال إدريس في حقهما « وهما في العلم منارة، وعلمه الذي لا تخبو ناره » وكان يقال لهما « مقولا قحطان » ويقال إن الخطاب كان أخا السيدة أروى بنت أحمد الصليحي من الرضاع ولهذا اقتصر شعره بمدحها في حياتها والرثاء والنوح عليها بعد وفاتها ولسليمان ديوان شعر كما للخطاب أيضاً، وقد انتهت حياة الأخوين الزعيمين بخاتمة مؤسفة محزنة بحيث قتل سليمان أخاه الخطاب سنة ٥٣٣ ثم قتل سليمان على يد أولاد أخيه وذلك نتيجة التنافس الشخصي والسياسي. راجع كتاب « الصليحيون »، ومفيد عمارة باخراجنا.

(٣) الجريب كزبير وكأمير كان عاصمة السلاطين المذكورين ومقر عزهم ولافتخارهم بها وشغفهم بحبها أسموها « إرم » قال الخطاب:

أقسمت بالله رب الناس كلهم ... باري الأنام ومن يخشى به القسم
أن الجريب لمشكاة لساكنها ... لكننا قد نراها أنها إرم

وتقع في جبل الشرف قرب « قلحاح » المطل على تهامة عبس وميدي واليوم أطلال وخرائب لا تعرف باسم ولا رسم حتى أيام كنت في حجة اتصلت برجالات من أهل الشرف مباحثتهم عن ذلكم فلم يفهموا عنه شيئاً وبعد لأي وتتبع وقفت على ما ذكرته وقد ذكره لسان اليمن في صفة جزيرة العرب بأنه سوق عظيم يتسوقه يوم وعده ما يزيد على عشرة آلاف إنسان وسوق لأهل تهامة ومكة وعثر.

فأخرج عبد الواحد منها وتملكها لهم في سنة أربع وخمسمائة ثم هم المفضل إن يغدر بآل فاتك ويملك البلاد فبينما هو كذلك جاء الخبر أن التعكر ملكه جماعة من الفقهاء واستولوا عليه فخرج لا يلوي على شيء وكان من أمره ما تقدم ذكره في آخر ذكر الدولة الصليحية من قتل نفسه بالسم واستمر الملك لمنصور بن فاتك ولعبيد أبيه من التاريخ المذكور إلى أن توفي منصور بن فاتك ولم نقف له على تاريخ وفاته ثم تولى بعده فاتك بن منصور وهو ولد الحرة الصالحة علم إلى أن توفي سنة ٥٣١ إحدى وثلاثين وخمسمائة ولم يكن له عقب فاتفق رأي الجماعة إلى إقامة ابن عمه فاتك بن محمد بن فاتك بن جياش فأقاموه وهو ضعيف العزم قليل النظر في السياسة وكان منهمكاً في اللهو واللعب والفساد وتضييع المال في غير موضعه فلم يزل هذا دأبه حتى قتله عبيده سنة ٥٥٣ ثلاث وخمسين وخمسمائة وعنه آلت الدولة إلى علي ابن مهدي القائم باليمن في رجب سنة ٥٥٤ أربع وخمسين وخمسمائة وسنذكر قيامه في موضعه إن شاء الله. قال الخزرجي ولم يكن لأولاد فاتك من الأمر سوى النواميس الظاهرة من الخطبة لهم بعد بني العباس والسكة والركوب بالمظلة في أيام الموسم وعقد الآراء في مجالسهم وأما الأمر والنهي والتدبير وإجازة الوفود فلعبيدهم الوزراء وهم عبيد فاتك بن جياش وعبيد ابنه منصور بن فاتك قال عمارة وهم وإن كانوا عبيداً حبشة فلم تكن العرب تفوقهم في الحسب إلا بالنسب وإلا فلهم الكرم الباهر والعز الظاهر والجمع بين الوقائع المشهورة والصنائع المذكورة وسنذكر أخبار الوزراء منهم في الفصل الآتي إن شاء الله تعالى.

الفصل الثالث

في ذكر وزراء آل نجاح

قال الإمام أبو الحسن الخزرجي: كان أول من ولي الوزارة لآل نجاح قسيم الملك أبو سعيد خلف بن أبي الطاهري المرواني وكان من أفراد الدهر فضلاً ونبلاً صحب جياش حين زال ملكه ودخل معه الهند ووعده في مقاسمته في الملك إذا عاد اليه فلما عاد له استوزره وسماه قسيم الملك ولولاه ما تم لجياش ما تم ثم حصلت بينهما وحشة فهرب منه فكتب اليه جياش يستعطفه فأجابه بقوله:

إذا لم تكـــن أرضي لنفسي معـــزة ... فلســـت وإن نـــادت إلى حبيبهـــا
ولـو أنها أضحـت كـروضـة جنـة ... مـن الطيـب لم يحسـن مع الذل طيبهـا
وسرت إلى أرض ســواهـــا تعـــز لي ... وإن كـان لا يعـوي مـن الجدب ذيبهـا

ولم نقف على تاريخ وفاته.

ولما تولى منصور بن فاتك بن جياش وكان صغيراً ضبط له عبيد أبيه أمر المملكة وجعلوا له وزيراً منهم وهو أنيس الفاتكي وكان جباراً غشوماً شجاعاً مشهوراً له في العرب عدة وقعات تحاموا بها تهامة من أجله وهو « جزلي »[1] الجنس فطغى أنيس وبنى داراً عظيماً فيها قصور واسعة وعمل لنفسه مظلة ركب بها وضرب سكة باسمه وهم أن يفتك بمولاه منصور وكان قد بلغ منصور مبلغ الرجال فدبروا عليه الرأي فعمل منصور وليمة في دار الإمارة واستدعى وجوه الدولة فلما حصل عنده أنيس أمر بقتله واصطفى منصور أمواله وحريمه وابتاع من ورثته جارية مغنية تسمى علم فاستولدها منصور فولدتْ له فاتك بن منصور بن فاتك بن جياش وهو الذي ورث الملك بعد أبيه وكانت الحرة علم من أهل العقل والدين والتوفيق والبركة للمسلمين كثيرة الحج والصدقة وتحج بأهل اليمن براً وبحراً فيأمنون بخفارتها من الأخطاروالمكوس وجعل لها سيدها تدبير المملكة وكان لا يقطع أمراً دونها وكانت تجل الفقهاء والعباد وتحترمهم وهي التي سامحت علي بن مهدي حين بلغها اجتهاده في العبادة فاكتسب هو وأهله ببركتها الأموال والخيل كما يأتي في أخبار آل مهدي وكان وفاة الحرة علم سنة ٥٤٥ خمس وأربعين وخمسمائة وكان قتل أنيس سنة ٥١٧ سبع عشرة وخمسمائة وهو أول وزير في الحبشة طغى وتجبر وأول وزير قتل جهراً ثم بعد قتل أنيس استوزر منصور بن فاتك أبا الفضل من الله الفاتكي بعده وكان من أكابر الوزراء وأعيانهم شجاعة وكرماً وعلو همة[2] وكان يجيز الشعراء وهو الذي كسر ابن نجيب الدولة على باب زبيد وقتل من أصحابه نحو ثمان مائة آخر سنة ٥١٨ ثماني عشرة وخمسمائة وهو الذي تصدق على الفقهاء الشافعية والحنفية بما أغناهم من الأراضي، قال الفقيه محمد بن علي السهامي مؤدب أولاد من الله جلدت عشرة أجزاء كبار في مدح من الله من شعراء المجيدين وهو الذي أخرج ابن مسعود الجزلي ومفلحاً الفاتكي وكانا صاحبا الحل والعقد فشردا خوفاً منه إلى الجبال وبخروجهما دانت له الدنيا وعلت كلمته وهو الذي سور زبيد بعد الحسين بن سلامة وشمخت أنفه عن الوزارة وسمت نفسه إلى الملك فقتل سيده منصوراً بالسم وجعل الملك لولده فاتك وهو ولد الحرة علم المذكورة وكان صغيراً فتولى من الله الفاتكي تدبير المملكة ولم يكن في وقته من يساميه فامتدت يده وطالت عينه وعبث بالنساء

---

(١) هي أحد قبائل الأحباش وضبطه حرلي بفتح الحاء والراء المهملتين وتشديد اللام كما في التحفة وفي خ جزلي بالجيم والزاي بدون ضبط بالحرف وقد سبق ضبطه بالجيم والزاي مع الكلام على ذلك.

(٢) في ح وكان من أعيان الوزراء كرماً وشجاعة وعلو همة.

من بنات الملوك وغيرهن وكان منصور قد توفي عن أكثر من ألف سرية من سراريه وسراري أبيه وآل نجاح فما سلم منهن أحد من الوزير منّ الله إلا عشر حظايا من حظايا منصور منهن الحرة الصالحة علم فاعتزلن معها في دارها فلم يمكنه التطرق اليهن ثم تطرقت نفسه إلى بنات مواليه الأبكار فشق ذلك على العبيد وعلى الحرة علم ولم يقدر أحد على دفعه فلما عظم الأمر قالت الحرة أم أبي الجيش وهي إحدى حظايا منصور السالمات من منّ الله أنا أحتال في قتله وإلا فضحنا في نفوسنا وأولادنا ، وكان قد راسلها فامتنعت فلما عزمت على الأمر راسلته ففرح وقال للرسول أنا آتيها إلى دارها متنكراً فقالت قدره أجل. بل أنا آتيه إلى داره فلما وصلت إليه مكنته من نفسها فلما فرغ مسحت مذاكيره بخرقة فيها سم قاتل فوقع من فوره ميتاً ولحقت بالحرة علم ودخل عليه ابنه فوجده ميتاً فدفنه في اصطبل داره بزبيد وكان ابنه ديناً خيراً وغيب قبره وكانت وفاته سنة ٥٢٤ أربع وعشرين وخمسمائة قال أبو الحسن الخزرجي ولم يكن في من الله خصلة يذم بها إلا فسقه بالنساء ، ولما توفي استوزرت الحرة علم القائد رزيق الفاتكي وكان شجاعاً كريماً لم يكن له خبرة بنواميس السلطنة والنفاذ في السياسة فلبث مدة يسيرة واستقال من الوزارة وأقام مكانه الوزير أبا منصور مفلح الفاتكي وكان للوزير رزيق ثلاثون ولداً ذكوراً وإناثاً فلما توفي تناسخت فريضته بموت أولاده وأولادهم قبل القسمة وانتشرت فريضته حتى عجز كثير من العلماء عن قسمتها لأنها تناسخت إلى أحد وخمسين بطناً فقدم رجل من حضرموت اسمه أحمد محمد الحاسب فصححها لهم في بعض يوم وكان الوزير مفلح الفاتكي شجاعاً كريماً عفيفاً سحرتياً [1] ، وفي أيامه قدم أبو المعالي ابن الحباب [2] من الديار المصرية فابتاع وصيفاً حبشياً برسم الخدمة فهرب الوصيف وتعلق ببعض غلمان الوزير مفلح فكتب أبو المعالي إلى الوزير بسبب غلامه بيتين من الشعر وعما قوله:

وأنت سحاب طبق الأرض صوبه — وعاقته عن سقياه إحدى العوائق
فإن لم تجد لي هاطلات غمامه — فلا تدن مني محرقات الصواعق

فلما وقف منصور بن مفلح تنبه على فضل أبي المعالي فاستدعى الغلام فرده خامس خمسة من جنسه ثم استدعى أبا المعالي وأمره أن يمدح أباه الوزير مفلحاً بقصيدة ففعل ثم أحضره اليه عند إنشادها فوصله بخمسمائة دينار ثم وصله ابنه منصور بثلثمائة دينار من عنده ثواباً على قصيدة أخرى وحمله إلى مكة ولم يزل مفلح قائماً بأمر الوزارة حتى نشأ رجال من عبيد

---

(١) السحرتي نسبة إلى قبيلة من الأحباش تسمى سحرة لا زال لها بقية بالحبشة.
(٢) لا أعرف عن المذكور شيئاً.

الحرة علم وهم صواب ويمين وريحان وعنبر وريحان الأكبر فكانوا أزمة الدولة ونشأ من الفحول إقبال وبرهان وسرور وكان سرور زمام الفريقين فكان هؤلاء المتكلمين على لسان السلطان فصار الوزير كالأجنبي معهم ثم حصلت وحشة بين سرور ومفلح فاحتال سرور على إخراج مفلح من زبيد بأن استأذنه للحرة علم في الحج وتجهيزها بثلاثين ألف دينار فامتنع من ذلك فلم يزل يراجعه هو وعبيدها في ذلك حتى قال صرف المال في غير هذا أولى ومولاتنا أحوج إلى غير الحج فقالوا وما هو فقال شيء في طول هذا وقبض كفه ومد ذراعه فأحدث ذلك في النفوس شيئاً لم يستدركه إلا بالإذن لها في الحج وتجهيزها بالمال المذكور وتسيير ولدها فاتك بن منصور معها إلى مكة ثم دبر سرور على خروج مفلح إلى المهجم فخرج فلما صار من زبيد على مسير يوم تسلل الناس عنه ورجعوا إلى زبيد فتوجه مفلح إلى بُرع[1] وملك حصن كرش[2] وشن الغارات على تهامة وعبيد فاتك تقاتله ثم سار إلى عرب المهجم، وهم بنو مشعل وبنو عمران والزعل[3] وهم يومئذ الفرسان الأنجاد فأسكنوه حصناً لهم يسمى دبسان[4] ثم كتب إلى الشريف غانم السليماني صاحب مخلاف طرف وشرط لهم إسقاط ما يؤدونه لصاحب زبيد كل سنة ومبلغه ستون ألف دينار وأن يضيف إليهم الواديين فوصلـه الشريـف في ألف فارس وعشرة آلاف راجل مناصراً له على أهل زبيد فكسرهم القائد سرور فلما كسرهم قلده فاتك بن منصور المهجم وما يليها من الأعمال الشمالية وعاد مفلح إلى حصن الكرش فمات به سنة ٥٢٩ تسع وعشرين وخمسمائة فخلفه ابنه منصور بن مفلح وقام بحرب القائد سرور مدة والقائم بالوزارة إقبال الفاتكي فلما طال الأمر على منصور بن مفلح خذله أصحابه فاستأمن على يد سرور فدخل معه زبيد فخلع عليه الوزير إقبال الفاتكي فقبض عليه وقتله ليلاً فغضب الملك فاتك والقائد سرور وهم الملك فاتك بإقبال ثم أبقاه على دخن وهم إقبال بالملك فاتك فلم يزل يتلطف به حتى سقاه سماً سنة ٥٣١ إحدى وثلاثين وخمسمائة فلم يقم للوزير إقبال بعد قتل سيده حـال تـرتضى فلما تحقق الأستاذون أن إقبالاً هو الذي قتل سيدهم جعلوا الوزارة لأبي محمد القائد سرور فهو

---

(١) برع كعمر جبل أشم نابت في قعرة تهامة أمام ثغر الحديدة بمسافة يوم من شرقها وهو عمل مستقل مربوط بلواء تهامة امتاز بشجرة البن الـتي لا تنقطع جناها صيفاً وخريفاً وشتاء وكذلك القات وسائر الرياحين العطرية والعقاقير وأنواع الحبوبات وقومه من حمير.

(٢) الكرش بفتح الكاف وسكون الراء آخره شين معجمة حصن في أعلى جبل برع من عزلة بني سليمان من خضراء برع ويملكه الآن الشيخ محمد بن نعيم البرعي الحميري وأما كرش بفتح الكاف وكسر الراء فبلدة في الأصابح من ملحقات لحج.

(٣) هي قبائل معروفة إلى هذه الغاية تنسب إلى عك بن عبد الله بن عدنان من الأزد.

(٤) لا أعرف عن هذا الحصن شيئاً.

في الذكر ختامهم وفي الفكر إمامهم وكان أمحري النسب [1] تربى في حجر الحرة علم فولته زمام المماليك وحصلت له الرياسة في القصر على كل صغير وكبير فساد وشدد ولين وسدد ثم تولى الخطابة بين السلطان وبين الوزراء الأكابر واستغنى عن الأزمة وكان شجاعاً لا تهوله الرجال هزم الشريف غانم السليماني وهو في ألف فارس وعشرة آلاف راجل حين جاء مع مفلح مناصراً له عليه وكان قد قيل له ما نحن فيهم إلا كقطرة في بحر فقال والله إن الموت أهون علي من الهزيمة وكانت الوقعة بالمهجم وكان قبل ذلك قد خرج مفلح وسرور إلى عدن لقتال الداعي سبأ بن أبي السعود فلما صار على نصف مرحلة من زبيد ثار محمد بن فاتك ابن جياش بن نجاح على الحرة وعلى ولدها فاتك بن منصور بن فاتك بن جياش في زبيد حين خلت من العساكر فحاز دار الإمارة ليلاً ووقف القراء بين يديه وفاضت البلد عليه بالتهنئة واستوزر منصور بن من الله الفاتكي فاستعصمت الحرة وولدها بعلو الدار فلما علم سرور انثنى راجعاً ودخل المدينة ونادا مولاه من خلف الدار فقال ارموا لي الحبال أنا سرور فرفعه الأستاذون والنساء حتى وصل مواليه فسلم عليها وسكن روعها وقال هذه العساكر خلفي متواترة متواصلة ثم أخذ مائة وخمسين أستاذاً فألبسهم زي الرجال من الدروع والسلاح وفتح الطيقان وصاح الجميع صيحة واحدة وكان محمد بن فاتك بن جياش على سرير تحت طيقان الدار ثم رماه بحجر فلم تخط وجه محمد بن فاتك وهشمت أنفه، وانهزم هو ووزيره وخرجا من البلد ليلاً فهذه بعض المقدمات الموجبة لتقدم سرور على جميع أهل الدولة وكان سرور كريماً بلغت نفقته في مطبخه في شهر رمضان كل يوم ألف دينار، قال عمارة رأيت بخط كاتبه جريدة الصدقات المعتادة التي كان يدفعها عند وصوله إلى زبيد للفقهاء والقضاة المتصدرين في الحديث والنحو واللغة وعلم الكلام والفروع اثنى عشر ألف دينار كل سنة خارجاً عن صلة العسكر مع كثرتهم وكان إذا وصل من المهجم يخرج الناس للقائه على اختلاف طبقاتهم فيقفون له على تل فأول من يسلم عليه فقهاء الشافعية والحنفية والمالكية فيترجل لهم دون غيرهم ثم يجيء بعدهم التجار ثم العسكر أفواجاً ثم يدخل إلى دار مولاته الحرة علم فتنزل عن سريرها إكراماً له وتبجيلاً وتقول له أنت يا أبا محمد وزيرنا بل مولانا بل رجلنا الذي لا يحل لنا الخروج عن طاعته فيصيح بالبكاء بين يديها ويعفر خده بين يديها بالأرض حتى تتولى هي رفعه عن الأرض فيفضي إليها حينئذ بما يريد من التدبير في تلك السنة من ولاية وعزل وإنعام وقتل، وكان يحضر مجلس الشرع إذا طلب ولا يوكل وكان يركب بعد صلاة الصبح فيعود المرضى ويزور الأولياء ثم يركب إلى السلطان فيقضي

---

(١) أي نسبة إلى قبيلة تسمى « أمحرى » وهذه قبيلة معروفة من قبائل الأحباش إلى هذه الغاية.

حوائج الناس على أكمل الأحوال ثم يرجع إلى منزله فيقيل إلى الزوال ثم يخرج إلى المسجد فيسمع المستندات الصحيحة إلى العصر ثم يصلي ويرجع إلى داره إلى المغرب ثم يخرج فيصلي المغرب ثم يتناظر الفقهاء بين يديه إلى العشاء فإذا صلى العشاء عاد إلى بيته ولم يزل هذا دأبه من سنة ٥٢٩ تسع وعشرين وخمسمائة إلى أن قتل في مسجده بزبيد في الركعة الثانية من صلاة العصر يوم الجمعة في رجب سنة إحدى وخمسين وخمسمائة قتله رجل من أصحاب ابن مهدي يقال له محرم ثم قتل قاتله في تلك العشية بعد أن قتل جماعة.

قال الجندي ومسجده بزبيد يعرف إلى الآن بمسجد سرور وهو غربي المرباع [١] ولا يعرف من هو سرور إلا آحاد الناس، قال عمارة ولم تلبث الدولة بعده إلا يسيراً حتى أزالها ابن مهدي وملك زبيد وأعمالها وذلك إنه لما قتل سرور تنافس القواد وأعيان الدولة على موضعه واشتغلوا عن تدبير الملك وكانت الحرة علم قد توفيت سنة ٥٤٥ خمس وأربعين وخمسمائة فطلع ابن مهدي بعد موتها إلى الجبل فتحصن بحصن يقال له الشرف [٢] وهو أحد حصون وصاب [٣] المطلة على زبيد فلم يزل يكرر الغزو ويضعف البلاد حتى أخرب جميع القرى حول زبيد ولم يبق إلا هي فأخذها بعد ذلك كما سيأتي ذكره في الفصل الآتي إن شاء الله تعالى، وكانت الحبشة قد لاذت بالإمام أحمد بن سليمان [٤] صاحب المشرق وسألوه نصرتهم [٥] على ابن مهدي فقال لا أفعل حتى تقتلوا مولاكم فاتك بن محمد بن منصور بن

---

(١) قلت ولا زال معروفاً لهذا الحين عامراً يصلى فيه ويقع في الجهة الشرقية من زبيد قرب المرباع المعروف لهذه الغاية وهو المحلة التي يباع فيها المواشي المجلوبة.

(٢) حصن الشرف من أعمال مخلاف وصاب منيع لا يرام ولا زال يحتفظ باسمه إلى هذا العهد.

(٣) وصاب بضم الواو وآخره باء موحدة وهو صقع مبارك واقع في سمت جبال السرات التي تصاقب تهامة زبيد وكثيراً ما تربط أعماله بإيالة زبيد ويطلق عليه بلاد نعمان باسم الجبل الشامخ الذي يظل متعصباً بالغمام وهو المسمى دَنَّ وصاب وهو يشتمل على مخاليف عديدة وفيه حصون وقرى ومحارث لا يأتي عليها الحصر ولكثرة خيراته تقول العرب «وخيرة أرض الله وصاب» وهو في الغرب الجنوبي من صنعاء بمسيرة خمسة أيام وغربي مدينة ذمار لمسافة يومين ونصف نسب إلى وصاب بن سهل ابن زيد بن الجمهور بن عمرو بن قيس بن جشم العظماء بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير الأكبر وقيل إنه من ولد سبأ الأصغر. راجع الجزء الثاني من الإكليل ولوصاب تاريخ مستقل حافل لجغرافيته وغيرها ونسب إليها عالم منهم العلامة الأديب البليغ محمد بن حمير بن خمر طاشة الشراحي الرعيني الحميري الوصابي صاحب المقصورة ومحمد ابن حمير الشاعر الآتي ذكره.

(٤) هو الإمام المتوكل على الله متقدم الذكر.

(٥) المشرق معروف ولكنه في عرف أهل تهامة يطلقونه على بعض أجزاء البلاد العليا ويكنون بذلك عن أهل الجدب والفقر والسلب وفي خ وسألوه نصرتهم.

فاتك، وهو ابن أخي فاتك بن منصور بن فاتك الذي أمه الحرة علم وكان قد تولى بعد وكان فاسقاً في نفسه حتى بلغ من فسقه أنه كان يجعل في بطنه بريما[1] كالنساء فقتله عبيدة سنة ٥٥٣ ثلاث وخمسين وخمسمائة ووصل بعد قتله الإمام أحمد بن سليمان لنصر أهل زبيد فعجز عن نصرهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً فلما تحقق ابن مهدي ضعف الحبشة عن مقاومته تقرب إلى زبيد فحاصرهم حصاراً شديداً حتى افتتحها كما سنذكره في هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

الفصل الرابع

في ذكر قيام السيد علي بن مهدي القائم باليمن

وزوال ملك الحبشة على يد السيد علي بن مهدي بن محمد الحميري [2]

قال أبو الحسن الخزرجي رحمه الله كان انقضاء دولة الحبشة على يد السيد علي بن محمد الحميري الرعيني وكان يسكن هو وأبوه العنبرة قرية بأسفل الوادي زبيد [3] قريبة من البحر وكان أبوه صالحاً سليم الصدر ونشأ ولده على طريقته في العزلة والتمسك بالعبادة ولم يزل يتابع الحج، من سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة على نجيب له إلى سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكان يلقى علماء العراق ووعاظهم فيباحثهم ويتضلع من معارفهم فأظهر الوعظ والتحذير من صحبة الملوك وكان فصيحاً حسن الصورة والصوت حلو الإيراد غزير المحفوظات بين عينيه سجدة وكان يتحدث عن المستقبلات وقد يصدق وكان ذلك من أقوى عُدده في استمالة قلوب العامة وظهر أمره في أسفل الوادي في العنبرة والقضيب والأهواب والفازة[4] وكان له هناك شهرة بالصلاح والكشف ولا يقبل الهدية ولا الصدقة وكان أول ظهوره سنة

---

(١) البريم كامير خيطان مختلفان أحمر وأبيض تشد المرأة على وسطها كالنطاق وعضدها، وحبل فيه لونان مزين بجوهر.

(٢) يكنى أبا الحسن السيد علي بن المهدي بن محمد بن علي بن داود بن محمد بن عبدالله بن محمد بن أحمد بن عبداجبار بن عبدالله بن الأغلب بن أبي الفوارس بن ميمون الحميري الرعيني من ولد القيل ذي رعين الأكبر.

(٣) لا تعرف اليوم قرية العنبرة ولعلها قد اختفت وحل محلها مزرعة نخيل تسمى العنبرية غربي المدينة وتبعد عنها بعشرة أميال.

(٤) الفازة بالفاء والزاي مرسى على ساحل البحر الأحمر جنوب غربي زبيد وتشير الدلائل على أنها كانت ميناء عامرة وتشتهر الفازة بحلاوة الماء لأنه يوجد بها منبع للماء الحالي ينساب إليها من الجبال.

إحدى وثلاثين وخمسمائة وكان رقيق القلب خشوعاً فثبت له عند الحرة علم أم فاتك بن منصور مكانة فسامحته في خراجه وخراج من لاذ به من قريب أو صاحب فأثروا واتسعت حالهم عن قريب ثم أتاه قوم من الجبال فحالفوه على النصرة والقيام معه وكانت بيعته بالقضيب ثم سار معهم من تهامة سنة ٥٣٨ ثمان وثلاثين وخمسمائة فاجتمع معه أربعون ألفاً فقصد الكدري فغلبهم القائد إسحاق بن مرزوق السحرتي فهزم ابن مهدي وقتل من جمعه طائفة وعفا عن أكثرهم وعاد ابن مهدي إلى الجبال فأقام بها إلى سنة ٥٤١ إحدى وأربعين وخمسمائة ثم كاتب الحرة علم بطلب الذمة فأجابته إلى مراده كرهاً على أهل دولتها وفقهائها لأمر يقتضيه الله تعالى فرجع إلى بلده يشتغل بأملاكه عدة سنين وهي مطلقة الخراج حتى اجتمع عنده مال جزيل وكان يقول في وعظه « أيها الناس أزف الأمر ودنا الوقت كأنكم بما أقول لكم وقد شاهدتموه عياناً » فلما ماتت الحرة علم في تاريخها المذكور بايعه أصحابه في السنة التي تليها وهي سنة ٥٤٦ ست وأربعين وخمسمائة وهي البيعة الثانية وكانت الأولى سنة ثمان وثلاثين وكلا البيعتين بالقضيب وكانت البيعة الأخرى على جهاد الحبوش ومن عاضدهم من العرب، وأكثرهم الأشاعر وأمرهم بقتل من خالفه ولو من قومه أو قومهم فلما تمت البيعة قام فيهم خطيباً فقال في أثناء كلامه والله ما جعل الله فناء الحبشة إلا بي وبكم عما قليل إن شاء الله تعالى سوف تعلمون والله العظيم رب موسى وهارون إني عليهم ريح عاد وصيحة ثمود وإني أحدثكم فلا أكذبكم وأوعدكم فلا أخلفكم ولئن كنتم أصبحتم اليوم قليلاً لتكثرن أو وضعاء لتشرفن أو أذلاء لتعزن حتى تصيروا مثلاً في العرب والعجم ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى. فالأناة الأناة فوحق الله العظيم على كل مؤمن موحد لأخدمنكم بنات الحبشة وأخواتهم ولأخولنكم أموالهم وأولادهم ثم قرأ ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنكم في الأرض﴾ الآية. ثم ارتفع إلى الجبال فأخذ الداشر [1] ثم ارتفع إلى حصن يقال له الشرف وهو لبطن من خولان فسماهم الأنصار وسمى الصاعدين معه من تهامة المهاجرين ثم ساء ظنه بكل من معه فجعل نقيبين على مهاجريه واحداً وعلى أنصاره واحداً ولا زال يوالي الغارات على تهامة حتى أخرب الحواز المصاقبة للجبال والحبشة تجرد العسكر لطلبه فلا يغنون شيئاً ولم يزل على ذلك حتى أخرب جميع الوادي وبطل الحرث والعمارة في مدته وانقطعت القوافل وكان يأمر أصحابه أن يسوقوا الأنعام والرقيق وما عجز عن السير عقروه.

قال عمارة لقبت ابن مهدي عند الداعي محمد بن سبأ وقد قصده إلى ذي جبلة مستنجداً

(١) هو بالشين المعجمة حصن في وصاب السافل يطل على مدينة زبيد من شرقها وبينه وبين زبيد مسافة يوم.

به على أهل زبيد فلم يحبه فعرض عليّ صحبته ووعدني بالتقدم على جميع أصحابه في سنة ٥٤٩ تسع وأربعين وخمسمائة، وفي هذه السنة كانت قصة أهل قرية المغلف [١] قرية بين الكدري والمهجم جاءتهم سحابة سوداء من قبل اليمن فيها رجف شديد وبرق وشعل نار تلتهب فزالت عقولهم فزعاً فالتجأ بعضهم إلى المساجد فغشيهم العذاب وحملت الريح أكثر القرية من تحت الثرى بمساكنهم ومن فيها من الناس والدواب والأطفال والنساء فألقتهم على خمسة أميال صرعى ولبعضهم أنين وهم صم بكم عمي حتى ماتوا نسأل الله التوفيق.

قال أبو الحسن الخزرجي وفي سنة ٥٤٩ المذكورة سقطت من السماء حجر فوقع في الصلاحفة [٢] موضع قريب من مدينة ذي جبلة ووقعت رجفة شديدة تزلزلت منها الأرض بأهلها وذلك يوم الجمعة سادس شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وانشقت السماء وسط النهار وظهر نجم وبعده دخان في المخلاف الأخضر وحصلت بعد ذلك زلزلة شديدة في اليمن من صنعاء إلى عدن هلك فيها عدد كثير من الناس وانهدم كثير من الحصون والمساكن على أهلها من ذلك حصن حب انهدم بعضه وهلك فيه ثماني أنفس وانهدم من حصن عزان بعضه وانهدمت أكمة الحدة وأكمة سمارة [٣] وحصن الخضراء باحاظة [٤] وهلك فيه خمسة وسبعون رجلاً وانهدمت مدينة إب وهلك ثلاث مائة وسبعون وزلزلت مدينة ذي جبلة وأماكن كثيرة تركنا ذكرها لكثرتها [٥] وهلك في أكثرها جمع من الناس.

قال الخزرجي فلما رجع ابن مهدي من ذي جبلة من عند الداعي خائباً دبر على قتل القائد سرور الفاتكي فلم يزل يرصده حتى قتله في تاريخه المذكور فانفتح على أهل الدولة بعد قتل القائد سرور جميع أبواب الشرور فنزل ابن مهدي إلى الداشر وكان بحصن الشرف

---

(١) هي التي تسمى اليوم المغلاف الواقعة على شط نهر سردد على طريق المسافرين من الجبال الشمالية وتبعد عن ثغر الحديدة بيوم كامل في الشمال الشرقي منها.

(٢) لا تزال معروفة الى يوم الناس هذا وتقع في الشرق الجنوبي من مدينة ذي جبلة بمسافة ثلث ساعة وهي مزرعة خصبة والصخرة ضخمة ينبثق من تحتها عين ثرة غزيرة تسقي الحروث والمزارع هناك ولعل قرية كانت هناك تحمل هذا الاسم.

(٣) أكمة الحدة تقع تحت قرية معربة من عزلة روس بني محرم من مخلاف الشوافي المصاقبة لجبل الخضراء التي تبعد عن إب في الشمال الغربي نحواً من خمس ساعات وأكمه سمارة هي التي تسمى قلعة سمارة وهي في القمة عليها سور وبها دار أشبه بأن تكون حامية تسيطر على النقيل للصاعد والنازل وسمارة هو الممر الجبلي في جوف هذا الجبل المعروف بنقيل سمارة وبنقيل صيد قبل ذلك.

(٤) قد تقدم التعريف بها قريباً.

(٥) راجع الخزرجي فقد ذكر معظمها.

فقربت إليه رعايا الحبشة ولم يزل كذلك حتى زحف جموعه إلى باب زبيد في جيش لا يحصى، وحدث غير واحد ممن أدرك الحصار قالوا لم تصبر أمة على الحصار صبر أهل زبيد قاتلوا ابن مهدي اثنين وسبعين زحفاً يقتل في كل زحف من عسكره كما يقتل منهم فصبروا على الضراء حتى أكلوا الميتة ثم استنجدوا بالإمام أحمد بن سليمان الهدوي صاحب صعدة فأنجدهم طمعاً في الملك واشترط عليهم أن يقتلوا مولاهم فاتك بن محمد بن فاتك فقتلوه كما تقدم ثم عجز عن نصرتهم فرجع إلى بلده بعد إقامته بزبيد ستة أيام فلما رجع اشتد الحصار على أهل زبيد وكثرت جيوش ابن مهدي فأحاطوا بالمدينة من كل جانب حتى دخلت المدينة قهراً يوم الجمعة رابع عشر شهر رجب من سنة ٥٥٤ أربع وخمسين وخمسمائة وفي ذلك يقول ابن مهدي:

عناق العتاق الصافنات السوابق ... ألذ وأشهى من عناق العواتق
وسهرتنا بالليل فوق ظهورها ... ألذ إلينا من رقاد النمارق
وما العز إلا في صها[1] كل صاهل ... من الخيل لا في صهوتي كل ناهق
وفي الذابلات العاسلات من القنا ... وفي المشرفيات العتاق الفواتق
تمزق شمل الكل في جمع هذه ... إذا ما زلفنا مأزقاً بعد مأزق
إذا ضحكت في حافتيهم سيوفنا ... بكين العوالي من دماء هوارق
وما طلعت أسيافنا من غمودها ... فتغرب إلا في الطلا[2] والمفارق
أدرنا على درب الحصيب صواعقا ... يحاكي صداها موبقات الصواعق
بجيش كجياش العبير عرمرم ... يعم إكام الأرض مثل السمالق
صدمنا بجرد الخيل باب سهامها ... ودارت على درب الحصيب الغلافق
وسالت نواصيها على باب قرتب ... ولم تأل أن جالت بباب الشبارق
على بابها الغربي كان حصادهم ... وأسيافنا فيها حصاد المنافق
تركنا عليهم في زبيد بوائقا ... بها نسبوا ما استنسبوا من بوائق
تركنا رؤوس الحبش فيها مفالقاً ... بعيد الضحى من بعد تلك المفالق
وسرنا على كدرى سهام عشية ... نجوب الفلا في جحفل متضائق
كأن بجنبي كل طرف إذا جرى ... جناحي عقاب كاسر غير خافق
طرقناهم والليل مرخ سدوله ... وقد غفلت عنا عيون الطوارق
طحناهم بالخيل والرجل طحنة ... ببحر حديد يوم ذلك دافق

(١) صها بضم الصاد جمع صهوة بفتحها وهو من ظهر الفرس مقر سرجه.

(٢) والطلا بالضم العنق.

أحـاطـوا عليهـم دافعيـن بخنـدق | أيـدفـع أمـر الله حفـر الخنـادق
سلوا هل فزعنـا يـا بني حـام منكـم | وهل تفزع الآساد صـوت الفـرانـق
أنـا السيـد المهـدي والفيلـق الذي | يمزق يـوم الروع شمـل الفيـالـق
لـه حكـم داود وسـورة يـوسـف | وحكمـة لقمان وملـك العمالـق

ولما دخل زبيد أقام بها بقية رجب وشعبان ورمضان وتوفي سادس شوال من السنة المذكورة فمدة خلافته في زبيد شهران وأحد وعشرون يوماً ودفن في الموضع المعروف بالمشهد في زبيد وكان قد عينه لولده وأمره أن يجعله جامعاً يصلي فيه الجمعة نظيراً لما فعلته الحرة السيدة بذي جبلة ففعل ابنه ما أوصاه به وهو قبالة المدرسة المعروفة بمدرسة الميلين وقد خرب بعد ذلك وجعل اصطبلاً لبعض ملوك الغز ثم كان بعد ذلك يسمى معقاب عاتكة فجعل فيه محامل السلطان وغيرها من آلاتهم ثم خرب ولم يبق من آثاره إلا منارة سقطت في أول دولة الملك الظاهر الغساني سنة ٨٣١ إحدى وثلاثين وثمان مائة.

قال الجندي أنا أعرف القبور فيه وهي ظاهرة للعيون وتولى الأمر بعد موته ولده مهدي بن علي بن مهدي فغزا البلاد ودوخ الملوك وصالحه الداعي عمران بن محمد بن سبأ عن مدينة عدن والدملوة بمال معلوم ،هذه رواية الجندي ، وأما صاحب العقد الثمين [١] فقال تولى بعد علي بن مهدي ولداه عبد النبي وأخوه مهدي فكان إلى عبد النبي تدبير المملكة ، وكان أخوه مهدي متولياً أمور الجيوش والسرايا فاستباح بلاداً كثيرة وأغار إلى لحج مرتين وقتل من أهلها عدداً كثيراً وسبى الحريم والأموال الجزيلة وقيل في ذلك أشعار منها قول الْهُبَيْبِي الشاعر [٢] :

أتشرب الخمـر في ربـا عـدن | والبيـض والسمـر في الحصيـب ظما
كـلا ومهـدي فـارس بطـل | وصـدر حيـزوم يمـلأ الحزمـا

وقال آخر في ذلك :

---

(١) صاحب العقد الثمين هو الأمير الأديب بدر الدين محمد بن حاتم بن السلطان علي بن السلطان حاتم بن أحمد كان أديباً شاعراً كريماً جواداً عاصر الملك المظفر الرسولي وولده الملك الأشرف ووضع كتاباً في سيرة الملك المظفر وهذا العقد الثمين بدأ من دولة الغز آل أيوب باليمن إلى سنة أربع وتسعين وستمائة حينما توفي الملك المظفر يوسف بن السلطان المنصور عمر بن علي رسول الغساني ولم أقف على تاريخ وفاة بدر الدين الأمير محمد وكتابه العقد الثمين قام بتحقيقه وطبعه في بيروت الأستاذ « ركس سمث » وعندي منه نسخة مطبوعة ونسخة مخطوطة مصورة.

(٢) الهبيني : بضم الياء وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت ثم نون ثم ياء مثناة من تحت : شاعر مفلق خنديد ترجمنا له في عبر هذا المحل.

لمن عسكر كالليل يعدو بدهمة ... ويزهو بميمون الزمان وشهمه
بأبلج إما جادلوا فمحمد ... بياناً وإما جالدوا فابن عمه

ثم حاصر أهل الجند فدخلها سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فقتل أكثر من فيها من صغير وكبير ورماهم في البير التي في المسجد وحرق المسجد بمن فيه من الضعفاء والعجائز والعواتك والودائع والكتب والمصاحف ثم عاد إلى زبيد وقد أصابته طائرة [1] تفطر منها جسمه بعد أن ظهر بجسمه شبه أحراق النار فتوفي أول ذي الحجة سنة ٥٥٨ ثمان وخمسين فاستقل الأمر بعده أخوه عبد النبي وخرج في سنة ٥٦١ إحدى وستين وخمسمائة إلى المخلاف السليماني فقاتلهم فهزمهم ثم لحق طائفة منهم فقتلهم منهم الأمير الكبير الشريف وهاس بن غانم السليماني وأخذ أمواله وسبى حريمه وفي ذلك يقول عبد النبي قصيدته المشهورة [2] التي أولها :

لمن طلول بالحما كان كسين معلماً ... تلقى بها المصلما والأحقب المكدما [3]
لوت بوهاس ضحى فابتدرته مرحساً ... فظل من تحت الرحا مضرجاً مرغماً [4]

وهي من مستحسنات شعره وهي طويلة احتوت على معاني كثيرة ورثى فيها والده وشهدت بفضله التام الكامل ولم نثبتها لطولها وهي دائرة في أيدي الناس [5] ثم بعث أخاه أحمد بن مهدي لعمارة الجند فعمرها ثم أغار على الجؤة وبها عسكر الداعي عمران بن محمد ابن سبأ فوقع بينهما قتال شديد وانهزم عسكر الداعي فدخل ابن مهدي الجؤة وحرقها ثم

---

(١) هو المعروف عند أطباء العرب بمرض الطير وفي السنة العامة أيضاً، وفي الطب الحديث بالزهري وبالأسفلس وقد قالوا إنه يحدث من الاختلاط الجنسي.

(٢) في الخزرجي القصيدة المسمطة المشهورة.

(٣) المصلم بتشديد اللام مقطوع الأذن أو الأذنين والأحقب حمار الوحش والمكدم المعضض لأنه مشتق من الكدم الذي هو العض بأدنى الفم وفي ح بعد البيتين وهي قصيدة طويلة ثم قال في أثنائها لوت.

(٤) وقبل هذا البيت قوله:

والله لو عرفتني حقيقة أنصفتني ... وإنما علمتني بالاسم لما رسما
جهلت أمر قصتي وجئت شر جيئتي ... فعد بتلك الذلة فقد أتيت مأثما

وبعد:

أتيت شعثاً ضمراً وهي تجر العثيرا ... جر العرصفا أوقرا وفوقها الصيد الكما
ولو عمدت قيصرا وابن قباذ الأكبرا ... لكبرا وقهقرا ومن سناها أحجما

(٥) وهي موجودة بكمالها في تاريخ الخزرجي وقد عددت أبياتها مسمطة فبلغت ستة وأربعين بيتاً فليرجع اليه.

طلع عبد النبي الجند في جمادى سنة ٥٦١ أحد وستين وأخذ شرياف وتالبة [١] وتعز وصبر ثم عاد إلى زبيد ثم رجع إلى مخلاف جعفر وأخذ حصن المجمعة[٢] في سنة ٦٢ ثم أخذ عقيبها مدينة إب، وبث السرايا والجنود في كل وجه ثم سار إلى عدن فحاصر أهلها فوصل السلطان حاتم بن علي بن الداعي بن أبي السعود الزريعي إلى صنعاء مستنصراً فخرج للقائه السلطان علي بن حاتم بن أحمد بن عمران اليامي فأسعفه بما طلب ثم نهض حاتم بن علي إلى بلاد جنب بعد أن استوثق من علي بن حاتم أنه ينهض معه إذا نهض (معه[٣] جنب ومذحج) ثم نهض حاتم بن علي إلى ذمار فاستنصر بالسلطان عبد الله بن يحيى وبالشيخ زيد ابن عمرو فأجاباه فكتب إلى السلطان علي بن حاتم يخبره بما أجمع عليه القوم من نصرته فخرج علي بن حاتم من صنعاء بمن معه من همدان وسنحان وبني شهاب ونهد [٤] سنة ٥٦٩ تسع وستين وخمسمائة فأقام بصيد [٥] حتى وصله عبد الله بن يحيى والشيخ زيد ثم تقدم علي

---

(١) شرياف بكسر الشين المعجمة ثم راء وياء مثناة من تحت وألف وفاء حصن يقع في عزلة بني عيسى من جبل ذخر في الشمال الشرقي من يفرس مركز أعمال الجبل المذكور، وأما تالبه فهو بالتاء المثناة من فوق وألف ولام وباء موحدة وهاء فهو أيضاً في العزلة المذكورة ويقال له جبل تالبه ويبعد عن المركز المذكور حوالى ثلاث ساعات شرقاً وكلا الحصنين خرائب وأطلال وهما من تعز في غربيها.

(٢) المجمعة قلة في أعلى عزله شعب يافع من مخلاف الشوافي يطل جزء منها على بطن السحول وهي آهلة بالسكن من مشايخ آل قاسم بن محمد بن صلاح وفيهم مكارم وعروبة وبالحصن المذكور جامع وبرك ويرى منها مدينة إب لأنها في الشمال الغربي بمسافة ثلاث ساعات فصاعداً وفي المجمعة يقول شاعر ابن المهدي من قصيدة:

إن في غـــربي مجمعــــة ... لفخـــاراً غيـــر متصـــل
ومليكـــاً كلما ســـألـــوا ... ســـال سيـــل العـــارض الهطـــل

(٣) هذه الزيادة من بعض النسخ وليست موجودة في ح ولا في الأصل.

(٤) نهد قبيلة من قضاعة ثم من ولد مالك بن حمير بن سبأ وهم فرقتان إحداهما نهد حلال لخثعم في منتهى اليمن من قبل الشمال وطائفة منهم في بر الشام والفرقة الثانية بحضرموت وهي موجودة إلى هذه الغاية ولا أعلم أن ثم قبيلة في وسط اليمن وبجبوحته تسمى نهداً أو من ملحقات صنعاء ولا أحد من المؤرخين أو غيرهم أشار إلى ذلـك ولم نجد ذكـراً لهذه القبيلـة إلا في هـذا المكـان ثم اطلعـت على تـرجمة العلامة الفاضل أحمد بن محمد الزبيدي من ولد عمرو بن معدي كرب الزبيدي من مطلع البدور لابن أبي الرجال وفي آخرها يتحدث عن هجرة وقش إلى أن قال وبني سويد وهم قضاعة وجريان وهم قوم من نهد وهذه المخاليف من بني مطر وبني شهاب غربي صنعاء وفي بني شداد من خولان العالية قبيلة تسمى نهد وهي من خولان وهي المقصودة هنا.

(٥) صيد وهو نقيل سمارة المتقدم الذكر ومن غريب الاتفاق أنه أول ما وقع بيدي كتاب صفة جزيرة العرب ظليت أطالعه باهتمام وعلى نسق فلما ذكر محجة عدن الى صنعاء ذكر نقيل صيد هذا ولم =

ابن حاتم إلى السحول حتى وصلاه ثم نهض الجميع فحطوا في عقبه إب [1] وكان ابن مهدي قد قسم عسكره أثلاثاً ثلث في جبله، وثلث في الجبابي [2] وثلث بين حصن المسواد وحول زلال[3] ثم نهض السلطان علي بن حاتم ومن معه وقصدوا أصحاب الجبابي وكانوا أجود عسكر ابن مهدي فلما التقى القوم انهزم أصحاب ابن مهدي وقتل منهم جمع لا يحصى وأمسى السلطان علي بن حاتم في الجبابي فأصبح قاصداً جبلة فوجدها فارغة من عسكر ابن مهدي وقد هربوا منها ليلاً واستولى على جميع ما فيها من مال وخيول وسلاح لابن مهدي وقعد بها يسيراً ثم نهض بمن معه على مهلهم حتى وصلوا الجند فوجدوها خالية من العساكر

= يكن عندنا معروفاً إذا قد مات إلا أني خمنته أنه في قبلة السحول فخرجتُ من بيتي بإب متوجهاً نحو عقبة الذهوب لعلي أجد من أسأله عن محل هذا النقيل فأول ما صادفته رجل من حبلة سمارة فسألته أين هو نقيل صيد فأجاب في الحال وبلا تردد هو نقيل سمارة فتأكدت ذلك منه وهو لا يزيد على ما أفادني وحمدت أن وافق افق رأي نصاً وكانت فرحة مفاجئة.

(١) عقبة إب هي المعروفة بعقبة الذهوب المبلطة بالحجر الصلد التي قد صارت ملساء براقة لكثرة المرور عليها واليوم انقلبت الأرض غير الأرض وصارت بنايات.

(٢) الجبابي بالجيم المفتوحة بعدها باء موحدة وألف وباء موحدة أيضاً وياء مثناة من تحت قرية أعلى عزلة أنامر أعلى من مخلاف جبلة خربت من زمان وفوقها أكمة تحمل هذا الاسم وتقع في الغرب الجنوبي من مدينة إب بمسافة ساعتين وقبلة مدينة ذي جبله بمسافة ساعة وأقل ولم يبق من آثارها غير مقبرتها وسدها الضخم الذي ينتفع بمائه وكانت قرية الجبابي مسكن أسرة الملوك آل رسول الآتي ذكرهم قال الجندي وكانوا يبسطون أيديهم على الناس بأدنى قرابة السلطنة فشق ذلك بالناس فكتب الوالي ملتزم المخلاف واسمه منصور بن حسن إلى السلطان الملك المظفر يعلمه بمجريات قرابته بالناس فعاد جوابه: يا منصور، أنفك منك وإن خشمت وتمثل بقول الشاعر:

وإن كنـــت أكـــالاً لحوم بني أبي ... فلســـت بمهـديها إلى كــل جــازر

وهذا الجواب من الملك المظفر غير سديد وكان الأنسب أن يكف عادية قرابته في حين يحسن إليهم.

ونسب إليها عبد الله بن مسعود الجبابي.

(٣) حصن المسواد بكسر الميم آخر الحروف دال مهملة هو الجبل الذي يهيم على الوادي المستقبل ويقع الحصن جنوب مدينة إب بمسافة ساعة ونصف تقريباً ويسيطر على المحجة الرئيسية إلى تعز والجند وعدن وغيرها وفي قمتة كانت تقيم فيه ثكنة عسكرية وظل هكذا إلى أن أخربه الملك المظفر الرسولي ولم يعد له ذكر في التاريخ وأما حول زلال فالحول بفتح الحاء، القطعة من الأرض للزراعة معروفة الحدود سميت بذلك لأنها تتحول من مالك إلى آخر وتسميتها حول لغة مخلاف الكلاع. إب وتسمى في مخاليف آخره جربة بكسر الجيم ولها أسامي أخرى باختلاف المخاليف وزلال بضم الزاي ثم لامين وهي حربة معروفة لهذه الغاية في قرية «الجرف» من ضواحي مدينة ذي جبلة وملكيتها اليوم لآل باسلامة الكنديين الساكنين بإب وكان في الأصل حول لالا هو بلامين. أفادني بهذا السيد الأديب علي بن السيد الكريم إسماعيل بن محمد باسلامة الحضرمي الكندي.

والرعايا فبلغه إن ابن مهدي بحصن تعز [1] قد اجتمع إليه أصحابه فنهض السلطان علي بن حاتم بجميع من معه إلى تعز فقاتلوا عسكر ابن مهدي بعُدَيْنَة فوقع القتل الشديد بين الفريقين وكانت الدائرة على ابن مهدي فأخذت أموالهم وأسلحتهم ونهبت عدينة نهباً شديداً وكان عبد النبي في أعلى الحصن فرأى كتيبة تبرق فقال إن صدقني ظني إن هذا علي بن حاتم فقالوا له نعم هذه كتيبة همدان فأنشد متمثلاً بقول أسعد الكامل[2] حيث قال:

واعلم بني بــأن كــل قبيلــة ستــذل إن نهضــت لها قحطـــان

---

(١) حصن تعز هو المسمى القاهرة المتقدمة الذكـر ويظهر من سياق الكلام أن مدينة تعز لم تكن معروفة بعد وإنما المعروف لذلك التاريخ «عدينة» حيث قال. ونهبت عدينة.

(٢) أسعد الكامل هو أحد الملوك العظام الملقب أبا كرب تبان ولا زال اسمه وعظمته في ذهن كل يمني والذي شرق وغرب وما زال اسمه وله مآثر ومناقب تجل عن الحصر وشاخصة للأبصار تهزأ بعبث العابثين ويد الحدثان ولما نال من الشهرة والذيوع في مخلفات مآثره الجبارة باليمن نسبت اليه ولو كانت لغيره من التبابعة فيقولون هذه أسعدية وسد أسعدي إلى غير ذلك يروون له حكايات أشبه بالخرافات ويظهر أنه رجل إصلاحي من الطراز الممتاز وهو أول من كسا الكعبة بعد ما فتح يثرب ومكة وأول من بلط الطريق من صنعاء إلى مكة وله أخبار وأحاديث يطول ذكرها فارجع إلى كتب الهمداني ونشوان والمستشرقين واليمن الخضراء.

وكان مقر عزه ودار مملكته ظفار الملك وقصر ريدان من حقل قتاب وكان زمانه بعد الميلاد المسيحي أو قبله على خلاف بين المؤرخين ومخرفه غيمان وبه قبره وهذا البيت من قصيدة أولها:

حضرت وفــاة أبيــك يــا حســان فــانظـر لنفسـك فــالـزمــان زمــان
واحــذر صروف الزمــان فــإن بــدا منهـــا السرور فما لهــن أمـــان
فلـــربما عـــز الذليـــل وربما ذل العـــزيـــز وهكـــذا الإنســـان
واعلم الخ...

هـــي أمـــة عـــاديـــة يمنيـــة شمخـــت لطـــول أصــولها الأغصـــان
فيهـا ملكنــا الأرض عــن أقطــارهــا حتـــى أتـــت بخراجهـــا عـــدنـــان
والروم أدت خــرجهــا مــع فــارس وأتـــت لنـــا بخراجهـــا البلـــدان
وهي بأكملها في الجزء الثامن من الإكليل.

وسمي أسعد والكامل لكماله في أمور الدنيا والآخرة وكان مولده بخمر من ظاهر همدان لأن خؤولته فيهم وفيه يقول:

أيها النـــاس لســت أعــرف قــومـــاً مثـــل همـــدان خـــولتي الأبطـــال
خـــمر مـــولـــدي وفي مسنـــديها مـــولـــدي حين تم نـــور الهلال =

ثم رجع علي بن حاتم إلى الجند في أصحابه ثم أخرب دار المملكة في الجند ثم وصل علم بأن أصحاب ابن مهدي الذين كانوا في الرعارع محاصرين لعدن قد هزموا وكان علي بن حاتم ومن معه قد أرادوا نزول تهامة فلم يتفق[1] فعادوا إلى صنعاء وعاد عبد النبي إلى زبيد فأقام بها إلى أن بلغه العلم بوصول الملك المعظم توران شاه بن أيوب هو والغـز وأنهم في محل أبي تراب[2] وأنهم عند الأمير الأجل الشريف قاسم بن غانم بن يحيى بن حمزة بن وهاس السليماني وأنهم واصلون معه منجدون له في قتل أخيه وهاس فنهض الشريف قاسم صحبة الملك المعظم توران شاه فوصلوا زبيد في شوال وافتتحوها في الشهر المذكور من سنة ٥٦٩ تسع وستين وخمسمائة[3] ونهبت نهباً شديداً وقبض على عبد النبي وإخوته جميعاً وقتل عبد النبي بعد ذلك بأيام وقتل في سنة ٥٧٠ سبعين وخمسمائة ورجع الشريف قاسم بن غانم إلى بلده وقال:

مـــن عـــاش بعـــد عـــدوه يـــومـــاً فقـــد بلـــغ المنـــى

فعاش بعد ذلك شهراً ومات وكان ابن مهدي حنفي الفروع خارجي الأصول يكفر بالمعاصي ويوجب القتل ويقتل من خالف اعتقاده من أهل القبلة ويستبيح وطء نسائهم واسترقاق ذراريهم ويجعلهم دار حرب وكان يقتل مستمع الغناء والمتأخر عن مجلسي وعظه الاثنين والخميس ويقتل المنهزم من عسكره وكانت هذه الرسوم على العسكر وأما الرعايا فأمرهم ألطف واجتمع له ملك الجبال والتهايم وانتقلت إليه جميع أموال اليمن وذخائرها

= وفيهم ترشح ونشأ، وكانت فصاحته وشعره فيهم ثم انتقل إلى جبل الأهنوم وكان له هناك خبر كما يحدثنا بذلك الهمداني.

(١) لأنه شاور جنباً فامتنعت وكسرت عليه.

(٢) يقال ان موضع أبي تراب هو حرض والله أعلم وفي المعجم في مادة « بيش » وهو واد فيه قرية يقال لها « أبو تراب » سميت بذلك لكثرة الرياح السافية بها.

(٣) هذه أحد الأسباب التي دفعت صلاح الدين الأيوبي إلى إرسال أخيه إلى اليمن منجداً للشريف قاسم بن غانم وهذا ما ذكره ابن خلكان بنصه وفصه في ترجمة « توران شاه » وكما يأتي عنه أما ابن الأثير فيعزو سبب خروج توران شاه إلى اليمن هو أن صلاح الدين وأهله كانوا يخافون من نور الدين محمود زنكي فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر بحيث إن قصدهم نور الدين قاتلوه فإن هزمهم التجأوا إلى تلك المملكة فجهز صلاح الدين أخاه شمس الدين توران إلى بلد النوبة ـ السودان ـ فلم تناسبه وعاد إلى مصر حيث جهزه أخوه إلى اليمن وكان نجم الدين عمارة اليمني الشاعر المتقدم الذكر والذي يتردد ذكره في غضون التاريخ قد اتصل بشمس الدين توران فكان يحسن له غزو اليمن ويصف البلاد ويعظم ذلك في عينه حتى قوي عزمه لفتح اليمن وغزاها اهـ. ويجوز أن تكون هذه أحد الأسباب.

يقال إنه حصل في خزائنه ملك خمس وعشرين دولة من دول أهل اليمن أموال الحبشة ووزرائها وأموال عبيد فاتك وأموال بني سليمان الشرفاء وملك بني وائل ومعاقل بني الصليحي وذخائر علي الصليحي وولده المكرم وذخائر الحرة السيدة ومدينة الجند وأعمالها ومعاقل الداعي عمران بن محمد بن سبأ وحصن السمدان وغير ذلك، وكانت دولة بني مهدي في اليمن خمس عشرة سنة وشهرين وأربعة عشر يوماً والله أعلم.

الفصل الخامس

في ذكر دولة بني أيوب وأول دخولهم اليمن

قال أبو الحسن الخزرجي وكان أول من دخل اليمن من بني أيوب السلطان الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب وذكر المؤرخون لدخوله أسباباً منها أن صلاح الدين بن أيوب [1] بلغه أن باليمن إنساناً يسمى عبد النبي بن مهدي قد استولى على اليمن

---

(١) اسمه يوسف بن أيوب بن شادي الملقب الملك الناصر صلاح الدين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والعراقية واليمنية ويكنى أبا المظفر.

إن ترجمة السلطان صلاح الدين وتاريخ حياته أشهر من أن يسطرها قلم بليغ ويسجلها كاتب مهما أوتي من قوة العارضة واللسن فهي أشهر من نار على علم إذ كل ما ذكر أو تبادر إلى الأذهان صاحبته كل معاني الإنسانية المستقيمة النادرة والمثل العليا الفاضلة فهو قاهر الإفرنجة وصاحب الحروب الصليبية المشهورة والمصلح الأعظم وناصر الإسلام الذي لا يزال ذكره يدوي في المعمورة وعلى طرف كل لسان من الأمم من عربها والعجم وكتب التاريخ قديماً وحديثاً طافحه بأخباره وحوادثه والثناء عليه وعلى عظمته وعزوفه عن الدنيا وبعد همته وأفردت سيرته بالتأليف والتصنيف.

كانت ولادته سنة ٥٣٢ اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت من أرض العراق وكانت وفاته سنة ٥٨٩ تسع وثمانين وخمسمائة عن سبع وخمسين سنة ودفن بدمشق وقبره لا زال مشهوراً مزاراً يمثل العظمة والآثار الخالدة ويروى أنه لما مات كان العالم الإسلامي في مأتم عظيم وأما أهل دمشق فغشيهم يومئذ من البكاء والعويل والضجيج ما لا يمكن وصفه ومدة ملكه في الديار المصرية وغيرها أربع وعشرون سنة، وفتح بسيفه وسيوف إخوته من اليمن إلى الموصل وإلى طرابلس الغرب والسودان وأنفق الأموال في الغزوات ولم يخلف داراً ولا عقاراً ولا مالاً إلا سبعة وأربعين درهماً لفرط كرمه وفي سبيل استرداد بلاد الإسلام من يد الإفرنجة.

وقال العماد الكاتب مات بموت السلطان الرجال وفات بوفاته الفضلاء وغاضت الأيادي وفاضت الأعادي وانقطعت الأرزاق وادلهمت الآفاق فجمع الزمان بواحد زمانه ورزئ الإسلام بركن أركانه وخلف سبعة عشر ولداً وله من المآثر والمفاخر ما يجل عن الحصر.

وزعم أنه ينشر ملكه حتى يملك الأرض كلها فجهز له أخاه توران شاه في جيش جرار سنة ٥٦٩ تسع وستين وخمسمائة وقيل إن رجلاً من أهل اليمن فقيهاً يسمى ابن النساخ[١] كتب رسالة بليغة إلى الخليفة[٢] ببغداد يشكو فيها من ابن مهدي ويذكر قبح سيرته وسوء عقيدته وكتب مع الرسالة قصيدة طويلة يقول فيها :

فيا غادياً نحو العراق مجثحثاً ... رحيل زكاة والحياة نصاب
إلى أن ترى بغداد والمنبر الذي ... به نسب للهاشمي قراب
ألم بأبراج الخليفة لاثماً ... عراصاً وما كل التراب تراب
ثرى مسه العباس ثم رجاله ... هو المسك والكافور طاب وطابوا
وقل لإمام العصر يا ابن خلائف ... هم حجج محجوجة وكعاب
مقام بني العباس مشتق نبعة ... وعن شيبة الحمد انتضاه نصاب
غدت ملة الإسلام مقصومة العرى ... وعامر دين الله وهو خراب
تذبح أبناء وتسبى عقائل ... ضلال ترى في أرضنا وتباب
بنات رسول الله بين بيوتهم ... سبايا من الستر الجميل سلاب
فدع عنك أرض الروم وأنهض لمكة ... فسيفك فيه مضرب وذباب
فما في قتال الروم فخر وهذه ... بأظهركم ما في الكلام كذاب
يغير ريب الدهر دين محمد ... وما راب أديان اليهود مراب

فلما بلغت الرسالة الخليفة كتب إلى السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فجهز أخاه توران شاه إلى اليمن ذكر هذه الرواية الجندي وذكر ابن خلكان[٣]

---

(١) اسمه الحسن بن محمد النساخ كان نابغة دهره ونادرة عصره متفوقاً في النظم والنثر وفنون الأدب مشاركاً في سائر الفنون والعلوم ورسالته المذكورة تدل على علو باعه وتقدمه في فن الإنشا وقد أثبتناها بكمالها في غير هذا التعليق وكون هذه الرسالة كانت هي الحافزة للسلطان صلاح الدين لبعث أخيه لفتح اليمن غير صحيح وإن رواها الجندي فلعله واهم وإنما كانت هذه الرسالة سبباً لخروج الملك المسعود الأيوبي الآتي الذكر لما قام ودعا الإمام عبد الله بن حمزة واشتدت وطأته باليمن الأعلى وأذرع في القتل والنهب والتخريب خصوصاً على الفرقة المطرفية الذين منهم ابن النساخ المذكور كما يأتي قريباً إن شاء الله.

(٢) اسم الخليفة الذي أرسلت اليه الرسالة المذكورة إلى بغداد هو الإمام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن الخليفة المستضيء بالله العباسي.

(٣) هو قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان الأربلي الشافعي يرتفع نسبة إلى البرامكة.

الأولى وقيل لما قتل الشريف وهاس بن غانم وعجز أخوه قاسم بن غانم عن حرب بني مهدي رحل إلى مصر واستنجد بصلاح الدين بن أيوب على بني مهدي فأرسل أخاه توران شاه فدخل زبيد في شوال سنة ٥٦٩ تسع وستين وخمسمائة وقاتله عبد النبي قتالاً شديداً فقتل في الحرب وقيل أسر ثم قتل بعد الأسر وقيل لم يزل في الأسر حتى مات واستولى على زبيد ثم نهض إلى الجند وأخذ حصن تعز ثم نهض لعدن فأخذها في القعدة من السنة المذكورة وقبض على أولاد الداعي عمران بن محمد بن سبأ بن أبي السعود وعلى الشيخ ياسر بن بلال، ولما دخل عدن أنشده الأديب أبو بكر بن أحمد العندي قصيدة بليغة فصيحة يقول فيها:

أعساكراً أرسلتها وجنودا ... أم أنجماً أطلعتهن سعودا
أم تلك ماضية العزائم أرهفت ... بالرأي منك وجردت تجريدا
أم تلك أقدار الإله ونصره ... رفعت عليك لواءها المعقودا
فسموت تطوي البيد متسقاً بها ... حتى لكادت أن تبيد البيدا
ونهضت لا الصعب المرام رأيته ... صعباً ولا المرمى البعيد بعيدا
واقتدتها قب الأياطل غادرت ... متن الفلاة بركضها معقودا (١)
شعثاً يطير بها المراح كأنها ... العقبان تحمل في الحديد أسودا
وشهرت نصرك والعزائم فالتظت ... منها البلاد تلهباً ووقودا
بسيوف بأس لا تفل مضارباً ... وجياد ركض ما تجف لبودا
جردتها من أرض مصر ما ارتضت ... إلا ربما يمن لهن غمودا
حتى صدمت بها زبيداً صدمة ... كادت تزول عن الوجود زبيدا

= ولد يوم الخميس بعد العصر حادي عشر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستمائة بمدينة إربل من مقاطعة الموصل من العراق العربي، وكانت وفاته بدمشق آخر نهار السبت السادس والعشرين من رجب سنة إحدى وثمانين وستمائة عن ثلاث وسبعين سنة.

كان أحد الأئمة الفضلاء والسادة العلماء والصدور الرؤساء تقلب بالمناصب العالية وتولى القضاء الأكبر بمصر ودمشق وانتهت اليه الرياسة في عصره وله نظم رائق ومحاضرته في غاية الحسن واللطف وله التاريخ المشهور بوفيات الأعيان من أحسن المصنفات وأعذبها ورزق الحظوة والشهرة وإقبال الناس عليه ومن طالعه وجد لذة ومتعة وكأنه السحر الحلال أو ابنت الزرجون ولقد طالعته عدة مرار وأخرج منه راغباً في الإعادة وطالباً الاستزادة وقد طبع عدة طبعات ونقل إلى عدة لغات كما بلغ رحمه الله وجزاه خيراً.

(١) القت الضامر الدقيق والأياطل جمع أيطل وهي الخاصرة.

ومنها :

فليأت أرض الشام منك ومصرها … أن قد أسرت بها الملوك عبيدا
ولو ان أملاك البسيطة أنصفت … خرت لعزك ركعاً وسجودا
ولو أنها أوفت مقامك حقه … فرشت لمقدمك البقاع خدودا
لله ملك مواقف مشهورة … فاتت بك التكييف والتحديدا
ووقائع أضرمت من يمن بها … في كل أرض بالسماع وقيدا
هزت بك البيض الرقاق معاطفاً … فكأنما سقيتها القنديدا
ونثرت سعيك في الزمان مكارما … نظمت على جيد الزمان عقودا
فاستفتح الدنيا بسيفك إنه … حكم القضا مسدداً تسديدا
فلقد تطاولت البلاد ومهدت … للعز منك واستوتها تمهيدا
وتنافست فيك البقاع مشارقاً … ومغارباً وتهائماً ونجودا
وتلا مدائحك الزمان وغردت … ورق الحمام بوصفها تغريدا
وبقيت منصور اللوا مظفراً … وغدا الزمان لما أردت مريدا
ثم الصلاة على النبي محمد المخـ … ـتار ما افتر الزمان جديدا

ولم نثبتها بكمالها لطولها [1] ثم نهض شمس الدولة من عدن قاصداً مخلاف جعفر فأخذ التعكر ثم صار نحو نقيل صيد ثم قصد دروان [2] فقاتله عبد الله بن يحيى الجنبي قتالاً شديداً ثم صالحه ثم نهض فأخذ المصنعة [3] ثم نهض يريد ذمار فاعترضته جنب فقاتلوه فقتل من أصحابه الغز خمسة وستون رجلاً ثم دخل ذمار ثم نهض يريد صنعاء فاعترضته جنب ومن معهم فشجع شمس الدولة عسكره وقال قاتلوا عن أنفسكم وإلا أكلتكم العرب أين

(١) هي موجودة بأكملها في العسجد وهي قرابة خمسين بيتاً ، والقنديد هو القند : قصب السكر .

(٢) دروان بالدال المهملة محركة الحروف وجبل وقرية في يحصب العلو شرقي قرية منكث وقد خربت القرية والحصن منذ زمان ودروان أيضاً قرية في الشمال الشرقي من حجة وتبعد عنها بمسافة ثلث ساعة وكان يقال لها قديماً « أدران » .

(٣) قد تقدم لنا أن ما يحمل اسم المصنعة باليمن لا يدخل تحت الحصر وهذه المصنعة لعلها التي تقع في الغرب الشمالي من مدينة يريم من أطراف حقل قتاب وتبعد عن يريم بمقدار ربع ساعة وهي خراب أطلال وكذلك المصنعة التي بغربي مدينة ذمار بمقدار ثلاث ساعات بها آثار عظيمة ومساند حميرية تخلب الألباب .

أنتم من الديار المصرية فقاتلوا قتالاً شديداً فهزمت جنب ومن معهم وقتل منهم سبعمائة رجل وتبعهم العسكر إلى أن دخلوا حصن هران، وفي ذلك يقول الشاعر قوله:

وقال لجنده موتوا كراماً ... فأين ديار مصر من ذمار

وسار نحو صنعاء فحط في الجبوب[1] فخرج اليه مشايخ صنعاء ووجوه أهلها في زي حسن فأعجبه زيهم ثم دخل صنعاء وملكها وكان السلطان علي بن حاتم في براش وأخوه بشر ابن حاتم في عزان[2] ثم نهض شمس الدولة يريد تهامة فلما صار في حدود برع أخذ له أهل برع جمالاً كثيرة عليها أموال جمة من الذهب والفضة والسلاح وأكثره من آلة مصر ومال زبيد وعدن الذي نهب منها يوم أخذهما فلما نزل شمس الدولة من صنعاء إلى تهامة خشي السلطان علي بن حاتم من عودته فأمر بإخراب درب صنعاء وكسر خنادقه واستئصال مآثره فأقام شمس الدولة بزبيد مدة ثم نهض للجند فوصل اليه وإلى جبل صبر وكان واليه من قبل ابن مهدي فسلم اليه الحصن ثم أخذ حصن ذخر[3] وحصن تالبه وحصن شرياف ثم عزان ذخر[4] ثم ملك إلى المعافر وأخذ حصن يُمين ثم حصن منيف ثم السمدان[5] ونهض إلى الدلوة وفيها أولاد الداعي عمران بن محمد بن سبأ وواليها جوهر المعظمي ولم ينل منها شيئاً فتركها وعاد إلى جبلة ثم إلى زبيد فلما تمت لشمس الدولة سنة كاملة باليمن اشتاق إلى الشام فكتب إلى أخيه[6] يستأذنه في القفول إليه وأرسل بقصيدة أولها:

لولا محلك في قلبي وأفكاري ... ما رنح الشوق أعطافي وتذكاري

ولا التفت إلى مصر وساكنها ... وقد تعوضت عن مصر بأمصار

---

(١) الجبوب بفتح الجيم والباء الموحدة ايضاً آخره باء آخر وهو الواقع من ضواحي صنعاء في شرقها وتحت جبل نقم.

(٢) ستأتي ترجمة الأمير بشر بن حاتم وأما عزان هذا فلعله عزان المصانع إذا لم أقف على موقعه بالضبط.

(٣) قد تقدم الكلام على ذخر وأما حصنه فموقعه في أعلى عزلة البريهة فوق قرية آلعدن من جهة الغرب الشمالي ويعرف بحصن الخضراء نسبة إلى الولي المقبور هنالك.

(٤) هذا عزان ذخر الذي يقع رأس عزلة المراتب وهو في الغرب الشمالي من مركز يفرس بمسافة أربع ساعات ويسمى الآن حصن الصليحي وقد اندثرت هذه الحصون وموقعها في غرب تعز كما تقدمت الإشارة إلى ذلك.

(٥) تقدم أن هذه الثلاثة حصون تشكل سلسلة من الجبال تبتدع من منيف جنوباً وإلى السمدان شمالاً.

(٦) المراد بأخيه السلطان صلاح الدين الأيوبي.

ولا حننــت إلى أرض الشــآم وإن كانـت مطـالـع أوطـاني وأوطـاري
ما الدار إلا دمشق والمنى حلـب والشــوق مصر وفي الزور آمـداً داري[1]
تلـك المنـازل لا لحج ولا عــدن ولا زبيـد ولا أكنـاف تعشـار[2]
هـذا علي إن قـدر الملـك في يمـن غـال ولكنـه في دون مقـداري
وقـد أبـدت الملـوك المنتمين بـه واقتـدتهم قـود إذلال وإصغـار

وهي طويلة ذكر فيها فتوحات بليغة لأخيه صلاح الدين وهنأه بها إلى أن قال:

هـذا اقتراحـي ومـن لي إن أفـوز بـه محكماً فيـه إيـرادي وإصـداري
وإن أعظم قصدي ان أراك علــى المألـوف بـاهـر إشراق وأنـواري
فكيـف لي بـاجتماع منـك صـافيـة منـه المـوارد عـن شـوب وإكـدار

فأرسل إليه صلاح الدين رسالة مضمونها ترغيبه في الإقامة باليمن وان اليمن مبارك كثير الأموال مملكته واسعة فلما قرأ الكتاب استحضر ألف دينار وقال لأستاذ داره اشتري لنا به قطعة ثلج فقال لا ثلج في اليمن فقال اشترى به لنا كذا وكذا من الأشياء التي لا توجد في اليمن ذلك الزمن ومراده بذلك عدم الرضى باليمن لفقد ما يطلب منها ثم قال ليت شعري ما أصنع بالأموال إذا لم انتفع بها فيما أريد فعاد الرسول إلى صلاح الدين فأخبره فأذن له في القفول ويقال إنه لما اشتاق شمس الدولة إلى أخيه صلاح الدين كتب إليه كتاباً من جملته شعراً:

وإلى صـلاح الديـن أشكـو أنني مضنى كئيـب مستهـام مـولـع

---

(١) دمشق عاصمة الخلائف من الأمويين التي زهت بعصرها الذهبي والمدينة الفيحاء التي تضم بين جوانبها على أربعمائة ألف نسمة جلهم عرب اقحاح مسلمون وفيها الجامعة السورية ودار الكتب الظاهرية والمجمع العلمي والجامع الأموي وقبر صلاح الدين وأستاذه السلطان محمود زنكي وكثير من الصحابة والتابعين وهي من أقدم مدن العالم تقع في طرف بادية الشام على ملتقى الطرق العسكرية والسبل التجارية القديمة يرتقي تاريخها إلى خمسة آلاف سنة ووصفها يطول فارجع إلى تواريخها العديدة، وحلب قاعدة الشمال السوري المتاخمة لأرض الترك وسكانها حوالى أربعمائة ألف نفس وهي من أقدم مدن العالم وازدهرت فيها العلوم والفنون الإسلامية ولا زالت محتفظة بطابعها العربي، والزورا هي بغداد عاصمة الرشيد وقد تقدم الكلام عنها وتسميتها بالزوراء تقدم في ص ١٨٩ قال الطغرائي:

فيم الإقـامـة بـالـزورا لا سكنـى بهـا ولا نـاقتي فيهـا ولا جمـل

(٢) تعشار بكسر التاء المثناة من فوق اخره راء قال ياقوت هي أحد الأسماء التي جاءت على تفعال موضع بالدهنـا قال يزيد بن الطثرية:

ألا لا أرى وصـل المشقـة راجعـاً ولا لليـالينـا بتعشـار مطلبـا

جزعاً لبعد الدار عنه ولم أكن | لولا هواه لبعد دار أجزع
فلأركبن إليه متن عزائمي | وتخب في ركب الغرام وتوضع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة | من أفقها منه السعادة تطلع

فلما قرأه قال القفول والقعود اليه إن أحب الوقوف وقف وإن أحب الوصول وصل ثم كتب اليه كتاباً من جملته شعراً :

ولأنت فخر الدين فخري في الورى | وملاذ آمالي وركن أمنع
النصر إن أقبلت نحوي مقبل | واليمن إن أسرعت نحوي مسرع

فلما وصل الكتاب إلى شمس الدولة وعزم على السفر والعود أمر بشنق بني مهدي وكانوا ثلاثة في الأسر عبد النبي وأحمد ويحيى فشنقوا على باب الخان [1] بزبيد وأمر بتوسيط ياسر بن بلال وعبده مفتاح سنة ٥٧١ إحدى وسبعين وخمسمائة وكان مع شمس الدولة من أعيان الدولة درباس [2] وسيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ [3] وأخوه محمد

---

(١) لا يعرف محل الخان اليوم.
(٢) لا أعرف عن هذا شيئاً.
(٣) ترجم له ابن خلكان ترجمة حسنة وكان يلقب سيف الدولة مجد الدين وكان ممدحاً مدحه جماعة من مشاهير الشعراء ومن جملة من مدحه ابن الذروي بقصيدته الذالية التي سارت مسير المثل وأولها :

لك الخير عرج بي على ربعهم فذي | ربوع يفوح المسك من عرفها الشذى
مبارك وفد العيس باب مبارك | وهل منقذ القصاد إلا ابن منقذ

إلى أن قال، وفيه صناعة بديعة :

وألين عند السلم من بطن حية | وأخشن يوم الروع من ظهر قنفذ

ومن شعره في البراغيث :

ومعشر يستحل الناس قتلهم | كما استحلوا دم الحجاج في الحرم
إذا سفكت دماً منها فما سفكت | يداي من دمها المسفوح غير دمي
أصطاد هذا فيبقى ذا فيلسعني | فينقضي الليل في صيدي ولسعهم

ومن شعره كما رواه الخزرجي :

وإذا أراد الله أن يشقي امرىء | واردان يحييه غير سعيد
أغراه بالترحيل عن مصر بلا | سبب وأسكنه بأرض زبيد

ولما رجع إلى مصر صادره صلاح الدين وأخذ منه ثمانين ألف دينار وعروضاً بعشرين ألف دينار لأنه بلغه أنه قتل جماعة باليمن وأخذ أموالهم وكانت ولادة ابن منقذ سنة ست وعشرين وخمسمائة وتوفي بالقاهرة سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وخطاب[1] أبنا منقذ وعثمان الزنجبيلي وياقوت التعزي ومظفر الدين قايماز وكان مبارك من أمراء الدولة الصلاحية بديار مصر وهو من بيت كبير يقال إنهم من بني حمدان[2] وكان شاعراً فصيحاً وهو الذي بنى مسجد المناخ بزبيد وأوقف عليه وقفاً جليلاً بزبيد وكان يحب العلماء ومدحه جماعة من الشعراء فأثابهم فلما عزم شمس الدولة على التوجه إلى الشام استناب مبارك بن كامل بن منقذ على زبيد والتهائم وجعل عثمان الزنجبيلي على عدن وياقوت التعزي في التعكر وتعز وأعمالها مظفر الدين قايماز على ذي جبلة وأعمالها وسار إلى الشام سنة ٥٧١ إحدى وسبعين وخمسمائة على طريق صنعاء فلما صار بقرب أشيح خرج عليه جيش فنهبوا خزائنه فلما وصل إلى أخيه استنابه بدمشق مدة ثم إلى الاسكندرية[3] فمات بها سنة ٥٧٤ أربع وسبعين وخمسمائة فنقلته أخته إلى دمشق في مدرسته التي أنشأها بظاهر دمشق وكان كريماً جواداً[4] قال مهذب الدين بن الخيمي الشاعر[5] رأيت توران شاه في المنام بعد موته فمدحته بأبيات فلف كفنه ورماه لي وتوارى عني بالقبر وأنشدني:

لا تستقلن معروفاً سمحت به ... ميتاً فأمسيت منه عاري البدن
ولا تظنن جودي شابه بخل ... ما بعد بذلي ملك الشام واليمن

---

(١) في ابن خلكان بالحا المهملة والنون آخره نون بدون ضبط.

(٢) إنما هو كناني وأما بنو حمدان فمن بني تغلب وهم أمراء الموصل وحلب ومنهم سيف الدولة ممدوح المتنبي.

(٣) الإسكندرية هي عروسة الشرق وسيدة أعلام المدن الإسلامية ومصيف من أروع مصيفات العالم وميناء مصر الخطير على البحر الأبيض الذي يسمى بحر الشام وطوراً بحر الروم ويسكنها قرابة مليون نسمة من مختلف أجناس البشر بناها الاسكندر المقدوني الأكبر فسميت باسمه سنة ٣٣١ قبل الميلاد وجعلها عاصمة القطر المصري ولما انتقلت إلى ملك البطالسة شرع بطليموس الملك الأول في أعظم عمل خلد اسمه في التاريخ فأسس دار الكتب على أجمل طراز وصرف عليها قناطير الدنانير وحشد اليها فطاحلة العلماء من كل قبيل فكانت أجمع لثمرات العقول زينها بحديقة رائعة جامعة لكافة أصناف النباتات وسائر الحيوانات وجعل أسلوب التعليم مذهب أرسطو الحسي المبني على التجربة وصرف هو وولده من بعده في سبيل إيجاد كتبها مبالغاً من المال لا يكاد الحس يصدق بذلك وعلى حضور الآلات المعدات والصرف على معلميها وأعلامها حتى جعل هذه الدار مشرق العلم ومنبع الحكمة واشتهرت منارتها وعلوها ١٤٠٠ قدم ألف وأربعمائة قدم وبنى مجمعاً للعلوم وفتحها العرب في سنة ٢٠ للهجرة.

(٤) قال ابن خلكان إن توران شاه مات وعليه مائتا ألف دينار قضاها عنه أخوه صلاح الدين.

(٥) لم يتعرض ابن خلكان على ترجمة ابن الخيمي وإنما حكى عنه هذه القصة حيث قال وحكى صاحبنا الشيخ مهدي الدين أبو طالب محمد بن علي المعروف بابن الخيمي الحليّ نزيل مصر الأديب الفاضل الخ.

إني خـرجـت مـن الدنيـا وليس معـي   من كل مـا ملكـت كفـي سـوى كفني

قال ابن خلكان معنى توران شاه ملك الشرق[1] ولم يزل نواب شمس الدولة على اليمن وأمواله ترفع إليه إلى الشام إلى أن تـوفي، فلما تـوفي أظهـروا الخلاف وضرب كـل منهـم سكـة باسمه وحرم على أهل بلده أن يتعاملوا بغيرها إلا مظفر الدين قايماز فإنه عجز عن ضبط المخلاف فاستولى عليه عثمان الزنجبيلي[2] واستفحل أمره ثم غزا حضرموت وقتل خلقاً كثيراً من الفقهاء والقراء وكان ممن يسعى في الأرض فساداً ولم يزل بعدن إلى أن وصل طغتكين[3] فهرب إلى دمشق ومات بها ومن مآثره مسجده بعدن جعل خان البر[4] عليه وقفا ووقف عقاراً ودوراً ودكاكين كثيرة بعدن على الحرم المكي وكان موته سنة ٥٨٨ ثمان وثمانين وخمسمائة، وأما المبارك بن منقذ فإنه ضبط التهائم وكان بزبيد صوفي يقال له المبارك بن خلف أقبل عليه الناس فخشي ابن منقذ منه فعل ابن مهدي فقتله فحيل بينه وبين النوم فكاد يهلك فشكى حاله على بعض الفقهاء فقال إن أعـدت الخطبة إلى الجامع القديم من عمارة الحبشة رجوت لك الشفاء وكان الجامع من عمارة الحبشة وهم سنيون ففعل ذلك فعاوده النوم[5] وأمر بإخراب جامع بني مهدي وهو الذي يسمى بالمشهد فبادر الناس

---

(١) نص عبارة ابن خلكان وتوران بضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وراء وألف ونون وهو لفظ أعجمي وشاه هو الملك ومعناه ملك المشرق وإنما قيل له توران لأن بلاد الترك والعجم يسمون الترك تركان ثم حرفوه فقالوا توران.

(٢) هو أبو عمرو عز الدين عثمان الزنجبيلي نسبة إلى زنجبيلة قرية من قرى الشام.

(٣) طغتكين بضم الطاء المهملة وسكون الغين المعجمة وكسر التاء المثناة من فوقها ثم كاف وياء ونون اسم عجمي تركي.

(٤) كذا في الأصل البر بالراء وفي خ البز بالزاي.

(٥) هذه أسطورة من الأساطير التي يخدعون بها الجمهور إذ من غير المعقول أن يعاوده النوم بمجرد أمره بإعادة الخطبة إلى جامع الأحبوش لكونهم سنيين في حين يتسامح له بجريمته الكبرى وهي قتله المبارك الصوفي الذي أقدم على أراقة دمه الزكي بتلك الذريعة الفاسدة وخراب مسجد ابن مهدي وما يدرينا ان هذه الجريمة ليست الأولى من نوعها من ابن منقذ ولعلها قد سبقت لـه مئـات ومئـات مـن الجرائم، ومن العجب أن يرتكب جريمة هدم مسجد بني مهدي فيكون له فاتحة شفاء وعافية وأين هو من قوارع السماء ومن يقتل مؤمناً متعمداً ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيه اسمه وسعى في خرابها، وقد كان على حق صلاح الدين في مصادرة ابن منقذ لتلك الآلاف التي أخذها من غير حلها وانتزعها من دون رحمة ولا رأفه بل الأمر الذي لا شك فيه هو أن قاتل النفس المحرمة والرجل المجرم تعتريه نوبات اضطراب وقلق وتمر على أفكاره سحابة سوداء وصوره الإجرامية بحيث تتمثل له الجريمة بأبشع صورها وتولد له خواطر ووساوس مفزعة بحيث تسلبه النوم ويعذبه ضميره إن كان له =

إلى ذلك بغضاً لبني مهدي والذي بناه سيف الدولة من الجامع المقدم وتاريخ عمارته مكتوب في حجر مكتوب بين المحراب والمنبر وابتداء عمارته سنة ٥٧٣ ثلاث وسبعين وخمسمائة وأما المؤخر والجناحان الشرقي والغربي والمنارة فمن عمارة سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ثم تقدم المبارك إلى مصر بإذن صلاح الدين فقبض عليه صلاح الدين وصادره واحتج عليه بمصادرة بني مهدي وكان المبارك قد استناب أخاه خطاب بن منقذ بزبيد وتوفي المبارك بالقاهرة سنة ٥٨٩ تسع وثمانين وخمسمائة وأما خطاب بن منقذ فإن صلاح الدين لما صادر أخاه بمصر بعث مملوكه خطلباً إلى اليمن وكتب له الأمر إلى الأمراء بالسير معه لحرب خطاب بن منقذ وإخراجه من زبيد وتولية خطلبا مكانه فوصل خطلبا إلى عدن فالتقاه عثمان الزنجبيلي فأطاعه وسار معه فلما بلغا الجند وصلها ياقوت التعزي من تعز وقايماز من التعكر وساروا جميعاً إلى زبيد فهرب خطاب بن منقذ إلى حصن قوارير ودخل خطلبا زبيد وملكها وعاد كل أمير إلى بلده وكان ذلك في سنة ٥٧٤ أربع وسبعين وخمسمائة ثم إن خطاباً راسل خطلباً وهاداه حتى ائتلفا فمرض خطلبا وأشرف على الموت فاستدعى خطاباً وسلم اليه البلد ومات واستولى خطاب على زبيد وأعمالها فجمع له عثمان الزنجبيلي جموعاً وحاصره بزبيد فلم ينل منه شيئاً ولم يزل خطاب متحرزاً من الزنجبيلي كلما رآه متحركاً طلع حصن قوارير يمتنع به إلى أن قتله طغتكين سنة ٥٧٩ تسع وسبعين وخمسمائة، ولما علم صلاح الدين بأمر خطاب وما جرى باليمن أرسل أخاه الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب إلى اليمن في ألف فارس فوصل زبيد آخر ٥٧٧ سبع وسبعين وخمسمائة فخرج خطاب للقائه إلى الكدري فترجل له سيف الإسلام وفرح به وقال أنت أخي فسار إلى زبيد فأقاما بها مدة ثم استأذن خطاب سيف الإسلام في المسير إلى مصر فأذن له فخرج بجميع ذخائره إلى الجنابذ وهي ثلاث قباب كانت خارج البلد يقال إن في إحداها قبر علي الصليحي وأخيه عبد الله وفي الثانية ابن زياد وعمته اللذين قتلها نفيس وفي الثالثة قبر جياش بن نجاح فلما صارت أمواله هنالك رجع لوداع سيف الإسلام فقبضه وأخذ أمواله وحبسه بحصن تعز ثم أمر بقتله فقتل سراً سنة ٥٧٩ تسع وسبعين وخمسمائة كما تقدم وأما ياقوت التعزي فإنه نزل مبادراً وسلم مفاتيح الحصن إلى سيف الإسلام بزبيد فأعجبه وأكرمه ثم أعاده على ولايته بها، وياقوت هذا هو جد الأمراء المعروفين ببني التعزي في اليمن ثم طلع سيف الإسلام تعز ثم الجند ثم قبض التعكر.

ضمير حي ويؤنبه وجدانه حتى تغير مزاجه وتختلط في عقله كما يقع لكثيرين من هذا علاوة على ما أعده الله له من اليم العذاب وشديد العقاب.

وأما عثمان الزنجبيلي صاحب عدن فإنه لما سمع بقبضه خطاب بن منقذ حمل نفسه وأمواله في البحر فأمر سيف الإسلام من قطع عليه البحر فأخذ عليه شيئاً من قماشه بعد أن نجا بنفسه ثم بعث سيف الإسلام مكانه بعدن ابن عين الزمان وملك سيف الإسلام اليمن جميعه واستولى على الحصون التي كانت لأخيه شمس الدولة وزاد عليها حصن السوا ثم حصر حصن خدد فأخذه ثم اخذ ريمة الحدبا [١] ثم نهض لبيت عز وحصن نعم [٢] فأخذهما ثم أخذ حصن بحرانه [٣] ثم حصن سماه [٤] ثم حصن عنه [٥] ثم قرعة [٦] ثم شار [٧] ثم حط على حصن حب وفيه السلطان زياد بن حاتم الزريعي [٨] فاستنجد زياد بالسلطان الوحيد علي بن حاتم وبغيره وحصل بينهما تخاذل وإفساد ثم إن سيف الإسلام توجه الى مكة سنة ٥٨١ إحدى وثمانين وخمسمائة [٩] بعد أن امر أميره همام الدين أبو زيان أن يرقب المحاط على حصن حب

---

(١) ريمة الحدبا لعلها ريمة الأشابط التي كانت تسمى « ريمة جبلان » وقد تقدم ذكرها وبلغني أن ريمة الحد باهي ريمة بني مليك من العدين وقد تقدم ذكرها والحدبا كناية عن المناعة والإناقة ويعد هذا وقفنا ريما الحدبا .

(٢) بيت عز وحصن نعم من بلد الشعر ولا يعرف تحديدهما بالضبط وبيت عز أيضاً في الشمال الغربي من كوكبان شبام لمسافة يسيرة وأما عز فهو حصن منيع عرفته بالذات وفيه آبار لا يستهان بها وهو مناوح لشناخيب دلال التي تسمى قناصيع دلال ويقع في أعلى عزلة الوسط ولعله بيت عز .

(٣) بحرانة تثنية بحر بزيادة هاء في آخره يطلق على حصنين أحدهما واقع في أعلى عزلة السيف الواقعة في الغرب الشمالي من ذي السفال بمسافة ثلاث ساعات وهو خراب وفي سفحة قرية تحمل اسمه وثانيهما في ريمة الأشابط والله أعلم أيها أراد .

(٤) حصن سماه سيأتي ذكره .

(٥) حصن عنه لا أعرف موقعه بالضبط إذ ثم حصون كثيرة هنالك .

(٦) قرعة ورد ذكرها في « صفة جزيرة العرب » وطالما بحثت عنها ولم أتوفق إلى لقياها ثم بلغني أنها توجد في عز له حليان الواقعة في شرق المذيخرة من بلاد الكلاع .

(٧) حصن شار هو حصن منيع مستطيل الشكل كأنه صهوة جواد صعب لا يرتقى وهو آهل بالسكان في حوزة المشايخ آل الشهاري ويقع في غرب مدينة إب بمسافة أربع ساعات وبه سميت عزلة بلاد شار من الكلاع واشتهرت بشجرة القات حتى ألغز بعض الأذكياء فيه بقوله: يا أهل خمسمائة وواحد « شار » اعطونا خمسمائة وواحد « قات » جزاكم الله « خمسمائة وواحد نعماً وملكاً كبيراً » وحله يا أهل شار أعطونا قاتاً جزاكم الله نعماً وملكاً كبيراً إذ كل من « شار » وقات ونعماً وملكاً كبيراً يودي كل واحد في العدد خمسمائة وواحد .

(٨) هو زياد بن حاتم بن علي بن سبأ بن أبي السعود الزريعي وكان صدراً ومن الصدور الكبار .

(٩) قال ابن سمرة وفي شهر جمادى الآخرة قبض سيف الإسلام « كحلان » المراد به كحلان

فلما رجع من مكة حط بنفسه على حب حتى افتتحه في جمادى سنة ٥٨٢ اثنين وثمانين وخمسمائة وقتل جميع من فيه إلا من لا يعرف[١] وتزلزلت اليمن جميعها لذلك اليوم وكان السلطان عبد الله بن يحيى الجنبي والشيخ عمران بن زيد الجنبي ممن استنجد بهما زياد بن حاتم صاحب حصن حب وكان عبد الله بن يحيى هو سبب تخاذل العسكر لحقد كان بينه وبين الشيخ عمران فنزل عبد الله بن يحيى بعد أن أخذ سيف الإسلام حصن حب هو وأولاده إلى سيف الإسلام فخلع عليهما وجمل أحوالهم ثم تتابعت اليه جنب ولم يبق من هو خارج عن جنب إلا الشيخ عمران بن زيد وإخوته ثم طلع الملك العزيز سيف الإسلام واستولى على بلاد جنب وملك هران ولما ملك ذمار أمر السلطان علي بن حاتم بخراب قصر غمدان[٢] في سنة ثلاثين وثمانين وخرب سور صنعاء ووقف هو وإخوته في حصن براش، وحرق جميع ما كان لهما من غلة وأمر الرعايا بالخروج إلى حيث يمتنعون من وطأة الجيش فخرج ابن عمه حاتم بن أسعد إلى سيف الإسلام وهو في مشرق ذمار فأصلحه بثمانين ألف دينار حاتمية ومائة حصان في سنة واحدة وعاد الملك العزيز إلى اليمن وولى ذمار الأمير مظفر الدين قائماز فجمع له الشيخ عمران الجنبي جموعاً كثيرة وقصده بذمار وأخذها ونهبها وتحصنت الرتبة منه وارسلوا إلى سيف الإسلام وهو بجبلة فركب فوراً فلما رأته جنب انهزمت فقتل منهم مقتلة عظيمة وأخذ خيلاً كثيرة وأفلت الشيخ عمران وباقي جنب ولولا صبره وكره ما أفلت من جنب أحد ثم غزا سيف الإسلام موضعاً يسمى بشار[٣] فقتل

خبان وأخرج منه أهله وعقد في ولايته للشريف مهدي بن أسعد بن عبد الصمد الحوالي هذا من بقية ملوك ذي حوال المقدمي الذكر.

(١) قال الشعبي في تاريخه وكان فيه «أي في حصن حب» بنو زريع فلما نفذ الماء والحب سلموا له الحصن على يد واسطة فقتل منهم الملك خمسمائة وخمسين رجلاً حتى انه جمد على يده أكبر من حبة الدباء دماً انظر أي شيء هذا الطاغية الوحش الكاسر وأين هذا وأضرابه ممن سيمرون بك من معاوية بن أبي سفيان ممن يسلطون ألسنتهم عليه باللعن والسباب وقد دامت محاصرة حصن حب ما ينوف على سنة وبضعة أشهر.

(٢) ليس هذا غمدان القصر الجاهلي المشهور بل هو قصر آخر تسمى باسم ذلك مثل ما يطلق اليوم غمدان على البناية التي أعلى صنعاء وهو مستودع للحبوب والذخيرة ومحبس لذوي الجرائم والآثام والسياسيين.

(٣) بشار بكسر الباء الموحدة وبعدها شين معجمة وألف وراء بلدة في الشرق الشمالي من مدينة ذمار على بعد أربع ساعات فصاعداً وهي معدودة من مخلاف عنس قديماً واليوم من مخلاف الحدا ونسب اليها كثير من العلماء وأهلها عتاة أشقياء لهم في أطوار التاريخ حوادث ذات بال حتى في الزمن الحاضر ويوجد فيها كثير من الفواكه كالعنب وغيره وأما بشار بضم الباء الموحدة فهي قرية من قرى خولان العالية أعلى وادي قروي.

من أهله نحو ستمائة ولم يبق منهم إلا اليسير ثم عاد إلى اليمن وأمر بحصار حصن قيظان(1) وكان للسلاطين أسعد بن علي بن عبدالله الصليحي وأولاده فسلموه بعد تسعة أشهر وشرطوا أن يكون خرجهم إلى صنعاء إلى السلطان علي بن حاتم ورهنوا بذلك رهائن منهم ورهائن من سيف الإسلام على يد السلطان بشر بن حاتم(2) ثم تقدم سيف الإسلام إلى الدملوة فحاصرها سنة أربع وثمانين وكان بها جوهر المعظمي مولى الدعاة بني زريع وولد الداعي عمران بن محمد بن سبأ فلما رأى جوهر سيف الإسلام غير مقصر باع إليه الدملوة بعشرة آلاف دينار ملكية واشترط أن لا يطلع اليه نائب ولا ينزل هو من الحصن حتى يكون عيال سيدة وأموالهم قد جازوا البحر من أي موضع شاءوا فأجابهم سيف الإسلام إلى ذلك فلما وثق جوهر من سيف الإسلام وقبض المال جهز أولاد سيده من البنين والبنات إلى ساحل المخاء وتجهز هو معهم في زي امرأة وأخذ نفائس أمواله فركب في البحر هو وأولاد سيده وتوجهوا جهة الحبشة وترك

---

(1) قيظان تثنية قيظ يقع في منتهى جبل منار (بعدان) في جبل الشعر وهو الحد الفاصل بين مخلاف يحصب ومخلاف الشعر وبعدان ويسيطر على الطريق المؤدية إلى حقل قتاب للمجتازين من بعدان ويقال لنفس الطريق نجد قيظان وفجرة قيظان وفيه المثل العامي في الدعاء على إنسان « سدوا بك فجرة قيظان » ويقع في الشرق الشمالي من مدينة إب بمسافة نصف يوم.

(2) هو أحد سلاطين العرب وأساطين الأدب وأحد الدعامات التي ركزت قواعد دولة أبيه حاتم وأخيه السلطان علي بن حاتم، وكان بيده جنود وحصون، عالي الهمة عظيم الشأن رفيع المكان جوده يزري ابحر إذا طمى ويخجل الغيث إذا همى وله أولاد وأحفاد كانوا مثل الفضل والنبل ليوث وغى وغيوث ندى مع أدب غض طري وأخلاق أرق من النسيم وأعذب من التسنيم.

ولما مات السلطان بشر بن حاتم رثاه سبأ بن مفرح الثلاثي بقصيدة عصماء وجدت منها ما يلي:

هذه قواعد هجد يعرب ثلث … وذراه من فوق الكواكب خرت

ومنها في وصف جفنة بشر المعروفة بمغيثة:

من موسع الضيفان ترحيب … ـاً وتأهيلاً أمام قدومه بمغيثة
دهماً من ودك السديف وطالما … نهلت به مر الزمان وعلت
ما زال يملأها الثريد مكللاً … أشلاء كل كهاة برك انقت
فتخالها من وردها وصدورها … كسجال دولاب الطوى أمرت
وترى العيون تصب في أنحائها … لو أنها سقت الحضيض لأروت
هذه تصب وتلك ملقاة وتا … طلعت وذي أفلت وتلك تولت
فكأنها في القدر وهي تمجه … حبشية كسيت حلاً من فضة
لولا تراكم ما أقلته غداة … الفيض كان يقلها ما مجت
طخيا يسكنها وضوحاً ما حوت … كالهالة ارتشفت سنى فتجلت
كمقامه في يوم حذان الذي … فجأته خيل الغز فيه فأكدت

كاتبه في الحصن وترك عنده أوراقاً كثيرة قد كتب علامته عليها وكان النائب يكتب ما يحتاجه على تلك العلامات إلى سيف الإسلام وغيره ثم كتب جوهر بعد أن صار من وراء البحر كتاباً إلى سيف الإسلام وفي طيه كتاب إلى نائبه بالحصن بتسليم الحصن إلى سيف الإسلام قال سيف الإسلام للرسول أليس جوهر في الدملوة فقال إنه أول من نزل من الحصن فتعجب سيف الإسلام من كماله. ثم إن النائب امتنع عن تسليم الحصن وأخذه لنفسه فعظم الأمر على سيف الإسلام وعاود المحطة والحصار عليه ووصل اليه السلطان الأجل بشر بن حاتم وكان سيف الإسلام قد أمر نوابه بإكرامه في مسيره حتى وصل إلى تعز فأكرمه بها سيف الإسلام وأمده بأشياء نفيسة وخلع على جميع من وصل معه من همدان ثم إن النائب في الدملوة بذل تسليمها بعشرة آلاف ملكية على يد السلطان بشر بن حاتم وعلى أن يحمل هو وأولاده وما معه إلى صنعاء سالماً من كل ريب ففعلوا ذلك ثم تقدم الملك العزيز فطلع الدملوة فلما رجع بشر بن حاتم من عند سيف الإسلام عمر هو وأخوه السلطان علي بن حاتم الحصون وشحناها ورتبا في ذمرمر وكوكبان والظفر والعروس وبراش والفص[1] وحصن أشيح، وكان علي بن حاتم قد صالح سيف الإسلام سنتين على مائة وستين ألف دينار خاتمية ومائتي فرس فلما انقضى زمن الصلح سار سيف الإسلام يريد صنعاء فلما بلغ جهران[2] لقيه القاضي حاتم بن أسعد فطلب منه ذمة ويقلد عن السلطان علي بن حاتم بثلاثين ألفاً وثلاثين حصاناً ورهن بها رهائن عند سيف الإسلام وذهب إلى علي بن حاتم لتسلم المال فامتنع ولم يدخل في شيء من ذلك فرجع القاضي إلى سيف الإسلام متغير الخاطر وكان قد تقلد لسيف الإسلام تسليم المال وإلا شنق سيف الإسلام الرهائن فلما علم سيف الإسلام بامتناعه قال له احلف لنا وكن منا ونطلق لك الرهائن فحلف له وكساه سيف الإسلام وأطلق رهائنه وسار الملك العزيز إلى حصن أشيح فتسلمه بعد قتال ثم عاد إلى جهران ثم إلى صنعاء فأقام بها أياماً ثم سير إلى ذمرمر وإلى

---

(١) الفص يقع فيما أعتقد في جانب من ذي مرمر من بني حشيش الواقعة في الشرق الشمالي من صنعاء وأما بقية الحصون فقد تقدم الإيضاح عنها والله أعلم.

(٢) جهران تثنية جهر وهو أحد حقول اليمن الثمانية المشهورة الاخذ من قرية ضاف شمالاً حتى نهاية الضيق جنوباً بمقدار مسافة ثلاث ساعات ومن ذي خشران غرباً إلى ما وراء قرية رصابه أي بمسافة مثل الطول أو زيادة ساعة وهو خصيب التربة كثير الآبار والعيون التي على المساني ولو جدت له أيد عاملة لاستحال ذلك القاع الواسع روضة من الرياض الغناء وهو كثير القرى ومركز أعماله معبر وقبائله من حمير نسب إلى جهران بن يحصب بن دهمان بن مالك من ولد سبأ الصغرى ويقع في شمال مدينة ذمار بمسافة ساعتين ومن قرية ضاف شاعر معاصر يدعى ناجي محسن له أشعار على نمط الحميني سيارة ذكرناها في غير هذا التعليق واليوم قد ازدهر بضخ الآبار الجوفية وصار روضة غناء.

الفص وتقدم إلى بلاد حمير ثم إلى العروس فضيق عليهم فنزلت امرأة منهم ودخلت على سيف الإسلام بمولود تحت ثيابها لم يره أحد فقالت لسيف الإسلام إنا قد سمينا بك هذا المولود باسمك فنحب أن تهب لنا الحصن لأجله فكتب لهم بالحصن ولعن من غير عليهم فيه أو في أعماله وارتحل عنهم مسرعاً [1] ثم سار إلى الظفر فامتنعوا منه ثم عاد إلى صنعاء ثم نهض إلى الفص في جبل الظلمة [2] ثم أخذ الفص الصغير بعد ثلاثة أيام قهراً ثم تسلم الفص الكبير وكان السلطانان عمرو وعلوان ابنا بشر بن حاتم فيه فأجارهم سيف الإسلام ومن معهم في الحصن من الخدم والحريم واستولى على الحصن وأخرج حريم السلطان بشر بن حاتم إلى ذمرمر ولزم ولديه عمرو وعلوان فكتب عمرو بن بشر إلى والده كتاباً يقول فيه:

أمـولاي مـا أسرى ببـدع ولم يكـن ... كـذا النـاس مـأسـور وآخـر آسر
وإن ظفـر المولـى بنـا وبحصننـا ... فللـه مظفـور ولله ظـافـر
على ذا ممـر الدهـر عسـر مبـدل ... بيسر قضتـه حكمـة ومقـادر
فلا تحسبن أني جـزوع لما جـرى ... وحقك اني صادق العـزم صـابـر
ومـا أنـا أخشـى غير قـول أراذل ... أو الدهـم عـن فكهـم متقـاصر
ومـا شعـروا أن العظـائـم كلهـا ... الكبـار وإن هـالـت لـديـك أصاغـر
فسعـد على [3] ملـك همـدان يـرتجى ... وسعـدك أن تنجـاب عنـا الدوائـر

ثم إن السلطان سيف الإسلام حارب أهل الظفر ثم حط على كوكبان ورماه بالمجانيق فأخربته فوقع الخطاب على تسليم الحصن وعلى بقاء [4] علي بن حاتم في العروسين فكتب سيف الإسلام خطه بذلك وأعطاه بلاد معينة للعروس وأطلق له أمواله أينما كانت فلما تسلم سيف الإسلام حصن كوكبان عمل له عمرو بن علي ضيافة عظيمة فاستعظم سيف الإسلام صنيعه

---

(١) قلت والشيء بالشيء يذكر فمثل هذه القصة التي حكاها المصنف عن طغتكين ما حكاه ابن الأثير في تاريخه الكامل ج الثامن ص ١٠٩ - أن السلطان أرسلان واسمه محمد حاصر مدينة حلب سنة ٤٦٣ وضايق محمود بن صالح بن مرداس واشتد به الحصار على البلد وغلت الأسعار وعظم القتال وزحف السلطان يوماً وقرب من البلد فوقع حجر منجنيق في فرسه فلما عظم الأمر على محمود خرج ليلاً ومعه والدته «منيعة بنت وثاب النميري» ودخلا على السلطان وقالت هذا ولدي فافعل به ما تحب فتلقاهما بالجميل وخلع على محمود وأعاده إلى بلده فأنفذ إلى السلطان مالاً جزيلاً.

(٢) كان في الأصل المظلمة بالميم أول الحروف وهي بفتح الظاء وكسر اللام وفتح الميم والتصحيح من الأخ العلامة محمد بن الحسن بن المحسن الأكوع الحوالي الصنعاني رحمه الله بعد البحث بين أهل بلد بني حشيش الواقعة في الشمال الشرقي من صنعاء وهو جبل من حصن ذي مرمر.

(٣) المراد بعلي علي بن حاتم السلطان.

(٤) في الخزرجي على بقاء عمرو بن حاتم في العروس وهو المناسب لما يأتي بعده.

وقال ما رأينا كهؤلاء القوم نأخذ بلادهم وحصونهم ويلقوننا بالإنصاف ثم انتقل عمرو بن علي بأولاده ومن معه إلى العروس ثم نهض الملك العزيز إلى ذمرمر فحصره وكان فيه السلطان علي بن حاتم وكانت المحطة عليه من كل جانب وأقامت أربع سنين وحصل التعب عليهم من الحصار وعلى السلطان من كثرة الإنفاق ثم أمر سيف الإسلام مملوكه نوريان أن يصالح علي بن حاتم على أن يعطي كل سنة خمسمائة دينار وخمسمائة كيلجة[1] ولا يكون له بلد فأجاب وصالحه وحلف له على التمام فوفى له بالمبلغ المذكور وكان من شيمته الوفاء بما عقد به فلما تم ذلك شحن السلطان علي بن حاتم ذمرمر شحنة عظيمة أعظم من الأولى وتوفي الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب في شوال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وكان جواداً ممدحاً شجاعاً لا يمل الحرب منصفاً إذا تظلم اليه أحد وهو في موكبه أمسك فرسه ووقف حتى يكشف ظلامته[2] ودان له اليمن كله ودان له بنو حاتم بصنعاء ودخل الجوف وسور صنعاء وزبيد وعمر عدة حصون باليمن[3] ومعظم حصن تعز من عمارته ودوخ العرب وكان ينشد :

بسفك الدما يا صاحبي تحقن الدما ... وبالقتل تنجو كل نفس من القتل

وهو الذي قرر قواعد الملك باليمن فضرب الضرائب السلطانية وقنن القوانين وكان فقيهاً له مقروءات ومسموعات وهو الذي بنى مؤخر جامع زبيد والجناحين والمنارة واختط مدينة المنصورة[4] قبلي مدينة الجند وكان ابن عنين الشاعر[5] قد قدم على الملك العزيز

---

(١) الكيلجة مكيال معروف لذلك العهد.

(٢) هكذا الجبابرة يخدعون الجمهور بالبسمة العابرة والعدل الزائف ليلفت الأنظار ويتناقله العامة والسذج من الناس في حين ينهبون النفوس والأعمار ويهلكون الحرث والنسل ثم يشنونها دعايات نكراء هذا ضد أولئك الضعفاء المنكودي الحظ الذين ساقهم القدر إلى يدهم.

(٣) ومن مآثره الحمام المعروف بحمام السلطان بصنعاء وقيل إنه لغيره وكانت قصوره ببستان السلطان وإليه نسب ومن إصلاحاته تجديد حصن هران ذمار ولا زالت قطعة من البناء ماثلة من النوع المسمى الزابور تمثل القوة والمتانة لا تقطع فيها عيار المدافع الضخمة.

(٤) المنصورة اليوم بليدة تحتوي على بضع بيوت قروية وليس لها من ماضيها ما يلفت النظر، ولم يبق من آثارها لا عين ولا أثر وتقوم على نشز من الأرض في منتهى عزلة خنوة وتطل على واديها الجميل وتعد من ملحقات أعمال ذي السفال التي تبعد عنها بساعتين جنوباً وعن الجند في الشمال الشرقي بمقدار ثلاث ساعات وشرقي القاعدة بنصف ساعة وأقل، قال في التحفة « إن الملك العزيز بنى بالمنصورة داراً كبيرة وحماماً وبيوتاً للعسكر وأحيا واديها المعروف بخنوة وكان مسكن الوحوش وبنى بقرية خنوة دار مضيف » قلت وتسمى اليوم منزل خنوة وهو في شرقي المنصورة بمسافة ربع ساعة.

(٥) هو أبو المحاسن محمد بن نصر الدين بن نصر بن الحسين بن عنين الأنصاري الملقب شرف

سيف الإسلام طغتكين فمدحه وأجازه الجوائز السنية ولما رجع ابن عنين إلى الشام وقد توفي صلاح الدين وتولى ولده الملك العزيز [1] طولب ابن عنين بزكاة متجره فساءه ذلك فقال في ذلك :

= الدين الكوفي الأصل الدمشقي الشاعر المشهور .

كان خاتمة الشعراء الذين لم يأت بعده مثله ولا كان في أواخر عصره من يقاس به وكان غزير المادة من الأدب مطلعاً على معظم أشعار العرب وكان يستحضر كتاب الجمهرة لابن دريد في اللغة وكان مولعاً بالهجاء وثلب أعراض الناس وله قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً كثيراً من رؤساء دمشق سماها « مقراض الأعراض » وكان السلطان صلاح الدين رحمه الله قد نفاه من دمشق بسبب وقوعه في الناس فلما خرج منها قال :

فعلام أبعدتم أخا ثقة ... لم يقترف ذنباً ولا سرقا
أنفوا المؤذن من بلادكم ... إن كان ينفى كل من صدقا

وطاف بلاداً كثيرة وكتب من بلاد الهند لأخيه وهو بدمشق هذين البيتين والثاني منها لأبي العلاء المعري استعمله مضمناً وهما :

سامحت كتبك في القطيعة عالماً ... إن الصحيفة لم تجد من حامل
وعذرت طيفك في الجفا لأنه ... يسري فيصبح دوننا بمراحل

ومن جيد شعره القصيدة التي استعطف بها قلب الملك العادل لدخوله دمشق بعدما طالت غيبته مطوفاً بالبلاد وأولها :

ماذا على طيف الأحبة لو سرى ... وعليهم لو سامحوني في الكرى

ومنها مشيراً إلى النفي من دمشق :

فارقتها لا عن رضى وهجرتها ... لا عن قلى ورحلت لا متخيراً
أسعى لرزق في البلاد مشتت ... ومن العجائب أن يكون مقترا
وأصون وجه مدائحي متصنعاً ... وأكف ذيل مطامعي متستراً

ومنها في شكوى الغربة وما قاساه فيها :

أشكو إليك نوى تمادي عمرها ... حتى حسبت اليوم منها أشهراً
لا عيش يصفو لي ولا رسم الهوى ... يعفو ولا جفني يصافحه الكرى
أضحي عن الأحوى المربع محولاً ... وأبيت عن ورد النمير منفراً
ومن العجائب أن يقيل بظلكم ... كل الورى ونبذت وحدي بالعرا

وكانت ولادته بدمشق يوم الاثنين تاسع شعبان سنة ٥٤٩ وتوفي عشية نهار الاثنين لعشرين مضت من شهر ربيع الأول سنة ستمائة وثلاثين ، وعنين بالتصغير .

(١) قال ابن خلكان هو الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان بن السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب كان نائباً عن أبيه في الديار المصرية لما كان أبوه بالشام وتوفي أبوه بدمشق فاستقل بملكها باتفاق من الأمراء وكان ملكاً مباركاً كثير الخير واسع الكرم محسناً الى الناس معتقداً في أرباب الخير

ما كل من يتسمى بالعزيز لها أهل ولا كل روض سُحبه غدقه
بين العزيزين بون في فعالها هذاك يعطي وهذا يأكل الصدقه

وكان الملك طغتكين أول من جار على أهل النخل ورفق على أهل الزرع فلما دانت له البلاد تاقت نفسه إلى شرى جميع أراضي اليمن [١] وأن يؤجرها على من أراد حرثها كما هي عادة مصر فندب المثمنين لها فشق ذلك على أهل اليمن فاتفق رأي جماعة من الصالحين [٢] على أن يدخلوا [٣] مسجداً لا يخرجون منه إلا أن قضيت حاجتهم ففعلوا ذلك وأقاموا فيه ثلاثة أيام يصومون النهار ويقومون الليل فخرج أحدهم اليوم الثالث أو الرابع سحراً ونادى بصوت عال يا سلطان السماء أكف المسلمين سلطان الأرض فقال له أصحابه قليلاً قليلاً فقال قضيت الحاجة وحق المعبود [٤] قالوا كيف قال: سمعت قارئاً يقرأ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان، ولا تشكوا في قضاء الحاجة فتوفي طغتكين في ذلك اليوم في شوال من سنة ثلاث وتسعين كما تقدم ويقال إنه مات مسموماً وكانت مدة ملكه أربع عشر سنة

والصلاح وسمع بالاسكندرية الحديث من الحافظ السلفي وأبي الطاهر بن عوف الزهري وسمع بمصر من العلامة أبي محمد بن بري النحوي وغيرهم ويقال، إن والده كان يؤثره على بقية أولاده.

ولما ولد له الملك المنصور ناصر الدين محمد كان والده بالشام والقاضي الفاضل بالقاهرة فكتب إليه يهنئه « المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر دام رشده وإرشاده، وزاد سعده وإسعاده، وكنز أولياؤه وعبيده وإعداده واشتد بأعضاده فيهم اعتضاده، وأنمى الله عدده حتى يقال هذا آدم الملوك وهذه أولاده وينهي إن الله تعالى وله الحمد رزق الملك العزيز عن نصره ولداً مباركاً علياً ذكراً سرياً زكياً نقياً من ذرية كريمة بعضها من بعض وبيت شريف تكاد ملوكه تكون ملائكة في السماء ومماليكه ملوك في الأرض » وكانت ولادة الملك العزيز بالقاهرة في ثامن جمادى الأولى لسنة سبع وستين وخمسمائة وتوفي بها في الساعة السابعة من ليلة العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة.

(١) قال ابن الأثير في حق طغتكين وكان شديد السيرة مضيقاً على رعيته يشتري أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف يشاء وأراد ملك مكة أرسل الخليفة الناصر لدين الله إلى أخيه صلاح الدين في المعنى فمنعه من ذلك وجمع من الأموال ما لا يحصى حتى انه من كثرته كان يسبك الذهب ويجعله كالطواحين.

(٢) قال في التحفة هم الفقيه علي بن سالم من وادي عميد والشيخ دحمل من ذراع الأعمور وفقيه من الظرافة.

(٣) هو جامع ذي أشرق.

(٤) قلت ومما يضاهي هذه الحكاية ما ساقه ابن الأثير في تاريخه حيث قال حالة ينبغي للملوك أن يحترزوا عن مثلها ثم حكى قصته عن أبيه ما معناها أنه كان يتولى أعمال جزيرة ابن عمر لقطب الدين فلما كان قبل موته أمر بمساحة جميع بساتين « العقيمه » وكانت كثيرة وخراجها موزع على ثلاثة أصناف

وأشهراً يقال إن الشيخ علي بن أحمد المعلم سمه وكان يضمن منه المخلاف[1] بمال معلوم فعجز عن أدائه فصادره مصادرة منكرة فهرب وقبض سيف الدولة أملاكه وكانت جليلة في أماكن كثيرة فلما توفي وتولى ابنه المعز أعاد الشيخ عليا على المخلاف ثم بعد يسير أسره وهدم دوره ثم شنقه أول سنة ست وتسعين وخمسمائة وكان ابن المعلم كريماً شريف الهمة[2] وكانت وفاة طغتكين بالمنصورة التي أسسها وقبر بحصن تعز فأقام القراء يطلعون للقراءة عليه سنة فلم تطب نفس ولده المعز بطلوعهم فاشترى دار سنقر الأتابك وجعلها مدرسة ونقل والده إليها ووقف على تربته وادي الضباب[3] ، وتعرف المدرسة التي قبر فيها السيفية[4]

= بعضها يمسح وعلى كل جريب شيء معلوم وبعضها عليه خراج وبعضها مطلق عن الجميع وكان له ملك كثير وكان يرى أن من المصلحة أن لا يغير على الناس شيئاً وليس من أجل نفسه بل غرض إدامة الدعاء لله وله فتكرر الأمر بالمساحة فأظهر الأمر على الناس ليخرج من المسئولية وكان بالقرية المذكورة قوم صالحون له بهم أنس ومودة فجاءه الناس وأولئك معهم يطلبون المراجعة فاعلمهم أنه قد فعل ولم يجب إلى ذلك ثم جاءه رجلان يعرف صلاحها وطلبا منه معاودة المراجعة وطفق يعتذر إليهما فقالا ما جئنا لذلك وإنما جئنا نعرفك أن حاجتنا قضيت من السماء ولكافة أهل العقيمة ونظن أن هذا مما حدث به نفوسها فلم تمض عشرة أيام إلا وقد جاء كتاب من الموصل يأمرونه بإطلاق المساجين والمحبوسين ورفع المكوس والتصدق ويقال إن السلطان قطب الدين مريض في حالة شديدة ثم بعد يومين جاء الخبر بوفاته فعجب من قولها واعتقد كرامتها ولا زال يكثر إكرامها واحترامها ومزاورتها.

(١) المراد بالمخلاف هو مخلاف جعفر المشهور بالاقليم الأخضر.

(٢) أصل وطن الشيخ علي بن أحمد بن المعلم من ذي الكلاع من قرية « حدبة » بالفتح والتحريك معروفة إلى يومنا هذا من أودية عنه غرب مدينة إب، وكانت قصوره بمدينة ذي جبلة ومن أخبار جوده وكرمه ما حكاه الخزرجي عن الجندي: أن حميد المؤذن بذي جبلة وكان من أعيانها قال: دخل علينا شهر الحجة ونحن على فراغ من النفقة فضقت ذرعاً وقلت الناس يصفون ابن المعلم بالكرم والسخاء وأنا محتاج في هذا العيد لما لا بد منه فكتبت إليه رقعة أسأله فيها عشرة أذهاب ذرة وخمسة أذهاب براً وقلت إذا لم يحصل منه الطعام فالأضحية تحصل من وجه آخر إن شاء الله فلما جئته بالورقة وجدته قاعداً في دهليز داره فلما ناولته الورقة عبس وأعرض عني فخرجت وأنا ألوم نفسي وأقول ما أكذب الناس فأمر من لحقني فردني فلما جئت اليه أدناني منه وقال سبحان الله « المقري حميد » المقري حميد اسم كبير وهمة ضعيفة يصل ويسألني قدراً حقيراً فناولني رقعة وقال أكتب بجميع ما تحتاجه للعيد فكتبت ثماني ذهب بر وبرأس غنم ورأس بقر وكسوة لي ولأولادي فحين نظر فيها السفر وجهه وكتب إلى نائبه بجبلة بإطلاق ما سألته معجلاً ولما وصلت الى النائب بالورقة بادر بتسليم جميع ذلك.

(٣) الضباب بالفتح واد معروف في غربي مدينة تعز من أعمال جبل صبر وتبعد عنها بمسافة أربع ساعات وفيه غيل جار يسقي الحروث والزروع التي منها شجرة البن.

(٤) لا يعرف مكان هذه المدرسة.

نسبة إليه رحمه الله تعالى ثم تولى اليمن بأسره ولده المعز إسماعيل بن طغتكين وكان أكبر أولاده وكان أبوه يعول في كثير من الأمور عليه فظهر لأبيه منه الخروج عن مذهب أهل السنة والتشيع فطرده فخرج مغاضباً لأبيه يريد بغداد فتوفي أبوه بعد خروجه بيسير فبعث بعده أعيان دولته النجب فأدرك بالمخلاف السلماني [١] فرجع إلى زبيد ثم طلع تعز ثم جبلة.

وفي السنة التي توفي فيها طغتكين كان قيام الإمام عبد الله بن حمزة الحسني [٢] وكان من الأئمة المعظمين له التصانيف العجيبة في فنون العلم وكان محيطاً بعلم الأدب قيل إنه كان يحفظ من أشعار العرب مائة ألف بيت.

وفي أول سنة أربع وتسعين وخمسمائة صار المعز إلى صنعاء وقتل مملوك ابنه أنوريا وكان قد سلطنه طغتكين ثم عاد إلى اليمن وراسل السلطان علي بن حاتم واتفق الأمر بينهما على أن يكون علي بن حاتم في طاعته ويعطيه صنعاء وحلف له على ذلك فنزل اليه بشر بن حاتم وولده حاتم وولده عمرو بعد وصول الذمة فأمسكهم وطلع بهم إلى الحقل [٣] وقصد

---

(١) وفي معجم البلد أن لياقوت الحموي رحمه الله في مادة «أم حنين» أن طغتكين أنكر على ولده أمراً أوجب طرده عن بلاد اليمن ووكل من أوصله إلى «حلي» فلقيه المحتنى الشاعر هنالك فمدحه بقصيدة فلم يتسع ما في يده لإرفاده فوقع على رقعته البيتين المشهورين:

كفي سخيٌّ ولكن ليس لي مال ... فكيف يصنع من بالقرض يحتال
خذ هاك خطي إلى أيام ميسرتي ... دين علي فلي في الغيب آمال

فلم يرحل عن موضعه حتى جاءه نعي والده فرجع إلى اليمن وملكها وأفضل على هذا الشاعر وقربه.

(٢) هو أمير المؤمنين الإمام الأعظم المنصور عبد الله بن حمزة بن سليمان بن علي بن حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم الحسني الرسي وبقية النسب معروف مشهور.

وقد خلط ياقوت فتارة ينفي نسب الإمام من هذه السلسلة الذهبية وتارة ينسبه الى أحمد بن الحسين كما أنه كان ينبز الإمام بالخارجي لأنه خرج على الخلافة العباسية التي يعتقد أنها الخلافة الشرعية.

ولد الإمام بقرية عيشان من ظاهر همدان لإحدى عشرة بقيت من ربيع الأول سنة ٥٦١ إحدى وستين وخمسمائة ووفاته سنة ٦١٤ أربع عشر وستمائة ودعوته سنة ٥٩٣ فكانت مدة حياته ثلاثاً وخمسين سنة ومدة خلافته إحدى وعشرين سنة وله سيرة تحتوي على مجلدين لجامعها العلامة علي بن نشوان الحميري بجميع أحواله وحركاته وسكناته وهي عزيزة الوجود لم أطلع عليها وأخرى لأحد معاصريه وقد استوفينا الكلام عنه في التاريخ الكبير ولما دنا موت الإمام أوصى بأشياء ومن جملتها أنه جعل بيوت ظفار وأرضها كمكة المشرفة ومات بكوكبان ونقل إلى حصن بكر ثم نقل إلى ظفار شوابة حيث كان مستقر مضجعه الأخير.

(٣) لعله حقل قتاب قاع الحقل.

كوكبان فصادف الإمام عبدالله بن حمزة ومعه الأمير جكوا في مائتي فارس فلما تراءى الجمعان دخل الأمير جكوا في صف المعز وثبت جكوا في ذلك اليوم ثباتاً حسناً إلى أن قتل وانكسر الإمام، ودخل المعز صنعاء ثم خرج إلى ذي جبلة وأمر بخراب دار العز [١] وكان المعز شجاعاً كريماً متلافاً لا يمسك شيئاً يقال إنه أصطبح ثلاثة أسابيع فأعطى فيها فحسب ذلك فكان ستة عشر لكا [٢] وهذا غاية الجود وكان شاعراً بليغاً:

وإني أنا الهادي الخليفة والذي ... يقود رقاب الغلب بالضمر الجرد
ولا بد من بغداد أطوي ربوعها ... وأنشرها نشر السماسر للبرد
ويخطب لي فيها على كل منبر ... وأظهر دين الله في الغور والنجد
وأنشر دين الله بعد خموله ... وأعلن ما قد كان أسسه جدي [٣]

ثم أظهر مذهبه القبيح والمستنصر به أهل مذهبه فطمعوا في سقوط مذهب أهل السنة وغلب عليه الشح على الجند والكرم على الشعراء والمتمسخرين ثم تولع بذبح بني آدم وأكلهم حتى ان الأتابك دخل عليه يوماً فقام بين يديه فقال له المعز ما أحسن أضلاعك هذه شواء فخدم له ثم قال حاشاك يا خوند [٤] ثم لم يشك أنه يريد ذبحه فلما خرج من عنده هرب ولم يعد بعدها وبنى المعز في زبيد مدرسة الميلين [٥] ووقف عليها وقفاً جيداً والسيفية بتعز ووالده مقبور فيها، وهو أول من بنى من الغز مدرسة في اليمن ثم ان المعز ادعى الخلافة [٦] وانتمى

---

(١) هي دار العز التي بنتها الملكة السيدة بنت أحمد الصليحي وهذا دأب المهووسين المخربين.

(٢) لم أجد في القاموس ولا غيره مقدار اللك ولعله معيار من الجلود كالقنطار أو غيره والكلمة هندية.

(٣) ومن ذلك ما صنعه على لسانه ـ الشاعر أحمد بن محمد الأشرقي من ذي أشرق:

قسماً بالمسومات العتاق ... وبسمر القنا وبيض الرقاق
وبجيش أجيش تحسب بحراً ... موجه السابغات يوم التلاقي
لتدوسن مصر خيلي ورجلي ... ودمشق العظمى وأرض العراق

(٤) كلمة أعجمية لا أدري ما معناها بعد التفتيش في المعاجم التي بين يدي وقيل: الخوند اسم الملك.

(٥) لا تعرف الآن ولعل الدهر قد أكل عليها وشرب.

(٦) قال ياقوت في مادة شخب، ان السبب الذي دعا المعز إلى التسمي والانتماء إلى بني أمية أنه نازل حصني «كهال» و«شخب» قلت وهما من ذي رعين في آل عمار جنوب مدينة ذمار بمرحلة ونصف ليأخذه من مالكه فامتنع عليه يومين أو ثلاثة إذ نزلت صاعقة بمن فيه فأهلكت مالكه ومستحفظه وجماعة غيره فاضطر من بقي منهم إلى التسليم بالأمان ثم انتقل إلى الآخر فجرى أمره على ذلك من نزول الصاعقة بصاحبه ثم اضطر من بقي منهم إلى تسليمه بالأمان فأكسبه ذلك طغياناً ادعاه إلى دعوى الخلافة بعد أسباب جرت بينه وبين الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء.

إلى بني أمية في النسب وإنما نسب بني أيوب في قيس عيلان[1] من مضر وخطب له بأمير المؤمنين ووصلت كتب أعمامه من مصر ينكرون عليه غاية الإنكار فلم يلتفت إلى ذلك وكان الإمام عبد الله بن حمزة عاضداً للسلطان علي بن حاتم مصافياً له وجرت بينهما عهود : أن الإمام إذا تمكن من البلاد ومن صنعاء ترك حصون السلطان علي بن حاتم جميعها له وتكون صنعاء بينهما نصفين فلما ملك الإمام صنعاء صده أصحابه عن الوفاء لعلي بن حاتم وتكلموا عليه فصرفوا الإمام عما عقد له به فلما رأى علي بن حاتم ذلك لزم حصنه ذمرمر إلى أن توفي في سنة سبع وتسعين وخمسمائة وكان من المعز أنه ظلم الرعايا والجند وأخاف مماليك أبيه وهرب منهم طائفة وكان معظم جنده الأكراد فاتفقوا على قتله وكان يلبس لباس الخلفاء القمصان ذوات الأكمام الطوال التي تسمى الثمانية والعشارية يكون طول الكم ثمانية أو عشرة أذرع بحيث ان الملك قد يرسل كمه من الروشن إلى الأرض فيقبله الغلمان نيابة عن يده فخرج المعز يوماً من زبيد يريد القوز[2] على بغلة وعليه جبة مسبلة على يديه وخلفه حصانه مجنب فهجم عليه الأكراد عند مسجد شاته[3] قبلي مدينة زبيد فقاتلهم بمقرعة في يده ساعة من النهار فدعا بالجنيب فحالوا بينه وبينه واحتوشته الخيل من كل مكان فاستل سيفه فكان كلما أراد الضرب انسدل عليه الكم[4] فلم يزل على البغلة حتى قتل هو ومملوكه شرف الدين الحبشي في رجب من سنة ٥٩٨ ثمان وتسعين وخمسمائة وقبره بشرقي مدينة زبيد في قبة هنالك تعرف بقبة الخليفة[5] وكانت مدة ملكه خمس سنين تقريباً ولما قتله الأكراد نهبوا أهل زبيد نهباً شديداً وكان الأمير سيف الدين سنقر هارباً من المعز في حصون حجة[6] فلما قتل المعز وصل الأتابك إلى مولاه الناصر بن طغتكين

---

(١) أبو قبيلة معروفة مشهورة حتى وقتنا هذا ومساكنهم في نجد والحجاز وما صاقبها ولا صحة لهذه الدعوى وإن كان ابن خلكان وغيره قد نسب الأيوبيين إلى الأموية فالناس يتقربون إلى الملوك بكل ما يروج عندهم.

(٢) القوز محلة في ظاهر زبيد معروف لهذا التاريخ.

(٣) قال الخزرجي على ميلين أو ثلاثة أميال من مدينة زبيد على طريق القاصد الى الطريق الشامية وشاته بالشين ثم تاء مثناة من تحت ثم هاء كذا في الأصل وفي « خ » شاشه بشينين معجمتين وبقية الحروف كالأول. وهو اليوم خراب.

(٤) وفي « خ » كمه.

(٥) لا تعرف اليوم.

(٦) حصون حجة كثيرة إذ هي كتلة تتألف من هضبات وآكام وقلاع وحصون شامخة وربما يأتي البعض منها وأما حجة فهي بفتح الحاء المهملة بعدها جيم وهاء بليدة وسوق لهمدان قرب متوسط جبال السراة وتقوم على سفح قلعة تسمت قريباً بالقاهرة وتكتنفها هضبتان هذه القلعة من الشمال ومن

وكان طفلاً والأتابك هو الذي رباه ولهذا قيل له الأتابك لأن هذه الكلمة توضع لمن يربي أولاد الملوك خاصة وكان الناصر المذكور في حصن تعز فأعيدت الخطبة لبني العباس بعد قتل المعز وكان سيف الدين سنقر شجاعاً حسن السياسة فكاتب الأكراد وصالحهم وأقطع الأمير علم الدين ورد سار صنعاء والأمير حسام الدين يكتمر السيفي[1] تهامة ما خلا زبيد والكدري وكانت عسكر الناصر يومئذ ثلثمائة مملوك وأربعمائة جندي ثم خالف أهل صنعاء على ورد سار ولزموا من كان فيها من الغز فحط عليهم ورد سار من شرقيها ثم وصل شرف الدين إلى المخلاف[2] في سنة ٥٩٩ تسع وتسعين وخمسمائة وفيها نقض الأكراد الصلح واستبدوا بملك زبيد وما وراءها من التهائم فأمر سيف الدين سنقر نائبه ورد سار بمصالحة الإمام ونزوله إليه لقصد الأكراد ففعل وخرج من صنعاء في جيش كثيف وجمع الأتابك ووصل الجميع يريدون الأكراد فخرجت الأكراد إلى القرتب وصفوا هنالك واقتتلوا قتالاً شديداً فتضعضع عسكر الأتابك وثبت الأمير علم الدين ورد سار حتى عاد الأكراد إلى مصافهم ثم انهزمت الأكراد فقتل منهم مقتلة عظيمة وحيل بين الباقين وبين زبيد واستولى الأتابك من يومئذ على زبيد والتهائم بأسرها ، قال الجندي : وفي سنة ستمائة نزل من السماء رماد أبيض بزبيد ونواحيها يوماً وليلة وأظلمت الدنيا وخاف الناس ثم نزل بعد ذلك رماد أسود وحصلت أراجيف وزلازل وكان قد خرج جماعة من أهل زبيد إلى

الجنوب الشرقي قلعة نعمان التي فيها بضع بيوت ومن الغرب الشمالي هضبة تسمى الحسوة وعلى هذا فهي في فجوة لا يرى منها شيء إلا جزءاً يسيراً من الشرق وأما جبالها فتطل من غربيها على تهامة وقد يرى منها أيام الصحو خضرة البحر ومن الشمال تبصر جبال خولان صعدة وشهارة وبلاد عذر وهنوم وكثيراً ما يغطيها الضباب الذي يسمى العميان ، فتظل معصبة بالغمام المصحوب بالصقيع والرذاذ لا سيما من شهر تشرين ثاني وكانون حتى شهر آذار ويتولد منه البراغيث الكثيرة المؤذية وأصيل جبال حجة يخلب الألباب تفنن فيه الشعراء الذين نفوا اليها ولم يحضرني من ذلك شيء وقد اكتسبت شهرة في عصرنا أكثر من ذي قبل لأنها أصبحت رمزاً للشقاء والبؤس ، وهي قديمة ذكرها الهمداني ونسب إلى حجة بن أسلم بن عليان بن زيد بن عريب بن جشم بن حاشد .

(١) كذا صححناه وفي الأصول خبط .

(٢) كذا في الأصل و « خ » وفي الخزرجي ما نصه ووصل سيف الدين سنقر الأتابك إلى صنعاء يوم الخميس السادس من شهر رجب في جيش عظيم فتودد إليه أهل صنعاء فدخلها يوم الجمعة السادس من الشهر المذكور ولزم والي براش يوم الحادي والعشرين من شهر شعبان ، وقبض حصن فدة من واليها أيضاً وعاد الأمير سيف الدين سنقر الأتابك الى المخلاف فما في الخزرجي هو الأصح لسوق الحوادث وترتيبها على نسق وكذا في نسخة أخرى بلفظ سيف الدين .

المجري [١] فلم يمكنهم الرجوع إلى بيوتهم من شدة الظلمة وكان فيهم رجل أعمى فقال من أعطاني زبديا [٢] من الطعام أديته إلى بيته بزبيد أينما كان فالتز موا له بذلك فقاد كل واحد منهم الى بيته وحصل طعاماً كثيراً وفي سنة ٦٠٥ خمس وستمائة قتل الأمير سيف الدين سنقر أهل براقش [٣] وتصاول الإمام عبدالله بن حمزة وعلم الدين ورد سار على اليمن مصاولة عظيمة وكانت بينهم وقائع شديدة منها يوم نصف [٤] وفيه قتل ابراهيم بن حمزة أخو الإمام عبدالله بن حمزة وفي ذلك يقول:

روعنــي الدهــر بـأحـداثــه ... وليـس مثلي مـن شبـاهـا يـراع
يــروم إنــزالي على حكمــه ... وإنمـا يفعــل ذاك اليــراع
تعــد عنـي والتمـس غيرنــا ... وخـص بـالـرعـب قلـوب الرعـاع
فنحـن مـن قـوم إذا أغضبـوا ... تلبثـوا واستـلأمـوا للمصـاع
كم مـوقـف خضنـا بحـار الردى ... قـدمـاً ولم ينصـب علينـا شراع
ومعـرك كنـا لأعـدائـه ... فيـه زعـاف الموت مـا إن يضـاع
ونحـن مثـل النصـف أو دونـه ... منهـم وقـد سلـوا سيـوف القـراع
نصبـر للمـوت وردعـاتـه ... إذا نفـوس الصيـد طـارت شعـاع
سل عـن أبي إسحـاق أعـداءه ... وغيرهـم فـالحرب فـاش مـذاع
يـوم تـولى جيشـه معـذراً ... فـإنما يـدفـع مـا يستطـاع
ألـم يصمـم غيـر مستسلـم ... تصميم سـامـي الطـرف عبـل الذراع
نحـن بنـو الحـرب إذا شمـرت ... ولاح عنـوان سنـاهـا وضـاع
وإنمـا أوقفنـا مـوجـب ... بـاد وقـد يطـرق قلـب الشجـاع

(١) المجري بالجيم موضع خارج باب سهام قبلي مدينة زبيد كما أفادني به العلامة الفاضل عبد الرحمن بن علي فاضل الأنصاري الزبيدي رحمه الله.

(٢) مكيل معروف واليوم يطلق عليه في زبيد على إناء من الفخار ويستعمل من الأطعمة للأكل منه.

(٣) براقش بالباء الموحدة مفتوحة وآخره شين معجمة أحد محافد اليمن الشهيرة التي استهوت هواة الآثار ومطلمح الباحثين ذات المدنية الغابرة وحضارة معين التي ازدهرت في سالف الأيام الغنية بالنصوص والآثار الممثل فيها العظمة والأبهة والمجد راجع اليمن الخضراء مهد الحضارة ص ٣٥٧.

(٤) نصف موضع في بلد نهم شمال مدينة صنعاء.

ومنها يوم عقار[١] وهو موضع في البون الأعلى ويوم في بلاد ذمار وهو الذي قاد الغز عيسى ابن ذعفان صاحب شوابه[٢] وفي ذلك اليوم يقول الإمام عبد الله بن حمزة:

قفـا فـانظـرا فـالعين تغني عــن الأثــر ... ولا تســألا بعــد العيــان عــن الخبر
وقــولا لأربــاب الضلالــة مــا الذي ... حــداكم إلى ســوق النفــوس إلى سقــر
ألم تعلمـــوا أن المحكـــم عقلـــه ... عليم بما يـــــأتي عليم بما يـــــذر
بعثنـــا إلى ذعفـــان سيفين للـــوغـــى ... فقـــالا لهم عنـــد التصـــادم ولا وزر
فطـاروا وبيـض الهنـد تـأخـذ منهـم ... وبيـض العـوالي في الخواصر والثغـــر
وأحجـم عنهـم ورد ســار ولم يكـــن ... يحجـم إلا عــن مقــام لــه خطــر

ولم يزل الحرب سجالاً بين الإمام عبد الله بن حمزة وبين الأمير ورد سار حتى اصطلحا على أن الإمام يعطي الأمير ورد سار كل سنة مائة حمل موقرة حديداً من صعدة[٣] وعشر أفراس وعلى أن يكون البون الأعلى والأسفل للأمير ورد سار، والظاهران والجوف وصعدة للإمام فاستمر الأمر على ذلك إلى أن توفي ورد سار بحصن السمدان سنة عشر وستمائة، ولما توفي الأتابك سنقر سنة ثمان وستمائة وهو الذي بنى جامع المغربة[٤] بتعز وعمل المنبر الذي فيه ابتنى مدرستين بزبيد العاصمية والدحمانية نسبة إلى مدرسيها دحمان[٥] الأولى للشافعية والثانية للحنفية وبني جامع خنفر والصفين والجناحين والموخر في مسجد الجند ومدرسة بذي هزيم[٦] من نواحي تعز وبها قبره والزبدي السنقري ينسب إليه، ومات الأمير ورد سار بعده في التاريخ المذكور، واستوزر الملك الناصر بن ظغتكين بدر الدين غازي بن جبريل فحمل الناصر على الطلوع إلى صنعاء لقتال الإمام عبد الله

---

(١) عقار بفتح العين المهملة والقاف آخره وراء قرية قائمة في البون الأعلى.

(٢) شوابه بضم الشين المعجمة بعده واو وألف ثم باء موحدة وهاء واد مغيول وبي يقع بين جبال ومضايق وينحدر ماؤه إلى الجوف وسيأتي له مزيد ذكر.

(٣) كان الحديد يستخرج من بلد صعدة بصورة مستكثرة لعهد قريب ويستعمل منه جميع الآلات الحديدية وكان موصوفاً بالجودة وقد اكتشف في عصرنا جملة معادن في صعدة وأحوازها حتى قيل إن الأورانيوم موجود هناك بكثرة زائدة.

(٤) المغربة معروفة لهذه الغاية وكلها خرائب وأطلال بما فيها مدارسها وجوامعها وتقع من تعز اليوم في الجنوب الشرقي صعوداً في أسفل صبر وقد دبت اليها الحياة اليوم.

(٥) عبارة الخزرجي وبنى مدرستين في زبيد وتعرف أحدهما بالعاصمية نسبة إلى مدرسها الفقيه عمر ابن عاصم إلى أن قال والأخرى بالدحمانية نسبة إلى مدرسها الفقيه علي بن دحمان وفي خ ساقط لفظ دحمان.

(٦) تقع غربي تعز وقد امتد اليها العمران.

ابن حمزة فطلع في جيوش عظيمة بأموال جمة[١] فلما استقر بصنعاء سمه وزيره غازي المذكور فتوفي هنالك[٢] وحمله إلى تعز فقبره في القبة التي هي من قبلي نعز[٣] وطلع غازي في الملك وحالف العسكر واستولى على المملكة ونزل من صنعاء فلما وصل السحول أحاطت به العرب فنهبته فوصل إلى إب في جماعة من خواصه وكانت أم الناصر بن طغتكين في حصن حب فطلع مماليكها إليها فسفهتهم وحملتهم على قتل غازي فهجموا عليه في مدينة إب فقتلوه واحتزوا رأسه وطلعوا به وقبر في باب جثة بلا رأس[٤] وكان قتله بعد ثلاثة أيام من قتل الناصر وقيل بعد وفاة الناصر بسنة[٥].

ولما توفي الناصر سنة ٦١١ إحدى عشر وستمائة استولى آل حاتم بن أحمد على حصن بيت نعم[٦] وحصن فده وحصن الظفر والفص والمصنعة[٧] وسار الإمام عبد الله بن حمزة الى صنعاء فدخلها ثم خرج الغز منها إلى براش وسار سليمان بن موسى الحميري[٨] من ذمار في عسكر جرار فأخذ لحجاً وقدم الملك المعظم سليمان بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب المعروف بالصوفي حاجاً مع جماعة في زي الصوفية فاستدعته أم الناصر بن طغتكين وكانت

---

(١) وفي الخزرجي وطلع بأموال جمة وكان خروجه من تعز إلى صنعاء يوم السبت مستهل ذي الحجة سنة عشر وستمائة.

(٢) وكانت وفاته في ليلة الجمعة الثاني عشر في المحرم سنة إحدى عشر وستمائة.

(٣) قال الخزرجي وهي باقية إلى عصرنا هذا على يمين السائر إلى التهائم.

(٤) هذه إحدى الروايات وإليك نص الخزرجي «وخرج من صنعاء يريد تعز وحمل الناصر معه بعد أن طلاه بالمستمسكات فلما صار في ناحية السحول وثب عليه مماليك الملك الناصر فقتلوه فكان يوم الأربعاء الرابع عشر من المحرم المذكور من السنة المذكورة» قاله الحاتمي في العقد الثمين وقال الجندي بل خرج عليه العرب فقتلوه ونهبوه الخ الرواية التي في الأصل قلت وعلى رواية الخزرجي أن معنى هذه الرواية أن بين قتل الناصر وقتل غازي ثلاثة أيام بل أقل وهذا لا يتصور إذ ان المسافة بين صنعاء وإب ست مراحل، ولعل قبر غازي هذا هو المعروف عند أهل إب بقبر طغتكين خارج مدينة إب ببضع دقائق في الجنوب الغربي قرب حول ولى التي قد صارت اليوم بنايات.

(٥) أنا أميل إلى أن قتل غازي بعد سنة من قتل الناصر وهو الذي يقبله العقل وهو كذلك في النسخة المنقطعة.

(٦) بيت نعم من مخلاف مأذن أعلى وادي ضهر وهو اليوم خراب والقائم العمارة قرية بيت نعم يقام فيها سوق، وبيت نعم أيضاً في بني مطر بني شهاب.

(٧) قد تقدم ذكر الحصون المزبورة والمصنعة قريتان صغيرتان مقتبلتان في ربع بني مكرم من همدان الصغرى وهنالك حصن خراب يحمل هذا الاسم وتقع في الغرب الشمالي بنصف يوم من صنعاء.

(٨) لا أعرف عن سليمان هذا شيئاً.

في حصن تعز فقالت إنا نخشى العرب تطمع فينا ونحن نساء لا حيلة لنا وقد ساقك الله إلينا فقم بملك ابن عمك واستول على ملك اليمن فأجاب فأطلعوه الحصن وحلف له الجند وجلس على سرير الملك وكان ذلك في ربيع من السنة المذكورة سنة ٦١١ إحدى عشر وستمائة فقام بالملك قياماً ضعيفاً واشتغل باللعب واللذات والنساء حتى تضعضع الملك وكان إذا سكر يركض ويرقص ويقول:

أنا مشغول بأيري أنظر للملك غيري

وفي أيامه قتل من الغز نحو مائة فارس عند أكمة تعرف مجمعة (١) واستولى الإمام عبد الله ابن حمزة على صنعاء وذمار وكوكبان.

ولما بلغ الملك العادل أبا بكر بن أيوب (٢) ما جرى في اليمن من قتل المعز وسم ابن أخيه

---

(١) هذه الجملة في الأصل كلها لم تفهم ولا عرفت بعد موقعها رغم البحث وفي خ مجمعة.

(٢) هو أبو بكر محمد بن أيوب بن شادي بن مروان الملقب بالملك العادل سيف الدين أخو صلاح الدين كانت ولادته في المحرم سنة أربعين وقيل ثمان وثلاثين وخمسمائة وتوفي في سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة ودفن بقلعة دمشق كان ينوب عن أخيه صلاح الدين في مصر إذا غاب عنها في الشام ويستدعي من الأموال للإنفاق في الجند وغيرهم فتأخر مرة منه المال فأمر صلاح الدين العماد الأصبهاني أن يكتب إلى أخيه الملك العادل يستحثه على إنقاذها حتى قال يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله فلما وصل الكتاب ووقف على هذا الفصل شق عليه وكتب إلى القاضي الفاضل يشكو من السلطان لأجل ذلك فكتب القاضي الفاضل وفي جملته وأما ما ذكر المولى من قوله يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله فتلك لفظة ما المقصود منه بها من الملك النجعة وإنما قصد بها الكاتب السجعة وكم من لفظة فظة وكلمة فيها غلظة حيرت عي الأقلام وفسدت خلل الكلام وعلى المملوك الضمان في هذه النكتة وقد فات لسان القلم سها أي سكة وقد جرت قوارع الاستحثاث وصرصر البازي وقوت نفس العماد قوة نفس البحاث والسلام وبعد أمور يطول شرحها ملك مع الديار المصرية الديار الشامية والشرقية وصفت له الدنيا ثم ملك اليمن ولما تمهدت له البلاد قسمها بين أولاده وظل يتردد بينهم وينتقل إليهم من مملكة إلى أخرى وكان في الغالب يصيف بالشام لأجل الفواكه والثلج والمياه الباردة ويشتي في الديار المصرية لاعتدال الوقت فيها وقلة البرد وعاش في أرغد عيش وكان يأكل كثيراً خارجاً عن المعتاد حتى يقال إنه يأكل وحده خروفاً لطيفاً شوياً وكان له في النكاح نصيب وحاصل الأمر أنه كان ممتعاً في دنياه ملكاً عظيماً ذا رأي ومعرفة تامة قد حنكته التجارب حسن السيرة جميل الطوية وافر العقل حازماً في الأمور صالحاً محافظاً على الصلوات في أوقاتها متبعاً لآثار السنة مائلاً إلى العلماء حتى صنف فخر الدين الرازي كتاب تأسيس التقديس وذكر اسمه في خطبته وسيره إليه من بلاد خراسان وبأكمله أنه كان رجلاً مسعوداً ومن سعادته أنه خلف أولاداً لم يخلف أحد من الملوك أمثالهم في نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلومهم ودانت اليهم العباد وملكوا أخيار البلاد.

الناصر جهز ابن ابنه الملك المسعود صلاح الدين[١] بن الكامل بن العادل في جيوش عظيمة وأموال جليلة وحالة كبيرة وكان يومئذ في سن البلوغ وجعل أتابكه ومدير ملكه جمال الدين فليت فوصل زبيد في أول سنة اثنتي عشرة وستمائة فأرسل إلى سليمان بن تقي الدين إلى تعز يخاطبه بالصلح على أن يكون الجبال له والتهائم للمسعود فلما سمع بذلك الأمير بدر الدين حسن بن علي رسول الغساني نزل من تعز ودخل على المسعود وآنسه وقوى عزمه وحثه على الطلوع إلى تعز وأن يلزم خدام حصن تعز قبض سليمان بن تقي الدين ففعل ذلك وأمسكه خدام سليمان ثم طلع المسعود الحصن واستولى على اليمن وحظي عنده الأمير بدر الدين وأخوته حظوة عظيمة ثم تزوج الملك المسعود ببنت الأمير سيف الدين سنقر الأتابك المعروف ببنت جوزة وشغف بها شغفاً شديداً وأرسل سليمان بن تقي الدين مقيداً إلى مصر.

وفي ربيع من السنة المذكورة خرج الإمام عبد الله بن حمزة من صنعاء إلى كوكبان هو وجميع أصحابه بعد أن خرب صنعاء والدار السلطانية[٢] فتعطلت صنعاء ثم رجع بعض أهلها إليها فأغار عليهم أخوه الأمير يحيى بن حمزة وفيها جماعة من العرب والغز وسبى جميع من فيها من النساء والأولاد من العرب والعجم[٣] فطلع الأمير جمال الدين الأتابك فليت

(١) اسمه يوسف يعرف بأطسيس ـ بفتح الهمزة وسكون الطاء المهملة وكسر السين المهملة وبعده ياء مثناة من تحتها ثم سين ثانية وهي كلمة تركية معناها بالعربية ما له اسم ويقال إنما سمي بذلك لأن الملك الكامل ما كان يعيش له ولد فلما ولد له المسعود المذكور، قال بعض الحاضرين في مجلسه من الأتراك في بلادنا إذا كان الرجل لا يعيش له ولد سماه أطسيس والناس يقولون أقسيس بالقاف وصوابه بالطاء كذا قالوا هذا عن ابن خلكان. فكان انفصال الملك المسعود من الديار المصرية إلى اليمن يوم الاثنين سابع عشر رمضان المعظم سنة إحدى عشرة وستمائة ودخل مكة شرفها الله تعالى في الثالث من ذي القعدة من السنة المذكورة وخطب له بها وحج ودخل زبيد وملكها مستهل المحرم سنة اثنتي عشرة وأما والده فهو أبو المعالي محمد بن الملك العادل محمد المذكور آنفاً الملقب بالكامل ناصر الدين وقد أثنى عليه ابن خلكان وأطال في ترجمته إلى أن قال واتسعت مملكته ولقد حكى لي من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة شرفها الله تعالى أنه لما وصل الخطيب إلى الدعي للملك الكامل قال مالك مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والشام وصناديدها والجزيرة ووليدها سلطان القبلتين ورب العلامتين خادم الحرمين الشريفين الخ.

(٢) هذه الدار من جملة قصوره التي كانت بالمحلة التي تسمى اليوم بستان السلطان الذي نسبت إليه.

(٣) تأمل أيها القارئ ولا يقدم الإمام عبد الله بن حمزة وصنوه الأمير يحيى على هذه الأعمال فيما أظن إلا معتقدين استحلال دماء وأطفال ونساء أهل صنعاء بمن فيهم من العجم وأنهم كفار كما تقدم الكلام عن ذلك.

إلى صنعاء من السنة المذكورة وقامت الفتنة بينهما مدة طويلة فجهز الإمام ولده عز الدين محمد بن عبد الله بن حمزة إلى جبل كنن [1] وقد اجتمعت سنحان على الخلاف معه وكان بينه وبين العسكر الذي مع فليت عدة وقائع تارة لهم وتارة عليهم إلى أن توفي الإمام عبد الله ابن حمزة عليه السلام في كوكبان ثم نقل إلى بكر ثم إلى مشهده بظفار [2] وبلغ عمره اثنتين وخمسين ثم خرج الأمير عز الدين محمد بن عبد الله بن حمزة في عسكر الأشراف إلى جبل كنن من بلاد سنحان وأجابهم الشيخ راشد بن مظفر [3] فأمر الأتابك جمال الدين فليت الأمير جمال الدولة فسار في عسكر إلى صنعاء فوقف، وحط الأتابك فليت في بئر الخولاني [4] مقابلاً للأشراف وهم في كنن ثم توفي الأتابك جمال الدين فليت في محطته المذكورة في السنة المذكورة ثم دخل الملك المسعود صنعاء في جمادى من السنة المذكورة

---

(١) كنن بفتح الكاف وكسر النون الأولى وآخره نون، ويقع في الجنوب الشرقي من صنعاء بمسافة منها بمرحلة فغربيه لسنحان من ذي جرت وشرقيه لخولان العالية.

(٢) ظفار هذا حديث التسمية وإنما اشتهر بالإمام عبد الله بن حمزة لما اختط عاصمته التي ظلت ردحاً من الزمن تستغل شهرتها وفي أيام الإمام أبي الفتح الديلمي ثم اندثرت ودب اليها الخراب كما هو طبائع العمران إن المدن أو العواصم التي تعمر وليس لها مرافق عامة سرعان ما يتسرب إليها الخراب وتعود سيرتها الأولى، وتقع شرق ذي بين مسافة ساعتين ويطل منها على وادي شوابة.

وما يحمل اسم ظفار كثير أشهرها وأعرقها تأثلاً وأبعدها صيتاً ظفار الملك عاصمة التبع أسعد الكامل وغيره من التبابعة الواقعة في شرق حقل قتاب من يحصب العلو ثم ظفار الحبوضي وسيأتي بيانه وظفار بيت بوس وظفار بني سرحه من وطن السحول وظفار وصاب وله ذكر في التاريخ هذا ما حضرني.

(٣) هو الأمير الكبير راشد بن مظفر بن الهرش السنحاني كان أميراً كريماً شهماً مقداماً ممدوحاً من كثير من شعراء عصره ومنهم أبو عبد الله محمد بن حمير الوصابي فإنه مدحه بقصائد ومن جملة قصيدة له البيت المشهور:

بيني وبين الفقر صوت واحد ... يا راشد بن مظفر يا راشد

أولها:

أمعنفي أزعمت إنك راشد ... من أين يصلحني الفؤاد الفاسد

وكان بيده بلاد كثيرة وحصون عديدة وقتل في حرب مرغم الصوفي الآتي قريباً.

(٤) بئر الخولاني تقع غرب جبل كنن المتقدم الذكر وأحد محطات المسافرين إلى صنعاء من الطريق اليمني وقد ذكرها العلامة أحمد بن عيسى الرداعي في أرجوزته حيث قال:

ذو حدب ثم المعشى الثاني ... يكلي ومغداها علي سيان

وقد قضت من أبؤر الخولاني ... أوطارها عن مشرع ريان

قال في تفسيرها: أبؤر: وهو يريد بئر الخولاني لأن الموضع يسمى بهذا الاسم وفيها أبؤر.

ونهض الشرفاء من جبل كنن واستولى الغز عليه يومئذ وتسلم الملك المسعود حصن كوكبان واصطلح السلطان والأشراف في ذلك اليوم وتسلم السلطان أيضاً براش ثم تسلم بعد مدة حصن الشوافي في اليمن ثم حط على بكر في سنة ٦١٧ سبع عشرة وستمائة وحصره من جميع جوانبه ثمانية أشهر، وكان فيه من أولاد الإمام وأمهات أولاده طائفة فجمع الإمام عز الدين بن الإمام عبد الله بن حمزة فجمع جموعاً وأراد قصد تهامة لينفس على أهل بكر فخالف عليه علم الدين سليمان بن موسى[1] ووصل إلى محطة بكر فتلقاه السلطان بالإكرام والصلاة الجزيلة وجهز معه جيشاً لحرب عز الدين وكانت بينهما في الجوف وقعات وحروب عظيمة ثم ان الملك المسعود اشترى الحصن منهم بعشرة آلاف دينار مصرية وطلعه ثم عاد إلى زبيد ثم إلى صنعاء وسافر إلى مكة قاصداً لقتال حسن بن قتادة[2] فأخذ مكة قهراً بالسيف وحرم سفك الدماء بعد فتحها وصاح بالأمان لكل أحد بها ثم عاد إلى زبيد ثم إلى صنعاء ثم إلى زبيد ثم تقدم مصر سنة ٦٢٠ عشرين وستمائة وترك باليمن الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول نائباً عنه فحفظ البلاد وحمدت سيرته فقام مرغم الصوفي[3].

---

(١) لعله الحميري المتقدم الذكر الذي غزا لحجاً من ذمار وانتهبها.

(٢) هو الشريف حسن بن قتادة بن إدريس العلوي الحسني تولى بعد أبيه قتادة مكة وتوابعها التي كانت قد اتسعت مملكته وخافه العرب خوفاً عظيماً، وكان هذا حسن قد قتل أباه وعمه وأخاه خنقاً طمعاً في الملك فكان ذلك سبباً للتعجيل بروحه إلى سقر وبئس القرار لأنه ارتكب عظيماً وسار إلى الأشراف والمماليك الذين كانوا لأبيه وفعل أفعالاً شنيعة فلما وصل صاحب اليمن الملك المسعود إلى مكة نهبها عسكره إلى العصر حتى أخذوا الثياب عن الناس وأفقرهم وأمر بنبش قبر قتادة فنبشوه فظهر التابوت الذي دفنه ابنه الحسن والناس ينظرون اليه فلم يروا شيئاً فعلموا حينئذ أن الحسن دفن أباه سراً وأنه لم يجعل في التابوت شيئاً وذاق الحسن عاقبة قطيعة الرحم وعجل الله مقابلته وأزال عنه ما قتل أباه وأخاه وعمه لأجله وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين كذا في ابن الأثير ملخصاً ويقول إن ذلك في سنة ٦٢٠ كما أن وفاة قتادة في سنة ٦١٨ ثمان عشرة وستمائة وفي الخزرجي أن ذلك في سنة تسع عشرة وأن سنة عشرين هي التي كان الملك المسعود في طريقه إلى مكة.

(٣) كان يلقب بالعبد الصالح واسمه مرغم ابن منيف الصوفي الحميري النسب من قوم أولي بأس وقوة وسلطان وسطوة يسكنون بلد حمير المصاقبة لنعمان وصـاب ورغم ما كان عليه مرغم من صلاح وتقشف وزهد وورع فقد كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب قليل البضاعة من العلم بل اتخذ التصوف حرفة ارتدى به وتأزر.

وأول ما بدأ من أعماله أنه أنذر عشيرته الأقربين وحذرهم من مغبة الظلم ونهاهم عن العسف والجبروت فلم ينتهوا ولم يجيبوا صوته ففارقهم زاعماً أن هاتفاً أهاب به بالانتقال إلى يحصب العلو ليظهر الحق على يديه وفعلاً أجاب هذا الصوت المدوي في أعماق مشاعره ونزل قرية «سحمرّ» من جبل بني

في الحقل وبلاد زبيد [1] ودعا الناس إلى نفسه وأخبرهم أنه داع لإمام حق فانضاف إليه الجم الغفير من جهلة الناس من أهل المغارب وعنس [2] فسار إليهم الأمير نور الدين عمر ابن علي بن رسول ومعه راشد بن مظفر بن الهرش [3] فقال مرغم لأصحابه إن قاتلونا غداً هزمناهم، وقتل راشد بن المظفر فاتفق القتال فكان كما قال فازداد الناس محبة وتصديقاً وكانت الوقعة سنة ٦٢٢ اثنتين وعشرين وستمائة، فلما كثر القتل سلب حاله ثم تلاشت أموره وظهر للناس كذبه وفساد مذهبه فلم يزل ينتقل إلى البلدان حتى مات بوصاب ثم كانت وقعة عصر [4] بين حسن بن علي بن رسول وبين عز الدين محمد بن الإمام عبد الله بن حمزة سنة ٦٢٣ ثلاث وعشرين وستمائة [5] وكان بدر الدين قد خرج إلى دروان ممداً لأخيه نور الدين فلما بلغه خروج عز الدين إلى صنعاء انقلبا فوراً إلى صنعاء فوصلا وقد دخل الأمير سالم بن علي بن حاتم والأمير علوان بن بشر بن حاتم إلى صنعاء في خيل ورجل من ذمر مرو العروس وحفظوا المدينة وقد حط عز الدين في عصر وتجهز للقتال قاصداً صنعاء فخرجت الرتبة ومن معها لقتاله فقاتلوا ساعة من نهار فوصل نور الدين وبدر الدين ابنا علي بن رسول صنعاء والناس متلازمون وقد وقع القتل في الفريقين وكل حافظ لأصحابه فدخل الأمير القصر وتغدى الناس ثم خرجوا من صنعاء في مائة فارس وكانت خيل عز الدين سبعمائة فوقف عز الدين في بعض الخيل مركزاً وتقدم بدر الدين في الباقين ورتب الباقين وحرضهم على صدق القتال، والتفت فيهم يميناً وشمالاً وقال: هي هي قالوا هي هي وكان هذا شعاره وصمم في حملته ومنحه الله النصر والظفر فانهزم جيش الأشراف وولوا مدبرين وقتلوا قتلاً ذريعاً وظهر من بدر الدين يومئذ من النجدة ما لا يوصف قبل: قيل إنه قتل فارساً بآخر صرع أحدهما بالآخر وقتل من وجوه العرب مع الأشراف جماعة ووقع سهم في عين الأمير عز الدين بعد أن أبلى هو ومن معه بلاء حسناً وباتوا ليلتهم

مسلم في يحصب العلو فأحلوه دار كرامتهم وأجلوه إجلال تعظيم وتقدير وكانوا له نعم العون والناصر ومن ذلك الحين لا زال يعلو أمره وينتصر إلى أن قتل في رواية وقيل غير ذلك كما بيناه في التاريخ.

(١) المراد بالحقل هذا قاع الحقل وزبيد بضم الزاي ـ قبيلة معروفة من عنس إلى هذه الغاية.

(٢) المراد بالمغارب هنا مغارب ذمار كعتمة ووصاب ويحصب السفلى ومقرى مغرب عنس.

(٣) الأمير راشد كان وصوله من صنعاء.

(٤) عصر: بفتح العين المهملة وكسر الصاد المهملة أيضاً آخره راء قرية وجبل غربي صنعاء ومن ضواحيها وفيها غيل وفواكه البرقوق والبلس والقات

(٥) كان في الأصل ثلاث وثلاثين وذلك وهم كذا في «خ» ثم صحح وعشرين وعليه صححنا هذا الأصل.

سائرين قاصدين ثلا [1] فوصلوا في أربعين فارساً وقد تفرق جمعهم والأربعون هم الأشراف وعبيدهم.

وفي هذه الوقعة يقول العماد الشيزري [2] وكان شاعر الملك المسعود:

ألا هكذا للملك تعلوا المراتب ... وتسمو على رغم العداة المناقب
فتوح سرت في الأرض حتى تضوعت ... مشارقها من طيبها والمغارب
بسيف الجواد ابن الرسول توطدت ... قواعد ملك ربه عنه غائب
فولوا ومن طعن القنا في ظهورهم ... عيون ومن ضرب السيوف حواجب

وكتب السلطان علوان بن بشر بن حاتم إلى الشريف عز الدين محمد بن الإمام عبد الله ابن حمزة يقول:

أسادات الورى في كل حي ... وأسما في المعالي من يسامي
وأربطها لدى الهيجا بأساً ... وأحماها إذا عدم المحامي
أهنيكم قدوم العيد فرضا ... علي فسدمتم في كل عام
وأهدي نحوكم أزكى سلام ... إلى المأموم منكم والإمام
وأسمعكم أحقاً ما سمعنا ... فما يشفي سوى صدق الكلام
بأن جموعكم طارت شعاعاً ... ولما تخش عاقبة الملام
سوى عشر فحيا الله عشراً ... تحامت من بني حام وسام
ولم يحضر من الأمراء إلا ... شهاب الدين محمود المقام
ونور الدين والبدر المرجى ... ليوث الحرب في يوم الصدام
وخيلهم إلى مائة وعشر ... وهم ما بين رماح ورامي
فماذا يصنعون إذ ألمت ... جنود الملك من يمن وشام
ولاحت رابية المسعود فيها ... كلائحة على أرجاء طامي
هنالك تندمون ولا محيص ... إذا حم القضاء لدى الحمام
فإن تقبل نصيحة ذي وداد ... فإن النصح من شيم الكرام

---

(١) بالضم مقصور كما ضبطه ياقوت بالحرف ووجدته مضبوطاً بالشكل في كثير من الكتب الخطية القديمة أما اليوم فينطق بها العامة بالكسر.

وهي شبه مدينة من مدن اليمن النجدية واقعة في الغرب الشمالي من صنعاء بمسافة ثمان ساعات فصاعداً وبينها وبين شبام حمير فرسخ في الشمال وتلك بالجنوب راجع المعجم.

(٢) لم أقف على ترجمة لهذا الشاعر.

أتيتم طائعين إلى مليك ... شريف النفس ذي منن جسام
فتى هزت بنو أيوب منه ... حساماً قد يفل سنا الحسام
وقلدت الأمور إليه لما ... غدا لا بالددان ولا الكهام
وقالت عند ذلك قول فذ ... أديب شاعر حسن النظام
فأعط القوس باريها ودعها ... فقد أودعتها في كف رامي
فذب برأيه والسيف عنهم ... وقام بملكهم أوفى قيام

فأجابه الأمير عز الدين محمد بن عبد الله بن حمزة بقوله:

أمن برق تألق بابتسام ... أرقت فلم يذق طعم المنام
لذكر الوصل أم لفراق غيد ... يضيء وجوهها جنح الظلام
رعى الله الديار وساكنيها ... وروى ربعها صوب الغمام
فلا تعجب لتذكاري. فإني ... ذكرت منازل الحي الكرام
وأعجب من تذكر وصل هند ... كتاب جاء من ملك همام
سليلهم المتوج أرضعوه ... لبان المجد من قبل الفطام
وأودعه السلام فلا عدمنا ... أنامل نمنمت أزكى السلام
ويخبر عن طراد قول صدق ... أحقاً ما يقال من الكلام
بأن جموعنا طارت شعاعاً ... وولت لم تكر ولم تحام
سوى عشر أغارت غير نكس ... فعادت جنحاً مثل السهام
فلو كان الأمير الندب فيها ... عماد الدين محمود المقام
لزارت بيننا عصب غضاب ... بكل مهندٍ عضب حسام
ولكن عاقه الرحمن عنا ... ولم يحضر ويوم الروع حامي
وكيف يعد هذا القول نصحاً ... وقد صدعت له صم السلام
فواعجباً تدافع عن حمانا ... وتنسبنا إلى فعل اللئام
وإن كانوا لعمر أبيك أسداً ... تشب لدى الوقائع بالغرام
فليس لنطح صخرتهم سوانا ... بني حسن فكف عن الملام

وقال السلطان مدرك بن حاتم بن بشر بن حاتم على لسان الأميرين نور الدين وبدر الدين ابني رسول أبياتاً أرسلها إلى مصر وهي قوله:

سلا ذات سمط الدر والمارن الأقنى ... لدى عصر من أصدق الضرب والطعنا
لقد شهدت صنعاء لولا بلاؤه ... لما فارقت رعْباً ولا رافقت أمنا

ولما تـدانـى الفيلقـان عشيـة	غـدا الهام فيهـا منهـم والظبـا منـا
ورحنـا إلى حصـن القليس[1] نصـ	ـافح الكؤوس يغنينا النديم وقـد غنـا
ونحن إذا شئنـا دسرنـا عـدونـا	ولا نحتفـد حقـداً دفينـاً ولا ضغنـا
فلا زالت الأخبـار منـا تسرنـا	كما سركـم في مصـر مخبـركـم عنـا

ولما وصل علم هذه الوقعة إلى مصر خشي المسعود على اليمن من بني رسول فانقلب سريعاً إلى اليمن فوصل تعز سنة أربع وعشرين وستمائة فقبض على أولاد علي بن رسول بدر الدين وفخر الدين أبي بكر وشرف الدين موسى بن علي بن رسول وأرسل بهم إلى مصر ولم يخش على اليمن غيرهم لما فيهم من الشجاعة والإقدام وعلو الهمة وأما أخوهم نور الدين عمر بن علي بن رسول فكان قد أرسله الملك المسعود بخزانة عدن وكان يميل اليه ويأنس به دون إخوتـه وولاه مكة سنة بضع عشرة وستمائة فلما تقدم المسعود إلى مصر سنة ست وعشرين وستمائة استناب نور الدين عمر بن علي بن رسول الرسولي على اليمن فتولى بره وبحره وسهله ووعره فحسنت سيرته وحمدت أحواله فلما وصل المسعود إلى مكة توفي بها وكان قد حمل معه جميع خراج اليمن من الصفراء والبيضاء والجواهر وغير ذلك وكان قد جعل على صنعاء الأمير نجم الدين أحمد بن أبي زكريا وعلى اليمن الأمير فليم وكان فيه جبروت المصريين فصادر رجلاً من أصحاب الشيخ والفقيه صاحبي عواجة[2] مصادرة شديدة فأشار الشيخ إلى ناحية فليم بإصبعه وقال طعنته في أنثييه فأصابه فيهما داء فمات ، ولما توفي الملك المسعود تقدم مملوكه حسام الدين لولو بمن كان معه من أولاده إلى مصر .

قال الجنيدي : ولم يكن للملك المسعود المذكور من الآثار غير تجديد مدرسة الميلين بزبيد فهذه أخبار الملوك من بني أيوب محققة على سبيل الاختصار ومدة ملكهم سبع وخمسون سنة وبالله التوفيق والله أعلم .

---

(١) القليس في حضور وبيت خولان المتقدم الذكر .

(٢) عواجة بضم العين المهملة أول الحروف وآخره هاء بليدة في عزلة الرامية التابعة لمركز المنصورية من تهامة وتبعد عن زبيد شمالاً بمسافة ثلاث ساعات ونصف بالسيارات وتقع في الغرب الشمالي من السخنة بمسيرة نصف ساعة بالسيارة .

والمراد بالشيخ والفقيه محمد بن أبي بكر الحكمي ومحمد بن الحسين البجلي : راجع الجندي وما ذكره المؤلف من أسباب وفاة الأمير فليم فتلك من الخرافات والترهات .

الفصـل السادس
في ذكر دولة بني رسول وذكر قيام أوّلهم

وهو السلطان نور الدين أبو الفتح عمر المنصور بن علي بن رسول الغساني البيجكي التركماني(١).

واسم رسول محمد بن هارون وهو من ولد جبلة بن الأيهم (٢) يرجع إلى سبأ ابن يشجب ابن قحطان لأن أولاد جبلة بن الأيهم سكنوا بلاد التركمان مع قبيلة منهم يقال لها بيجك هي أشرف قبائل التركمان فاختلطوا بهم وتكلموا بلغتهم وانقطعت أخبارهم عن أكثر الناس

---

(١) تعتبر الدولة الرسولية الغسانية من دول اليمن الصميم التي انتهجت سياسة حكمية فانتسبت بادىء ذي بدء إلى أكبر أسرة قحطانية حازت الملك والشرف المتأثل لتجذب قلوب ملايين اليمنيين إلى طاعاتها ثم صاهرت منهم ثم من العنسيين لتكون العرى وثيقة ومتكاملة، وانتقت أن يكون نسبها إلى الغساسنة ملوك الشام لتربط بين ماضيها المشرق وحاضرها المورق ولتلتقي بأنصار النبي ﷺ فيزيد التلاحم توثيقاً ولهذا وغيره من المميزات جعلها ثابتة الأقدام وكتب لها البقاء وطول العمر مدة من الزمن غير قصيرة.

أضف إلى ذلك بأنها امتازت بكثير من الأعمال الجليلة الإصلاحية التي قامت بها فأشادت المدارس وبنت المساجد في أنحاء اليمن الطبيعي حتى في مكة المشرفة والمدينة المنورة والطائف وخصوصاً باليمن وتهامة، وأسهمت في المرافق العامة كتعبيد الطرقات وإقامة السقايات والمناهل في المحطات كما بنت الملاجيء الخيرية لذوي الأعسار والفقر، واحتضنت الأيتام والأطفال وجعلت لهم كتاتيب لتعليم القرآن ومبادىء الكتابة وأدرت عليهم الأرزاق لتأمين لقمة العيش.

واعتنت بالزراعة إلى حد بعيد ففجرت العيون وفتقت الغيول وخصصت الأراضي الصالحة للتجارب وجلبت البذور والغروس والفواكه من الهند وغيره ولم يقف هذا النشاط الحيوي عند هذا بل ألفوا فيه المؤلفات الكثيرة القيمة مثل كتاب التفاحة في علم الفلاحة للملك الأشرف الكبير عمر بن يوسف المظفر ومثل الإرشاد للملك المجاهد علي بن الملك المؤيد وكتاب بغية الفلاحين في الأشجار المثمرة والرياحين للملك الأفضل العباس بن الملك المجاهد وشاركوا في جميع الفنون والعلوم كالطب والتاريخ والنجوم وغيرها من العلوم التي كانت تمثل جانباً عظيماً في حركتهم الدائمة نحو الإصلاح والمثل العليا كما مهروا في فتح أبواب الصنائع والتعدين ولا زال صدى النحاس الغسّاني المطعم بالذهب والمزوق تزويقاً عجيباً في آذان الأجيال إلى اليوم وكان لهم دار للضرب للذهب والفضة وقد استوفينا أخبار هذه الدولة في تاريخنا كما سيمر بك بعض من ذلك والتركماني نسبة إلى التركمان جيل من الناس. وهذه الدولة من دول اليمن التي استولت على جميع أجزاء اليمن الطبيعي في أيامها الأولى.

(٢) جبلة بالتحريك ابن الأيهم بالياء المثناة من تحت وهو آخر ملوك الغساسنة بالشام وأسلم في أيام عمر بن الخطاب أو أيام أبي بكر راجع ترجمته وأخباره والتحاقه بالروم ـ تفسير الدامغة والأغاني وغيرها.

فنسبهم من لا يعرفهم إلى التركمان، وإلى بيجك، وكانوا بيت شجاعة ورياسة وكان جدهم محمد بن هارون جليل القدر فيهم قربه الخليفة البغدادي صاحب بغداد [١] وكان يرسله إلى من يحب من المملوك بما يريد من الأمور السرية بلا كتاب بل على لسانه فيرجع بالجواب بغير كتاب ثقة به فلما عرف بهذه المنزلة انطلق عليه اسم رسول الخليفة وخفي على كثير من الناس اسمه فأقام مدة بالعراق ثم انتقل إلى مصر فاتصل ببني أيوب وسار إلى اليمن صحبة الملك العزيز طغتكين بن أيوب[٢] وكان أميراً له في حيس[٣] وأعمالها وكان له أربعة ابنا فرسان شجعان أكبرهم الحسن الملقب الأمير بدر الدين والأمير شرف الدين موسى والأمير فخر الدين أبو بكر والأمير نور الدين عمر وهو أصغرهم وكانوا غاية في الشجاعة والكرم، وكان بدر الدين شجاعاً لا يقوم له في الحرب عدد، وكان شرف الدين شجاعاً فصيحاً وهو القائل من أيام الملك المسعود الأيوبي.

نكـــون حماتها ونـــذب عنهـــا ويـأكـل فضلهـا القـوم اللئـــام

معــــاذا الله حتى ننتضيهـــــا عقـائـق في العجـاج لها ابتســـام

فسمعه بعض أمراء الملك المسعود فقال خرجت اليمن من بني أيوب، ورب الكعبة.

وكان نور الدين مع شجاعته حسن السياسة عاقلاً وادعاً وكان ذلك من أقوى أسباب اتصاله بالملك.

وكان الملك المسعود يثق به دون غيره من إخوته لما يسمع منهم.

ولما توفي المسعود الأيوبي في تاريخه المتقدم بمكة ونور الدين حينئذ نـائبـه على اليمـن كما قدمنا قام حينئذ بملك اليمن قياماً كلياً واضمر في نفسه الإستقلال وأظهر أنه نائب لبني أيوب فلم يغير سكة ولا خطبة وجعل يولي في الحصون والمدن من يثق به ويعزل من يخشى منه حتى قرر قواعد التهائم ثم طلع إلى الجبال فحاصر حصن تعز وتسلم حصن التعكر في سنة سبع وعشرين ثم تسلم خدد وصنعاء وأعمالها واقطعها ابن أخيه اسد الدين محمد بن الحسن [٤]

---

(١) كذا في الأصل وفي خ خليفة بغداد.

(٢) كذا في النسخة المخطوطة للخزرجي وفي العقود اللؤلؤية له ما يخالف ذلك.

(٣) حيس بفتح الحاء المهملة وسكون الياء من تحت مدينة تهامية من أعمال زبيـد في جنوبيها نسبت إلى حيس بن يريم ذي رعين الأكبر والحيس قرية كبيرة هي اليوم أنقاض في مخلاف ذي رعين ثم في آل عامر: صباح وفيها آثار ومواجل وغير ذلك. وكون خروج آل الرسول مع طغتكين بن ايوب هو الموافق لما في العسجد المسبوك للخزرجي وفي العقود اللؤلؤية له أيضاً أن آل رسول خرجوا مع توران شاه وقد حققنا الموضوع في التاريخ.

(٤) أسد الدين هذا كان من كملة الرجال وعلمائهم والنبلاء المشار إليهم بالبنان وله قضايا

فطلع نجم الدين بن زكريا براش[١] خائفاً من نور الدين ثم تسلم حصن حب وبيت عز[٢] ثم حط مرة أخرى على حصن تعز فأخذه صلحاً في سنة ٦٢٨ ثمان وعشرين وستمائة.

وفيها تزوج السلطان نور الدين المنصور بنت حورة بنت الأمير سنقر الأتابك زوج السلطان الملك المسعود التي ذكرناها أولاً وكان زمامها نظام الـدين مختص لبيباً عاقلاً أديباً[٣] ودخل بها المنصور ورأى منها من القبول ما لم يكن في ظنه.

وفي هذه السنة وصل إليه الأشراف إلى حصن ذي مرمر وفيهم الأمير يحيى بن عبد الله ابن حمزة واولاده والأمير شمس الدين أحمد بن الإمام عبدالله ابن حمزة وجميع اخوته ووهاس بن أبي القاسم فتحالفوا وتعاضدوا، وعقدوا صلحاً على ما بينهم فتم على أحسن حال، ولم يجر بينهم خلاف ولا حرب إلى أيام الإمام أحمد بن الحسين سنة ست وأربعين إلا مرة واحدة وسنذكر سبب ذلك في موضعه إنشاء الله ووصلهم السلطان نور الدين بمال جزيل وخِلعِ سنية وأقرهم على بلادهم جميعاً.

فلما افترقوا على الصلح والسداد اضطرب الأمير نجم الدين أحمد بن زكريا وعلم حينئذ انقطاع أسبابه فراسل السلطان نور الدين ونزل إليه من براش وترجل بين يديه وحمل الغاشية[٤] فخلع عليه خلفاً سنية وانعم عليه إنعاماً جزيلاً ونزل صحبته إلى اليمن هو وابن أخيه السلطان أسد الدين محمد بن الحسن بـن علي بن رسول.

فلما استقر السلطان في دار ملكه رجع اسد الدين إلى صنعاء ثم طلع السلطان سنة تسع وعشرين وستمائه إلى صنعاء وتسلم حصن بكر وكـوكبـان وبـراش[٥] وبعـث الأمير ابـن

وماجريات يطول ذكرها وكان أديباً وشاعراً وسيمر عليك بعض هذا الاخبار ترجم له الجندي في تاريخه ترجمة إضافية وله مآثر منها جامع في مدينة إب وأوقف على كل ذلك أوقافاً (راجع الجندي).

(١) براش هذا هو براش صنعاء وهو شرق جبل نقم ومتصل به وفيه آثار ومراحيل ولا يزال يؤدي امانته في الحفاظ على صنعاء الغادة الفتانة وبراش أيضاً في صعدة وآخر في ضوران ورابع في أعمال شبام أقيان وخامس في أبين وسميت باسم أقيال يقال لهم ذو براش.

(٢) بيت عز هو ما يسمى اليوم العز من مخلاف الشعر وبيت عز موضع أيضاً من مخلاف أقيان.

(٣) الزمام القائم بالأعمال.

(٤) الغاشية سرج من أدم مخرز بالذهب يخالها الإنسان مصنوعة من الذهب تحمل بين يدي الملك في المواكب الحافلة كالمراسم والأعياد ونحوها وتحملها الركاب رافعاً لها على يديه يلفتها يميناً وشمالاً.

(٥) بكر بضمتين سلف ذكره وكذا كوكبان وبراش هو الذي يسمى قديماً: الباقر ويقع في بني الخياط من مخلاف شبام أقيان.

عبدان(١) إلى مكة المشرفة مع الشريف راجح بن قتادة(٢) بخزانة كبيرة وهو أول جيش جهزه إلى الحجاز فنـزل الأبطـح وحصروا الأمير بها مـن قبـل الملـك الكـامـل المسمـى بالطغتكيني، وكان معه مئتـا فارس فانفق عليهم وعلى أهل مكة نفقة جليلة وتوثق منهم وحلفهم فراسلهم الشريف راجح بن قتادة وذكرهم إحسان السلطان نور الدين أيام كان أميراً عليهم من قبل الملك المسعود الأيوبي وكان المسعود قد ولى نور الدين مكة سنة تسع عشرة وستمائه وولد ولده المظفر بها سنة ٦١٧.

فلما راسلهم الشريف راجح مال رؤسـاؤهم إلى جيش المنصور فهرب الطغتكيني ومن معه إلى ينبع(٣) وأرسل إلى مصر يعلم سلطانها بوصول عسكر اليمن وما كان من أهل مكة فبعث عسكراً كثيفاً، وقدم عليهم فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وكتب إلى صاحب المدينة وهو الشريف شيخه(٤) فوصل الجميع إلى مكة وحاصروا ابن عبدان والشريف راجح ثم اقتتلوا فقتل ابن عبدان مع جماعة من أهل مكة ونهبت مكة ثلاثة أيام.

فلما علم الملك الكامل بفعل ابن شيخ الشيوخ عز له واستدعاه إلى مصر وولى مكة ابن مجلى(٥) سنة ثلاثين وستمائة.

وفي هـذه السنـة تسلم المنصـور بلاد علـوان الجحـدري(٦) وحصـونـه وبلاد الهرشي الرياحي(٧) وكوكبان وحصونه، وضرب السكة باسمه وأمر أن يخطب له في سائر أقطار اليمن.

وفي سنة إحدى وثلاثين وستمائة جهـز المنصـور خـزانـة عظيمـة وعسكـراً إلى مكـة إلى

---

(١) لم أقف على ترجمة لابن عبدان.

(٢) ترجمته في العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين في الجزء الرابع.

(٣) ينبع بفتح الياء المثناة من تحت وسكون النون وضم الباء الموحدة آخره عين مهملة وهما موضعان أحدهما يقال له ينبع النخل وهو الواقع على طريق المدينة مكة والآخر ينبع الساحل وهو ميناً على ساحل البحر الأحمر قبالة ينبع النخل (راجع جزيرة العرب لحافظ وهبة وغيره.

(٤) شيخة هو ابن هاشم بن قاسم بن مهنا الحسيني كذا في العقد في تاريخ البلد الأمين ج ٥ ـ ٢٢ فإنه ترجم له وقال وتوفي سنة سبع وأربعين وسمائة ويبدو من ضبطه بالشكل أنه بكسر الشين المعجمة وسكون الياء المثناة من تحت وفتح الخاء المعجمة آخره هاء. وكان في الأصل «سنجر» وهو وهم والتصحيح من الخزرجي وغيره.

(٥) لا أعرف له ترجمة.

(٦) تأتي ترجمة علوان الجحدري.

(٧) سبق الكلام على ابن الهرش.

الشريف راجح بن قتادة فأخرج العسكر المصري من مكة وأرسل بهدية عظيمة إلى الخليفة المستنصر العباسي ببغداد[١] وطلب منه تشريفه في النيابة بالسلطنة في قطر اليمن فعاد الجواب بأن ذلك يصل إليك في عرفة فحج المنصور تلك السنة وهرب منه الشريف راجح، ثم لما رجع اليمن رجع الشريف راجح إلى مكة ولم تصل التشريفة في سنة حجة السلطان لأن العرب قطعت الطريق على حاج العراق تلك السنة فرجعوا إلى بغداد ثم وصلت التشريفة والنيابة في سنة إثنتين وثلاثين.

وفيها أرسل المنصور بقناديل إلى الكعبة من ذهب وفضة، وبخزانة جيدة للشريف راجح على يد ابن النصري وامره بإستخدام الخيل والرجل، وأعلمه أن عسكراً واصلا من مصر إلى مكة فوصل المصريون قبل استخدام الشريف عسكراً فخرج الشريف من مكة ودخلها العسكر المصري وملكها وكان عسكرهم خمسمائة فارس فيه خمسة امراء[٢]، وهم وجه السبع، والبيدقي وابن زكريا. وابن برطاش[٣] وأكبرهم الأسد ويقال له جفريل[٤] فأقاموا بمكة.

وفي سنة ٦٣٣ ثلاث وثلاثين وستمائة بعث المنصور أيضاً خزانة إلى الشريف راجح وعسكراً فخرج إليهم العسكر المصري بقرب مكة فهزمهم واسر أميرهم فقيده الأمير جفريل وأرسل به إلى مصر.

وفي سنة ٦٣٤ أربع وثلاثين وستمائة تسلم المنصور حصون حجة والمخلافة ومخاليفها[٥] وكان سبب ذلك أن المنصور لما وصله الأمير محمد بن يحي بن حمزة، انصفه وأكرمه وولاه المحالب[٦] فطلع إلى بلده مسروراً وسولت له نفسه أخذ كوكبان وكان فيه رتبة جيدة من الخيل والرجل وكان من عادتهم أن يتركوا عشرة من الخيل لابسة وخمسين رجلاً بسلاحهم

(١) اسم المستنصر العباسي أبو جعفر منصور بن الطاهر بأمر الله تولى الخلافة بعد أبيه في رجب سنة ٦٢٣ وستمائة ثلاث وعشرون وستماية وكانت سيرته جميلة محمودة وتوفي سنة أربعين وستماية تاريخ الخلفاء ص ٤٦.

(٢) كان في الأصل إمارة والتصحيح من الخزرجي.

(٣) ترجم المؤرخ الجندي لابن برطاش لأنه أخيراً انضم إلى ملوك اليمن ومات بها وترجم له أيضاً الفاسي في تاريخه ولم يذكر الآخرين بشيء ولا أعرف عنهم غير هذا.

(٤) في العقد الثمين حعقرين.

(٥) حجة والمخلافة سلف ذكرها ومواطنهم معروفة إلى يوم الناس هذا وقد حققت هذه الأماكن في المعجم.

(٦) المحالب بلدة على ميزاب مور من ملحقات الزهرة وهي اليوم بلدة مُتشعثة لا شيء وكانت مركزاً لتلك الناحية ونسب إليها ناس من حملة العلم.

على الإستمرار فلما طلع أصحاب الشريف الحصن خرجت عليهم تلك الخيل والرجل فقتلوا منهم جماعة وتردى أكثرهم وقد كان الأمير يحيى بن حمزة عمر حصن منابر وهو في بلد السلطان مما يلي تهامه [١].

فلما علم المنصور بفعل الشريف يحيى وولده غضب غضباً شديداً وكان معه يومئذ الأمير محمد بن يحيى العباسي صاحب حصن عزان المصانع [٢] وكان كريماً عنده فلما رأى أهتمام السلطان بذلك قال له أنا أعطيك حصن عزان، وأنا أعلم أن الشريف يحيى يرغب إليه ويسلم حصن منابر قال السلطان وأنا أزيد عشرة آلاف فأرسل السلطان وزيره الشيخ ناجي وهو جد بني ناجي أهل المخادر والسحول [٣] إلى الشريف يحيى فعرض عليه ذلك فلم يقبل فغضب المنصور غضباً شديداً، وكتب إلى الأمير أحمد بن عبدالله بن حمزة متمثلاً بقول الشاعر:

إذا لم تكن إلا الأسنة مركب فلا رأي للمضطر إلا ركوبها

وكان أحمد بن عبدالله المذكور متغير الخاطر على عمه يحيى بن حمزة في نقضه الذمم والصلح الذي جرى بين المنصور والأشراف ولم يمكنه التخلي عن عمه فخرج المنصور من زبيد وقدم إمامه الأمير أحمد بن زكريا وصار في ستين ألف راجل وانفق أموالاً لا تحصى واستولى على حجة والمخلافة وحصونها في يوم واحد إتفاقاً لم يتفق لأحد غيره وأخذ حصن منابر وحصون جبع كلها [٤] وأخذ جميع ما كان صالح الأشراف عليه من البلاد العليا وهو البون، والأحساد والخشب والخارد ومطرة [٥].

ولما رجع السلطان من غزوته وصل إليه جعفر بن أبي هاشم وحسام الدين حاتم بن الحيد من جهة الأشراف وصالحوه على أن البلاد التي كان استفتحها لا معارض له فيها.

---

(١) حصن منابر اليوم أطلال وهو غرب حفاش وملحان ويطل على المهجم.

(٢) حصن عزان المصانع سلف ذكره وما يسمى عزان باليمن كثير قد أتينا عليها في المعجم والمصانع هي التي يقال لها مصانع حمير من مغارب صنعاء:

(٣) سلف الكلام على السحول وأما المخادر فهي بلدة عامرة في ظاهر السحول مركز ناحية بطن السحول وجباله الشرقية والشمالية ولنزاهتها يقول شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني وقد بات فيها

إن الليالي في المخادر قد غدت درا على جيد الزمان لثاليا
فلذا قضيت لها وكل مهذب قد بات فيها صار مثلي قاضياً

وهناك مساجلة أدبية ومراسلات مذكورة في نشر العرف وغيره وبنو ناجي هم من ذي تبع الحميري لهم بقية راجع الاكليل خ ٢ - ٢٣٤

(٤) جبع بضم الجيم وفتح الباء الموحدة بلد في أسافل حفاش وملحان.

(٥) سلف ذكر هذه الأماكن.

وكان المنصور عند مسيره إلى جحة والمخلافة أمر ابن أخيه أسد الدين بالخروج لمنع الأمير أحمد بن عبدالله بن حمزة إن أراد نصر عمه يحيى بن حمزة فخرج أسد الدين فحط في الجنات [1] وكان أحمد بن عبدالله بن حمزة بالطرف [2] وكان بينهما يوم قارن [3] وهو من الأيام العظام، ولما رجع السلطان من حجة قال الأديب محمد بن حمير [4] يهنيه بالنصر قوله:

هنئت بالنصر لما جئت في لجب مضللاً بالرد ينيات والقضب
ومرحبا بالرسولي المليك وإن غاب السماكان والجوزا فلا تغب

---

(١) الجنات جميع جنة بلدة من أرض البون الأعلا شمال مدينة عمران بمسافة ميل.

(٢) الطرف موضعان الطرف الأعلا وهو من بلاد كوكبان والطرف الأسفل من أرض حجور ثم من الشرف والطرف أيضاً من مخلاف حراز.

(٣) قارن بلدة عامرة في ظاهر مصانع حمير مطلة على البون الأعلا من غربية.

(٤) محمد بن حمير بن عمر الوصابي الحميري أحد شعراء اليمن المفلقين المجيدين في النظم والنثر ترجم له الخزرجي في طراز أعلام الزمن وأجاد في الثناء عليه واورد له كثيراً من المقاطيع والقصائد. وسيأتي ذكر مقطوعتين أو ثلاثة مع ذكر وفاته ووقفت له على رسالتين بليغتين إلى الوزير ابن معيد الأشعري وضمنها كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال والمقاطيع الشعرية وقد أثبتناهما في غير هذا التعليق وفي احدى الرسالتين هذه المقطوعة الشعرية التي اخترت إيرادها هنا لما فيها من الحكم والتسلية.

خليلي ما جانبت قومي عن قلا ولا عن ملال دار فكري فيه
ولالى بالقيل اليماني عائظ وأي أب للطفل مثل أبيه
ولكن مقال من سفيه مذمم وحسبك أن ترضى مقال سفيه
وتشبيه أقوام على أساطرا وفي الناس للإنسان رب شبيه
قصائد لابن الشيزري نظمتها ولابن محيط الخط وهو يليه
وانشدهن الزيلعي بزورة واية تلميذ لاي فقيه
ولما رائيت الأمر وعرا سبيله ونام عن التمييز كل نبيه
عزفت عن الشعب اليماني ناقتي وقلت لها يا ناق لا ترديه
فقد عقني من كنت قدماً أبره واسلمني من بالفؤاد أقيه
وكيف يحب المرء مارن انفه وكيف يخون المرء عهد ذويه
فيا عين ان ربع عفا فتجلدي ويا نفس ان خل جفا فدعيه
إذا حل ذو نقص محلة فاضل وأصبح رب الجاه غير وجيه
فإن حياة المرء غير شهية إلي وطعم الموت غير كريه

والبيتان الأخيران للشاعر المفلق الحسين بن علي بن القم انظر عمارة باخر اجناص ٣٤٨ وكانت وفاته سنة ٦٥١ هـ قد حققنا ديوان ابن حمير ونشرناه فارجع إليه ففيه ما يشفي ويكفي.

غزوت مبين إذ هاجت شقائقها ... وفي الرديني ألفاف من العرب
فاليوم قلحاح لا يرغو بها جمل ... والذيب إن نطحته الشاة لم يثب [1]

وهي طويلة [2]، ثم أن يحيى بن حمزة وأولاده اعتذروا إلى السلطان نور الدين المنصور واعترفوا بالخطأ فأعادهم على حجة والمخلافة وحصونها، وهكذا تكون الملوك يأخذون قهراً ويعيدون عفواً.

وفي سنة ٦٣٥ خمس وثلاثين تقدم المنصور بنفسه إلى مكة في ألف فارس، وبذل لكل جندي مقيم بمكة يقبل إليه ألف دينار وفرساً وكسوة فمال إليه أكثرهم فتلقاه الشريف راجح إلى اثنا الطريق واستخدم له من أصحابه ثلثمائة فارس وكان يسائره على الساحل فلما تحقق الأمير الكبير جفريل وصوله هرب إلى مصر واحرق ما كان معه من الأثقال فوصل المنصور إلى السرين [3] نجاب [4] من الشريف راجح تحقق له هزيمة جفريل ومسيره إلى مصر على أقبح حال فرمى الأمراء والمماليك إلى البشير ما عليهم حتى اثقلوه وكان ذلك بأمر المنصور فدخل السلطان مكة في رجب معتمراً.

ولما وصل جفريل إلى المدينة النبوية على صاحبها أفضل السلام أتاه الخبر بوفاة السلطان الملك الكامل فندم باقي جنده على عدم مساعدة الملك المنصور، وتصدق الملك المنصور بمال جزيل ورتب فيها مائة وخمسين فارساً [5] فأقاموا فيها سنة ٦٣٦ ست وثلاثين، وستمائة.

وفي قصة فرار الأسد جفريل من مكة خوفاً من المنصور يقول الأديب محمد بن حمير:

ما ضر جيران نجد حيث ما بعدوا ... لو أنهم وجدوا لي مثل ما أجد
ومن أباح لأهل الدمنتين دمي ... ما فيه لادية منهم ولا قود
قل للقصائد خفي وارملي وخدي ... مثل النجائب في القفر الذي يخد [6]
قصي الحديث عن المنصور ما فعلت ... جنوده وعن القوم الذي حشدوا

---

(١) مبين بفتح الميم وسكون الباء الموحدة آخره ياء مثناة من تحت ونون: بلدة عامرة في ضواحي حجة في الغرب الشمالي منها والرديني بلدة من أعمال حجة أيضاً وقلحاح بكسر القاف وسكون اللام آخره حاء مهملة بلد كبير من الشرف وأعمال لوا حجة في الغرب الشمالي بمسافة يومين.

(٢) أورد منها صاحب العقد الثمين سبع وعشرين بيتاً.

(٣) السرين تثنية سر ضد الإعلان أحد محطات الحجاج على بطن تهامة وقد سلف ذكرها.

(٤) النجاب الرسول الراكب على نجيب من الإبل أو الخيل ليبلغ الخبر بسرعة.

(٥) كان في الأصل وخمسون فارساً فصححناه كما ترى.

(٦) الرمل بالتحريك والخد وضروب من السير وفي العقود اللؤلؤية «حثى» بدل خفي والمعنى متقارب.

لقيتهم بجنود لا عديد لها وهم كذاك جنود ما لهم عدد
فزلزل الرعب أيديهم وأرجلهم حتى السماء رأوها غير ما عهدوا
ولوا وكان الذي يلقي بهم أسداً فعاد ثعلب قفر ذلك الأسد
ومن يلوم أميراً فر من ملك لاذا كذاك ولا كالخنصر العضد

وفي سنة ٦٣٧ سبع وثلاثين وستمائة تسلم المنصور حصن الكميم (١).

وقصد صاحب المدينة وهو الشريف شيخة مكة في ألف فارس فاخلوا مكة وخرجوا عنها فجهز المنصور عسكراً إلى مكة فلما سمع بهم شيخة ولى هو ومن معه هاربين وقصد مصر فجهز معه سلطانها الملك الصالح أبو بكر أيوب بن الملك الكامل عسكراً فوصلوا مكة سنة ثمان وثلاثين وستمائة فاخذوها، وحجوا بالناس.

ثم في السنة التي تليها جهز المنصور عسكراً إلى مكة فيهم الشريف على بن قتادة واستنجد المصريون سلطانهم لما سمعوا بذلك فانجدهم بالأمير مبارز الدين علي بن الحسين بن برطاش وابن التركماني في مائة وخمسين فارساً فأقام الشريف علي بن قتادة بالسرين وأرسل يعلم المنصور فجهز المنصور بنفسه إلى مكة سنة تسع وثلاثين فلما علم المصريون بقدومه ولوا هاربين واحرقوا دار المملكة وما فيها من سلاح ووصل المنصور إلى مكة وصام بها ووصل إليه ابن برطاش في عدة من أصحابه راغبين في خدمته فانعم عليهم السلطان وأرسل إلى الشريف أبي سعيد صاحب ينبع فاستخدمه واشترى منه قلعته وأمره بإخرابها حتى لا يبقى قرار للمصريين وأبطل السلطان عن مكة المكوسات والمظالم وكتب بذلك مربعة (٢) وجعلت قبالة الحجر الأسود.

وفي سنة ٦٤٠ أربعين وستمائة رجع المنصور من مكة إلى اليمن ومات الخليفة المستنصر بالله وتولى ولده المستعصم بالله (٣).

(١) الكميم بضم الكاف وفتح الميم الأولى ثم ياء مثناة من تحت وآخره ميم حصن وبلد في مخلاف الحدافي الشرق الشمالي من ذمار وجنوب مدينة صنعاء.

(٢) المربعة هو الشيء المربع. وهي أشبه بلوحة كتب فيها المرسوم لابطال المكوسات وعلقت قبالة الحجر الأسود ليراها الناس.

(٣) المستعصم بالله هو أبو أحمد عبدالله بن المستنصر العباسي بويع له بالخلافة عند موت أبيه وكان كريماً حليماً سليم الباطن حسن الديانة متمسكاً بالسنة كأبيه وجده وقتلته التتار سنة ٦٥٦ ست وخمسون وستمائة وبه انتهت الخلافة العباسية من بغداد «راجع تاريخ إبن الأثير»

وفي سنة إحدى وأربعين وستمائة عمر المنصور المدرسة المنصورية بمكة [1] وكان يتصدق على أهل مكة والمجاورين لها كل سنة بصدقة جليله.

وفي هذه السنة تسلم المنصور حصن حفاش وهو من معاقل اليمن المذكورة في الجاهلية والإسلام [2].

وفي السنة التي تليها تسلم المنصور حصن سماوة وبلاد خولان[3] وفي ذلك يقول التاج بن العطار [4].

ما سماء الدينا على بن علي ببعيد فكيف حصن سماوه [5]
ملك يومه لفتح مبين في الأعادي وليله في تلاوه

واستول المنصور على اليمن الأعلى والأسفل ما خلاذى مرمر وبيت ردم وثلا [6].

وفي سنة خمس وأربعين استولى على جبل العود وحصونه وبلغه عن ابن أخيه أسد الدين أمور غير مستحسنة فاستدعاه إلى الجوة [7] فتخوف من عمه فرجع هارباً فلما بلغ السحول وجد الأمر قد سبق إلى الأمير ناجي صاحب السحول أن يمنع أسد الدين من طلوع النقيل فتحير أسد الدين وضاق ذرعه، وكان أسد الدين يصحب الورد بن ناجي فأعلمه بحاله فسار به طريق القفر [8] حتى دخل ذمار.

---

(١) تكلم عنها الفاسي في تاريخه وإنها كانت موجودة لعهده - ٨٣٢ اثنتين وثلاثين وثمانمائة هـ.

(٢) حفاش بضم الحاء المهملة آخره شين معجمة من جبال اليمن المشهورة بالخصب والريف وهو يشكل ناحية من أعمال المحويت اليوم نسب إلى حفاش بن عدي رجل من حمير راجع الاكليل ج ٢ - ٢٣٧ » والحصن المشهور في الجاهلية والأسلام هو ريشان من ملحان المعاند لحفاش وكلاهما من مغارب صنعاً، ومخلاف شبام اقيان في القديم.

(٣) هي التي يقال لها اليوم سماه وهي عزلة من مخلاف عتمة وصاب غربي مدينة ذمار والحصن يسمى اليوم المصباح وهو اطلال وسماه أيضاً من قدس ثم من المعافر وهو حصن.

(٤) ابن العطار ترحم له الخزرجي في الطبقات ويأتي له هنا مزيد ذكر.

(٥) كذا في الأصل فتح، وفي ما بين السطور حصن سماوه وكذا في العسجد ولعله أصح لما سبق قبل سطر وفي العقود : أرض.

(٦) ذي مرمر سلف ذكره وكذا ثلاوبيت ردم من حضور بن عدي جنوب جبل حضور وهي قرية كبيرة وفيها حصن متشعث وتقع غرب صنعا في قاع سهمان جنوب محجة صنعاه الحديدة.

(٧) الجوة سلف ذكرها وضبطها.

(٨) القفر ويقال له قفر حاشد شمال السحول معروف مشهور راجع صفه جزيرة العرب ولعله قد مضى ذكره.

وفي سنة ٦٤٦ ست وأربعين وستمائة قام الإمام أحمد بن الحسين القاسمي عليه السلام وبعث الدعوة في جميع الأقطار فأجابه خلق كثير من كل ناحية فأمر بالمحطة على حصون المخلافة وكان واليها من قبل المنصور عمارة الأصبهاني (١) وكانت حصون حجه بأيدي الشرفا أولاد محمد بن حمزة فلما قام الإمام أحمد القاسمي (٢) راسله أسد الدين على نصرته والقيام معه فأجابه وأقام الفتنة على عمه فطلع السلطان نور الدين المنصور لحربها فقصد صنعاء ولقيه ابن أخيه أسد الدين إلى ذمار فاستعطفه واعتذر فرضي عنه وسار بين يديه إلى صنعاء ثم خرجا من صنعاء فحط المنصور تحت كوكبان ثم طلع الضلع وحط برجام (٣)، وتوسم المادة والتنفيس على حصون المخلافة فحال دون ذلك السواد الأعظم من أهل المغارب فعاد من رجام إلى حوشان (٤) وكان الإمام في ثلا فوقعت بينهم حروب كثيرة وكان أمير القتال ابن برطاش ثم تولى بعده القتال الأمير أسد الدين والسلطان في محطته بحوشان.

ثم جهز الإمام إلى بلاد بني شهاب (٥) عسكراً مقدمها الأمير عبدالله بن الحسين بن حمزة وخالفت معه بنو شهاب وبنو الراعي وأهل حضور (٦) فنهض المنصور إلى ناحية بني الراعي فأخرب موضعاً في جبل حضور قد عمروه يقال له حجر الجراد (٧) ورتب في جبل حضور عسكراً ومال إليه جماعة من بني الراعي وسار إلى جهة بني شهاب فأخرب زروعهم ووقع هناك حروب كثيرة ثم رجع المنصور إلى صنعاء ثم جهز الأمير أسد الدين إلى بلاد هداد فأخذ مصنعة بني حوال (٨) وخرج عسكر المنصور إلى غيمان فقتلوا

---

(١) ابن الاصبهان غير معروف لدي.

(٢) هذا الامام هو المقبور في ذي بين ويلقب الشهيد واباطير ويأتي خبره وخبر قتله وله سيرة منها نسخة في جامع صنعاء من الكتب المصادرة.

(٣) ضلع كوكبان معروف قد سلف ذكره ورجام موضع ويقال له اليوم الرجم بضم الراء والجيم وهو من أعمال شبام اقيان وقرب عزلة الشاحذية.

(٤) حوشان ويقال له قاع حوشان معروف لهذه الغاية من أعمال ثلا وبين شبام اقيان وحبابه وقد سبق ذكره.

(٥) بنو شهاب قبيلة وبلد هو ما يسمى اليوم بلاد البستان وحازة بني شهاب راجع الأكيل ج ١ - ٣١٨ في أخبار بني شهاب ولهم بقية إلى اليوم وهم الكغديون.

(٦) بنو الراعي لهم بقية في مخلاف حضور.

(٧) حجر الجراد وفي العقود حجر الجواد: موضع هنالك لا يزال عامراً.

(٨) مصنعة هداد: عدة أماكن منها هداد في ظاهر جبل مسور في اتجاه بلاد ثلا وشبام وكأنها

أهلها (١) ثم خرج المنصور فحط في الحقل وأحرق (٢) زرع حدة وسناع(٣).

وفي هذه السنة عزل المنصور فخر الدين بن السلاح عن مكة بابن المسيب بعد أن الزم ابن المسيب نفسه ما لا يؤديه من الحجاز بعد كفاية الجند فغير في ولايته جميع الخير الذي وضعه السلطان نور الدين وأعاد الجبايات والمكوس والمظالم وقطع المربعة التي وضعها نور الدين على زمزم واستولى على الصدقات التي كانت تصل من اليمن وبنى حصناً لنفسه بنخلة (٤) واستحلف هذيلاً لنفسه(٥) ومنع الجند النفقة فتفرقوا عنه.

ولما تحقق الشريف أبو سعيد منه الخلاف على السلطان وثب عليه وأخذ ما معه من مال وخيل وعدد وقيده وأحضر أعيان مكة وقال: إني تحققت أنه يريد الهرب بمال السلطان إلى العراق فأنا غلام السلطان والمال عندي محفوظ والخيل والعدد إلى أن يصل مرسوم السلطان فوردت الأخبار بعد أيام يسيرة بوفاة السلطان.

وفي أول سنة ٤٧ سبع وأربعين طلع عسكر الإمام أحمد بن الحسين عليه السلام حصن كوكبان على حين غفلة من أهله استقلوا فيه خرج عليهم المرتبون فقتلوهم أبرح قتلة.

ثم عاد المنصور إلى صنعاء ووصل إليه الأمير أحمد بن يحيى بن حمزة فخرج إلى لقائه وأكرمه ودخل به صنعاء وأنعم عليه بحصن بكر ثم تقدم السلطان إلى جهة اليمن فحط في قرية العين وجعل طريقه على تنعم (٦) لحرب من فيها وكان فيها الأمير عز الدين محمد بن أحمد بن حمزة وأبو هاشم بن صفي الدين فحاربهم العسكر المنصوري فهزمهم ثم تقدم المنصور

المراد هنا وبني حوال هو من الملوك الحواليين السالفي الذكر وهداد أيضاً من مخلاف الهان ولها ذكر في ما يأتي وهداد أيضاً في عنس: الحدا اليوم وهي شمال ذمار ويأتي ذكره.

(١) غيمان أحد الهياكل اليمينية المشهورة وقد سلف ذكره.

(٢) في الأصل وأخرب ولا معنا له فأصلحناه كما ترى.

(٣) حدة بفتح الحاء وتشديد الدال المهملة أخره هاء بلدة كريمة ومخرف لصنعاء في الجنوب الغربي بمسافة فرسخ وأقل تقريباً وفيها شجرة اللوز والمشمش البرقوق وفيها نهر جاري وسناع قرية مثلها معاندة لها من الشرق بمسافة نصف ميل وكلاهما من منتزهات صنعاء وتكاد تصل صنعاء بحدة في عصرنا هذا.

(٤) نخلة موضع بين مكة والطائف على طريق السيل الكبير وهو مشهور مذكورة في أخبار النبوة وغيرها.

(٥) هذيل قبيلة معروفة إلى هذا العهد نزاريه وانجبت شعراً مجيدين وغيرهم.

(٦) قرية العين بزنة العين الجارحة بلدة من أداني خولان العالية قرب تنعم وتنعم هذه في وادي قروي شرقي صنعاء وفيها السد الأثري المشهور بسد شاحك.

إلى جهران ومعه ابن أخيه أسد الدين فاجتمع أهل بكيل وأهل الصيح وأهل تلك النواحي[1] وعسكر الإمام ومقدمهم الشريف أيضاً وكانوا عشرة آلاف راجل وأرادوا منع المنصور من التقدم إلى بكيل وتركزوا في نجد النوبة[2] فهزمهم العسكر المنصوري وقتل منهم قتلى كثيرة.

ثم وصل الأميران موسى وداود أبناء عبد الله بن حمزة إلى ضهر في خيل ورجل وكان بصنعاء عز الدين المهندس استاذ دار الأمير أسد الدين فحارب الشريفين وطردهما من ضهر وعاد أسد الدين من ذمار إلى صنعاء بعد نزول المنصور إلى اليمن فلزم له أهل البلاد وعسكر الإمام نقيل العابرة[3] ومنعوه من الطلوع إلى صنعاء فطلع عليهم قهراً بالسيف وهزمهم ودخل صنعاء.

ثم خرج بعد ذلك إلى الكميم في لقاء الخزائن فاجتمعت سنحان كافة[4] وعسكر الإمام وهموا بالخزائن وكانوا من أربعة آلاف راجل ومائة وخمسون فارساً فقاتلهم وهزمهم ثم خالفت عليه البلاد وافترق عسكره من العرب والغز وهربوا إلى الأمام ولم يبق معه إلا مماليكه فما اكترث لشيء وكانت الحرب بينه وبين الأشراف سجالاً على قلة عسكره وإقبال الناس على الإمام.

ثم كانت وقعت قارن بين الإمام أحمد بن الحسين وبين بني حمزة فقتل من بني حمزة طائفة وأسرت طائفة وكان يوماً مشهوداً.

وفي أربع شوال سنة ٤٧ سبع وأربعين استشهد الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول في قصر الجند وثب عليه جماعة من مماليكه فقتلوه وكانت مماليكه البحرية ألف فارس وكانوا يحسنون من الفروسية والرمي ما لا يحسنه أحد من مماليك مصر يقال إن الأمير أسد الدين بن الحسن بن علي بن رسول الله هو الذي شجعهم على ذلك وآنسهم ووعدهم بما طابت به أنفسهم لأن عمه المنصور كان قد أقطعه صنعاء وأراد أن يعزله بولده المظفر بن منصور فتعب من ذلك فعاملهم على قتله فقتلوه، ولم ير بعد عمه يوماً سعيداً أبداً.

---

(١) بكيل ويقال له قاع بكيل غربي جهران والمطل عليه مدينة ضوران من جنوبه راجع الاكليل ٢ - ١١ والصيح بالصاد المهملة والياء المثناة من تحت آخره هاء مهملة بلدة عامرة من ظاهر بكيل المذكور.

(٢) نجد النوبة هو المضيق والممر إلى قاع بكيل وضوران وغيرهما وهو ما يسمى المنشية اليوم.

(٣) سلف الكلام على نقيل العابرة.

(٤) سنحان قبيلة سلف ذكرها.

وكان الملك المنصور كريماً حازماً حسن السياسة سريع النهضة عند الحادثة وأعظم الدلائل على ذلك طرد العسكر المصرية[1] مرة بعد أخرى عن مكة واستمالته عدة من عسكرهم ومنهم مبارز الدين بن برطاش وفيروز ومن أولاد فيروز الأمرا بنو فيروز أصحاب إب[2].

ولما قتل المنصور بقصر الجند لم يكن عنده أحد من أولاده بل كان المظفر في المهجم وإخوته أولاد بنت حوزة بحصن تعز فاجتمع بنو فيروز وحملوا السلطان إلى تعز فقبروه بالأتابكية بذي هزيم[3] لكونه مزوجاً على بنت الأتابك سنقر المعروفة ببنت جوزة وكان المظفر يشكرهم ويعرف لهم ذلك واقطعهم إقطاعاً جليلة.

ومن مآثر الملك المنصور مدرسة بمكة ومدرستان بتعز الوزيرية نسبة إلى مدرسها الوزيري[4] والغرابية نسبة إلى مؤذنها غراب وكان صالحاً ومدرسة بعدن وثلاث مدارس بزبيد شافعية وحنفية وبها مكان للحديث النبوي ومدرسة بالمنسكية بسهام[5] ورتب في كل مدرسة إماماً ومدرساً ومعيداً ودرسة ومؤذنين ومعلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن ووقف على كل ما يقوم به.

قال الجندي وابتنى في كل قرية من التهائم مسجداً وأوقف عليها أوقافاً جيدة وكان النوري[6] مفازة تهلك بها الناس فابتنى بها مسجداً وجعل فيه إماماً ومؤذناً وشرط لمن يسكن معه مساحة من الزرع فسكنها اناس حتى صارت قرية جيدة.

قال الجندي، والخزرجي: وما أظن نسبتها إلا إليه لأنه نور الدين، وله بين المدينتين[7] حصون كثيرة ومصانع ورتب فيها العساكر لحرب بني أيوب، وأمر بعمارة البرك[8] وهو

(١) في خ: طرده للعساكر المصريا.

(٢) بنو فيروز لهم اليوم بقية في إب وحبيش ولهم أوقاف بظهار مدينة إب من جدهم شمس الدين وهي أموال رغيبة وقد ترجم لأعيانهم الجندي ومنهم المؤرخ يوسف بن محمد فيروز.

(٣) ذو هزيم لعله قد سبق ذكرها وهي في غربي مدينة تعز وضبطها بضم الهاء وفتح الزاي والياء المثناة من تحت ثم ميم ويقال لها اليوم المدرسة.

(٤) الوزيري نسبة إلى الوزيرة مقاطعة من الكلاع: العدين شمال مدينة تعز ترجم له الجندي وكذلك غراب وكلا المدرستين اطلال لا يعرفان.

(٥) المنسكية من وادي سهام وقد سلف الكلام على سهام.

(٦) موضع النوري لا يعرف اليوم.

(٧) المدينتين مكة والمدينة.

(٨) البرك سلف ذكرها ولا تزال ميناء لبلاد الأزد والسروات من جبال عسير وليست بين مكة والمدينة كما وهم المؤلف.

جبل متصل بساحل البحر بين مكة والمدينة ورتب فيه العساكر وكان الملك المنصور حنفي المذهب ثم تشفع روي عن الفقيه محمد بن إبراهيم الفشلي [1] قال: أخبرني المنصور من لفظه أنه كان حنفي المذهب فرأى في منامه النبي ﷺ يقول له يا عمر صر إلى مذهب الشافعي، أو كما قال فأصبح ينظر في مذهب الشافعي ويعتمده.

وكان المنصور يصحب الشيخ والفقيه صاحبا عواجة [2] وهما ممن بشره بالملك، وكان له من الولد ثلاثة المظفر وهو أكبرهم والمفضل والفائز، ولد المظفر بمكة أيام امرة أبيه سنة تسع عشرة وستمائة وهو الذي تولى الملك بعد أبيه كما سنذكره إنشاء الله تعالى، وكان أبوه قد أقصاه وقلاه وقدم أخويه عليه موافقة لامهما بنت جوزة وكانت غلبت عليه حتى أنه استحلف العسكر لابنه المفضل مع كونه أصغر من المظفر.

وكانت مدة ملكه ثماني عشرة سنة استقلالاً لأنه من قبلها كان يظهر أنه نائب لبني أيوب وكان له من الشعراء التاج ابن العطار أحد فضلاء مصر والأديب محمد بن حمير أحد فضلاء اليمن.

اجتمعا يوما في مجلس الشراب فقال ابن العطار للسلطان يا مولانا أنا شاعرك من الديار المصرية وأراك تفضل ابن حمير عليّ وتنعم عليه أكثر مني فقال له المنصور: ابن حمير حاضر القريحة سريع البديهة، وأنتم يا أهل مصر وإن كنتم فضلاء تبطئون ثم التفت إلى ابن حمير فقال له: ما تقول فالتفت إلى ابن العطار وقال ارتجالاً.

سقتر [3] بعمامة معقودة   لو بعثرت ملت البلاد خميراً
وأبوك عطار فما بال ابنه   يهدي الصنان [4] إلى الرجال بخورا

قال وكان به شيء من ذلك فضحك السلطان نور الدين ومن حضر، وحضر محمد بن

---

(١) الفشلي نسبة الى وادي فشال شمال مدينة زبيد ترجم له الجندي والخزرجي.

(٢) عواجه بالفتح وقد يكسر أوله وقد تضم بلدة شرقي بيت الفقية وفي حزاز جبال ريمة والشيخ هو محمد بن أبي بكر الحكمي أحد مشايخ الصوفية اشتهرا بالتقشف والعزوف عن الدنيا وقد ترجم له الحافظ الشرجي الزبيدي في طبقات الخواص ترجمة إضافية ص ١١٤ والفقيه هو محمد بن الحسين البجلي كان رفيق الشيخ الحكمي في العلم والعرفان والسلوك وامتهان النفس وتلازما حتى فارقا الحياة ولا يطلق أحدهما إلا وجانبه الآخر وهو أيضاً مترجم له في الطبقات المذكورة.

(٣) لم تظهر هذه وهو مكتوبة في الأصول هكذا وفي العقود اللؤلؤية مشتمر وفي المسجد: مستقر وفي نسخة محمد بن يحي شيبان متفشر وكذلك حمير بالأصول بالحاء المهملة وصوابه خميرا بالخاء المعجمة للمناسبة.

(٤) الصنان بضم الصاد وكسرها: ذفر الأبط كافي القاموس.

حمير يوماً آخر بمجلس الشراب عند المنصور وعنده ابن أخيه أسد الدين وكان لأسد الدين شاعر من أهل الشرق[1] يسمى علي بن أحمد فجعل أسد الدين يثني عليه أي على شاعره فقال السلطان لابن حمير ما تقول فقال ارتجالاً :

أنا البحر فياض بكل غريبة ... أحل بها المنصور درا وجوهرا
وما أن أبالي عن علي بن أحمد ... وعن شعره ذقن بن أحمد في الخرا

وكان ابن حمير شاعراً فصيحاً وهو القائل في نور الدين المنصور

قد قيل جاور لتغني البحر أو ملكاً ... أنت المليك وأنت البحر يا عمر[2]

وقال فيه من قصيدة أخرى :

قل للقوافي قفي على عمر ... إياك أن تخدعي فتنخدعي
حلى المكان الرفيع ترتفعي ... ولا تحلي الوضيع تتضعي

ولما توفي المنصور سار المماليك بأسرهم إلى زبيد ثم إلى فشال وكان بها الأمير أبو بكر بن الحسن أخو أسد الدين بن الحسن مقطعاً فلقبوه المعظم وحلفوا له وقصدوا مدينة زبيد فحاصروها حصاراً شديداً وكان بها يومئذ الدار الشمسي[3] أخت الملك المظفر ووالدته والطواشي بدر الدين الملقب بالصغير، وكان محبوساً بزبيد سجنته بنت جوزة لكونه لا يحب إلا المظفر فأخرجته الدار الشمسي من الحبس وأعطته ما لا جزيلاً فاستخدم الرجال وأغلق المدينة بينها وحفظ أسوارها ورتب المقاتلة على الدرب وحارب المماليك والأمير فخر الدين على كره من الأمير والناظر بزبيد والأمير يومئذ مملوك اسمه قائماز والناظر غريب يعرف بالشرف، ولم تزل المحطة والحصار على زبيد حتى سمعوا بالمظفر قد صار في الطريق قاصداً زبيد فارتفعوا حينئذ والله أعلم.

الفصل السابع
في ذكر السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول

قال المؤرخون لما استشهد الملك المنصور بالجند كان ابنه المظفر غائباً بالمهجم في تاريخه وكان غير طيب النفس من والده لما قدم عليه أخويه المفضل والفائز. وكانت أمهما قد استمالت

(١) الشرق أي المشرق: مشرق اليمن.
(٢) سبق ما يشبه هذا البيت لابن المغربي في الملك المفضل الحميري.
(٣) ترجم الجندي للدار الشمسي وذكر لها من الخيرات والمبرات كثيراً فارجع إليه.

المنصور وغلبت عليه وأبعدت ولده المظفر وأخته الدار الشمسي عن أبيهما حتى حلف العسكر لولده المفضل أحد ابني بنت جوزة فهم الملك المظفر تلك السنة بالخروج من اليمن إلى المستعصم العباسي الخليفة بالعراق فلما بلغه العلم بوفاة أبيه شق عليه الأمر وانثنى عزمه عـن الخروج مـن اليمن وضاق ذرعه لما حدث له من الحوادث العظيمة من فقده والده وانحياز المماليك بأسرهم إلى ابن عمه فخر الدبن بن الحسن وحصارهم لزبيد واستيلاء ابن عمه أسد الدين بن الحسن على صنعاء وأعمالها وقيام أحمد بن الحسين عليه السلام في البلاد العليا وانتشار صيته بها واستيلائه على معظم حصونها واستيلاء اخويه المفضل والفائز على الحصون والمدائن والمعاقل والخزائن ولم يكن في يد المظفر إلا قائم سيفه إلا أن القلوب مملوءة بمحبته فجمع العسكر وشمر وخرج من المهجم إلى زبيد يستخدم من مر به من العرب.

وكان خروجه بإشارة الشيخ أبي الغيث بن جميل وسار في خدمته رؤساء العرب وكان معه مائة وخمسون فارساً ومن الرجل ألفان وكان ابن عمه فخر الدين في ستمائة مملوك محاصراً لزبيد فجاء الخبر إلى المظفر بذلك إلى ذوال[1] فركب فرسه وجمع العرب، وشجعهم.

ولما علم فخر الدين بقرب السلطان اضطربت محطته وعزم على المسير إلى صنعاء لاحقاً بأخيه أسد الدين فاجتمع رؤساء المماليك وهم الأكثر وطلبوا ذمة من المظفر فاذم عليهم بشرط أن يقبضوا فخر الدين والخصوم الذين قتلوا السلطان فلزموهم ولقوه بهم تحت الحفظ إلى رمع[2] وكان علي بن يحيى[3] ظاهره مع السلطان وباطنه مع أسد الدين وكان شاعراً فصيحاً من عنس قبيلة من قحطان فكتب إلى الأمير أسد الدين يحثه على القيام ويحرضه على فكاك أخيه كتاباً يقول فيه:

لو كنت تعلم يا محمد ما جرى	لشننتها شعث النواصي ضمرا
ترمي بها دربي تعز على الوجى	لتنال مجداً أو تشيد مفخرا
لا بد أن تنجي أخاك حقيقة	منها وإما أن تموت فتعذرا
إن ابن برطاش تمكن فرصة	آه على موت يباع فيشترى
صح يا آل حمزة يأت وأخصص أحمدا	لتخص من بين النجوم الأزهرا

(١) ذوال بضم الذال المعجمة والواو واخره لام أحد ميازيب اليمن التي يقع بين رمع، وسهام وتصب قرب قرية القحمة.

(٢) رمع بكسر الراء وفتح الميم اخره عين مهملة ميزاب من ميازيب اليمن المشهورة وقد سلف ذكره.

(٣) هو العنسي ترجم له الجندي ترجمة إضافية وكذا الخزرجي.

يعني أحمد بن الحسين، وقيل أحمد بن الإمام عبدالله بن حمزة فاتصل علمه بالسلطان فلم يؤاخذه بشيء.

ودخل المظفر زبيد غرة ذي الحجة من سنة سبع وأربعين وستمائة في موكب عظيم فأقام السماط وقامت الشعراء بالمدايح والتهاني فأنشده يومئذ الفقيه أبو بكر بن دعاس[1] وكان خصيصاً به بقوله:

إن غاب نور الدي عن أفق العلا … فانظر ضيا الشمس قد ملأ الملا
أو كان جفن الدهر أمسى أرمداً … فاليوم أصبح بالمظفر أكحلا
لا تجزع الدنيا لفقد مليكها … رزئت برضوى فاستعاضت يذبلا
ما كان رزء الملك ألا غيهباً … عم الورى وافاه صبح فانجلا
بالملك عاد الكسر جبرا وأنثنى … جيد العلا خال وكان معطلا
هي دولة غرآ وهذا مالك … أضحى الزمان به أغر محجلا
لم ترض غيرك يا أبا عمر لها … فاستجلها أن العرائس تجتلا
ما زلت معترفاً بنعمة ربها … متضرعاً لقدومها متبتلا
أو ما تراها في زبيد تزدهي … وتميس في حلل المفاخر والحلا
أمهرتها وافي الصداق فما لها … كفؤ سواك ولا تريد تبدلا
جأتك طائعة ولم تهزز لها … رمحا ولم تشهر عليها منصلا
قل للذي رام التملك جاهلاً … وسعى فضل عن السبيل وضللا
ما أنت والملك الذي لا سره … باد عليك ولست فيه موهلا
إرجع إلى كأس الطلا ودع العلا … للمغمذ الأسياف في هام الطلا
ولصاحب الجيش الذي سد الفضا … وفلا بحد السيف ناصية الفلا
وأعاد ريحك حين هبت أزيباً … نكبا بريح منه هبت شمألا
أولى الورى بالملك والده الذي … ينفك يكتسب المفاخر أولا
هي دولتي وأنا الذي أملتها … والله يعطي سؤله من أملا[2]

ولما استقر في زبيد وحملت إليه حواصل التهائم وأنشرح صدره استأذنه مشائخ العرب في العودة إلى بلادهم فأذن لهم وأكرمهم وأحسن جوائزهم.

ثم خرج فاستولى على لحج وعدن وأبين وحصون المعافر كلها ثم حط على حصن تعز

---

(١) ابن دعاس ترجم له الخزرجي في الطبقات فارجع إليهاوالجندي.

(٢) ما جاء في هذه المقطوعة من الألفاظ لا تحتاج إلى تفسير فهي معروفة.

فتسلمه وتسلم حصن يمين ومنيف [١] في سنة ثمان وأربعين وكان جبا أول بلد دخله [٢] ثم تسلم حصن جب في رجب في السنة المذكورة وفي ذلك يقول الأديب محمد بن حمير :

وإن ملك ولى فـذي دولـة لـه ... وفي يوسف نعم المعوضة عن عمر
أغـار بها مـن بطـن ملحا غـافـق ... محجلة الأرساغ واضحة الغـرر [٣]
ونـادت زبيـد يـا مظفـر مـرحبـا ... أضـاء لـك النـادي وقـربـك المقر
وسـار إلى حـب وحـب يحبـه ... وما حب يعصيه ولـو شـأما قـدر
حصـون أبيـه وهـي بـالشرع إرثـه ... وبالسيـف ليس السيـف إلا لمن قهـر

وفي أثناء هذه المدة اتفق الإمام أحمد بن الحسين والأمير أحمد بن عبدالله بن حمزة وقصدا أسد الدين إلى صنعاء فخرج منها وطلع حصن براش ودخل الإمام صنعاء مع كافة الأشراف والقبائل مجيبة له، واستولى على ذمار وجهاتها وكان الأمراء الحمزيون معه وهو غير واثق بهم وكان أسد الدين في براش وهو يغادي الإمام ويراوحه بالقتال وقد اجتمعت العرب مع الإمام عليه فلما طال عليه الأمر أرسل إلى الأمير أحمد بن عبدالله بن حمزة على أن يصلح بينه وبين الإمام فأشار عليه الرجوع إلى ابن عمه السلطان المظفر.

ثم اجتمع رأي أسد الدين ورأى الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام عبدالله بن حمزة أن يسعوا في الصلح بين الأمير أسد الدين والإمام وأن الإمام يجهز أسد الدين إلى اليمن لحرب ابن عمه المظفر فإذا صار قريباً من السلطان أصلح بنو حاتم بينه وبين السلطان فانتظم الأمر على ذلك وسار أسد الدين في عسكر عظيم فلما وصل الشوافي خرج المظفر في عسكر فحط مقابلاً له فأصلح بينهما بنو حاتم فالتقيا وترجل كل واحد منهما لصاحبه ثم سار أسد الدين قدام المظفر وحمل الغاشية بين يديه فلما بلغ المرتبة الشريفة أنعم السلطان على أسد الدين بما هاله.

ثم أمر السلطان أسد الدين بالعود إلى صنعاء في عسكر فلما علم به الإمام خرج من صنعاء إلى سناع بعد أن أخرج قصرى أسد الدين وأخيه فخر الدين.

ثم طلع المظفر إلى صنعاء في آخر سنة ثمان وأربعين ثم تسلم حصن التعكر بعد رجوعه من صنعاء أول سنة تسع وأربعين وحينئذ وصل العلم بقدوم بدر الدين الحسن وفخر الدين أبي

---

(١) سلف الكلام على يمين ومنيف.

(٢) جبا مضى ذكرها راجع صفة جزيرة العرب.

(٣) ملحا موضع في بطن تهامة قرب المهجم وهو متشعث وغافق قبيلة من عك ثم من الأزد راجع الانساب.

بكر ابني علي بن رسول عمي المظفر فأوجب ذلك الصلح بين الملك المظفر وبين الإمام فاصطلحا ثم كتب المظفر إلى كافة نوابه بتهامة أن يكرموا عميه غاية الإكرام ففعلوا ذلك ثم سارا يريدان تعز فلما بلغا حيس علما بنزول المظفر فانتظراه حتى وصل فتلقياه وترجلا له ولما صاروا بالقصر أمر بقبضهما، وإيداعهما دار الأدب بحصن تعز [1]. فلما دخلوا باب الحصن قال الأمير بدر الدين قبحك الله من قلعة خرجنا منك مقيدين ورجعنا إليك مقيدين ثم تمثل بقول الشاعر الأول.

أقول كما يقول حمار سوء | وقد ساموه حملا لا يطيق
سأصبر والأمور لها إتساع | كما أن الأمور لها مضيق
فأما أن أموت أو المكاري | وأما تنقضي عنا الطريق

وقد كان فيه فخر الدين بن الحسن بن علي بن رسول محبوساً.

وفي هذه السنة تقدمت الرسالة المظفرية إلى الخليفة المستعصم بالله ببغداد فقرأها الخليفة ودعا للمظفر وأمر أن يكتب له منشوراً وولاه العهد، وأجازه بأربعين ألفا وخلعة وكتب إليه يأمره باستئصال الإمام أحمد بن الحسين عليه السلام.

ولما قتل الإمام أحمد بن الحسين رحمه الله كما سيأتي ذكره كتب المظفر إلى الخليفة يعلمه بذلك فلما بلغ الرسول براقش [2] بلغه الخبر بقتل الخليفة المستعصم ودخول التتار بغداد [3].

وفي هذه السنة اصطلح المظفر وأخواه المفضل والفائز واقطعهما لحجا وأبين.

وفي سنة ٦٥٠ ستمائة وخمسين دخل أسد الدين في طاعة الإمام وباع عليه حصن براش بمائتي ألف درهم[4] وانتقض الصلح بين السلطان والإمام وسير الإمام أسد الدين وعساكراً إلى ذمار وجهز معه عسكراً من قبله جعل عليهم الشريف هبة الله بن الفضل العلوي.

فلما علم المظفر جرد الطواشي تاج الدين بدر والأمير شمس الدين علي بن يحيى ثم رجع علي بن يحيى وسار تاج الدين وحده فهرب أسد الدين ومن معه إلى السواد [5] ولزموا الجبل

---

(١) لأن الملك المسعود الايوبي قبض عليهما وزجهما في حبس قاهرة تعز ثم نفاهما إلى مصر كما سبق.

(٢) براقش مدينة أثرية لمملكة معين القحطانية ولا زال اطلالها ظاهرة راجع الجزء الثامن من الاكليل واليمن الخضراء.

(٣) راجع حادثة التتر تاريخ ابن الأثير وياقوت الحموي وغيرهما.

(٤) وفرض الإمام هذه الضريبة على من تحت يده من ذكر وأنثى محتلم راجع تاريخنا وشروح البسامه.

(٥) السواد: سواد حزيز جنوب صنعاء.

واستمدوا الإمام فأمدهم بأحمد بن الإمام وجميع العرب من بني شهاب وسنحان وغيرهم فحصل بينهم عدة وقائع ثم إن الإمام تابع الإمداد حتى لم يبق أحد من القبائل إلا صدره إليهم.

فلما رأى أسد الدين أدركته الحمية فانذر الطواشي تاج الدين وصوب له الرجوع إلى السلطان بعسكره وافراً فإذا طلع هو به لا يقوم في وجهه واحد فعاد الطواشي إلى اليمن.

وفي هذه السنة استولى السلطان على الدملوة وذلك أنه جعل عند زوجة أبيه بنت جوزة ولده الأشرف وأخته وأمها والطواشي ياقوت رهاين على أن يسلم له حصن تعز ففعلت فكانوا عندها فساسوا الأمر واتقنوا القضية، وقيل بل طلعت أخت المظفر الدار الشمسي مظهرة المغاضبة لأخيها والشكوى منه فكانت بالدملوة عند أخويها وخالتها، وكان ياقوت معها فاستحلفت الرتبة واستمالتهم إلى أن أحكمت الأمر ثم قيل لبنت جوزة إن بقرة ولدت عجلا له رأسان فنزلت هي وأولادها إلى الجوءة لتنظر ذلك فلما نزلوا أوقد ياقوت ناراً في رأس الحصن وكانت أمارة بينه وبين السلطان وكان في حب فركب من ساعته فلما قرب من الحصن نزل فإذا بالنقيب قائم بين يديه فقال من أنت فقال عبدك منصور فتفأل به فكساه ورفع منصبه ثم دخل الحصن وتسلمه.

ولما رجع تاج الدين ورجع أسد الدين إلى البلاد العليا فسد ما بينه وبين الإمام فسار نحو المشرق وكان في صحبته الأمير علي بن وهاس في جماعة حتى بلغ عمقين وعمدان وجردان [1] وهي أودية في المشرق فقصدتها العساكر المظفرية فضاقت مسالكها ولم يروا بدا من قصد الشيخ علوان بن عبدالله الجحدري الكردي [2] على ما بين أسد الدين وبين علوان من العداوة في الدولة المنصوري فلما نزلوا عليه لقيهم بالرحب، وأنزلهم بالعروسين [3] وأكرمهم وأجارهم فقصدهم السلطان وحط في بلاد علوان وأخرب عدة مواضع ولم يزل

---

(١) عمقين بضم العين المهملة وسكون الميم ثم ياء متناة من تحت بعد ألقاف أخره نون بلد معروف من وادي جردان وعمدان بالتحريك هنالك وجردان بضم الجيم وأخره نون فعلان والعامة تكسر الجيم وهو وادمشهور كثير الآثار وينسب إليه العسل الفاخر الجرداني وجاء ذكره في المساند الحميرية الأوسانية كما جاء ذكره في أخبار الوفود وسكانه من مذحج وهو ما بين بلاد الواحدي وبيحان ويتاخم حضرموت ويسميه العامة بلاد الدولة راجع الجزء الأول من تاريخنا ص ٣٩٠ وصفة جريرة العرب ص ١٤٧ باخراجنا.

(٢) الكردي لقب له وإنما هو من قبيلة مذحج القحطانية وترجم له الجندي والخزرجي.

(٣) العروسان تثنية عروس ويقعان في عزلة الفجرة ثم في جبل العود وهما اليوم أطلال وكانت بلد علوان بلاد العود وحجر وبدر التي منها قعطبة راجع تاريخنا.

الشيخ علوان يلاطف السلطان لأسد الدين حتى أذم عليه على يده فقال علوان في ذلك وكان من الفصحاء.

سلام على الدار الذي في عراصها ... معاهد قوم لا يذم لهم عهد
أناخوا علينا نازلين وفيهم ... طوال القنا والمشرفية والجرد
ليوث وغى خاضوا الرمال فذللوا ... مقاولها [١] فارتاع من خوفهم نجد

ومنها:

يقودهم الملك الذي في يمينه ... عوارف منهن المنية والرفد
تحف به القوم الذين سيوفهم ... عقائق حمر لا يلائمها عقد
رأوا موردا عذبا فلما دنوا له ... وقد اشرعوا قلن المقادير لا الورد
وجاش عليهم للمظفر عارض ... له البيض برق والطبول له رعد
همام أبى أن يسلم الملك فانبرى ... وحوليه أرباب الزعامة والحمد
أكارم كانوا لي عدواً فاصبحوا ... ينادون يا علوان قد ذهب الحقد
فقلت لهم في فرع تيما فانزلوا ... ألا مرحبا هذا السمو أل والفرد [٢]
مددت لهم ظل العروسين دانيا ... بسطت لهم أيدي الرجا الذي مدوا
فشكرا لمن أدنى ركاب محمد ... إلى واهداه إلى الفلك السعد
وأصبح أرباب الزعامة حولنا ... ولا رابني منها الوعيد ولا الوعد
ملوك دنى بعض لبعض فأصبحت ... كتائب عزمى وهي بينهم سد
وأسد إلى أسد تدانت فصدها ... على حنق ما بينها ألا سد الورد
فمن لفخار العرب مثلي ومن لها ... كمثل مقامي في المكارم إن عدوا
فحسبى أنى العز [٣] من آل يعرب ... وأنى لمن يأوي إلى كنفي عبد

---

(١) مقاولها جمع قيل وهو مادون الملك.

(٢) تيما بالمد والقصر بلد في منتهى شمال الحجاز قرب وادي القرى والسموأل هو ابن عاديا الغساني الذي يضرب بوفائه المثل.

(٣) علوان وكانت وفاة القيل علوان تسع وخمسين وستمائة وله ديوان شعر لم نعثر عليه بعد ومن شعره.

تالله لا استوطنت أرضاً تربها ... مسك إذا حظى بها مهضوم
وعلام أوطنها وعرضي وافر ... والرزق من رب السماء مقسوم
لا آمن الأيام وهي معارة ... لا لليالي السود وهي هموم
مثلي يقوم ببلدة بقضي بها ... حقي وحق ذاك يقوم
وإذا ظنوني أخلفتني بالذي ... فوق التراب فحسبي القيوم

ثم نزل أسد الدين إلى المظفر فاكرمه وسيره في عسكر كثيف إلى صنعاء فلما علم به الإمام خرج من صنعاء ثم عاد السلطان إلى اليمن فتسلم حصن دروان من الشيخ الورد محمد بن ناجي[1].

وفي سنة إحدى وخمسين وستمائة اختلف الإمام والأمير أحمد بن الإمام عبدالله بن حمزة وبنو عمه فاستنصروا بالسلطان على الإمام فجهز إليهم ابن عمه أسد الدين فحطوا على الزاهر فاخربوه[2] فالتقى بالأمير أحمد في براقش ثم ساروا جميعاً إلى صعدة وكان الإمام يومئذ بصعدة فخرج بعسكره وحط فقاتلهم فلما دخلت العساكر المظفرية إلى مخلاف صعدة تأخر الإمام إلى علاف[3] ورتب بصعدة الشريف الحسن بن وهاس فاقامت المحطة على صعدة والأمير شمس الدين والأمير أسد الدين يغاديانهم ويراوحانهم بالقتال حتى انقضت عنهم المادة ثم فتحتُ صعدة وأسر الشريف الحسن بن وهاس ومن معه وأجار أسد الدين الناس وستر الحريم وشحن براش صعدة شحنة جيدة وفي ذلك يقول الأمير عز الدين بن سعيد بن بشر بن حاتم على لسان الأمير أحمد بن الإمام عبدالله بن حمزة ممتدحاً للمظفر قصيدة أولها:

سـلام محـب وده مـا تصرمـا	يـزورك مـن مجد وإن كـان متهما
سلام كنشر الروض بـاكـره الحيـا	فـاضحـى أنيقـا مشرقـاً متبسما
يخصك من قرب وإن كنت نـائيـاً	وتهدي تحياتي فـرادى وتـوأمـا
فيـا أيها الملـك المظفـر والذي	حمى قصبات الملك أن يتهـدمـا
ويـا دافـع الجلا والخطـب مبهـم	وقـد جـن ليـل الحادثـات وأظلما
ملكـت فلم تفخـر ونلـت فلم تطـل	وجدت فلم تترك على الأرض معدمـا
وصلـت فلم تترك عليهـا معـانـداً	ولـو أنـه يـرقـا إلى الجـو سلما
إليك أبا المنصور أهـديت أحـرفـا	أبثـك أخبـاراً وإن كنـت أعلما
فشمـر لنيـل المجـد إذ أنـت أهلـه	وتمم على اسم الله تــدع متممـا
فلم يبـق في الأقـوام إلا حثـالـة	تهب بها ريـح الصبـا أن تنسما
صعـدت بها أعمال صعـدة سبحـا	تبـارى كـأمثـال السراحين سهما[4]

(١) سلف الكلام على دروان وعلى بني ناجي التباعيين الحميريين.

(٢) الزاهر: حصن معروف في الجوف.

(٣) علاف بالفتح: والعامة تكسره من اجود اودية صعده من غربيها «انظر صفة جزيرة العرب ص ٢٤٩».

(٤) السراحين جمع سرحان وهو الذئاب وسهم جمع ساهم متغير اللون.

ولاحت من الأقطار أعمال يوسف — كأن شعاع الشمس فيها تبسما
وصاحت طيور السعد من كل وجهة — تبادر بالترحاب إذ كن حوما
فلا ملك إلا وأرخى قياده — ولا قائم إلا تولى واحجما
ولله در الأريحي محمد — شقيقك محمود الثنا مانع الحما
فوالله ما جشمته لملمة — على مثل حد السيف إلا تجشما
فيا ابن الملوك الغر من آل جفنة — غدا مجدهم فوق السماء مخيما
لأنت صفي الود إذ أنت أهله — ولا أرتضي إلاك ركناً ومغنما

وهي طويلة بليغة[١] ثم عاد أسد الدين والأمير شمس الدين إلى صنعاء بمن معهم من الأشراف ثم توجها أيضاً بأمر الملك المظفر إلى الظاهر[٢] قاصدين بلد حاشد وهي مخلاف ابن وهاس فخربوا فيها مواضع ثم قصدوا الإمام أحمد بن الحسين إلى موضع من بلد حمير يسمى المهجرة[٣]، وكان قد جمع فيه جموعاً بنقيل الحصبات[٤] فهزموهم هزيمة شنيعة وقتلوا منهم جمعاً منهم الفقيه حميد بن أحمد المحلي من كبار علماء الزيدية وفضلائها له تصانيف جامعة ورسائل[٥].

واستأسروا شمس الدين أحمد بن يحيى بن حمزة وكان مخالفاً للإمام علي بني عمه الحمزيين وهرب الإمام بعد أن أشفى على الهلاك ثم تحصن في حلب[٦] ثم رجع الأميران إلى الظاهر.

وفي هذه السنة جهز الملك المظفر مبارز الدين الحسين بن علي بن برطاش إلى مكة في مائتي فارس فلقيه الأشراف على باب مكة فكسرهم ودخل مكة وحج بالناس وفي شوال

---

(١) أوردها الخزرجي بأكملها وفي غاية الأماني ص ٤٤٠ ثم قصد الإمام إلى هجرة بني قطيل من بلاد حمير وكان الإمام قد جمع جموعاً كبيرة وجهزهم إلى نقيل الحصبات فغشاهم عسكر الأميرين من جوانب النقيل فهز مهم أشد هزيمة عنه وقتل معهم مقتلة عظيمة من أعيانهم الفقيه العلامة حميد بن أحمد المحلى صاحب التصانيف المشهورة رحمه الله.

(٢) الظاهر من بلد حاشد ولعله قد سبق ذكره وراجع صفة جزيرة العرب.

(٣) المهجرة: موضع لا يزال قائماً من بلاد السود وأعمال ثلا وهو من بلد حمير.

(٤) نقيل الحصبات معروف من بلاد السود تابع ثلا وفي شمالها.

(٥) له ترجمة كبيرة في مطلع البدور لابن أبي الرجال ويلقب بالشهيد وهو همداني ثم من نهم وله من المؤلفات الحدائق الوردية في تاريخ الأئمة الزيدية وله عقب صالح أو لو فقه وصلاح في الظهرين من حجة وجبل السود من أعمال ثلا.

(٦) حلب على زنة حلب الشهباء التي في بر الشام حصن بين بلاد ثلا وبين المصانع هو اليوم خرائب.

منها وصل الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام عبدالله بن حمزة وأخوه داود إلى محروس زبيد والمظفر بها فأكرمهم وأنصفهم بما لم يسمع بمثله وأظل عيد الأضحى وهم بالباب الشريف فقال الأمير شمس الدين قصيدة عظيمة يمدح بها السلطان أولها [١] .

لعل الليالي الماضيات تعود ... فتبدو نجوم الدهر وهي سعود

إلى أن قال فيها :

ولما قصدت الملك ذا التاج يوسفا ... علمت بأن الهم ليس يعود
دعوت فلباني فتى لا معربد ... ملول ولا واهي اليدين بليد
أناخت بك الأمال وهي ركائب ... لأرسانها لطف الأله يقود
فادنيت من أمواج بحرك غمرة ... أصول بها فيمن بغى فيبيد
وخف بشرحي الترك والعرب فاغتدى ... بعزك ركني اليوم وهو شديد
فدم في ظلال الملك ما هبت الصبا ... وما جن في جنح الظلام رعود

ثم لما عزم شمس الدين على الرجوع حمل إليه السلطان من الأموال والطرف ما لا يحصى واقطعه القحمة .

وفي سنة ثلاث وخمسين وستمائة جمع أشراف مكة جمعاً عظيماً وقصدوا ابن برطاش وحاصروه وكسروه وقتلوا جمعاً من أصحابه فاشترى نفسه منهم وعاد إلى اليمن هو والجند الذي كانوا معه .

وفي السنة التي بعدها خرجت نار بقرب المدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وكانت تأكل الحجر ولا تضر الشجر فأقامت مدة يعلو لهبها ليلاً ونهاراً وكانت ترى من مسافة أيام ثم طفئت بعد مدة [٢] .

وفي رمضان من السنة المذكورة احترق مسجد المدينة ولم يبق إلا محل الضريح الشريف عليه السلام [٣] .

وفي سنة خمس وخمسين وستمائة اجتمع علماء الزيدية [٤] فعابو على الإمام أحمد بن الحسين

---

(١) أورد القصيدة باكملها المؤرخ أحمد بن صالح أبو الرجال في تاريخه مطلع البدور ومجمع البحور وكذا الخزرجي في العقود اللؤلؤية وقد نقد الأمير شمس الدين لمدحه الملك المظفر علماء الشيعة على عادتهم .

(٢) راجع تاريخ المدينة المنورة للسمهودي وغيره .

(٣) راجع تاريخ المدينة المنورة للسمهودي وغيره .

(٤) وعلى رأسهم أحمد بن محمد الرصاص من علماء الزيدية .

أشياء من سيرته وطعنوا عليه وأنكروا أفعاله إنكاراً عظيماً فأمر باخافتهم فخرجوا غضاباً إلى بلاد بني صفي الدين فأرسل إليهم السيد الحسن ابن وهاس ليسمع ما عابوا عليه فقال [١] خواصه لا ترسله إليهم يستميلونه إليهم وأرسلهم فلما وصلهم ناضروه واستمالوه فاجتمعت كلمتهم وكلمته وصار راسهم فكاتبهم الأمير شمس الدين أحمد ابن الإمام يطلب إتفاقهم على حرب الإمام أحمد بن الحسين عليه السلام فأجابوه إلى ذلك فسر بذلك فخرج من صنعاء وخرجوا من الغرب [٢] فالتقوا بالبون واجتمعوا على قتاله بعد أن سألوه المناظرة فأبى فكتب الأمير شمس الدين إلى المظفر يعلمه بميل الشيعة عن الإمام ويستمده بمال فأمره.

ولما اجتمع الأشراف والشيعة على قتال الإمام بشوابة خرج الإمام في عسكره من حصن مدع وحط قريباً منهم في مكان يقال له المنظر [٣] فوقع القتال فتذامرت عليه الأشراف[٤] من كل جانب وفشل عسكره ولم يثبتوا وكانوا ثلثمائة فارس ونحو ألفى راجل، وكان بنو حمزة ثمانين فارساً وأربعمائة راجل فلما رأى الهزيمة عدل إلى موضع قريب فاستقام فيه ظانا أن الناس يقاتلون معه فهربوا عنه واسلموه فريداً فعقرت فرسه حينئذ وتولى قتله رجالة ظفار، ولم يباشر شمس الدين له [٥] ضربة ولا طعنة.

وكان قتله في صفر سنة ست وخمسين وستمائة، قال الجندي: قتل في اليوم الذي قتل فيه الخليفة المستعصم ببغداد، وكان الإمام أحمد بن الحسين المذكور أمثل أئمة الزيدية المتأخرين علماً وعملاً وجوداً وكرماً وللقاسم بن الهتيمل [٦] فيه غرر المدائح وهي في ديوانه.

---

(١) كان في الأصل فقالوا بلفظ الجمع وذلك مما لا يجوزه أكثر النحويين لأنه جمع بين فاعلين كما هو مقرر في علم النحو وصححناه بالأفراد على القاعدة المشهورة وهو كما صححناه في العقود اللؤلؤية.

(٢) أي المغارب وكان الإمام في بيت ردم من حضور وفي العقود اللؤلؤية بلفظ المغارب.

(٣) المنظر هذه قرب شوابة وما يسمى المنظر ذكرناه في غير هذا المكان قال في العقود: فوق قرن سنوان.

(٤) تذامروا أي لام بعضهم بعضاً على مناجزة الإمام وأن لا يدخلهم الرحمة والعطف أو الخوف والذعر.

(٥) كذا في الأصل وفي العقود .فيه.

(٦) القاسم بن الهيتمل هو ابن علي بن الهيتمل الضمدي الخزاعي وهتيمل بضم الهاء وفتح التاء المثناة من فوق ثم ياء مثناة من تحت ثم لام شاعر مفلق قرين محمد بن حمير الشاعر المتقدم الذكر مدح الملك المظفر وغيره وأكثر مدائحه في هذا الإمام ترجم له الخزرجي وابن أبي الرجال وله ديوان شعر طبع منه جزءاً صالحاً الأستاذ المؤرخ محمد بن أحمد العقيلي.

وقال في العقود: ولما قتل الإمام أحمد بن الحسين كما ذكرنا في تاريخه المذكور كتب الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام عبدالله بن حمزة إلى السلطان الملك المظفر كتاباً يخبره فيه بذلك وأرسل بالكتاب

وفي يوم ثالث قتل الإمام كانت دعوة الشريف الحسن بن وهاس إلى نفسه بالإمامة فبايعه الإشراف والشيعة ثم صار إلى صعدة واقتسم هو والأمير شمس الدين الحصون والبلاد نصفين.

ولما علم المظفر ببيعة ابن وهاس خرج في عساكره إلى الموسعة[1] ثم أرسل الأمير أحمد بن علوان[2] إلى شمس الدين أحمد بن الإمام إلى صعدة، وقد ظن به الظنون فرجع ابن علوان بما أرضاه من العلم فعاد المظفر إلى تعز ثم جهز الحسين بن برطاس إلى حجة فاستولى على بعض حصونها.

وفي ربيع من السنة المذكورة توفي الأمير شمس الدين أحمد ابن الإمام عبدالله بن حمزة رحمه الله بصعدة فأقام بالأمر بعده أخوه نجم الدين موسى ابن الإمام فلم يلبث أن مات وقام من بني حمزة الإمام دودبن الإمام فاتفق هو والحسن بن وهاس مدة.

وفي سنة سبع وخمسين تسلم المظفر حجة وحصونها وحصن الربعة وهداد[3] ثم حصل بين داود بن الإمام وبين ابن وهاس مباعدة عظيمة وافتراق عظيم وفي سنة ثمان وخمسين وستمائة طلب أسد الدين من المظفر أن يجهزه إلى حضرموت فساعده فلما وصل الجوف لقيه خضر بن محمد بن جحاف وعبدالله بن منصور بن ضيغم[4] فطلبا منه النصرة على آل راشد بن منيف فأجابهم وكانوا خالفوا السلطان فوقعت الحرب بينهم فقتل طوق بن حميدان في جماعة من آل راشد فعلم السلطان فضاق صدره على أسد الدين وتعذر على أسد الدين السير نحو حضرموت فتوجه نحو ظفار الأشراف ثم خرج داود بن الإمام والأمير أسد الدين لحرب

رسولاً معجلاً وكانت نسخة الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم يجدد الخدمة ويشكر النعمة لله تعالى ثم للمقام السلطاني خلدالله ملكة وينهي صدورها من المصاف بشوابة ورأس أحمد بن الحسين بين يدي، شعر

وابيض ذي تاج أشاطت رماحنا ... لمعترك بين الفوارس أقتما
هوى بين أيدي الخيل إذ فتكت به ... صدور العوالي تنضح المسك والدما

(١) الموسعة بفتح الميم وسكون الواو ثم سين مهملة وهاء موضع شمال شرقي مدينة ذي جبلة بمسافة ميلين تقريباً.

(٢) هو ابن القيل علوان بن عبدالله بن سعيد المذجي السالف الذكر.

(٣) الربعة حصن من حصون ذمار الواقع غربيها بمسافة ثلاثة فراسخ ولا زال عامراً وله خبر ذكرناه في المعجم وهداد هنا من عنس في شمال ذمار.

(٤) ال جحاف قبيل من همدان ثم من آل الدعام أهل الجوف واليهم ينسب الإديب الشاعر المؤرخ لطف الله جحاف كان معاصراً للإمام الشوكاني وكذا ال ضيغم وآل راشد راجع انسبائهم طرفة الأصحاب للملك الأشرف عمر بن يوسف الرسولي.

الحسن بن وهاس فالتقوا بعصافر [١] فانهزم عسكر الإمام وثبت وقاتل قتالا شديداً وأسر ابن وهاس وقعد عشرين سنة في أسر الإمام داود بن الإمام.

وفي السنة المذكورة تقدم المظفر إلى اليمن وترك الأمير شمس الدين علي بن يحيى [٢] بصنعا مقطعاً فلم يلبث أن وصل الأمير أسد الدين وكان يغير على صنعاء.

فلما علم المظفر جهز الأمير سنجر الشعبي مغيراً على صنعاء فارتفع أسد الدين ولحق ببلاد الأشراف ولم تقم له راية بعد ذلك وبقي يتردد من ظفار إلى ظفر [٣] ثم لحقه ضرر شديد حتى باع ثيابه فكتب إلى السلطان كتاباً يقول فيه:

فإن كنت مأكولاً فكن أنت آكلي وإلا فادركني ولما أمزق

فأرسل إليه السلطان علي بن يحيى وكان صديقاً له فما زال به حتى نزل معه إلى السلطان ولما وصل علي بن يحيى إليه بكى وتألم من القبض على أبيه وأخيه وقال له لعلك في القرب أنفع لهم من البعد ولعلنا ننتظر فرصة من الدهر نفعل كذا وكذا فنقل ذلك إلى السلطان وكان بزبيد فلما وصلا زبيداً أمر السلطان بقبضهما معاً فأرسل بهما إلى حصن تعز فقال في ذلك القاضي أبو بكر بن دعاس:

ما دار في فلك الأيام ذا أبداً كلا ولا دار للأقوام في خلد
إن الكسوف جميعاً والخسوف معاً في ساعة في نزول الشمس بالأسد

فلما دخل أسد الدين على أبيه وأخيه وعمه جعلوا يعاتبونه فقال لهم: يا هؤلاء لا نكون مثل أهل جهنم كلما دخلت أمة لعنت أختها فلم يزالوا في السجن حتى ماتوا رحمهم الله.

فأما الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول توفي في سنة اثنتين وستين وستمائة [٤] ومن مآثره المسجد بعكار [٥] عند تربة أبيه علي بن رسول ووقف عليه وقفاً جيداً وأما ابنه الأمير أسد الدين بن الحسن فإنه تاب في السجن وحسنت سيرته ونسخ كتبا كثيرة ومصاحف ووقف شياء منها في ذي عقيب [٦].

---

(١) في الأصل بالطاء وفي العقود والعسجد بالصاد المهملة وهو موضع في حاشد.

(٢) هو العنسي السالف الذكر.

(٣) كلما يمر هنا اسم ظفار فهو ما يسمى ظفار داود نسبة إلى داود هذا المذكور وهو من بلد حاشد والحصن خراب ما عدا مسجده وظفر أيضاً من بلد حاشد.

(٤) كان في الأصل اثنين وستمائة والتصحيح من المراجع.

(٥) عكار بفتح المهملة أخره راء بلدة جميلة شمال مدينة ذي جبلة بعزلة وراف بينها وبين ذي جبلة نحو ميل ولا تزال عامرة.

(٦) ذي عقيب بضم العين المهملة وفتح القاف وسكون الياء المثناة من تحت وباء موحدة أسفل من

ومن مآثره مدرسة بقرية الجبابي[1] وبها تربته وتربة ذريته ومدرسة بأب ودرسه ووقف على الجميع وقفا يليق به وكان من أكمل بني رسول في الشجاعة والكرم وعلو الهمة وكان يضرب به المثل في القوة كان يقبض الركاب الحديد فيضم بعضه إلى بعض وكانت وفاته سنة ست وستين وستمائة.

وفي سنة تسع وخمسين وستمائة تأهب الملك المظفر للسفر إلى مكة المشرفة فخرج من حصن تعز في شوال فكان له من الصدقات في البر والبحر ما لا يعلمه إلا الله تعالى وكان يسير براً والمراكب تسايره بحراً حتى وصل مكة فدخلها في عساكره بعد أن خرج منها الشريفان إدريس بن قتادة وأبو نمي بن أبي سعيد بن علي بن قتادة خوفاً منه فدخلها حاسر الرأس داعياً ملبياً حتى قضى حق الطواف وحطت عساكره في الحجون ولم يزل[2] كذلك حتى قضا ما عليه من الوقوف بعرفة وسائر أعمال الحج ثم خدم البيت فأخذ المكسحة وكسحه وتأبط القربة وغسله ثم ضمخه بالغوالي[3] وكسا البيت المعظم وكسا نساء الحرام ورجع إلى اليمن فدخل زبيد في سنة ستين وستماية.

وفي السنة التي بعدها تسلم السلطان حصن الجاهلي[4] اشتراه من الشريف أحمد بن القاسمي وفيها أمر السلطان بكسوة البيت المعظم والحجر الشريفة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

وفي سنة اثنتين وستين تسلم حصون الراحبة والحصون الحمزية[5] ثم ورد الأمر السلطاني

قرية عكار بينها غلوة سهم أو أقل وإليها ينسب الحافظ المحدث العقيبي من أعيان القرن السادس الهجري.

(١) الجبابي بالجيم والباء الموحدة ثم ألف وباء موحدة وياء مثناة من تحت سلف ذكرها في ص ٣٦٩ وهي اليوم خراب.

(٢) الحجون معروف مشهور في أحد شعوب مكة من شمالها وكان من مساكن جرهم الأولى قال شاعرهم

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

(٣) المكسحة مثل المكنسة لفظاً ومعنى وتابط القربة أي حملها على إبطه والقربة معروفة والغوالي جمع غالية وهي مجموعة من الأطايب تحمل روايح عطرية مختلفة ولذا يقول بعض الأدباء

مداد الفقيه على ثوبه ... أحب الينا من الغالية

ومن طلب الفقه ثم الحديث ... فإن له همة عالية

(٤) الجاهلي حصن شمال غرب مدينة حجة لا يزال عامراً وما يحمل أيم الجاهلي كثير ذكرناها في المعجم.

(٥) هذه مواضع في بلد حاشد.

على الأمير علم الدين الشعبي بالتقدم إلى براقش ووصلت الخزائن السعيدة والعساكر المنصورة (إلى اليمن)[1] فكان عقبه تسلم براقش والزاهر وأخذهما .

وفي سنة أربع وستين تسلم السلطان المصنعة وعزان[2] وهما من كبار الشوامخ اليمنية لم يقمع أهلها قامع ولا طمع فيهما من الملوك طامع ثم تسلم المظفر بعدهما الفص الصغير ثم حصن بيت ردم[3] ثم القفل وشمسان من بني شهاب[4] ثم بعد حروب كثيرة استولى العسكر السلطاني على جميع حصون المخلافة وهي الموقر وقراضة والعكار وكحلان والغرانيق الثلاثة[5] وكان مقدم العسكر الملك الأشرف بن المظفر .

وفي سنة ست وستين تسلم السلطان حصون الشيخ علوان الجحدري وهي العرائس ، وفي سنة سبع وستين تسلم السلطان حصن براش صعدة[6] .

وفي سنة سبعين وستمائة قام الإمام إبراهيم بن أحمد بن تاج الدين الهدوي ودعا إلى نفسه فأجابه أهل حضور وبنو الراعي وبنو شهاب وغيرهم من بلد عنس وزُبَيْد .

وفي سنة ثمان وسبعين ، كان فتح مدينة ظفار[7] وقتل صاحبها سالم بن إدريس وقتل معه نحو ثلثماية رجل وأسر خلق كثير .

وكان سبب ذلك حدوث مجاعة وقحط شديد شامل لأهل حضرموت فأتى أهلها سالماً طالبين منه ما يدفعون به كلب تلك السنة ويسلمون إليه المصانع فسار معهم وأعطاهم ما سألوه وتسلم المصانع[8] فلما رجع إلى ظفار مالوا عليه ميلة واحدة على مصانعهم فأخذوها طوعاً وكرهاً فأصبح لا مال ولا بلاد فكاد يهلك أسفاً فاتفق من قضا الله تعالى أن الملك المظفر ندب سفيراً له بهدية جليلة إلى ملك فارس فطرحته الريح بساحل ظفار فقبضه سالم ابن إدريس ورأى أنه تعوض عما فاته فأرسل إليه المظفر رسالة يقول في أثنائها المكافأة بيننا

---

(١) سلف ذكر براقش وما بين القوسين هو ما عليه الأصول وصوابه من اليمن انظر العسجد والعقود .

(٢) مضى الكلام على المصنعة وعزان .

(٣) تقدم الكلام على الفص وبيت ردم فالفص من مخلاف عياش قرب شبام وحصن بيت ردم في حضور .

(٤) القفل وشمسان من بني شهاب لا يزالان معروفين وما يحمل هذا الأسم كثير .

(٥) هذه الحصون من حجة ترى من مركز حجة إلا أنها لا ينتفع بها اليوم فهي خرائب وأطلال .

(٦) براش صعدة في الجنوب الشرقي منها وسلف ذكره .

(٧) ظفار هذه ظفار التي بين حضرموت وعمان وعداده اليوم من عمان ويسمى ظفار الحبوضي .

(٨) المصانع هنا الحصون .

غير أنا نتأدب لقوله تعالى: «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً»[1] فعاد جوابه هذا الرسول فأين العذاب واستمال صاحب الشحر فأجابه هرباً من الخراج الذي يسلمه للمظفر فندب السلطان لحربه غازي بن العمار إلى عدن فوصل ظفار وقاتل أهلها ثم عاد إلى عدن فلما رجع نهض سالم بن إدريس وسولت له نفسه أخذ عدن فجهز من عمان عسكراً وسار فوصلت غارته ساحل عدن وكان السلطان يومئذ بالجند فاستكبر الناس ذلك إذ لم يقدر على مثله صاحب الهند والصين ولا ملوك فارس فبرز الأمر السلطاني بعمارة المراكب وبذل الأموال الجزيلة وملأ البر والبحر خيلاً ورجلاً وزاداً وسلاحاً وسار العسكر ثلاث فرق فرقة أخذها في البحر وهم معظم الرجل وفيهم جماعة من الأعيان ومقدمهم الأمير سنجر سيف الدين الترنجلي نقيب المماليك البحرية، والثانية طريق حضرموت وهم العرب وكانوا ثلثمائة فارس ساروا قهراً على رقاب أهلها وهي مشحونة بقلاع بني الحبوضي ولم يفارقوا الحرب ليلة واحدة حتى عبروا حضرموت، ولم يزل أصحابه يتخلفون عنه حتى وصل ظفار في مائة فارس بعد خمسة أشهر من خروجهم من صنعاء.

والثالثة طريق الساحل وهم أربعمائة فارس من المماليك البحرية وحلقة السلطان مقدمهم الأمير حسام الدين لؤلؤ النويري وهو أمير العلم المنصوري وكان مقدم الجميع الأمير شمس الدين ازدمر فكانوا يسيرون على مهلهم والمراكب تسير معارضة لهم وهي مشحونة من كل شيء والأسواق بها قائمة كاعظم المدائن ولم يزل كل فرقة تسير حتى اجتمعوا في يوم واحد في بندر سيوت[2] فساروا حتى بلغوا عرقد[3] محلة من محال ظفار فارجف عليهم بأن خيل حضرموت والبحرين وصلت فقالوا ما جئنا إلا للقتال لا لغيره ولم يظنوا أن سالم بن إدريس يبرز إليهم فبينما هم كذلك إذ أقبلت عساكر ظفار مقدمها سالم بن إدريس فتأهبوا له فصف لهم على بعد من المدينة وكان الأمير شمس الدين ازدمر في القلب وبدر الدين بن الحيد وأصحابه في الميسرة والحلقة في الميمنة فلم يكن أسرع من أن التقوا فتجاول العسكران ساعة ثم كانت الهزيمة فما نجا من أهل ظفار إلا من استأثر فكانت القتلى ثلاث مائة قتيل والأسرى ثمانمائة وأخذ من العبيد ما شاء الله وقتل سالم بن إدريس فيمن قتل فطلب أهل ظفار الذمة فأذم عليهم الأمير فدخلت الأعلام المظفرية مدينة ظفار وخطب للمظفر على

(١) الإسراء - ١٥

(٢) سيوت بالسين المهملة وتشديد الياء المثناة من تحت آخره تاء مثناة من فوق مدينة وميناء من بلد مهرة لا تزال عامرة وفي العقود: «ريسوت» قال أبو عبد الرحمن: وهي قلعة فيما بين حضرموت وعمان راجع صفة جزيرة العرب وفي العسجد كما في العقود وكذا في العقد الثمين ولعله أصح. وبالعين المهملة ويؤيده ما في الشعر.

(٣) كذا في الأصل وفي العقود: عوقد بالواو.

منابر ظفار وقبض كافة بني الحبوضي فحملوا إلى زبيد وكانوا تحت الصدقات السلطانية إلى أن انقرضوا ولم يبق منهم أحد يعرف وتسلم العسكر السلطاني مدينة شبام بحضر موت وقبض ظفار.

ولما قتل سالم بن إدريس ارتعدت الأقطار البعيدة هيبة للسلطان ووصلت إلى السلطان هدية من صاحبي عمان والصين ورتب الأمير شمس الدين ازدمر في ظفار الأمير سيف الدين سنجر البرنجلي والحسام النويري وعدة مشايخ من العرب وعاد إلى اليمن.

وقال صاحب السيرة[1] من قصيدة طويلة في مدح السلطان الملك المظفر قوله:

فاسأل به الأعلام فهو عقيدها ... والعلم فهو مصنف ومؤلف
واسأل شبام وحضرموت وأهلها ... أو عيد يوسف صادق أم يخلف
فهناك ما بقيت لغي هامة ... إلا بسيف أبي المهند تقطف
من لا يفوت عليه نيل مرامه ... لو أنه خلف الكواكب يقذف
هو في الأباعد كالأقارب حاضر ... كالشمس من كل المطالع تشرف
ومن الملوك الصيد تحت لوائه ... فرق وأخرى في الحديد ترشف
ليست ظفار بمعظم في ملكه ... بل في مواهبه تهون وتضعف
كالبحر ليس يزيد في أمواجه ... نهر وليس يضره من يغرق
القت بساحتك الرجال ملوكها ... فيظل بابك شملهم يتألف
أدنيت قاصيهم فكنت أسيرهم ... آنستهم آمنت من يتخوف
هي عادة لك من قديم لم تزل ... للذنب تغفر والشدائد تكشف
كم من ملوك قد أضعت دماءهم ... لما عصوك ولم تضع من خلفوا

وقال أخوه كندة مهنياً للسلطان من أبيات قوله:

كتائب لأبي المنصور ما فترت ... لفرط أين وتهجير وادلاج[2]
حتى وردن ظفاراً بعد ما نبذت ... ما في البطون من أفلاذ وأمشاج
وبعد ما عقدت في عوقد قبيا ... ما كان سالمها بالسالم الناجي

(١) مؤلف سيرة الملك المظفر هو الإديب الأكرم بدر الدين محمد بن حاتم بن علي بن حاتم الهمداني وهي غير العقد الثمين كما يبدو إذ لم توجد القصيدة في العقد الثمين.

(٢) الاين: التعب والتهجير: السير وقت الهاجرة وهو وقت شدة الحر والادلاج السير آخر الليل وأفلاذ الأكباد وهي الزائدة التي في الكبد كنا بذلك عن الأولاد والأمشاج: الاخلاط.

وفي سنة إثنتين وثمانين توفي الأمير علم الدين سنجر الشعبي بصنعاء انهدم عليه القصر فمات هو وجماعة ممن كان معه بعد أن صلى الظهر.

وفي سنة ثلاث وثمانين طلع الملك الواثق بن الملك المظفر إلى صنعاء مقطعاً وتسلم حصن براش وكان المظفر في سنة تسع وسبعين جعل فرحة فاستدعى الأمير علم الدين سنجر الشعبي إلى زبيد واستدعى كافة الأشراف الحمزيين، إلى أبوابه فلم يصل منهم إلا الأمير جمال الدين علي بن عبد الله بن الحسن بن حمزة والأمير عز الدين محمد بن ابن الإمام عبد الله بن حمزة واعتذر الأمير داود بن الآمام عبد الله بن حمزه وسار الشرفا فلما نزل جمال الدين وعز الدين للفرحة قبض داود بن الإمام حصنيهما وكان لعز الدين تعز صعدة وبعد أمور طويلة قبض حصنيهما الميقاع [1] وتعز صعدة.

ثم اجتمع الأمير جمال الدين وعز الدين سنجر وحطوا على كحل وأشيح [2] بالظاهر الأعلا فاخذاه ثم استقامت المحاط والحصار على ظفار في الناحية العليا والناحية السفلى ثم لما مات سنجر كما ذكرنا توسم داود بن الإمام في المحاط فخرج في عسكره إلى الظاهر الأسفل ثم سار إلى حوث فأغار عليه الإمام جمال الدين إلى حوث ثم عاد إلى ظفار وطلع الأمير فخر الدين فيروز في عسكر من اليمن إلى صنعا فاستقرت المحاط في ظفار فلما كانت سنة ثلاث وثمانين وستمائة تضايقت الأحوال بداود ابن الإمام فعرض على الإمام الحسن بن وهاس القيام معه فأبى فعرض على الإمام المطهر القيام معه فأبى لما يعلمان من سيرته مع الأئمة ومخالفته لهم فعمد إلى ابن أخيه يوسف بن إبراهيم ابن الإمام ولم يكن كاملاً للإمامة وأخرجه إلى ثلا ولبس به على العامة ثم خرج به إلى الظاهر في عسكر كثير فقصدوا المنقل والمنارة [3] فأخذوهما قهراً ثم ساروا نحو صعدة فطلب الأمير على بن عبد الله المادة من السلطان فجهز إليه الملك الواثق، والفهد بن حاتم [4] في سبعين فارساً وجهز غيره فسار في

---

(١) حصن تعز صعدة لا يعرف اليوم والميقاع بكسر الميم آخره عين مهملة وهو حصن عظيم غربي خمر من بلد حاشد وأخبرني بعض أهله أنه عثر بين أنقاضه على مفتاح الحصن وهو نحاس وعليه اسم الملك المظفر.

(٢) كحل بفتح الكاف وكسر الحاء المهملة آخره لام: حصن متهدم في حد آل أبي الحسين ومرهبه من بكيل ويقال له اليوم مكحل واشيح: بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة ثم ياء مثناة من تحت وحاء حصن داثر في خمر من ظاهر حاشد وهو غير اشيح الذي في آنس المتقدم الذكر.

(٣) في الأصل: المنزل والتصحيح من المراجع والنقل والمنارة: حصنان خربان في حاشد.

(٤) الفهد بن حاتم هو أخو بدر الدين محمد بن حاتم من احفاد السلطان حاتم بن أحمد اليامي الهمداني السالف الذكر.

العسكر نحو صعدة فدخلها وكانت الأشراف نحو تلمص [١] فوقعت حروب شديدة بينهم وكان السلطان يجهز الخزائن إلى الأمير جمال الديـن علي بن عبد الله فعجز داود بن الآمام عبد الله بن حمزة عن مقاومته فخرج هارباً حتى وصل ثلأ .

وفي هذه السنة توفي الإمام الحسن بن وهاس بصعدة ، وفي السنة التي تليها حصر الملك الواثق داود بن الإمام فتداركه الشيخ بد الدين بن الحيد فأصلح بينه وبين السلطان وارتفعت المحاط وعاد الكل إلى صنعاء وكان الصلح على إطلاق رهينة الإمام داود وهو ابنه محمد وكان بحصن الدملوة وعلى تعديل حصن القفل بظفار فانعقد الصلح على ذلك واستمر مدة .

وفي سنة خمس وثمانين ضربت السكة المظفرية بصعدة ونزل الأمير جمال الدين علي بن عبد الله بن الحسن بن حمزة إلى الباب الشريف السلطاني فتلقاه الملك المسعود حسن بن الملك المظفر فاكرمه بطبل خانات واعلام وحصون منها الخارد ومطرة وحصن ذيفان [٢] وفيها أرسل داود بن الإمام إلى الملك الواثق بنقض الصلح ورتب محطة على حصن القفل ليستعيده ومحطة على الزاهر واستنجد بالإمام مطهر وابن أخيه موسى بن أحمد بن الإمام فجهز الواثق علي بن عبد الله في خيل ثم جهز السلطان علي بن الهمام في خيل من اليمن فرفعوا محطة الزاهر وطلع الإمام إلى الظاهر واشتدت محطة الإمام على القفل واضطربت البلاد وخالف أهل المشرق والمغرب وفسدت البلاد من نقيل صيد إلى صعدة [٣] .

فلما حدثت هذه الأمور أرسل السلطـان ولـده الأشرف إلى صنعـاء مقطعـاً لـه إيـاهـا واستدعى الواثق فدخلها الأشـرف ثم سار إلى ذيفان الظاهر ووطئ البلاد وطأة شديدة وأخرب أكثر الظاهر الأسفل والأعلى ووصلت عساكره عيان وخيـوان ولم يمتنـع عليـه شيء وحصر الإمام صارم الدين في القبة [٤] ثم توفي في سنة تسع وثمانين .

وفي سنة اثنتين وتسعين اقطع الملك المظفر ولده الواثق نور الدين ظفار الحبوضي فسار إليه من بحر عدن فوقف بها إلى أن توفي سنة احدى عشرة وسبعمائة واستقل أولاده بالملك بعده هنالـك فهم ملوك ظفار إلى يومنا هذا .

---

(١) تلمص من حصون صعدة في غربيها بمسافة ميل وهو اليوم خراب راجع الاكليل ج ١ - ٢٧٢ ، ٢٨٢

(٢) مطرة سلف ذكرها والخارد أحد أنهار الجوف راجع صفة جزيرة العرب وفيه حصن أيضاً وذيفان بلد وحصن من عيال سريح شمال صنعاء .

(٣) نقيل صيد هو سمارة .

(٤) عيان وخيوان سلف الكلام عليها والقبة بلدة في خيار حاشد .

وكان الواثق خيراً لم تعرف له صبوة وكان مشاركاً في الفقه والنحو واللغة وكان شاعراً فصيحاً ومن شعره قصيدة يمدح بها أباه.

ومـا أنــت إلا دوحــة أنــا غصنهــا وأحسـن مـا في الدوح غصــن ومثمــر

وفي هذه السنة حصلت وحشة بين الأمير جمال الدين علي بن عبد الله وبين الملك المؤيد فتخوف الأمير جمال الدين فترك الوصول إليه وأخرج حريمه من صنعاء ليلاً فلما بلغ الخبر إلى المظفر كتب إلى الأمير عاتباً على تخلفه عن الوصول فأجابه يا مولانا إن ابنك ملك شاب أخشى منه بادرته وأكثر ما تقول أخطا داود فعاد جواب الملك المظفر معاذ الله ان يفعل ذلك فلم يأمن الأمير جمال الدين واستمر على الامتناع وتأكدت الوحشة وتظاهر الأمير جمال الدين بالخلاف ومراسلة الإمام مطهر وطلع إليه بعسكر عظم والتقى بالإمام وقصد الجميع الكولة[1] وحطوا عليها فلم يظفروا منها بشيء وبعد ذلك اتفق الأشراف واختلفوا وهدموا ما بينهم من القتول وأقبلوا على حرب السلطان فطلع العسكر والخزائن المظفرية من اليمن فخرج المؤيد فيها إلى الظاهر وحط في الماجلين[2] ووقع قتال شديد وولت خيل الأشراف.

وفي سنة ثلاث وتسعين تجهز المؤيد إلى ناحية حضور البلاد الشهابية فخرج من صنعاء وحط في القبة فوقع بينه وبين الأمير جمال الدين علي بن عبد الله بن حمزة مراسلة في الصلح على يد الفقيه أحمد بن الحيد وزير المؤيد على أن المؤيد يرجع صنعاء. وأن تمام الصلح يكون بذمار ولم يرد الأمير جمال الدين إلا الخديعة لأنه غير متأهب للحرب فرجع المؤيد صنعاء وجهز وزيره فحط تحت ظفار ثم طلع إلى ظفار بجماعة وخاضوا في الصلح فأظهروا للوزير أن الأشياء تامة وهم مخادعون له منتظرون لحاق المتأخر منهم مثل الأمير موسى بن أحمد بن الإمام والأمير عبد الله بن علي وهاس فكاتبوهما واستمالوهما فخالفوا على السلطان أيضاً ودخلا ظفار فاتفق الجميع وحلفوا للأمير همام الدين سليمان بن القاسم فلما اتفقت كلمتهم اجتمعوا بوزير المؤيد الفقيه شرف الدين أحمد الحيد وقد كتبوا كتاباً بسبب الصلح اشترطوا فيه أشياء لم يجربها عادة وقالوا لا تصلح إلا على ما تضمنه كتابنا هذا فأرسل به إلى مخدومك ففعل فلما وقع الكتاب بيد المؤيد عرف مضمونه ثم أوصله إلى والده فلما قرأه استكبره ولم يكن جوابه إلا خروج الأمر العالي إلى المؤيد بخروجه في عساكره إلى البلادة الشهابية وتجهيز الأمراء فتجهز المؤيد وخرج إليها فأخرب بها عدة

---

(١) الكولة حصن وبلد في بني صريم من حاشة ثم من آل أبي الحسين.

(٢) الماجلين تثنية ماجل وهي مثل البركة لحفظ مياه الامطار والماجلين المذكورين في بني صريم في الظاهر الأعلى من بني عومي ثم من بني قيس.

مواضع ووصل تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن حمزة بعسكر جرار ممداً لعلي بن عبد الله وكذا همام الدين سليمان بن القاسم فكان المؤيد يحاربهما فأخذ عدة مواضع وأخربها ثم عاد إلى صنعاء بعد عقد ذمة في الباب السلطاني على الصلح بينه وبين الأشراف ثم نزل المؤيد إلى الأبواب السلطانية ونزلت رسل الأشراف لتمام الصلح وخرج علي بن عبد الله إلى ناحية المشرق فابتنى مصنعة تنعم[1] فأجابه أهل المشرق قاطبة واتصل بالأمير سليمان بن محمد بن سليمان بن موسى وركن الناس إليهم ووقع الفساد في البلاد فبرز الأمر السلطاني بطلوع الملك الأشرف إلى البلاد العليا بسبب الصلح ودخل صنعا ووصل إليه أهل المشرق قاطبة وكافة أهل حضور والأمراء الشهابيون ثم خرج الأمير علي عبد الله إلى ذمار فسير الأشرف الأمير بدر الدين محمد بن حاتم إلى ذمار ليسير مع الأمير علي بن عبد الله إلى صنعاء وقد كان الأمير تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن حمزة قد وصل إلى علي بن عبد الله فنزلا معاً صحبة الأمير بدر الدين بن حاتم ووصلوا إلى الأشرف بصنعاء فتلقاهم الأشرف بنفسه في عساكره فسلموا عليه ودخلوا تحت ركابه إلى القصر فأكرمهم وقابلهم بالقبول ولم يبق أحد ممن خالفه إلا وصل إليه رغبة ورهبة وحصل الصلح بين الأشرف وبين الأشراف كافة على يد الأمير علي بن عبد الله وتمت الأمور وصاحت الصوائح وأطل عيد النحر والخلق ببابه من الشرق والغرب والغز وتوجه إلى تعز في سنة أربع وتسعين وستمائة فلما استقر بها خصه والده بالملك العقيم ومكنه أزمة الأمر القويم وخرج له التقليد الكريم بمشهد من الملوك والعلماء والجحاجح والكرما وانصرف إليه الأمر، والنهي والحل والعقد والبر والبحر والأقاليم والأمصار والحصون وتدبير الحروف والسلم ولم يفزع إلى أبيه إلا في جليل الأمور.

فلما تولى ذلك سكن حصن تعز وسكن الخليفة المظفر ثعبات وتوجه الملك المؤيد إلى الشحر غير طيب النفس بتخصيص أخيه الأشرف بالمملكة دونه وسارت معه عمته الشمسية وكانت تحبه وانتقل الملك المظفر إلى رحمة الله في شهر رمضان سنة أربع وتسعين وستمائة وهو ابن أربع وسبعين سنة.

وكانت مدة ملكه ستاً وأربعين سنة وعشرة أشهر وأحد عشر يوماً وكان له من الأولاد سبعة عشر ذكراً أكثرهم ماتوا أطفالاً وعاش منهم بعده خمسة عمر الأشرف الكبير وداود المؤيد وإبراهيم الواثق وأيوب المنصور والحسن المسعود وكلهم ولي ملكاً وخطب له وضربت السكة باسمه إلا المسعود فلم يتصل بشيء من ذاك.

وكان الملك المظفر ملكاً ضخماً جواداً ولد بمكة المشرفة وأبوه أمير بها من قبل المسعود

---

(١) تنعم: قد تقدم ذكرها.

الأيوبي وكان بذالاً للأموال خاصة في الحروب وأعطى من حسن السياسة والتدبير ما لم يعطه أحد من الملوك.

ولما توفي قال الإمام مطهر بن يحيي [1] مات التبع الأكبر مات معاوية الزمان مات من كانت أقلامه تكسر رماحنا وسيوفنا.

ومن مآثره مدرسة بمغربة تعز [2] وبنى جامع عدينة ودار الضيف [3]، والخانقة بجيس وجامع المهجم وجامع واسط المحالب [4] ومدرسة بمدينة ظفار الحبوضي ووقف على كل ما يقوم به ولمن رتب فيه ولأخته الدار الشمسي الشمسيات بتعز وزبيد ولابنته نبيلة الأشرفية ولزوجته الأسدية بتعز ولابنته ماء السماء الواثقية بزبيد، وابتنى خادمه تاج الدين بدر المظفري بزبيد مدرسة للشافعية ومدرسة للقراء بالقرات السبع ومدرسة للحديث النبوي ودار مضيف ووقف عليها وقفاً جيداً يقوم بجميع المرتبين في الأماكن المذكورة وبني خادمه مختص الملقب نظام الدين مدرسة بزبيد تعرف بالنظامية ووقف عليها وقفاً جيداً وللمختص أيضاً المسجد المعروف بالنظامي جنوبي دار السلطان بزبيد.

وكان المظفر يجل العلماء والصالحين وكان لا يفتر عن القراة على الفقيه محمد إبراهيم الحضرمي وغيره في الفقه وقرأ الحديث على الفقيه محمد بن إبراهيم الفشلي وعلى محب الدين الطبري [5] وكان له اشتغال في فنون شتى من العلم وكان يحب الرعية ويحسن إليهم ويقال إنه

---

(١) كان هذا الإمام يلقب المتوكل على الله ويقيم في بلد حجة ومات بعد الملك المظفر وقبره في قرية دروان في الشرق الشمالي من حجة بمسافة ميلين وكانت وفاته سنة ٦٩٧هـ.

(٢) مغربه تعز معروفه: والقلعة القاهرة والمدارس هنا لك انقاض وفي المغربة أهل وسكن.

(٣) عدينة بالتصغير هي ما يضمها السور وفيها الجامع المذكور وقد سقطت من منارته الأثرية لعل ذلك في سنة ثمان وسبعين وثلاث مائة وألف هجرية ودار الصيف كان في عدينة.

(٤) الخانقة هي الملاجيء التي ينزلها ذو الحاجة والمسكنة ومن لا نفقه له في سفره وجامع المهجم هو اليوم خراب وكان من ذخائر المظفر وكان على قباب وفيه ثلثمائة وستون سارية وجميع القرآن مكتوب في جدارنه وسواريه والمحالب سبق سلف ذكره وواسط بلدة قرب المحالب لا تزال عامرة.

(٥) محب الدين الطبري كنيته أبو العباس وأبو جعفر واسمه أحمد بن عبدالله بن أبي بكر محمد بن إبراهيم المكي الشافعي ترجم له الفاسي في ج ٣ - ٦١ وأطال فيها قدر ست أوراق وعدد مؤلفاته واثنى عليه ثناء زكياً إلى أن قال: وقد اثنى على المحب الطبري غير واحد من الأعيان وترجوه بتراجم عظيمة وهو جدير بها منها على ما وجدته بخط ابن مسدي: الإمام الأجل العالم قطب الشريعة وترجه البرازلي فيما وجدته بخطه شيخ الحجاز واليمن وترجه الذهبي بشيخ الحرم الفقيه الزاهد المحدث ثم قال شيخ الشافعية ومحدث الحجاز وقال الحافظ صلاح الدين العلائي: ما أخرجت مكة بعد الشافعي مثل المحب الطبري ولد بمكة سنة ٦١٥ ومات بها سنة ٦٩٤ وقيل غير ذلك. وكان للمحب الطبري عند الملك المظفر مكانة عظيمة وكان يحسن إليه.

كان له خمسمائة فارس في مصر تجاهد الفرنج[1].

ومن شعرائه محمد بن حمير وهو القائل يهنية في أيام إمارته وقد أقطعه والده رمع وولد له ولده الأشرف رحمهم الله تعالى.

هنئت بالولد الميمون والبلد ... ولا برحت سعيداً مدة الأبد
في غرة الشمس في عمر الشوامخ ... في سعادة المشتري في جبهة الأسد
أعيذه بعد أسماء الإله بقل ... وقل وقل وبمجد الواحد الصمد
من العيون ومن ريب المنون ومن ... رقش المتون ومن نفاثة العقد

ومنهم القاسم بن هتيمل شاعر المخلاف السليماني وكان فصيحاً له فيه عدة من القصائد الطنانات ومنها التي أولها قوله:

أعد لي أحاديث العذيب وكرر ... وهات لنا عن حاجر ومحجر
قل الحق واعجب من مليك مملك ... رقاب الرعايا لا أمير مؤمر
أغر رسولي يزر قميصه ... على القلمس اليم الخضم الغضنفر[2]
أعم سماحاً من سماحة حاتم ... وأعظم بأساً من بساله عنتر

ومنه الفقيه سراج الدين أبو بكر بن دعاس وكان شاعراً ماهراً فقيهاً نحوياً جليساً للخليفة خصيصاً به وكان أهل زبيد ينسبونه إلى سرقات الشعر.

ولما حج الخليفة ورجع إلى اليمن استأذنه ابن دعاس وهو بالمهجم بالتقدم إلى زبيد قبل السلطان فقال له السلطان تريد التقدم لتجمع شعراً من الدواوين وتلقانا به ثم أذن له وقال له إياك أن تفعل هذا وكان كثيراً يمازحه فلما وصل السلطان زبيد أنشده ابن دعاس بقوله:

ليس في قدرةٍ ولا إمكان ... نيل ما نلت يا مليك الزمان
هاك دراً منظماً لم أغر فيه ... على مصحف ولا ديوان

فقال له: نهيناك عن الديوان فتعديت إلى المصحف.

قال الفقيه محمد الحضرمي معلم المظفر كان مولانا المظفر يكتب كل يوم مائة آية من كتاب الله تعالى ويكتب تفسيرها ويحفظها مع تفسيرها ويدرسها عن ظهر غيب رحمه الله تعالى والله أعلم.

---

(١) وذلك في أيام السلطان بيبرس وذكر هذه المساعدة والجهاد المؤرخون المصريون فيما أعلم.
(٢) القلمس: البحر والغضنفر الأسد.

الفصل الثامن

في ذكر دولة السلطان الملك الأشرف الكبير

عمر بن يوسف المظفر بن المنصور عمر بن علي بن رسول:

وهو أكبر بني أبيه وأرشدهم وأحبهم إليه وكان أبوه قد أقطعه المهجم ثم صنعاء ثم استخلفه على البلاد والعباد واختصه بالملك العقيم كما تقدم في ترجمة أبيه فلما انتقل والده إلى رحمة الله تعالى قام بأمر الملك بعده واستولى على الحصون والمدائن وسائر المخاليف والبلاد براً وبحراً سهلاً ووعراً وكان مليكاً سعيداً له اشتغال في أيام امرته بكثير من العلوم وكان محبوباً عند الناس وله عدة تصانيف أكثرها في الطب وله كتاب التفاحة في معرفة الفلاحة وكتاب الأصطباح وكتاب الدلائل في معرفة الأوقات والمنازل وله كتاب مشهور في تعبير الرؤيا على حروف المعجم يسمى الإشارة في العبارة [1].

ولما علم أخوه المؤيد بقيامه بالخلافة بعد أبيه خرج من الشحر طالباً للملك قاصداً لأخيه الملك الأشرف وكانت الشحر إقطاعاً للمؤيد من أبيه فلما قرب من اليمن وصله كتاب من أخيه أيوب المنصور يحذره من التقدم إلى اليمن وعرض عليه حصن السمدان وكان يومئذ بيده فشكره وبقي متردداً في الاقدام والاحجام فبينا هو كذلك وصل كتاب من القاضي موفق الدين علي بن يحيى اليحيوي [2] يوصيه بالحذر والحزم فلما وصل أبين هرب مقدمها مع طائفة من العسكر ومالت طائفة إلى الملك المؤيد فجهز الملك المؤيد اثقاله إلى حصن السمدان وعزم على حصار عدن فتوجه إليها فرأى في بعض نواحيها درباً متشعثاً فطلب صياداً ممن يصطادون حول الجبل فقال له وسأله عن الجبل وطريقه وهل فيه طريق يفضي إلى باب عدن أم لا فقال إن فيه طريقاً يفضي إلى باب البلد فقال له تقدر أن تأخذ معك عسكراً وتسير بهم إلى الموضع الذي ذكرت قال نعم فكتم السلطان أمره واستوثقه ثم أرسل بعد المغرب معه ثلثمائة رجل وأمرهم أن لا يظهروا حتى يروا السلطان ثم توجه المؤيد نحو الباب صبيحة تلك الليلة وكان الوالي قد جمع عسكره من داخل المدينة لحفظ الباب فلما قرب منه المؤيد تأهبوا لقتاله فثارت عليهم الثلثمائة الرجل فصاحوا الأمان فاذم عليهم

---

(١) وله كتاب طرفة الأصحاب في معرفة الانساب وقد طبع هذا في دمشق، وكتاب التفاحة موجود لم يطبع بعد كما أن الكتب المذكورة لا أعرف عنها شيئاً والواجب البحث عنها ونشرها باذن الله.

(٢) تأتي له ترجمة ويقال له اليافعي ونسب آل منصور بن نصر الموجودين في عصرنا إليه كما يذكرون.

واستدعاهم فخرج إليه الوالي والناظر والأعيان في البلد رغبة ورهبة فاستولى على عدن بالسياسة الجيدة ورجع إلى الجثة [1] وهو في تردد عظيم وجعل يتمثل بقول الشاعر :

إذا لم تكـن إلا الأسنـة مـركبـاً فـلا رأى للمضطـر إلا ركـوبها

ثم استولى على لحج وعدن.

وفي سنة خمس وتسعين سارت العساكر الأشرفية مقدمها الناصر بن الأشرف ولحقهم الأمير علي بن عبد الله من البلاد العليا وكان اليمن قد امتلأ من هيبة المؤيد ومالت الناس إليه محبة له ثم سار المؤيد بين ابنيه الظافر والمظفر وهو كما قال الشاعر :

تراه من نفسه في جحفل لجب

فالتقوا بالدعيس [2] من ناحية ابين فانهزمت الجحافل التي مع المؤيد وكانوا معظم عسكره [3] ونهبت خزائنه وأحاط به العسكر من كل جانب فاسر مع ولديه المظفر والظافر وطلعوا بهم حصن تعز ، وكان الأشرف واقفاً ينتظر ما يحدث من أخبارهم [4] فلما علم بتقييدهم بكى وأمر بإكرامهم، والإرسال بهم إلى حصن تعز .

فلما صاروا بالحصن كتب إلى المؤيد الفقيه أبو بكر بن محمد بن عمر اليحيوي وكان له به صحبة تامة بسم الله الرحمن الرحيم والضحى إلى قوله ولسوف يعطيك ربك فترضى ، وكان الفقيه المذكور في وصاب هارباً من الملك الأشرف ، وهنأ الأشرف بهذا الظفر جماعة من الشعراء ولقد أحسن القاضي تاج الدين موسى بن الحسن الموصلي رحمه الله حيث يقول في ذلك :

ولـولا أن ضـدك منـك قلنـا مقـالاً منـه تنفلـق الصخـور
ولكنـا نـرجـي السخـط منكـم يعـود رضى وتنجبر الأمـور

ولما أراد الشريف علي بن عبد الله الطلوع إلى البلاد العليا ، أعطاه الملك الأشرف العظيمة والميقاع [5] وأكرمه وأنعم عليه ثم وصل الأشرف إلى زبيد في تلك السنة المذكورة فدخلها من باب القـرتب وبين يديه الفقهاء يحملون المصاحف والمقدمات.

قال أبو الحسن الخزرجي أخبرني من أثق به أن الملك الأشرف سبت سبتا في أيامه فنزل

(١) الجثة بالجيم والثاء المثلثة آخره هاء : موضع في ظاهر شمال عدن بمسافة يسيرة.
(٢) الدعيس قرية خربة من قرى لحج.
(٣) الجحافل قبيلة من قبائل لحج معروفة إلى عهدنا هذا .
(٤) يقال أنه كان خرج من تعز إلى الدملوه كذا في بعض التواريخ.
(٥) الميقاع سلف ذكره والعظيمة حصن يعانده من بلد حاشد .

معه إلى النخل بثلاثمائة محمل في كل محمل سرية وجاريتها [١] ولم تطل مدة الأشراف بل انتقل إلى رحمة الله تعالى أول سنة ست وتسعين وستمائة بتعز وكان ولده الناصر يومئذ مقطعاً في القحمة والعادل مقطعاً صنعاء وهما غائبان في اقطاعهما فاتفق الحاضرون على قيام أخيه المؤيد فأخرج من دار الاعتقال وسار حتى وقف عند رأس أخيه فترحم عليه وبكى بكاء شديداً وتأسف أسفاً عظيماً ثم خرج من عنده وأمر بتجهيزه وقعد في تخت الملك وأعلن الصائح بالترحم على أخيه وبالصباح السعيد عليه [٢] وأمر بدفن أخيه الملك الأشرف في مدرسته التي بناها في حافة الملح من مغربة تعز .

والملك الأشرف أول من سن عدد النخل بالفقهاء والعدول وكان أهل النخل قد نالهم الجور الشديد قبل ذلك وغفلت الملوك عن تفقد أحوالهم حتى كان يقال للمزوجين عند عقد النكاح إذا كانا بلا نخل من سعادتها أن لا نخل لها [٣] ومدحه جماعة من الشعراء منهم ابن هتيمل وكان الفقيه أبو بكر اليحيوي قبل أن يقيم بوصاب أرسل بقصيدته، المشهورة إلى الأشرف :

وهي هذه .

تبغـون قتلي ومـالي فيكـم غـرض	غير النجـاة على مجمـوع أحـوالي
أو تـزعمـون بـأن الجن طـوع يـدي	هـل تقهـر الجن إلا بـالملا العـالي
مهلا فهـذي عصى مـوسى وحـربتـه	وتـاج مبططـر مع تـاج غطكـان [٤]

(١) السرية : بضم أوله وكسر ثانية مشددة الراء ثم ياء مثناة من تحت ومشدوده ثم هاء : وهي الأمة نسبت إلى السر بالكسر الذي هو كناية عن الجماع وهذا من تغيير النسب .

(٢) جرت العادة فيما سلف إذا مات خليفة أو سلطان وقام بعده خليفة أو سلطان أن يصاح ويعلن على لسان أناس معدين لذلك في المنتديات ومجامع الناس والمساجد ونحوها بالترحم على السلف الذي مضى بألقابه الفخيمة ومخاطبة الخلف الذي أتى بأن يقال أسعد الله أيام ملكنا السعيد أو شبه هذا .

(٣) ومن عدالة الملك الأشرف ما رواه الشعبي في تاريخه أنه أمر عماله أن يعلنوا تحصيل الزكاة لمدة شهر واحد وكان له عامل بذي جبله فأمر المنادي بذلك وأمره أن يزيد في إعلانه بما لفظ فان مولانا السلطان على وشك الهرب ففعل ذلك المنادي وبلغ الملك الأشرف فطلب ذلك العامل وهدده على استخفافه بالسلطان فأجابه بتعقل وقال له يا مولانا إن عجلتك بتحصيل الواجبات : الزكوة في حدود شهر مما يشعر الناس أنك على وشك الهرب وإلا فالبلاد بلادك والرعايا رعيتك ومع هذا فلا يتأتى للرعية ألوف بالحقوق في هذه المدة إذ منهم من يبيع بره وقمحه ومنهم يبيع سمنه وماشيته ومنهم إذا تزاحمت هذه الأشياء في السوق رخصت الأسعار ولا يحصل الرعية على غير الجهد والبلاء غير الجدال في شأنهم فاستحن كلامه الملك الأشراف وأمر مسامحة الرعايا لذلك العام .

(٤) هؤلاء أسماء الجان عند المشعوذين .

وذي الهياكل والأحراس اجمعها ... وذي البنود وذو المزارق يا عالي
وذي الحراب أولى الأملاك كلهم ... ما ينثني حدها عن هتك أحبالي
يقول إني أدعو الله ذا غضب ... عليك بالهلك يا حاشا لأمثالي
ولست أدعو على شيء بلا سبب ... وقد تمسكت من طه باذيال
وخاتم الرسل لم يدع على نفر ... آذوه جهلاً فلم يعبأ بجهال
وفارق الدار والأهلين مرتحلاً ... إلى المدينة حسب الأمر لا فالي
وقام من بعده الصديق محتسباً ... حتى قضى نحبه في سم محتال
أبو حسين قضى وابناه نحبهما ... سما وقتلا بأسياف لضلال
كذا ابن أدهم لم يدع وقد عبثوا ... وصب بالرأس منه بول بوال
وشوهوا لحية منه وقد كرمت ... على المهيمن علجا غير ذي بال
فلم أحاول وما حالوا و لا عجلوا ... ما تم أمر بذا يقضي بإعجال
من ذاك منهم ترى لم يدر كيف أتى ... بعرش بلقيس داعي الله في الحال
وكل ما ترتضوا مني وتنتقموا ... ما القول قولي ولا الأفعال أفعالي
فأحكم بما شئت ان صبراً وإن عجلاً ... فالأمر أقرب من نقل على قالي
هل يحرق السجن من مولاه أدبه ... إلا أخو الجهل بالآتي وبالحال
أبحت داري وآلي قلت ينصرفوا ... ما الدار داري وآلي ما هم آلي
فليس شهران مما يقتضي عجلاً ... ان كنت تسمع فانظر صدق أقوالي
عشرون شهراً توالى لا تجاوزها ... وليس آخرها يقضي بأكمال
ويدخل الدار من لا يرتضيه لها ... بصائح منكم يدعو بإنكالي
لم تنكروا النصر والتنزيل ويحكم ... ووعد ربي ما هذا بإجمالي
فاسمع لما قلته وأرقبه مصطبراً ... ولا تعرج على قيل ولا قال
وخذه بالجد لا هزلاً ولا كذباً ... فليس ذا القول من أقوال هزال

وكان الملك الأشرف قد بلغه أن الفقيه المذكور قاصد للمخالفة وإثارة الفتنة ومحبته للمؤيد وموالاته فاستحسن منه الأشرف واستوحش الفقيه من الأشرف ففر إلى وصاب بأهله وأخوته ولم يرجع من هنالك إلا بعد وفاة الأشرف وتولية أخيه المؤيد ، وفي هذه القصيدة ما يدل على معرفته والله سبحانه أعلم.

الفصل التاسع
في ذكر دولة الملك المؤيد

هزبر الدين داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول الجفني:

وكان ملكاً هماماً فارساً مقداماً جواداً كريماً وكان مولده في الجند ولم يـزل والده يقطعـه وينقله في التهائم ثم أقطعه صنعا فاطاعه أهل المشرق بعد قتال شديد فهزمهم وأخرب بلادهم ثم قصد الأمام مطهر بن يحيي إلى جبال اللوز [١] فطلع الجبل عليه قهراً وقتل طائفة من عسكره وهرب الأمام وكان حريم الأمام مطهر بتنعم فحط عليه المؤيد وتسلمه وأخربـه وألحق حريم الأمام به فاجتمعت الأشراف حينئذ وهدموا ما بينهم واتفقت كلمتهم على حرب السلطان الملك المؤيـد وكتب بعضهم إلى الملك المؤيد كتاباً يقول فيه.

تنـح عـن الدسـت التي أنـت صـدره ... وعـد عـن الملـك الذي حزتـه غصبـا
رويـدك ان الله قـد شـاء حـربكـم ... فصيرنـا الرحمن في ملكـه حـزبـا
سـأجلبهـا شعثـا إليـك شـوازبـاً ... مضمـرة جـرداً مطهمـة قبـا [٢]

فأجابه السلطان الملك المؤيد بقوله:

رويـدك لا تعجـل فما أنـت أهلهـا ... سيـأتيـك فتـاك يعلمـك الضربـا
فـإن تـك ذا عـزم فلا تـك هـاربـاً ... كعادة من قـد صرت مـن بعده عقبا
وسـائل جبـال اللـوز عني وعنكـم ... فـأفضلكـم ولى وخلفكـم نهبـا
فعـاملتكـم بـالصفـح إذ هـو شيمتي ... ومـا أنتم تعفـون عـن واقـع ذنبـا

ثم أقطعه والده الشحر كما تقدم في ترجمة أخيه الأشرف فلما استولى الملك المؤيد على المملكة بأسرها بعد أخيه الأشرف هنأه الشعراء ومنهم الأديب يوسف بن العنسي فقال في ذلك:

القـوس مـوتـرة في كـف بـاريها ... فليعلم النـاس قـاصيهـا ودانيهـا
وليلبس الكـل منهـم درع مسكنـة ... كـي يصبحـوا في أمـان مـن مـراميهـا
فكـل نعمـة قـوم مـن يـدي ملـك ... فـالبغي سـالبهـا والذل كـاسيهـا
يهنـأ المؤيـد بـل تهنـا خلافتـه ... إني أهنيـه فيهـا مـا أهنيهـا

---

(١) جبال بالجمع ويقال جبل اللوز هو من جبال خولان العالية التي يقال لها اليوم حولان الطيال وهي شـرقي صنعا وأكثر مزارعها اللوز ومشهورة بذلك إلى ذا الحين.

(٢) الشعث من الخيل المنتفش الشعر والشوازب جماعة الخيل والمضمرة ضامرة البطون والمطهمة كثيرة اللحم وقب البطون ضامرة أيضاً.

خليفة الله من بعد الخليفة بل ... ملك الملوك جميعاً لا أحاشيها
إن الخلافة ما قرت وما هدأت ... حتى رمت نفسها في سوح حاميها
أضحت محجلة الأيام قد وقعت ... في كف داودها غراً لياليها
إن الرعية في أمن وفي دعة ... وفي بلهنية إذا أنت راعيها
أملاك غسان ما انفكت دعائمها ... لما بنيت من معاليه مغانيها

وهنأه الأديب عبدالله بن جعفر [1] بقصيدة أولها :

أملك داود أم ملك ابن داود ... ما أن أقيس بكنعان ونمرود
أفي الرواق هزبر تحت غابته ... إن الهزبر هزبر الدين والجود
بين السماء وبين الأرض مزدحم ... من الضياء والغناء والشزب العود
ومن ذوائب رايات إذا خفقت ... حسبتها طاردات بعد مطرود

ومنها :

ورثت دولة غسان كما ورثت ... آباؤك الغلب من أجدادك الصيد
فالأرض مشرقة والسحب مغدقة ... والنبت ما بين مخضود ومنضود

وكان الناصر والعادل ولدا أخيه الأشرف غائبين والعادل بصنعآه وكانت إقطاعه والناصر بالقحمة وكانت إقطاعه فوصلا إلى عمهما المؤيد فأكرمهما وكان الفقيه أبو بكر اليحيوي واسطة بينهما وبين السلطان أن لا يغير عليهما وأنهما لا ينازعان يداً واستعفيا من الاستمرار على إقطاعهما وقالا لا نحب خدمة بعد الوالد .

وكان الفقيه أبو بكر قد رجع عند تولي المؤيد من وصاب إلى تعز ففرح به المؤيد فاستوزر أخاه القاضي موفق الدين علي بن محمد بن عمر اليحيوي المعروف بالصاحب ثم قدمت الأشراف على السلطان بالتهنئة بالملك وانعقد بينهم الصلح ثم نزل المؤيد إلى زبيد بعد أن أقطع ولده المظفر صنعاء والظافر القحرية ،والحازتين[2] .

وفي هذه السنة أظهر الملك المسعود الخلاف على أخيه السلطان الملك المؤيد وكان مقطعاً في الأعمال السرددية فأوقع بأهل المحالب وسار إلى حرض واستولى عليها وجاءته الأشراف

---

(١) عبد الله بن جعفر العفيف كان شاعراً مفلقاً . ترجم له الجندي والخزرجي .

(٢) القحرية هي التي يقال لها القحره بضم القاف فيها آخره همزة ممدود وهي بلد وقبيل من أعمال باجل اليوم التي على طريق الحديده ـ صنعا والحازتين تثنية حازة وهي البلاد الوطئة قرب الجبال كلمة لغوية مستعملة .

من المخلاف السليماني ووصله من الجبال والجوف خيل كثيرة فاجتمع معه عسكر عظيم فجهز السلطان لحربة أخاه الملك المنصور وولده الظاهر فالتقوا في سنة سبع وتسعين بين المحالب وحرض فلما تراءى الجمعان عرف المسعود أنه مغلوب لا محالة فأذعن للصلح قبل اصطدام الجيش فقبض العسكر السلطاني المسعود وولده أسد الإسلام ووصلوا بهما إلى المؤيد فاسكنهما دار الأدب من حصن تعز مدة سنة ثم أطلقهما وأسكنهما حيس وجعل لهما ما يقوم بهما وبمن معهما.

وفي سنة ثمان وتسعين تقدم السلطان الملك المؤيد إلى عدن وعيد بها عيد النحر وكان السماط بحقات تحت المظفر السلطاني [1] على شاطىء البحر فقام الشعراء على السماط بأنواع المدائح وتعذر وصول الأديب عبدالله بن جعفر فأرسل بقصيدة عظيمة أنشدت على السماط أولها قوله:

أعلمت من قاد الجبال خيولا	وأفاض من لمع البروق سيولا
وأماج بحراً من دلاص سابغ	جرت أسود الغاب منه ذيولا
ومن القسي أهلة ما ينقضي	منها الخضاب عن الخضاب نصولا
وتزاحمت سمر القنا وتعانقت	قرباً كما يلقى الخليل خليلا
فالغيث لا يلقي الطريق إلى الثري	والريح فيه لا يطيق دخولا
سحب سرت فيها السيوف بوارقا	وتجاوبت فيها الرعود صهيلا
طلعت أسنتها نجوماً في السماء	فتبادرت عنها النجوم أفولا
تركت طلوع الملحدين طلولا	مما يبيح بها دماً مطلولا
طلب الفرار فمد أشطان [2] القنا	فأعاد معقلهم به معقولا
أين الفرار ولا فرار وبعدهم	من ليس يترك للفرار سبيلا
ملك إذا هاجت لواقح بأسه	ترك العزيز من الملوك ذليلا
وافى إلى عدن كمقدم جده	سيف بن ذي يزن الكريم أصولا
بحر إلى بحر يسير بمثله	والبحر أحقران يكون مثيلا
فتطايرت أمواج لجته إلى	عيذاب ينذر دجلة والنيلا [3]

---

(١) السماط معروف وهو ما يقاله اليوم السفرة وبحر حقات وهو بحر عدن الجنوبي الذي كانت ترفأ فيه السفن والمنظر هو الجبل المطل على حقات من الشمال وهو معاند لصيرة من الغرب والجنوب وكان هناك بنايات وقصور فخمة.

(٢) الاشطان جمع شطن وهي الحبال.

(٣) عيذاب: بفتح العين المهملة والياء المثناة من تحت آخره نون: مدينة ومرفأ من آخر حدود مصر في الجنوب الشرقي من القاهرة على طريق البرية.

والشمس تحسد تاجك المعقود والأكليل يحسد ذلك الأكليلا
لو يستطيع الثغر كان مقبلا بالثغر منه ركابكم تقبيلا
إن جاورت هذه الشمائل ثغره جعلت مذاق الماء منه شمولا
فاليوم قد وهب الإله لخلقه ظلا على الأقطار منه ظليلا
وأتى لهم ببدر السماء بذمة مكتوبة لا يظلمون قتيلا
أهزبر غسان بن قحطان الذي يدعوه في النسب القبيل قبيلا
في حيثما رفعت بنودك أنزلت آيات نصرك فوقها تنزيلا
لولا العلائق والعوايق لم أغب عن ظل بابك بكرة وأصيلا
ومن التكرم والتفضل لم يزل عذري إلى صدقاتكم مقبولا
لا زال توفيق الإله مقارنا لك حيث كنت إقامة ورحيلا

وفي سنة تسع وتسعين انتقل إلى رحمة الله الأمير الكبير الشريف علي بن عبدالله بن الحسن بن الحسن[1] بن علي بن حمزة وكان من رؤساء الأشراف ووجوهم وأعيانهم وزاد على سبعين سنة وأجمع على قيام ولده الإمام عماد الدين إدريس بن علي وكان ولده إدريس من أعيان الرجال فارساً هماماً شجاعاً أديباً لبيباً عفيفاً حليماً جامعاً لأشتات العلوم من المنثور والمنظوم وهو مصنف كتاب كنز الأخيار في التواريخ والأخبار وله عدة مصنفات كتب له السلطان بعهده فوصل إلى ثعبات وأكرمه إكراماً عظيماً ثم جرى الصلح على تسليم العظيمة والميقاع فسلمها.

وفي سنة سبعمائة نزل المؤيد تهامة ثم سار إلى الجهات السرددية ودخل المهجم في ألف فارس وهنأه عدة من الشعراء منهم العفيف عبدالله بن جعفر فقال في ذلك:

لو كان يقدر أن تكون الزائرا لك سردد لمشى إليك مبادرا
منع الجماد جموده أن يعتري عتبات بابك وارداً أو صادرا
شرفت مهجم سردد فتشرفت ورفعتها فوق النجوم مفاخرا

إلى أن قال:

عجباً لحكمك في الخلائق عادلا ولحكم كفك في الخزائن جائرا
بنيت أصول الملك بين بيوتكم فقسمتوها سؤدداً ومآثرا
ولحد سيفك أين غاية حده إذ ليس يبرح في الرقاب مسافرا
فحكت أواخركم بذاك أوائلا وحكت أوائلكم بذاك أواخرا

---

(١) في نسخة ابن الحسين.

أنجبت من جرثومة ملكية حسن المظفر ثم عيسى الظافرا
أعجزت السنة الخلائق كلها مدحاً فكيف أكون وحدي قادرا

ثم طلع الملك في رمضان من السنة المذكورة إلى البلاد العليا بسبب دعوة الإمام محمد بن مطهر إلى نفسه واجتماعه بالأشراف في حوث ثم بعد أمور طويلة وقع الصلح على ما يريد السلطان.

وفي سنة ثلاث وسبعمائة وصل الأمير بدر الدين مكنون المرقبي من الديار المصرية إلى اليمن يخبر بنصر المسلمين على عساكر التتار وأنه قتل منهم مائة ألف وعشرين ألف قتيل فاحتفل السلطان بالرسول وأعلن السرور وقال في ذلك الشريف أدريس بن علي بن عبد الله أبيات وهي:

لم تأتك الرسل من مصر وساكنها إلا مودية حقاً لكم يجب
وحين لاحت قصور الحصن لاح لهم من نور وجهك ما لا تستر الحجب
واستقبل العسكر المنصور فانصدعت قلوبهم فهي في أجوافهم تجب[1]
كتائب سد ضوء الشمس مطلعها عنهم فساروا بليل والقنا شهب
حفت بهم فرأوا أسداً ضراغمة عاداتهم في الوغى إن غولبوا غلبوا
وكيف لا والأمين الروح يقدمهم في كل روع وخير وأمر به يثب
وعاينوا منك وجهاً طالما سجدت له الملوك وقامت باسمه الخطب

ثم إن السلطان أمر بالرسول فأنزل وأكرم بما يليق.

وفي سنة ست وسبعمائة ولد الملك المجاهد بزبيد وفي جمادى من السنة المذكورة أخذ ابن صهيب حصن السانة[2] بوصاب وهو حصن عظيم من أحرز معاقل اليمن الذي يحط عليه ولا يراه لأنه برأس جبل عال وليس له إلا طريق واحدة فحط عليه السلطان فأذعن ابن صهيب ونزل على الذمة وتسلم السلطان الحصن وغيره.

وفي سنة سبع وسبعمائة أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر على نائبه بهاء

---

(١) قوله يجب من وجب القلب إذا اضطرب وخفق.

(٢) بنو صهيب كانوا ملوك وصاب الذين منها عتمة اطنب في ذكرهم صاحب تاريخ وصاحب العلامة الحبيشي وحصن السانة: بفتح السين المهملة ثم نون بعد الألف وآخره هاء من الحصون المشهورة المنيعة صعبة المرتقى ولا زالت تستخدم لغرضها وسيأتي لها مزيد ذكر من كلام المؤلف ونسب إليها العلامة محمد أحمد السانة العلامة الأديب الوصابي له مؤلفات حسان.

سيف الدين سلار [1] أن يسير عسكراً إلى اليمن صحبة الأمير سيف الدين بيبرس فورد أمره على المشد أن يتقدم إلى قوص [2] لعمارة المراكب فعمر لهم نيفاً وخمسين مركباً فاتفق من قضا الله وقدره موت المشد وأولاده وجميع أهل داره في أيام قليلة فرجع سلار نائب السلطنة عن ذلك وأشار بأن يحضر العلماء والمشايخ إلى مقام السلطان ويعلمه أن هذا الأمر لا يحل لأن البلد بلاد الإيمان والعلماء وسلطانها صحيح الولاية فرجع عن ذلك.

وفي سنة ثمان وسبع مائة فرغت عمارة القصر المعقلي بثعبات [3] واجتمع من يخترق الآفاق أن لا نظير له في شام ولا عراق وهو مجلس طوله خمسة وعشرون ذراعاً في عرض عشرين بسقفين مذهبين بغير أعمدة له أربع مناظر بأربعة رواشن ليس فيه إلا رخام وذهب وأمامه بركة طولها مائة ذراع في عرض خمسين على حافاتها صفة طيور ووحوش من صفر ترمي الماء من أفواهها في وسط البركة فوارة ترمي إلى السماء فتبلغ أمداً بعيداً وقبالة المجلس شاذروان بعيد ينصب ماؤه إلى البركة المذكورة كأنه لوح من بلور وفي المجلس شباك يفضي إلى بستان عظيم المنظر وعند تمام بنائه عمل السلطان فرحة عظيمة حضرها أعيان الناس وعامتهم ثم بعد فراغ القصر المذكور نزل إلى زبيد ثم سار إلى المهجم ثم سار إلى حجة وذلك حين طال الحصار على الظهرين [4] ولم يصل المقدمون إلى غرض فوصل السلطان إلى الجاهلي وتسلم الظهرين ونقل المحطة إلى شمسان [5] فأخذه بعد قتال شديد ثم سار السلطان نحو زبيد فوصله الأمير تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن حمزة إلى زبيد ولم يكن وصوله قبل ذلك

---

(١) محمد بن قلاوون الصالحي الملقب الناصر الملك المنصور صاحب الديار المصرية والشامية والحجازية وغير ذلك من البلاد الإسلامية ولي السلطنة ثلاث مرات الأولى نحو سنة والثانية نحو عشر سنين والثالثة نحو اثنتين وثلاثين سنة حكى ذلك الفاسي في العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ٢٢٠ - ٢٦٠ وتوفي سنة احدى وأربعين وسبعمائة وله أخبار وحكايات يطول ذكرها وسيف الدين سلار كان نائبه ولم اطلع على ترجمة له فيما بين يدي من الكتب.

(٢) قوص بضم القاف ثم السكون وآخره صاد مهملة: مدينة كبيرة من صعيد مصر نسب إليها بشر كثير من العلماء.

(٣) ثعبات سلف ذكرها وانقاض قصر المعقلي لا زالت بادية ووصفه يكثر وكان من مفاخر الدولة الرسولية ولكن الأيام لا تبقي ولا تذر.

(٤) الظهرين تثنية ظهر: بلدة عامرة في الشمال الغربي من مركز حجة بربع ميل ويسكنها أهل العلم والفضل مثل آل حميد الهمدانيين وآل المسعودي الحواليين وإليهم ينسب جامع الظهرين الكبير وله أوقاف منهم.

(٥) الجاهلي شمال غربي قرية الظهرين والمسافة فيما بينهما ميلان إلى أربعة أميال والجاهلي امنع من شمسان.

وكان من أعيان الشرفاء ورؤسائها وهو صاحب الحصون الغربية كحلان والطويلة وعدة حصون صغار [١] فقابله السلطان بالأنعام، والاكرام.

وفي تسع وسبعمائة حصل من أكراد ذمار خلاف وقتلوا الأمير سيف الدين طغربل وكان على باب المدينة في قصر السلطان ونهبوا المحطة وما فيها من خيل وعدد فجهز لهم السلطان العساكر حتى أخذت خيولهم وتفرقوا ثم اصطلح الأكراد والأمام محمد بن مطهر ثم ساروا إلى قرن عنتر [٢] فأخذوه قهراً ثم زحف الأمام محمد بن مطهر إلى صنعاء وقاتل أهلها ثم رجع إلى حدة وسناع هو والإكراد فطلع السلطان بنفسه فلما وصل إلى ذمار سارا إلى صنعاء فامسى على بابها فلم يطمع الأمام على معاودة القتال عليها.

ثم خالف الأمراء آل شمس الدين بصعدة وأخرجوا الأمير البهاء الكردي فغضب السلطان وسير ولده المظفر إلى قاع بيت الفاهم [٣] فحط به وظهرت على الأمام محمد بن مطهر كدّه فانهزم هو ومن معه من الأكراد.

وفي سنة عشر وسبعمائة اصطلح الأكراد ودخلوا في الطاعة بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وفي سنة إحدى عشرة توجه الأمام محمد بن مطهر إلى الشرف في جمع كثير واستولى على القاهرة [٤] وأجابه الشرف الأعلى كافة فجرد له السلطان من تهامة الجرائد وأمد الشريف عماد الدين إدريس بن علي بن عبدالله بالتوجه إليها وعلى عادته استمد الأمام بقبائل حجة وشظب [٥] وغيرهما وقصدوا المحطة فانهزم العسكر السلطاني قبل وصول الإمام ولم يبق ألا الشريف عماد الدين في أربعة افراس فأسر الشريف عماد الدين وقتل ابن عمه ثم أفلت الشريف عماد الدين بعد نصف شهر ولحق بحصن جران [٦] ثم انتقل إلى الظفر ثم انتقل إلى محطة الملك المظفر بن المؤيد إلى قلحاح .

---

(١) كحلان والطويلة في مغرب كوكبان بينهما قاع الضلع وتعتبر اليوم الطويلة مدينة ومركزاً هاماً.

(٢) قرن عنتر من جبل عيبان الممتد من فوق عصر شمالاً إلى فوق أرتل جنوباً وهو ما يسمى اليوم ظفار ويطل على صنعاء من الجنوب الغربي وفي حرب السبعين المشهورة في عصرنا كانت فيه معارك ضارية بين الجمهوريين والرجعين انتصر الجمهوريون ووضعوا فيه حامية قوية إلى اليوم.

(٣) قاع فاهم بالفاء في حضور. وكان في الأصل بالباء الموحدة وهو وهم.

(٤) القاهرة هنا هو حصن مركز المحابشة من الشرف ويسمى اليوم القاهر بدون هاء.

(٥) حجة سلف ذكرها وشظب بفتح الشين والظاء المشالة المعجمتين آخره باء جبل فيه مزارع واوطان يطل على مركز السودة وهو من بلد حاشد في غربيها.

(٦) حصن جران غير معروف عندي ولعله حصن جراع الواقع قبل كحلان والظفر عفار من حصون الشرف وقلحاح بكسر القاف سلف ذكره.

ولما طالت الفتن بين السلطان والإمام استقر الحال على ذمة سنة وفي سنة إثنتي عشرة وسبعمائة أمر السلطان ببناء قصر في البستان المعروف بحائط النبق [1] وكان صفة بنائه إيوانا طوله خمسة وأربعون ذراعاً وصدره مقعد طوله سبعة اذرع وله دهليز متسع فوقه قصر بأربعة أواوين تشرف على البستان من جميع جوانبه وكان انتقال الملك المؤيد إلى رحمة الله الواسعة في سنة إحدى وعشرين وسبعمائة.

ولما اشتد به الوجع بدار الشجرة [2] أمر ولده الملك المجاهد بطلوع حصن تعز ولم يكن له يومئذ ولد غيره وكان له ولدان انتقلا قبله، وكانت مدة ملكه ستا وعشرين سنة وكان غاية في الجود والشجاعة.

فمن غرائب جوده أن وهب خزانة عدن بأسرها لأحد ندمائه وهو الأمير شمس الدين علي بن رضوان ومن عجائب [3] شجاعته وبأسه انه أمر بالأسد أن يطلق في مجلسه وأخذ السيف والجحفة فاقبل الأسد عليه وداعبه ساعة حتى امكنته فرصة فضربه بالسيف والقاه عقيراً وقد خرجت حشوته من بطنه فسئل عن سبب ذلك فقال: إن عادتي أن يوضع لي خروف على الغدا فآكل منه جنباً ولا أقلبه فلما كان اليوم أكلت جنباً منه ثم قلبته واخذت من جنبه الآخر وكنت اصطبحت شيئاً وحضر معنا رجل غريب فأستقبحت ما أكلت فطلبت الأسد وقابلته ليرى الرجل أن مقاتل الأسد لا يستكثر عليه أكل الخروف.

ومن مآثره الدينية المؤيدية بتعز وبها قبره وله غيرها عدة مآثر وابتنت كريمته المسماة دار الدملوة مدرسة بزبيد ومسجداً بتعز ومدرسة بظفار الحبوظي وابتنت كريمته المسماة دار الأسد مدرسة بتعز وأخرى بظفار الحبوظي وابتنى الأمير محمد بن ميكائيل الذي كان استاذ داره مدرسة بزبيد ولم يمت حتى استحلف العسكر لولده المجاهد.

قال أبو الحسن الخزرجي. أخبرني الفقيه جمال الدين محمد بن عبد الله الريمي [4] قال لما خالف الملك الناصر بن الأشرف على عمه الملك المؤيد ثم نزل إليه على ذمة قال السلطان للخازن دار احمل للولد محمد مائة ألف دينار وخذ خطه بذلك وكان المؤيد مقبلاً على ابن أخيه محمد بن المسعود حسن بن المظفر أقبالاً كلياً فظن الخازن دار أنه يريده بالمال فاوصله إليه وأخذ خطه وجاء به إلى المؤيد في طي مطالعته منه فقال له إنما أردنا محمد الناصر فبادر

(١) حائط النبق لا يعرف اليوم وفي «ع» بدل ببناء: السا.

(٢) دار الشجرة غير معروف اليوم في عصيفرة شمال تعز محلة يقال لها الشجرة وكانت بستان وفيها مواجل وبركات.

(٣) وفي «ع» غرائب.

(٤) لم أطلع على ترجمة الريمي في المصادر الموجودة.

احمل إليه مائة ألف أخرى إلى الناصر وخذ خطه بما قبض فرجع الخازن دار إلى الخزانة وحمل منها مائة ألف أخرى إلى الناصر وأخذ خطه ولم يسترجع من المسعود شيئاً ولا نقص الناصر شيئاً مما لفظه به ولا عنف الأمير في عدم المراجعة وهذا غاية الجود والكرم.

وكان المؤيد مشاركاً[1] في كل علم وله مطالعة في الكتب المبسوطة في كل فن وسمع الحديث واختصر كتاب الجمهرة في البيزرة[2] وجمع من أشعار الجاهلية والمولدين شيئاً كثيراً رحمه الله تعالى.

الفصل العاشر
في دولة الملك المجاهد سيف الإسلام أبي الحسن

علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول:

كان ملكاً شهماً شجاعاً مقداماً شريف النفس كريم الأخلاق حسن الشمائل لين العريكة سعيد الحركة صادق الفراسة حسن السياسة ولي الملك في أقطار اليمن بعد وفاة أبيه فلما استقر في الملك عزل الأمير جمال الدين يوسف بن يعقوب الجواد وكان نائب السلطنة وأتابك العسكر ففوض نيابة العسكر السلطاني إلى الأمير شجاع الدين عمر بن يوسف بن منصور فلما تمكن عمر بن يوسف وعظمت منزلته طرد يوسف بن يعقوب من الباب وضبط الباب ضبطاً عظيماً وكان من دهاة الرجال وأعرفهم بتدبير الملك فلما كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة أوقع عمر بن يوسف في قلب المجاهد من ابن عمه الناصر بن الأشرف عمر فقبض من تربة الفقيه عمر بن سعيد بذي عقيب[3] وكان الناصر قد هرب إليها لما علم أن السلطان يريد قبضه فأتوا به فسجن في الحصن ثم أمر السلطان أن يحبس بعدن ثم تقدم السلطان إلى الجند فأقام بها أياماً ثم وصل[4] إلى الدملوة وافتقد خزائنه ثم نزل منها

---

(١) ناهيك إنها كانت تضم خزائن كتبه ماية ألف مجلد من أجمل ما ألف وأتقن ما كتب.

(٢) «البيزرة» هي الصيد بالصقور.

(٣) عمر بن سعيد من العلماء الأفاضل والزهاد الأماثل وائمة المتصوفة ترجم له الجندي، وله أوقاف جسيمة وذو عقيب بضم العين المهملة وفتح القاف وسكون الباء المثناة من تحت وباء موحدة آخر الحروف بلدة عامرة كثيرة الغيول والينابيع شمال مدينة جبلة بمسافة ربع ميل أو زيادة وقد سلف ذكرها.

(٤) في «ع» نزل.

ولم يعط أحداً شيئاً وكان من تقدمه من الملوك إذا طالع الدملوة انعم على كافة العسكر والمرتبين في الحصن أنعاماً عاماً فنفرت منه قلوب العسكر فسعوا في فساد دولته فقرروا قاعدة عند عمه أيوب المنصور بن المظفر.

ولما صار المجاهد في ثعبات اجتمعت المماليك والأمراء الكبار وقصدوا دار الأمير الشجاع عمر بن يوسف بقرية المحارب[1] فقتلوا صهره الأمير بدر الدين بن محمد بن الهمام وكان اشجع أهل زمانه وأفرسهم وقتلوا قاضي القضاة عبد الرحمن الظفاري والشيخ محمد بن عثمان العبسي من عبس حكم[2] ثم خرجوا فوراً إلى ثعبات ليلاً فقبضوا المجاهد ووصلوا به في ليلتهم إلى عمه المنصور أسيراً فأقام عنده تحت الحفظ ثلاثة أيام ثم طلع بعدها المنصور إلى الحصن في زي المملكة وطلع المجاهد معه فجعله في دار الإمارة معززاً مكرماً بعدما استحلف العسكر على ما طابت به نفسه، ولما استقر المنصور بالحصن أرسل لابن أخيه الناصر بن الأشرف إلى عدن فلما وصل إليه إكرمه واقطعه المهجم ثم عقد لولديه الكامل والواثق الألوية وأقطعهما إقطاعاً جيداً وأرسل ولده الظاهر بن المنصور إلى الدملوة وأقام الملك المنصور في الملك تسعين أو ثمانين يوماً بحصن تعز.

ثم إن والده المجاهد استحلفت رجالاً من العربيين[3] وبذلت لهم الرغايب الجزيلة فطلعوا الحصن من ناحية الشريف[4] بمساعدة من فيه فسكنوا حتى طلع الفجر ونزل الخادم بمفاتيح أبواب الحصن فلما علموا بنزوله خرجوا عليه وقتلوه وقبضوا المفاتيح ولم يشعر بهم المنصور حتى دخلوا عليه إلى موضع مبيتة وقبضوه وجعلوه مكان المجاهد وأخرجوا المجاهد وصاحوا له بالسلطنة في رأس الحصن ففزع العسكر وركبوا مع الناصر حتى وصلوا أسفل الحصن فلم يتهيأ لهم عمل وأبوابه مغلقة وركب الأمراء إلى الناصر وقالوا إن كان المنصور مات أو قتل أو قبض فأنت أولى بالملك واجتمعت كلمتهم على ذلك وانبعثت المدينة خيلاً ورجلاً يريدون طريقاً إلى الحصن.

---

(١) المحاريب كانت حارة أو قرية من خارج سور عدينة من جهة الشرق أسفل وادي المدام وكانت خراباً يباباً واليوم قد عادت لها الحياة ولا تعرف اليوم بهذا الأسم، تاريخ الخزرجي.

(٢) عبس حكم بلد وقبيل من حكم بن سعد العشيرة بن مذجح وهو ما يسمى اليوم بعبس بن ثواب وهو مدينة ومركز ناحية مربوطة بقضا حرض أو ميدي ويقع في حزاز جبال الشرف في تهامه.

(٣) العربيين بفتح العين المهملة وسكون الراء وكسر الباء الموحدة ثم يائين مثنيتين من تحت اخره نون بلدة كبيرة من قاع الجند من السكاسك جنوب مدينة الجند وهي المراد هنا والعربيين أيضاً من مخلاف نعيمه: صهبان.

(٤) لا يعرف نفس المحل اليوم والحصن هو حصن تعز المسمى بالقاهرة.

فلما رأى المجاهد ما اجتمعوا عليه قال سبحان الله أما في هؤلاء من يذكر لوالدي إحساناً عليه فأمر المجاهد بنهب البيوت المنصورية فرجعت الأمراء إلى بيوتهم خوفاً من النهب وغشيهم السواد الأعظم وكان يوماً عظيماً ولم يمض نصف ذلك اليوم حتى كتبت والدة السلطان جهة صلاح إليه تعلمه ان بنات عمه وسائر نساء الملوك هتكوا ونهبوا وقد صاروا في حصر المساجد فأمر بصائح برد ما أخذ لبنات الملوك.

ثم قبض ابن عمه الناصر بن الأشرف وولده زين الإسلام ابن الناصر وقبض الكامل ابن عمه المنصور ومحمد العادل بن الأشراف عمر واطلعوا الحصن وخامسهم المنصور واستولى المجاهد على الملك مرة ثانية ثم أطلق الناصر والكامل بعد أيام قليلة لأشياء تقدمت منهما توجب المكافأة بالاحسان.

ثم طلب المجاهد من عمه المنصور ان يكتب إلى ولده الظاهر بتسليم الدملوة فكتب إليه فلم يمتثل فجهز المجاهد عسكراً كثيفاً فحط على المنصورة[1] شهرين وقتل ما لا يحصي من الفريقين فلما طال الأمر خادعهم الظاهر فافسد أهل المحطة فارتفعوا ثم انتقل المنصور بن المظفر إلى رحمة الله تعالى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة.

ولما استولى المجاهد المرة الثانية أمر على المماليك الذين كانوا لزموه فلم يأمنوه وهرب رؤساؤهم إلى الظاهر بن المنصور بالدملوة وحملوه على طلب الملك فاستخدمهم وفرق فيهم أموالاً عظيمة فساروا إلى المجاهد وهو بحصن تعز ونصبوا عليه المنجنيق أحد عشر شهراً ولم ينالوا منه ما يريدون واستولوا على تهامة وأخذوا عدن وأقام الظاهر بعدن ثم افترقت كلمة المماليك وضجروا من طول المحطة فارتفعوا عن حصن تعز ونزلوا تهامة فنزل المجاهد إلى عدن وحاصر الظاهر بها وضيق عليه ثم ارتفع عنها بمكيدة، ولما نزل المماليك تهامة اجتمعوا بالملك الناصر وكان السلطان يوم أطلقه أمره بسكنى قرية السلامة فسكنها فلما وصله المماليك سألوه السير معهم فاعتذر ووعدهم المساعدة واتفاق الكلمة فساروا نحو زبيد فملكوها للظاهر واستولوا على خراجها ولم يكن للظاهر إلا الخطبة وكان الأمير أحمد بن ازدمر بقرية السلامة فطلع إلى المجاهد وتقلد له استعادة زبيد فجهز له خمسمائة فارس ورجاله كثيرة ونزل معهم الزعيم فلما صاروا بين القرتب وزبيد قصدهم المماليك الذين بزبيد إلى محطتهم على حين غفلة وكان الأمير نجم الدين قد ركب في جماعة يباشر أرضاً له في الوادي فهرب معظم من كان في المحطة وانهزم الزعيم وثبت ابن العماد في جماعة فقتلوا عن

---

(١) المنصورة قرية كبيرة خربة أسفل الدملوه من مخلاف الصلو جنوب تعز مسافة يوم ولها في التاريخ ذكر كثير.

آخرهم ورجع الأمير نجم الدين فيمن معه وقتل بعضهم وأسر الأمير ازدمر ومن معه وكان الأمير غياث الدين محمد بن نور مع المجاهد بحصن تعز فخادع السلطان وخرج من الحصن ثم تقدم إلى الدملوة فحلف للظاهر أنه ناصح له مجتهد وكان المحاصرون بحصن تعز من قبل الظاهر قد تغير منجنيقهم فتطاول إصلاحه فأرسلوا إلى الدملوة من يأتيهم بمنجنيق آخر فأرسل إليهم الظاهر بمنجنيق وكان ممن وصل صحبة المنجنيق غياث الدين فكان له من الجهد في حرب السلطان المجاهد ما يدل على خبث أصله مع إحسان المجاهد إليه وكان الغياث يرمي الحصن كان يوم بأربعين حجراً يقال ان رميه حسب فكان ألفي حجرة والله أعلم.

قال أبو الحسن الخزرجي أخبرني الثقة عن الثقة عن جارية لأم المجاهد يقال لها نخبة كانت في حصن تعز أيام الحصار قالت لقد اشتد علينا الحصار حتى كان الملك المجاهد ينتقل في اليوم والليلة إلى عدة أماكن ولقد أذكر أن السلطان توضأ وفرغ ونحن عنده ووالدته عنده في مكان من الحصن إذ انشق الجدار من الحصن وخرج منه غلام تام الخلقة وله دبوقة [1] إلى آخر ظهره فأكب على السلطان فاعتنقه، وحمله بسرعة من مكانه إلى مكان آخر ففزعنا منه وطاشت عقولنا فلما وضعه وقع الحجر من المنجنيق مكانه الذي كان فيه أولاً فأتلفه فقال السلطان للذي حمله من أنت يا أخي الذي من الله عليّ بك قال والله أنا أخوك حقيقة وأبي والله أبوك المؤيد وأمي الجارية الفلانية ولكني حملت صغيراً فربيت مع الجن حتى صرت كما ترى ولما رأيت أن هذا الحجر قاتلك لا محالة حملتك شفقة عليك واعلم يا أخي أن قد اتفقت أنا وصاحب الحصن بصيبص [2] أن نقاتل معك اليوم الفلاني فاجمع من معك فإنك ستبلغ ما تريد من نصرتك وأستودعك الله ثم مضى فدخل الموضع الذي خرج منه فوصلت أم المجاهد إليه فزعة واستخبرته عن ذلك الشخص فأخبرها ثم سألها عن الجارية فقالت صدق وكانت حاملاً لأبيك حتى أشرفت على الولادة فأصبحت يوماً من الأيام وقد مسخ الذي في بطنها وعاشت بعد ذلك مدة ثم هلكت ففعل السلطان ما امره به من خروج أصحابه للقتال في اليوم المعين فأثروا في عدوهم أثراً ظاهراً على قلتهم وكثرة عدوهم وما ذاك إلا بقتال قوم آخرين [3] والله أعلم.

---

(١) كذا في الأصل والدبوقه كما في القاموس: الشعر المظفور.

(٢) لا يزال اسم بصيبص يرن على ألسنة الناس ويتحدث به القصاص وأمهات وعجائز الأولاد الصغار والأطفال.

(٣) هذه الأعجوبة هي بالأسطورة أشبه من أن تكون حادثة واقعية قصد بها تشجيع أصحاب المجاهد المحصورين معه وأول من حاكها أم الملك المجاهد فقد كانت من الدهاء والسياسة ما كفل لابنها الملك مدة حياته.

وكان ابن الدويدار والمماليك هم المحاصرون لحصن تعز فهمّ المماليك برفع المحطة ونـزول التهائم فتعب ابن الدويدار وقبح فعلهم فطلبوا جامكية فأعطاهم ألف دينار فاقتسموها ثم إن المعازبة قصدوا القحمة[1] فأخربوها فنزل الشريف داود بن قاسم بن حمزة وكانت القحمة إقطاعه ونزل معه جماعة من المماليك وقتل طائفة من المعازبة، وكان المجاهد قد أرسل الزعيم بمال يستخدم به العسكر من الأشراف وغيرهم فاستخدم حينئذ من الأشراف بني حمزة وأشراف المخلاف السليماني واجتمعوا في المحالب فاجتمعت المماليك وساروا نحوهـم فالتقوا بالكدرا في الوادي المسمى جاحف[2] وكان يوم جاحف المشهور وكان الأشراف ومن معهم ألفاً وثملثمائة فارس فقتل من الفريقين شيء كثير وانهزم المماليك بعد أن تضعضع صف الأشراف وقتل من أعيان المماليك ثلاثة وأسر من أعيانهم ثلاثة.

ولما رجع المماليك بعد الهزيمة إلى زبيد بلغ الخبر إلى تعز بهزيمتهم وقتل من قتل، وأسر من أسر وكان طائفة من المماليك في محطة ابن دويدار فلم يقر لهم قرار فارتفعوا وتركوا ابن الدويدان فارتفع بعدهم فلما ارتفعوا رجع جماعة من المماليك إلى السلطان وحلفوا له على الطاعة.

وفي سنة خمس وعشرين وسبعمائة سار ابن الدويدار في عسكر إلى لحـج يريد أخذ عدن لنفسه على كره المجاهد والظاهر فحصر عدن حصاراً شديداً فخودع بالصلح بإشارة من السلطان فلما تم الصلح قال إني أريد دخول المدينة فقال له الوالي وهو ابن الصليحي: البلد بلدك ولكن المصلحـة أن تـدخـل في جماعـة مـن العقلاء ممن لا يـؤذي أهـل البلـد، فـدخـل في جماعة من أصحابه فأمسى في ليلته يسكر هو وأصحابه فلما أصبح دخل الحمام فبينما هو فيه هجم عليه الوالي ومن معه فقتلوه وكان أخوه خارج المدينة في بقية من العسكر فلما بلغه قتل أخيه هرب إلى حصن منيف[3] وهلك فيه.

ثم إن المماليك وصلوا زبيد وقصدوا بيت القصري فرحب بهم فقالوا له أمر مولانا السلطان الملك الظاهر أن نخرج من زبيد إلى اقطاعه وأن الشهابي يكون والي البلد وطريطية الهمداني مشدها وبهادر الصقري مشد المشدين فأظهر لهم الامتثال، والتجهز عن زبيد فلما افترق جمعهم طلب مشايخ العوارين[4] وبذل لهم أربعة آلاف دينار على أن يقبضوا له

---

(١) المعازبة قبيلة من عك عاتية باسلة لا يزال لها بقية في ما بين بيت الفقم والمنصورية.

(٢) وادي جاحف شمال مركز السخنة المشهورة اليوم وشرق شمال المنصورية وتنزل روافده من شمال برع وشمال جبال ريمة الموطئة.

(٣) منيف الصهيب تقدم ذكره.

(٤) العوارون هم جماعة من الفتاكين واللصوص والأوباش يظهرون في أدوار الفوضى ويتسلحون بالوضف المقلاع والرمي بالحجارة فيعورون الناس بالجنايات والقتل نحو ذلك.

الشهابي وطريطية وبهادر الصقري والشريف داود بن قاسم بن حمزة فقصدوهم فركبوا خيولهم فخرجوا إلى الشريف فإنه كان واثقاً بالصقري ونهبت العوارين بيوت المماليك الذين خرجوا نهباً شديداً ثم جاء العوارون إلى الصقري يريدون المال الذي وعدهم به فقال له الشريف داود ما كفى هؤلاء ما نهبوا من بيوتنا وبيوت أصحابنا فطردهم الصقري وتوعدهم فصاحوا عليه صيحة واحدة وأحاطوا بداره وأمطروه حجارة فأغلق داره وقاتلهم مع عبيده ساعة من نهار ثم تسوروا البيت من ورائه فلما رأى أنه لا طاقة له بهم ركب في أصحاب متسلحين وخرجوا قاصدين باب المدينة فنهبت العوارون بيته وبيوت أصحابه نهباً شديداً.

قال أبو الحسن الخزرجي رحمه الله: سمعت والدي يقول بينما نحن يومئذ في الجامع وخطيب الجمعه قد رقي المنبر ليخطب إذ أقبل جماعة من العوارين فدخلوا الجامع متسلحين وفيهم رجل من شياطينهم يسمى القعموس وقال للخطيب اخطب للملك المجاهد فقال الخطيب: ما أمرنا بهذا فقال له ابن القعموس انظر ما في يدي وهز حربته بيده وقال والله إن لم تخطب للمجاهد لاسمرنك قال: فخطب للمجاهد وهم وقوف يسمعون ولم يخطب للظاهر بعد ذلك في تهامة.

وفي هذا التاريخ وصل المفضل والفائز من بيت ابن عجيل إلى زبيد لما صارت لعمهما المجاهد ولما خرج المماليك من زبيد تقدم جماعة من مقدميهم إلى الملك الناصر محمد بن الأشرف عمر وكان بقرية السلامة فلازموه على القيام ووعدوه الطاعة فقصد بهم زبيد وحط في البستان فقاتلهم أهل زبيد أياماً ثم انتقل الناصر إلى التريبه [1] ثم سار إلى الكدرا ووصل إليه جماعة منهم ابن علاء الدين وابن الأسد فحلفوا له على الطاعة فقصد بعسكره زبيد فخرج إليه شمس الدين بن المفضل بن اخي المجاهد في عسكر إلى فشال فاقتتلوا فانهزم المفضل ثم إن الناصر قصد زبيد يريد النخل [2] ووعد أهله بحطيطة الثلث من المكتب والواجبات السلطانية وكذلك رعية الوادي وحط في محل زريق بين المسلب والنخل وكان أهل زبيد قد كتبوا إلى المجاهد بتعز لما خرج المماليك من زبيد وخطبوا للمجاهد وقالوا يا مولانا لا طاقة لنا بحفظ البلد إلا بعسكر جيد فأرسل إليهم العسكر تترى ثم كتب الصقري إلى السلطان يطلب الذمة فأذم عليه ثم طلع مشايخ العوارين إلى المجاهد بتعز فقبلوا قدمه وسألوه النزول معهم إلى تهامة وعرفوه إن لم ينزل فلا بلاد له ولا للظاهر فوصل معهم

---

(١) مضى الكلام على التريبة والكدرا.

(٢) محل النخل غربي مدينة زبيد وهو مخرف عظيم وبساتين متسعة وروضة من الرياض الغناء.

إلى زبيد وكان الناصر ومن معه في محل زريق كما ذكرنا وفي ظنهم أن السلطان لا ينزل أبداً فلما نزل حرقوا محطتهم وفروا إلى قرية السلامة والتزموا الفقيه علي بن أبي بكر الزيلعي [١] في الجوار فوصل المجاهد إلى النخل وجاءه جماعة من العسكر فأذم عليهم ثم رجعوا إلى زبيد وأرسل ابن أخيه شمس الدين المفضل في عسكر إلى السلامة فأحاطوا ببيت الفقيه على بن أبي بكر الزيلعي ودخل المفضل إلى الفقيه وأعطاه ذمة للناصر من السلطان وأقطعه المهجم فأناب إلى ذلك بعد علاج شديد فسار به إلى حيس ثم عطف به طريق تعز فحبسه في الحصن إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى فقبر مع والده في الأشرفية بمغربة تعز.

وفي هذا التاريخ وهو سنة خمس وعشرون وصل البشير إلى السلطان بوصول الغارة إليه من الديار المصرية فوقف لهم بزبيد فوصلوا في رجب وكانوا ألفي فارس وألفي راجل فيهم أربعة امراء ومعهم اثنان وعشرون ألف جمل تحمل عددهم وازوادهم فخرج السلطان للقائهم في عسكره وخاصته فلما دنوا منه قبلوا الأرض وترجلوا له وساروا في خدمته ساعة ثم ادخلوه خيمة كانوا قد ضربوها فأخرجوا عمامة بعذبتين وخلعة فاخرة وأخبروه أن السلطان محمد بن قلاوون تعمم هذه العمامة بيده ووضعها في صندوق مع الخلعة ثم ساروا بين يديه إلى باب الشبارق فحطوا خارج المدينة ثم لم يلبث السلطان أن طلع تعز في معظم العسكر وتخلف عسكر مصر إذ لا تسعهم الطريق لو ساروا دفعة واحدة فوصل السلطان تعز ثم لحق العسكر المصري فعاثوا في البلدان وضاقت بهم وانتهبوا بيوتاً كثيرة وعدم الطعام فجلب من البعد وغلت الأسعار وضاق الناس وقطعوا جميع زرع تعز ونواحيها ونهبوا قرية عقاقة [٢] ونهبوا نساءها وباعوهن كما يباع الرقيق.

وفي مدة إقامة العسكر المصري بتعز تقدم جماعة منهم إلى الظاهر بالدملوة بكتب من صاحب مصر يعذله فيها عن الخروج على السلطان ويأمره بالطاعة ويتوعده بالعقوبة إن خالف فلما قرأ الكتب أخرج لهم مساطير [٣] قد كتبت أنه أصلح من المجاهد للمملكة وأعطاهم مالاً كثيراً وحرضهم على قبض المجاهد ووعدهم من نفسه بما أرضاهم فاجابوه ثم رجعوا إلى تعز عازمين على قبض المجاهد فوصلوا إلى دار الشجرة بأجمعهم واستأذنوا عليه

---

(١) الزيلعي من رجال الصوفيه وله مقام ومزار في حيس.

(٢) قرية عقاقة بضم العين المهملة وفتح القافين آخره هاء قرية كبيرة ذات حروث غربي تعز بمسافة ثلاثة أميال أو زيادة وهي من صيله وكان في الأصل بالميم قبل الهاء والتصحيح من العقود ص ٣٣ ومن البحث والاستقراء.

(٣) أي منشورات.

فاعتذر أنه في الحمام وخرج من باب السر فوراً [١] وطلع حصن تعز وكتب إلى المقدمين فيهم ان قد بلغ شكركما وانقضت الحاجة بكما، وهذا خطنا بأيديكما يشهد لكما بقضاء الحاجة واقاموا إلى غرة شعبان، وعزموا على السفر وكانوا قد قصدوا ناحية من صبر فقاتلهم أهلها وعادوا مكسورين ثم أنهم قبضوا الصقري ووسطوه وعلقوه على اثلة في السوق ثم قبضوا الغياث بن نور وساروا به تحت الحفظ فبذلهم السلطان فيه مالا فلم يقبلوا ونزلوا تهامة فنهبوا كثيراً من قراها وحيل بينهم وبين دخول زبيد فحطوا خارجها ثم ساروا فلما بلغوا حرض وسطوا الغياث بها [٢] يقال إن الزعيم كان لم يزل يغريهم به حتى قتلوه والله أعلم.

ولما انفصل العسكر المصري من تعز وساروا خرج السلطان إلى عدن فحط عليها سبعة أيام وقاتله أهلها ولم يتفق له مراده فرجع إلى زبيد فلما علم الظاهر بن المنصور ارتفاعه نزل من الدملوة إلى عدن ثم ان السلطان عيد بزبيد عيد الفطر ثم خرج إلى بلد المعازبة فحرقها ونهبها نهباً شنيعاً وقطع نخل المدني.

وفي نصف شهر القعدة من سنة خمس وعشرين تقدم القاضي جمال الدين محمد بن موسى [٣] إلى الديار المصرية بهدية سنية وكان مسيره في البحر من ساحل زبيد وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة طلع المجاهد من زبيد إلى تعز ثم تقدم فوصل إلى المبأة [٤] وبها عسكر الظاهر فحصل بين العسكرين قتال فانكسر العسكر الظاهري وقتل منهم نحو سبعين فلما انهزموا منع الظاهر باقيهم من دخول عدن فوقفوا في المبأة وهي قرية صغيرة خارج عدن ثم بعد أيام قبض مكتب لابن الأسد [٥] يريد عدن فأخذت كتبه وفضت وإذا فيها انه إذا وصل هو والإمام محمد بن مطهر وألف فارس واثنا عشر ألف راجل فأرجف المرجفون واضطربت المحطة وكثر كلام الأكراد وهم غالب العسكر فرفع السلطان المحطة

---

(١) باب السر يتخذه الملوك للازمات عند محاصرتهم وقد تكلم عنه الملك الأفصل العباس بن الملك المجاهد في كتابه المجموع في فنون شتى وهو مخطوط بخط يده وهو موجود لدينا كما شوهد في قصر أحمد الإمام الطاغية نوعاً من المخابي والأبواب السرية وذلك بتعز الذي هو اليوم متحف.

(٢) التوسيط هو ضرب الإنسان بالسيف في وسطه وفي هذا العمل من القباحة والقساوة ما فيها.

(٣) سيأتي له ذكر وترجمته في الخزرجي.

(٤) المبأة بالهمزة بعد الموحدة ذكرها المؤلف فيما بعد. وذكرها بامخرمة في كتابه النسبه وقال إنها اخربت لأنها كانت مأوى للصوص.

(٥) المكتب بضم الميم وفتح الكاف وتشديد التاء من فوق ثم باء موحدة الرسول الذي يحمل المكاتيب والرسائل وابن الأسد أحد كبار المماليك.

وسار على مهله إلى تعز ثم خرج الظاهر في جمادى من السنة المذكورة من عدن الى لحج وكان قد وصله الإمام وابن الأسد في مائتي فارس فسار الإمام وابن الاسد طريق صهيب وسار الظاهر طريق الجند ومعه من أهل إب نحو ستين فارساً وأغاروا على ناحية الظفر [1] فلم يحصلوا على طائل وكتب أهل الظفر إلى السلطان يخبرونه بما هم فيه فخرج السلطان مسرعاً إليهم وكان أهل جرانع [2] هم الذين أطمعوا الظاهر ومن معه في الظفر فما شعروا إلا بالسلطان وقد هجم عليهم فانهزموا هزيمة شنيعة ونهبت بلادهم نهباً عظيماً وقتل منهم ومن بني فيروز أصحاب إب جماعة وهرب الظاهر إلى حصن السمدان ثم رفع أهل جرانع أصواتهم بالتهليل وسألوا السلطان الذمة فأذم عليهم ثم أخذ السلطان حصن الشذف[3] ثم نزل السلطان في شعبان إلى زبيد فأوقع بالعوارين وكان قد ظهر من بعضهم سوء أدب في أمر السلطان فشنق منهم جماعة وقتل آخرين بالسيف وكان السلطان قد اقطع ابن أخيه الملك الفائز حرض فبلغه خروجه عن الطاعة فخرج إليه من زبيد، وانتزعه من حرض وعند خروجه من زبيد إلى حرض اجتمع العوارون الذين هربوا من السلطان فهجموا المدينة وكان شيخهم أحمد بن الأسد واجتمع أهل المدينة وأمسكوا جماعة من المفسدين وشنقوهم على باب الأمير وكان قد هرب خوفاً منهم ظاناً ان أهل المدينة متفقون على الخلاف فرجع الأمير وتولى أمرهم فشنق بعضهم وكحل آخرين.

وفي هذا التاريخ قدم ابن مؤمن من مصر وعيد مع السلطان عيد الأضحى بزبيد وفي سنة سبع وعشرين وسبعمائة طلع السلطان التعكر واخذت منصورة الدملوة بمساعدة من مرتبيها وجعل فيها عسكراً من جهة السلطان، وجرد السلطان عسكراً جيداً لفتح الجبل صحبة الأمير شجاع الدين الزعيم والقاضي محمد بن مؤمن فلم يتم فيه ما يريدون فنزلوا بأمر السلطان.

ثم تقدم السلطان إلى عدن ومعه الزعيم وكان مشكور التدبير يعمل كل يوم سماطين للعسكر ولم يزل السلطان يغزو عدن ويخرج أهلها يقاتلونهم والحرب بينهم سجال.

وفي سنة ثمان وعشرين وسبعمائة جهز الظاهر المماليك المخالفين معه صحبة ابن عبد المجيد إلى تهامة فحطوا خارج المدينة وكان بها ابن مؤمن وقد أرسله السلطان من محطة

---

(١) الظفر: حصن عامر شرقي الجند معروف.

(٢) حصن جرانع في بلد السكاسك حمر: ماوية شرقي الجند خراب وتحته قرية تسمى جرانع

(٣) حصن الشذف بفتح بالشين المعجمة وكسر الذال المعجمة آخره فاء وهو أيضاً خراب بالسكان.

عدن لقبض جبايات البلاد الشامية ويصل بها المحطة فخرج إليهم ابن مؤمن بمن معه من العسكر فهزمهم فرجع المماليك إلى السمدان.

وفي صفر من السنة المذكورة باع رتبة الدملوة الحصن بستة آلاف دينار فبادرت أم السلطان بتسليم المال وأرسلت بخلع وكسيٍ وكان بالحصن والدة الظاهر وأخته فأرسل لهم السلطان ابن أخت الزعيم وكان أميراً شهماً فنزلوا إليه من المنصورة، وسار بهم تحت الحفظ إلى السلطان إلى محطة عدن، وفي الشهر المذكور خرج بعض مرتبي عدن من يافع إلى الاحسية[1] فاجتمع وقرر معه كلاماً وأخذ جماعة من جند السلطان فطلع بهم من جهة التعكر[2] ليلاً وصاحوا باسم السلطان ففشل أهل عدن وفتحوا الباب ودخل الزعيم والملك المفضل ظهراً ودخل السلطان عشياً فبات بالتعكر فلما أصبح طلع إلى الخضرا ثم استدعى جماعة من الجند الظاهري وبالرهائن من الشوافي وبعدان وأمر بقتل جماعة من المماليك وجعل الوالي والناظر في سلسلة واحدة ثم شنقهما وأقام السلطان بعدن من صفر إلى جمادى الأولى ثم خرج إلى الدملوة ثم إلى الجند، وفي الشهر المذكور قصد المعازبة حافة الودي خارج باب القرتب من مدينة زبيد[3] فقتلوا ا الزعيم بن باشاك والأمير سيف الدين طغشر وهو أحد المماليك البحرية وكان شجاعاً فلما علم السلطان بذلك وسط ولد الحيش المعزبي بتعز وكان رهينة بها وفي شعبان من السنة المذكورة خالف الأمير عز الدين صالح في حصن تعز وكان نائب السلطان هنالك فأخرج الخدم من الحصن ونهب بيت الزعيم وبيت ابن مؤمن والمدرسة الرشيدية ثم كاتب السلطان واعتذر وسأله ذمة وأرسل ولده إلى السلطان فحصلت له ذمة على يد الفقهاء. ثم وصل الأمير عز الدين إلى الجند بعد أن نقل ما كان له إلى بيته فدخل على السلطان مع الفقهاء الذين وصلوا بالذمة فعاتبه السلطان وعاتبه الزعيم وابن مؤمن وأمر السلطان على الطواشي كافور أن يتقدم إلى تعز لقبض الحصن فتقدم ثم إن السلطان ركب يوماً في جماعة من عسكره واشعر علناً على من بقي بالركوب فخرج عز الدين صالح وولده في الناس ووقفا في طرف الميدان فبرز إليها الزعيم وطلبهما على أنه يشاورهما في أمر فلما وصلا إلى وسط الميدان فأشار إلى جماعة معه فخطبوهما بالسيوف فقتلوهما.

قال الجندي: ومن العجب ان خبر قتلها وصل إب وقت العشاء ليلة الخميس وكان

(١) الاحسية جمع حسي وهي الأرض الرخوة يبحث فيها قدر ذراع أو أقل أو أكثر فيخرج الماء وهي من اللغة الحية المستعملة والاحسية المذكورة معروفة في ضواحي عدن من الغرب الشمالي.

(٢) تعكر عدن سلف ذكره.

(٣) حافة الودن كما ذكر المؤلف معروفة إلا أنه ليس بها عمران.

قتلها بالجند عصر الأربعاء ووصل العلم بذلك اليوم حصن المجمعة[1] نصف الليل ومن الجند إلى إب يوم للراجل المجد وإلى المجمعة يوم ونصف وهذا لا يكون في طوق، البشر والغالب أن الجن تنقل الأخبار[2].

وفي سنة تسع وعشرين وتسعمائة قتل القاضي محمد ابن الفقيه أبي بكر اليحيوي قتله الغياث السبائي ظلماً وعدوانا فكتب ابن منير صاحب صبر إلى الغياث سأله أن يكف عن الفساد فلم يكترث بل كتب له أنه لو اجتمع عليه أهل الأرض لنال منهم ولم ينالوا منه فلما رأى ابن منير اعجابه نفسه أوقف أهل صبر على كتابه فأجمعوا على حربه فغزوه إلى بلاده وقتلوا من أهله وأصحابه جمعاً وأخربوا بلاده فكتب إلى السلطان يستنجده على العرب وبذل الطاعة وتسليم الرهاين فقال للسلطان أكابر دولته لا تقبل منه حتى يسلم الحصون التي أعطاها إياه الملك الظاهر وهي يمين ومنيف ولما رأى الغياث أن العرب قد رموه عن قوس واحد تقرب إلى السلطان باطلاق الأمير بدر الدين الحلبي وأولاده وكانوا معه في حصن يمين قد خلصهم من يد الظاهر وفي أثناء ذلك صودر ابن مؤمن بمال جزيل.

وفي سنة ثلاثين وسبعمائة أخذ السلطان حصن منيف من الغياث على يد الزعيم بعد أن حاصره حصاراً شديداً وهرب الغياث إلى ناحية ذخر[3] وفي نصف المحرم اصطلح السلطان والظاهر وأخذ ذخر قهراً وخرب بلاد الغياث السبائي ثم اصطلح الغياث السبائي هو والسلطان على يد الأمير شجاع الدين الزعيم وتوثق له بالأيمان المغلظة فوصل إلى الباب السلطاني وسلم بلاده بأسرها.

فلما استقر السلطان بتعز وجد أهل صبر على أخبث حال من الخلاف والتهاون بالعسكر فوجه إلى كل ناحية من صبر مقدماً في عسكر فطلعوا الجبل وفتحوا عليهم الحرب من نواحي شتى فلم يكن وقت الضحى حتى ملك غالب الجبل وهرب معظم أهله فطلع السلطان الجبل وتسلمه وقتل من أهل صبر نحو أربعمائة وقطعت رؤوسهم وطيف بها في البلدان وهرب ابن منير إلى جبل حمير[4] ثم أذم السلطان على ضعفاء أهل صبر ومن لا يحمل

---

(١) المجمعة سلف ذكرها.

(٢) ليس هناك عجب في شيء فلربما انه كان إنسان من إب موجوداً عند وقوع الحادث وسافر من حينه وواصل السفر إلى إب وأخبر بالحادث الواقع في الجند وهناك من يسمع الخبر من أهل المجمعة فنقله إلى بلده بتلك الصفة والسرعة وعادة يقع مثل هذا كما وقع في زماننا مما حكيناه غير هنا.

(٣) ذخر: جبل حبشي وسلف ذكره.

(٤) جبل حمير في مخلاف شرعب شمال تعز.

السلاح منهم ثم تقدم السلطان إلى بلد المعافر في شوال فحط على مطران[1] الزعيم والغياث السبائي وحط السلطان في المنصورة وكان يزحف كل يوم من منصورة الدملوة إلى مطران وكان ابن مؤمن صاحب الباب يومئذ وكان بينه وبين الزعيم منافسة وعداوة شديدة فأوقع ابن مؤمن في قلب السلطان على الزعيم ما أوحشه وقرر له أن الزعيم والغياث قد اتفقا على الميل إلى الظاهر ولهذا استذم الزعيم بالغياث منكم وتوثق له بالأيمان وأنهما في محطة واحدة يسوسان الأمر واستشهد ابن مؤمن على ذلك بالأمير شرف الدين موسى ابن حناجر فأقام السلطان في المحطة إلى آخر السنة المذكورة.

وفي سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة عمل الزعيم سماطاً للعسكر كعادته وزحف السلطان على أهل مطران فاجتمع به الزعيم وسأله حضور السماط وأن يبيت معهم تلك الليل فأجابه إلى ذلك فرجع الزعيم وسعى في زيادة السماط فاجتمع ابن مؤمن وابن حناجر بالسلطان وعرفاه أن مراده ليس إلا القبض عليه والقيام بدولة الظاهر فصدقهما السلطان ورجع إلى منصورة الدملوة واستدعى الزعيم وأمر بقتله فقتل ولزم جماعة من أصحابه ولم يسلم منهم إلا القاضي جمال الدين محمد بن حسان وكان كاتب الزعيم وعليه مدار أمره وكان عاقلاً وقوراً له مروة موادعاً لأعيان الدولة.

وأما الغياث السبائي فذكره ابن مؤمن للسلطان ولما صار بتعز وقال إنه ركن من أركان الفساد فقال إنه قد توثق مني بالأيمان فأكثر ابن مؤمن مراجعة السلطان فيه فأشار السلطان إلى ابن مؤمن أن يأمر القاضي عبد الرحمن اليحيوي بإحضار الغياث فيدعي قتل أخيه محمد وكان الغياث قد قتل محمداً وكتب إلى السلطان بأنه قتله لموالاته للظاهر فجعل السلطان محضراً عاماً وادعى فيه القاضي عبد الرحمن على الغياث قتل أخيه فاعترف بصفة الحال فأخرج بعد قتل الزعيم بمدة يسيرة.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة قبض السلطان سائر الحصون بالخلافة واتسعت المملكة واذعنت القبائل ودخل المخالفون في الطاعة وأقام الظاهر في السمدان كالمحصور، وأصحابه يتسللون عنه فضاق به الأمر فطلب ذمة من السلطان شاملة له ولمن معه فأجابه السلطان إلى ذلك وأمر ابن مؤمن وابن حناجر بالتقدم إليه والوصول به صحبتهما ففعلا ووصل معهما أول سنة أربع وثلاثين فأودعه دار الإمارة حتى انتقل إلى رحمة الله في ربيع من السنة المذكورة.

وفي سنة خمس وثلاثين وسبعمائة قتل ابن عبد المؤمن وكان حسوداً لذوي الأقدار ولا

---

(١) مطران سلف ذكره وهو في عزلة قدس من المعافر.

يزال يغري السلطان بذي المكانة عنده من غلمانه حتى يهلكه وكان حسده سبب هلاكه وذلك أن القاضي موفق الدين عبد الله بن محمد اليحيوي المعروف والده بالصاحب وكان أوحد زمانه صباحة وفصاحة ورياسة وسياسة قل أن يأتي الزمان بمثله فكان ابن مؤمن يحسده لكماله ويغري به السلطان فصودر مراراً على يده وجرت عليه أمور مؤدية إلى الهلاك ثم ان القاضي موفق الدين المذكور تحرر على خط ابن مؤمن حتى حاكاه ثم كتب إلى أهل بعدان والشوافي وغيرهم يقدح في السلطان ويطلب منهم أن يمكنوه من الحصون ويعدهم بما يحبون وأسقط الأوراق في الطرق فالتقطها بعض السيارة فأخذت وحملت إلى السلطان فلم يشك أنه خط ابن مؤمن فوقع في نفسه شيء عظيم ثم واطىء[1] القاضي موفق الدين جماعة من خواص السلطان فأكثروا ذكر ابن مؤمن وأفعاله القبيحة واسود ما بينه وبين السلطان، وتحقق خيانته وعزم على الفتك به فطلبه إلى ثعبات فلما دخل قبض ورسم عليه ترسيماً عنيفاً وأمر من هجم بيته وقبض جميع ما فيه ثم أمر بقتله بعد أيام قليلة.

وفي شعبان من هذه السنة نزلت بوادي موربردة من السماء طولها مائة وستون ذراعاً وعرضها عشرة أذرع وسمكها نحو من سبعة أذرع فلما ذابت سقي ماؤها أربع قطع من الأرض في ذلك الموضع.

وفي سنة ثمان وثلاثين خرج حاج اليمن فاعترضهم الشريف صاحب جازان وطلب منهم مالاً يعتادونه من المكس وأغرب في مطلوبه وبطل حج أهل اليمن تلك السنة فسار إليه السلطان في عساكر فهرب فاخرب السلطان بلده وقطع مواده وفي هذه السنة طلع السلطان إلى ذي جبلة وجهز إلى ذمار خيلاً ورجلاً كثيرة فأخذوا ذمار قهراً بالسيف ثم حطوا على هران فأخذوه قهراً.

وفي سنة تسع وثلاثين أمر السلطان بعمارة درب زبيد وسائر أبوابها وخنادقها وفي السنة التي بعدها أمر السلطان بعمارة المدرسة المجاهدية بمكة ووقف عليها من أملاكه ما يقوم بالمرتبين بها.

وفي سنة إحدى واربعين أفسد المعازبة التهائم فساداً كبيراً فنزل السلطان من تعز إلى حيس ثم سرى من حيس إلى بلد المعازبة فحط عليهم وقطع نخلهم المسمى بالمدني وقتل طائفة وأسـر طائفة فغرقهم في البحر وأخرب بلادهم خراباً عظيماً وفي آخر الأمر شيخ عليهم امرأة تسمى بنت العاطف فكانت تركب حماراً أو جملاً وتقود المعازبة بأسرهم بعد ذلك العتو العظيم.

---

(١) كان في الأصل واطىء وفي العقود : واطـأ وكلاهما صحيح إلا أن واطىء اليق وعليه صححنا.

وفي سنة اثنتين وأربعين سافر الملك المجاهد إلى بيت الله الحرام فحج ثم رجع في صفر من السنة التي تليها وكسا بمكة أمير الركب المصري وأمير الركب الشامي وكانت عساكر الشام ومصر تسير بين يديه في افاضتهم إلى مزدلفة ومنى ثم رجع إلى اليمن مشمولاً بالسلامة يتصدق في طريقه وينعم على عسكره حتى دخل زبيد فأقام أياماً ثم دخل تعز.

وفي سنة ثلاث وأربعين وقع مطر عظيم فدفع الوادي بزبيد دفعة عظيمة وصلت إلى قرية المسلب [1] بعد المغرب فاحتملت معظم القرية وهلك من سكانها مائة وخمسون إنساناً ومن الدواب شيء كثير وانتقل من بقي من سكانها إلى مكانها اليوم وهو قبلي القرية القديمة وغربيها.

وفي سنة أربع وأربعين خالف الملك المؤيد على أبيه المجاهد وكانت الجثة [2] اقطاعه واستولى على المهجم فجرد له والده العساكر صحبة القاضي موفق الدين ثم جرد له سيف الدين الخراساني فما زالوا يلاطفونه حتى دخل في الطاعة وضمنوا له رضى والده فوصل إلى أبيه في سنة خمس وأربعين فلما دخل إليه ضربه وحبسه ومات بعد أيام وكان سبب خلافه أن أباه قدم أخاه المظفر عليه وكان المؤيد أكبر أولاد أبيه فلما قدم المظفر عليه كان المؤيد يسير في خدمته فأنف من ذلك فخالف.

وفي سنة سبع وأربعين نزل السلطان الوادي زبيد فأقام به أياماً ثم سار إلى البحر فكانت قصة الفائز أبي بكر بن حسن بن داود وذلك أن الغز لما تأخرت نفقاتهم اتفقوا على لزم السلطان في البحر لكونه في غير حرز وأن يقيموا الفائز فتقدم أحدهم فأعلم السلطان فركب من البحر وسار في غير الجادة فلما دخل النخل قبض على الفائز وقيده وأرسل به إلى تعز فلم تطل مدته بل انتقل سريعاً [3].

وفي سنة ثمان وأربعين خالف أهل الشوافي فسار السلطان إليهم بجنود لا قبل لهم بها فظفر بهم وقتل جماعة وغرق آخرين وكحل آخرين وأذلهم إذلالاً شديداً وفي سنة إحدى وخمسين توجه السلطان إلى مكة المشرفة آخر شوال وترك الأمير يوسف بن القاهر والياً في

---

(١) المسلب بضم الميم وفتح السين وتشديد اللام مفتوحة أخره باء موحدة قرية عامرة في غرب زبيد.

(٢) الجثة بضم الجيم ثم ثاء مثلثة آخره هاء قرية في وادي مور.

(٣) يبدو أن الملك المجاهد كان يقتل أولاد عمه وكذا ولده بطريقة السم كما فعل بالملك الظاهر ابن الملك المنصور وابن عمه الناصر محمد ابن الأشرف وهذه الطريقة طالما يستعملها الطغاة كما عمل أحد الإمام بأخيه ابراهيم وغيره كما حكينا ذلك في التاريخ ولكن مورخي ذلك العصر يتحاشون ذكر مثل هذا وهكذا في كل زمان ومكان وعند الله تلتقي الخصوم.

حصن تعز الطواشي أمين الدين أهيف معه في الحصن شداده وترك القاضي موفق الدين عبد الله بن علي اليجيوي بتعز وكان وزيراً وقاضي قضاة اليمن وترك الطواشي بارعاً في حصن ارياب[1] وترك بحصن تعز من أولاده المظفر وترك به أيضاً من أولاده الصغار الأفضل والظافر والناصر والمسعود وتقدم معه إلى مكة العادل وجدته جهة صلاح وكان بقية بن رميثة أخو الشريف عجلان بن رميثة صحب السلطان في الطريق لأنه كان طرده أخوه عجلان من مكة وكان بقية محباً للسلطان وكان عجلان محباً لأهل مصر.

فلما وصل السلطان مكة خشي عجلان أن المجاهد يقبضه ويولي أخاه فدخل على أمير الركب المصري فقال له إن صاحب اليمن يريد أن يقف بمكة بعد تقدمكم وينزع كسوتكم للبيت ويكسوه كسوة جاء بها من اليمن ويغير رسومكم ويولي والياً بمكة من جهته فاقبضوه فإن لم تفعلوا تقدمت معكم إلى السلطان وتركت مكة له فاتفقوا على قبضه إذا نزل من الجبل ولا علم للسلطان ولا لأحد من أهل اليمن بشيء من ذلك فلما كان اليوم الثاني عشر بمنى وعسكر المجاهد يتأهبون للسفر ركب المصريون بأجمعهم ونهبوا المحطة وأحاطوا بمخيم السلطان فقاتل بعض أصحابه فقتل منهم جماعة فلما رأى الدفع غير ممكن استسلم للقضاء على أنهم لا يتعرضون لأحد غيره ففعل وفعلوا فاركبوه بغلة وترجلوا له وساروا به مبجلاً معظماً فتقدم معهم إلى مصر ورجعت والدته ببقية العسكر.

قال أبو الحسن الخزرجي رحمه الله سمعت بوقوع هذه الحادثة بمنى يوم وقوعه أو بعده بيوم أو يومين في مدينة زبيد على زيادة أو نقصان ولا أشك أنّ الذي وصل به شيطان فتحدث الناس يومين أو ثلاثة ثم سكن الكلام على غير تحقيق[2].

وفي سنة اثنتين وخمسين وصل القاضي موفق الدين بن عبد الله بن علي اليحيوي الوزير

---

(١) إرياب بكسر الهمزة آخره باء موحدة عزلة من يحصب العلو: بلاد يريم المطلة من الشرق على بطن السحول وجبل حبيش والشوافي وكان به حصن منيع مقر القيل الكبير ذي فائش الذي كان يمتدحه اعشى قيس بغرر القصائد والتي منها قصيدة فيها

بإرياب بيت له للضيوف أصيل العماد رفيع الفرش

راجع الاكليل ٢ - ١٩٥.

(٢) مثل هذه الحادثة التي يتحدث عنها وأنها من العجب في محله وأن الشياطين نقلته ويشبه هذا الحادث ما وقع في عصرنا من الاعتداء على الملك عبد العزيز آل سعود في الحرم في يوم عرفه فإنه بلغنا ونحن في مدينة إب في خامس عشر أو سابع عشر ذي الحجة سنة ١٣٥٢هـ بأخبار مضطربة ثم سكن الكلام وان كان في ذلك التاريخ قد وجد البرق التلغراف إلا أنه بعد البحث لم يكن عن طريقته وفي الامثال عندنا «علم الشر تشله الجن».

من المخلاف[1] وطلع إلى أهيف وهو بحصن تعز فلما علم الطواشي بارع بأمر السلطان وعلم بنزول الوزير من جبلة نزل من إرياب ووقع في نفسه أن السلطان لا يرجع إلى اليمن وقدر في نفسه قيام أحد أولاد السلطان فيكون هو القائم في الباب ويكون له يد من استقام فلما صار في الجند هو وكافة عسكره كتب له أهيف عن سبب نزوله وتركه عهدته مع أن السلطان في عافية وقد وصلت البشائر بقدومه فلم يجدر عذراً فأجاب بأني نزلت بأمر من الوزير كتب إلي أن أصل فان تأمرني بالوصول وصلت وأن تأمرني بالرجوع رجعت ولم يكن للوزير علم بسبب نزوله فرسم أهيف على الوزير ومنعه نزول بيته فلما علم بارع سرى ليلا من الجند فأصبح بالمجاهدية متجوراً[2].

ثم ان أهيف جمع بين بارع والوزير فقال الوزير يا بارع إن كنت كتبت إليك كما تقول فأرني خطي فقال: أين أجد خطك وقد أخذ جميع ما معي فقيدهما ثم بعد أيام شنقهما وكان أهيف شديد العقوبة طائش السيف لا يعرف العفو عن أحد فقتلهما عن ظن وتوهم مع أن بارعاً هو أستاذه القديم الذي رباه.

ولما وصلت جهة صلاح اليمن ضبطته ضبطاً جيداً فأقام السلطان عند صاحب مصر نحواً من عشرة أشهر ثم رجع في البحر يريد اليمن[3] فدخل زبيد آخر ذي الحجة من سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة.

وفي سنة ثلاث وخمسين طلع السلطان تعز وشفعت إليه والدته بإطلاق المسجونين من الملوك فأطلقهم جميعاً وهم ابن عمه محمد بن المنصور بن المظفر بن عمر وأحمد بن الناصر ابن الأشرف وعمر بن حسن بن داود بن يوسف المظفر فلما أطلقهم أسكنهم قرية السلامة، وفي هذه السنة أرسل السلطان بهدية جليلة إلى الديار المصرية وسار فيها ولده الناصر وصحبته القاضي فتح الدين عمر بن الخطباء والطواشي نظام الدين خضير.

---

(١) هو مخلاف الشوافي بما فيه ناحية جبله.

(٢) المجاهدية: مدرسة نسبت إلى المجاهد المذكور ومتجوراً أي مستجيراً وهي لغة دارجة إلى هذا العهد.

(٣) في تاريخ الوصابي إن الملك المجاهد لما أفرج عنه كان يصحبه في سفره إلى اليمن بعض المصريين الأكابر فدخل بعض الأمراء المصريين على الملك المجاهد وسأله ولاية في اليمن فوعده أن يوليه المملاح فخرج من عند المجاهد مسروراً وسئل بعض مرافقي المجاهد من أهل اليمن عن المملاح فأجابه انه سوق بتعز يباع فيه الملح وغيره فأغضب ذلك الأمير وطير خبراً إلى ملك مصر أن المجاهد ينوي بعمل ضد الحكومة المصرية فأمروا باعادته وأعيد بالفعل ومكث في هذه المرة ثلاثة أشهر وكانت هذه الحادثة في ميناء ينبع.

وفي سنة أربع وخمسين انفصل المظفر عن اقطاعه فشال واستمر الأمير شجاع الدين عمر ابن العماد وكانت ولايته سبباً لخراب التهائم فإنه تولى الجهة المذكورة من تحت يد القاضي شهاب الدين بن قبيب فأوصاه ابن قبيب بمتابعة الأشاعر لكونهم يميلون إلى القاضي جمال الدين بن حسان وكان أهل باب السلطان حزبين حزب مع ابن حسان وحزب مع ابن قبيب وآل الأمر إلى أن شيخ الأشاعر قتل الأمير عمر بن العماد فلما قتل ورد أمر السلطان على القاضي عثمان بن طلحة أن يغير على الأشاعر بالعسكر وبالقرشيين [1] ، فخرج العسكر المنصور من فشال فقاتلهم الأشاعر ساعة قبل وصول القرشيين فانهزم العسكر السلطاني فأقبل القرشيون بعد الهزيمة وحملوا على الأشاعر فقتل من الفريقين طائفة ثم افترقوا فقال شيخ الأشاعر أحمد بن عمر الأشعري لأهل قريته يا هؤلاء ما لنا بقتال السلطان طاقة فارتفعوا عن البلاد فافترقوا في وادي زبيد والحواز [2] وكان خروجهم من المخيريف [3] سبباً لخراب التهائم كلها لأن المعازبة والقرشيين اتفقوا عند خروج الأشاعر على الفساد فما برحوا يغيرون على الواديين زبيد ورمع حتى أخربوهما.

وفي سنة ست وخمسين وسبعمائة قويت شوكة العرب المفسدين في التهائم فقصدوا قرية المخيريف فخرج أهلها لقتالهم فكثرهم العدد فقتل شيخهم أحمد بن عمر الأشعري وجماعة من أهل القرية فلما انقضت الحرب انتقل عنها أهلها ولم يبق بها أحد.

وفي سنة ستين وسبعمائة نزل السلطان في عسكر جيد يريد الخروج للعرب وأرسل للأمير نور الدين محمد بن ميكائيل ليصل بعسكر من حرض فدافع السلطان عن الوصول وكان قد حسن له أصحابه عند فساد العرب وخراب التهائم وانقطاعه عن صلة السلطان أن يستولي على الجهات الشامية سهام وسردد ومور ويترك ذوال ورمع خرابا فإذا انبسطت يده على البلاد رجع إلى زبيد وما يليها فوقع في نفسه ذلك فاستخدم العرب وبث الأموال لإفساد التهائم وكان مقدم عسكره أحمد بن سمير فأوقع بالعرب مرة بعد أخرى.

وكان قيامه ودعواه الملك في سنة ثلاث وستين وسبعمائة فضرب السكة باسمه وخطب له

---

(١) القرشيون بفتح القاف والراء ثم شين مهملة مكسورة ثم ياء النسبة ياء ثم واو ونون علامة الجمع: قبيلة معروفة لها بقية إلى هذه الغاية.

(٢) الحواز هي حازة الجبال لانقطاعها عن تهامة.

(٣) المخيريف بفتح الميم وسكون الخاء المعجمة ثم راء مكسورة وياء مثناة من تحت وفاء أخر الحروف وكان في بعض الأصول بالقاف والتصحيح من البحث الذي طابق بعض الأصول: وهي قرية عامرة من وادي رمع.

في حرض والمحالب والمهجم وما يليها فاستولى على الجهات الشامية وترك ذوال سداً بينه وبين السلطان يستتر بهم عنه.

وانتقل السلطان إلى رحمة الله في سنة أربع وستين وسبعمائة وتولى ولده الأفضل وظن ابن ميكائيل أن موته سبب سعادته واستيلاءه على الملك فقدم أحمد بن سمير في جيش كثيف إلى زبيد والأبواب مغلقة فطلب جماعة من أصحابه الذمة والدخول فأذم عليهم أميرها ناصح الدين أبو بكر بن علي بن مبارك وكساهم وكانوا ثمانين فارساً وطلب باقيهم من ابن سمير مثل ما حصل لأصحابهم من ناصح الدين فارتفع عن البلاد ورجع إذ لا مال معه فجرد الأفضل أول سنة خمس وستين عساكره يقدمها زياد بن أحمد الكاملي فقصد ابن سمير إلى القحمة فهزمه ونهبت القحمة وكان ابن ميكائيل في التهائم فارتفع إلى حرض ثم إلى صعدة وطلب من الإمام علي بن محمد الهادي [١] نصره فلم يفعل ووهب له حصناً يسمى المفتاح [٢] فأقام فيه إلى أن انتقل إلى رحمة الله.

وفي سنة اثنتين وستين وقع الخلاف بين المعازبة والقرشيين وكانوا بنخل الوادي من زبيد فقتل من المعازبة رجلان قتلهم القرشيون وكان هو أول خلاف حصل بينهم فلما انقضي النخل أغارت المعازبة على القرشيين فقتلوا داود بن رزام ورجلين آخرين، فطلب القرشيون الذمة من السلطان فأذم عليهم وأمر مقاصيرهم [٣] فأغاروا على المعازبة فقتلوا منهم تسعة ثم أغارت المعازبة على القرشيين بالقرشية فقتلوا أربعين رجلاً منهم عيسى بن الهبل وقتل من المعازبة رجل واحد يسمى مفرح ثم قصدوا القرشية [٤] مرة أخرى فهزمت المعازبة وقتل منهم نحو ثلمثائة رجل.

وفي سنة ثلاث وستين خالف المظفر على أبيه المجاهد وأفسد المماليك الغرباء وهجم الاصطبل وأخذ من الدواب ما أراد ونزل نحو عدن واستخدم العقارب [٥] ولم يتفق له دخول عدن فرجع إلى لحج فلما علم السلطان نزل إلى عدن وجرد لولده السلطان المظفر العساكر فلم يظفر به وكان فتاكاً لا يعاقب إلا بالسيف لا رحمة فيه ولا شفقة ولما استقر السلطان بعدن انتقل إلى رحمة الله تعالى في جمادى الأولى سنة أربع وستين وسبعمائة فاجتمع

---

(١) هو الملقب المهدي المتوفى سنة ٧٧٣هـ.

(٢) المفتاح حصن في غربي صعوة ثم في خولان قضاعة لا يزال مشهوراً.

(٣) مقاصيرهم جمع قصرة وهي محلة مسورة بالأشجار المشوكه ذات الاعوجاج والمشتبكة وغيرها ليس لها إلا منفذ خاص يعرفها أرباب تلك المحلات ولا زالت معروفة إلى التاريخ.

(٤) القرشية هي بلدة ومسكن قبيلة القرشيين لا زالت حية عامرة.

(٥) العقارب قبيلة معروفة ال هذا العهد ومساكنها ما بين لحج وعدن.

الحاضرون من كبراء الدولة على قيام ولده الأفضل فبايعوه يوم وفاة أبيه وأنفق على العسكر نفقة جيدة، وخرج بوالده إلى تعز فقبره بمدرسته المجاهدية.

وكان الملك المجاهد ملكاً سعيداً ذكياً فطناً جواداً شاعراً فصيحاً قال أبو الحسن الخزرجي أخبرني الفقيه محمد الريمي وكان خصيصاً بالمجاهد قال أعطاني المجاهد أول يوم دخلت عليه أربعة شخوص من الذهب [1] وزن كل واحد منها مائتا مثقال مكتوب على كل واحد منها شعراً:

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها   على الناس طراً قبل أن تتفلت
فلا الجود يفنيها إذ هي أقبلت   ولا الشح يبقيها إذا ما تولت

وكان مشاركاً في عدة من الفنون يقال انه أعلم بني رسول [2] ومن شعره المخمس:

نلت أنا العز بأطراف القنا
ليس بالعجز المعالي تجتنى
نحن بالسيف ملكنا اليمنا
كل فخر يدعى الناس لنا   أعرق العالم في الملك أنا
أنا شبل الملك زين الكتب
يوسف جدي وداوود أبي
والشهيد القرم زاكي الحسب
وعليّ القيل عالى المنصب   جدنا بعد رسول جدنا
ان تكن أضحت علاهم خبراً
فالعلا مني بالعين ترى
أنا كالليث إذا مازأرا
أنا كالبحر إذا ما زخرا   المنايا في يميني والمنا
ابذل المال ولا أجمعه
كل عافٍ نحونا منجعه
وإذا القرن طغى اصرعه

---

(١) الشخوص بالضم جمع مشخص على غير قياس وهي عملة كبيرة الحجم تجعل للزينة ولا زالت عندنا مستعملة ولم أجدها في القاموس ويقال لجمعها مشاخيص وشخوص.

(٢) في تاريخ الفاسي كلمة مناقشة في تفضيل ملوك بني رسول ومن أعلمهم فارجع إليه وإلى تاريخنا.

وإذا ولى فلا أتبعه وإذا لاذ بعفوي أمنا
شيم تشبه تلك الشيما
يمن لي من جدودي القدما
ثم ملك الشام من ماء السماء
يعشرون الناس طراً رغماً من هنا أو من هنا أو من هنا

وهو الذي مدن ثعبات وبنى سورها واخترع فيها المخترعات الفائقة وبنى فيها المساكن العجيبة والقصور الغريبة.

ومن مآثره الدينية مدرسة بمكة ومدرسة بتعز جعلها جامعاً بناحية الحبيل [1] وجامع بثعبات وجامع بقرية النويدرة [2] ومسجد ببستان الراحة من زبيد ووقف على ذلك ما يقوم بكفايته وله الزيادة الغربية في الجامع المظفري بعدينة ومدرسة بدار الوعد بتعز [3].

وكان محباً للعلماء مشفقاً عليهم عادلاً برعيته أجرى لرعيته بآخر دولته إزالة الربع في جميع ما زرعوه وكانت الرعية في أيامه على أحسن حال وكانت خلافته أربعاً وأربعين سنة إلا شهراً وله ديوان شعر حسن ومن مداحه الفقيه أحمد بن فليته [4] ومدح أباه المؤيد ومن شعرائه ومداحه محمد بن إبراهيم بن زنقل رحمة الله عليهم أجمعين، والله أعلم.

الفصل الحادي عشر

في ذكر دولة الملك الأفضل العباس بن المجاهد بن المؤيد الغساني الملقب ضرغام الدين

كان ملكاً سعيداً عاقلاً رشيداً لم يكن في أولاد المجاهد أرشد منه ولا أكمل فأجمعت الكبراء على قيامه بعد أبيه فانتظمت بيعته بعدن وسار بوالده إلى تعز فقبره بمدرسة المجاهدية واستقر هو بقصر ثعبات وقد ذكرنا قصة ابن ميكائيل مع الأفضل في آخر ترجمة

---

(١) هي الحبيل بالحاء المهملة الجبوب الذي يتدرج من أعلى إلى أسفل شيئاً فشيئاً وهي لغة يمنية فصحى ذكرها الهمداني في كتبه ولا زالت مستعملة وهذا الحبيل هو الذي فيه المستشفى اليوم ومحطة الكهرباء.

(٢) النويدرة بالتصغير قرية مندرسة تقع في شمال شرقي مدينة زبيد وتعرف اليوم بالمراحل وهذه النويدرة هي التي كان فيها بستان الراحة ولا زالت ساحات هذا البستان موجودة وهي ما بين مدرسة فاتنة بنت الملك المؤيد إلى مسجد الهنود.

(٣) تعز كانت تقوم في الحبيل المذكور إلى وادي المدام.

(٤) لا أعرف عنه شيئاً.

المجاهد وما جرى له مع ابن زياد حين أرسله السلطان لحربه وآل أمر ابن ميكائيل إلى أنه هرب إلى صعدة وفي ذلك يقول الشريف مطهر بن محمد بن مطهر [1]:

لجهلك لم تخش الذي بأسه يخشى — ولم ترهب الأفعى ولا الحية الرقشا
وأرداك من مناك بالملك مثل ما — تردى ضحى عن ظهر ناقته الأعشى
ولجت طموم البحر وهو غطمطم — ومن ولج التيار لاقى به القرشا [2]
وفاجأك العباس منه بصولة — فغشاك منه يا محمد ما تخشى
أغرك إرخاء المجاهد ستره — عليك وما لاقاك منه الذي غشّى
عفا عنك صفحاً في الظلام إذا انجلى — بفضل وإحسان وبالليل إذ يغشى
وليت فلم تؤمن بريئاً ولم تخف — غويا ولم تنه الفحوش عن الفحشا
فلما استوى العباس في الملك وانجلت — دياجير للنظار في جنحها أعشا
دعانا فلبينا نداه بعصبة — ترش الثرى من ضربها بالدما رشا
بهاليل من أبناء فاطمة التي — قضى فضلها في الخلق من خلق العرشا
أتوك ببيض ضربها يقطع الكلى — ويختطف الأشلا ويخترق الأحشا
فلما استقرت في فشال فشلتم — كما فشلت للأسد في رعيهن الشا
ثماني ليال ظللت جندك القنا — كما جعلت بيض المواضي لها فرشا
ألم تر أن الملك يوليه من يشا — إله السماء الجبار مبتدع الانشا
تأنّ وقف حيث أوقفك القضا — فمن لم يقف في بابه سكن الحشا [3]

وفي سنة خمس وستين وسبعمائة ازداد فساد القرشيين وكان الملك الأفضل قد ندب الأمير على بن الحسام وجماعة من بني حمزة فأقاموا بالنخل على ما جرت المعالجة أيام النخل فاجتمع القرشيون وهجموا النخل ونهبوا طائفة فخرج العسكر لقتالهم وكانوا قد دخلوا مكامن عديدة فقتل من العسكر جملة من الفرسان ركان الأمير بهاء الدين بهادر السنبلي

---

(١) شاعر مفلق واديب ماهر ترجم له ابن أبي الرجال في مطلع البدور ومجمع البحور.

(٢) الاعشى هو ميمون بن قيس الشاعر المشهور جاهلي وغلب عليه لقب الأعشى لأنه كان في بصره ضعف وأدرك الإسلام وذهب إلى مكة فثنته قريش عن ذلك واعطته مالاً وخمراً فعاد إلى وطنه « منفوحة » من اليمامة قرب الرياض اليوم أو قد دخلت في الرياض ولما وصل إلى أثناء الطريق سقط عن ظهر ناقته فمات والغطمطم من أسماء البحر والتيار اضطراب مياه البحر والقرش حيوان في البحر وبه سميت قريش القبيلة المعروفة.

(٣) الحشا: بالفتح، المرحاض: المستراح.

بالنويدرة فلما بلغه العلم ركب إلى النخل فاجتمع بمن فيه ولم يزالوا واقفين فيه إلى أن انقضت مدة النخل ثم جرد السلطان العساكر إلى زبيد لغزو القرشيين فيها الأمراء والخدم وساروا لقصدهم فقتلوا من وجوه القرشيين وفرسانهم نحو مائة من أجوادهم ومن جملتهم عبد الله بن علي بن محمد بن عمر بن غراب ونهبت قريتهم وحرق بعضها ثم إن القرشيين طلبوا الذمة وسلموا نصف الخيل ورهنوا أولادهم فأجابهم السلطان إلى ذلك فرجعوا قريتهم فسكنوها.

وفي سنة ست وستين أوقع فخر الدين بن زياد بالمعازبة فقتل منهم جمعاً كبيراً وفيها نزل السلطان إلى زبيد ثم سار إلى النخل ثم إلى الجهات الشامية لقبض خيول العرب فقبضها بأسرها في مدة يسيرة ثم عاد إلى زبيد.

وفي سنة ثمان وستين وصل القاضي جمال الدين الفارقي [١] من مصر بهدايا من صاحبها ومماليك ووصل رسول صاحب كنباية [٢] ورسول صاحب الهند بالتحف والهدايا إلى الأبواب السلطانية ووصلوا بغراسات الفل الأحمر والأصفر والأزرق.

وفي سنة سبعين وسبعمائة قبض السلطان حصن القاهر وقبض من مشائخ العنسيين ومشائخ الجعاشن [٣] نحو ثمانية وعشرين شيخاً وقتلهم جميعاً ووصلت هدية الملك، صاحب كاليقوط [٤] ووصل شيء كثير من غرائب الأشجار والأطيار وغيرها ومن ذلك فل أبيض وفل أصفر وورد وغير ذلك وفيها تصدق السلطان على الرعايا في سائر الجهات اليمنية بأن يمسح عليهم بالذراع المظفري فسماه الناس الأفضلي [٥] لكونه الذي أجراه لهم صدقة عامة لا يختص به أحد دون أحد وهي من إحدى فضائله المشهورات الحسان.

وفي سنة إحدى وسبعين خرج الأشراف بحرض على الأمير بهاء الدين الظفاري ورفعوا أيديهم عن طاعته ووصلهم السيد إبراهيم بن يحيى الهدوي [٦] والأمير محمد بن ميكائيل في

---

(١) الفارقي: لم أعثر على ترجمته فيما بين يدي من المصادر.

(٢) لا أعرف كنباية ولا ضبطها ولعلها من سواحل أفريقية كممباسة ودار السلام.

(٣) القاهر هذا أعلى جبل الثومان من أعمال مدينة ذي السفال وفي غربيها، والعنسيين عزلة من أعمال ذي السفال في الشمال الغربي وكانت تسكنها بعض قبائل عنس والجعاشن مقاطعة من أعمال ذي السفال أيضاً ويكثر في هذه المواطن شجرة القات وقبائلها كرام ذو مروءة وعاطفة مشبوبة وكل هذه المواطن من الإقليم الأخضر ومخلاف ذي الكلاع والسحول ومخلاف جعفر.

(٤) لا نعرف هذه المملكة.

(٥) يبدو أن الأرض الزراعية مسحت في أيام الملك المظفر بذراع سمي به وكان خفيفاً.

(٦) راجع ابن أبي الرجال.

عسكر كثيف وجماعة من بني حمزة فحصروا الأمير في حرض أياماً وكان يقاتلهم بكرة وعشية ثم سلمه أصحابه فاستأمن وخرج متوجهاً إلى اليمن وكان بالمهجم جماعة من أمراء السلطان فتوجهت إليهم الاشراف من حرض فانتقلوا إلى الكدرا فجاءته الأشراف إليها فانتقلوا إلى القحمة فقصدهم الأشراف إليها فافترقت كلمة المقدمين فلم يتفقوا على العسكر فتخاذلوا فهزمهم الأشراف وقتلت أعيانهم وأسر الأمير فخر الدين ابن زياد أحمد الكاملي فلما دخل العسكر المنهزمون زبيد اجتمع أرباب الفساد وتحالف العوارون على قتل الأمير شمس الدين علي بن إسماعيل بن إياس وهو أحد المنهزمين من الأشراف فلما أصبح ابن إياس ركب إلى دار السلطان وركب بركوبه أمير البلد فخر الدين أبو بكر بن سعيد ومشد الدين عبد اللطيف بن سالم وناظر البلد وهو الأمير بدر الدين محمد بن إبراهيم الجلاد واتفقوا على أن يعدوا العسكر واجتمع العوارون ومن انضم إليهم من أهل الفساد وتقدم بعضهم إلى ابن إياس، وسأله أن ينفق عليهم كسائر العسكرفزجرهم بالكلام وأمر بلزومهم ولم يعلم أن بالباب جمعاً عظيماً فامتنعوا العسكر بهم فبطش بهم العسكر فامتنعوا بسلاحهم فانقلبت المدينة بمن فيها فنهبوا العسكر في ساعة واحدة وكان بالمدينة جمع من العرب الغرباء فهرب الأمير وساير الأمراء المقدمين ودخل الأمير موضعاً من الدار فتبعه جماعة من العوارين فقتلوه ليلاً.

وفي صبيحة تلك الليلة وصل الأشراف بأجمعهم إلى زبيد وحطوا في البستان الشرقي ودخل الشريف يحي الهدوي في جماعة من السور برأي بعض العوارين فتأملوا بيوت غلمان السلطان وأمروا من يصيح بذمة لهم وأذم الإمام على كافة الناس وأمر الشريف يحي بفتح باب المدينة ليدخل العسكر فقال رجل يقال له ابن العدني من كبار العوارين المصلحة يا شريف رجوعك إلى أصحابك حتى نجتمع الليلة بكبارنا من التجار والرعية ومن يعتد بأمره فإن رضوا بكم فتحنا لكم الباب وإن لم يرضوا فيا سيف ويا حجر ويعطي الله النصر من يشاء فرجع الشريف إلى أصحابه فنزلوا من السور ووقع القتال ساعة من نهار وكان يوم جمعة فلم يصل إلا شرذمة قليلة فلما انقضت الصلاة خرجوا بأجمعهم فاجتمعوا بمكان شرقي الجامع يقال له المدرك [1] وأرسلوا للعوارين فوصل منهم جماعة فقال لهم بعض الحاضرين ما هذه الأفعال قتلتم نائب السلطان ونهبتم غلمانه ونهبتم المدينة فما مرادكم إن أردتم سلطنة واحد منكم أو دخول الأشراف فبينوا وإن كانت البلاد للسلطان عرفتم الناس قصدكم فمن أحب الوقوف وقف ومن أراد الخروج خرج إلى حيث يريد فقالوا: والله يا فقهاء ما نحن إلا عبيد

---

(١) هو الآن خرب.

السلطان وغلمانه ولو يقرضنا بالمقراض ما أردنا غيره ولو أردنا الأشراف كان فتحنا لهم الباب ولكن يا فقهاء والله ما نقدم إلا من قدمتموه وما أشرتم تبعناه قالوا فنسير إلى عبد السلطان الأمير سيف الدين الخراساني فإنه أول من حفظ بلاده ولا يتهم بشيء فقام الجميع إليه وقالوا احفظ بلاد السلطان ونحن نقاتل بين يديك ولا نخاف من أحد فقال لهم وأنا أنفق عليكم وعلى كافة الناس الذهب والفضة فصاح الصايح حينئذ بالأمان وبذمة السلطان على كافة الناس فظهر عسكر كانوا مختفين في المدينة نحو مائة وثلاثين فارساً فلما أصبح الأشراف ولم يأتهم علم من العوارين ركبوا بأجمعهم وداروا حول المدينة فوجدوا مكاناً مختلاً من جهة باب النخل قد تشعث دربه ففتحوا من هناك فقاتلهم أهل المدينة قتالاً شديداً فقتل فارس من الأشراف وقتل من أهل المدينة أربعة عشر إنساناً بالنبل وقتل من رجل الأشراف جماعة فرجعوا إلى محطتهم بالبستان الشرقي ولم يكن بعد ذلك قتال فقعدوا أياماً قليلة ثم استمروا راجعين إلى الشام (١).

ولما ارتفعت المحطة عن زبيد وصل الطواشي أمير الدين أهيف في عسكر جيد من الباب السلطاني فتخوف منه العوارون وأغلقوا باب المدينة فوقف بالبستان الشرقي وكان العوارون يحرسون الأبواب حراسة شديدة والطواشي يظهر لهم أن لا حاجة له إلى دخولها وأن وقوفه لانتظار باقي العسكر ثم يتقدم إلى الشام ثم طلب مشايخ العوارين وحلفهم على حفظ المدينة وكساهم كسوة جيدة وأظهر لهم التوجه إلى الشام وأن السلطان لم يأذن له في دخول المدينة إلا عند رجوعه من الشام ولم يزل يرقب غفلتهم عن حراسة الأبواب حتى اطمأنوا وملوا من طول الحراسة ثم أمر عسكره يوماً بالتأهب وجاءته عيونه فأخبروه أن الباب مفتوح لا حارس عنده من العوارين فأمر فرساناً فساروا إلى الباب فملكوه ثم سير الرجل بعدهم وأمرهم أن يسقطوا أحد المصراعين من كل باب ففعلوا فصرخ الصارخ في المدينة فما وصل العوارون إلا وقد دخل العسكر السلطاني المدينة ثم ركب الطواشي للفور ووقف خارج الباب بباقي الخيل والرجل فلم يزل واقفاً موضعه حتى أتى إليه بعدة من رؤوس القتلى من العوارين ثم دخل المدينة. وأمر جماعة من العسكر أن يدوروا حول المدينة يتلقون الهارب فكان يوماً عظيماً ونهبت المدينة نهباً شديداً وقتل من أهل زبيد نحو أربعين رجلاً ثم صاح لهم بالأمان وترك النهب إلا المفسدين ثم جرد الجرائد إلى القرى في طلب المفسدين فكان يؤتى بهم من كل مكان ولا خطاب لهم إلا السيف فقتل منهم أكثر من ثلثمائة رجل.

ثم خرج الطواشي أهيف في شعبان من السنة المذكورة من زبيد يريد القرشيين وكانوا في

---

(١) المراد بالشام في لغة اليمانيين جهة الشمال فما كان شمالاً قيل له شام وما كان جنوباً قيل له يمن.

العرمة[1] فقتل من رجلهم جماعة ومن فرسانهم جماعة منهم محمد البابلي وكان من شجعانهم المشهورين فأرسل القرشيون للأشراف والعوارين إلى الجبل فاجتمع الجميع وقصدوا زبيد وكان أهيف مقيماً بالقوز[2] فلما كان السابع من شهر رمضان ركب عسكره ليسير نحو وادي رمع فرأوا جمعاً كثيراً من الأشراف والقرشيين والعوّارين فأرسلوا إلى الطواشي يستحثونه واقتتلوا اقتتالاً شديداً وثبت كل فريق للآخر فبينا هم كذلك إذ أقبل بقية العسكر فانهزم الأشراف ومن معهم هزيمة شديدة وقتل منهم نحو خمسين فيهم عدة من مشاهيرهم ومن مشايخ العوارين وباقيهم من الأشراف والقرشيين.

وفي سنة اثنتين وسبعين قبض السلطان مشايخ القرشيين وكانوا ستة عشر رجلاً فوسط منهم خمسة وسمر ثلاثة وشنق الباقين وأباح قريتهم وأسكنها قوماً آخرين وتشتت القرشيون في البلاد فصاروا من طوائف الفساد، وفي هذه السنة استمر أهيف واليافي زبيد إلى أن توفي في سنة سبع وثمانين وسبعمائة.

وفي سنة ثلاث وسبعين نزل الشريف نور الدين محمد بن إدريس الحمزي في طائفة من الأشراف ووافقهم ابن ميكائيل فقصدوا حرض وكان بها فخر الدين بن زياد فعاثوا في البلاد وطلع ابن زياد إلى باب السلطان مستنجداً به فجهز معه عسكراً وأمره أن يأخذ من الرتب[3] ما شاء وأعطاه خزنة جيدة فتوجه إلى المهجم وبها ابن ميكائيل وأصحابه المذكورون فالتقوا واشتد القتال بينهم ثم انهزم الأشراف وابن ميكائيل هزيمة شديدة وقتل الشريف محمد بن إدريس في نحو مائة إنسان ثم سار الأمير فخر الدين إلى حرض فخالف عليه أصحاب جازان وانضم إليهم أهل المخلاف السليماني فقصدهم ابن زياد وحط عليهم حتى أذعنوا بالصلح والطاعة بعد أن قتل منهم جماعة.

وفي سنة أربع وسبعين تولى الوزارة القاضي تقي الدين عمر بن أبي القاسم بن معيبد[4] وكان أحق ما قيل له سيد الوزراء لما اجتمعت فيه من الخصال الحميدة.

وفي سنة خمس وسبعين قتل الشيخ أبو بكر بن معوضة السيري صاحب بعدان[5] غيلة

---

(١) العرمة بلدة من القرشيين.

(٢) القوز: موضع قرب قرية القرتب من جنوب زبيد.

(٣) الرتب: بضم الراء وفتح التاء المثناة من فوق باء موحدة جمع رتبة بضم أوله وهم الجنود الذين يجعلهم الملك حفظة للمدن والحصون ويقال لها الحامية.

(٤) هو الأشعري ترجم له الخزرجي.

(٥) كان مقر عز السيري في جبل بعدان ثم في قرية «حلقة» من عزلة المقاطن جنوب غرب مدينة إب وله حصن حب المشهور وحصن عزان المطل على المدينة إب من الجنوب الشرقي وله مدرسة في قرية

على فراشه واحتز رأسه وحمل رأسه إلى حضرة السلطان وكان أحد رجال الدهر وكان استولى على حصن بعدان ونزع يده من الطاعة ولما قتل كتب ولده محمد بن أبي بكر إلى الإمام صلاح الدين بن محمد بن علي بن محمد الهدوي يستنجده على بلاد السلطان فأنجده بنفسه وبما يشاء من خيل ورجل وجمع السيري جماعة وسارا جميعاً يريدان تعز فوصلا الجند فأقاما ثلاثة أيام واستخدم السلطان جمعاً عظيماً وكتب إلى كافة القبائل بحفظ الطريق الذي مر الإمام فيها فاستقبح الإمام أمره وكان يقدم الحزم في أموره فاستمر راجعاً في غير طريقه التي جاء فيه وجد في السير حتى خرج من بلاد السلطان وتعلق ابن السيري ببلده وحصونه.

وفي هذه السنة تقدم السلطان إلى عدن ونشر فيها العدل بما لا يعهد وكسا النواخيذ [1] وأبطل كثيراً مما أحدثه العمال.

وفي سنة سبع وسبعين نزل الإمام صلاح بن علي [2] إلى تهامة في جيوش عظيمة فرأى ولاة البلاد لا طاقة لهم به فوصلوا إلى زبيد وسار الإمام إلى الجهات الشامية فأخربها وسار في عساكره إلى مدينة زبيد فأقام بشرقيها ثلاثة أيام فلم يجد فيها مطمعاً وكان فيها الطواشي أهيف فطلب مشايخ القرى وأمرهم أن يكونوا على اهبة وأن لا يتأخر منهم أحد إذا طلبوا وعزم على قصد المحطة في زبيد وبكافة أهل القرى فاتصل العلم من بعض أهل القرى فاستمر راجعاً ولم يقف أكثر من ثلاثة أيام ورجع في الرابع.

وفي هذه السنة استمر الأمير ركن الدين عبد الرحمن بن علي الهمام في حرض والأعمال الرحبانية [3] مقطعاً بها وفيها جهز السلطان الأمير داود بن حناجر إلى ناحية ذمار في عسكر كثيف فقبض عدة حصون وخرب قرى كثيرة فوجه الإمام جيوشاً كثيرة لقتاله فلم يقم لهم معه أمر ثم جمع الإمام واستنجد بأهل صنعاء وخيم بالحقل [4] مقابلاً لمحطة ابن حناجر، وأرسل عيوناً يحققون له أخبار العسكر ساعة فساعة فلم يزل هذا دأبه حتى علم أن المحطة خالية في بعض الأيام والعسكر متفرقون وما في المحطة إلا نحو أربعين فارساً فانتهز الفرصة

حقلة متهدمة لم يبق إلا أنقاضها وله مدرسة في مدينة إب وهي التي تسمى الجلالية السفلى وله غير ذلك.

(١) النواخيد: ربانيو السفن وسائقوها جمع ناخوذة معروف.

(٢) هو المقبور في مسجده صلاح الدين أعلى مدينة صنعاء راجع تاريخنا الايمة باليمن وارجع لشروح البسامة.

(٣) الرحبانية نسبة إلى وادي رحبان مقاطعة من المخلاف السلماني ثم من جازان: جيزان.

(٤) الحقل هو حقل قتات الذي يشهر اليوم بقاع الحقل.

وقصد المحطة بمن معه وكان في محطة ابن حناجر جمع من الزيدبة قد استخدمهم فلما اصطدم العسكر أحاطوا بالأمير قبل وصول الإمام وأسروه[1] وقتل ناس من العسكر ونهبت محطته فطلع بدر الدين محمد بن علي إسماعيل بن إياس في العسكر المنصور مغيراً إلى الحقل ومنع الإمام من دخول البلاد السلطانية وأقام هناك يشن الغارات من كل ناحية وبذل الأموال وملك قلوب الرجال.

وفي سنة ثمان وسبعين وسبعمائة خالف الشريف محمد بن سليمان بن مدرك في حرض ونزع يده عن الطاعة ووافقه جماعة من الأشراف وأقام باقيهم على طاعة السلطان فحصل بينه وبين العسكر السلطاني قتال بوادي رحبان من أعمال حرض فقتل الشريف محمد بن سليمان مع جماعة من الأشراف الموافقين له وكان صاحب حرض يومئذ الأمير ركن الدين عبد الرحمن بن الهمام وفيها نزل الملك الأفضل من تعز إلى زبيد فأقام بقصره المعروف بالخورنق ثم وصل ولده الملك الأشرف بطلب منه ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ثم انتقل الملك الأفضل إلى رحمة الله تعالى في شهر شعبان من السنة المذكورة واتفق رأي الحاضرين من رؤساء الدولة على قيام ولده الملك الأشرف إسماعيل بن العباس فبايعه كبراء الدولة وعظماؤهم وصلحاء الأمة وعلماؤها فانتظمت الأمور وتقررت أحوال الناس ثم نقل والده إلى مدرسته بتعز فدفنه بها[2].

وكان الملك الأفضل يقظاً حازماً فاضلاً ذكياً فقيهاً نحوياً عارفاً بالإنساب والتواريخ وله مصنفات منها كتاب نـزهة العيون في تاريخ الطوائف والقرون وكتاب العطايا السنيـة في المناقب اليمنية وكتاب نزهة الأبصار في اختصار كنز الأخيار واختصر تاريخ ابن خلكان وله كتاب بغية ذوي الهمم في أنساب العرب والعجم[3].

---

(١) لا يبعد أن هذه مؤامرة ولهذا النوع الإنساني عوائد لنقض العهود ونبذ الأخلاق العالية سعياً وراء دريهات والمنفعة العاجلة.

(٢) كانت مدرسة الملك الافضل في أسفل الحبيل الذي فيه المستشفى وقد عثر في عصرنا على قبره حينما كان بعض الناس يحفر لأساس بيت فعثر على القبر وعليه لوحة باسم الملك الأفضل المذكور ولم تبق إلا جمجمته كأنها القلة الكبيرة فبلغ الإمام أحمد فاستدعاها في وعاء ومكثت عنده أياماً ثم لا يدري أين صار بها.

(٣) وله من المؤلفات كتاب: بغية الفلاحين في الأشجار المثمرة والرياحين وقد طبع وعندي مجمع من تأليفه وعليه خطه الجميل الملوكي بلفظ «العباس بن علي» وهو يحتوي على عدة فنون من تأليفه ومن جملتها: بغية ذوي الهمم في أنساب العرب والعجم ومنها في علم الفلك والنحو وغير ذلك وربما ينشر باذن الله والعطايا السنية في المناقب اليمنية منها نسخة في دار الكتب المصرية ونسخة أطلعنا عليها في تعز.

وهو الذي جدد سور مدينة زبيد وعمر خنادقها وكان كريماً وهب للشريف علي ابن داود الهادوي الحمزي أربعمائة ألف درهم وكان شجاعاً جداً وقصده صلاح الدين بن علي في جموع لا تحصر لموافقة ابن السيري وجمع ابن السيري أيضاً ما لا يحصر وبلغ جمعهم الحوبان(١) وكان الأفضل بثعبات مقيماً فما تزلزل ولا تحول وولي اليمن وفي قطره من طوائف الفساد ما يزيد على ألفي فارس فضلاً عن الأقران والأضداد ففرق كلمتهم واستأصل شأفتهم(٢).

ومن مآثره الدينية مدرسة بناحية الجبيل وفيه منارة عجيبة المنظر ظريفة طبقة منها مربعة وأخرى مثلثة الأركان وثالثة مسدسة الشكل ومدرسة بمكة ووقف عليهما ما يقوم بكفايتهما وكفاية المرتبين بهما وخلف سبعة أولاد أكبرهم الملك الأشرف إسماعيل وعبد الله المنصور وعلي المجاهد ومحمد المفضل وأبو بكر المؤيد وعمر المظفر وعثمان الفائز.

وكان وزيره القاضي جمال الدين محمد بن حسان فلما انتقل ابن حسان إلى رحمه الله تعالى استوزر تقي الدين عمر بن معيبد.

ومن محاسنه التي أسسها الذراع الجديد الأفضلي لا تمسح البلاد إلا به وفيه رفق بالرعية وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة وأشهراً والله أعلم.

الفصل الثاني عشر

في ذكر دولة الملك الأشرف إسماعيل بن العباس الغساني

قال الفقيه أبو الحسن الخزرجي لما انتظمت البيعة للملك الأشرف وولي الخلافة بعد أبيه وبرزت أوامره الشريفة إلى سائر الجهات بتقرير الأحوال واستخدام الرجال وأقام بتعز من بقية شعبان إلى ذي الحجة والعرب تفد عليه والكتب من كل بلد تصل إليه ثم نزل إلى زبيد.

وفي سنة تسع وسبعين عزم إلى النخل ثم إلى البحر ثم طلع تعز وفي مدة إقامته بزبيد ولي القاضي موفق الدين علي محمد بن سالم فجعله مشداً في وادي زبيد ناظراً بها وفي سنة ثمانين

---

(١) الحوبان بالحاء المهملة أخره نون وهو يحمل هذا الأسم إلى عهدنا وتارة يسمى بقاع الحوبان وهو على المحجة تعز أب وبينه وبين تعز قرابة خمسة أميال شرقاً ويعتبر من ضواحي مدينة تعز وفيه اليوم مصنع الحلويات ومحطات للبترول ولا يزال العمران يزحف عليه.

(٢) الشافة أي أستأصال الشيء.

وسبعمائة أمر السلطان بعمارة دار النصر ، بناحية القوز من زبيد وفي هذه السنة كان انتقال الشيخ الصالح طلحة بن عيسى الهتار إلى رحمة الله[١].

وفي سنة إحدى وثمانين اجتمع المماليك الغرباء على أمر لم يظهر لأحد حقيقته فأرسل السلطان عيوناً يبحثون عن أمرهم وأخبروه أنهم على أهبة قتال وجمع سلاح ولكنهم مفرقون في أماكنهم فأباحهم لعبيد سلاح ـ فقصدوهم قبل اجتماعهم فخرجوا هاربين ولزم بعضهم فاتلف ، وفي السنة المذكورة أفسدت المعازبة وقصدوا طريق النخل مرات فجهز لهم السلطان عسكراً من الباب ومقدمهم سيف الدين بشك فأتتهم العساكر من كل ناحية ولم يكن لهم مهرب إلا البحر فغرق منهم طائفة واستذم آخرون وأسر جماعه وأضاف السلطان وادي رمع إلى الأمير بشك واستناب في الجهة المذكورة الفقيه رضي الدين أبا بكر بن أحمد بن عبد الواحد وكان فقيهاً حسن السياسة فشتت جمع المعازبة وأخرب ربوعهم في أقرب مدة.

وفي هذه السنة سار السلطان نحو المخلاف فأخذ مدينته إب قهراً بالسيف ثم رجع إلى تعز وفيها أضاف السلطان أمر القحمة إلى بشك فتقدم إليه فقصده المعازبة في جمع كثيف وقد جعلوا له مكامن فاستجروه إلى أن توسط وثاروا عليه فقاتل حتى قتل وقتل معه ابن عبد الواحد وجماعة من العسكر ؛ وفيها تقدم فخر الدين أبو بكر بن بهادر السنبلي صحبة المحمل والعلم المنصور إلى مكة المشرفة وسار بمسيره حاج اليمن فحج ورجع مشمولاً بالسلامة ذهاباً وإياباً.

وفي سنة ثلاث وثمانين أستمر القاضي موفق الدين علي بن محمد بن سالم مشداً في الأعمال التهامية فاقام بها بضعاً وعشرين يوماً يؤدب أهلها ويعذبهم فبلغ السلطان عمله ففصله وأضافه إلى أهيف فصادره مصادرة شديدة هلك فيها وفيها سار السلطان إلى بلد بني ثابت وإستولى عليها ثم قصد إلى بلد الركب[٢] ثم حصن بني علي وهو المسمى حصن رأس[٣] وهو جبل عال فهرب أهله منه وتركوه فقبض السلطان ورتب فيه.

وفي سنة أربع وثمانين وصل جماعة من أشراف مكة وقوادها يريدون خدمة السلطان فأكرمهم ثم طلبوا الفسح للحج فزودهم وساروا فلما صاروا إلى المهجم انحازوا إلى طوائف

---

(١) ترجم له الحافظ الشرجي في طبقات الخواص ٦٢ وقال مات في زبيد في السنة المذكورة ودفن بمقبرة باب سهام وترجم له الخزرجي في العقود ص ١٦٧ ج ٢.

(٢) الركب بفتح الراء وسكون الكاف آخره باء موحدة وطن وبطن من الأشعريين وهي شرقي مدينة زبيد ومنها بطن في بلد شمير : مقبنة راجع صفة جزيرة العرب بتعليقنا.

(٣) حصن رأس هو ما يسمى اليوم جبل رأس وهو يشكل ناحية شرق جنوب زبيد وهو أيضاً من بلد الأشاعر.

المفسدين وقصدوا مدينة المحالب في جمع كثيف فخرج إليهم أميرها ركن الدين بن الهمام فيمن معه من العسكر فقتلوه مع جماعة من أصحابه ونهبوا أطراف البلاد ثم توجهوا إلى حرض فخرج إليهم أميرها بهادر الشمسي فقتل أكثرهم وشتت شمل الباقين فتوجهوا نحو مكة فمنعهم صاحب مكة من دخولها.

وفي سنة خمس وثمانين وسبعمائة وصل الشريف الكبير والأمير الخطير داود بن محمد بن داود بن عبدالله بن يحيى بن الحسن بن حمزة بن سليمان بن حمزة صاحب صنعاء إلى الأبواب العالية السلطانية فقوبل بالأجلال والأفضال.

وفي سنة ست وثمانين أستمر القاضي شهاب الدين أحمد بن أحمد بن أبي بكر الناشري قاضياً بمدينة زبيد [1] عوضاً عن القاضي إبراهيم بن أحمد التهامي.

وفي هذا التاريخ استمر القاضي وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد العلوي مشداً في الأعمال السرددية ثم فصل بالقاضي أحمد بن عمر بن معيبد ثم استمر العلوي في الأعمال اللحجية مستوفياً للأموال فنقل عنه أعداؤه إلى السلطان ما غير باطنه فاعتقله مدة ولم يجد دليلاً على صدق ما نقل عنه فأطلقه ولم يزل مبجلاً مكرماً إن قال سمع أقواله وإن فعل استحسن أفعاله فأضاف إليه الشدود الديوانية.

ثم حمل له حملاً وعلماً واقطعه الأعمال الرحبانية وفيها أمر السلطان بقتل ابن شرف الصنعاني وكان سفيراً بين الإمام وبين السلطان فيقال إنه خان في سفارته وأفشى السر الذي استودعه السلطان ومن آداب الملوك أن يغفروا كل ذنب إلا ثلاثة: إفشاء سرهم والطعن في ملكهم وإفساد حريمهم وقد نظم الصفي الحلي [2] الثلاثة فأحسن فقال:

إن الملوك لتعفوا عند قدرتها ... لكنها عن ثلاث عفوها قبحا
ذكر الحريم وكشف السر من ثقة ... والقدح في الملك ممن جد أو مزحا

وفي سنة سبع وثمانين وصل العلم بظهور تمرلنك التركي [3] واستيلائه على مملكة الشرق

---

(١) القاضي أحمد الناشري له ترجمة عند الخزرجي فيما أعلم وبنوا الناشري الذين في الجبال والذين في تهامة من قبيلة علك راجع تحفة الزمن للاهدل وثم قول أن الذين في الجبال غيرهم.

(٢) الصفي الحلي هو أحد الشعراء الأدباء العراقيين المرزين في فن الأدب وقد ترجمنا له في غير هذا والحلي نسبه إلى الحلة مقاطعة جنوب بغداد وله ديوان شعر مطبوع وكان شيعياً جارودي النزعة.

(٣) تيمورلنك بن ططرخان الحقطاي التركي ويقال فيه تمرليك وضبط تيمور بفتح التاء المثناة من فوق وسكون التحتانية وضم الميم وسكون الواو بعده راء ومعناه بالعربية حديد وأصله من كش مدينة مشهورة مما وراء النهر بينها وبين سمرقند يوم واحد وأمه من ذرية جنكزخان فيما يقال وكان مولده في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وكان أبوه من الفلاحين ونشأ تيمور خاملاً إلا أنه كان قوي القلب شديد

وأنه متوجة إلى الشام وانتقل الطواشي أهيف إلى رحمة الله تعالى وكان شجاعاً مقداماً في الحرب خدم المؤيد والمجاهد والأفضل والأشرف وكان يجل العلماء ويحترمهم تولى زبيد خمس عشر سنة.

وفي آخر ذي الحجة من السنة المذكورة استمر الفقيه جمال الدين محمد بن عبد الله الريمي في القضاء الأكبر في المملكة اليمنية وكان يومئذ أوحد أهل العصر علماً.

وفي سنة ثمان وثمانين كان السلطان في الجهة الشامية فلما صار في القحمة راجعاً إلى زبيد خرج أخوه المنصور عبد الله يريد التقدم إلى فشال فصادفه جمع من المفسدين وهو على بغلة وقد انفرد عن حاشيته وغلمانه ولم يكن معه إلا نفران فحملت عليه الخيل وهو يظنها من

البطش ذكياً فطناً مطبوعاً على الشر ولما بلغ أشده وترعرع صار يحترف اللصوصية: فسرق مرة غنماً فرماه راعيها بسهم فاصاب رجله فعرج فمن ذلك قيل له لنك أي الأعرج ثم انضمت إليه طائفة من اللصوص فصار يقطع الطريق وكان يلهج أنه سيملك البلاد ويبيد العباد وكان قد اشتهر بالفروسية فطلبه صاحب خيل السلطان بسمرقند فقرره في خدمته ولا زال تترقى به الأحوال إلى أن اجتاح كل ممالك الشرق والعراق والجزيرة والفرات وحلب وحاصر دمشق ودخل الهند فنازل مملكة المسلمين حتى غلب عليها وكان مغرى بغزو المسلمين وترك الكفار مع أنه يزعم الإسلام ويقيم شعايره وفي سنة أربع وثمانمائة قصد بلاد الروم فغلب عليها وأسر صاحبها السلطان بايزيد خان من آل عثمان ومات في اعتقاله وهو أبو السلطان محمد فاتح القسطنطينية.

وكان تيمور شيخاً طوالاً شكلاً مهولاً طويل اللحية حسن الوجه بطلاً شجاعاً جباراً غشوما ظلوماً سفاكاً للدماء مقداماً عليها، وكان يقرب العلماء والصلحاء والشجعان والاشراف وينزلهم منازلهم ولكن من خالف أمره أدنى مخالفة استباح دمه وكان يتناظر العلماء بين يديه وكان يدعي التشيع وكان لا يفارقه الشريف الجرجاني والعلامة التفتازاني ولهم مناظرات مشهورة وكان له جواسيس في جميع البلاد يوافونه بالأخبار فلا يتوجه إلى جهة إلا على ضوء ما يصله واجتمع به العلامة المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون مخترع علم الاجتماع وله معه أخبار وتخلص منه بحيلة ولما دخل دمشق أو حلب الشك مني طلب العلماء وسئلهم بقوله قتلانا في الجنة أو قتلاكم فاحرج العلماء ولم يحوروا جواباً لأنهم إذا قالوا قتلانا في الجنة فمعناه أن قتلاه في النار وخافوا العقاب وإن قالوا قتلاه كفروا أنفسهم وكان في جملتهم العلامة ابن الشحنة وهو أصغرهم فقال له: يا مولانا أنا أتولى الجواب فخاف العلماء خوفاً عظيماً فقال جاء في الحديث النبوي أن الرجل يقاتل حمية ويقاتل لكذا ولكذا فمن قاتل لتكون كلمة الله العليا فهو في الجنة فانفرج عن العلماء ذل الضيق وتخلصوا بهذا الجواب المقنع ومات تيمورلنك في سنة سبع وثمانمائة من الهجرة: معلومات ومن أنباء الغمر في أبنا العمرج ١ - ١٧ - ٢١ وج ٢ - ٣٠١، ولعل ابن خلدون تكلم عنه في تاريخه إذ لم أطلع على أجزائه كلها ولابن عرب شاه مؤلف خاص في سيرة تيمور هذا ولعله قد طبع.

العسكر فلما عرفهم انتزع الدبوس فصال على أحدهم فاعترضه آخر فطعنه طعنة كانت فيها روحه فحمله أخوه إلى تعز وقبره عند والده.

وفي آخر السنة المذكورة حمل كتاب التفقيه في شرح التنبيه تصنيف القاضي جمال الدين محمد الريمي على رؤوس المتفقهة من بيت المصنف إلى مقام السلطان مزفوفا بالطبلخانة وكـان أربعة وعشرين جزءاً [1] فحباه السلطان بثمانية وأربعين ألف درهم تعظيماً للعلم ورفعاً لدرجته.

وفي سنة تسع وثمانين اصطلح الإمام وهمدان [2] وسلموا له القلعة وفدة [3] ولم يبق في أيديهم الأذمرمر [4] وفي السنة التي بعدها أمر السلطان بعمارة جامع المملاح [5] وفيها وقع سيل عظيم بالوادي زبيد قيل إنه أربعة أنواع وانحرف نحو النخل فاتلف شيئاً كثيراً بعد أن أتلف جانباً من نخل مانع وشيئاً من الجحوف وكثيراً من نخل المغرس وكان سيلاً لم يعهد مثله وفيها استمر الطواشي مرجان أميراً في زبيد ثم فصل قريباً وأعيد أميرها الأول عز الدين وفيها برز مرسوم السلطان أن يكون وعد زبيد يوم الخميس [6] وكان قبل ذلك يوم الجمعة فكان كثيراً من الناس يشتغل عن حضورها.

وفي سنة إحدى وتسعين رتب السلطان بجامع المملاح ستة مدرسين مقري للسبع ومحدث ومدرسان شافعي وحنفي، ومدرسان في النحو والفرائض ورتب فيه إماماً ومؤذنين وقيمين وخطيباً ومعلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن وشيخا صوفيا وفيها استمر الطواشي مرجان مقطعاً بالقحمة وفيها وصل الإمام إلى زبيد وحط شرقي مقبرة باب سهام [7] فركب يوماً في جيوشه فطاف حول المدينة يرى موضعاً أصلح للقتال فرتب على كل بـاب طائفة من عسكره فكان القتل على الأبواب الأربعة وظهر له أن الباب الغربي أيسر من سائر الأبواب

---

(١) كان في الأصل أربعة وعشرون جزءاً والتصحيح منا ليطابق القانون النحوي وكذا في «ع» كما صححناه.

(٢) هو الإمام صلاح وهمدان الدنيا شمال صنعاء.

(٣) القلعة هي التي تسمى دورم ذكرها الهمذاني في كتبه وفدة سبق ذكرها وكلاهما في وادي ضهر.

(٤) ذمرمر سلف ذكره.

(٥) جامع المملاح ويقال له مسجد المملاح وكان داخل سور مدينة زبيد في سوق المملاح ويسمى اليوم مسجد الطيرة وقوله أربعة أنواع أي أن السيـل دفع من أربع جهات ونخل المغرس غربي زبيد.

(٦) أي موعد سوق زبيد للباري والحاضر.

(٧) هي المقبرة التي تسمى العرق وباب سهام هو الشمالي.

لأجل المخاليل التي يخرج منها الماء [1] ففتح الحرب من هنالك وقصدوا السور وحفروا ورشقوا أهل المدينة بالنبل فأنزلوهم على السور وانهزم أهل المدينة عن السور فارتجت المدينة فخرج أهلها وطلعوا الدَّرب وقاتلوا قتالاً شديداً ولم يقتل من أهل المدينة أحد ثم أن جماعة الأصبهانية كانوا على قلة باب النخل فرموا أصحاب الإمام الذين قصدوا المخاليل فرجعوا على أعقابهم ناكصين وانقطع طمعهم عن المدينة واشتغلوا بتحريق قرن النويدرة والمملاح وحافة الودن [2] وكان أهلها قد دخلوا زبيد ثم علم الإمام أن الأمير الشمسي قد صار في القرشية ونيته أن يهجم محطته ليلاً وأنه قد كتب لأهل زبيد يأمرهم بالخروج إليه وقت أن يهجم فرجع الإمام في طريقه التي جاء فيها فدخل الشمسي زبيد وأقام بها أياماً ثم تقدم إلى المحالب وفيها جرد السلطان عسكراً إلى حصن نعم [3] فحط عليه وأمر ابن السيري أن يجرد عسكراً إليه أيضاً لأنهم أدرى بالبلاد فجرد عسكراً ولكن أكثرهم غير ناصحين فسعوا في فساد المحطة وباعوا العسكر فانقطعت المحطة وأغار ابن السيري على الصوت فانكشف الأمر وعرف أهل البيعة فقبض جماعة منهم وقتلوا.

ثم وصل الإمام إلى نعم واشتد القتال ثم رجع الإمام إلى ذمار وارتفعت المحطة عن نعم.

وفي هذا التاريخ قتل العبد منصور مقدم عسكر الإمام وكان قتله في وادي مور وكان سبب قتله أن الإمام لما رجع عن محطة نعم جرد عسكراً إلى تهامة مقدمهم منصور المذكور ومعه جماعة من فرسان الشرق فوصلوا حرض ثم قصدوا المحالب وكان بها الأمير بهاء الدين الشمسي فالتقوا فقتل العبد منصور وأصحابه ولم يسلم منهم إلا الأقل.

وفي سنة إثنتين وتسعين استمر القاضي زكي الدين أبو بكر بن يحي بن عجيل في القضاء الأكبر في أقطار المملكة اليمنية وكان عالماً كامل الأوصاف مشاركاً في عدة من الفنون وفي شوال منها انقض كوكب عظيم من ناحية الجنوب إلى ناحية الشمال له ضوء عظيم زايد على ضوء القمر زيادة كبيرة وبعد مغيبه وقعت هدة عظيمة.

وفي سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ركب الإمام صلاح [4] لبعض مهماته فبينما هو على بغلته إذا أقبل طائر من الجو قاصداً وجه البغلة. فنفرت البغلة منه نفرة شديدة ألقت الإمام عن ظهرها فتعلقت إحدى رجليه في الركاب فازدادت البغلة نفوراً فسحبته في موضع وعر

---

(١) المخاليل جمع مخلولة وهي مجاري المياة المسقوفة لغة يمانية دارجة ال ذا الحين.

(٢) حافة الوادي جنوب مدينة زبيد الواقعة جنوب القرتب وقد اندرست هذه القرية.

(٣) حصن نعم بضم النون وسكون العين المهملة يقع في عزلة المنار من جبل بعدان.

(٤) هذه الحادثة حكاها ابن فند في شرح البسامة وأن الحادثة كانت في مدينة ذمار.

فلزموا البغلة وقيل بل قتلوها وحمل من مكانه إلى حصن ذمار [١] فقام هنالك ثم انتقل إلى صنعاء ثم مات بعد شهرين وفيها أمر السلطان بإعادة درب مدينة الجند على عادته الأولى وكان قد اندرس.

وفي سنة خمس وتسعين أمر السلطان بعد المساجد والمدارس في زبيد وكانت مائتين وبضعاً وثلاثين وعدت المعاصر فكانت تسعة وأربعين عوداً [٢]، وفيها استمر القاضي وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد العلوي مشداً في المحالب فكساه السلطان وحمل له حملاً وعلماً وأقطعه حرض وجعل إليه نظر الأعمال السرددية.

وفي سنة ست وتسعين انتقلت إلى رحمة الله تعالى جهة الطواشي معتب زوجة السلطان الأشرف أم أولاده الناصر والفائز، وهو أكبرهم والأفضل والمجاهد وكانت كثيرة الصدقة وفعل المعروف رحمها الله تعالى [٣].

وفي هذا التاريخ تزوج السلطان جهة الطواشي فرحان وخرج في السنة المذكورة إلى الجهات الشامية فلما وصل المحالب لقيه مشدها القاضي عبد الرحمن بن محمد العلوي فأضافه ضيافة عظيمة وحمل معه ثلاثة عشر ألف دينار وقاد من الخيل اثنين وعشرين رأساً ومن الثياب الفاخرة ما قيمته ألفا دينار.

وفيها وصل القاضي مجد الدين الشيرازي من الثغر المحروس [٤] فأكرمه السلطان بما يليق بحالته.

---

(١) كان في الأصول ظفار وكذا في العسجد ولعله تحريف وحصن ذمار وهو هرّان لأن الحادثة وقعت في ذمار ولهذا صححناه.

(٢) هي التي يعصر فيها حب الجلجلان: السمسم.

(٣) وإليها تنسب المدرسة المعتبية في مدينة تعز.

(٤) الثغر المحروس هو عدن ومجد الدين الشيرازي هو صاحب القاموس في اللغة الذي لم يؤلف مثله والذي ألفه للملك الأشرف الذي نحن بصدده ترجه الفاسي في العقد الثمين ج ٢ - ٣٩٢ قال: محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن أحمد بن محمود بن إدريس بن فضل الله بن الشيخ أبي إسحق إبراهيم بن علي مجد الدين أبو الطاهر الفيروزابـادي الشيرازي الشافعي اللغوي نزيل مكة ولد بشيراز في سنة تسع وعشرين وسبعمائة ثم ذكر مروياته ومؤلفاته إلى أن قال: وولي قضاء الأقضية ببلاد اليمن عشرين سنة متوالية تزيد قليلاً ولما دخل اليمن أكرمه الأشرف ونال منه برا ورفعة وتزوج الأشرف ابنته.

وكان موته في ليلة الثلاثاء العشرين من شوال سنة سبع عشرة وثمانمائة وترجم له الامام الشوكاني في البدر الطالع وغيرها يروي أنه حاول الخروج من اليمن وكتب للملك الأشرف بذلك فأجابه: بقوله: =

وفي هذه السنة سنة سبع وتسعين وسبعمائة وصل الإمام الكبير صلاح بن علي بن مطهر ابن محمد بن يحيى إلى الأبواب الشريفة وسلم للسلطان حصن دروان [1] فكساه وأنعم عليه وأعطاه عشرة آلاف دينار وفيها استمر القاضي مجد الدين في القضاء الأكبر في أقطار المملكة اليمنية وكتب له منشوراً بذلك.

وفي سنة ثمان وتسعين وصل ولد السيري إلى باب السلطان فأنعم عليه ورجع إلى أبيه وعزم السلطان على طلوع جبلة والتقدم إلى الشوافي فسار في جيش فأقام في قرية المقادمة [2] وأرسل من يبحث عن حال السيري فوجده على أقبح سيرة وأخبث سريرة فارتحل السلطان إلى دار السلام [3] من جبله فأقام به وأرسل للقبائل واستخدم الرجال وأرسل إلى ابن السيري يطلب منه عسكراً بالجامكية فلم يفعل فتحقق للسلطان فساده وإفساده ومكره وعناده وكان ممن تخلف عن الوصول إلى باب السلطان محمد بن السيري صاحب بعدان وعبد الباقي الصهباني صاحب صهبان وعلي بن داود الحبيشي صاحب الخضراء من بلد الشوافي [4].

ثم إن السلطان سار يوماً إلى مدينة إب وكان ابن السيري قد رتب فيها ألفي راجل فلما قرب السلطان من المدينة أغلقوا أبوابها وظهر منهم من سوء الأدب شيء كبير فرجع السلطان إلى دار السلام ثم قصدهم مرة أخرى فاغلقوا الأبواب وقاتلوه قتالاً شديداً فانهزم العسكر السلطاني وثبت السلطان وولده الناصر ثباتاً حسناً وتراجع الأمر إلى السلطان ورجع معظم العسكر فهزمهم السلطان ودخل المدينة قهراً وأخربها العسكر خراباً كلياً ونهبوا ما وجدوه فيها وقتل من أهلها جماعة ثم رجع السلطان إلى دار السلام ظافراً منصوراً ثم في صفر من السنة المذكورة أمر بالمحطة على حصن الخضرا [5] حصن علي بن داود الحبيشي صاحب بلد الشوافي فسار السلطان بنفسه في كافة عسكره وأقام في المحطة ثلاثة أيام وضيق عليهم فلما اشتد الضيق على علي بن داود خرج في جمع من أهله وغيرهم يقاتلون

= والله يا مجد الدين لخروجي من ملكي أيسر من أن تخرج من مملكتي أو بمعنى هذا وترجم له الإمام ابن حجر العسقلاني.

(١) دوران مضى ذكره ودروان أيضاً في حضور والله أعلم أيهما أراد ولعله دروان حجة.

(٢) قرية المقادمة في قاع شبان منها تظهر مدينة اب في الشمال الشرقي وتقع المقادمة من جبلة في الجنوب الشرقي بمسافة ميلين وهي من عزلة المكتب التابعة لذي جبلة وغرب المحجة المسلوكة: اب تعز ولا تزال عامرة.

(٣) دار السلام هي التي كانت تسمى دار العز من بناء السيدة بنت أحمد الصليحي وقد مر ذكرها.

(٤) هؤلاء الزعماء كان لهم مقام مرموق في تلك الأيام.

(٥) هذه الخضراء في جبل جيش وليست التي في صهبان.

فانهزمت الناحية التي هو فيها فقتل في جماعة من قرابته وقتل ولده الأسد والشيخ عمار الخفا وكان من عظمائهم وأسر ولده إدريس ابن علي بن داود وخرب داره وبساتينه ونهبت البلاد نهباً شنيعاً شديداً ولم تزل المحطة على الخضرا حتى أثر فيها المنجنيق والعرادات [١] فطلب أهلها الذمة وبذلوا تسليم الحصن فأجابهم السلطان إلى ذلك فنزل الشيخ محمد بن داود الحبيشي إلى السلطان فكساه وتصدق السلطان بالحصن على الأولاد الحبيشي فبقوا في حصنهم وبذلك يحتج الحبيشي أن الحصن صدقة عليه ثم توجه السلطان إلى زبيد في عسكر جرار ورؤوس القتلى بين يديه ولسان الحال ينشد:

بلغنا ما نشاء من المراد ... وحزنا ما نشاء من البلاد
وفلقنا رؤوسا عاصيات ... بأسياف مهندة حداد
وصلنا صولة يوم الشوافي ... فذلت عند صولتنا الأعادي
أتيناهم بكل أقب نهد ... شديداً سيره سلس القياد
وفرسان كأسد الغاب بأساً ... وكادت أن تطير من البلاد [٢]
طغوا وبغوا فساداً فانتقمنا ... بحزب الله من حزب الفساد

ولما دخل السلطان زبيد في التاريخ المذكور سكنها واستوطنها واخترع فيها القصور العجيبة ومنها ابتدأ بعمارة المتجر [٣] بزبيد على يد السراج بن سالم وابتدىء أيضاً بعمارة العين التي ظهرت بالمغرس من الوادي زبيد في جمادي الأولى فوصل ماء العين المذكورة إلى بستان السوجين من نخل وادي زبيد [٤] في شهر شعبان من السنة المذكورة.

وفي سنة تسع وتسعين وسبعمائة نهب الأحيوق قافلة عدن [٥] وكانت ثمانين جملاً عليها من الذهب والفضة أكثر من عشرة لكوك [٦] وفيها برز أمر السلطان [٧] إلى قاضي القضاة

---

(١) العرادات: جمع عرادة آلة حربية ترمى بالحجارة ويقال أنها أصغر من المنجنيق.

(٢) في هذا البيت إيطاء ولعل فيه تصحيفاً والايطاء هو تكرار القافية بتلك الكلمة قبل أن تفي المقطوعة الشعرية إلى عشرة أبيات أو دونها فأول قافية الأبيات البلاد وهذه البلاد ثم وجدت في العقود اللؤلؤية قبل هذا البيت أبيات وحينئذ فلا إيطاء والقصيدة كبيرة.

(٣) لا يعرف اليوم ولا أين مكانه.

(٤) كل هذه الاماكن غربي مدينة زبيد ولا تعرف بالضبط.

(٥) الاحيوق قبيلة من الأصابح: الصبيحة ويقال لهم اليوم بنو الحيقي وهم غير بني الحيقي من أعمال الحشا والاحيوق أيضاً من المعافر.

(٦) الك جمعه لكوك وكأنه قدر معروف من الذهب والفضة ويعطي معناه الكثرة ولم أجده في القاموس ولعله لغة هندية ولا زالت مستعملة إلى يومنا هذا.

(٧) في الهامش مرسوم بدل أمر.

مجد الدين أن يندب إماماً شافعياً لمسجد الأشاعر وكان المسجد لأصحاب أبي حنيفة من زمن قديم فولى الفقيه علي محمد بن فخر الدين.

وفي هذه السنة خرج راع بغنم في ناحية صنعاء عند جبل يسمى مذبح [١] فنزل غنمه وراء جبل هناك فتبعه الرجل فوجد كهفا فيه رجل ميت ففزع وهاله ما رأى فرجع وأعلم بعض أهل تلك الناحية فساروا معه فوجدوا في الكهف رجلاً ميتاً عليه سبعة أكفان وتحته نحو من أربعين ثوباً وعلى رأسه عمامة طولها خمسة وثلاثون ذراعاً في عرض ذراع وكأنه مات قبل ذلك اليوم بيوم ووجهه أبيض وأنفه مستقيم وكأنه قائم مستقبل القبلة وساعده الأيمن تحت خده ويده الأخرى على صدره وهو قصير الظهر طول ساعده ذراع وكل أصبع طولها شبر وساقه ذراع ونصف وأصابع رجله نصف شبر وبه جراحات بعضها في وجهه وشيء في ظهره وذكروا أن رجلاً رأه وهو أعمى فخرج من عنده بصيراً والله أعلم [٢].

وفي سنة ثمان مائة أكمل القاضي مجد الدين تأليفه المسمى بالأصعاد وحمل إلى باب السلطان مزفوفاً بالطبول وحضر سائر الفقهاء والقضاة والطلبة وساروا أمام الكتاب إلى باب السلطان وهو ثلاثة أجزاء فاجاز مؤلفه بثلاثة آلاف دينار وفيها وصلت هدية صاحب سيلان [٣] إلى باب السلطان وهي أربعة فيلة وشجرة من العنبا [٤] وتحف كثيرة وفيها تقدم الأمير بدر الدين محمد بن زياد إلى حصن ريسان من ناحية المداد [٥].

وفي سنة إثنتين وثمان مائة خالف على السلطان الأمير بدر الدين محمد بن زياد وكان السلطان قد رتبه بتعز في عسكر وكتب إليه أن يتلقى خزانة عدن ويسير بها إلى زبيد فلقيها الأمير المذكور في عسكره وكانت خزانة جيدة وفيها لكوك من الذهب والفضة ومن

---

(١) مذبح بفتح الميم وسكون الذال المعجمة ثم باء موحدة مهملة ثم حاء مهملة بلدة عامرة مسورة وفيها عدة جبال ومنها جبل مطل عليها جبل عن كثب فيه نوبة مبنية أي بيت مدور الشكل وتقع شمال غربي صنعاء بمسافة ثلاثة أميال على طريق وادي ضهر.

(٢) الرواية في العقود اللؤلؤية بأوسع من هذا مع تفصيل كامل إلى أن قال: والغالب أنه أحد ملوك حمير. وهذا يدل أن الحمريين عرفوا الحنوط الذي تحفظ أجسام الموتى ويمنع الأرض أن تأكله كما كان يحنط المصريون القدامى وقد عثر اليوم بما يشبه هذه الحادثة اثبتناها في غير هذا المكان.

(٣) سيلان جزيرة من جزر الهند وهي التي كان يقال لها سرنديب راجع ياقوت دائرة المعارف.

(٤) شجرة العنبا معروفة وهي موجودة بكثرة في مدينة تعز وغيرها في جبال السسراة وتهامة وهي من ألذ الفواكة وأعجبه ودائماً طوال السنة تعطي ثماراً جيدة.

(٥) ريسان كذا في الأصول بالسين المهملة ولعلها ريشان بالشين المعجمة وهو حصن شرقي قعطبة والمداد لعله هنالك.

اللباس والطيب شيء كثير وصحبتها جمع من التجار بأموالهم فحسن للأمير بعض أصحابه أخذها فاستولى على الخزانة بأسرها وعلى من سار معه ووقف بين بلد زبيد والعربيين وكان السلطان قد أضاف إليه طائفة من الحصون ورتب فيها نوابه الثقات فلما علم السلطان بعمل ابن زياد أرسل الطواشي مرجان لقبض حصن ريشان أحد حصون المداد وهو من الحصون المنيعة وكان فيه نائب لابن زياد فأوقفه الطواشي على خط السلطان فاطاع وسلم الحصن للطواشي فقبضه ورتب فيه ثقاته فلما استقر الطواشي به أتت كتب ابن زياد إلى نائبه يأمره بحفظ الحصن وأن لا يمكن منه أحداً فندم النائب وعاد جوابه إلى ابن زياد يعلمه بخبر الطواشي فشحن الطواشي الحصن ثم تقدم السلطان إلى تعز فوصله الأميران محمد بن بهادر اللطيفي وبهاء الدين بهادر السنبلي فلما اجتمعت العساكر انفق عليهم السلطان نفقة جيدة وجردهم فحطوا على حصن سناح[1] نصف شهر يقاتلون ليلاً ونهاراً فلما رأى ابن زياد كثرة العساكر علم أن لا طاقة له بالسلطان وأن مالـه ينفد وأن العرب ربما باعوه فطلب من السلطان ذمة شاملة له ولمن معه فاذم عليه السلطان على يد جمع من الفقهاء والصوفية فسار من الحصن الذي هو فيه ليلاً بغير علم أحد من أهل الحصن ولا من أهل المحطة فأصبح على باب السلطان.

وكانت مدة خلافه أربعة وستين يوماً فقابله السلطان بالقبول وصفح عنه وكساه وأعاده إلى أحسن من حالته الأولى.

وفيها ظهر جراد عظيم اتلف كثيراً من الزرع والثمار أخبر بعض الثقات من الرعية أنه رأى حنشاً كبيراً خرج من جحره فأكل من الجراد حتى عجز عن السير إلى جحره فوقف موضعه فوقع عليه الجراد حتى غشيه من كل جانب ثم أكله فلم يترك منه شيئاً.

وحكى آخران ديكاً التقط من الجراد فأكل حتى عجز ثم وقع الجراد فأكله جميعاً.

وفي سنة ثلاث وثمانمائة انتقل السلطان الملك الأشرف إلى رحمة الله تعالى بتعز في ربيع الأول من السنة المذكورة فجعل بمدرسته التي أنشأها بمدينة عدينة[2] وكان ملكاً جواداً كريماً رؤوفاً عطوفاً لم يكن في ملوك عصره مثله.

ومن مآثره الدينية مدرسته بتعز والزيادة الشرقية في جامع عدينة تعز[3] وجامع المملاح

---

(١) سناح لعله الذي في جنوب مركز قعطبة من بدر وحجر.

(٢) لا تزال مدرسته عامرة وهي في لحف قلعة تعز القاهرة ولها منارتان وهي من أجل ما أبقته الأيام من تراث هذه الدولة إلا أنها تحتاج إلى صيانة لا سيما الأساس وبعض الجوانب.

(٣) ومن مآثر الملك الأشرف أحواض الأشرف التي نسبت إليه كذا في الخزرجي وقد دخلت اليوم الأحواض والمسجد هنالك فيما يسمى الحجملية ويقع غربي طريق السابلة إلى الجند وغيره.

بزبيد وعدة سبل وهو الذي أحدث بستان سرياقوس الأعلا في وادي زبيد وغرس فيه عجائب من الأشجار وكان غاية في الظرف واللطف ومكارم الأخلاق ومحبة العلماء وكان متفنناً في العلوم مشغولاً بها . .

وأعلم أن المنصور الكبير عمر بن علي وولده المظفر والأشرف والمؤيد ولد المظفر والمجاهد وله المؤيد كان لهم قراءة في العلم ومشاركة قوية في الفنون وذكر بعض العلماء أن المظفر والمجاهد كانا أعلم من المؤيد وكان للمجاهد معرفة بعلم الفقه وعلم الفلك والنجوم والرمل وغير ذلك وله نظم بديع ونثر له ديوان شعر وللأفضل تاريخ في أهل اليمن ومن دخلها من الصحابة وكان لولده الأشرف مشاركة وولد الأشرف الناصر أحسن من أبيه مشاركة وله اطلاع على الكتب وعناية بالتحصيل والله أعلم(١) .

الفصل الثالث عشر
في ذكر دولة الملك الناصر أحمد بن إسماعيل الأشرف

اعلم أن الأشرف كان قد استخلف ولده الناصر في أيام مرضه فحملت راياته وزفت ذلك اليوم وكان السيري قد حط على حصن الحمرا (٢) وساعده ابن مهدي صاحب سناح فخرج الناصر في أول ولايته فأخذ سناح وغيره ورفع السيري في مكانه ونهب ما معه ثم عاد منصوراً ثم قصد أخذ بني سيف(٣) لذنب حصل منهم وتشويش فأباد الأقران وأسر الأعيان ثم خرج إلى بلاد الأساودة(٤) فسلموا حصونهم بالرضا منهم ثم عاد إلى تعز وحصل من أهل صبر خيانة فقصدهم لأجلها فأخرب بلادهم وحصونهم وأهلك كثيراً منهم ثم توجه إلى زبيد وخرج إلى المعازبة فطلبوا الذمة فأذم عليهم ثم قبض جبل الرماة(٥) ثم إن المعازبة أخذوا بلاداً للمناقرة فأغار عليهم يوم ثاني الوقعة فأباد منهم أمماً وقتل جمعاً كثيراً فكان سبباً لتركهم الخلاف ثم ولى عليهم امرأة منهم ولم يحدث بعد ذلك حادث.

وفي شوال من سنة ثلاث وثمانمائة وهي السنة التي استخلف فيها الناصر أخذ حصن

---

(١) للمؤرخين مفاضلات بين ملوك الغساسنة ذكرناها في التاريخ .

(٢) حصن الحمرا يطلق على حصون كثيرة لا نعرف أيها أراد .

(٣) بنو سيف قبيل وبلد من يحصب السفل شمال مدينة إب بمسافة مرحلة ولا زالت معروفة إلى اليوم .

(٤) لعلها من بلاد وصاب .

(٥) جبل الرماة شرق شمال مدينة زبيد .

المهور وهو حصن عظيم[١] وبه انحسم مادة الخلاف في مخلاف سهام وتلك الأطراف ثم طلع الملك الناصر تعز.

وفي أول سنة أربع وثمانمائة أخذ حصن ريمة وسائر ما هنالك[٢] وكان افتتاح هذه الأماكن على يد الأمير بدر الدين زياد بن أحمد الكاملي والطواشي نظام الدين خضير الخازندار الأشرفي ووفد على الناصر الشريف المنتصر [٣] في سنة سبع فوصله بمائة ألف دينار وفي سنة ثمان وثمانمائة أخذ السلطان دثينة[٤] قهراً وانتهب أموال أهلها.

وفي سنة تسع قصد مدينة جازان لتغلب حصل من صاحبها عن تسليم عادته ولم يجد بها أحداً وأقام بها ثم سأل صاحبها الذمة فأعطاه إياها فنزل إليه وأنعم عليه وجذبه إلى زبيد صحبة الأمير محمد بن زياد الكاملي.

ثم توجه الناصر إلى حلي فلقيه صاحبها إلى البرك[٥] بهدايا وتحف وترجل له ومشى تحت ركابه كبعض الجند وسأل منه إقالة العثرة وحمل إليه القران وقال البلد صغيرة لا تطيق وطأت مولانا السلطان فقبل منه وأمر بالرجوع إلى بلده سالماً بشرط أن يقود خمسين فرساً فامتثل ورجع الناصر جازان وأمر عليها أحد الأشراف من أقارب صاحبها وقلده أمورها ثم رجع زبيد فاستشفع إليه صاحب جازان بعلماء زبيد وصلحائها وكان محبوباً عند أكثر الناس كافة لفعله الخير فشفعهم فيه وخلع عليه وصرف إليه طبلخانة وأعلاماً وسيره إلى بلده مكرماً وولاه أمورها وشيعه الأمراء إلى بيت الفقيه.

وفي سنة إحدى عشرة وثمانمائة وصله أبناء سعد الدين صاحب (دكر) [٦] وما إليها مستنجدين على الخطا [٧] فلقياه بتعز فأكرمها ووعدهما النصرة.

---

(١) المهور بضم أوله معقل أعلا وادي سهام من الشرق في الشمال الشرقي من زبيد ويقال له اليوم جبل المهور وفيه آثار قديمة واعداده من الرامية وهو تحت جبل برع من الجنوب بينهما وادي التيمة وجنوبه وادي جاحف الذي يقع شمال حمام السخنة.

(٢) ريمة بفتح الراء وآخره هاءٌ وهي التي يسميها الهمذاني في كتبه جبلان باسم بطن من حمير وتارة جبلان ريمة واسماها الآخرون ريمة الاشابط باسم قوم من حمير كانوا عليها أمراء وقد سبق ذكرها.

(٣) هذا الشريف المنتصر من الحمزات كان ساكناً بصعده.

(٤) دثنية: بفتح الدال المهملة وكسر الثاء المثلثة ثم ياء مثناة من تحت ساكنة ثم نون وهاء مقاطعة في جنوب اليمن شرقي لحج ولعله سبق ذكرها راجع تاريخنا وصفة جزيرة العرب باخراجنا.

(٥) سبق الكلام على البرك.

(٦) دكر بفتح الدال المهملة والكاف وآخره راء بلد من الحبشة.

(٧) الخطا قوم من الاحباش راجع حاضر العالم الاسلامي للامير شكيب ارسلان فإنه أفاض في تاريخ المسلمين في الحبشة وعن الخطأ بالذات وكذا في صبح الأعشى.

وفي سنة اثنتي عشرة وثمانمائة انتقل الشيخ معوضة بن تاج الدين جد السلاطين (١) الخلفاء آل طاهر بـالوفاة إلى رحمة الله، وفي سنة سبع عشرة وثمانمائة قدم الشيخ طاهر بن معوضة بن تاج الدين ولد الذي قبله على السلطان فأكرمه إكراماً يليق به وأحسن إليه وإلى جميع من صحبه.

وفي سنة عشرين وثمانمائة قصد صاحب صنعاء بلاد بني طاهر (٢) آمنا السلطان فتهجز السلطان إليه فاجتمعا بموضع يقال له الصرم (٣) فانكسر الإمام وعسكره وقتل منهم جمع كثير وتبعهم السلطان إلى وادي خبان (٤) ثم رجع إلى المقرانة (٥) وكان قد أمر بعمارة دار النعيم بها فأعطاه البناة عند وصوله عشرين ألف دينار ثم سار إلى بلد العجالم ثم إلى أبين (٦) ثم إلى دثينة ثم إلى بلاد علي بن الحسام الزاهر (٧) لخيانة بلغته عنه ثم ظهرت له براءته فأعطاه مـالاً جزيلاً ثم عدن ثم إلى تعز ثم إلى زبيد فبلغه أن جهات إصاب (٨) حصل فيها فساد عظيم فقصد إصاب وأخذ أربعين حصناً من حصونهم ثم أخذ حصن ركنه زحفاً بنفسه ثم حصن قوارير (٩) قهراً على أهله ورتب على الحصون من قبله فأعجبه حصن قوارير فبنى فيه قصوراً مشيدة ودوراً شامخة وجعل خشبها من الصندل.

وفي سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة خالف عليه أخوه حسين فأخذ مدينة زبيد وتسلطن فيها ولقب بالظافر فنزل السلطان من تعز ودخل زبيد قهراً وقبض على أخيه حسين ومن

---

(١) لأول مرة ظهرت هذه أسرة آل طاهر التي صارت في ما بعد حاكمة اليمن كله.

(٢) من هذا يبدو أن آل طاهر كانت لهم ولاية على بلاد آل عمار وحبيش: الحبيشية والرياشية وبلاد رداع الجنوبية والشرقية والغربية إلى خبان من ذي رعين وكذا المقرانة وجبن ونحو ذلك وطالت ولايتهم لهذه المنطقة حتى تسمت باسمهم، والإمام هو الناصر.

(٣) الصرم بضم الصاد المهملة آخره ميم وهو مجموعة بيوت قلائل ولا زال يستعمل بهذا المعنى إلى عهدنا وهذا الصرم وهو الذي يسمى صرم بني قيس وهي بلدة قائمة في أسفل وادي بني قيس من خبان الشرقية المربوطة بقضا يريم.

(٤) وادي خبان بضم الخاء المعجمة وفتح الباء الموحدة آخره نون واد مشهور عظيم البركة ذو ينابيع وغيول كثيرة ومنه وادي سبان ويقع في الجنوب الشرقي من مدينة يريم بمسافة أربع ساعات.

(٥) المقرانة بكسر الميم قرية قديمة وسنفيض القول فيما بعد لأنها صارت عاصمة اليمن أيام السلطان عامر بن عبد الوهاب.

(٦) العجالم: قبيلة معروفة إلى هذا التاريخ.

(٧) بلاد علي بن الحسام لا أعرف عنها شيئاً ولعلها من بلاد الواحدي.

(٨) اصاب بكسر الهمزة وفتحها ويقال فيه وصاب وهو الأشهر.

(٩) حصن ركنه وحصن قوارير لا يزالان معروفين.

معه وقيده وأودعه دار الأدب بحصن الفص[1] ثم نقله إلى حصن تعز وسار السلطان إلى بيدحة فاتصل به العلم بأن أخاه حسيناً قد أحدث خلافاً آخر بتعز فطلع السلطان إلى تعز مبادراً، وحصره في الحصن ثلاثة أيام وأخذ الحصن قهراً وقبض أخاه وجعله بشعبات مترسماً عليه وأمر شقيقه الظاهر بكحله فقور عينيه فبقيت هذه سبة لبني رسول[2] ثم ندم الناصر على ذلك ولام الظاهر على المبادرة إلى ذلك ثم نزل الناصر إلى زبيد وأمر بعمارة المرسا الجديد بالفازة[3].

وفي سنة ثلاث وعشرين قدم عليه قاصد صاحب الصين بثلاثة مراكب عظيمة فيها من الهدايا النفيسة ما قيمته عشرون لكا من الذهب فاجتمع قاصده بالملك الناصر فلم يقبل الأرض بين يديه بل قال له: سيدك صاحب الصين يسلم عليك، ويوصيك بالعدل في رعيتك فقال له مرحباً بك ونعم المجيء جئت وأكرمه وأسكنه دار الضيافة ثم كتب الناصر لصاحب الصين كتاباً يقول فيه الأمر أمرك والبلد بلدك وهذا الخطاب عن قاصد ملك الصين للملك الناصر العاري عن اللطافة المتسربل بالكثافة يصدق الكلام الدائر على الألسنة من قولهم ملك الصين يظن أن كل الناس عبيده والظاهر أن فيهم حمقاً وجهلاً بأحوال البلاد وملوكها وإلا فالأدب موجب لمن تحقق من نفسه الكمال أن لا يخاطب غيره إلا باللطف والاجمال.

وفي سنة خمس وعشرين وصل ولدا سعد الدين منهزمين من الكفار الخطا إلى زبيد فجهز لهما السلطان مائتي فارس وأعطاهما مائتي فرس بما يصلهما من آلات الحرب وجهزهما إلى بلدهما مكرمين ولم يزل يجري لهما الخير حتى قويت شوكتهما.

قال الفقيه بدر الدين بن حسين بن عبد الرحمن الأهدل في تاريخه استخلف الناصر أحمد بن اسماعيل وهو يومئذ شاب كامل واستمر على الملك غير منازع نحو أربع وعشرين سنة وتكرر نزوله إلى البلاد الشامية وربما أقام بالمهجم وأبيات حسين والمحالب وحرض وربما بلغ جازان وكان له مشاركة في العلوم واطلاع على الكتب وعناية بتحصيلها إلا أنه أحدث في آخر دولته مظالم كطرح الحرير بأكثر من ثمنه وتقريب المبتدعة كابن الأنف[4]

---

(١) الفص فرع من حصن قوارير وبيدحة مقاطقة.

(٢) واي سبة مثل هذه الفعلة الشنعاء وكان يعملها الديلم والأتراك في بني العباس ببغداد.

(٣) الفازة تقدم ذكرها.

(٤) ابن الانف لعله إدريس الذي له مؤلفات في التاريخ وكتب في مذهب الباطنية لا تزال موجودة كما أن لبني الانف بقية في همدان الدنيا.

والكرماني المتصوفة وابن روبك [١] حتى ضاقت الناس من ذلك وربما خوف المناصب [٢] بنقص مسامحاتهم [٣] فأخذت عليه غالب حصون الجبال، وخرج عليه أخوه حسين مرتين في ولايته وأولع في آخر عمره بشرب الخمر، ولم يكن يعرف بذلك في أكثر ولايته واشتغل بتحصين حصن قوارير المعروف وأكثر فيه البناء والتجصيص وجمع الأموال وما يحتاج إليه من الشحنة وسمع من ابن الأنف الإسماعيلي أشياء من مذهب السمعلة [٤] والإلحاد وتحريف القرآن والحديث ولذلك لم يكد يقبل إنكار الفقهاء لمذهب ابن عربي [٥] انتهى كلام الفقيه حسين رحمه الله تعالى وهو غير خال عن تحامل لا يليق بمثله ولكن هذه عادة جرت من المؤرخين سامحهم الله تعالى [٦].

وفي أول دولة الناصر ظهر محمد بن أبي القاسم بن نجاح الأشعري الذي تضرب العامة به المثل فيقولون «ملك نجاح ساعة وراح» وكان قد جمع أموالاً عظيمة فاستكثرها وقصد زبيد وحاول الملك فلم يظفر منه بشيء ولم ير في زبيد إلا مقتولاً وكان ظهوره وقتله في تاسع عشر ربيع الأول من سنة ست وثمانمائة والملك الناصر هو الذي عمر المرسي بساحل وادي زبيد وصرف فيه مالاً جزيلاً وعمر حصن الفص بقوارير وعمر هناك عدة مواضع وأحدث فيها دوراً كثيرة منها الترنجة والقاهرة وأنشأ ببيدحة دارين عظيمين ومجرى وبساتين وساق لها الماء من مكان بعيد والدار الكبير بزبيد من عمارته وإليه ينسب.

وفي أيامه بنت الحرة جهة فرحان زوجة أبية الفرحانية بزبيد وبركة مسجد الأشاعر بزبيد [٧] وكان جماعة مسجد الأشاعر قبل إنشاء البركة قليلين فلما أنشأتها كثر جمعه وارتفق بها الناس كثيراً.

---

(١) لا أعرف عن المذكورين.

(٢) المناصب جمع منصوب وهم الذين يخدمون ضريح الأولياء ومشايخ الصوفية.

(٣) المسامحة هو عفوهم عن أخذ زكاة أموالهم العقارية لأنهم مصرف للزكوة لفقرهم.

(٤) السمعلة اعتناق مذهب الاسماعيلية وهم الباطنية والكلمة من باب النحت مثل الحمد له والبسملة والحوقله وغير ذلك.

(٥) ابن عربي أحد رجال الصوفية المشهورين صاحب كتاب الفصوص وغيره وهو مشهور ومترجم له وكتبه مطبوعة.

(٦) المؤرخ النزية هو الذي يأتي بالحقائق بدون ميل وما قاله الأهدل وهو معاصر للأحداث المذكورة يرافقه الصواب فإبراز الحقائق على وجه الصحة فيها زجر وتأنيب للملوك الطغاة الذين يأتون بعده ويرتكبون جرائم أعظم من هذا.

(٧) لا زال مسجد الفرحانية قائماً وكذا بركة مسجد الاشاعر.

وكان الناصر موصوفاً بالكرم والحلم يرفع إليه ما لا تحتمله الملوك فلا يستفزه غضبه ولم يذم منه بشيء سوى ما فعله بأخيه حسين ولم يزل قائماً بأمور المملكة حافظاً لها في التهائم والجبال حتى انتهت مدته وانتقل إلى رحمة الله تعالى في جمادي الأولى سنة سبع وعشرين وثمانمائة شهيداً [1] بقصره في حصن الفص من قوارير فحمل إلى تعز ودفن إلى جنب أبيه الأشرف بالمدرسة الأشرفية بذي عدينة من مدينة تعز.

واعلم أن رجال دولة الناصر كانوا كثيرين وكبراء الدولة كانوا متوافرين فانقرض منهم في حياة الناصر جماعةٌ كالشمسي والوزيران معيبد شهاب الدين والجمال المصري والغياث حسان وأبي بكر السنبلي ومحمد السنبلي ومحمد اللطيفي ومحمد بن زياد الكاملي التركماني وغيرهم والله أعلم.

الفصل الرابع عشر
في قيام الملك المنصور عبد الله بن أحمد

كان عدلاً شجاعاً ذا دين متين أزال منكرات كثيرة وأثار ساكن عزم أهل السنة وكان له قراءة قبل ولايته في الفقه والعربية ولذلك أبطل على النساء الغناء بالباب إلى أن انقضت أيامه وأبعد الكرماني عن بابه مدة ملكه ولم يقبله وكان ذا رأي وتدبير لسياسة الملك على صغر سنه جواداً ممدوحاً محباً للفقهاء والمساكين يحضر صلاة الصبح مع الجماعة بمسجد الأشاعر بزبيد وبالجامع المظفري بعدينة.

قال الفقيه حسين الأهدل بذل المنصور العـدل بلسانه وخطوطه فلم يتم له ذلك لقلة المال الذي بيده فأحدثت مظالم ونزل إلى أبيات حسين في آخر سنة تسع وعشرين وجبا أهل بيت حسين بلا حجة جبا الطعام نحو سبعة آلاف دينار ومعظم الظلم في ذلك كان بقرية الفقهاء بني حجاج وصادر القاضي أبا بكر محمد بن إسحاق مصادرة شاقة وصادر أخته وزوجة أبيه الناصر وأخذ منهما مالاً كثيراً.

وكان انتقاله إلى رحمة الله تعالى سنة ثلاثين وثمانمائة في شهر ربيع الآخر وكانت مدة ملكه ثلاث سنين إلا قليلاً وكانت وفاته بمدينة زبيد فحمل إلى تعز وجعل عند جده الأشرف بن الأفضل وعند والده بالأشرفية رحمة الله عليهم أجمعين.

---

(١) لم يبين سبب استشهاد الملك الناصر كما أنا لم نقف على حقيقة ذلك.

الفصل الخامس عشر

في قيام دولة الملك الأشرف إسماعيل بن أحمد الناصر الغساني

كان الأشرف المذكور عند موت أخيه المنصور صغير السن لم يختن بعد فتولى الملك جماعة من أعيان الدولة وجعلوه صورة فاختلفت كلمتهم وتفرقت آرائهم وكثر في أيامه فساد العرب وانتهبوا الضعيف وحدث في سنة ولايته جدب عام وأكل القوي الضعيف لضعف السلطان وظهر الضرر بضعفه كما قال الإمام عبد الله بن المبارك[1]:

الله يدفع بالسلطان معظلة عن ديننا رحمة منه ودنيانا
لولا الأئمة لم تأمن لنا سبل وصار أضعفنا نهباً لأقوانا

فلما رأى كبراء دولته قبضوا عليه وأخرجوا عمه يحيى بن الأشرف وهو شقيق حسين الخارج على الناصر وكان في حبس أخيه الناصر بثعبات ولقب بالظاهر في جمادي أو رجب من سنة إحدى وثلاثين وثانمائة فقام قياماً مرضياً في حسم الفساد وكان قبض كبراء الدولة للأشرف بدار المملكة من مدينة تعز المعروف الأخضري ونهبوا الدار وما فيه وكان وزيره ومدير مملكته القاضي شرف الدين إسماعيل بن عبدالله العلوي فلازم خدمته ونصيحته حتى خلع ولزم ابن العلوي معه وقتل نور الدين ابن المحالبي وابن الحسام وابن سبا.

ولما بويع الظاهر وتمت بيعته ركب إلى دار العدل بتعز ثم أرسل بابن أخيه الأشرف بن الناصر تحت الحفظ إلى حصن الدملوة فسجن هنالك إلى أن مات فكانت مدة ملكه سنة وشهرين رحمه الله تعالى.

---

(١) هو الإمام الكبير عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي أبو عبدالله المروزي الحافظ روى عن هشام وسليمان التيمي وخلق وعنه سفيان الثوري وسفيان بن عيينة ومحمد بن الحسن وامم وهو حافظ زمانه في الحديث ونقد الرجال أحد علماء الجرح والتعديل حج سنين متعددة وله زهد مشهور اتفقوا على ثقته وجلالته وأخرج له الاربعة وصنف كتباً كثيراً مولده سنة ١١٨ ثماني عشرة ومائة ومات سنة ١٨١ واحد وثمانين ومائة.

الفصل السادس عشر

في ذكر دولة الملك الظاهر يحي بن إسماعيل الأشرف ابن العباس الأفضل الغساني

لما خلع الأشرف بن الناصر عن الملك كما ذكرنا انعقد الإجماع من كبراء الدولة على إقامة عمه السلطان الملك الظاهر فقرب القاضي محمد بن إسحاق وكان هو الغالب عليه وصادر القاضي شرف الدين العلوي مصادرة شاقة وأخذ منه نحو مائة ألف وذلك لأنه كان يعتقد أنه لو أراد لما تمت الولاية لولدي أخيه المنصور والأشرف ابني الناصر مع وجوده وكبر سنه ومنزلته.

ولما تمت له البيعة عاتبه بشيء من ذلك فقال له يا مولانا نحن جند النصيحة والصدق وقد أخذ علينا المرحوم الملك الناصر العهود والمواثيق بالولاية لولديه فوفينا له بالعهود وأمضينا تلك العقود حتى أقامك الله علينا فنحن الآن نخدمك بالنصيحة والصدق فلا نغش ولا نخون واستحسن كلامه وشكره وأبقاه وفي نفسه منه أشياء فهذا سبب تنكيل الظاهر به وبأهله على التحقيق لا ما اشتهر عند العامة أن سبب ذلك إمرأته بنت الشيخ محمد المرجاني فإنه لما سعى في طلاقها مبالغة استكمال ضرره في أهله وماله[1].

وبعد عامين من ولايته نكل بالجند الذين خلعوا ابن أخيه أشد النكال وكانوا قد طغوا وبغوا وزعموا أنهم يقيمون من شاؤوا ويخلعون من شاؤوا فأبادهم قتلاً، وتغريقاً ونفياً وتفريقاً، ثم صادر الشرف العلوي كما ذكرنا ثم أطلقه وأظهر له الرضا وراسل زوجته بنت الشيخ محمد المرجاني وأمرها أن تطلق منه وكانت تحبه فأطلعته فطلقها خوفاً على نفسه فلما طلقها عقد له الولاية على مدينة المحالب فتوجه إليها فلما انقضت عدة زوجته أرسل لها السلطان وهو بموزع وكيلاً له فتزوجها له ونقلت إليه فلما انتهى الخبر إلى الشرف العلوي وكان قد أوصى من يثق به أن يعلمه بدخول الظاهر عليها وكان يقول متى دخل عليها لا تبقى لنا باقية فلما علم بدخوله عليها خرج من المحالب خفية إلى قرية بقرب اللحية فركب البحر ولحق بمكة فاغتاظ الظاهر لذلك فأمر أن يقبض أخاه الشهاب العلوي ويقبض بيوتهم وأموالهم حتى اوقاف مساجدهم واستجار الشهاب العلوي ببيت الغزالي بن طلحة الهتار

---

(١) وأي أعظم من هذا السبب الذي أجبره على فراق أهله وشريكة حياته وأحب الناس إليه والسببان اللذان ذكرهما المؤلف واضحان وأخبار العامة كثيراً ما تصادف الحقيقة وتكشف الواقع وفي المثل العامي « ما علم يخرج من تحت حجر » أي أن لكل شيء أصلاً.

فقالوا له لا نقدر أن نجيرك من السلطان فلجأ إلى مدرسة أم السلطان الفرجانية بزبيد فأرسل السلطان من قبضه منها فجيء به صائماً حاملاً للقرآن على رأسه حتى وقف بين يديه فأمر بضرب عنقه فقتل لفوره في شهر رجب من سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وأخذ بجرم غيره [1] ظلماً وعدواناً ثم هدم بيوت بني العلوي واستصفى أموالهم.

وأما الشرف العلوي فلم يزل مقيماً بمكة إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى في سنة خمس وثلاثين مسموماً [2] وكان أمير الركب المصري قد طلبه وأراد أن يعطيه ألف مثقال وكسوة فخاف منه فخرج من مكة خفية إلى اليمن فأقام بالقويز بزاوية الطواشي [3] ثم رجع إلى مكة وزار المدينة ثم رجع إلى أن استشهد فيها كما ذكرنا في تاريخه.

وكان رجال الظاهر بنو السنبلي من أولاد المماليك الكبار واستوزر القاضي يوسف بن العراف ثم تقي الدين عمر بن القاسم بن معيبد ثم الشهاب المحالبي وغلبت العرب على حرض فلم يكد يثبت بها أمر وكانوا قد قتلوا اللطيفي ومحمد السنبلي ومملوكاً كان أميراً وهرب جماعة من الأشراف والأمراء بعد ذلك وخربوا الدار به.

وفي سنة أربع وثلاثين خرج نحو أربعمائة عبد الى المحالب مخالفين وسكنوا بلاد الواعظات وبلاد بني نشر [4] وأغاروا على تهامه ونهبوا وخليت المحالب من الناس حتى نزل السلطان الظاهر فأصلح المعازبة وغيرهم من العرب ثم قدم المهجم وبلغ المحالب ثم رجع غير ملتفت على العرب والعبيد الخارجين ووقف في المحالب وفي بيت حسين والمهجم أياماً ثم رجع زبيد ووقف في المحالب الشهاب الصباحي وأصطلح مع العبيد بعض صلح ونزلوا إليه ثم وقع بينهم وبين الصميين، قتل وحرب ثم بينهم وبين الواعظات ونهبوا وقتلوا جماعة من العبيد فأجتمعت الواعظات والصميون وغيرهم وهجموا المحالب بسبب العبيد وسبوا من نسائهم وأولادهم نحو مائة نفس وذهبوا بهم إلى بلادهم وخرج الصميون من الواسط [5] إلى بلاد الواعظات ثم ان الملك الظاهر أرسل لأهل واسط أماناً وذمة وأن لا شيء عليهم فرجعوا واستقروا ببلادهم.

---

(١) أي طغيان أعظم من هذا.

(٢) كأن الظاهر أرسل للعلوي من يقتله بالسم كما هي عادة الطغاة.

(٣) لا يعرف هذا المحل اليوم.

(٤) الواعظات قبيلة كبيرة من عك بن عدثان ثم من الأزد وهم في وادي مور لهم بقبة ضخمة في الأصل « بني كشر » إنما هم بنو نشر بالنون أول الحروف وهي قبيلة وجبال تطل على الواعظات وأما كشر بالكاف فجبل ووطن وقبيل من جحور الشام وشمال عن الواعظات والصميون هم حلال الواعظات في مور.

(٥) واسط تقدم ذكرها بلدة من مور قائمة اليوم.

وفي سنة خمس وثلاثين قدم على السلطان الشيخ الأجل شمس الدين علي بن طاهر بن معوضة بن تاج الدين العمري [1] إلى مدينة تعز وواجهه بدار الشجرة.

وفي السنة التي بعدها اتفقت الصهورة المباركة بين الملك الظاهر وبين الشيخ علي بن طاهر ابن معوضة فتقدم الفقيه علي بن محمد الحميري وكيلاً للسلطان في زواج ابنة الشيخ طاهر بن معوضة وتقدم معه الأمير عفيف الدين عبد الله بن محمد الشمسي ومن الفقهاء الفقيه عبد الوالي الوحصي والفقيه أبو بكر بن محمد العرشاني [2].

وفي هذه السنة وهي سنة ست وثلاثين وثمانمئة نزل الشهاب المحالبي إلى الأعمال الشامية ورجع الأمير يشكر العدني وكان بالمهجم وحصلت غارات من العرب بنواحي الكدرا من سهام ونهب وقتل وغارات أيضاً من العرب إلى بلاد الواعظات وغيرها ثم قتل الشيخ جازم بن موسى السنمي في جماعة من العسكر على يد الواعظات وحرقت العرب قرية الاشراف بني الرديني [3] وحرق فيها نحو مائة نفس أكثرهم نساء وأطفال وحصلت غارات في نواحي ذوال ونواحي زبيد من الغز والعرب واشتد الخلاف.

وفي السنة التي قبلها وهي سنة خمس وثلاثين احترق جبل في البحر بين كمران ودهلك ظهرت فيه نار ودخان وربما سمعت قواصف رائعة لمن سمعها أخبر الثقة أنها سمعت من اللحية وكان دخانه يرى من نواحي سردد كالسحاب المركوم ولما احترق جميعه ظهرت النار في جبل آخر من تلك الأجبل وهي سبعة وتسمى الابعلة ولا شك أن ذلك من آيات الساعة [4].

ثم ان السلطان نزل إلى سهام ثم إلى سردد فدخل المهجم فقدم عليه بنو سبا [5] مذعنين للصلح وتقدم السلطان إلى المحالب وجهز الأمير أبا القاسم السنبلي إلى حرض فتقدم ودانت له العرب وأصطلح الأمر الصميين ثم أمر على الواعظات ثم رجع السلطان إلى زبيد آخر شوال وفي آخر السنة المذكورة قصد الواعظات المحالب وأخرجوا الغز وأحرقوها

---

(١) من هنا ابتداء هذه النغمة بنسبة آل طاهر إلى عمر بن عبد العزيز كما نبين ذلك فيما يأتي.

(٢) الوحصى نسبة إلى قرية الوحص غربي ذي السفال والعرشاني نسبة إلى عرشان بلدة في أعمال ذي جبلة ومنها الحافظ العرشاني المشهور ـ راجع طبقات ابن سمرة والجندي.

(٣) غير معروفين.

(٤) هذه النار هو ما يسمى اليوم بالبركان راجع دائرة المعارف الأسلامية والجبال المذكورة لا تزال معروفة بهذا الأسم.

(٥) قبيلة من حمير لها بقية وهم شمال وادي مور.

وكان السلطان أمر ببناء درب على المحالب فكمل بعد قصد الواعظات المحالب بنحو شهر فتحصنت بالدرب والأبواب.

وفي صفر من سنة ثمان وثلاثين ظهرت النار في جبل الابعلـة المقدم ذكرها وكان يسمع دويها كالرعد من أمكنة بعيدة كاللحية والحردة [١] وما قاربها من البراري.

وفي شوال من السنة المذكورة وقعت فتنة بين مناسكة عرج بندر ساحل سردد [٢] فقتل من بني حمزة وأصحابهم المقاصرة نحو خمسين رجلاً، وخرجت القرية، وفي هذه السنة تخوف الكرماني المتصوف من الظاهر فهرب من زبيد من زاوية ابن عجيل إلى البلاد الشامية ويقال إنه كان بينه وبين العباس مواطأة على الخروج على الظاهر فأقام الكرماني في جازان حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى بها في سنة إحدى وأربعين.

وفي سنة ثمان المذكورة خرج العباس بن الأشرف على أخيه الظاهر ولجأ إلى العبيد الخارجين وهـم في المسـاقـي ونـواحيهـا واجتمعـوا هـم والواعظـات على الخلاف وأغـاروا على المحالب في صفر من سنة تسع وثلاثين فهزموا وقتل منهم أكثر من مائة رجل على يد الأمراء والعرب بني حفيظ وغيرهم ولهذا التاريخ أغارت المقاصرة وبنو حمزة المناسكة على قريتهم في القرين ونصرهم الزيـديـون [٣] فكـانـت الدائـرة على بني حمزة والمقـاصرة فقتـل منهم نحو ثمانين ولما أنكسر العباس والعبيد أرسل السلطان بكسوة للأمراء والنقباء ولبني حفيظ وشكر الجميع وأمر بمال للعسكر وبهذه السنة ظهرت النار أيضاً في جبل آخر من الأبعلة وفعلت كما تقدم وفي أول سنة أربعين وثمانمائة نزل العباس من المساقي لمصالحة أخيه على يد المناصب فتقدموا به إلى زبيد وصحبته الصباحي الوزير فرده الظاهر إلى سلامة حيس ثم أطلعه ثعبات وجعل في [٤] بيت وعليه حفظة وخدام حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى في عامه.

وفي سنة أربعين المذكورة دخل الطاعون مدينة صنعاء ونواحيها ومات خلق لا يحصون وكان ابتداؤه في سنة تسع وثلاثين في بربرة وعدن ثم مشى إلى لحـج وأبين ثم إلى نواحي تعز ثم دخل ثعبات وكان يموت في اليوم الواحد من الخمسمائة إلى الألف أكثرهم فقهاء تعـز

---

(١) الحردة اليوم مجهولة واللحية بضم اللام مدينة على الساحل مشهورة معروفة على وادي مور.

(٢) المناسكة قبيلة معروفة إلى هذه الغاية وعرج بالتحريك بلد هناك.

(٣) القرين بالضم قرية والزيديون قبيلة أيضاً وإليهم تنسب مدينة الزيدية الموجودة في عصرنا والواقعة على شط سردد.

(٤) لعل وفاته على الطريق المعروفة عند الطغاة إذا أرادوا التخلص من الضد دسوا له السم أو نحوه.

ونواحيها منهم الحافظ جمال الدين محمد ابن أبي بكر الخياط وقاضي تعز العرشاني وقاضي الدملوة وجمع من الفقهاء والمشايخ ووجوه الناس ويقال إنه هلك من أهل عدن فيه بضعة عشر ألفاً على التقريب ومن تعز كذلك وما بينهما أكثر من ذلك وخربت قرى كثيرة وتهدمت بيوت على أهلها فتصدق السلطان الظاهر بصدقات كثيرة وأمر بقراءة القرآن وقراءة صحيح البخاري وبالدعاء له وللمسلمين وهذه السنة يؤرخها العوام بسنة الجفلة.

وممن مات بصنعاء بالطاعون أمام الزيدية علي بن صلاح وكثير من أعيانهم وفقهائهم وقام بعد علي بن صلاح ولده فعاش نحو نصف شهر ثم قضى ولم يبق من أهل بيته سوى إمرأة وبقي مولاه الأمير قاسم الملقب بسنقر في دست الأمارة فحفظ البلد والأموال والمفاتيح نحو شهرين حتى اتفقوا على قيام صلاح بن علي بن أبي القاسم وكان أبوه من أعيان علمائهم فبايعوا ولده هذا [1] ثم سرى الطاعون إلى صعدة وبلاد جحة وشظب والعمشية [2] ثم خاف الأمير سنقر على نفسه من صلاح بن علي فاحتال عليه حتى سجنه مقيداً وأقام صبياً من بيت علي بن صلا ثم أطلق صلاح بن علي فخرج إلى ناحية صعدة وأقيم ولد بنت الإمام علي بن صلاح وأبوه من بني المنتصر.

ولم يزل الملك الظاهر قائماً بأعمال الخلافة حتى انتهت مدته فانتقل إلى رحمة الله تعالى في شهر رجب من سنة اثنتين وأربعين وثمان مائة بمدينة زبيد فتولي تجهيزه شيخ الإسلام الطيب الناشري وقاضي الشريعة أحمد بن علي الناشري ثم نقل إلى تعز وقبر بمدرسته الظاهرية [3].

ومن محاسنه أنه أبطل ضمان الحسبة والمحناط [4] ورد كثيراً من المظالم على أهلها ومن مآثره الدينية مدرسته بتعز والتربة الفرحانية بظاهر مدينة زبيد [5] وفيها قبر والدته جهة فرحان وعمارة منارة مسجد الجند الشرقية بعد أن خربت [6].

وكان مدة ملكه أحدى عشرة سنة وأياماً وسلك في دولته على إحياء السبوت في أيام

---

(١) راجع تاريخ الأئمة الزيدية.

(٢) هذه الأماكن سبق التعريف بها.

(٣) أنا أدركت من هذه المدرسة في سنة ١٣٥٦ هـ منارتها العظيمة التي كانت مشرفة على الانهدام وعلى أنقاض الجامع وبعض جوانبه ويقع تحت القاهرة من الشمال الشرقي داخل السور وفي حافة إسحاق واليوم لا عين ولا أثر إذ أصبحت مباني بيوت ومساكن.

(٤) كأنها كانت جباية تؤخذ باسم توظيف للحسبة ومكس من المحناط.

(٥) لا تزال وهي متشعثة تحتاج إلى إصلاح.

(٦) لا وجود للمنارة الشرقية في جامع الجند وإنما توجد المنارة الغربية ولعلها من عمارة السلطان عامر بن عبد الوهاب بن طاهر.

النخل بزبيد والاجتماعات العظيمة والفرح المشتملة على أنواع بما لا يرضاه أهل الدين وهبت بدولته رياح أهل الغنا والشعر ومدحه جماعة من الشعراء منهم الفقيه عبد الله المزاح والمهرس الأشعري [1] وغيرهما وكان يجيز الشعراء الجوائز السنية وسعد بدولته أناس وشقى آخرون.

وذكر بعض علماء تعز في ترجمته أنه كان يتكلف أشعاراً غير معربة واسجاعاً غير معجبة

---

(١) المهرس الأشعري لا أعرف عنه شيئاً وأما عبدالله المزاح فهو ابن أبي بكر المزاح الموزعي كان شاعراً مفلقاً حفظ القرآن عن ظهر قلب وهو ابن اثنتي عشر سنة وكان يحب الشعر ولا يحسن نظمه فأمره خاله بحراسة زرع له وفي الزرع صبية صغيرة تسمى جملا وكانت تنفر منه وهو مولع بها فجاءت وجلست يوماً عنده تضاحكه وتريد أن تشغله لأنها قد أرسلت غنمها على زرع خاله فعجب من مضاحكتها له ثم شعر بالنكتة فاستتر في مكان مهجور وبات فيه فرأى سرداباً من ذهب والناس يحملون منه فظهر شخص كريه المنظر قال فزجرني من الذهب وأطعمني شيئاً كالعجين في حلاوة العسل وقال رزقك في هذا أجز هذا البيت:

وطيف عاد معك فلم يزدني ... على تسليمه وعلى وداعي

قال: فقلت:

طمعت بما تحيت المرط منه ... فلم أظفر بما تحت القناع

فقال ذلك الشخص: أحسنت والله أنت ثم انتبه وخاطره يموج بالشعر فمالبث قليلاً حتى جاء جماعة يطلبونه فعاتبه خاله على هربه وتفريطه في الزرع فقال جواباً لخاله مرتجلاً:

ألا يا خال عاتب أهل جمل ... ولا تعجل بسبي أو بضربي

رعت بالأمس زرعك ذا جناها ... فظلت ترتعي ثمرات قلبي

واشتهر بالشعر وما زال هواه بجمل حتى شب وشبت فخطبها إلى أبيها فاستام عليه مالاً كثيراً لم يكن في وسعه فمدح الإمام المنصور علي بن صلاح بن علي وأجاد في المدح فأركبه فرساً وكساه كسوة فاخرة وأعطاه خمسمائة دينار وأمره أن يعاوده كل سنة وعاد ليتزوج فوصل تعز وأخبر أن جملا تزوجت فقال بعد أن أغمي عليه:

لقد أخبروني أن جملا تزوجت ... وأفضى إلى تلك المحاسن زوجها

فبت كأني في غوارب لجة ... تقاذفني في ظلمة الليل موجها

ومما قاله في مدح الإمام المنصور بالله علي بن صلاح قصيدته التي أولها:

وكيف لا تخضع الدنيا لها ولها ... أمامنا الملك المنصور سلطان

ملك تدفق في إمكان ساحتها ... من جود كفيه أنهار وخلجان

فيا له ملك عمت مهابته ... يصول فيها فتخشاه خراسان

كأنه وملوك الأرض خاضعة ... من حول كرسيه فيها سليمان

مطلع البدور:

قال البريهي في تاريخه ومات المزاح في سنة ٨٣٠ ثلاثين وثمانمائة لعل في هذا التاريخ وهماً ولم يكن عند الطبع مراجع.

وأنه لم يكن له ما كان لأخيه الناصر عن المشاركة في العلوم والاطلاع، وفي أيامه بنى خازن داره الأمير برقوق الظاهري مسجد الأشاعر بمدينة زبيد في سنة إثنتيت وثلاثين، وخلف الظاهر أولاداً أكبرهم الأشرف الآتي ذكره والمؤيد حسين وأحمد رحمة الله عليهم أجمعين.

الفصل السابع عشر

في دولة الملك الأشرف إسماعيل بن يحيي الظاهر الغساني.

ولما انتهت مدة ملك الظاهر كما ذكرنا أجمع أهل الحل والعقد على إقامة ولده الأكبر السلطان الملك الأشرف إسماعيل خليفة فبايعوه وتمت بيعته له فلما استقل بالملك دانت له البلاد والعباد ومشى على طريقة والده وظهرت للناس بسالته وكان يومئذ شاباً فسفك الدماء من رجال ونساء وشدد على العرب بالغارات إلى آخر سنة ثلاث وأربعين، وكانت الحرب بينه وبينهم سجالاً ولم يتفق هو والعرب إلى آخر السنة المذكورة لتشديده عليهم وتزايد الشر بينه وبينهم وكان أميره بالمهجم إسماعيل المحالبي فبطلت أحكامه لقوة العرب الزيديين فمكث بطالاً مدة ثم ان العرب خربوا المهجم ونهبوها وأحرقوها في سنة ثلاث وأربعين ثم جاء عمر الصنعاني أميراً فأقام في المهجم وتراجعت الناس قليلاً ثم ان العرب قتلوه في بعض الليالي وخربوها مرة ثانية وكان الأشرف المذكور شجاعاً قوي القلب ذا إقدام ونجدة يقال إنه لم يكن في أيامه مثله في ذلك يباشر الأمور بنفسه وكان يلقب المجنون لشدة إقدامه وجرأته.

وفي صفر من سنة ثلاث وأربعين هجم القرشيون قرية المملاح بظاهر زبيد ونهبت القيسارية وللأشرف عدة وقائع له وعليه فمنها يوم العذيب [1] وهو دار والده بالنخل اجتمع فيه القرشيون والمعازبة فقصدوه إلى دار العذيب فكسرهم كسرة شنيعة وقتل من القرشيين خمسة وثلاثين رجلاً ومنها يوم الغص [2] قُتل فيه منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً ومنها يوم العرمة [3] وهو عليه قتل فيه القرشيون من عسكره جمعاً كثيراً وهربوا إلى قرية التحيتا [4]

---

(١) العذيب بضم أوله وآخر الحروف باء موحدة قد حدده المؤلف.

(٢) لا أعرف عن هذا المكان شيئاً.

(٣) العرمة: سلف ذكرها.

(٤) التحيتا: بضم التاء المثناة من فوق وفتح الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحت ثم مثناة من فوق وألف قرية كبيرة عامرة بالمساكن الكثيرة والمساجد في الشمال الشرقي من مدينة زبيد بمسافة ثلاثة فراسخ تقريباً أو أقل وعليها الطريق إلى النخل والبساتين وقد شاهدتها.

يقتلون منهم ويأسرون ومنها وقعة القاهرة بينه وبين المعازبة قتل فيها من عسكره جمع كثير منهم الأمير شكر العدني والأمير عبد الله بن زياد وغيرهم ومنها وقعة المشيافة [1] بينه وبين القرشيين لم يسلم فيها من عسكره إلا اليسير ولم ينج إلا بنفسه ولم يبق معه شيء سوى دبوس بيده.

ومنها وقعة السماط المشهورة في جمادى الأولى من سنة خمس وأربعين عمل الأشرف سماطاً ببيت الفقيه بن عجيل وطلب مشايخ المعازبة ومشاهيرهم فلما قعدوا يأكلون أمر العسكر بضرب رؤوسهم فضربت على السماط رؤوس أربعين نفراً ولم ينج إلا القليل.

وله من المحاسن مأثرة لم يسبق إليها وهي البركة التي أنشأها بجامع زبيد من ناحية الشرق ولم يكن بالجامع بركة في زمن بني رسول فيما نعلم وإنما كان في جرار ومطاهر والظاهر ان البركة والمغتسلات وما إليها التي ظهرت في أيام السلطان السعيد صلاح الدين عامر بن عبد الوهاب كانت مجهولة لأن ابن مهدي لما استولى على البلاد هدم جامع الحبشة وهو جامع زبيد اليوم وبنى جامع المشهد وسكنت بقعة الجامع مدة فلما تولى بنو أيوب وأعاد الجامع المبارك بن كامل بن منقذ أعاده ولم يعلم بالبركة وما إليها فبقي من زمن بني أيوب إلى دولة الأشرف بن الظاهر المذكور لا بركة فيه فجعل الأشرف البركة فيه الشرقية فانتفع الناس كثيراً وجعل في الجامع المذكور أيضاً درسة يقرأون القرآن عقب كل صلاة ورتب لهم ما يقوم بهم رحمه الله تعالى.

وأما العرب والبلاد فلم يتمهد له إلى أن انسلخ شهر رمضان من سنة خمس وأربعين فانتقل إلى رحمة الله بدار السرور من مدينة تعز ودفن عند والده بالظاهرية.

وكان الأشرف بقية ملوك بني غسان المعتبرين وسنذكر في الفصل الآتي بقية المتولين منهم ولاية غير منتظمة لكثرة النزاع وافتراق الكلمة إلى أن طلعت الشموس الظاهرية فزحزت ظلمات الظلم عن البرية وبالله التوفيق وهو حسبنا وكفى والله أعلم.

---

(١) المشيافة لا أعرف عنها شيئاً.

الفصل الثامن عشر

في ذكر من تولى من آل غسان ممن ثبتت له من الخلافة اسمُها وانمحى عنه رسمها

أعلم أنه لما تولى الخلافة الأشرف بن الظاهر المذكور فر منه إلى وصاب ابن عمه المظفر يوسف بن المنصور عمر بن الملك الأشرف إسماعيل بن العباس وأقام بها عند الشيخ الصالح يحي بن عمر الذباني صاحب الصنحوج [١] مستجيراً فلما انقضت مدة الأشرف الظاهر أجمع أهل الحل والعقد على إقامة المظفر المذكور خليفة وقد كان الناس يلهجون قبل ولايته ويذكرون عدله وانصافه فتسلم الملك بوصاب ثم سار إلى تعز فنزل بدار الشجرة في موكب عظيم ثم ركب إلى دار النجا بتعز ولم يزل فخرج جماعة من الجند والترك الذين بايعوه عن الطاعة ونزل المماليك إلى زبيد صحبتهم بشك الخاصكي وكان صاحب شدة وبأس ففعل هو والمماليك أفاعيل منها أنهم أقاموا أسد الدين محمد بن إسماعيل بن عثمان بن الأفضل سلطاناً بتربة الطلحية [١] ولقبوه المفضل فدخل مدينة زبيد أول سنة ست وأربعين وصرف أموالاً كثيرة وادخل العرب زبيد وأعطاهم جملة من الخيل والسلاح حتى قويت شوكتهم وأخذوا نخل الوادي زبيد على أهله واقتسمه القرشيون والمعازبة ومنعوا أهله منه رأساً ثم اختلف القرشيون والمعازبة فاقتتلوا فاستقل القرشيون بالنخل ومنعوا أهله منه إلى ولاية الملك المجاهد علي بن طاهر كما سيأتي ذكره وجرت أمور ومفاسد عظيمة من العسكر بزبيد يطول شرحها فنزل من قبل المظفر الطواشي محسن والشهاب الصباحي والوجيه ابن حسان والشيخ شمس الدين علي بن طاهر فلما علم الطواشي نجيب بوصولهم وكان بزبيد لزم المفضل ولما دخلوا زبيد خرج نجيب بالمفضل إلى تعز فاستشهد من سنته [٣] في شعب الديار [٤].

وفي شهر ربيع من سنة ست وأربعين قتل بشك الخاصكي المفسد وقد كان خرج عن طاعة المظفر مع جماعة من أصحابه المفسدين وأقام بالقرشية وقصد زبيد غير مرة في أصحابه المخالفين فلم يظفر بشيء حتى قتل في التاريخ المذكور خارج باب النخل.

وفي الشهر المذكور قرىء منشور بجامع زبيد يوم الجمعة وصل من المظفر بأمان أهل

---

(١) الصنحوج في وصاب.

(٢) بتربة الطلحية كانها طلحة الهتار شيخ الصوفية.

(٣) هي سنة الطغاة وربما أنه قتل غيلة ومثل هذه الفوضى يجب حسمها بحكمة ولباقة وجلد وصبر.

(٤) شعب الديار غربي مدينة تعز.

زبيد ثم قدم نجيب في صحبته أربعون عبداً فلزم جماعة من أعيان البلد في الجامع بزبيد لفتنة أرادها فقتل وطرح وانتهب بيته واستجار الصباحي عند الشيخ إسماعيل بن أبي بكر الجبرتي[1] وافتدى محسن نفسه بألفي درهم فسلمها بعد أن نهب بيته ثم طلب العبيد جوامكهم فكتب إلى المظفر بذلك فلم يأتِ جوابه فنهبت العبيد الغلة من جميع الأرض حول زبيد واستدام ذلك ثم أظهر العسكر أن المظفر ضعف عن أمر الخلافة وخرج جماعة من العبيد إلى حيس فبحثوا عمن بها من أولاد الملوك فوجدوا أحمد الناصر بن الظاهر بن يوسف بن عبد الله بن المجاهد علي الرسولي فولوه سلطاناً ودخل إلى زبيد فنزل بالدار الكبير الناصري وفي خامس شهر رجب من السنة المذكورة سنة ست وأربعين اجتمع جماعة من العبيد إلى باب الدار وضرب نفيرهم وصاحوا صيحة واحدة منكرة (وصاروا لوقتهم ينتهبون المدينة ويقتلون من وجدوا) وانتهبوا من ربع الجامع والمعاصر وقصدوا بيوت التجار ولم يزالوا كذلك من ضحوة النهار إلى العصر وقتل من أهل زبيد أربعة نفر ومن العبيد واحد ولم يزل البلاء يتزايد حتى كان سادس شعبان خرج السلطان لمباشرة النخل بالوادي زبيد فقام نحو خمسين من عوارين آل زبيد[2] نحو الباب ليغلقوه وظنوا أنهم لا يغلبون فأغلقوا الأبواب إلا باب الشبارق فإنه لما أرادوا إغلاقه وجدوا عسكر السلطان عليه فرجعوا هاربين وتسوروا الدروب واستجاروا ببيوت المناصب فنهب عساكر السلطان البلد نهبا شنيعاً ثم قدم السلطان بعد المغرب فأمر بقتل من وجد من كبير وصغير فلم يبق لأهل زبيد باقية حتى أخرجوا ما في الآبار والمدافن ولم يسلم إلا بيوت جماعة من الدولة والمناصب وأصبحت زبيد كأن لم تغن بالأمس وتفرق أهلها شذر ومذر وسلم أكثر بيوت الجند[3] فلقب هذا السلطان بالخاسر لهذه الوقائع التي وقعت بأيامه قلت بل هو الكاسر[4] ثم لزم في ربيع الأول من سنة سبع وأربعين ثم خرج سالماً إلى الطليحة هو وأولاده وكان قيامه نحو عشرة أشهر.

ثم أقاموا بعده الملك المسعود أبا القاسم بن الأشرف المخلوع بن الناصر بن الأشرف وعمره ثلاث عشرة في ربيع الأول من سنة سبع وأربعين بزبيد فدخل عدن في ذي القعدة والمشايخ بنو طاهر بلحج من حزب المذفر وفي أنفسهم ما فيها من الاستبداد بالملك لما يرون

---

(١) ترجم الشرجي لاسماعيل ابراهيم الجبرتي في ص ٣٧.

(٢) كذا العبارة والصحيح من عواري أهل البلد فنون الجمع تحذف مع الإضافة كما هو معروف.

(٣) لم تظهر هذه العباوة ولعلها الجند إذ كان أصلها المجتبذ.

(٤) الأسد الكاسر هو المفترس للحيوانات شديد البطش أو من الكسر.

من ضعف المملكة وانحلال أمرها فقاومهم الملك المسعود وخرج من عدن ودخل لحج سنة ثمان وأربعين.

وفي آخر هذه السنة وقع باليمن طاعون عظيم وكان معظمه في الجبال.

وفي سنة تسع وأربعين قدم الأمير زين الدين جياش بن سليمان السنبلي إلى مدينة زبيد مقدماً من قبل المسعود فاصطلح هو والمعازبة ونابذ القرشيين فغزا الأشاعر إلى المخيريق فاخربها وغزا القرشيين ونزل النخل في أيامه وصحبه المعازبة والعبيد فحمل عليه القرشيون صبيحة مبيته في النخل في ربيع من سنة خمس وخمسين وثمان مائة وانهزم الأمير جياش وهرب العبيد والقواد وقتل الأمير يحي بن زياد وصهره عبد الله الدردباشي والمشد والقواد محمد بن معوضة ومولانا حمزة بن العادل وجماعة وكانت وقعة مشهورة تعرف بعذيب جياش ثم إن المسعود قصد تعز وحاصر المظفر بحصنها فضاق المظفر وأرسل إلى المشايخ بني طاهر فنزل إليه الشيخ عامر بن طاهر مناصراً له على المسعود فأقام بدار القسطال ليحارب المسعود من قرب فلم يزل الشهاب الصباحي يعمل الحيلة في اخزاج ابن طاهر من القسطال حتى انحاز إلى بلده راضياً مختاراً ولم يزل المسعود بدار الوعد من تعز حتى قام اليه المشايخ بنو طاهر مرة أخرى وأخرجوه من تعز سالماً بجميع ما معه في رمضان سنة اثنتين وخمسين فبلغ موزع ثم هقرة ثم عدن[1] في شوال.

ثم نزل المشايخ بنو طاهر والمظفر إلى لحج والمسعود بعدن في ذي القعدة وحصل بينهما لقاء فقتل من عسكر المسعود جماعة ثم ان المظفر ترك حصن تعز للمسعود فقبضه المسعود سنة أربع وخمسين.

وفيها حصل بمدينة زبيد وما يليها جوع عظيم ويعرف بسنة محرز ثم ان الشيخ علي بن طاهر نزل من بلده أول سنة ثمان وخمسين إلى جهة لحج بعسكر ضليع فقابلته عساكر الملك المسعود فنال منهم ونالوا منه ثم رجع إلى بلده وكان العبيد قد استفحل أمرهم واشتغلوا بالأمور وفعلوا الأفاعيل وغصبوا الأموال والإبضاع[2] وكان ابتداء فسادهم من أول أيام المظفر إلى خلافة المشايخ آل طاهر حتى انهم ولوا المؤيد حسين بن الظاهر بن الأشرف بزبيد في شعبان من سنة خمس وخمسين فلما علم المسعود بذلك نزل إلى زبيد فلم يدخلها بل استقر خارجها ليحارب المؤيد فأحبس من عساكر بمكر وخداع فرجع إلى تعز ثم إلى عدن وما

(١) موزع سلف ذكرها وهقرة: بفتح الهاء وسكون القاف ثم راء وهاء بلده حية جنوب موزع لمرحلة.

(٢) الابضاع جمع بضع وهو رحم المرأة وموضع العفاف منها.

زالت الحرب بينه وبين بني طاهر سجالاً حتى خلع نفسه وخرج من عدن سادس جمادى الآخرة من سنة ثمان وخمسين ودخلها المؤيد يوم السابع والعشرين منه فوقف بها إلى أن دخلها الملكان علي وعامر ابنا طاهر على ما سيأتي ذكر بيانه في الباب الآتي بعد هذا إنشاء الله تعالى.

فهذه جملة الخلفاء من بني رسـول كاملهم وناقصهم ومدتهم مائتان وثلاثون سنة إلا أشهراً والله أعلم وأحكم.

الباب الثالث

في ذكر الخلفاء من بني طاهر خلفاء المجد والمفاخر وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

في ذكر دولة الملك المجاهد شمس الدين علي بن طاهر وأخيه الملك الظافر صلاح الدين عامر ابني طاهر بن معوضة ابن تاج الدين القرشي الأموي العمري (١)

اعلم وفقنا الله وأياك أن الله تعالى بفضله لما أراد رحمة عباده وبلاده ومعاملة خلقه بلطفه وإسعاده شيد للعدل والأمن بنيانا وهدم من الجور والخوف أركاناً فهيأ نزول المجاهد علي

---

(١) للمرة الثانية يعيد المؤرخ الديبع بأوضح من ذي قبل نغمة نسب آل طاهر إلى الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز الأموي متأثراً بإحسان الملك عامر بن عبدالوهاب الذي كان يغدق عليه من الإحسان ألواناً ومن النعم عقياناً.

ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا.

ولم يسرد المؤرخ الديبع نسب آل طاهر إلى عمر بن العزيز كما فعل في «بغية المستفيد في أخبار زبيد» واكتفى بالإشارة هنا لأنه قد قصر عن عدة الآباء وتبقى على حالها إلى عمر بن عبدالعزيز متجاوزاً القرون والسنين ولسنا بصدد مناقشة ذلك.

وإنما نناقش بإيجاز هذه الاشارة العابرة التي أتى بها المؤلف.

ان هذه الدعوى لا تمت إلى حقيقة النسب المذكور بصلة وان آل طاهر من أرومة يمنية ونبعة يعربية من قبيلة الذراحن الحميريين سكان «جبن» تدر بحوالي الملك على سنة التطور والارتقاء فأول ما ظهروا كشخصيات مرموقة في أيام الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل ثم في الأيام الملك الناصر وقد كان لهم =

وأخيه الظافر عامر فنزل من بلادهما إلى عدن وقد قرر القواعد مع أهل الدرك بتلك البلد فلم يحل بينهما وبين أخذها أحد وذلك بعد سعي شديد وجهد جهيد وصبر حميد وترغيب وترهيب وتبعيد وتقريب مع مساعدة السعادة وجريان القضا بوفق الإرادة فدخلها المجاهد علي بن طاهر ليلة الجمعة الثالث والعشرين من شهر رجب من سنة ثمان وخمسين وثمان مائة ليلاً من السور بالحبال في جماعة قليلون[1] من عسكره من جانب حصن التعكر ثم دخلها أخوه الملك الظافر صبيحة الجمعة من بابها هو وباقي العسكر فاستوليا عليها ونفضا حصونها ورتّبَا فيها من قبيلهما من يثقان به وكان المؤيدين الظاهر بها فأحسنا إليه ولم يغيرا عليه وجعلاه في بيت وأجريا عليه النفقة واشتريا منه ما معه من الطبلخانة، والخيل والسلاح وغير ذلك.

وأما المسعود فبلغ في خروجه من عدن إلى العارة ثم إلى هقرة[2] واستجار بها عند الشيخ عبد الله بن أبي السرور نحو شهرين ثم خرج إليه العبيد من زبيد وراودوه على الدخول معهم إليه فاستوثق منهم ودخل معهم ثاني شهر رمضان وعمل سماطاً للإفطار ودعا الناس إليه على عادة سلفه فلما قعد الناس على السماط تكسرت الأسرة إذ ذاك من تحتهم فسقط قاضي الشريعة بزبيد يومئذ محمد بن أحمد الناشري وخطيب زبيد الفقيه عبد المنعم بن موسى الضجاعي والشريف أبو العباس بن أبي سلطان ووقعوا إلى الأرض سالمين.

ثم أقام المسعود إلى آخر شوال وأرسل للشيخ عبد الله بن أبي السرور صاحب هقرة فجاءه وخرج في صحبته على نية السفر إلى تعز فلما صار بحيس خلع نفسه فرجع العبيد إلى زبيد منكسرين ورجع المسعود إلى هقرة فأقام بها مدة ثم خرج إلى مكة المشرفة.

ولما خلع المسعود نفسه راسل كبراء أهل زبيد الملك المجاهد شمس الدين علي بن طاهر

= ولاية واسعة في بلادهم وما جاورهم ثم دخلت بينهم الصهارة ثم حصل لهم الغلب على الملك كما يحدثنا التاريخ عن مثل هذا كثيراً.

وكانت عبقرية عامر بن عبد الوهاب هي التي عرضت هذه الأطروحة على المؤرخ الديبع فقبلها ببساطة وطيب نفس وبروح الاحسان والحب رامياً عامر عبد الوهاب بهذا المغزى ضرب منافسيه العلويين المعتصمين في قمم جبال شمال اليمن ويتقصد هذه الدعوى العريضة التي ابتليت بها اليمن ليقرع النبع بالنبع والحديد بالحديد يفلح ومثل هذه الدعوى التي ادعاها آل طاهر كثير من الحاكمين كالفاطميين والايوبيين وغيرهم وقد توسعنا في هذه المناقشة في تاريخنا الكبير.

(١) كذا في الأصول ويقتضي القانون النحوي قليلين لأنه صفة الجماعة.

(٢) هقره بفتح الهاء وسكون القاف ثم راء وهاء بلدة مندرسة وجبل صغير تقع جنوب موزع بمسافة النهار والعارة بالعين والراء المهملتين آخره هاء بلدة في الشرق الجنوبي من باب المندب.

إلى مدينة عدن ببذل الطاعة وتسليم الأمر إليه وكان قد قبض حصن التعكر [1] في ذي القعدة وأخرج الأمير زين الدين جياش بن سليمان السنبلي من عدن مطروداً مهاناً [2] هو ومن معه من أهله وكانوا نحو الثلاثين فاستقر بموزع وكاتب العبيد ليستأذنوا له في دخول زبيد فرضي بعضهم وكره آخرون ومن الراضين بدخوله يوسف بن الفلفل وهو طاغيتهم فأدخله زبيد على كره غيره فلما استقر بها أظهر لهم النصح فأمنوه وكاتب الملك المجاهد بانحلال أمر العبيد وضعف شوكتهم فأجابه به يحثه على الإفساد بينهم وعلى تفريق كلمتهم فلم يزل يعمل الحيلة حتى حالفه عبيد السيد وعبيد الشمسي للملك المجاهد ولما استوثق منهم بذلك أرسل الملك المجاهد مع جماعة من كبرا البلد وقضاتها وعلمائها ومنهم شيخ الإسلام القاضي الطيب الناشري وشيخ الشيوخ شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر الجبرتي فلما وصلته الكتب خرج من عدن ثالث شهر شوال من سنة تسع وخمسين إلى بلدة « جبن » [3] فجمع الجند ثم نزل إلى تعز فاستدعى العساكر فوصله إلى تعز القرشيون وكانوا يومئذ في غاية من الكثرة والنجدة واتفاق الكلمة فحلفوا له على ما أحب فأكرمهم ووعدهم بكل جميل.

وكان الشيخ إبراهيم بن عمر الثالثي صاحب الحديدة [4] قد حالف جماعة من العرب أيضاً على الطاعة للملك المجاهد وأما السواد الأعظم فقد أمتلات قلوبهم محبة له لما بلغهم من عدله ورفقه بالرعية ثم نزل المجاهد من تعز على طريق موزع ثم وصل إلى حيس ليلة

---

(١) هذا تعكر عدن المسمى شمسان اليوم وقد سبق ذكره كما كان يسمى في القديم عر عدن صفة جزيرة العرب.

(٢) لا يبعد أن هذه مؤامرة بين الملك المجاهد وبين جياش السنبلي وذلك بأن استدعاه سراً وتم معه على خطة لأخذ زبيد كما جعل طرده من عدن أمام الناس تمويها وحيله وإلا فمن غير المعقول أن يتركه الملك المجاهد ليذهب يقوي العبيد كما أنه لا يتصور وقد خرج مطروداً أن يذهب إلى زبيد ليعمل لصالح الملك المجاهد بل بالعكس يعمل بكل قواه في احباط كل خطة ترمي إلى تعزيز قوة الملك المجاهد وأخيه والأمر ظاهر كما قلناه من السياق.

(٣) جبن بضم الجيم وفتح الباء الموحدة وآخره نون بلدة جميلة بين قلعة من الشمال وهضبة من الجنوب وفيها آبار كثيرة ينال ماؤها باليد وفي جبلها وما بينهما كرف منحوته وفي رأس القلعة أيضاً قرابة مائة وخمسين كريفاً وهي تشكل ناحية من قضاء رداع وتقع في جنوب رداع بمسافة بياض النهار وكان عدادها في يافع ويسكنها الذراحن من حمير من قديم الزمان راجع الإكليل ج٢ - ٣٤٢.

(٤) الشيخ إبراهيم بن عمر غير معروف عندي ولا ضبط للثالثي بالباء الموحدة والياء المثناة من تحت أو بالمثلثة من تحت والحديدة بضم الحاء المهملة آخره لم تظهر على مسرح التاريخ غير هذه المرة وكانت عبارة عن مجموعة أبيات من الاخصاص والقش والحطب وهي اليوم ثغر اليمن الباسم تناهض « عدن » وتفوق عنها ووصفها اليوم يفوت الحصر وقد نعتناها في غير هذا الموطن.

عيد الأضحى. فاشتد ضيق من بقي من العبيد بمدينة زبيد فلما أظلم الليل تسور فرقة من العبيد الدرب وهربوا وكانوا يعرفون بعبيد فشال.

وفي صبح تلك الليلة وهو يوم الجمعة جمع جياش أكابر العبيد عنده وأمر منادياً بأنها للمجاهد فأنكر الباقون من العبيد ذلك فاجتمعوا وتوجهوا إلى منزل جياش منكرين لما فعله وكانوا نحو أربعمائة وفيهم جماعة من رؤسائهم فطلبوا الدخول عليه فدخل من رؤسائهم جماعة فيهم شخص يعرف بفرج جيري فقال لجياش من أذن لك في هذا النداء وأراد أثارة فتنة فأمر جياش أخويه الصديق وإسماعيل بضربه فضرب بالسيف حتى برد ثم طرح من طاقة في الدار إلى أصحابه فانهزموا لا يلوي أحد على أحد ثم قبض على عبد الله بن زيتون وكان طاغية العبيد ورأس الفتنة وعلى جماعة وحفظهم فتفرق العبيد وتشتتوا وتسوروا الدرب وتمزقوا كل ممزق وكان ذلك يوم الجمعة ثاني عيد الأضحى وكادت الجمعة أن تفوت فصلى قليل من الناس ودعا الخطيب للملك الظافر عامر بن طاهر.

ومن العجائب أن الخطيب خطب يوم الخميس وهو عيد الأضحى ودعا للمؤيد حسين ابن الظاهر وخطب في اليوم الذي يليه وهو يوم الجمعة للظافر بن طاهر وكان الملك المجاهد عندما ملك عدن والمؤيد بها وكذلك لما ملك زبيد كان المؤيد بهاء متجوراً ببيت الغزالي فتيمنوا بكعبه وأحسنوا إليه.

ثم ان الملك المجاهد دخل زبيد ضحى يوم السبت ثاني أيام التشريق[1] من سنة تسع وخمسين وثمان مائة بغير قتال فأستبشر الناس بقدومه وكان في صحبته ابن أخيه الشيخ جمال الدين محمد بن داود والفقيه العلامة يوسف المقري[2] ودخل القرشيون زبيد فانتشروا في البلد لنهب بيوت العبيد بل وبيوت غيرهم فعلم جياش بذلك فرخص للعامة في دفعهم فثار الناس عليهم يقتلون ويسلبون فقتلوا نحو خمسة عشر رجلاً وانتهى الخبر إلى الملك المجاهد فأذن لهم في الخروج فخرجوا قانعين من الغنيمة بالاياب.

فلما أستقر الملك المجاهد بزبيد وطهرت بقاعها من أنجاس العبيد أرسل إلى المعازبة يدعوهم إلى الطاعة ويكفهم عن نهب المسلمين فأبوا فخرج إليهم في شهر المحرم من سنة

---

(١) كذا في كل الأصول وصوابه ثالث أيام التشريق لأن عيد الأضحى هو يوم الخميس ودخول الملك المجاهد يوم السبت.

(٢) ليس للعلامة يوسف المقري ترجمة فيما عندي من المراجع إلا أني أعرف أنه مقبور بقرية «جبن» وقد زرته هناك وهناك ناس ينسبون إليه يقال لهم بنو المقري.

ستين وثمان مائة وكانوا يسكنون بقرية الضجع من وادي رمع[١] وهم حينئذ متوفرن وخيلهم تنوف على المائة وفيهم جماعة يزعمون الشجاعة والبسالة فالتقى الفريقان وكان المجاهد وعسكره القادمون معه في يد والقرشيون في[٢] يدهم وخيل تهامة فحملت المعازبة على العسكر حملة رجل واحد فثبت المجاهد ومن معه وانهزمت اليد الأخرى وفيها أهل الحديدة فحمل المجاهد وخيله على من كان بإزائهم من المعازبة فهزموهم وقتلوا منهم أثني عشر رجلاً ووصل الخبر إلى زبيد بهزيمة العسكر فهاج الناس ونجم النفاق وتعبت الناس غاية التعب ثم تقرر الخبر بسلامة الملك المجاهد ونصره فأمسى بقرية التربية[٣] ثم دخل زبيد سالماً منصوراً وأسر من العسكر محمد بن حازم وكان شجاعاً إلا أنه كان غير ناصح فقتله أقربا المقتولين من المعازبة.

ثم غزا المعازبة أيضاً إلى المحجرية[٤] قرية لهم فهزمهم وقتل فارساً لهم من شجعانهم يسمى مفرح بن جنيد.

وفي شهر ربيع من سنة ستين انتقل الشيخ الصالح شهاب الدين أحمد بن محمد بن أفلح بالوفاة إلى رحمة الله تعالى وصلى عليه بجامع زبيد جمع منهم الملك المجاهد ومشى أمام جنازته وكان المذكور من أهل الورع والصلاح رحمه الله ونفع به.

وفي ربيع الثاني من السنة المذكورة وصل الملك الظافر عامر بن طاهر إلى مدينة زبيد وأقام بها أياماً ثم طلع صحبة أخيه إلى تعز وفي أول سنة إحدى وستين وصل المجاهد إلى زبيد وأراد القبض على سفهاء من القرشيين فاستجاروا عند الشيخ إسماعيل الجبرتي فقبض خيلهم ثم ضمن مشائخهم بما يحدث من شرهم فرد خيلهم ورسم المجاهد على القرشيين بأن يضربوا الملاك النخل بسهم في ثمرته وكان بأيديهم مدة ففعلوا ذلك مدة ثم أمر برفع أيديهم من نخل الوادي زبيد بالكلية فتصرف الناس في أملاكهم.

وفي ربيع الثاني منها وصل الخبر بأن النقيب اللبين[٥] أخذ تعز ثم أن العسكر نصرهم الله تعالى عليه وقتلوا منهم نحو خمسين واستعادوا الحصن وفيها أغارت المعازبة على فشال وقتلوا ستة من الدولة وأخذوا من الخيل نحو عشرين وفي آخر شهر ربيع منها تجهز أبو دجانة محمد بن سعد بن فارس صاحب الشحر إلى عدن في عدة مراكب طمعاً في الاستيلاء عليها ولم

---

(١) سلف الكلام على الضجع ورمع.

(٢) أي في جهة الشمال وجهة اليمين أو نحو ذلك.

(٣) سلف الكلام عن التربية.

(٤) المحجرية: قرية في رمع.

(٥) كذا في الأصول ولا أعرف عن هذا شيئاً.

يكن أهلا لذلك ولكنه أساء الأدب على بعض الأوليا فدعا عليه فتحرك حركة انعكست عليه فلما وصل قرب البندر هاجت ريح عظيمة، فغرقت مراكبه في البحر وانكسر منها اثنان وكان الشيخ علي بن سفيان بالبلد فاستخدم عسكراً ورتب من حفظ أسوار البلد من كل جهة وأرسل للملك الظافر عامر بن طاهر فوصل إلى عدن آخر الرابع والعشرين من الشهر ففرح الناس بوصوله وقويت الريح تلك الليلة فانقطع رجاء أبي دجانة فأصبح متوجهاً إلى بلده فانفتح المركب الذي هو فيه ونبذه إلى ساحل المكسر [1] فخرج الظافر بعساكره من باب البر وأخذ أبا دجان ودخل به إلى عدن دخلة لم تكن له على خاطر وقتل مبارك اليافعي وهو الذي جرأ أبا دجان وأطمعه وأسر مع أبي دجان جمعاً من أصحابه وأركب على جمل ليراه الناس وكان يوماً مشهوداً وفي شعبانها غزا المجاهد نخل المدني للمعازبة فالتقوه فنصره الله عليهم وهزمهم وقتل منهم نحو عشرين رجلاً ثم صالحوه وقادوا له ستين فرساً.

وفي ذي الحجة منها أستولى الحبيشي على مخلافه بذي جبلة فنزل المجاهد وأقام إلى ربيع فهزم الحبيشي وقتل من أصحابه جمعاً كثيراً ثم ارتفع.

وفي أول سنة اثنتين وستين نزل الأمام صاحب[2] صنعاء قاصداً جهة المشايخ بني طاهر فتلقاه الملك الظافر وتقاوما ثم حصل الصلح فرجع وفي ذي القعدة منها أخذ الشيخ عبد الوهاب بن داود عدة حصون للحبيشي وفيها منع المجاهد القرشيين فلم يعطهم من مال النخل شيئاً ولا من ثمرته بل قيد جماعة منهم وطلع بهم المقرانة منهم عفيف بن غراب وعبد العليم الهبل، والبيدق ومحمد بن عفيف الأحدب في آخرين.

وفي آخر السنة المذكورة ثارت فتنة بين القرشيين بني أبكر وبني علي، فالتقوا وانهزم بنو أبكر وقتل منهم جماعة وخرجوا من القرشية ونهبت أموالهم.

وفي ربيع سنة ثلاث وستين وصل المجاهد إلى زبيد وأصلح بين القرشيين وأمرهم بسكنى القرشية وأهدر ما بينهم من القتلى وولى أحمد بن وهبان أحكام زبيد وفي رمضان وصل المجاهد إلى زبيد وقيد جماعة من القرشيين وصادرهم بعشرين ألف دينار وفي ذي القعدة منها دخل الأمير جياش السنبلي مدينة الشحر.

وفي سنة أربع وستين استمرت الخطبة وضربت السكة باسم الملك المجاهد بعد أن كان ذلك باسم الظافر عامر بن طاهر، وفيها أقبل صاحب صنعاء في عسكر إلى بلد المشايخ

---

(١) ساحل المكسر هو ما سمى خور مكسر وهو من عدن في الشرق الشمالي وفي قربه من الشمال المطار ومدينة خور مكسر الجديدة وغيرها.

(٢) هو الناصر بن محمد العلوي راجع شرح البسامة لابن فند الصعدي وتاريخنا.

فخرج الظافر مبادراً إلى ملاقاته قبل تكامل العسكر فالتقت الفئتان بموضع يسمى رضم [1] فاستظهر أهل صنعاء لكثرتهم وحصل في العسكر الظافري جولة قتل فيها الشيخ محمد بن طاهر في جماعة وقتل من أهل صنعاء جماعة منهم ابن كامل المشهور ومنهم سلطان الجوف علي بن مخارش [2] الذي كان محسوباً عندهم بمائة فارس طعنه الهمام الضرغام الملك المنصور عبد الوهاب بن داود، وفيها نزل الظافر زبيد وسار إلى نخل المعازبة المدني فضرب منه خمسين ألف عود.

وفي جمادى الأولى من سنة خمس وستين انتقل الملك المجاهد من الدار الكبير الناصري إلى دار المعاصر وفي رجب منها استولى المجاهد على مدينة ذمار وخرج الناصر منها إلى هران ثم توجه إلى صنعاء فأسره أهل عرقوب وتقربوا به إلى الامام مطهر واعتقله عنده [3].

وفي شهر رمضان نزل المجاهد إلى زبيد وخرج إلى نخل المعازبة وعيد فيه عيد الفطر وسلم المعازبة من الخيل ما رضي به ثم غزا العبيد الذين كانوا في اللوا فهزمهم وبدد شملهم وأباد منهم أمماً وتسلم حصن قرة من حصون اللوا [4] فانحسمت مادة الشر ولما أراد الرجوع من اللوا وقع بطريق ضيق لا يمر فيه المحمل فقال لغلمانه فرقوه فحملوا كل فرقة وحدها فأظلم عليهم الليل وهم بالفرق فباتوا هنالك ثم صبحوا العدو وكان بنو يعقوب من المعازبة قد انضموا إليهم فنصره الله على الجميع.

وفي هذه السنة حصل على الشيخ إسماعيل الجبرتي مكيدة بأنه كاتب صاحب جازان

---

(١) الرضم في الأصل الحجارة والصخور المجتمعة وهذا الموضع هو ما يسمى اليوم «الرضمة» وهي قرية كبيرة ذات سور تطل من الشرق على وادي سبان وفي شرقها حصن أنسب المشهور وذكره ياقوت وعدادها من مخلاف خبان الشرقية المربوطة بمدينة يريم وهي جنوب قرية الذاري المشهورة في عصرنا بينهما ميلان وفيها سوق قائم.

(٢) بنو مخارش لهم بقية في حجة أو هم اسم وافق اسماً.

(٣) هران ذمار هذا قد سلف ذكره وعرقوب بضم العين المهملة آخره باء موحدة بلدة كبيرة شمال مدينة ذمار وكان عدادها في القدم من عنس واليوم من الحدا اشتهرت بالفواكه ذات الحجم الكبير الفرسك الخوخ واسم الإمام الناصر محمد، والإمام المطهر هو ابن محمد من الحمزات وكان قد جرى صراع عنيف بينه وبين الناصر وحبسه الناصر في حصن الربعة غربي ذمار وفر منه وحاول أهل عرقوب أن يسلموا الناصر للملك المجاهد فحال دون ذلك بعض الفقهاء وحذرهم من ذلك وأرشدهم أن يسلموه إلى الإمام مطهر المذكور فسلموا الناصر فحبسه في كوكبان شبام إلى أن مات هنالك والإمام مطهر هو الذي قبره بمدينة ذمار راجع تاريخنا.

(٤) حصن قره كذا في الأصل وفي ع حصن قمرة في شمال شرقي زبيد.

وأطمعه في البلد فقبض المجاهد جميع ما تحت يده من أرض الوقف والأملاك السلطانية وعاتبه فانكر وحلف وهو صادق وإنما وشى به بعض أعدائه ثم عطف عليه بعد مدة فرد عليه بعض ما أخذه عليه، وفيها تولى أبو القاسم الحوالي مشد وادي زبيد.

وفي سنة ست وستين تجهز الملك الظافر إلى الشحر في البر في عسكر جرار فبلغ كرى الجمال التي تحمل الأثقال اثني عشر ألف دينار فوصلها وحاصرها فخاف صاحبها على نفسه فخرج منها ودخلها الأمير جياش السنبلي ثم أرسل ولده سليمان مبشراً بالفتح ثم دخلها الشيخ عبد الملك بن داود فنهبها نهباً شديداً ثم دخلها الظافر وأمر بالكف عن النهب وقرر أمور البلد وولاها أحمد بن شقر اليمنى وأسر جماعة من عسكرها وتوجه بهم إلى عدن، فلما وصلها جاء الخبر أن الإمام أخذ ذمار وكان الشيخ عبد الوهاب في البلد فجمع الجموع وقاومه إلى أن وصل عمه فاستعادها منه وأخرب القصر ونهب عسكره البلد [1] وحصر الإمام في حصن هران مدة ثم انه هرب فأخذه أهل عرقوب وأسروه فتقربوا به إلى الإمام مطهر كما تقدم [2].

وفي جمادى منها استولى الحبيشي على حصن علب [3] فجهز له المجاهد العساكر فانتزعوه منه وفيها استولى الظافر على بحرانة وما والاها [4] وفي رجب منها انتقل جياش السنبلي إلى رحمة الله تعالى ودفن بدمت [5].

وفي رمضانها ولد مولانا جمال الدين عامر بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر رحمه الله وفي شوالها استولى الظافر على مدينة صنعاء ودخلها أحد أمرائه فرتب فيها رتبة جيدة ثم دخلها الشيخ عبد الوهاب بن داود واليا من قبل عمه واقطعوا ولد الإمام قرى كثيرة وجعلوه مقدماً فيها وفي جمادى من سنة سبع وستين قدم مشايخ بني حفيظ أحمد بن أبي الغيث ومحمد بن أبي القاسم وجماعتهم على الملك المجاهد بزبيد فأكرمهم وأجازهم جوائز سنية وفيها بلغ الظافر أن علي بن سفيان ظلم الناس بزبيد فتوعده فخرج منها إلى عدن

---

(١) هذا يدل أنه كان في ذمار قصر للامارة لذلك التاريخ.

(٢) سلف الكلام عن ذلك.

(٣) حصن علب بفتحتين وبفتح وكسر في أعلى جبل حبيش من عزلة جبل خضراء مندرس أنقاض.

(٤) حصن بحرانة من أعمال ذي السفال ثم عزلة السيف وهوبفتح الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة آخره نون وبحرانة أيضاً في ريمة وقد سبق الكلام عليها.

(٥) حصن وبلدة من أعمال رداع وإليها ينسب حمام دمت المشهور الواقع في وادي ثريد من ذي عين ودمت أيضاً من ذي الكلاع العدين راجع الاكليل ج ١ ـ ١٢٨ والجندي.

وكان المجاهد بها وفيها أفحش أبو القاسم الحوالي في ظلم أهل زبيد فشكوه فعزله وأمر بإحضاره إلى مجلس الشرع ومن أقام عليه حجة شرعية غرمه ما أخذه ثم تصدق المجاهد على المظلومين بخمسة آلاف دينار .

وفي سنة ثمان وستين نزل الشيخ عبد الملك بن داود صحبة ابن سفيان إلى زبيد فوقف عبد الملك بزبيد وخرج ابن سفيان إلى الشام ونزل المجاهد إلى جهة زبيد بعد أن أستولى على بعض الحصون قاصداً مكة غير معرج على دخول زبيد فخرج إليه القضاة والفقهاء فلم يعذروه من الدخول إليها فساعد ودخل وهو مصمم على ما نواه فلما علم الظافر ارسل ابن أخيه محمد بن داود يستعطفه في الترك فدخل زبيد ومكث بها ثم سار إلى عدن وفيها ابطل المجاهد المكوس عن أشياء كالليمون والموز والعسل والسمك وفيها قدم الشيخ شرف الدين السبكي ثم الشيرازي إلى مدينة زبيد وعقد مجلساً للوعظ بها وتكلم على آيات من كتاب الله العزيز فأعجب الناس وملك قلوبهم وقرأ عليه جماعة منهاج الوصول ثم حج من زبيد وزار النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم رجع إلى زبيد ووقع بينه وبين قضاة البلد وحشة بسبب تهمته باعتناق مذهب أهل الوحدة [1] وهو ينكر ذلك وأقام مدة ثم سافر إلى بلده فجاءت الأخبار انه حصل له وجاهة عظيمة وسافر إلى تبريز [2] وذكروا أنه حضر مجلسه السلطان يعقوب ابن حسن بك [3] .

وفي الرابع عشر من شوال من سنة ثمان وستين ، أصبح الملك المجاهد مفقوداً من زبيد وكان خروجه من السور ليلاً في نحو ثلاثة من عبيده فأصبح الناس كالغنم بلا راع وخرج عبده علي بن سفيان فوجده قد ركب البحر فرجع وقام بأمر البلد وكتب إلى الظافر يعلمه فوصل المجاهد إلى قرب عرج [4] فتوجه إليه صاحب الحديدة وقاضيها وزاهدها الشيخ إدريس الجبرتي فكلموه في الرجوع ، فرجع وكان البحر لم يطب ركوبه فرجع إلى بندر البقعة فخرج إليه ابن سفيان والفقيه يوسف المقري وسارا في صحبته إلى عدن طريق الساحل فسر الناس بذلك غاية السرور ، وفي شوّالها كان انتقال الشيخ الصالح شهاب الدين أحمد محمد الجبرتي صاحب المداجر [5] إلى رحمة الله بتعز وكان فضيل مدينة تعز وفاضلها رحمه الله ونفع به .

---

(١) أي وحدة الوجود وهو رأي كثير من الصوفية .

(٢) تبريز : بفتح المثناة من فوق ثم سكون الموحدة ثم راء وياء وزاي آخره : بلدة من أذربيجان خرج منها عالم من العلماء وهي اليوم تحت الجمهورية الايرانية .

(٣) لعله سلطان تبريز .

(٤) عرج : سبق ذكرها .

(٥) المداجر حي في غربي تعز وينسب إليه باب المداجر أحد أبواب تعز الغربية .

وفي أول سنة تسع وستين وثمانمئة استعاد الإمام محمد بن ناصر صنعاء وكان أميرها من قبل بني طاهر محمد بن عيسى البعداني فخرج من صنعاء لحاجة فوثب أهل البلد على القصر وحاصروا من فيه فصالحوا عن أنفسهم وسلموا القصر وخرجوا سالمين فثارت حفيظة الملك الظافر إلى صنعاء في عسكر جرار فنازل البلد وأتلف ما حولها من البساتين وتحصن أهل البلد ودافعوا عن أنفسهم فيقال إن الإمام صالحه على مال يؤديه إليه فرجع سالماً إلى بلده وأخوه المجاهد بها ثم نزلا إلى زبيد وفي جمادى منها قيد ابن سفيان شيخ المعازبة محمد ابن الزقاق فدخل به زبيد بغير موجب إلا أنه كان ناصحاً وإنما أغراه به محمد بن الأمير لأنه كان مكيناً عند المجاهد لصدقه ثم أطلقه المجاهد بشفاعة شمس الدين المقري.

وفي رجب منها اصطلح الملكان والحبيشي مع صاحب بعدان الشيخ محمد بن أحمد بن الليث السيري وقلد المجاهد ابن سفيان أمور تهامة وفي ذي الحجة منها حملت المعازبة على قرية الشبارق[1] وكان بها عسكر كثير فهزموا العسكر وقتلوا منهم نحو الثلاثين، منهم النقيب إسماعيل بن أحمد بن إقبال وفي ربيع من سنة سبعين أخذ بن سفيان حصن الشريف[2] بضم الشين وهو من الحصون المنيعة ثم عمر حصناً بجبل القاهرة فعظم النفع به. إن هذا الموضع كان ملجأً للمفسدين ثم ان ابن سفيان خرج إلى الجهة الشامية فقتل من المعازبة جمعاً ونهب أموالا لهم ثم قصد بلاد العامريين[3] وهو مخلاف حصين فدخل عليهم وبدد شملهم واستولى على حصنهم المعروف بالضامر[4] فانهد ركنهم وانكسرت شوكتهم وفي رجب من السنة المذكورة قبض المجاهد حصن حب[5] المشهور بعد حصار طويل ومال جزيل ومقاساة شدايد وهو حصن ذي رعين وكان للقاضي محمد البريهي[6] في فتح هذا الحصن سعي ومخاطرة وسبب تسليمهم الحصن ان حبهم نفد وأشرفوا على الهلاك فسلموا الحصن ونزلوا وكان الذي سلمه محمد بن أحمد بن الليث السيري وكان أهل البلد قد ملوا ولاية أبيه أحمد فأخرجوه من الحصن وشيخوا ولده محمداً وكان الصلح على أنهم يسلمونه

---

(١) قرية الشبارق لا زالت عامرة وتقع شرقي زبيد وإليها ينسب باب الشبارق أحد أبواب مدينة زبيد.

(٢) الشريف بالضم كما قال المؤلف وقد سبق ذكره.

(٣) بلاد العامريين لا زالت لهم بقية.

(٤) حصن الضامر ويقال له جبل الضامر وهو جبل ممتد من شرقي سهام نحو الشمال إلى نحو مدينة باجل.

(٥) سلف ذكر حصن حب.

(٦) بنو البريهي هم علماء وفقهاء مدينة إب إلى هذا التاريخ وهم من السكاسك راجع طبقات ابن سمره وتاريخ البريهي.

ويخرجون بما قدروا عليه فلما خرج محمد السيري بما معه كان والده حينئذ حياً فادعى كثيراً من الذخائر أنها مشتراه ورسم على الولد بالمدرسة الأشرفية وآل أمره إلى أن أصلح والده على مال يسلمه إليه ولما فرغ المجاهد من الحصن نزل إلى تعز فتصدق فيها بصدقة جزيلة وفيها غزا الظافر صنعاء فعقر زروعها وأخرب معاقلها ثم رجع إلى بلده سالماً.

وفي ذي القعدة منها اجتمع المجاهد والظافر بعدن فجاءت كتب المنافقين من أهل صنعاء تخبر أن البيعة له قد اتفقت وأنه يصل ليستلم البلد فخرج من عدن مبادراً بغير رضا من أخيه فوصل بلده وبات بها ليلة ثم خرج إلى ناحية صنعاء فوصل إليها سابع خروجه من عدن وأراد النزول بظاهرها وكان أميرها محمد بن عيسى شارب [1] غائباً في مشارق صنعاء فلما سمع بوصول الظافر أقبل ليدخل صنعاء فلما تراءى العسكران أقبل كل فريق على الآخر فثار العجاج واشتغل العسكر عن حفظ الأثقال والأموال وهي على البغال والجمال لأن القصة اتفقت حال وصولهم البلد ولم يحطوا اثقالهم وكان أهل صنعاء يشاهدون [2] الحال فخرج جماعة من صنعاء فساقوا البغال والجمال فعلم بذلك الظافر فضاق صدره واضطربت العسكر وانهزم من انهزم وثبت الملك الظافر في أهل بلده فقاتلوا حتى قتلوا كراماً غير فارين ولا ناكصين فعظمت مصيبة المسلمين [3] فإنا لله وإنا إليه راجعون وهذا كما قال الشاعر:

ليس الكريم على القنا بمحرم

ولما وصل العلم إلى زبيد اضطرب الناس وكان ابن سفيان بزبيد فسكن الاضطراب وأمر بالصلاة عليه والقراءة سبعة أيام بالجامع وكان المجاهد بعدن فلما وصله العلم خرج مبادراً فوصل إلى حبيل بدر [4] ثم توجه إلى جبلة متوسطاً بين تلك المخاليف فسترها حتى سكن الحال ولم يدخل جبن ولا المقرانة وهاج عرب تهامة فثبت ابن سفيان وخرج إلى فشال فأقام بها يدافع المعازبة وهو يكاتب المجاهد حتى نزل في ربيع من سنة إحدى وسبعين إلى زبيد ثم توجه إلى المعازبة وهم بمكان يعرف بملقى الواديين [5] فهزمهم وقتل منهم جماعة ثم

---

(١) بنو شارب لهم بقية في حي بئر الغرب غربي مدينة صنعاء ولعلهم من بقية الاكراد.

(٢) هم هكذا إلى يوم الناس.

(٣) أنا لا أستعبد أن هذه الحادثة مدبرة عن مؤامرة من أهل صنعاء وشارب ليكيدوا للظافر بما سبق له فيهم من عقر الزروع والخراب والتدمير وأن ابن شارب خرج إلى جهة سنحان وبني بهلول ولينقض على الظافر من ورائه.

(٤) حبيل بدر معروف جنوب قعطية وشمال الضالع وهو إلى الضالع أقرب وعليه المحجة إلى صنعاء كما ذكر ذلك الهمداني ويسمى اليوم الحبيلين بلفظ التثنية.

(٥) أي وادي فشال ووادي رمع من شمال زبيد.

أغار عليهم في اليوم الثاني وقتل جماعة وأقام بقرية شجينة[١] ثم انهم اذعنوا للصلح فقادوا ستين فرساً فرجع المجاهد إلى زبيد ثم طلع تعز مبادراً لما بلغه أن آل أيوب[٢] نهبوا قرية بنا أبه[٣] من وادي لحج وقتلوا، وسبوا النساء وفعلوا فعل الجاهلية.

وفي سنة اثنتين وسبعين وثمان مائة احترقت مدينة زبيد أربع مرات حريقاً عظيماً وكان المجاهد حاضراً في بعضها فمنع أهل البلد من بناء الخوص ومن ادخال العجور[٤] مدة.

وفي أول سنة ثلاث وسبعين توجه ابن سفيان إلى الشام بعد إيقاعه بالكعبيين[٥] لذنب سبق لهم فقبض خيولهم وأسر جماعة منهم.

وفي ربيع من سنة أربع وسبعين، غزا ابن سفيان الرماة[٦] وقتل منهم فوق المائة ولزم منهم فوق الخمسين من رؤسائهم ونهب ما لا يحصى من المواشي وأخذ بعض خيولهم، وفي شهر رجب منها خرج ابن سفيان إلى بلاد الزيديين فكانت بينه وبين حفيظ وقعة قتل فيها أبو الغيث بن محمد بن حفيظ في جماعة من أهله وجماعة من العرب يزيد على ثلثمائة فاستجار أحمد بن أبي الغيث ببيت الفقيه بن حشيبر[٧] وأخذ ابن سفيان قرية الشريح بعد أن كان أحمد بن أبي الغيث عمرها ليحصن فيها فانعكس أمله وأمر ابن سفيان بتخريب قرية بني حفيظ بيت غراب وشردهم وأحرق قراهم فتوجه بن أبي الغيث إلى جازان فعمر ابن سفيان قرية الشريح وحصنها ورتب فيها الأمير سليمان ابن جياش السنبلي ثم رجع ابن سفيان إلى زبيد منصوراً مسروراً فرجع أحمد ابن أبي الغيت من جازان وحزب الأحزاب وأغراهم بالعسكر الذي بالشريح فوصلوا إليها وأحاطوا بها فلما رأى سليمان السنبلي ذلك وان قتالهم متعذر لكثرتهم وبعد الغوث عن العسكر تهيأ وخرج بمن معه من الفرسان فشق صف الزيديين ممن قدر الله سلامته فنجا بمن معه وقتل من تأخر وكانوا جماعة.

---

(١) قرية شجينة، في التحيتا في الشمال الغربي من زبيد.

(٢) آل أيوب من قبائل لحج.

(٣) بنا أبه سلف ذكرها.

(٤) العجور بفتح العين المهملة وضم الجيم آخره راء قصب الذرة وهي لغة دارجة في عموم اليمن الأسفل وتهامة.

(٥) الكعبيون قبيلة معروفة في بطن تهامة من علك شمال زبيد.

(٦) الرماة هم الذين يسمون اليوم الرامية وهي قبيلة ووطن شرق مدينة المنصورية من تهامة وقد سبق ذكرها.

(٧) بنو حشيبر بضم الحاء المهملة وفتح الشين المعجمة وسكون الياء المثناة من تحت ثم موحدة وراء وهي قبية معروفة إلى يومنا على شط سردد ومنها فقهاء وزهاد مشهورون ومنهم فرقة في قضا إب بيت فقه وصلاح ولهم أوقاف. وقرية الشريح في قضا الزيدية من تهامة وكذا بيت غراب.

وفي شوال منها كانت وقعة الحرابة مع بني العقيلي وسوقة حيس وقتل من الفريقين ثلاثة عشر رجلاً وفي ذي القعدة تزوج الملك المنصور بن عبد الوهاب بن داود ببنت الشيخ علي بن سفيان بإشارة الملك المجاهد لازالة وحشية كانت بينهما وفي ثامن ذي الحجة جهز الملك المجاهد عسكراً لغزو بني سليمان[1] وكانوا يتعرضون لنهب القوافل الواصلة إلى زبيد من تعز وكان المشير بذلك على المجاهد الحاج حسين الشرعي وخرج صحبة العسكر فأغاروا على بني سليمان ولم يحصلوا على طائل وأصاب الحاج حسين الشرعي حجر فمات ولم يفقد من العسكر غيره فحمل إلى زبيد وغسل في بيته ودفن بمقبرة زبيد.

وفي أول يوم من المحرم أول سنة خمس وسبعين وثمان مائة وصل الملك المنصور عبد الوهاب بن داود إلى زبيد لغزو الزيديين في عسكر عظيم والمجاهد بها فخرج إلى الشام وصحبته ابن سفيان وصحبتهم الملك المجاهد إلى بيت الفقيه ابن عجيل ثم توجه إلى نخل المدني فشرد أهله وقتلهم وتوجه المنصور وابن سفيان إلى الزيدية ورجع المجاهد إلى زبيد فالتقت الفئتان وكان في ميمنة العسكر الأمير سليمان بن جياش السنبلي في وجوه العسكر وفي مقابلته أحمد بن أبي الغيث في شجعان جماعته وفي الميسرة علي بن سفيان وفي مقابلتهم محمد بن الأقزل من مشايخ الزيديين وكان المنصور في القلب ومحمد سليمان بن جياش على من قابل فهزمهم فولوا مدبرين فتبعهم إلى مسافة بعيدة وحمل ابن الاقزل على من قابله فهزمهم وانكشف الحال عن ابن سفيان مقتولاً وثبت الملك المنصور ذلك اليوم وهزم جماعة وقتل منهم ما يزيد على مائتين ثم وصل المنصور إلى زبيد ثم طلع إلى الجبل وبقي المجاهد بزبيد.

وفي ربيع من السنة المذكورة غزا المجاهد المعازبة فقتل منهم نحو ثمانين رجلاً منهم عبد الله بن حسن العنبري وكان أول من تلقى الخيل ونهب أبلاً وبقراً وغنماً ثم غزا الرماة وقتل منهم جماعةلأنهم كانوا نهبوا جماعة من بني حفيظ عز الدين وقرابته وكانوا قد كساهم المجاهد بزبيد وأعطاهم مالاً كثيراً ليستميلوا جماعة من العرب فخرجوا فلما بلغوا الرماة خرجوا عليهم ونهبوا جميع ما معهم وأخذوا خيلهم.

وفي رجب منها قلد المجاهد الشرف الأحمر أمور الرعية وجعله مستوفياً وفوض إليه جميع الأمور، وفي شوالها شق جماعة من القرشيين عصا الخلاف وخرجوا عن طاعة السلطان وأخافوا السبيل منهم البيذق بن أحمد الحنيش والرحباني وكان في نخل وادي زبيد رتبة من العسكر السلطاني أميرهم علي بن معوضة الدويدار فحملوا على الرتبة المذكورة وكان مع القرشيين المعازبة والرماة فقتلوا علي بن معوضة وخرج الأشاعر من قريتهم بالنخل وغشى

---

(١) بنو سليمان من الأشاعر وهم ما بين شمير مقبة وشرعب وحيس.

أهل البوادي هدينة زبيد وجرت أمور عظيمة متعبة فوصل المجاهد في ذي القعدة من عدن وصحبته أحمد ويوسف أبنا أخيه عامر والأمير عامر والأمير عمر بن عبد العزيز فغزا المعازبة وقد انضم إليهم البيذق والرحباني ومن معهم فنصره الله تعالى فقتل البيذق وجهيض ابن العجيلي وجماعة من المعازبة والقرشيين وتفرقوا شذر مذر، وفي ذي الحجة منها ظهر بأسفل وادي زبيد بقرية واسط[1] دفين من الذهب المسكوك قد انتثر من إنائه وسال به السيل فكأن يوجد في مسيل الماء ورحل إليه العوام والنساء ووجدوا منه جملة مستكثرة ولم يتعرض المجاهد لأحد ممن وجد ذلك بشيء.

وفي أول سنة ست وسبعين أقطع الملك المجاهد الأمير عمر بن عبد العزيز الحبيشي البلاد الشامية فخرج عليها في عساكر عظيمة فدخل عليه إلى قرية المراوعة علي بن أبي الغيث بن حفيظ والفقيه محمد أبي بكر بن حشيبر والفقيه علي بن حشيبر فقبضهم وأرسل بهم مدينة زبيد وفي الشهر المذكور غزا البجليين[2] فقتل منهم نحو عشرين ونهب مواشيهم ثم صالحوه على ثمانية عشر فرساً قادوها إليه وفي صفر منها غزا الأمير المذكوي المعازبة والحجبة[3] وكانوا قد غدروا بجماعة ممن خرج لجباية الأموال فطر دوهم فنصره الله عليهم فقتل من وجوه المعازبة فوق المائة فأذعنوا للصلح وسلموا عشراً من الخيل وسلم الحجبة تسعة آلاف دينار ثم رجع إلى زبيد منصوراً ثم غزا في صفر أيضاً أهل شمير[4] فقتل من بني حسين ثلاثين وأسر جماعة ونهبت دوابهم.

وفي المحرم من سنة سبع وسبعين حصل على الملك المجاهد بزبيد مرض عظيم خاف منه فاستخلف ابن أخيه عبد الوهاب وقلده أمر الملك وحلف العرب له ثم من الله له بالعافية، وفي ربيع الأول منها دخل المنصور مدينة زبيد على حين غفلة فقبض على عمر بن عبد العزيز وعزم به صحبته إلى عدن وكان المجاهد بها فأنكر عليه أموراً ووبخه ثم قيده ثم خرج صحبته إلى تعز ثم أطلقه بمال بعد مدة.

ثم وصل المجاهد إلى زبيد وصحبته ابن اخيه يوسف بن عامر في شعبان ثم طلع في شوال

---

(١) واسط: بلدة عامرة غربي جنوب زبيد ونسب إليها الاديب الواسطي.

(٢) البجليون قبيلة من علك وهي غير قبيلة بجيلة الكهلانية التي منها الصحابى الجليل جرير بن عبدالله البجلي ولهم بقية حوالي وادي سهام وفي برع ونسب إليهم الزاهد البجلي المتقدم الذكر.

(٣) الحجبة بطن من المعازبة.

(٤) شمير جبل وحي من الأشاعر وهو يشمل ناحية كبيرة يطلق عليها اليوم ناحية مقبنة وهي جنوب حيس شرق وغربي وعليها المحجة إلى زبيد وحيس.

إلى تعز ثم إلى جبلة ووقع بينه وبين الحبيشي وقائع عظيمة نصره فيها وأخذ عليه عدة حصون منها المصنعة والخضرا [١].

وفي أول سنة ثمان وسبعين وثمان مائة وصل المجاهد زبيد وفي صحبته المنصور وابن عمه [٢] يوسف بن عامر وعسكر عظيم فخرج المنصور وعمر بن عبد العزيز إلى نخل المدني فقطعوا ثمرته ورجعوا إلى زبيد فطلع المجاهد والمنصور وجعل ابن عبد العزيز مقدماً بزبيد والشرف الأحمر مستوفياً وتصدق المجاهد تلك السنة بمال عظيم على أهل زبيد وطعام وتمر وثياب، وفي شهر صفر منها قيد الأمير عمر بن عبد العزيز جماعة من القرشيين منهم عفيف ابن غراب وولده أحمد بن عيسى الهبل ويوسف بن عقد وقيد من المعازبة حسين بن أبكر وصهره، أحمد بن يوسف الحنفي وطلع بهم إلى تعز وفي ربيع من سنة تسع وسبعين وثمان مائة حصل بين الحبيشي وبين الملك المجاهد صلح تام ودخل تعز في صحبته وفي شعبان جهز الملك المجاهد إلى ابن سعد الدين المجاهد مائة وخمسين[٣] من الخيل العربية ومن السيوف والرماح والدروع شيئاً كثيراً أعانه على الجهاد في سبيل الله تقبل الله منه، وفي الشهر المذكور كان وصول الشيخ يوسف بن عامر إلى مدينة زبيد والياً عليها من قبل عمه ثم وصل المجاهد زبيد في رمضان وبعث الأمير بحير بن محمد بن وهبان في عسكر إلى جهة الزيديين وحصل على الأمير عمر بن عبد العزيز ترسيم ومصادرة بمال فاستقر الشيخ يوسف على نيابة زبيد وأقبل على تحصيل كتب اللغة والطب ولم يحصل شيئاً من كتب الحديث والتفسير، وفي شوالها غزا الشيخ يوسف المعازبة ببيت الأكيد إلى بلدهم وكسرهم كسرة شنيعة وقتل منهم فوق العشرين ونهب مواشيهم وفي ذي الحجة قتل القرشيون من المعازبة بني محمد سبعة رجال وفي شهر صفر من سنة ثمان طلع المجاهد من زبيد إلى تعز وفي صحبته الفقيه عمر الفتا والفقيه محمد بن حسين القماط. وعبد الله الهبي للنظر في أوقاف تعز فمكثوا أياماً ولم يصنعوا شيئاً ثم قدم المجاهد إلى زبيد وقدم بعده بنو أخويه عبد الوهاب وأحمد ويوسف أبنا عامر في عسكر عظيم، وفي يوم الجمعة ثاني شهر ربيع الآخر حصل بزبيد مطرة عظيمة من توسط الشمس إلى العصر وسقطت بيوت كثيرة ودخل السيل البيوت وسقط باب النخل وكان مطر لم يعهد مثله ثم وقع في أثناء الشهر المذكور في يوم الأحد مطر أعظم من الذي قبله وحصل

---

(١) الخضرا سلف ذكرها وما يسمى الخضرا باليمن كثير والمصنعة أيضاً في جبل خضرا من الشوافي وكل هذه الحصون خراب.

(٢) أي ابن عم المنصور وابن أخي المجاهد.

(٣) ابن سعد الدين هو من ملوك الحبشة المسلمين وسلف ذكرهم.

بذلك من الخراب أعظم من الأول، وأهل زبيد تؤرخ عوامهم بهاتين المطرتين فيقولون. ولد فلان في مطرة الجمعة أو في مطرة الأحد.

وفي هذه السنة خرج المجاهد وبنو اخيه إلى بلد بني حفيظ فلما قاربوها استشفع أحمد بن أبي الغيث بالعلماء والصلحاء وحمل القرآن على رأسه ودخل الملك المجاهد فقبل منه وقدم المذكور إلى المجاهد خيلاً ومالاً واستنابه في بلده وجعل معه عز الدين بن محمد بن أبي القاسم حفيظ وترك الشرف الأحمر والجمالي المحالبي وبحير بن وهبان لقبض الخراج.

وفي شعبان من سنة احدى وثمانين جهز الملك المجاهد ابن أخيه يوسف بن عامر إلى جهة بني حفيظ فاستقر في المراوعة وقابله بنو حفيظ بالسمع والطاعة وبذلوا الخراج فأرسل لقبضه الشيخ مكرد العجلمي والجمالي والمحالبي فقبضوا أموالاً جزيلة، وفي شوالها غزا الشيخ يوسف بن سليمان المفسدين بطريق تعز فهربوا منه فدخل بيوتهم فاخربها ثم طلع المجاهد والشيخ يوسف والشيخ عبد الباقي إلى تعز وكان عبد الباقي قد وصل صحبته في شهر رجب من السنة المذكورة.

وفي سنة اثنتين وثمانين وثمان مائة فصل الشرف الأحمر عن ولاية زبيد بالفقيه عبد الله العقيلي وطلب الشرف الأحمر إلى عدن، وفي الربيع الأول من السنة المذكورة كانت وقعة جازان وذلك أن الشريف محمد بن بركات صاحب مكة وقع بينه وبين الأمير أحمد بن ديب صاحب جازان وحشة شديدة بسبب مشهور فتجهز صاحب مكة في عسكر عظيم وفي صحبته ظعنه وزوجاته وسراريه كنا بصحبته في الحج فوصل إلى وادي جازان وترددت الرسل بينهما فلم ينتظم صلح ووقع بينهما وقعة عظيمة انهزم فيها صاحب جازان بعد أن قتل جماعة من أصحابه وولي هارباً فاستباح صاحب مكة جازان وأهلها وأحرقها وأخرب سورها وتركها خاوية على عروشها وجرى على أهل جازان من الذل والاهانة وهتك الحجاب وكشف العورات ما لم يخطر ببال أحد ونهبت خزائنه وفيها من الكتب النفيسة شيء عظيم ومن السلاح والثياب ما جمعه أبوه وجده وكانت قصة عظيمة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي ربيع أيضاً قتل الرحباني من القرشيين بقرية الروية[1] بين أهله وجماعته وكان قتله بأمر الشيخ يوسف بن عامر على باب بيته بالروية وكان رأس الفساد.

وفي شعبانها خرج الشيخ يوسف بن عامر إلى القرار من البلاد الشامية فوفدت عليه العرب فأكرمهم ثم قبض خراج البلد من الزيديين إلى قرية حرض وحصل مالاً جزيلاً

(١) قرية الروية من أعمال زبيد.

وخيلاً ثم رجع إلى زبيد منصوراً ، وفي ذي الحجة منها حاصر المجاهد خضراء بني حبيش ونصب عليها العرادات فاشتد الضيق على إدريس الحبشي ونزل إلى المجاهد باذلاً للطاعة وتسلم الحصن ومضى تحت ركابه في خدمته وفيها قدم العزيز ولد صاحب جازان مدينة زبيد وكان الشيخ يوسف إذ ذاك بها فأكرمه بما يليق به ثم جهزه إلى عمه المجاهد وهو بعدن فأكرمه أيضاً ورده إلى بلده مكرماً .

وفي أول المحرم عن سنة ثلاث وثمانين قتل الشيخ إدريس الحبيشي صاحب خدد وهو حصن عظيم وله معشار واسع [1] وكان المتولي لقتله عمر بن عبد العزيز الحبشي زعم أنه قتل أباه فدخل عليه بيته وهو إذ ذاك بعدن في صحبة الملك المجاهد بعد أن احتال وفرق أصحابه هجم عليه بغتة في ثلاثة من العبيد فقتلوه يوم الجمعة [2] رحمه الله تعالى .

وفي آخر الشهر المذكور طلع الملك المجاهد من عدن إلى بلده متوعكاً فمكث بجبيل بـدر أياماً ثم أرسل إلى العلامة شمس الدين المقري فوصله إلى جبن وقد انتقل إليها واشتد به الوجع وعقله ثابت وكان قد كتب إلى الفقيه جمال الدين محمد بن حسين القماط إلى زبيد يستدعيه فوصل إليه وكتب له بولاية قضا عدن ثم توفي ببلده جبن ليلة السبت العاشر من شهر ربيع الآخر قبل مسير القماط إلى محل ولايته قابله الله برضوانه ورحمه رحمة الأبرار فجهزه الشيخ عبد الملك بن داود وصلى عليه ببلده وفي جميع مدائن ومدارس ملكه وعظمت مصيبة الناس بموته فجبرهم الله تعالى بمن تولى بعده من آله الكرام أولى الجد والاهتمام وكان الملك المجاهد رحمه الله تعالى شديد الرغبة في الصدقة محباً للفقراء محسناً إليهم مداوماً على ذلك لا يفترق عنه ولا يغفل حتى أنه تصدق في سنة إحدى وثمانين بزبيد بألف مدمن الطعام ومن الذهب بمبلغ عظيم وكان صواماً قواماً تالياً القرآن عن ظهر قلب ومع ذلك لا يثق بحفظه إلا بمستمع يلزم المصحف عند تلاوته ويحضر مجلس الحديث بالجامع يوم الجمعة ويقرأ عنده في غالب الأحوال مدة إقامته بزبيد الحديث يستمع في المصحف النبوي والتفسير وكانت ولايته رحمة للناس فإن العرب والعبيد كانوا بتهامة قد بلغوا الغاية في الفساد والظلم فجاهدهم بنفسه وماله ورجاله فزحزح الخلق عن ظلمات الظلم وأهواله وكان ينفق على الأرامل واليتامى والمنقطعين بمدينة زبيد نفقة جارية لهم في كل شهر بما يقوم بكفايتهم فانقطع ذلك بموته رحمه الله تعالى .

---

(١) مضى الكلام على حصن خدد .

(٢) هذه الحادثة من المؤامرات التي يحيكها أرباب السلطان للتخلص من أندادهم .

ومن مآثره الدينية مدرسة وجامع بمدينة جبن [١] ومدرسة بمدينة تعز وجدد مسجد المدرسة بعدن وعمر صهريجاً بها [٢] وسبله للمسلمين وغير ذلك وهو الذي غرس النخيل بجهات متعددة في الوادي زبيد وبالسحاري [٣]، والموشـج وواحجة [٤] وبوادي لحج وفي الحائط خارج عدن وكذا غرس قصب السكـر في جهـات متعـددة وكـذا الأرز بـوادي زبيد [٥].

وله من المحاسن ما لا يحصى وكانت مدة ملكه بعدن من نصف سنة ثمان وخمسين إلى تاريخ وفاته وذلك خمس وعشرون سنة إلا شهراً والله أعلم.

الفصل الثاني

في ذكر دولة مولانا الملك المنصور تاج الدين عبد الوهاب ابن داود ابن طاهر رحمه الله

اعلم أن الملك المجاهد لما انتقل إلى رحمة الله تعالى في تاريخه المذكور بجبن كـان عنـده بنو أخيه الشيخ عبد الوهاب والشيخ عبد الملك ابنا داود والشيخ أحمد بـن عامر والفقيه يوسف المقري وكان المجاهد قد عهد بالخلافة إلى المنصور عبد الوهاب في مرضه القديم كما ذكرناه أولا فخرج المنصور بعد اتفاق كلمته وكلمة المذكورين في ليلة وفاة عمه إلى مدينة عدن مبادراً فدخلها ثالث شهر ربيع الأول بغتة من غير أن يعلم أهل البلد بوفاة عمه في عسكر وخيل قليلين جداً فلما تتابعت بعده العساكـر المنصورة ودخلها الفقيه محمد القماط

---

(١) لا تزال المدرسة والجامع بمدينة جبن قائمتان إلاّ أنهما يحتاجان إلى إصلاح لتسرب الخراب إليهما.

(٢) لعله أحد الصهاريج الموجودة في عدن ومن الواضح أن الملوك اليمنين الأقدمين والمتأخرين لهم ميول واهتمام زائد في إصلاح بلادهم.

(٣) السحارى بالسين المهملة هي اليوم الصحارى بالصاد المهملة كما في التواريخ القديمة وقد سبق ذكره في موضعه.

(٤) موشح وواجحه بلدتان على ساحل البحر الأحمر.

(٥) منطقة تهامة صالحة لكل الثمار والفواكه والخضارات والبقـولات كـالبر والشعير والعلس والأرز واللوز والشام وقصب السكر والقضب: القت والبرتقال والعنب واليوسفي والبلس: التين بأنواعه والرمان ولا تزال جذور ذلك موجودة حتى يهيء الله اليد المصلحة المخلصة ولا سيما بعد وجود المضخات والرافعات للمياه.

بعده فلما دخلها المنصور أشاع بموت عمه وطلب مرتبي الحصون ونقبأ يافع واستحلفهم ومهد قواعد البلاد والبلد وسار سيرة حميدة ثم فرق في العسكر أموالاً جزيلة وكسوات جميلة وأقام بعدن إلى آخر الشهر المذكور ثم خرج إلى تعز وكان الشيخ أحمد بن عامر عند توجه المنصور إلى عدن توجه إلى ناحية بعدان والشوافي وتوجه الفقيه يوسف المقري إلى تعز فلما وصل المقري إلى تعز وتحقق أهلها موت الملك المجاهد هاج الناس فاعلمهم المقري باستقامة الملك المنصور لكونه أكبرهم وأرشدهم وأصلحهم لهذا الشأن وكانت أم يوسف بن عامر وأولادها بقلعة تعز فشحنوا الحصن ولم يوافقهم قول المقري وهموا به فخرج إلى جبا [1] وكان المنصور قد كتب من عدن إلى يوسف بن عامر وأرسل إليه بألفي أشرفي [2] يصرفها صحبة الشرف الأحمر ووعده بكل جميل فلم يذعن وأصر على الخلاف ونزع اليد عن الطاعة واستعد للشقاق وكلف بعض أهل زبيد حمل السلاح وحلفهم أنهم معه ظاهراً وباطناً وهم خلاف ذلك.

وكان المنصور عند خروجه من عدن إلى بلده خرج بخزانة عظيمة فأوصلها المقرانة ثم توجه إلى تعز وأطاعه، من بها فاستولى على مدينة [3] تعز وانزل المتغلبين بها فتلاشى أمرهم وكان يوسف بن عامر بزبيد في جهد شديد يشحن الحجارة على الدور والدروب ويتوعد أهل زبيد بالنهب إن لم ينصروه وأمر الخطيب أن يخطب لبني طاهر على العموم ثم أن المنصور توجه من تعز إلى زبيد وفي صحبته الشيخ أحمد بن عامر فوصل إلى ظاهر زبيد ليلة ثاني عشر جمادى الأولى من سنة ثلاث وثمانين وثمان مائة فطلب الشيخ يوسف الجند الذين معه وندبهم إلى الحرب فأجابوه وهم مضمرون خلافه فلما غابت الشمس واغلقت الأبواب في المدينة ووقف هو بباب القرتب مقابلاً لمحطة الملك المنصور فلما خرجوا من الباب وأخرج العبيد إلى ظاهر زبيد لحراسة الدرب ممن عساه إن يتسور من عسكر المنصور فلما خرجوا من الباب وجاوزوا الجند أظهروا الخلاف وتوجهوا إلى الملك المنصور فجاءه الخبر بذلك فانزعج وخرج لردهم وكان الأمير بحير بن محمد بن وهبان عنده على الباب وكان مظهراً له القيام الكلي معه وباطنه مع الملك المنصور.

فلما خرج الشيخ يوسف من الباب غلق بحير الباب دونه فرجع ليدخل [4] فلم يفتح له فسقط في يده وتحير في أمره وأراد التوجه إلى حصن قوارير وكان قد شحنة بما يحتاج

---

(١) جبا تقدم ذكرها

(٢) عملة ذهبية تنسب إلى الملك الأشرف.

(٣) في نسخة قلعة تعز.

(٤) في نسخة ليفتح.

إليه وكانت ليلة مظلمة فلم يجد من يرشده الطريق وكان معه نحو خمسة فرسان فاشاروا عليه بالتوجه إلى ابن عمه وتسليم الأمر إليه وأمر الشيخ بجير أصحاب الأبواب بالدعاء للملك المنصـور فصار الشيخ يوسف إلى محطة المنصور فلما وصل إليها اضطرب الناس ظناً أنه جاء للحرب فلما ظهر الحال سكن الناس فدخل على ابن عمه وسلم عليه فعاتبه عتاباً لطيفاً وقال له يا يوسف ما الذي سويت بـك حتى تفعل مثل هذا ثم امره بالتوجه إلى خيمة أخوه[1] أحمد فتوجه إليه وبات عنده.

ثم أصبح الملك المنصور فدخل البلد يوم الثلاثاء ثاني عشر جمادى الأوى وصحبته الشيـخ أحمد بن عامر والشيخ يوسف صحبتها وفرح الناس بالصلح واتفاق الكلمة ثم إن الشيخ يوسف أشتد غمه ولم يرزق صبراً فسأل الفسح من ابن عمه بالتوجه إلى مكة فأبى عليه وخيره في تولية أي بلد شاء فلم يرض والح في طلب الفسح فأذن له فتوجه إلى ساحل البقعة وكان قد اعد سفينة وشحنها بما يحتاج إليه فخرج صحبته الحاج محمد صاحب الذراع[2] والشيخ محرم العنسي في نحو خمسين رجلاً وكاد يفتك بهم ما منعه ألا العجز ثم ركب البحر وتوجه نحو مكة فوصل إلى صاحبها محمد بن بركات وكان نازلاً قريباً منه فاكرمه ولم يساعده إلى شيء مما طلبه فرجع إلى جازان ثم إلى أحمد بن أبي الغيث بن حفيظ فأكرمه وزوجه بنته وأقام عنده إلى التاريخ الآتي ذكره.

وكان الشيخ يوسف قد أودع ما معه من المال والثياب والسلاح عند جماعة من أهل زبيد فطالبهم السلطان المنصور بذلك فسلمـوه إليـه إلا القاضي علي بن أحمد الناشري فإنه سأله المنصور عن وديعة ليوسف عنده فانكر فحلفه فحلف وعزله عن القضـاء بالقاضي عمر بن عبد المجيد الناشري، ووفدت العرب إلى المنصور بزبيد فاكرمها واجزل صلاتها وقرر قواعد البلاد وفي شعبان من هذه السنة أمر المنصور بعمارة مدرسته المنصورية بزبيد وفي ذي الحجة منها قتل عبيد دبسان الشيخ سليمان الفائشي قرب حصن وقيهة[3].

ثم إن الشيخ عبد الوهاب طلع إلى الجهات العليا فاقام بها مدة يقرر قواعد العدل فيها ثم نزل إلى زبيد في شوال من سنة أربع وثمانين وفي صحبته الشيخ أحمد بن عامر ثم خرج إلى بني حفيظ وكان الشيخ يوسف قد أذعن للصلح يظن أن بني حفيظ يريدون ذلك فلما لم

---

(١) كذا في الأصل وصوابه إلى خيمة أخيه حسب القواعد النحوية.

(٢) الذراع زنة ذراع اليد بلدة عامرة في نعيمة: صهبان ووادي الذراع من أعمال مدينـة تعـز في شمالها ولا ندري أيهما أراد.

(٣) لا أعرف عن هذين المكانين شيئاً.

يجيبوا إليه أرسل المنصور أحمد بن عامر إلى يوسف وأمره ان يتحيز إليهما فلما تراءت الفئتان حمل جماعة الزيديين على اليد التي فيها الشيخ أحمد بن عامر فانكشفت عنه خيل عنس وشب به الفرس وهو مظاهر بين درعين [١] فسقط عنه وجرح جراحات فحمل ومات بعد ساعة وانحاز الشيخ يوسف إلى الملك المنصور وقد انهزم العدو الذي في مقابلته هزيمة عظيمة وتمت هزيمتهم فقتل منهم أربعمائة رجل وأمر بحمل الشيخ أحمد بن عامر إلى قرية الضحى [٢] فحمل إليها وغسل وكفن وصلي عليه ثم حمل إلى تربة الفقيه أحمد بن موسى بن عجيل فقبر معه في قبره رحمه الله تعالى.

ثم سار الشيخ يوسف صحبة المنصور إلى زبيد ثم طلع صحبته إلى تعز فمكث أياماً. ثم ترجح للمنصور القبض عليه فقيده وجعله بقلعة تعز ثم نقله إلى قلعة رداع العرش [٣] فأقام هنالك حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى سنة ثمان وتسعين.

وفي هذه السنة حصل غلاء عظيم عم أكثر البلاد كعدن وتعز وصنعا والشحر وحضرموت وزبيد وزيلع والهند واستدام إلى سنة ست وثمانين.

وفي سنة خمس وثمانين غزا الملك المنصور بني حفيظ وجعل طريقه على الرماة فهربوا فظفر لهم بطعام وانعام فانتهبه العسكر ثم التقا بالزيديين فكانت الدائرة عليهم فانهزموا وتشتتوا فحرق قراهم ثم رجع إلى زبيد منصوراً، وفي صفر من سنة ست وثمانين قتل عمر العذار ببلد شمير وكان ظلوماً غشوماً فاراح الله منه العباد، وفيها قتل أحمد البيدق القرشي من بني علي بن أحمد بن الصديق من بني أبكر وفي يوم قتله قتل يوسف بن عقد وهو خارج من القرشية يريد التحيتا وفي ثاني أو ثالث قتله تجهز بني عقد إلى وشيح لاحقين لابن عنيب ولا خبر عنده بما جرى بعده فقتلوه هنالك ثم قتل بنو ابكر أحمد بن الصديق الحبش خارج زبيد بالردادية [٤] ودفن بالروية.

وفي ربيع من السنة المذكورة قبض المنصور حصن خدد بعد أن حوصر مدة طويلة من

---

(١) شب الفرس إذا نفر عن شيء أرعبه بغتة وقوله مظاهر بين درعين أي لابس درعين فوق الثياب.

(٢) الضحى مدينة عامرة شمال الحديدة وكان فيها فقهاء ومتأدبون.

(٣) قلعة رداع لا تزال عامرة على ما فارقها آل طاهر بفن معماري جميل وقوله رداع العرش يحترز عن رداع سر ومذحج راجع النسبة لبا مخرمة والعرش منطقة من ظاهر رداع ممتدة غرباً وشرقاً وسميت بذلك لأنها كانت الفواكه والاعباب كثيرة وقد قلت اليوم.

(٤) الردادية كما ذكرها المؤلف وكذلك الروية هما في ظاهر زبيد وشيح جنوب شرقي الجراحي من أعمال زبيد.

دولة المرحوم الملك المجاهد حتى نفد طعامهم وذخائرهم فطلبوا الأمان فأجيبوا فخرجوا بما معهم من السلاح وانتهت أيامهم وفيها تصدق المنصور بصدقات جليلة في بلدان مملكته فوقعت موقعاً عظيماً لحصولها في وقت الحاجة والضرورة وفي شعبان من السنة المذكورة وصل المنصور إلى زبيد وجهز سليمان السنبلي وعمر بن عبد العزيز إلى بلد بني حفيظ [1] فبلغا قرية وقيهة وحصل الصلح بينهم وبين بني حفيظ وجميع قبائل الزيديين ووصل جماعة من فقهاء بني حشيبر وبني مطير والقاضي محمد بن الأشخر [2] وأرسل أحمد بن أبي الغيث ببعض أولاده ليكون رهناً ثم وصل الملك الظافر عامر بن الملك المنصور وصنوه محمد وخالهم الشيخ عبد الله ابن عامر فصاموا رمضان بزبيد وعيدوا بها وطلعوا في شوال وفي ثاني عشر رمضان في هذه السنة احترق الحرم الشريف النبوي بعد مضي ثلاث ساعات من الليل بسبب صاعقة حصلت عقب مطر خفيف فاحترقت المنارة التي تلي الضريح الشريف واحترق المؤذن وهو يسبح بالمنارة واحترق جميع الحرم حتى القبة والدرابزين [3] واحترق حواصل الحرام وخزائن الكتب التي فيه وهلك فيه نحو ثلاثة عشر نفساً وكان حادثاً عظيماً.

فلما وصل الخبر إلى سلطان الديار المصرية الملك الأشرف قايتباي أرسل الخواجة محمد ابن الرمن لعمارته واصحبه مالاً جزيلاً فجد في عمارته وتم في مدة قريبة على أحسن نظام ولله الحمد وفي عاشر ذي القعدة منها وصل الشريف أحمد بن دريب صاحب جازان إلى مدينة زبيد والملك المنصور فيها فاحتفل بقدومه وأظهر من الزينة ما هو لائق به وخرج إلى لقائه في جيوشه فلقيه بظاهر زبيد واجتمعا ساعة ثم دخل المنصور من الباب الذي خرج منه وهو باب سهام ثم دخل الشريف من باب الشبارق بعد أن وقف بحائط نميق ساعة طويلة فكانت دخلة معظمة ثم حباه الملك المنصور بمال جزيل وكساه كسوات متعددة من أنواع الملبوس ثم توجه المنصور إلى تعز والشريف إلى بلده وفي أثناء شهر شعبان من السنة المذكورة وقع بين الكتاب بزبيد مكائدة ونم بعضهم على بعض فرفع عبد الرحمن بن أبي أبكر المحالبي والفضل بن دغشر على الشرف الأحمر وأخوته ومعهم محمد الشجون أنهم أخذوا من مال السلطان مائتي مد وشهد عليهم بذلك الفقيه عبدالله اللهي فرسم على الشرف وأخوته وأدبوا وعزلوا ثم استدعى الملك المنصور بالقاضي شرف الدين أبي القاسم بن محمد الجلاد من عدن

---

(١) قرية وقيهة تحقق أنها قرب مدينة الزيدية على شط سردد.

(٢) القاضي محمد الأشخر بالشين والخاء المعجمتين عالم كبير ومؤلف مستنير له حاشية على بهجة المحافل وغيرها.

(٣) الداربزين غرفة منظمة وفيها رفوف وزخارف يحفظ بها كل ضنين وغال ونفيس وسمعت هذه الكلمة يستعملونها في مدينة ذي جبلة لما كان لها من قديم المجد والكلمة أعجبية.

فوصل إليه في ذي القعدة من السنة المذكورة فباشر وظيفة الاستيفاء مباشرة حسنة وحمدت سيرته إلى أن مات وكل أحد راضٍ عنه.

وفي شوال من سنة ست وثمانين وصل الملك المنصور إلى زبيد وفي صحبته الأميران محمد ابن عيسى البعداني وعمر بن عبد العزيز الحبيشي وكان الأمير بحير بن وهبان بزبيد فسار الى الزيديين في عسكر قبل وصول الملك المنصور وفي صحبته سليمان بن جياس السنبلي وهلال بن الفهد المخلافي وكان أحمد بن أبي الغيث بن حفيظ قد هرب إلى قرية أبي عريش [1] ومكث بها مدة ثم ساقه القدر إلى بلده فقدمها مختفياً فجد الملك المنصور في طلبه فامكن الله منه بعد سعي وسياسة ووصل به إلى زبيد عاشر عشرة من أولاده وأقاربه وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً وفرح المسلمون بأسره لكثرة عصيانه للسلطان وتشتت شمل بني حفيظ وتفرقوا أيادي سبأ وصاروا أذلاء بعد العزة والطغيان فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين وكان دخوله أول ذي الحجة من السنة المذكورة ثم أودعهم دار الأدب بحصن تعز مقيدين.

وفي أثناء إقامة الملك المنصور بزبيد غزا الأميران عمر بن عبد العزيز وعلي بن محمد بن وهبان عبيد العامريين إلى بلدهم وهي متوعرة الطريق إليها ضيقة لا يدخلها إلا واحد بعد واحد فدخل إليهم ابن وهبان وتوعر فعطفوا عليه فقاتل حتى قتل في جماعة.

وفي آخر السنة المذكورة كان سيل مكة المشهور اخرب أكثر بيوتها ودخل الحرم الشريف وبلغ إلى قفل باب الكعبة المشرفة وحمل المنبر ومات من الغرق بالحرم نحو مائة نفس وفي صفر من سنة ثمان وثمانين غزا [2] الزيديون على الأمير هلال والشرف الأحمر وهم ببلد الزيديين فصبحوهم فجمع هلال خيله ورجله وسار فلحقوه وقتلوه مع ولده وقتلوا فارسين وجرح الشرف الأحمر عدة جراحات وسلب فافلت منهم فوصل إلى زبيد فلما بلغ المنصور وكان بالجبل ثارت حفيظته فجهز عمر بن عبد العزيز في عساكر عظيمة إلى الزيدية ثم تجهز هو بنفسه إليها بعده ومكث بقرية الضحى وأمر بنهب قرى الزيدية وتحريقها فحرقت بيت الفقيه بن حشيبر وصبا علي [3] وتلفت للزيديين أموال عظيمة ثم جعل سليمان بن جياش السنبلي مقدماً بها في عساكر ورجع إلى زبيد وفي شعبان من سنة تسع وثمانين جعل الملك المنصور لولده الشيخ محمد عرساً معظماً وأظهر فيه من الزينة ما يجل عن الوصف وعمل وليمة عظيمة ونثر الدراهم والدنانير والثياب على العسكر.

---

(١) بلدة عامرة في المخلاف السليماني وكانت قد ازدهرت أيام الشريف حمود في القرن الثالث عشر الهجري.

(٢) غزا كذا في الأصل وفي نسخة غدا.

(٣) كذا في الأصول ولم تظهر هذه الجملة.

وفي سنة تسعين خرج عمر بن عبد العزيز الى بلد الزيدية ثم لحقه الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب وحاصر الفئة الباغية منهم في حازة بلدهم وقطع الماء عنهم حتى أدوا الطاعة وسلموا الخيل والجمال والأموال فأذم عليهم وخرجوا أذلاء صاغرين ومكثا هنالك مدة ووصلت [1] إليه العرب بأموال كثيرة فدخل به إلى زبيد.

وفي شوالها انتقل الشيخ محمد بن عبد الملك المنصور إلى رحمة الله تعالى بتعز وفي ربيع من سنة إحدى وتسعين أمر الملك المنصور بعمارة مسجد الأشاعر فعمر عمارة جيدة ورفع بعد أن كان في وهدة فانتبه وطاب فيه الهوى ولم ينقطع منه صلاة الجماعة مدة عمارته، وفي جمادى من السنة المذكورة خرج الشيخ إبراهيم بن عامر عن طاعة الملك المنصور إلى بلد خميس فقبض النقيب محمد الحفظي وأرسل به تحت الحفظ إلى الملك المنصور فأمر بتقييده وإيداعه قلعة رداع العرش عند أخيه يوسف وفيها خرج أبو القاسم محمد بن وهبان إلى جهة الشام فوصل إلى واسط مور [2] وقهر العرب وعاملهم بالغلظة والعنف وحاق عليهم في الخراج وتعاطى ما لا يصلح فتوعده الصميون فلما خرج لحقوه إلى موضع قريب فقاتل حتى قتل في جماعة من عسكره ثالث شعبان من السنة المذكورة فبلغ المنصور خبر قتله وهو برداع العرش فنزل إلى زبيد بعد أن أرسل عمر بن عبد العزيز إلى الزيدية فاذعنوا وأطاعوا وسلموا الخيل والخراج ووصل الأمير المذكور واسط مور وأخذ الخراج من الصميين والزعليين [3] والواعظات وسلموا له أكثر من مائة فرس فوصل الملك المنصور إلى زبيد في جمادى من سنة اثنتين وتسعين وهو بها ثم توجه عمر بن عبد العزيز إلى قرية القرار [4] وترك في بيت حشيبر كاتبين من قبله أبا الفتح بن الأحمر وأبا القاسم بن راجح فافحشا في الطلب فقتلهما جماعة من شياطين الزيديين في ربيع من السنة المذكورة.

فلما بلغ المنصور خبر قتلهما تغيظ ووصل إلى زبيد فلما علم الزيديون بوصوله وكان أبو القاسم الشرياني معهم حملوا جميعاً على الأمير عمر بن عبد العزيز وهو ببلد الجرابح [5] في عسكر قليل فانكسر الأمير وعسكره وهرب إلى الزعليين فأقام بها إلى أن خرج الملك المنصور إلى بلد الزيديين في جمادى في عسكر كثير وخيل تزيد على الألف فلم يقم له بها

---

(١) هذه واسط مور لازالت معروفة وقد سبق ذكرها وواسط زبيد بلدة غربي زبيد أيضاً تقدم ذكرها.

(٢) في نسخة وأدت.

(٣) هذه قبائل لا زال لها بقية في وادي مور وسردد.

(٤) قرية القرار من أوطان الزيديين من تهامة.

(٥) قرية الجراح عامرة آهلة بالسكان.

أحد فخربها وأحرقها ورجع إلى زبيد من غير قتال وفي أثناء إقامته بزبيد قبل خروجه إلى الزيدية وصله العلم بوفاة أخيه الشيخ عبد الملك بن داود فصلى عليه بجامع زبيد وقرىء له بمسجد الأشاعر ثلاثة أيام وكان يحضر القراءة بنفسه وتصدق عنه بصدقة جليلة، وفي يوم عيد الفطر من السنة المذكورة توفيت الحرة المصونة والدرة المكنونة فاطمة بنت الملك الظافر عامر بن طاهر أم أولاد الملك المنصور وكانت من ذوات الدين والعفة والنزاهة لما أقامت بتعز بعد أم يوسف بن عامر عرف أهل تعز مقدار الشخصين وفرق بين الفريقين فإن عبيد أم يوسف كانوا يظلمون الناس ولا تنصف منهم وهذه كانت تنصف ولا تتساهل ولها من الصدقات وأفعال الخير ما لا يحصى رحمها الله تعالى.

وفي ذي القعدة منها وصل الشيخ أحمد بن محمد بن داود أميراً من قبل عمه الملك المنصور في عسكر وافر وأقام بزبيد إلى أول سنة ثلاث وتسعين وفي ربيع الأول من سنة ثلاث وتسعين وصل الملك المنصور إلى زبيد في عسكر جرار وولى أحمد الدلج نظر الوقف وقصد الملك المنصور البلاد الشامية ومعه ولده الظافر ومحمد ابن أخيه عبد الملك ثم وصل بعده الشيخ عبد الله بن عامر وخرج معه فأقاموا بالزيدية مدة وتحصن الزيديون بمكان الوعر من بلادهم ثم وقع الصلح على تسليم مال وخيل فسلموه وارتفع عنهم ومر بالرماة واللاميين[1] وأخذ خيلهم ودخل زبيد في جمادى الأولى في أبهمة عظيمة فلبث أياماً وتصدق بصدقة جليلة، وفي أخر السنة المذكورة حصلت ريح عظيمة انكسر بسببها في بندر عدن ثلاث عشر مركباً وفي الشحر وغيرها من البلاد ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي نصف شهر المحرم من سنة أربع وتسعين قدم مولانا صلاح الدين عامر عبد الوهاب إلى مدينة زبيد وفي صحبته ابن عمه أحمد بن محمد بن داود في عسكر جيد ثم خرج العسكر في صحبة الأمير محمد بن عيسى البعداني إلى الجهات الشامية فأخذ خراجها ثم عاد إلى زبيد بمال وخيل كثيرة وصحبته مشايخ العرب ومنهم أبو القاسم الشرياني فأكرمهم السلطان وأنعم عليهم واستدعى الملك الظافر بالفناجدة[2] من عدن فعملوا أعمالهم بزبيد وأطلق أولاده بن حفيظ وكان قد نزل بهم صحبته وكساهم وأنعم عليهم وأعطاهم خيلاً يركبونها بعد أن استوثق منهم بالايمان وأخذ نساءهم وأولادهم رهائن.

وفي مدة إقامة الظافر بزبيد أمر القضاة والعلماء بعمارة المساجد والمدارس فامتثلوا طائعين وعمرت كما رسم ثم سار إلى تعز ثم إلى جبن فاجتمع بوالده بها ولم يزل عنده إلى أن انتقل

(١) سلف الكلام على الرماة وأما اللاميون فإنهم خليطون للرماة من قبيلة واحدة وقد تقدم ذكرها.
(٢) لم تظهر هذه الكلمة وفي ع: بالصاحر مهملات.

والده بالوفاة إلى رحمة الله تعالى عشية الثلاثاء سابع جمادى الأولى فعظم به مصاب المسلمين أدخله الله برحمته في عباده الصالحين.

وكان الملك المنصور ذا رأي سديد وجد سعيد وبأس شديد له المحاسن المشهورة والوقائع المذكورة وكان حليماً كثير الصدقة عظيم الشفقة على المساكين محباً لأهل العلم والدين.

ومن بعض محاسنه التي عم نفعها الأنام وشكرها الناس على الدوام تأكيده على نوابه في سقي أراضي الوادي زبيد وغيرها أن يسقى الأعلى فالأعلى ولا يعدل لأحد بقناعة وجعل نفسه في ذلك كآحاد المسلمين وهذا على ما تقتضيه الشريعة المطهرة فاستمر الأمر كذلك بغير نزاع.

ومن محاسنه العظيمة وشمائله الكريمة تعففه عن الأوقاف والتعرض لها وجعل وجهها إلى قاضي القضاة تديناً وتعففاً فجزاه الله أفضل الجزاء.

ومن مآثره الدينية مدرسته المنصورية التي أنشأها بزبيد وتجديد مسجد الأشاعر بها وله مدرسة بالمقرانة وأخرى بجبان[1] وزيادة مقدم جامع ذي عدينة بتعز، والمنبر المنصوب بالزيادة المذكورة ومسجد بمدينة إب[2] والبركة الصغرى بجامع زبيد وعدة سبل وسقايات وصهاريج[3] وأسداد في بلاد متفرقة تقبل الله منه، وكانت مدة خلافته إحدى عشرة سنة وشهرين إلا قليلاً والله أعلم.

الفصل الثالث

في ذكر دولة السلطان بن السلطان قرة عين الزمان

صلاح الدنيا والدين بقية الخلفاء الراشدين الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب بن داود ابن طاهر أدام الله أيامه الزاهرة ودولته القاهرة ولا زالت أركان الدين به أكيدة مشيدة وشموس سعادته طالعة وأمور المسلمين برأيه الميمون منظمة حميدة طالعة وبروق مجده لامعة ومضارب نصاله لاعدائه قاهرة وسحائب نواله لأوليائه عامرة ما أنهلّ قطر وزخر بحر.

---

(١) لا يعرف موضع مسجد الخليفة عبد الوهاب المذكور واني أذكر أن والدي كان يتحدث عنه.

(٢) لا يعرف هذا المسجد باسم السلطان المذكور في نفس مدينة إب.

(٣) في طريق دمت إلى المقرانة وإلى جبن كثير مما ذكر المؤلف.

أعلم وفقك الله أن الملك المنصور لما مرض عهد إلى ولده الملك الظافر بالخلافة وقلده إياها ولم يكن لها ويومئذ أهل غيره فهو كما قال الشاعر[1] :

أتتـــك الخلافـــة منقـــادة إليـــك تجرجـــر أذيـــالها
فلـــم تـــك تصلـــح إلا لـــه ولـــم يـــك يصلـــح إلا لهـــا
ولـــورامهـــا أحـــد غيـــره لـــزلـــزت الأرض زلـــزالها

فتقلد الخلافة على المسلمين بالعهد الصحيح الشرعي وبإجماع الأمة على إقامته وصلاحيته لذلك فاستحلف الأمراء ومن حضر وقرر أحوال الناس وكسا وجوه القبائل وأحسن إليهم بعد فراغه من تجهيز والده والعزاء به ثم انتقل من جبن بعد ثلاثة أيام إلى المقرانة فمكث بها أياماً فضاقت لكثرة الوافدين إليه من القبائل فتوجه إلى تعز بعد أن حلف له خاله عبد الله ابن عامر على ما اتفقا عليه فدخل تعز سادس عشر جمادى الأولى فلبث بها خمسة أيام فجاءه الخبر بأن عبد الله بن عامر وأخويه محمداً وعمر خالفوه وأخذوا حصن جبن [2] ونهبوا بيوتاً منها بيت الشيخ عبد الملك وبيت الأمير محمد بن عيسى البعداني وبيت التاجر الذرحاني، فبادر الملك الظافر ونهض إليهم واستخدم الرجال وبذل المال وأقبل إليهم بجيش جرار فوصلهم في السادس والعشرين من الشهر المذكور فزحف العسكر الظافري وقامت الحرب على ساق وقتل من الفريقين خلق واستمر الحرب، واستحكمت الفتنة وظهر النفاق وتمني متمنون ويأبى الله ألا أن يتم نوره ولو كره الكافرون

ولما علم عبد الله بن عامر بقرب الملك الظافر من جبن خرج منه إلى ناحية جبل حرير [3] ولم يكن عند حصار الظافر لها فأرسل الظافر بعده عسكراً عليهم الشيخ أحمد بن محمد فلحقه فولى منهزماً وقتل من أصحابه عدة وأسر ابن أخيه داود بن أحمد بن عامر ونهب المال الذي صحبه فوصلوا بداود إلى الظافر فأمر بحفظه راكباً للأدهم الحديد ودام الحصار على جبن مدة خمسة وخمسين يوماً ثم ارتفع الظافر إلى المقرانة بعد الاتفاق على قاعدة رضي بها الفريقان [4] ثم توجه إلى رداع للنظر في أمور تلك الجهة فبلغه الخبر أن محمد بن عامر نقض

---

(١) الشاعر هو أبو العتاهية قالها في الخليفة هارون الرشيد.

(٢) حصن جبن عظيم أمره فيه الكرف والبنايات المتهدمة وتقع مدينة جبن في أسفله بدون فصل والجبال محيط بها من الغرب والجنوب والشمال.

(٣) جبل حرير من جبال اليمن المشهورة فيه القوى الكثيرة والحروث والزروع ومن مزروعاته القات والموز والبن والبر والقمح وغيرها. ويقع جنوب شرقي قعطبة المشهورة في عصرنا من بلد حجر وبدر.

(٤) ليت ان المؤلف أثبت هذه الاتفاقية فإنها كانت وثيقة سياسية تبين لنا من هو أول من نقض العهد.

ما قرر وعاث في البلاد وعزم إلى جهة تعز مـرافقـاً للمنتصر العـربي[1] وابـن صـاحـب مرعيت[2] فوصل تعز ثالث شهر رمضان وكان قد رخص له جماعة قصد تعز وأنها ليس بها من يقاوم وكان عمر بن عبد العزيز بها فلم يحصل منه نهضة وكان شمس الدين المقري بها فحث الناس وندبهم إلى الدفع عن أنفسهم فقاتلهم أهل تعز فهزموهم وقتل ابن صاحب مرعيت في أول يوم ثم وصل في اليوم الثاني الشيخ محمد بن عامر والمنتصر العربي في عسكر إلى المدرسة الأفضلية وانتهبوا بعض البيوت هناك ووقع بينهم وبين الناس مراماة وعمر بن عبد العزيز بالقسطال[3] ولم يبرز فاتهم ثـم انهـم رجعوا في يومهم من حيث جاءوا خائبين، وكان الشمس المقري قد أرسل إلى أهل صبر يحذرهم الخلاف ويعرفهم أن المعاقل والمال والرجال مع الظافر وأن أمر هؤلاء يؤول إلى التلاشي ثم ان المخاليف اضطربت وماج أهلها وكان الشيخ محمد بن عبد الملك بعدن أميراً من قبل الظافر فأمر بإخراج أهل يافع منها في رجب من سنة أربع ومنهم نحو خمسمائة إنسان ما بين صغير وكبير.

وفي إقامة الملك الظافر برداع وصل إليه القاضي عبد العليم البريهي فأعلمه أن أهل بعدان وغيرهم يموجون كما يموج البحر لا يسكنهم إلا وصوله فتوجه إليهم ومر في طريقه ببني سيف وكانوا قد خالفوا فقتلهم وأخذ حصنهم فدخل إب حادي عشر رمضان ثم خرج منها تاسع عشر الشهر المذكور إلى بلد صهبان[4] فكان بينه وبين محمد بن عامر والمنتصر العربي موقعة تحت النجد الأحمر[5] فهزمهم هزيمة شنيعة تركوا فيها خيامهم وخيلهم وما معهم من المال فأسر خمسمائة أسير فعفا عنهم الظافر وأخلى سبيلهـم وكـان هـذا أول الفتـوح الظافرية وقيد عمر بن عبد العزيز بعد هذه الوقعة ثم أن عبد الباقي بن محمد بن طاهر لفق جماعة من يافع وغيرهم وتوجه بهم إلى عدن وكان من المخالفين مع بني عامر فوصل لحج وأخذ مـالاً من الضامن وتوجه إلى عدن فبرز إليه محمد بن عبد الملك بمن معه وقد أوصى

---

(١) العربي نسبة إلى العربين البلد المتقدم الذكر وهو بفتح العين المهملة وسكون الراء.

(٢) مرعيت بفتح الميم وسكون الراء وكسر العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحت ثم تاء مثناة من فوق: عزلة من جبل صبر شرق جنوب تعز.

(٣) لا يعرف القسطال اليوم.

(٤) صهبان بضم الصاد المهملة آخره نون وهو ما كان يسمى قديماً مخلاف نعيمة وهو مخلاف واسع جنوب مدينة إب بقدر ميلين يفصل بينه وبين جبل بعدان وادي ميتم والنجد الأحمر المذكور يعد هو الفاصل بين أعمال مدينة جبلة وهذا المخلاف.

(٥) النجد الأحمر يحمل هذا الأسم إلى عهدنا وعليه المحجة إلى تعز ويطل على الجند وصبر وتلك النهوج.

المرتبين في الحصون بأن البلد لعامر فإن أعان الله في نصر فنحن على ما كنا عليه وإن كانت الأخرى فلا تسلموا البلد إلا لمولاها وخرج فلما التقيا حمل عبد الباقي على محمد فتلقاه عبد أسود لمحمد فضربه بجحفة في ساعده فكسره فولى منهزماً وانهزم أصحابه فأخذوا وأسروا ونجا عبد الباقي بنفسه بعد أن كاد يدخل بالأسرى إلى عدن وكانوا نحو أربعمائة فكحل بعضهم وقطع آخرين.

وفي شوال من السنة المذكورة غزت العساكر الظافرية بزبيد المعازبة فقتلوا منهم نيفا وعشرين رجلاً وفي ثاني عشر شوال كانت قصة أحمد المقرطس شيخ دار الضرب وقابض الأموال السلطانية بزبيد. كان قد حالف جماعة من أهل الجبل على قتل محمد بن عيسى البعداني وهو يومئذ زوج أخت المقرطس وأقرب الناس عنده وبسببه عظم شأنه فدخل على الأمير وفرق جماعة بحيلة ولم يبق عند الأمير إلا عبد فلما خلا بالأمير وثب عليه وقبض على مقبض سيفه وأشار إلى الرجلين اللذين طلعا معه بالفتك بالأمير فقال له الأمير عيب يا أحمد قال نعم فارعد الرجلان ولم يتحركا وهو ممسك بالأمير فأشار الأمير إلى العبد بضرب المقرطس فضربه في عضده فافلت الأمير فطلع الأمير إلى رأس الدار فصاح وأعيباه حتى أسمع العبيد وخرج المقرطس هارباً فاختفى في بيوت متعددة فاشتد البحث والطلب له فخرج قاصداً بيت بعض المناصب ليتجور فادركه ديواني [1] فضربه ضربات برأسه بعصى ثم صادفه عبد الملك الظافر فطعنه قبل وصوله إلى الجورة بخنجر حتى قتله وسلبه وبقي عريان في الشارع فأمر الأمير بحمله إلى بيته وأحيط على ما وجد ببيته ثم غسل وكفن ودفن وكان في نعمة فابطرته النعمة فبغى وسعى في فساد دولة سلطانه فأبى الله إلا ما يريد وكان في تدبيره تدميره. وقتل الرجلان اللذان دخل بهما صحبته عقيب هزمته فوراً فسحبا وعلقا على شبابيك الدار بارجلهما ولعبت الخيل عليهما وأطلع الأمير على الذين بايعوه فأوقع بهم وكحل بعضهم ثم ان الملك الظافر طلب الأمير المذكور إلى تعز فطلع إليه في أثناء ذي الحجة وأرسل إلى زبيد مكرد العجلمي أميراً عليها، ثم وجه البعداني إلى عدن بأمر الظافر ثم لحقه الظافر إليها وكان محمد بن عبد الملك مقيماً بها فوصل العلم إلى الظافر وهو بها أن عبد الله بن عامر قبض حصن الشذف [2] ثم جاءه قريباً الفقيه على بن محمد النظاري مبشراً باسترداده فسر بذلك وأكرم المبشر غاية الأكرام ثم توجه الظافر ومحمد بن عبد الملك إلى

---

(١) الديواني نسبة إلى الديوان وهم الكتبة الذين يعملون في حسابات أموال الدولة ويبدو أن هذه القصة طرف من أطراف مؤامرة كبيرة كان لها مخطط فلم تنجح بدليل ما بعد هذا والعجب من الأمير البعداني حيث لم يثب هو وعبده على المقرطس وعلى الرجلين حتى عمل ما عمل.

(٢) مضى الكلام على حصن الشذف.

ناحية بلدهما وعدلا إلى الجند فبلغ الظافر ومحمد بن عبد الملك عن ابن عمه أحمد بن محمد بن داود ما لا يقال فيه العثرة فقبضه وقيده واسكنه قلعة تعز مرفهاً.

وأما الأمير محمد بن عيسى فلم تطل مدته بل توفي في صفر سنة خمس وتسعين [1]، وفي أوائلها حصل بين الملك الظافر وبين عبد الله بن عامر ومن معه وقائع ينصره الله فيها عليهم منها يوم النمصة [2] هزم فيها عبد الله وجماعته وقتل منهم نحو عشرة وأخذت خيلهم وما معهم ولم ينج عبد الله إلا بنفسه ثم ان الظافر عاد إلى حصن جبن في أثناء شهر ربيع الأول ورابط العسكر عليها وعاد عبد الله بن عامر فلزم الربيعتين [3] وهو موضع يستجار فيه وأقام فيه عبد الله ومحمد ابنا عامر وعبد الباقي بن محمد بأهلهم وأموالهم ومعه جماعة من يافع وكانوا يغيرون على أطراف المحطة ويأوون إلى المكان المذكور فتخير الملك الظافر جماعة من القبائل فكان يسرح بهم إلى الربيعتين ويعود إلى جبن ودام على ذلك أياماً وقتل من أصحاب الظافر شداد بن محرز العنسي ثم ان الملك الظافر جد في الأمر وحث القبائل فحملوا على الربيعتين وطلعوا إليها من كل جهة فانهزم عبد الله بنفسه في غير طريق ونهبت القرية المذكورة وما حولها ولزم داود بن علي بن تاج الدين بن طاهر ومحمد بن عباس صاحب الشوافي خال يوسف بن عامر واستراح خاطر الملك الظافر من تلك الجهة فلما تم ذلك انقطع رجاء أهل جبن فذلوا فراسلوا للصلح وتسليم الحصن فقبل الملك الظافر فنزلوا وخرجوا بمن معهم وكان تسليمهم له آخر جمادى الأولى ولم يغير على أحد منهم إلا أم يوسف بن عامر فإنه احتفظ بها إذ قيل إنها كانت السبب في إثارة الفتنة وكانت مدة هذا الحصار الثاني خمسة وسبعين يوماً وكان ذلك اليوم عبد الله بن عامر بجحاف [4] ولم يكن منه ولا من أخوته بعد أخذ جبن كثير فعل ولا نكاية.

ولما اشتغل الملك الظافر بحرب هؤلاء الخارجين عن الطاعة عظم فساد العرب بتهامة

---

(١) المؤلف الديبع دقيق التفكير والملاحظة فإنه يشير إلى من اخترمته المنية اعتباطاً وليس بموت طبيعي بقوله ولم تطل مدته لما تنطوي القصة من أسباب غامضة.

(٢) النمصة في عرفنا معاشر اليمنيين الموضع المستنقع كثير المياه والمراعي ولعل النمصة هذه قريب جبن فهناك كثير من هذا النوع.

(٣) الربيعتين بضم الراء وفتح الباء الموحدة ثم ياء ساكنة من تحت ثم عين مهملة ثم تاء متناة من فوق وياء مثناة من تحت ثم نون حصون وشناخب كبيرة وقرى تطل على بلد يافع سرو حمير من الجنوب وهي جنوب شرقي جبن بمسافة نصف يوم وهي أمنع من عقاب الجو.

(٤) جبل جحاف بفتح الجيم وبضم الحاء المهملة آخره فاء من جبال اليمن المعروفة جنوب غرب قعطبة ويحتوي على قرى ومزارع وحصون وعداده اليوم من الجنوب اليمني ومركز أعمالها الضالع.

فقطعوا الطرق ونهبوا الناس فأرسل الملك الظافر محمد بن عبد الملك فوصل إلى زبيد ثالث شهر شعبان في سنة خمس وتسعين في عسكر كثيف وصحبته العلامة شمس الدين المقري والفقيه جمال الدين النظاري ثم خرج محمد بن عبد الملك إلى نخل المدني فقطع ثمرته وتوجه إلى بيت الفقيه بن عجيل وفر المعازبة إلى الحازة[1] فأقام بالعسكر في قرية الكدحة[2] وكانت العساكر مرابطة والمعازبة يتخللون ليلاً وينهبون الناس بين زبيد وبيت الفقيه ثم انهم اذعنوا للصلح وسلموا مائة فرس فرفع الحصار عنهم وتوجه بالعسكر إلى بني حفيظ فأخذ خراجها وخراج وادي مور ورجع إلى زبيد فمكث بها مدة ثم خرج للمعازبة لامتناعهم من تسليم بعض ما وقع عليه الصلح فصبحهم وقتل منهم نحو أربعين ومكث بزبيد إلى شهر ذي الحجة ثم طلع إلى تعز وكان الملك الظافر قد سار إلى عدن في رمضان من السنة المذكورة وعيد بها عيد الفطر وجهز المراكب إلى الهند ثم رجع إلى بلده.

وفي ذي القعدة منها غزا الملك الظافر إلى ذمار ومر في طريقه برداع العرش فأقام بها حتى اجتمعت عساكره ثم توجه إلى ذمار وحاصرها من أواخر ذي القعدة إلى سابع ذي الحجة ثم أخذها عنوة وكان أهلها قد بنوا سورها وحصنوها وكان القائم بذلك الشريف محمد بن علي الوشلي[3] وهو رأس الخلاف وخرج جماعة من أهلها لقتال العسكر الظافري فهزمتهم العساكر المنصورة هزيمة شنيعة وقتل من فرسانهم الشريف محمد بن الحسين من أهل الجوف في جماعة وأخرب العسكر المنصور دربها فدخلها الظافر ورتب فيها من يثق به ثم دخل عليه أهلها وسألوه الأمان والذمة فأجابهم إلى ذلك واشترط عليهم تخريب ما بنوا ما سورها فبادروا إلى ذلك فكانوا كما قال تعالى: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾[4] ثم رجع الملك الظافر إلى بلده منصوراً ثم نزل تعز ثم إلى زبيد فدخلها ثامن شهر صفر من سنة ست وتسعين وهي أول دخلة دخل إليها بعد خلافته وفي صحبته ابنا عميه محمد بن عبد الملك وداود بن محمد بن داود ثم قصد البلاد الشامية فوصل الزيدية ودخل عليه جماعة من بني حفيظ والزيديين وفيهم سالم بن قاسم الشرياني فقبضهم وقيدهم لذنوب تواترت منهم وكانوا واحداً وثلاثين رجلاً وأرسل بهم قبله إلى زبيد ثم غزا المعازبة من بيت الفقيه بن عجيل فقتل منهم جماعة وأحرق قراهم ثم دخل زبيد مؤيداً منصوراً وأمر بإطلاع بني حفيظ

---

(١) الحازة هي منتهى الجبال القريبة إلى سهل تهامة من الشرق التي تبتدي منها الجبال فيقال حازة الجبال والكلمة مستعملة.

(٢) الكدحة قرية عامرة في بلد المعازبة من أعمال مدينة زبيد فوق الزريبة من شرقي شمال زبيد.

(٣) راجع تواريخ اليمن.

(٤) سورة الحشر الآية (٢).

معه إلى تعز وأمر بتفريقهم في الحصون ثم طلع إلى تعز في جمادى في السنة المذكورة وكان متولي زبيد بعد أن فارقها البعداني الشيخ مكرد بن العجلمي فما زال يغير على المعازبة ويرجع منصوراً إلى أن خرج سادس شهر شعبان غازياً للمعازبة وقد أرسل للقرشيين والأشاعر وأهل التريبه كالعادة فلقوه فأغار بالجميع فظفروا بالمعازبة وقتل منهم فوق الثلاثين من وجوههم وشبانهم وتفرق العسكر للنهب وارتفع النهار واشتد الحر وكانت الوقعة بجزيران فبقي الأمير في نفر يسير فعطف عليه جماعة من فرسان المعازبة فتبعوه وعرفوا أن فرسه قد قصر فلم يزل يداعبهم، ويهزمهم ثم يرجعون عليه حتى كثروه فقتل وقتلوا معه جماعة من عسكره ودخل باقي عسكره إلى زبيد بالروس وكان أول يوم له وآخره عليه.

ولما بلغ خبره إلى الملك الظافر أرسل أخاه الشيخ جلال الدين عبد الملك ابن الملك المنصور فدخل زبيد رابع شهر رمضان صحبته مائة فارس فاستقر بزبيد. وخرج الأمير عمر الجبني في العساكر إلى بيت الفقيه بن عجيل وأقام بها نحو شهر ووفدت إليه العرب وقرر أحوالهم وأدوا له جملة من الخيل.

وفي شوال من هذه السنة المذكورة استولى الملك الظافر على حصن الظفر [١] بعد أن داوم عليه وأخذ جميع ما هنالك وتقدم إلى مكان يعرف بالصفر [٢] فأقام به أياماً وأخذ حصن ثماد قهراً ثم حط على حصن عميقان [٣] أياماً وكان به خاله الشيخ محمد بن عامر فجاءت القدرة بخاله إلى محطة الملك الظافر بجحاف فقبض في آخر القعدة وحمل إلى المقرانة ثم قيد وأودع دار الأدب برداع العرش عند إخوته، وتسلم الظافر عميقان في آخر ذي الحجة وتسلم جميع ما كان تحت أخواله من الحصون ولم يبق بأيديهم سواحص الساقة وحصن المعفاري [٤] الآتي ذكرهما إنشاء الله تعالى.

وفي جمادى من سنة تسع وتسعين أخذ الظافر حصن الساقة قهراً بالسيف وأقام الشيخ عبد الملك بن المنصور بزبيد من عقيب قتل مكرد إلى أن استدعاه الملك الظافر في شهر ربيع

---

(١) سلف ذكره وأنه من بلد حمر: ماوية شرقي تعز ويقال له اليوم: الظفير بزيادة الياء بعد الفاء.

(٢) والصفرا هنالك في حمر بلاد الكاسك شرق جنوب تعز.

(٣) حصن ثماد بفتح الثاء المثلثة آخره دال مهملة لا يزال عامراً في جبل جحاف وحصن عميقان بضم العين المهملة وفتح الميم آخره نون حصن أيضاً في جبل جحاف.

(٤) حصن الساقة بالسين المهملة والقاف آخره هاء حصن في الجبل المذكور والمعفاري بكسر الميم وسكون العين المهملة ثم فاء وآخره ياء بعد الراء وهو حصن عظيم من أمنع حصون اليمن ولا يزال عامراً ولا يطلع إليه إلا بسلّم فإذا رفع السلّم كان أمنع من عقاب الجو.

من سنة سبع وتسعين ثم وصل صحبة أخيه إلى زبيد منتصف شهر رجب ثم خرج غازياً للمعازبة ثامن عشر الشهر المذكور فنزل شرقي قرى الكدحة محاصراً للمعازبة في الهيجة[1] حتى طال عليهم الحصار وأشرفوا على الهلاك من عدم الطعام وقلة الماء وهلك من صبيانهم خلق كثير ثم خرج مشايخهم على ذمته وطلبوا الأمان فعفا عنهم وقالوا يا مولانا عد أنا كنا كفاراً فأسلمنا على يديك فعفا عنهم وأرسل لهم بأحمال من الخبز لما تحقق ما وصلوا إليه من الجوع المهلك وكانت وجوههم قد اسودت وجلودهم قد يبست فرفع عنهم المحطة وتوجهوا إلى زبيد بعد أن سلموا له الخيل فدخلها آخر شعبان ثم طلع تعز في نصف رمضان وولى زبيد طاهر ابن شريف وأمر عند طلوعه بتجديد مسجد الجامع وأن ينقض ويرفع عما كان عليه فهدم جميعه وعمره عمارة معظمة مشاهدتها تغني عن وصفها وكان ومعماره شمس الدين علي بن حسن العكبار يتعجب من عدم المغتسلات والأخلية فـي هذا الجامع العظيم المقدم العمارة وكانت له فطنة وذكاء وسياسة وكان يقول لا يعدم هذا الجامع المرتفعات والعادة المطردة أنها لا تكون إلا من جهة الوراء وأراد إنشاء بركة من الجانب اليماني زيادة على بركة الملك الأشرف وبركة الملك المنصور عبد الوهاب الشرقيتين فتحير أين يجعلها فلما أراد عمل باب من جهة اليمين حفروا هنالك للأساس فوجدوا أساساً خـارجـاً عـن أسـاس الجامع متصلاً به فتبعوه حتى وجدوا هذه البركة العظيمة وما إليها من المغتسلات فأظهر الله ذلك على يديه ليتضاعف الثواب لمولانا الملك الظافر فعمرت ورفعت هي وما اتصل إليها من المرافق وعظم النفع بها وعم وحسن الجامع المبارك وتم ولم يتحقق من إنشائها وغالب الظن أنها من إنشاء الحسين بن سلامة الذي أنشأ الجامع المذكور .

وفي السابع عشر من شهر ربيع الأول من سنة ثمان وتسعين أخذ الملك الظافر حصن المعفاري وهو من جحاف مشهور بالحصانة وصعوبة المرتقى وكان المحاصر له الشيخ عبد الملك بن الملك المنصـور والفقيه محمد النظاري فبذلا لأهله مبلغاً من المال على أن يخرجوا منه سالمين بما معهم وكانوا قد ضاقوا وقلت الأقوات عليهم فخرجوا منه آمنين وكان قد خرج من المعفاري جمع كثير من يافع يريدون هجم محطة الملك الظافر وهو إذاك محاصر لأهل بيضاء حصى[2] فلما علم الظافر بهم أرسل من عسكره جماعة يأخذون لهم بمجامع الطرق

---

(١) الهيجة هي الغابة ذات الأشجار الكثيرة المدوحة وذات الشوك الملتفة والملتوية بعضها كأنها الحلقة المفرغة لا يرى ما فيها إلا من اخصاص وخلال كحدقة العين أو أكبر منها ويسمى اليوم هذا الموضع : القصرة ، وفيها كان يتحصن المعازبة والزرانيق في حربهم مع أحمد الإمام حميد الدين سنة ١٣٤٧ وما بعدها إلى سنة ١٣٤٨ راجع تاريخنا .

(٢) بيضاء حصى هي اليوم مدينة لمخلاف سرو مذحج ولم تظهر كمدينة إلا في هذا التاريخ .

فلما التقى الفريقان كانت الصولة للعسكر الظافري فقتل من يافع فوق المائة وأسروا مثل ذلك وفي سابع شهر ربيع الآخر أخذ الظافر حصن مدينة بيضا حصى المسمى بشمر جناح قهراً بالسيف وهو حصن عظيم مشهور بالمنعة وانقطعت بأخذه مادة الفساد في البلاد الشرقية ولازم الظافر المحطة بنفسه وحوصر من ذي الحجة من سنة سبع وتسعين إلى شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وتسعين وقبض على علي بن مزاحم وقتل أبو بكر مزاحم [١] في خلائق كثيرة معهم وأخربت المدينة وحصنها بالمنجنيقات فلما علم أهل حصن مفلحة وحصن الكلب وحصن رداع الحرامل بقبض حصن البيضا سلموا حصونهم راضين [٢].

وفي أوائل هذه السنة ثارت الحرب بين القرشيين بني أبكر وبني علي فقتل في أول وقعة من كل فريق اثنان ثم قتل من بني علي ولد العفيف بن غراب فاجتمعوا في اليوم الثالث رابع جمادى الأولى وغزوا قرية القرشية في جمع كبير فالتقاهم بنو أبكر فحصل فيهم جولة قتل فيها ثلاثة من بني أبكر منهم البهيد زين البلح وآخران ثم نصر الله بني أبكر بعد أن دخل بنو علي القرشية فانهزم بنو علي فقتل منهم نحو الخمسين وقتل معهم ممن ساعدهم.

وفي سادس شهر جمادي الأخرى من السنة المذكورة غزا بنو علي بني أبكر مرة ثانية إلى القرشية فالتقت الفئتان وقتل من بني أبكر ثلاثة ثم هبت ريح النصر فهزموا بني علي ومن انضم إليهم من الشكارية والأعلين هزيمة شنيعة وقتلوا منهم فوق الخمسين.

وفي ثالث ربيع الأول من سنة تسع وتسعين وصل الملك الظافر إلى تهامة وعرج عن دخول زبيد فمكث بقرية الزريبة [٣] وصحبته محمد بن عبد الملك وداود بن محمد بن داود وعبدالله بن أحمد بن عامر وداود بن علي بن تاج الدين والأميران عمر بن عبد العزيز وعلي بن محمد البعداني، وغزا المعازبة هنالك فصبحهم يوم جمعة فأباد منهم جمعاً ونهب مواشي وأموالاً ثم دخل زبيد فمكث بها مدة يسيرة ثم توجه إلى الجهة الشامية في ربيع الأول ثم رجع ثامن جمادى الأولى وقد أخذ من العرب فوق مائتين وعشرين فرساً وأخذ منهم أموالاً لا تحصى فأذلهم وأصغرهم.

وكانت المدينة بهذا المخلاف مدينة حصى الأثرية المنوه بها في كتب «لسان اليمن» راجع اليمن الخضرا ص ٧٥ والاكليل ج ٢ ص ٣٦٢ وصفة جزيرة العرب وتقع حصى شرقي البيضاء وحصن شمر في وسط مدينة البيضاء.

(١) بنو مزاحم من قبائل البيضاء ثم من مذحج.

(٢) هذه أماكن في سر ومذحج: بلاد البيضاء في الغرب الجنوبي من البيضاء ورداع الحرامل فوق عقبة ثرة للهابط من البيضاء إلى دثينة وهي اليوم خراب.

(٣) الزريبة: قرية حية لهذا التاريخ في شرقي زبيد.

وفي رابع جمادى الأولى من السنة المذكورة عزل الملك الظافر الفقيه عبد المنعم الضجاعي وأولاده عن وظيفة الخطبة بجامع زبيد لهفوة حصلت منه ومن أبيه موسى كما يقال، وفي يوم الجمعة المذكورة وقف الملك الظافر جميع ما دخل في المسجد الجامع من آلة العمرة بحضرة الفقهاء وفي تاسع جمادى الآخرة ولى الملك الظافر العلامة شهاب الدين أحمد بن عمر المزجد[1] وهو بمدينة زبيد قضاء مدينة عدن وعزل الفقيه محمد بن حسين بن القماط عن الوظيفة المذكورة وفي هذا اليوم وقف الملك الظافر الأرض المعروفة بأم الرزق[2] على الجامع بزبيد ووظف فيه الوظائف وفي اليوم الذي يليه سافر الملك الظافر إلى تعز وطلع القاضي شهاب الدين المزجد صحبته وولى الظافر الشيخ علي بن عمر العنسيي مدينة زبيد وذلك بعد وصوله من الحج والزيارة فضبط البلد، وفي شهر رجب من السنة المذكوة حصلت صاعقة بعد مطر خفيف قبيل العصر هلك بها الفقيه موسى بن أحمد الناشري وولده علي رحمهما الله تعالى.

وفي سادس شوال منها تسلم السلطان حصون الجحادر[3] وهي العروسين والنبيلة والذيل والشرنمة والحدة واكمة قيراط[4] وقبضها وتصدق على أهلها بمال جزيل.

وفي سنة تسعمائة أمر الظافر بإصلاح ما تشعب من الدار الكبير النصري وعمارته بما يحتاج إلى عمارة، وفي اليوم الحادي والعشرين من ربيع الأول طلع الأمير علي بن عمر العنسي إلى تعز باستدعاء الظافر له وجعل ابنه عمر نائباً عنه ولم يزل الأمير علي بن عمر عند الملك الظافر حتى نزل صحبته إلى زبيد فدخلها السلطان ثاني عشر ربيع الآخر وصحبته محمد بن عبد الملك وجماعة من آل طاهر وفيها أمر السلطان الظافر بعمارة المسجد المجاور للدار الكبير الناصري فعمر عمارة معظمة وتسمى الظافرية وكان يعرف بمسجد السابق تقبل الله منه وفيها أمر الملك الظافر بعمارة جسر مخرج الماء مغتسلات مدرسة والده المنصور إليه ثم ينفذ إلى خارج المدينة وكان يخرج قبل ذلك إلى مصب قريب من المدرسة المذكورة فتضرر جيران المدرسة لذلك ورفع الأمر إليه فأمر بعمارته وأنفق في ذلك من ماله شيئاً كثيراً جزاه الله خيراً.

---

(١) بنو المزجد من الأشاعر أهل علم ومعرفة لهم بقية إلى يوم الناس هذا كذا أخبرني بعضهم بزبيد.

(٢) أم الرزق ضيعة من مزارع شرقي زبيد محتفظة باسمها لهذه الغاية.

(٣) الجحادر قبيلة نسبت إلى القيل علوان الجحدري المتقدم الذكر.

(٤) العروسين قد تقدم ذكره وما بعده حصون من العود معروفة شمال قعطبة وحدة هنالك وينسب إليها نقيل حدة الذي يهبط منه إلى حجر وبدر بلاد قعطبة ويصعد منه إلى وادي بنا.

وفي مدة إقامة الظافر بزبيد في السنة المذكورة قدم عليه بكتاب الخادم الزركشي[1] وكان قد أرسل بمال إلى مكة ليشتري له فاشترى له بتسعين اشرفياً وكان أربعة عشر مجلداً فحصل به النفع للطلبة لأن صاحبه متأخر وفيه فوائد كثيرة فأمر بتحصيل نسخة أخرى عليه وتركها بزبيد موقوفة ينتفع بها العلماء أحسن الله جزاه، وفي يوم الثالث والعشرين من جمادى الأولى ولد مولانا تاج الدين عبد الوهاب ابن الملك الظافر من ابنة عمه الشيخ محمد بن داود قر الله به عين والده، وفي اليوم الخامس عشر من جمادى الأولى طلع مولانا السلطان إلى مدينة تعز وتصدق في أيام طلوعه بصدقة عظيمة عميمة حسن الله جزاه.

ولما استقر الظافر بمدينة تعز أمر بتخريب درب المنصورة[2] لموجبات لذلك وأمر بعمارة حصن حب فامتثل أمره الشريف. وفي أول ذي الحجة منها غزا الأمير علي بن عمر العنسي العبيد العامريين بجمع كثير دخل عليهم من باب الهيجة الذي يسمونه الفرق فوقع قتال ونال كل فريق من الآخر ثم رجع إلى بيت العقال ثم تقدم إلى الجهات الشامية فوصله الصميون إلى قرية الضحى يستمدونه على الواعظات فأمدهم من العسكر فقتلوا من الواعظات سبعة وعشرين نفراً وكانت الوقعة في شهر محرم من سنة إحدى وتسعمائة.

وفي هذه السنة وقع طوفان عظيم بناحية الهند غرق بسببه في بندر الديو عشرة مراكب، وفي الناحية أربعة وتلف فيها من المال ما لايحصى وفي الشهر المذكور أوقع الأمير علي بن محمد البعداني بأهل يعر من ناحية ملص[3] فقتل منهم سبعين وأسر أربعين ثم أغار عليهم في اليوم الثاني عشر من الشهر المذكور واجتمعت الفئتان بموضع يعرف بذي الحود[4] فهزمهم

---

(١) الزركشي من علماء مصر الشافعية انظر الاعلام للزركلي ففيه ترجمته.

(٢) لا نعرف أي المنصورة هي منصورة الدملوة التي بالصلو أو غيرها.

(٣) يعر بفتح الياء المثناة من تحت والعين المهملة آخره راء مقاطعة من مغرب عنس وأعمال مدينة ذمار بالغرب الشمالي منها بمسافة نصف يوم وملص بضم الميم واللام آخره صاد مهملة بلدة كبيرة هنالك ويستخرج منها العقيق البقراني المشهور وكذا الجزع ولهم خبرة باستخراجه كما لهم خبرة أيضاً بقدح العيون من العمش.

(٤) ذي الحود بضم الحاء المهملة آخره دال مهملة أيضاً عدادها اليوم من عزلة المنار التابعة لمخلاف أنس ومن مخلاف مقري قديماً ونسب إليها شيخنا العلامة الفريد في جميع العلوم والفنون والقرارت السبع وكان يحفظ من المتون عن ظهر قلب الشيء الكثير ويحفظ النشوانية وغيرها وكان عبادة زاهداً ورعاً ألا وهو صالح بن محمد الحودي الحميري وكان يدرس من بعد صلاة الفجر إلى حين الظهر وبعد الظهر إلى الساعة الرابعة ليلاً لا يفصل بينهما إلا الصلوات ووجبات الأكل وكان أعمش البصر توفي سنة ١٣٦٢ هـ عن عمر ناهز الثمانين رحمة الله ودفن بمدينة ذمار.

هزيمة عظيمة وقتل منهم قريب المائة ونهبت بلادهم وأموالهم ثم قدم على الظافر وهو برداع العرش قدوماً معظماً وكسا السلطان الأسرى ومن عليهم وأطلقهم.

وفي هذه السنة وصل إلى اليمن شرح البخاري لابن حجر المسمى بفتح الباري (١) بعناية الملك الظافر أمر أن يشترى له من مكة المشرفة بمائة وخمسين أشرفياً ذهباً وحصلت نسخة أخرى عليه ووقفها الظافر بجامع زبيد وفي صفر منها أرسل الملك الظافر للأمير علي بن عمر العنسي إلى بيت الفقيه ابن حشيبر وكان بها بخلع نفيسة ومحمل عظيم وأعطاه مالاً جزيلاً وحباه جميلاً ولم يزل الأمير المذكور في البلاد الشامية يجبي خراجها ويقرر أمورها حتى قدم إلى زبيد عاشر ربيع الآخر في أبهة عظيمة وبين يديه من خيل العرب مابة وعشرون فرساً وصحبته أموال عظيمة.

وفي تاسع جمادي الأول منها قدم أبو قاسم الشرياني إلى زبيد بعد طول خلافة وصحبته ولده وابن راسين على الذمة من الملك الظافر ولقيهم أمير زبيد علي بن عمر العنسي إلى قرية التربية وكساهم وأنعم عليهم بمال ودخلوا زبيد في صحبته فأقاموا بها ثلاثة أيام ثم توجهوا إلى الملك الظافر وصحبتهم عفيف الدين عبدالله بن مرزوق فلما وصلوا إلى السلطان أكرمهم وعفا عنهم وألزمهم سكنى زبيد بأهليهم فرجعوا إلى زبيد اليوم الحادي والعشرين من الشهر المذكور وكان الشرياني قد توعك(٢) قبل وصوله فانتقل إلى رحمة الله تعالى بزبيد

---

(١) ابن حجر هو أحمد بن علي بن محمود بن أحمد بن حجر الشافعي العسقلاني المصري المولد القاهري الدار والمنشأ، ولد على أرجح الأقوال في الثالث والعشرين من شعبان سنة ٧٧٣ هـ أول مارس ١٣٧٢ م. «واستقر أجداده في مصر التي انتقلوا إليها من عسقلان بأرض فلسطين ويلقب بالحافظ ويكنى أبا الفضل وعني ابن حجر بالدرجة الأولى بالحديث فجاء مبرزاً فيه واستحق لقب الحافظ كما شارك في فنون كثيرة وبرز فيها وقرظ الشعر وأنتظم في سلك الشعراء كما أنشاه وراسل وتهيأ لابن حجر أن يشغل وظائف التدريس المختلفة والافتاء ودار العدل وقاضي القضاة الشافعية ويلاحظ أنه عني عناية فائقة بالتدريس الذي لم يصرفه عند شيء البتة حتى أيام توليه القضاء والافتا وكان لا يقدم عليه أي منصب مهما بلغ من الرفعة وكانت مجالس أملائه تزدحم بشخصيات كبيرة لأخذ الحديث والتاريخ والأدب وجال في الأقطار العربية وجاور بمكة ودخل اليمن وترجم لمعاصريه منهم وقال عن نفسه لما دخل اليمن في كلامه عن الملك الأشرف إسماعيل بن العباس الأفضل ـ وكان يكرم الغرباء ويبالغ في الأحسان إليهم أمتدحته لما قدمت بلده فأثابني أحسن الله جزاه: ويقال انه أجازه بمائة ألف دينار فعوتب الملك الأشرف على ذلك فأجاب ليعرف المصريون أن هنا من الاجواد والكرماء. وكانت وفاته سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة وترجم له الفاسي في العقد الثمين والشوكاني وغيرهما كثير»: من مقدمه إبناء الغمر بأبناء العمر لابن حجر المطبوع منه جزآن.

(٢) توعك: مرض وربما أن هذا من ذاك وأن لله جنوداً من عسل.

ودفن بمقبرة بني مرزوق وفي شهر رمضان أمر الملك الظافر أن يصنع طعام نفيس لقوامة[1] مسجد الجامع بزبيد يقوم بكفايتهم للافطار والسحور فصنع كما أمر وارتفقوا به رفقاً عظيماً وربما نال منه خير القومة من المستحقين لكثرته ونفاسته جزاه الله خيراً وفي سابع ذي الحجة انتقل إلى رحمة الله تعالى سلطان مصر الملك الأشرف قايتباي.

وفي أول سنة اثنتين وتسعماية تصدق الملك الظافر على فقراء مدينة زبيد بصدقة جزيلة من النقد والطعام.

وفيها تحرك الإمام محمد بن علي الوشلي وأصحاب ذمار للخلاف وخالف أهل المصنعة[2] ولم يظفر أحد منهم بشيء وفيها أخذ بنو الجعد حصن الطياس وهو فوق الشريف علي بني واقد[3] فخرج بسبب ذلك علي بن الشجاع العنسي من زبيد فحط على الحصن المذكور فصالحوه وبذلوا الرهائن وأخذها منهم وارتفع ثم دخل زبيد، وفي ربيع الأول منها أخذ الملك الظافر حصن المصنعة من جهة صنعاء وسائر ما هنالك قهراً وكان أهله قد خالفوا ونقضوا العهد وفي جمادى الأولى منها وصل الشريف عبد الله بن علي بن سفيان[4] من الأبواب الشريفة إلى محروس زبيد متولياً للجهات الشامية وفي صحبته مائتا فارس وألف راجل فتوجه إليها وأقام بها مدة يجبي خراجها ويستخلص أموالها فحمدت سيرته وأحبه الناس ثم توجه بما معه من الخيل والأموال إلى زبيد، وفي شهر رمضان جهز الظافر طائفة من العسكر على الأخدود[5] وكانوا يقطعون الطريق ما بين عدن وتعز وأمر عليهم علي بن عمر العنسي وعلي بن محمد النظاري فأصابوا جماعة منهم فقتلوهم وجزت رؤوسهم ونهبوهم.

وفي الشهر المذكور أيضاً عمل علي بن عمر العنسي المكيدة لبني سليمان[3] وكانوا

---

(١) كذا في الأصول طعام نفيس وكان الصواب طعاماً نفيساً بمقتضى القانون النحوي والقومة بالتحريك هم الجماعة الذين يحيون الجامع المذكور بالدرس والصلاة والعبادة وتلاوة القرآن الخ.

(٢) لا نعرف هذه المصنعة بالضبط ولعلها مصنعة افق المشهورة شمال غربي ذمار أو مصنعة مارية التي تسمى مصنعة أسعد وهي غربي ذمار.

(٣) هذه الحصون في وصاب السافل شرقي زبيد ولبني واقد بقية.

(٤) من ذرية عبدالله بن علي بن سفيان بنو سفيان باليمن الأسفل.

(٥) الاخدود هم قبائل مخلاف خدير من السكاسك وهو ملاصق لأعمال تعز ومركزه قرية الدمنة ومن قراه الراهدة المشهورة اليوم وهو من تعز في الشرق الجنوبي وفي نسخة الاحدود بالحاء المهملة ولا أعرف عنها شيئاً.

(٦) بنو سليمان قبيلة موجودة من مخلاف شمير مقبنة.

يقطعون الطريق بين تعز وزبيد فأرسل لمشايخهم بالإذن من السلطان فاستدعاهم إلى زبيد ليجريهم على عوائدهم القديمة من الجوامك والمرتبات فدخلوا عليه وكانوا ثلاثة وخمسين رجلاً فقيدهم وأرسل بهم إلى السلطان بتعز وفي الشهر المذكور قيد الملك الظافر عالم الاسماعيلية إسماعيل بن حنش بتعز وأودعه دار الأدب وكان يتحدث بمالا يعنيه من المغيبات والمستقبلات وأمر باحضار كتبه وباتلافها فاتلفت ولله الحمد ثم أطلقه في شهر شوال وعفا عنه.

وفي سنة ثلاث وتسعمائة غـزا الملك الظافر جيشاً على الأخدود لفساد حصل منهم فقتل نحو الثلاثين.

وفي أولها أيضاً انتقل إلى رحمة الله تعالى صاحب الحجاز وأميرها الشريف محمد بن بركات[1] خارجاً من مكة بوادي الابيار وحمل إليها ودفن بها وتولى بعده أكبر أولاده الشريف بركات وفي ليلة السابع والعشرين من جمادى الأولى ولد مولانا شهاب الدين أبو الفتح بن مولانا الملك الظافر أقر الله به عين الوجود وجعله أيمن مولود، وفي آخر شهر جمادى المذكور توجه مولانا الظافر أيده الله بنصره إلى بلاد يافع لذنوب كثيرة تقدمت منهم فسار إليهم في جيوش عظيمة فحط عليهم في سابع جمادى الآخـرة فلما تـراءى الجمعـان انهزمت يافع هزيمة منكرة واستولى الظافر على حصونهم جميعاً في أقرب مدة ولم يكن منهم أمر متعب بعد ذلك مع كثرتهم واتساع بلادهم ودعاويهم العريضة فكان استفتاح بلادهم من أسهل الفتوح فدخلوا عليه وأذم عليهم فتابوا من الخلاف توبة نصوحاً وسار منهم جماعة تحت ركابه العالي وإلى الآن لا يزال جماعة منهم تحت ركابه إينما سارا عزه الله.

وفي تاسع عشر الشهر المذكور أسر الشيخ عبد الباقي بن محمد بن طاهر وقيدو أودع دار الأدب وفي الشهر المذكور قدم الشجاع عمر بن محرم العنسي زبيد من البلاد الشامية بعد أن بلغ مور وبلغت مقادمته الرغد وما حولها وقبض خراج بني عتيبة والخبشا، وسائر ما هنالك وكان قدومه إلى زبيد بخيل كثيرة ومال عظيم.

وفي سنة أربع وتسعمائة خرج الأمير علي بن عمر العنسي من زبيد إلى البلاد الشامية فبلغ قرية بعير[2] بسبب غدر حصل من الزعليين فنهـب بعير وأحـرقهـا وأغـار على الزعليين إلى باب الهيجة وحط بموضع يعرف بالقناوص[3] فهجم الزعليون عشاء محطته فانهزم الدولة إلى

(١) لا أعرف عن هذا الشريف شيئاً وقوله بواد الابيار لعلها أبيار على مابين جدة والمدينة وهي الجحفة.

(٢) قرية بعير لا أعرفها ولا ضبطها فكتبناها كما وجدت.

(٣) القناوص بالقاف أول الحروف والصاد المهملة آخرها بلدة عامرة في بطن تهامة بينها وبين =

قرية الضحى وانتهبت الزعليون المحطة بما فيها فاخذ محمل الأمير وكاتبه ولم يقتلوا أحداً عن قصد بل كان صائحهم يصيح آلا لا يقتل أحد من الناس ثم طلبوا الصلح بعد ذلك وردوا ما أخذوا وسلموا أشياء من الخيل والمال.

وفي أول هذه السنة تأخر المطر عن الناس واشتد الأمر عليهم فأمر قاضي البلد وهو يومئذ جمال الدين محمد بن عبد السلام الناشري على الناس بالصيام فصاموا ثلاثة أيام ثم خرج بهم في اليوم الرابع وهم صيام بذلة وخشوع وصلى بهم الفقيه شهاب الدين أحمد بن الطاهر بن جعمان وخطب بهم وهو يومئذ قاضي مدينة حيس وكان يوماً مشهوداً فحصل الفرج العظيم بالاستسقاء وبعده.

وفي شهر ربيع الأول منها أغار الشريف محمد بن علي الوشلي على الأمير علي بن محمد البعداني عند حصن هداد [1] وحط بعساكره على طريق الأمير وعساكره فضيق عليهم غاية فاجتمع من عسكر الأمير نحو ألف رجل وأخذوا طريقاً يعرفونها حتى هجموا محطة الوشلي وصدق الأمير ومن معه بالحملة وانهزم الوشلي وقتل من أصحابه جماعة وجزت رؤوسهم وجيء بهم إلى الأبواب السلطانية بتعز والظافر بها وأخذوا مراكب الوشلي وآلاته ولم ينج إلا بنفسه ولله الحمد.

وفي ربيع الثاني منها تسلم الظافر حصن هداد وسائر ما هنالك، وفي سنة خمس وتسعمائة نزل صاحب سوق المحرق [2] من الأبواب السلطانية وأمسكه عبيد الشيخ يوسف بن عامر بحارة الزعليين المعروفة بالمرجانة وأرسلوا إلى الشريف محمد الوشلي وقالوا له ان أردته فأرسل من يقبضه فاستخفه الفرح فأرسل لهم بفرسين ومال وبفارسين من أمنائه يقبضه فلما وصلوهم [3] أمسكوهم وأخذوا ما معهم من خيل ومال وأرسلوا إلى الملك الظافر طالبين الأمان والدخول ففعل فدخلوا عليه فاستحلفهم إلى أماكنهم فأقاموا بها وأطلقوا صاحب المحرق.

وفي رابع يوم من صفر منها أصبح ولد بن مخارش صاحب الجوف مقتولاً في مخيم

= الحديدة يوم بالسيارة وهي من الضحى في الشمال الشرقي وقد بتنا فيها مع الزملاء الكرام في سنة ١٣٦٣ هـ وسنة ١٣٦٧ مزنجرين ومكبلين منفيين إلى حجة من الطاغية أحمد حميد الدين.

(١) هداد بفتحات بلد وحصن في بلد الحدا: عنس سابقاً وقد مضى ذكره.

(٢) لعله غربي جبل الشرق في حازة تهامة فهناك موضع مشهور يسمى المحرق وهو سوق عظيم إلى يوم الناس هذا.

(٣) كذا في الأصول.

السلطان برداع العرش ولم يعلم قاتله فتعب السلطان من ذلك وفحص عن قاتله فلم يقدر عليه [1].

وفي الشهر المذكور أمر السلطان بغرس الخيف والربوة[2] من نخل الوادي زبيد فغرس أربعة آلاف عود ثم غرس ولده تاج الدين عبد الوهاب بعد ذلك بمدة ألف عود وفي آخر الشهر المذكور تجهز السلطان بغزو بني عبد إذ بلغه أن قاتل ابن مخارش منهم فلما علموا بذلك لجأوا إلى اليهودي الملعون الناقض العهد الذي ببلد بيجان [3] وكان مخالفاً للسلطان ناقصاً للعهد ناكثاً للأيمان يطعن في دين الإسلام ويركب الخيل بالسروج المعزوفة بالذهب ويتطاول على المسلمين وتبعه خلق كثير من اليهود خصوصاً من تهود منهم بعد إسلامه فتجهز الظافر إلى بيحان في عساكر عظيمة من جهات المقرانة فما فوقها وقدمهم إلى جهات بيحان[4] قوماً بعد قوم موهماً أن لا غرض له سوى الصيد فتقدم الأمير علي بن محمد البعداني في جماعة الأمراء والمقدمين أرسالاً إلى أن وصلوا إلى خلف بيحان من الربع الذي هو غير مسكون ثم تبعهم الملك الظافر موهماً أن غرضه الصيد فما زال يقطع البلاد يوماً يوماً حتى بلغ بيحان فدخلها فلما علم به اليهودي تنحى هو ومن معه إلى المكان الذي هو غير مسكون فتبعهم العساكر المنصورة لأنها كانت قد تقدمت إلى ذلك المكان فانضم الجمعان وقبض اليهودي الملعون وجميع من معه وما معه من أولاده وأمواله ودوابه وسائر آلاته، وقبض بني عبد ولزم قاتل ابن مخارش في جمع عظيم من قومه وأسر اليهودي وتوجه الملك الظافر إلى بني أرض[5] فأخذ حصونها وأدوا الطاعة ثم عاد ظافراً منصوراً إلى رداع العرش غرة شهر ربيع الأول.

وفي اليوم العاشر من شوال كان قبض الشيخ عبد الله بن عامر بعدان قبض له عبد

---

(١) الذي يبدو أن قتل ابن مخارش بإيعاز من الملك الظافر ليتخلص منه وما فعله بعد من غزو بيجان فإنما غرضه فتح بيحان وتغطية وتمويها وإشغال الناس عن الحديث عن قاتل ابن مخارش.

(٢) لعله صنف من النخل.

(٣) بنو عبد قبيلة وبلد تحتفظ باسمها إلى التاريخ كما ذكرها «لسان اليمن» في صفة جزيرة العرب وهم من نهيك ثم من مذحج وهم فيما بين حريب وبلاد سارع السوادية وهذا العزوفيه من التمويه ما فيه.

(٤) سلف الكلام على بيحان فيما أظن.

(٥) بني أرض تحمل اسمها إلى هذا التاريخ وهي ما بين بلاد البيضاء وحريب وبيحان وهم من مذحج وذكرها الهمداني في صفة جزيرة العرب.

بمدينة تعز وأخبر مولانا الظافر بأشياء عن محمد بن عبد الملك وعن بعض خواص خدمه وغيرهم وأنهم حاولو الخديعة والمكر ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فعكس الله عليهم أمورهم جميعها وحفظ الله مهجة السلطان على الأمة وأتم عليهم سلامته وبقاء النعمة وقد عود الله السلطان أعزه الله تعالى نصْر أوليائه وخذْل أعدائه فلا يريد أحد سواء إلا رجع عليه ولا يقصده بضر إلا عاد ضرره إليه أدام الله له السعادة.

وكان رأس الفتنة على ما ذكروا عمار بن المعلي شيخ المخلاف فقيد السلطان أكثر المتهمين في ذلك وكان قبض عبدالله بن عامر بقرية وادي مكسب من الحجرية بقرب من يفرس[1] والقابض له قوم ضعفاء من رعية تلك الجهات ولم يعرفه إلا حداد كان عندهم من أهل جحاف فأحاطوا به في بيت ثم استنجدوا بصاحب الحجرية فقبضه وأرسل يعلم السلطان نصره الله بتعز فأمر بالقدوم به إلى تعز فلما وصل الأجناد وتحقق مولانا نصره الله تعالى ذلك أرسل له بقميص وعمامة ورداء فلبسها واركب على بغل مسرج ثم دخل به إلى دار الوعد فتصافحا وتسالما وأقعده السلطان عنده في الروشان ثم طلعا بعد ذلك إلى دار الفسطاط[2] ثم قيد بعد ذلك الليلة وقعد بمقصورة من الدار مكرماً منعماً وبقبضه زالت الشرور وانتظمت الأمور فلله الحمد كثيراً.

وفي ذي القعدة منها تصدق السلطان على الرعية بالبواقي من سنة ثلاث وتسعمائة وما بعدها وأبطل الزيادات المحدثة وأمر عماله في سائر الأقطار من مملكته بالرفق بالرعايا والعدل والإنصاف وتصدق بصدقات جزيلة وفعل معروفاً كثيراً وفي أثناء ذي القعدة أيضاً طلع الشيخ عبدالله بن عامر إلى رداع العرش صحبة الشيخ عبد الملك بن الملك المنصور وعلي بن محمد البعداني والسلطان حينئذ بتعز وجعل محمد بن عبد الملك في دار الأدب بحصن تعز، وفي آخر هذه السنة كان نزول ريحان الظافري إلى مدينة زبيد[3] لقبض الأموال السلطانية.

---

(١) وادي مكسب بفتح الميم وسكون الكاف ثم سين مهملة وآخره باء موحدة لا يزال باسمه ورسمه في مكانه المعروف في أعالي يفرس جبل ذخر حبشي وكان في الأصول بالميم والكاف ثم ياء مثناة من فوق وموحدة وهو غلط والتصحيح من الاستقراء ولأول مرة تظهر تسمية «المعافر» باسم «الحجرية» ولا ندري متى طرأ هذا الاسم وسبب ذلك، ويفرس بلدة عامرة من جبل ذخر: «جبل حبشي» وبها قبر الولي العارف الشيخ أحمد بن علوان الرعيني الحميري وبها غيل نمير يجيء من بعيد وبها حمام راجع عمارة اليمنى باخراجنا وفي نسخة «قريب يفرس».

(٢) فيما سبق القسطال.

(٣) في أصلنا بياض بعد كلمة زبيد وكذا في نسخة أخرى وبعده ولقبض الخ فصححنا ذلك كما ترى.

وفي أول المحرم من سنة ست وتسعمائة كثرت الأمطار والسيول وفيها وصل عمر الجبني إلى عدن والملك الظافر بها بمائة أسير وسبعة رؤوس من أهل دثينة وكان قد تواتر منهم ذنوب اقتضت ذلك فأغزا طوائف من جنده عليهم حتى أدوا الطاعة، وفي حال إقامة السلطان بمدينة لحج بعد خروجه من عدن بلغه وفاة القاضي محمد بن عبد السلام الناشري قاضي مدينة زبيد رحمه الله.

ففصل القاضي أحمد المزجد عن قضاء عدن وولاه قضاء مدينة زبيد وفصل القاضي حسن بن أحمد المزجد عن قضاء لحج وولاه قضاء مدينة وولى القاضي أحمد بن حسين الحضرمي قضاء لحج ثم توجه إلى المقرانة فدخلها آخر الشهر المذكور.

وفي ربيع الأول منها قدم الأميران ريحان وعمر الجبني إلى مدينة زبيد واستمر الجبني أميراً بها وريحان قابضاً وناظراً وفصل بني العنسي عن ولاية زبيد وتولى علي بن الشجاع مدينة جبلة وما إليها وتولى ولده عمر بن علي مدينة عدن، وفي رجب منها وقع بمدينة زبيد مرض عام ومات بسببه خلائق لا يحصون واشتد ذلك في شعبان ورمضان وكان يموت بزبيد كل يوم نحو ستين نفساً وأكثر وأقل، وفي نصف شعبان من السنة المذكورة أخذ السلطان حصن دثنية وسائر ما هنالك قهراً بعد أن حط عليهم بنفسه ثلاثة أشهر ورماهم بالمنجنيقات وضيق عليهم أشد الضيق وطلبوا الذمة وبذلوا له ما يريد فقبل ذلك وارتفع إلى المقرانة فأمنت الطرقات وانحسم الخلاف.

وفي ذي القعدة منها كانت وقعة الشريف هزاع مع أخيه بركات انكسر فيها الشريف بركات وهزم هزيمة شنيعة واستولى الركب على خزائنه ونسائه وأمواله ولم يبق له باقية.

وأصل ذاك إن الملك العادل طرنباي لما تملك مصر بعد الملك الأشرف جنبلاط طرد أميراً من أمراء جنبلاط يقال له قانصوه المجدي يعرف بالبرج [1] فخرج إلى مكة المشرفة فلما وصلها لم يلتفت إليه من أمرائها ولا الشريف ولا القاضي خوفاً من السلطان طرنباي فلما فقد طرنباي وتولى بعده الملك الأشرف الغوري ليلة عيد الفطر سنة ست وتسعمائة أرسل لقانصوة.

فلما وصلته الكتب بذلك جاءه الشريف بركات والقاضي فلم يأذن لهما لما في نفسه منهما من عدم الاحتفال به قبل ذلك وكان الشريف هزاع بمكة فعامله قانصوة على أن يجعل له ولاية مكة ويخلع أخاه بركات عنها فأمره بالخروج إلى ينبع وأرسل الأمير الحاج المصري أن يواجه هزاع فيطلق المراسيم السلطانية عليه ويلبسه الخلعة السلطانية ففعل ذلك ولبس الخلعة

(١) لا نعرف عن هذا شيئاً.

التي جيء بها لبركات وألبس أخاه الجازاني الخلعة التي كان يلبسها هو مع أخيه بركات وتوجه مع الركب المصري إلى مكة ومعه الأشراف بنو إبراهيم في نحو مائة فارس فلما علم بركات بذلك خرج في عسكر إلى وادي مر[1] فالتقى الجمعان هنالك وتقاتلا فانكسر الشريف هزاع مرات وقتل من أصحابه نحو الثلاثين ونهبت أطراف القافلة فلما رأى الركب ذلك حملوا مع هزاع حملة رجل واحد فهزم بركات وقتل ولده أبو القاسم في جماعة من العسكر فاستولى على محطة الشريف بركات بما فيها من الأموال والنساء وانتهكت حرمه وانهزم إلى جدة فنهبها فدخل هزاع مكة صحبته الركب المصري واضطربت أحوال مكة وكثر الخوف والنهب في الطرقات ورجع حجاج البحر من الطريق وكان الحج ضعيفاً ولم يحج الشريف بركات فلما انقضى الحج عرف هزاع أن لا طاقة له بمقاومة أخيه بركات وتخوف منه الهجوم عليه بمكة فتوجه صحبة الركب المصري إلى ينبع وتبعه الشريف بركات فحماه الركب المصري منه فرجع بركات إلى مكة فدخلها واستقر بها وأمنت الناس والطرقات ولله الحمد.

وفي ذي الحجة من السنة المذكورة طلع الشجاع عمر الجبني إلى الأبواب السلطانية باستدعاء السلطان له وبقي ريحان بزبيد عوضاً عنه.

وفي شهر ربيع الأول من سنة سبع وتسعمائة أخذ العسكر الظاهري حصن أكمة الحود[2] ومقدمهم الفقيه محمد النظاري ثم حط على القداسي المفسد وكان قد تحصن له ومعه جماعة يخيفون السبيل فقتل القداسي المذكور في خمسة أصحابه وأسر منهم أربعون فأمنت البلاد وانقطع الفساد.

وفي جمادى الأخرى كان بين الزعليين والزيديين وقعة ومع الزيديين أمير من جهة الدولة يقال له عيسى بن علي الحجري فانكسر الزعليون وقتل منهم جماعة وحزت رؤوسهم ثم قدم بها إلى زبيد.

وفي الشهر الذي قبله ألتقى هزاع وبركات بموضع يقال له طرف البرقا[3] فانكسر بركات كسرة عظيمة وقتل أخوه أبو دعنج ومن الأشراف بني نمى سبعة ومن الترك الذين مع بركات أربعة عشر وكان مع هزاع ثلاثة آلاف رجل ومائتا فارس ومع بركات خمسمائة

(١) مر بفتح الميم وتشديد الراء هو المشهور بمر الظهران واليوم وادي فاطمة وكانت تسكنه قبيلة خزاعة المشهورة.

(٢) لا نعرف موقع أكمة الحود المذكورة.

(٣) قد تقدم ذكر في القسم الأول ص ١٢٠.

فارس وانهزم بركات حتى وصل إلى سبخة الغراب[1] ووصل هزاع إلى ظاهر جدة ونادى للناس بالأمان وقرر الأحوال وجعل محمد بن راجح بن شميلة وزيره بجدة وعبداً من عبيده حاكماً وارسل أخاه الجازاني إلى مكة ليقرر أحوالها ثم لحقه إليها في عساكره ثم وصلته خلع ومراسيم من مصر وأستقر بمكة.

وفي آخر جمادي الأخرى تجهز مولانا الملك الظافر إلى مدينة ذمار في جموع عظيمة من العسكر يقال إنه ما جمع مثلها قط فقدم العسكر قبله ثم لحقها في رجب فأقام في ذمار أياماً وجرد العساكر إلى جمعة الخزج[2] فأخذها قهراً بعد أن قتل من أهلها جموعاً، وقبضت خيولهم ثم توجه إلى صنعاء يوم التاسع والعشرين من شهر رجب فحط عليها في الثاني من شهر شعبان.

وفي خامس شهر رجب أنتقل هزاع بن محمد بن بركات إلى رحمة الله تعالى وتولى بعده أخوه جازان بمساعدة من القاضي أبي السعود بن إبراهيم بن ظهيرة[3] وآل أمر القاضي المذكور إلى أن كان في تدبيره لولاية جازان تدميره وذهاب روحه وماله رحمه الله تعالى.

وفي شوال من السنة المذكورة انتقل الشيخ عبد الله بن عامر إلى رحمة الله بدار الأدب في قلعة رداع العرش والسلطان يومئذ محاصر لصنعاء فجهز أحسن الجهاز ودفن هنالك.

ولما حصل الضيق من الحصار على أهل صنعاء كتبوا إلى البهال وبذلوا له أشياء منها حصن ذمرمر على أن ينصرهم فأجتمعت الزيدية على نصرة أهل صنعاء وخالفت على الظافر فوصلوا في جموع لا تحصى ووقع بينهم وبين الأمير علي البعداني وقعة فنالوا منه ونال منهم فانكسر عسكر الأمير علي فلما اتفق ذلك جمع الملك الظافر المحاط كلها وكانت متفرقة حول صنعاء فجعلها محطة واحدة وانقطعت الطرق فلم يصل إلى المحطة السلطانية شيء من الزاد والأقوات فعزم الملك الظافر على الرجوع إلى بلده وعند الزيدية أنه قد صار في قبضتهم لتوفرهم وكثرتهم وانقطاع المواد على السلطان ومن معه ولكن الله سلم انه عليم بذات الصدور فجمع الملك الظافر جميع عسكره وآلاته وسار في سابع شهر المحرم الحرام سنة ثمان وتسعمائة فلحقتهم جموع الزيدية فرجعت العساكر الظافرية عليهم وحملوا حملة عنترية وعزموا عزمة عمرية فانهزمت الزيدية ولم يطمعوا بعد ذلك في شيء فسار حتى دخل

---

(١) لا أعرف هذا المكان.

(٢) جمعة الخزج بالخاء والزاي المعجمتين ثم جيم: هو الموضع الذي يقال له اليوم سوق الجمعة، والخزجة في العرف الأرض المغيولة تنبت فيها المراعي وهو شمال مدينة ذمار.

(٣) لم أحصل له على ترجمة.

ذمار سالماً ولم يفقدوا شيئاً، وكانت سلامته نصره الله هو ومن معه من أيدي العدو مع كثرته وانقطاعهم عما لا بدّ منه أعظم ظفر وكان مدة هذا الحصار وهو الأول خمسة أشهر فلله الحمد والمنة.

وفي الشهر المذكور كان مولد مولانا فخر الدين أبي بكر بن الملك الظافر جعله الله مباركاً وفي هذه السنة ظهرت مراكب الفرنج في البحر بطريق الهند [١] وهرموز [٢] وتلك النواحي وأخذوا نحو سبعة مراكب وقتلوا أهلها وفي شعبان منها كانت وقعة بين الشريف جازان وأخيه بركات بالمنحنى شرقي مكة المشرقة [٣] انكسر فيها الشريف بركات كسرة شنيعة وقتل جميع أعيان امرائه ولم ينج إلا بنفسه في جماعة قليلة.

وفي السابع والعشرين من شعبان انتقل محمد بن الناصر صاحب صنعاء إلى رحمة الله وفي ذي القعدة منها هجم الشريف الجازاني مكة على أخيه بركات فتقاتلا بأعلى مكة فانكسر عسكر بركات. وكان أهل مكة معه على الجازاني والعرب فقاتلوهم فقتل من أهل مكة جمع عظيم ونهبت مكة نهباً ذريعاً وهرب بركات طريق اليمن حتى استقر بمكانه الأول، وفي الشهر المذكور حج أمير الركب المصري في جند عظيم وتغيب عنه الجازاني وواجهه الشريف بركات فخلع عليه وعلى أخيه شرف الدين قايتباي وابن عم أبيه عنقا [٤]، ولما دخلوا مكة اجتمع بهم في مدرسة السلطان قايتباي فأمسكهم وقيدهم وساروا معه إلى عرفات على تلك الحال وتوجه بهم بعد الحج إلى مصر.

وفي هذه السنة سنة تسع وتسعماية قتل جمع من الطوالق كانوا يخيفون الطريق إلى عدن وفيها أمر الظافر بعمارة مسجد الشيخ إسماعيل بن إبراهيم الجبرتي بزبيد فعمر عمارة عظيمة، وفي شهر صفر منها كان ظهور إبراهيم الخواص من بني الاكسع أحد فقراء الشيخ أحمد المشرع [٥] ومعه جماعة من الفريش [٦] كانوا يعتقدونه ويزعمون أنه يخبرهم ببعض المغيبات وتصدق ثم انه كثر الكلام عليه من بينه وبينه وحشة فتخوف من الدولة وانتقل إلى مكان العبيد العامريين وهو مكان وعر واطاعه من هنالك من أهل الجبال ومن المفسدين، وفي

---

(١) الافرنج هؤلاء هم البرتغاليون.

(٢) هرموز كان ميناء على طرف خوزستان من إيران وهي اليوم متشعثة.

(٣) سلف ذكر المنحنى.

(٤) وإلى عنقا ينسب العلامة محمد بن الخالص بن عنقا المدفون قرب الحمزاوي وقد اندرست تلك المقبرة وأصبحت مباني وهذه جريمة لا تغتفر.

(٥) بنو المشرع لا يزال لهم بقية في وصاب وزبيد وهم بيت فقه ومنهم من صنف فيه.

(٦) كذا في الأصل ولم يظهر.

ربيع الآخر وصل جيش عظيم من الجبل بسبب الخروج للخواص فخرج العسكر وصحبتهم الأمير ريحان وابن حبروش ووقع بينهم قتال شديد وثبت فيه ريحان وابن حبروش ثباتاً عظيماً كانت سلامة الناس ببركته ثم توجه لحربه الفقيه محمد النظاري وعمر الجبني في عساكر كثيرة فحصروه مدة ثم أصلح العبيد ومن كان مع الخواص من الفريش وغيرهم فامتنع هو وتحصن في حصن حجران وقام معه بنو البيجوى[1].

وفي رجب من السنة المذكورة قتل الشريف جازان بن محمد بن بركات في المطاف عند باب الكعبة قتله جماعة من الترك وكان قد فعل بمكة أفاعيل ثم ولوا أخاه حميضة وفي آخر السنة المذكورة قدم الشريف بركات هارباً من مصر بمواطأة من الأمير الدويدار وقدم معه بجيش كثير جمعه من بني لام ومن أهل المشرق[2] وسائر المفسدين فمنع الناس عن الوقوف حتى صالحه أمراء الحج على أربعة آلاف أشرفي يسلمونها إليه ويخلي بينهم وبين الوقوف ففعل ووقف مع الناس بعرفة ومزدلفة ومنى ونهب أصحابه قافلة واصلة من جدة على باب مكة معظمها لأهل زبيد ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي سنة عشر وتسعمائة استعادت الدولة حصن الضامر بعد استيلاء أهله عليه مدة وفي شهر صفر منها تحرك الملك الظافر للمعاودة على صنعاء فاستعد لذلك فنزل بعض ولاته إلى تهامة يجمع منها جمعاً من العرب ثم توجهت فرسان العرب إلى أبواب السلطانية في شهر ربيع الآخر من الزعليين والصميين والقحر والمناسكة والرماة واللاميين والكعبيين والمعازبة والقرشيين.

وفي الشهر المذكور توجه السلطان الملك الظافر إلى صنعاء فأقام برداع العرش أياماً ثم سار إلى ذمار ثم توجه منها إلى صنعاء[3] اليوم الثاني والعشرين من الشهر المذكور فحط على صنعاء في جموع كثيرة وآلات خطيرة فلازمهم وحاصرهم[4] إلى التاريخ الآتي وفي شعبان من السنة المذكورة وصل جمع من بني إبراهيم معهم الشريف حميضة بن محمد بن بركات والقائد ملحم فدخلوا جدة قاصدين نهب محمد بن يوسف الفارسي وكان يحيى بن سبع صاحب ينبع قد كتب إليه إلى جدة يعلمه بذلك فشحن جميع ما معه في البحر فلما دخلوا جدة لم يحصلوا على مقصودهم فتوجهوا إلى مكة فلما وصلوا خرج عنها الشريف قايتباي بن محمد بن بركات فدخلوها فواجههم الترك المقيمون بمكة وقرروا أحوالهم وأنزلوهم في

---

(١) لا يعرفون.

(٢) المراد بالمشرق أهل نجد ولام قبيلة من طي القحطانية.

(٣) في ع زيادة المأخوذة باذن الله تعالى.

(٤) في «ع» زيادة وضيق عليهم.

بيوت الأشراف ثم ثاروا عليهم بعد ثلاثة أيام فقتلوا من بني إبراهيم نيفاً وثلاثين وانهزم باقيهم إلى جدة فنهبوها نهباً عظيماً. وفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من رمضان من السنة المذكورة كانت الوقعة المشهورة بين السلطان الملك الظافر وبين محمد بن الحسين البهال[1] على نحو ثلاثة أميال من صنعاء بمكان يقال تنفل[2] انهزم به البهال وعسكره هزيمة منكرة ما سمع بمثلها قط وأسر فيها أمام الزيدية محمد بن علي الوشلي رئيس أهل البدعة ومؤسس الفتنة وقتل منهم جموع وأخذت خيولهم وآلاتهم واستولى العسكر الظافري على مخيم البهال وما احتوى عليه من الأموال والسلاح، والأزواد.

وكان أهل صنعاء لما علموا باجتماع الملك الظافر مع البهال قد خرجوا من مدينة صنعاء إلى المحطة ليشغلوا خاطر السلطان عما هو فيه فثبت لهم الشيخ عبد الملك بن عبد الوهاب ومن معه[3].

وكان بالمحطة فقاتلوهم فانهزم أهل صنعاء وقتل منهم ثلاثة نفر، ولما تحقق أهل صنعاء قبض إمامهم الوشلي وهزيمة البهال وما اتفق لجنده من الخذلان[4] الذي لا يحصره الوصف أرسلوا إلى الملك الظافر يطلبون الذمة ويسلمون إليه المدينة فأذم عليهم وخرج إليه الإمام أحمد بن الناصر وعبد الله بن مطهر[5] ثاني يوم الوقعة فأكرمهم ثم سألاه الذمة لمحمد بن عيسى شارب فأذم عليه فخرج عليه ثم تسلم السلطان الملك الظافر صنعاء بالسمع والطاعة وسلموا أنفسهم لأهل السنة والجماعة ثم دخلها الملك الظافر في اليوم السابع من شهر شوال وقرر أحوالها ونال غرضه منها، وانعكست على أهل صنعاء مراداتهم جميعاً حتى لو تمنى المتمني ضررهم لم يبلغ في تمنيته أكثر مما حصل عليهم من الذل والقهر وهزيمة من ناصرهم وأسر إمامهم ودخولهم تحت الطاعة كارهين مقهورين والنصر بيد الله وذلك من الله على الملك الظافر التي لا يحصى شكرها[6].

---

(١) لعل البهال حمزي من حمزات الجوف فهو يقول صاحب غاية الأماني محمد بن حسين الجوفي وفي الكبسي محمد بن الحسين الحمزي الجوفي أمير صعدة.

(٢) تنقل كذا في الأصول ولا أعرفه.

(٣) لهذا الخبر نظائر من أهل صنعاء ذكرناها في التاريخ.

(٤) في ع زيادة والخسران.

(٥) عبدالله بن المطهر بن محمد الحمزي صاحب ذمار وكان عالماً شاعراً مترسلاً وكان يلقب المفضل ولما نزل الملك الظافر عامر كان هذا عبدالله بن مطهر من جملة الأسرى واسكنه مدينة تعز إلى أن مات بها وله ترجمة في مطلع البدور لابن أبي الرحال ولم يحضرني منها شيء ولا الكتاب في حوزتي.

(٦) زيادة في ح ومواهبه التي لا تستقصي فزاده الله من كل خير ووقاه من كل ضير بمنه وكرمه.

وفي اليوم الثامن من محرم سنة إحدى عشرة وتسعمائة توجه الملك الظافر من صنعاء إلى ذمار واستخلف بصنعاء الفقيه محمد النظاري وضبطها وأحسن تدبيرها وتقدم إلى ذمار بجميع بني الأسد وسائر المأسورين مع نسائهم وأولادهم وأمر أحمد الناصر بإنزال جميع ما معه من أولاده وحشمه وأمواله وذخائره إلى مدينة تعز يسكنها فسكنها مجللاً محترماً.

وفي شهر شوال منها انتقل أبو الغوائر صاحب جازان إلى رحمة الله تعالى وفي شهر المحرم من سنة اثنتي عشرة وتسعمائة تسلم السلطان حصن نعمان وصاب على يد الفقيه علي بن محمد النظاري والفقيه محمد بن يحيى الجهمي صاحب المصباح[1] بعد طول المحطة عليه ودوامها ورتب فيه من يوثق به، وفي آخر شهر رجب منها كانت الوقعة بين الأمير عبد الله ابن سفيان ومن معه من الدولة وبين الكعبيين لسبب نقض حصل من الكعبيين وذلك أنهم كانوا طلبوا من الشريف الذمة على أن يؤدوا الخيل والرهائن ويستقروا ببلادهم ففعل ذلك ثم تعللوا أن النساء لم تُطعهم على تسليم أنفسهن وأولادهن فلما تحقق ذلك أظهر لهم التوجه إلى جهة اللامية وأمر الشجاع العنسي وعمر الجبني وكانا في صحبته أن يتوجهوا إلى زبيد بعد أن قرر معهما سراً أن يصبحوا الكعبيين فصبحوهم في قراهم فقتلوا جمعاً وأسروا أخرين وأخذوا جملة من خيلهم وممن أسر شيخهم محمد بن التروف وموسى بن المقبول وجماعة وانتبهوا جملة من أموالهم.

وفي شهر جمادى الآخرة منها أخذ العسكر الظافري حصن صبرة من بلاد شرغب[2] على يد الفقيه محمد النظاري وفي الشهر المذكور وصل الشريف المهدي بن أحمد دريب أخو العزيز صاحب جازان[3] إلى زبيد من عند أخيه متوجهاً إلى الأبواب السلطانية بهدية، وفي شعبان منها فصل ريحان من ولاية زبيد بالشريف عبد الله وفي رمضان قدم البشير إلى زبيد يفيض حصن ذمرمر.

وفي هذه السنة قويت شوكة الإفرنج وحصل على المسلمين منهم ضرر عظيم في ناحية الهند وهرموز[4] أهلكهم الله، وفي شهر ربيع الآخر من سنة ثلاثة عشرة وتسعمائة وقع بين القرشيين الأعلين والشكارية وبين بني علي وبني عباس وقعة بقرية التحيتا قتل فيها من بني

---

(١) المصباح حصن في وصاب السافل شرقي مدينة زبيد والمصباح أيضاً في حصن سماه.

(٢) حصن الصبرة معروف إلى هذا الوقت متشعث خراب وشرعب مخلاف جليل نسب إلى شرعب ابن سهل بن زيد بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس ثم من ولد الهميسع بن حمير وإليهم تنسب الرماح الشرعبية ويقع شمالي بغرب مدينة تعز بنصف يوم.

(٣) ليس له ترجمة عندي.

(٤) هرمز من الخليج في الجانب الايراني ولها ذكر كثير.

علي وبني عباس سبعة أنفار ثم وقعت بينهم بعد ذلك وقعة انهزم الأعلون والشكارية وقتل منهم جماعة وهزموا هزيمة شنيعة.

وفي هذه السنة وصل حسين أمير صاحب مصر من جدة في ثلاث برشات وثلاثة أغربة[1] لم يعلم أحد قصده حتى مر بباب المندب فلما وصل عدن أستأذن أميرها مرجان الظافري في الدخول إلى حقات فأذن له فدخلها متأدباً فأضافه مرجان ضيافة عظيمة فأذن له في شحنة ما يحتاج إليه من ماء وحطب ثم توجه حسين إلى جهة الديو بسبب قتال الافرنج الذين ظهروا في البحر وقطعوا طرق المسلمين.

وفي هذه السنة غلب الفرنج على مدينة هرموز وأخذوها وأسروا أهلها المسلمين والتجار وفي ذي الحجة منها أخذ الشيخ عبد الملك بن المنصور حصن وصاب نعمان وغيره على أهلها قهراً بعد أن قتل جمعاً كثيراً من أهلها وبعد أن حاربهم في بعض الأيام إلى غروب الشمس وأمسى تحت الحصن فلما أظلم الليل هرب أهلها بأولادهم ونسائهم ولما أصبح الشيخ عبد الملك طلع الحصن فلم يجد به أحداً فقبضه وصاح بالأمان ورتب به من يثق به ثم توجه إلى أخيه الظافر وفي أول سنة أربع عشرة وتسعمائة توجه الظافر من ذمار إلى صنعاء بسبب تفقد تلك الجهات وتجديد العهد بها فدخلها دخولاً معظماً وهي الدخلة الثانية بعد ولايته عليها فأقام بها مدة وحصر أبا ريحان بن شارب في ذمرمر زماناً طويلاً حتى أخذ حصن الفصين، والعروس في شهر ربيع الآخر منها.

وفي ربيع الثاني منها نزل إبراهيم الخواص من الهيجة في جمع كثير من العبيد وبني القحوى في محمل على جمل وتقدم إلى تربة الفقيه أحمد في منعة وقرأ مقدمة من القرآن العظيم على الضريح المبارك ثم رجع إلى مكانه، وتعرض لهم جماعة من الدولة فقتل منهم ثلاثة نفر.

وفي شعبان منها قدم المبشرون بقبض حصون الظفر والعروس والفصين والريشة وقبض أبي ريحان بن شارب فلله الحمد، وفي أول سنة خمس عشرة وتسعمائة وصل من المقرانة أحمد ابن الصديق الخياط وكان قدم على السلطان رسولاً من صاحب جازان الشريف المهدي إلى الملك الظافر بهدية فوصل إلى زبيد بثواب جزيل نبيل.

وفي أوائلها أيضاً وصل الأمير علي بن محمد البعداني من الأبواب الشريفة إلى زبيد وعسكر جرار وأقام بها إلى صفر ثم خرج إلى الجهات الشامية قاصداً لأهل الفساد كالعامريين والخواص والكعبيين وسائر المخالفين وفيها أخرج بنو عبد الله القرشيون من

---

(١) لمطاردة الافرنج البرتغاليين كما ذكر المؤلف بعد هذا وحسين هو الكردي الآتي ذكره والبرشات جمع برشة والاغربة ومفردها غراب أنواع من الآلة الحربية المستعملة لذلك العصر.

قرية التحيتا وسكنها الأعلون والشكارية بأمر الدولة وسكن من كان بها من القرشيين أولاد الروية ولم يزل الأمير علي البعداني بالجهات الشامية حتى أصلح أمورها السياسة، وكان الكعبيون ومن معهم من المفسدين قد تحصنوا بالهيجة وسدوا الأطراف النافذة إليها فأتاهم الأمير من حيث لم يحتسبوا فدخلها وحاز الماء عليهم فانقطعوا وطلبوا الصلح فصالحهم وهرب الخواص فاستجار ببلاد عنم[1] وأقام عندهم خائفاً مذعوراً إلى أن مات وأمر الكعبيين سكنى بلادهم فسكنوها طائعين وسكنت الفتن ثم تقدم إلى الشام وقبض الخراج ورجع إلى زبيد سالماً غانماً فدخلها في ربيع الآخر بخيل وأموال كثيرة.

وفي رجب من السنة المذكورة انتقل محمد بن حسين البهال إلى رحمة الله تعالى، وفيها فقدت مراكب الظافر الواصلة من الهند ولم يسلم إلا مركب واحد، وفي شهر ذي الحجة رجع حجاج اليمن من الواديين بسبب أن الشريف بركات منعهم الوصول من ناحية البر وكان بلغه أنهم في العام الذي قبله دخلوا من ناحية البر بمعشر كثير لم يطلع عليه فمنع نوابه الحجاج من السير في البر فرجعوا من المكان المذكور ولم يكن بينهم وبين مكة إلا أيام يسيرة، وفي آخر سنة ست عشرة وتسعمائة كان قبض حصون بني مناع ومعاقلهم المنيعة وهي الظاهرة والمطاحن وتنعم والحميم والمصنعة[2] وذلك أن الشريف عبد الله بن سفيان، والشيخ عبد الوهاب العنسي تقدموا لهم في عسكر من الضحى إلى ريسان ثم إلى المنقم[3] على نية المبيت إلى الصباح فناوشهم أهل الحصن الحرب فطلع العسكر المنصوري عليهم الجبل ولازموهم وغاروا من كل جانب فطلع العنسي بالعسكر عليهم فانهزموا من الشريف إلى المصنعة فبات العنسي بالشريف ثم صبحهم بالعسكر فانهزموا وقتل منهم جماعة وهربوا وتركوا الحصون خالية فطلع الأمير والشريف ومن معه من العسكر وقبضت المعاقل جميعها وهرب سليمان المناعي في الجبال ونزل معه من الزيديين واستجاروا بتربة الشيخ القديمي.

وفي شهر المحرم من سنة سبعة عشرة وتسعمائة قدم الشريف عبد الله بن سفيان من الجهات الشامية وفي صحبته الشيخ عبد الوهاب العنسي في أبهة عظيمة وخيل العرب المقبوضة تقاد بين يديه ولها عدد كثير وفي جمادى منها كان الفتح المبين الذي لم يسمع بمثله في جهات مغارب صنعاء على يد الأمير علي بن محمد البعداني وتوعر فيها حتى أشرف على مارب ثم تسلم حصون أهل المغارب وحصن ثلا وحصن أشيح وحصن كوكبان بعد أمور

---

(١) عنم بالعين المهملة والنون والميم: جبل من خولان قضاعة بلاد صعدة.

(٢) هذه الحصون والمعاقل أسافل جبال ملحان وحفاش ولا أعرف بالتفصيل مواقعها.

(٣) الضحى وريسان سبق ذكرهما والمنقم بجانب ريسان.

عظيمة في أثناء شهر رجب من السنة المذكورة وكان له في استفتاح هذه الأماكن جهد شديد وصبر حميد وجميلة عظيمة ما اتفقت لأحد ولا سمع بمثلها بفضل الله تعالى وبركات السلطان الأعظم صلاح الدين حماه الله، وفي شعبان منها غدر بنو الشكاعي [1] بمن في حصن الشريف من الدولة فقتلوا النقيب واستقروا فيه وفي سابع شهر رمضان خرج الشريف عبد الله بن سفيان بسبب المحطة على حصن الشريف المأخوذ ثم لحقه عبد الوهاب العنسي في جمع كثير وأقاموا المحطة عليه من أواخر سنة سبع عشرة ولم ينالوا من الحصن شيئاً وكان أهل الفساد من المعازبة في الهيجة بدوابهم وحصل بينهم وبين العسكر المنصوري وقائع ولم تزل المحطة عليهم إلى أوائل سنة ثماني عشرة ثم ارتفعت المحطة عنهم وتسلم الملك الظافر الحصن المذكور بعد نزوله إلى زبيد وأذعن أهله بالطاعة.

وفي أثناء شهر محرم قدم أحد بني السنبلي بخيل أدتها العرب من الجهات الشامية وكانت فوق الخمسين وفي الثالث والعشرين من شهر صفر منها قدم مولانا السلطان صلاح الدين من بلده إلى مدينة تعز وفي صحبته ولده تاج الدين وشهاب الدين أحمد وصنوه الشيخ عبد الملك وأقام بها ثم توجه إلى زبيد كما سيأتي إن شاء الله تعالى وفي أول شهر ربيع الأول كان قبض حصن كوكبان على يد الأمير علي بن محمد البعداني ووصل البشير بذلك إلى السلطان وهو بتعز في أواخر الشهر المذكور ثم توجه السلطان إلى زبيد آخر شهر ربيع الأول بخيس أياماً ثم دخل مدينة زبيد عشية الثلاثاء سابع شهر ربيع الآخر وكان دخولاً معظماً انشرحت به العباد وأخصبت بها البلاد وأفلت نجوم الجدب والمحل وانهمرت سحائب النعم وأشرقت مدينة زبيد حتى صار كل بيت كالقصر المشيد حيث جمع الله شملها بسلطانها وذاقها برد الوصل بعد حر هجرانها وكان صحبته ولده تاج الدين وأخوه الشيخ عبد الملك وجمع من بني أولاد بني طاهر.

وفي أواخر الشهر المذكور انتقل إلى رحمة الله تعالى الشيخ الشريف عبد الله بن علي بن سفيان وكان قد حمل إليها من محطة الشريف مشيعاً إلى بيت الفقيه بن عجيل رحمه الله تعالى.

وفي يوم قدوم السلطان إلى زبيد كان ابتداء المطر الخريفي بزبيد ونواحيها واستمر ذلك مدة طويلة وسقى أكثر أراضي وادي زبيد العليا والسفلى وفضل على ما يسقى به شيء كثير وأخرب أرضاً ووصل البحر واستمر في البحر نحو شهرين فلما انقطع الماء عمر السلطان مكان الخراب الذي يمر الماء فيه إلى البحر عمارة عظيمة بالآجر والنورة وصرف في

---

(١) في ع الشكاري.

ذلك مبلغاً جسيماً أحسن الله جزاه من ماله وبسبب كثرة المطر تلفت الثمار في سائر البلاد خصوصاً ثمار النخل وفي منتصف شهر جمادى الأولى تسلم السلطان حصن الشريف وطلب أهله بنو الشكاعي الذمة على يد الفقيه تقي الدين عمر بن محمد جعمان رحمه الله فأجاب إلى ذلك فكتب لهم بالأمان يدخلون عليه إلى زبيد وعفا عنهم وأكرمهم وكساهم وتصدق عليهم ورتب في الحصن من يثق به وانحسمت مادة الخلاف ولله الحمد.

وفي الشهر المذكور قبض نواب السلطان على جمع من الكعبيين يقاربون الخمسين وعلى أمرأتين منهم فقيدوا وأرسل بهم إلى زبيد ووصل صحبتهم الشيخ عبد الوهاب محرم العنسي سابع جمادى الأولى[1] فدخل زبيد دخولا معظماً بعد قبض حصن الشريف وبعد خروج الفقيه عبد الكريم بن علوان لعمارة حصن الشريف وتحصينه وفي شهر رجب من السنة المذكورة كثرت الأمراض بزبيد وحصل موت كثير[2] كان يبلغ في بعض الأيام إلى نحو السبعين وأكثر ما بين صغير وكبير وفقد في تلك المدة من الأعيان وغيرهم خلق[3] لا يحصون والبقاء لله تعالى وفي آخر شعبان منها أمر السلطان بمباشرة المساجد بزبيد وأن يقبض شطر الغلة من وقفها لعمارة المساجد فامتثل أمره الشريف وفي آخر شعبان وأثناء شهر رمضان تصدق السلطان على أهل زبيد بصدقة جزيلة انتفع بها أهل المدينة نفعاً كلياً تقبل الله منه لوقوعها موقع الحاجة والضرورة وفي آخر رمضان توجه النقيه محمد النظاري إلى الجهات الشامية وفي أوائل شوال أطلع السلطان على أشياء من الخبثاء ومن والاهم بعد أن أنعم عليهم وكساهم وأمرهم بالتوجه إلى بلادهم فأمر بتحيرهم فطالبهم برهائن، وفي ثامن ذي الحجة قدم الشيخ شهاب الدين أحمد بن مولانا السلطان إلى مدينة زيد فدخلها في أبهة عظيمة.

وفي نصف ذي الحجة أمسك عبد الكريم بن علوان جماعة من المعازبة ببيت ابن عجيل وقيدهم وأرسل بهم إلى باب السلطان بزبيد، وفي أثناء شهر المحرم من سنة تسع عشرة وتسعمائة وصل الخبر[4] إلى السلطان بزبيد بقدوم ثمانية عشر مركباً إلى بندر عدن فيها جمع عظيم من الأفرنج فجهز السلطان عسكراً إلى بندر عدن وأمر بالتحفظ والتحرز فيه وفي سائر البنادر وأمر بالقنوت عليهم في الصلوات الخمس وفي خطبة الجمعة ثم حقق أنهم وصلوا إلى عدن بغتة وكان بها مملوك عبد السلطان مرجان الظافري أميراً بها فأمر أهل

---

(١) في «ع» الاخرى.

(٢) في «ع» عظيم.

(٣) في «ع» خلائق.

(٤) في «ع» العلم.

البلدان أن يتعرضوا لهم بشيء وأمر بالتحفظ والتحصن وكان وصولهم ليلة الجمعة سابع عشر المحرم فمكثوا يوم الجمعة ثم تجاسروا ووضعوا سلاليم تحت جدار السور وطلعوا إليها ملتمسين مستعدين للقتال ونزل منهم جماعة إلى شوارع المدينة فركب مرجان ولم يكن بها فارس غيره فقاتلهم وقاتل معه أهل المدينة فنالوا من المسلمين ثم كانت الدائرة عليهم فهزموهم وقتل منهم جماعة فرجعوا منهزمين لا يلوي أحد على أحد وتكسر منهم جمع وأخذت دروعهم وسلاحهم وأصبح حزب الله هم الغالبون فعرف باقيهم ان لا قدره لهم على عدن وأنها محمية بالله وبرسوله وبالقرآن العظيم وعباد الله الصالحين وسعادة السلطان أمير المؤمنين حفظه الله وأشتغلوا بتحريق ما وجدوه من المراكب في البندر فارتفعوا وساروا إلى باب المندب ثم إلى المخاو مروا بها ثم إلى البقعة، والمتينة ولم يقدروا على دخول شيء من هذه البنادر إذ كان أهلها وعساكر السلطان مستعدين لهم ثم صاروا إلى الحديدة ولم يقدروا على دخولها ثم وصلوا جزيرة كمران في أوائل شهر صفر فنهبوها ودخلوها ثم حاولوا دخول بندر الحردة فلم يقدروا.

وفي شهر صفر تمالأ جمع من أهل مدينة صنعاء على قتل علي بن محمد البعداني غدراً وعدوانا ففضحهم الله وأطلع الأمير على ذلك وأظفره الله بهم فنكل بجماعة منهم وسلمه الله تعالى.

وفي عشية يوم السبت التاسع وعشرين من ربيع الآخر توجه الملك الظافر إلى مدينة تعز بعد أن أقام بمدينة زبيد سنة كاملة وكان قد غاب عنها ثماني عشرة سنة وجعل عند عزمه من زبيد الفقيه محمد النظاري أميراً والشرف أبا القاسم بن محمد الموزعي مستوفياً وقلده أمور الرعية فلم يزل يغرس في قلوب الرعايا بغض السلطان ويعادي كل إنسان حتى كان سبباً لزوال الدولة رأساً وأصلاً لفنائها وأسا فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأما الافرنج فإنهم أقاموا بجزيرة كمران من أوائل شهر صفر إلى نصف جمادى الأولى ثم رجعوا إلى عدن فوصلوها ثامن عشر الشهر المذكور وكانوا ستة عشر مركباً وتوجه مركبان منهم إلى زيلع وأحرقوا الخشب الذي ببندرها ثم لحقوا الباقين إلى عدن وكان لأصحابهم بقدومهم من زيلع فرح عظيم نشروا فيه أعلامهم وضربوا مدافعهم وكانوا قد فتحوا الحرب على عدن قبل وصول هذين المركبين فلم يقعوا على طائل لتحصن البلاد وربما ضروا البلاد والناس ضراً يسيراً ثم أنهم نزلوا ليلاً بالسنابيق ففطن لهم أهل عدن فخرجوا لهم خفية فثاروا عليهم فهزموهم وقتلوا منهم جماعة وجرحوا آخرين فلما انقطع رجاؤهم من

المدينة وتحققوا أن حزب الشيطان لا يقاوم حزب الرحمن رحلوا خائبين منهزمين بحمد الله تعالى [١].

وكان انصرافهم أول شهر جمادى الأولى سنة تسع عشرة وتسعمائة في منتصف شهر ربيع الآخر [٢] هرب موسى المساوي وشيخ المحارشة من زبيد تسوروا الدرب ليلاً وتوجه إلى جهة اللامية فواجهه بعض من يعرفه قريباً من بيت الفقيه ابن عجيل فلما دخل زبيد أشاع بأنه وجده في الطريق فبلغ الخبر إلى السلطان وهو إذ ذاك متهيء للمسير إلى مدينة تعز فطلب ترسيمه وهو النقيب إسماعيل بن الوجيه إقبال فطالبه به فلم يستطيع جواباً فأمر بتقييده وإيداعه السجن وسار به إلى مدينة تعز وأودعه السجن بها فلم يزال به حتى توفي وأما ابن المساوي فلما وصل إلى بلاده خاف على نفسه من السلطان فانتقل الهيجة واستقر بها حتى تحقق أن السلطان توجه إلى تعز واستخلف الفقيه محمد النظاري بزبيد فأرسل ابن المساوي إلى النظاري بطلب الذمة على أن يقيم ببلده قرية سامر [٣] ويدرك بما حصل فيها من حدث ففعل ذلك وأستقر بقرية سامر وعند توجه السلطان من زبيد إلى تعز في التاريخ المذكور أمر بعمارة الجانب الشرقي من الجامع الظافري بزبيد فأمتثل أمره الشريف وأقام السلطان بمدينة تعز إلى خامس شهر ذي الحجة الحرام وتوجه إلى جهات المقرانة ونواحيها وترك ولده عبد الوهاب بمدينة تعز وجعل إليه أمور الناس من أهل تهامة وتعز ونواحيها فضبط البلاد وأحسن سياستها.

وفي يوم الأحد مستهل شهر محرم الحرام أول سنة عشرين وتسعمائة قدم من الجهات الشامية بثلاثين فرساً أدتها العرب إلى الفقيه جمال الدين محمد النظاري بزبيد.

وفي سابع الشهر المذكور حصلت بمدينة زبيد مطرة عظيمة لانت بها القلوب بعد قسوتها وتواترت الأمطار ورخصت الأسعار ولله الحمد ومات النقيب ريحان الصلاحي بزبيد في ثامن شهر صفر منها وكان قدم إلى زبيد مستخلصاً للأموال السلطانية في شهر رمضان من السنة المذكورة التي قبلها فمرض بوجع السل وتوفي في التاريخ المذكور وتوفي الفقيه العلامة جمال الدين محمد بن الصديق الصائغ إلى رحمة الله تعالى ليلة السبت الحادي عشر من شهر ربيع الأول وصلي عليه بعد صلاة الصبح بمسجد الأشاعر ودفن من غربي مشهد الشيخ أحمد الصياد رحمه الله تعالى.

---

(١) في « ع » زيادة لا حي الله دارهم ولا قرب مزارهم.

(٢) في « ع » الأخرى وكذا ما بعده.

(٣) لا نعرف القرية المذكورة بالضبط ولا موقعها.

وفي مستهل رجب توفي الشيخ شمس الدين علي بن الشجاع العنسي برداع العرش ودفن هنالك رحمه الله تعالى.

ولم يزل السلطان مقيماً بمحروس المقرانة وما حولها من حين طلع من مدينة تعز إلى الثاني من شهر رمضان ثم توجه منها إلى جهات صنعاء فدخل مدينة صنعاء أول شهر رمضان وهي ثالث دخلة إليها وصام بها وعيد. بها عيد الفطر في أبهة عظيمة وجمال زايد.

ومات بصنعاء في هذه المدة جمع من الغرباء والجند وقدم على السلطان وهو بصنعاء أشراف صعدة وبذلوا له تسليم مدينة صعدة والتمكين منها فأكرمهم وأنعم عليهم ومعهم طائفة من جنده لتسلم صعدة فغدر بهم ابن البهال وظهر عليهم كمين من أهل صعدة في الطريق فثبت لهم جند السلطان فانهزم أهل صعدة ولم يظفروا بشيء سوى الغدر والخيانة فلما انتهى الخبر إلى السلطان بذلك بعث إليهم جيشاً على مقدمتهم الأمير علي بن محمد البعداني فلاحقهم فولوا مدبرين ورجع الأمير بالعساكر المنصورة إلى السلطان ظافرين غانمين فكان ذلك سبباً لتغير خاطر السلطان على الأشراف صعدة وعدم الثقة بالأشراف وموجباً لطول إقامة السلطان بصنعاء وقدم على السلطان وهو بصنعاء قاصد سلطان مصر الملك الأشرف قانصوه الغوري بهدايا نفيسة فأكرم نزله وأحسن جائزته.

وفي شهر شعبان توجه السلطان عبد الوهاب بن الظافر من مدينة تعز إلى جهة جبلة وإب ونواحيها لافتقاد الحصون والمرتبين بها فأقام بمدينة إب أياماً وضبط الأمور ثم رجع منها إلى مدينة تعز فدخلها في آخر شهر رمضان وعيد بها عيد الفطر على أحسن الأحوال وفي يوم الجمعة الثامن والعشرين من شوال توفي الشريف عبد الرحمن بن علي بن سفيان بمدينة صنعاء ودفن بها يوم ثاني موته رحمه الله تعالى، وفي هذه السنة حج ولد السلطان في الديار المصرية قانصوه الغوري وامرأته حجاً عظيماً وتصدقوا في الحرمين صدقة وبراً كبيراً وصحبهما في الرجوع إلى مصر الشريف بركات بن محمد صاحب الحجاز وواجه سلطان مصر فأكرمه إكراماً عظيماً ورده إلى بلده متولياً أمورها على عادته ليس لأحد معه كلام.

وفي آخر يوم من شهر المحرم الحرام أول سنة إحدى وعشرين وتسعمائة قتل ولد السلاسلي بزبيد بأمر متوليها الفقيه محمد النظاري وكان من المسرفين على نفسه وعلى الناس وأراح الله منه وفي أواخر شهر صفر منها قدم الفقيه عبد الحق بن محمد النظاري من الأبواب السلطانية إلى مدينة زبيد باستدعاء والده له وكان والده قد مرض وطال مرضه فلما قدم عليه استنابه بزبيد فطلع والده إلى مدينة إب فلم يزل فيها حتى توفي في التاريخ الآتي

ذكره وفي يوم السبت عاشر شهر ربيع الآخر كانت فعلة قرية المنصورية[1] إحدى قرى اللامية واجتمع موسى بن المساوي وجمع من بني مقيصب وغيرهم وقصدوا بيوت بني عثمان محمد بن أبي بكر وقرابته فنهبوها وأحرقوها ثلاثة أيام ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من شهر جمادى الأولى قدم مولانا عبد الوهاب ابن السلطان من مدينة تعز إلى مدينة زبيد فدخلها دخولاً معظماً في جيوش عظيمة وخيول كثيرة وفي يوم قدومه المذكور كانت وفاة جمال الدين محمد بن محمد النظاري[2] ووصل العلم بوفاته إلى مدينة زبيد يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر المذكور فصلي عليه بمسجد الأشاعر وقرىء له ثلاثة أيام وحضر القراءة خلق كثيرون لا يحصون وحضر مولانا السلطان عبد الوهاب في القراءة في اليوم الثالث وتصدق عنه أولاده بصدقة عظيمة رحمه الله تعالى. وفي يوم الخميس المذكور أغار الزيديون في جمع نحو سبعة آلاف رجل ومائة فارس على قرية الضحى وبها يومئذ من الدولة الأمير عيسى بن علي الحجري في عسكر قليل فقاتلهم فنصره الله عليهم فانهزموا هزيمة لم تسمع بمثلها وقتل منهم أكثر من خمسمائة إنسان وحزت رؤوسهم وقدم بها إلى الأبواب السلطانية بزبيد وفي آخر الشهر المذكور.

ثم توجه السلطان عبد الوهاب بن السلطان إلى الجهات الشامية يوم السبت الثاني من جمادي الأولى وفي صحبته الفقيه محمد بن علي بن محمد النظاري والشرف الموزعي وأقام بقرية الضحى أياماً وبنى بها داراً وهم بالهجوم على قرية بيت الفقيه بن حشيبر فدخل عليهم الشريف القديمي في جماعة من الفقهاء والمشايخ وتكلفوا بأداء الخيل والصلح فأدوا أكثر الخيل فقبل منهم ثم إنهم نقضوا الصلح ونكثوا الإيمان فأمر الأمير عيسى بن علي الحجري بمتابعتهم حيث كانوا فلم يزل يتابعهم حتى ظفر بهم ولزمهم وقدم بهم على السلطان عبد الوهاب بقرية الضحى ثم أمر السلطان عبد الوهاب الفقيه على النظاري بالتقدم إلى جهات مور وأعمالها لقبض خراج البلاد ومتابعة أهل الفساد وكان أحمد بن علي معروف وكافة الزعليين قد دخلوا على مولانا عبد الوهاب بقرية الضحى على يد الأمير محمد الأصيل وطلبوا منه الأمان ففعل فلما رجعوا إلى أماكنهم أظهروا الخلاف ونكثوا الأيمان ودخلوا

---

(١) المنصورية هي اليوم تشبه أن تكون مدينة وهي شمال بيت الفقيه وتقع على كثيب عال من الرمل على طريق زبيد الحديدة.

(٢) جمال الدين النظاري هو وغيره من بني النظاري من ذي رعين القيل الكبير وفيهم أدباء وشعراء وفقهاء ولهم قرية في جبل بعدآن تسمى بيت النظاري ولجلال الدين هذا مدرسة بمدينة إب ومنارة جميلتان تسمى الجلالية العليا ومدرسة في أعلى حصن حب وأخرى في قرية القرين أسفل جبل حب وأوقف على ذلك أوقافاً ولهم مسجد كبير في قرية النظاري.

الهيجة المسماة بالملاقي فشن عليهم الفقيه علي بن محمد النظاري الغارات حتى أظفره الله عليهم وأخذهم قهراً بالسيف ولم يفلت منهم أحد وحصل من البعجا[1] خُلفٌ ومـوالاة للـزيـديين فأعمل الفقيه على النظاري الحيلة حتى لزم مشايخهم وأهل الفساد منهم ودخل عليه شيخ الخبثا أمين بن خلف فاحتفظ به حتى قدم به على السلطان عبدالوهاب وحصل على السلطـان عبـد الوهاب وتوعك وافتقاد بقرية الضحى[2] فاستدعى الفقيـه علي النظاري من مور فقدم عليه وقد دوخ العرب جميعاً وأوطأهم فلما قدم عليه عزم مسرعاً إلى قرية سامر وأعمل الحيلة في إمساك موسى بن المساوي فلم يتفق فأرصد له بقرية سامر الشيخ محمد بن عامر بن وهبان، والنقيب أحمد بن سعيد مقداد وأمدهم بعسكر ومال وتقدم إلى زبيد فلم يزالا يعملان الحيلة في إمساكه أو قتله حتى غزا يوماً قرية مقملة إحدى قرى اللامية[3] في جمع من أصحابه ونهب دواب أهلها فلما بلغهم الصريخ وهما بقرية سامر بادر النقيب أحمد بن سعد فركب في جماعة من الدولة منهم رجل يعرف بالمشرعي وابتدروا إلى باب الهيجة قبل أن يدخلها فوقفوا له هنالك حتى جاء فلما رآهم لم يلتفت إليهم كعادته وكان شجاعاً لا يقام له فحمل على ابن سعد وطعنه وكان ممتنعاً فلم يؤثر فيه[4] فعطف عليه ابن سعد فطعنه طعنـةً عظيمة تدأدأ منها[5] فلما رأى ذلك المشرعي أعتنقه وسقطا على الأرض فنزل ابن سعد وحز رأس ابن المساوي بيده وجعله في قميصه وركب فرسه وامتنع ولم يقدر أحد على أخذ رأس ابن المساوي منه وقتل من أصحاب ابن المساوي جماعة وأخذ فرسه وسلاحه وأهبته وكان قتله يوم الثلوث[6] الرابع من شهر ذي الحجة الحرام بعد قدوم مولانا عبد الوهاب إلى زبيد بأربعة أيام وقدم برأسه إلى زبيد معلقاً في عنق فرسه يوم الجمعة سابع الشهر وفي يوم الجمعة منتصف شعبان من هذه السنة توفي الفقيه جمال الدين بن محمد مقبول المشهور بصاحـب القضيب بن الفقيه أحمد بن موسى بن أبي بكر صاحب الخال الزيلعي إلى رحمة الله تعالى بقرية اللحية ودفن بها إلى جنب جده رحمه الله وجعل على قبره قبة وكان رجلاً صالحاً مجذوماً مكاشفاً رحمه الله ونفع به ولما استقر مولانا عبد الوهاب بزبيد بلغه أن الجهاز[7]

---

(١) البعجا: قبيلة.

(٢) قوله وافتقاد أي أختلال في عقله من شدة الوعكة: المرض.

(٣) لعلها لا تزال قائمة.

(٤) قوله وكان ممتنعاً إما كان على جواده فلم تنله الطعنة كاملة أو كان عليه درع مضاعف أو نحو ذلك.

(٥) دأد وتدأدا، تدحرج.

(٦) في «ع» الثلاثاوالسلاح.

(٧) الجهاز: هي الحملة: من الجيش مجهزة بالعتاد.

المصري قدم إلى جزيرة كمران فدخلها يوم الأربعاء سابع شهر ذي القعدة الحرام فراجع والده بذلك فورد جوابه بتجهيز الطعام في البحر إلى جهة الحجاز والأخذ بالحذر منهم وأن لا يخرج من مدينة زبيد ثم توجه من صنعاء إلى ذمار في أواخر شهر ذي القعدة فأقام بذمار أياماً ثم توجه منها إلى رداع وعيد هنالك عيد الأضحى وأمر ذلك اليوم بفكاك خاليه الشيخين إبراهيم ومحمد ابني عامر بن طاهر وابن عم أبيه الشيخ عبد الباقي بن محمد بن طاهر ورضي عنهم وأنعم عليهم.

وفي السابع والعشرين من ذي الحجة طلع الفقيه عبد الحق بن محمد النظاري من مدينة زبيد إلى جهات الجبال يجمع العساكر السلطانية وقدم إلى زبيد في نصف شهر صفر من السنة الآتية بجمع عظيم من العساكر وأكثرهم من المشايخ أصحاب الرباطات والضعفاء الذين لا يقدرون ولا غنىً فيهم ففسح لجماعة سلموا مالا وبقي الضعفاء الذين لا يجدون [1] على مال ولا يحسنون الحرب بمدينة زبيد حتى خرجوا إلى الشام في أول شهر ربيع الأول.

وفي منتصف شهر ذي الحجة المذكور خربت قرية الحديدة وهرب أهلها منها وخليت من السكان بسبب أن المصريين لما دخلوا جزيرة كمران وحيرت السفن عن الوصول إليهم بالطعام وعن التقدم إلى جهات جدة ونحوها ضاق المصريون لذلك فأرسلوا جماعة في غرابين أو ثلاثة يمتارون لهم طعاماً من بندر الحديدة فأرسل أهل الحديدة الخبر إلى السلطان عبد الوهاب بمدينة زبيد فأمدهم بخيل ورجل فلما قدموا إلى الحديدة طلبوا من أهلها سبرة أنفسهم [2] ودوابهم فأمتنعوا عن ذلك وخرجوا من الحديدة مظهرين أن سبب خروجهم الخوف من المصريين وليس لذلك سبب إلاما طالبهم به الدولة من سبرة أنفسهم وخيلهم، فلما علم المصريون وكانوا في أغربتهم بخلو البندر عن أهله سألوا عن ذلك فاخبروا أنهم نزلوا خارجاً عن القرية فضربوا نحو المكان الذي هم به نزول حجر عظيمة بمدفع فوقع قريباً من الدولة ولم تغير على أحد منهم فزادهم ذلك رعباً وخوفاً منهم ثم دخلوا القرية فلم يجدوا بها أحداً فأخذوا دروف [3] بيوتها والأخشاب التي وجدوها بالساحل وشحنوها في أغربتهم إلى كمران ثم إلى جدة ورجع المصريون إلى كمران فاقاموا بها وبنوا بها حصناً عظيماً وجبانه وصلوا بها صلاة عيد الأضحى وساعدهم الفقيه أبو بكر بن المقبول الزيلعي صاحب اللحية على ما يشاؤون وأمروه أن يخطب لسلطان مصر ففعل وساعدهم بدينه

---

(١) في نسخة لا يقدرون.

(٢) السبرة بفتح السين المهملة وسكون الباء الموحدة ثم راء وهاء هي مجموع أكلة الغداء والعشاء والصبوح، لغة دارجة في عموم اليمن إلى هذه الغاية.

(٣) الدروف مصارع أبواب البيوت والطياق من الأخشاب والدروف لغة جارية باليمن.

وروحه وماله[1] وكانوا قد وصلوا له بصلات من صاحب مصر وخلع فلما علم بأخبارهم بندر الحديدة طلع من اللحية إلى جزيرة كمران وقال للمصريين نحن نفتح لكم طريق البر من بندر اللحية ونعينكم على ما أحببتم فأرسلوا معه إلى بندر اللحية بغراب فيه ماية مملوك فتقدم بهم إلى جهة مور وبها يومئذ الأمير محمد بن سليمان بن جياش السنبلي أميراً من قبل السلطان فخرج إليهم الأمير محمد المذكور بمن معه من العسكر فرموهم ولم تكن البنادق معهودة باليمن فقتل الأمير محمد بن سليمان في جماعة من أصحابه واستولى المصريون على مور فتقدم جماعة من الزيديين فطلعوا إلى الأمير حسين بجزيرة كمران وبايعوه وطلبوا منه أن يرسل معهم من جنده مائتي مملوك وتكفلوا له بجوا مكهم وأدا خرج البلاد إليه فأرسل معهم ماتى مملوك فقصدوا بهم قرية الضحى وبها جمع من العسكر السلطاني فلما التقى الجمعان انكسر العسكر السلطاني وقتل منهم جماعة ونهب الجند المصريون والزيديون قرية الضحى وأحرقوها وخربت وانتقل من فيها من الدولة إلى الغنيمية[2] ولما بلغ السلطان ما جرى من الأمير حسين والزيديين أرسل أخاه الشيخ عبد الملك إلى جهات تهامة لكشف الأمور والسلطان يومئذ بالمقرانة فقدم الشيخ عبد الملك إلى مدينة زبيد فدخلها يوم الأحد الحادي عشر من ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وأقام بها أياماً ثم تقدم إلى الجهات الشامية عصر يوم الجمعة السابع من شهر ربيع الآخر حتى بلغ المزحف.

فلما علم الأمير حسين بوصوله نزل من جزيرة كمران إلى بيت الفقيه ابن حشيبر ومعه من الجنود نحو من ألف مقاتل من أصحاب سليمان أمير صاحب الروم بن عثمان المسمى سليمان[3] وكان قد بعثه في عسكر كثير إلى صاحب مصر قانصوه الغوري أعانة له على قتال الافرنج الذين ظهروا في البحر في طريق الهند ولا علم لسلطان الروم بما أنطوى عليه قانصوه

(١) هذا أبو بكر بن المقبول الزيلعي كان أحد المتآمرين على الدولة الطاهرية وكان على صلة بالأمير حسين من قبل هذه المرة بدليل هديتهم له من السلطان الغوري ولا يبعد أنه كان حاقداً على الملك الظافر عامر يضاف إلى هذا عدة عوامل منها عامل اسفزاز قبائل تهامة وحقدهم ومحالفتهم على السلطان عامر ومنها رواية صاحب كتاب روح الروح عيسى بن لطف الله روى أن الجراكسة المذكورين طلبوا من السلطان عامر مادة من الحبوب والنقود لمطاردتهم البرتغاليين فاستشار النظاري فحبذ له المساعدة المالية لكونهم مسلمين يحاربون نصارى واستشار البعداني فحبذ له المنع والرفض وأنهم إذا طمعوا في المال طمعوا في البلد ففضل هذا الرأي وكان قاسياً لهم يضاف إلى هذه رواية عيسى بن لطف الله أن الملك الإمام شرف الدين الذي كان معتصماً في جبال حجة للجراكسة وهيجهم على السلطان عامر وتقول فيه بالعجز والبحر راجع التاريخ.

(٢) الغنيمة غير معروفة.

(٣) السلطان سليمان بن سليم العثماني التركي.

الغوري صاحب مصر وأميره حسين من طلب الاستيلاء على اليمن ومع عسكر صاحب الروم أقواس البندق يرمون بها وهي شيء عجيب لا يكاد أحد يقاتل صاحبها إلا غلب وهو شيء يشبه المدفع إلا أنه أطول منه وادق مجوف يجعل في جوفه قطعة رصاص كحبة النبق ويحشى من البارود ويدفع بنار في فتيلة من أسفل البندقة فلا تصيب أحداً إلاّ هلـك وربما أصابت البندق شخصاً ونفذت منه إلى آخر فقتلتها فلما أستقر الشيخ عبد الوهاب بالمزحف تقدم إليه ولد صاحب جازان الشريف عز الدين بن أحمد دريب في جمع من الترك وأهل الروم والمغاربة وقد كان عز الدين المذكور عند السلطان الملك الظافر في أعلى منزلة ، وأحسن مكان وله من الصنائع والاحسان ما شهد به الأنس والجان فلم يرع له حرمة ولا راقب فيه إلا ولا ذمة بل عادى أولياءه ووالى أعداءه فجعلوه إمامهم وقدموه فلما التقى الجمعان كانت بينهما وقعة عظيمة قاتل فيها الشيخ عبد الوهاب قتالاً عظيماً فارساً وراجلاً أمامهم فأبان عن شجاعة عظيمة ونفس كريمة وقتل جماعة من الترك احتزت رؤوس أربعة عشر نفراً منهم ومات تحت الشيخ عبد الملك يومئذ ثلاثة أفراس وقتل فيها من جند السلطان جماعة من الشجعان وكان يوماً عظيماً ثم افترقوا فأقام الشيخ عبد الملك بالحبيل بعد الوقعة بثلاثة أيام ثم تقدم إلى مدينة زبيد فدخلها برؤوس القتلى بعد عصر يوم الثلاثاء عاشر شهر جمادى الأولى .

ثم نجم النفاق من العرب ومالوا إلى الأمير حسين وحرضوه على اللحاق بالشيخ عبد الملك إلى مدينة زبيد فسار إليها في عسكر كالبحر عظيم براً وبحراً وكان هو في عسكر البر وسلمان في عسكر البحر فدخل الأمير حسين بيت الفقيه بن عجيل ودخل عليه جماعة من المعازبة فاستحلفهم وسار بهم إلى قرية القرشية ثم إلى قرية التحيتا ثم إلى نخل وادي زبيد وأقام هو وعسكره ثلاثة أيام ينتظرون عسكراً يصلهم من قبل سلمان من طريق البحر فلما وصل إليهم عسكر سلمان تقدم بالجميع الأمير حسين إلى مدينة زبيد صبح يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى فوصل إليها ضحى ذلك اليوم والمدينة مغلقة فنزلوا خارج باب النخل في عساكر عظيمة من الترك والتركمان والمغاربة والشامية ومن انضاف إليهم من العرب من أهل جازان والزيديين والمعازبة ومن والاهم وفي صحبتهم الشريف عز الدين والفقيه المقبول بن أبي بكر الزيلعي فخرج إليهم الشيخ عبد الملك وابن أخيه الشيخ عبد الوهاب بن الملك الظافر في عسكرهما إلى خارج باب النخل فلما التقى الجمعان قاتل الشيخ عبد الملك وابن أخيه قتالاً عظيماً لم يسبق إلى مثله وأبانا عن شجاعة عظيمة وأنفس كريمة فتكاثرت عليهم جنود المصريين وتخاذل بهم عسكرهم فانكسروا ودخلوا المدينة بعد أن أصيب الشيخ عبد الوهاب ببندقة ودخل المدينة قبل عمه إلى الدار الكبيرة فلما استقر فيه

لحقه عمه إلى الدار فصاح به فخرج راكباً فرسه فجعله بين يديه وسار به إلى باب الشبارق، وقد اصطفت له جنود المصريين وفرسان العرب ليمسكوه هنالك فشق الجموع بابن أخيه فخلص به منهم بعد أن قتل منهم جموعاً لا تحصى وأبان عن شجاعة وقلب حاضر ثم توجه بمن بقي معه من عسكره إلى مدينة تعز في صبح ذلك اليوم وفي صحبته علي بن محمد النظاري والشرف الموزعي مستوفي مدينة زبيد الذي كان سبباً لهذه القضية وزوال الدولة الطاهرية بسوء الرأي والتدبير وعداوة الصغير والكبير.

ولما استقر الشيخ عبد الملك بمن معه في مدينة تعز لم يلبث الشيخ عبد الوهاب أن توفي بها يوم الأربعاء الرابع عشر من جمادى الآخرة ودفن إلى جنب أحمد محمد الجبرتي صاحب المداجر رحمه الله تعالى ومات بعده الموزعي يوم الجمعة السادس من الشهر المذكور وبعد خروج الشيخ عبد الملك من زبيد دخلها عسكر الأمير حسين فنهبوها نهباً عظيماً وسفكوا الدماء وانتهكوا المحارم وفعلوا العظائم وأحرقت المدينة وحصل على أهل زبيد من الفضيحة وهتك الحجاب ما لم يكن لأحد في حساب وبطلت الجمعة في ذلك اليوم ودخلها حسين بعد العصر من ذلك اليوم فلما استقر بالدار الكبيرة أمر العسكر بالكف عن النهب وصاح الصائح بالأمان فلم يمتثل لأمره أحد من العسكر فأقاموا ينهبون المدينة ثلاثة أيام وسكنوا البيوت وأخرجوا أهلها منها واستولوا على ما فيها من الخبايا والدفائن وسبوا النساء والأولاد وجعلوا البلاد كدار الحرب، ثم صار الأمير حسين تجار المدينة والمتسببين وضربهم وجعل في أعناقهم الزناجير، وأمسك قاضي المدينة والشريعة وهو يومئذ العلامة صفي الدين أحمد بن عمر المزجد وأمر بطرح الزنجير في عنقه فاستسلم وصبر وأحسن الله تعالى خلاصه بعد ثلاثة أيام. وانتدب رجلان من أهل مصر كان قد تديرا مدينة زبيد لا يؤبه لهما فسعيا بالنميمة على الناس يعرف أحدهما بالجميل والثاني بدوعان فتقربا إلى حسين بالنميمة على الناس فقربهما وسمع كلامهما وأرسل حسين ترسماً للفقيه الصالح شرف الدين بن إبراهيم بن جعمان إلى بيت الفقيه ابن عجيل فقدم عليه مترسماً فطالبه بمال قيل إنه عنده وديعة للشريف عبد الله بن علي بن سفيان ولا أصل لذلك فأنكره فأمر بحبسه وضربه حتى مات في السجن من ألم الضرب بعد ثلاثة أيام، ثم أمر بمصادرة أهل زبيد على يد الجميل ودوعان فكتبوا أسماء البيوت وصودروا بأكثر من عشرة آلاف أشر في كل هذا بعد النهب والحريق ثم ان العسكر طالبوا الأمير حسين بمال كان وعدهم به ان هم أخذوا مدينة زبيد فلم يعطهم فركبوا عليه فدافعهم وزعم أن عنده مالاً في البحر يعطيهم إياه فخرج بسبب ذلك فلما صار في بندر البقعة ركب مركباً وتحصن بها وترك بزبيد مملوكاً للسلطان يقال له برسباي وجعل معه الشريف عز الدين صاحب جازان معيناً له فاستقر برسباي بزبيد بعد خروج حسين منها

وصاح الناس بالأمان وركب في الموكب ومعه الشريف عز الدين وطيف بها في المدينة، وتوجه حسين وسليمان بمن معهما من العسكر إلى بندر زيلع فأخذوها ثم توجهوا إلى ثغر عدن فلم يظفروا منها بطائل سوى خراب بعض سورها وبعض مراكبها وأخذ بعض المراكب وقاتلهم أهل المدينة عدن قتالاً شديداً وصابروهم مصابرة عظيمة وأخرجوهم من البندر كرها ونصرهم الله تعالى بعد أن كادوا يأخذون مدينة عدن ويستولون عليها ووصل الشيخ عبد الملك من طريق البر إلى مدينة عدن ولما علموا بوصوله وهم في مراكبهم رجعوا خائبين من حيث جاءوا فمروا بباب المندوب ثم بالمخاتم بالبقعة وتوجهوا نحو كمران ومنها إلى جدة.

وأما برسباي فلما استقر بمدينة زبيد أظهر حسن السياسة والتدبير ومشى في الناس مشياً حسناً وأقام بزبيد إلى الثاني من شهر شعبان وأمر بنصب خيامه خارج باب الشبارق فنصبت فأقام هنالك ثلاثة أيام بجميع العسكر ثم توجه بهم إلى مدينة حيس واجتمع بحسين في حال رجوعه من مدينة عدن ببندر المخا وسار إلى جهة موزع فانتهبها وكان جماعة قد أودعوا أموالهم في بيت الشيخ عبد الله بن سلامة بموزع فنهبها بعد أن كان أعطى الشيخ عبد الله أماناً على نفسه وما معه ثم قتل مقدم الغجر [1] الذي معه فلما قتله خاف على نفسه من الغجر ورجع إلى مدينة زبيد فدخلها في الثاني من شهر رمضان.

ولما بلغ السلطان ما جرى من أخذ مدينة زبيد وخروج أخيه وولده منها وموت ولده بتعز وهو يومئذ بالمقرانة خرج منها إلى مدينة إب فدخلها في أوائل شهر رجب وأقام بها إلى الثاني عشر من شعبان وتوجه إلى زبيد وعرج عن دخوله مدينة تعز وأقام بحذرار [2] أياماً ثم تقدم إلى القويرين [3] فصام هنالك شهر رمضان وعيد عيد الفطر ثم توجه إلى زبيد فلما تحقق الجند المصري ذلك خافوا وأرسلوا إليه رسولاً صحبة القاضي أحمد بن عمر المزجد يطلبون الصلح فلما اجتمعوا بالسلطان وسمعوا كلامه وميله إلى الصلح طابت أنفسهم فأشار بعض خواص السلطان عليه بعدم قبول الصلح وأوقع في خاطره أن ذلك مكيدة منهم فأعرض السلطان عن الرسل وردهم خائبين وأمسك القاضي عنده ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

---

(١) الغجر بالغين المعجمة والجيم والراء جماعة من الناس فوضويون غير متأدبين ولا عندهم ذوق وفهم وهذه الكلمة من الجارية على السنة العامة وقيل من الحبشة.

(٢) وادي حذرار بكسر الحاء المهملة وسكون الذال المعجمة ثم رائين بينهم ألف واد مغيول من أعمال تعز في غربيها على قارعة الطريق تعز زبيد وإلى المخا وغيرها.

(٣) موضع قرب زبيد.

ثم سار السلطان بعساكره إلى قرية التريبة فحط من غربيها وخرج إليه الجند المصريون في يوم الأربعاء تاسع شهر شوال وكانت بينه وبينهم وقعة قتل فيها جماعة منهم ورجعوا إلى مدينة زبيد فأمسوا بها ليلة الخميس وخرجوا إليه صبح يوم الخميس عاشر الشهر فكانت بينه وبينهم وقعة أشد من الأولى وقاتل في اليومين المذكورين بنفسه وبابنه أحمد وولد خاله الشيخ محمد بن أحمد بن عامر وعبده فرحان ولم يثبت معه سواهم وأبلوا بلاء عظيماً وأبانوا عن شجاعة لم يعهد مثلها ثم تخاذل بهم باقي العسكر فانكسروا في آخر ذلك اليوم والسلطان حينئذ في المعركة.

فلما رجع إلى محطته وجد العسكر المصري قد هجموها ونهبوا جميع ما فيها من الذخائر والأموال السلطانية فجمع باقي عسكره ورجع من حيث جاء ولم يلحقه أحد من الجند المصري لاشتغالهم بالنهب وسار لسلطان إلى مدينة تعز فدخلها يوم السادس عشر من شوال وأقام بها إلى أن طلع إليه الجند المصري في شهر المحرم من سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة.

ورجع الجند المصريون إلى مدينة زبيد فدخلوها ليلة الجمعة حادي عشر شوال ظافرين غانمين وصاح الأمير برسباي والناس بالأمان وللذين خرجوا إلى محطة السلطان من أهل زبيد وغيرهم وقرر أحوالهم ولم يغير على أحد منهم وأقام بزبيد إلى أواخر شهر المحرم سنة ثلاث وعشرين وسار إلى مدينة تعز والسلطان يومئذ بها فوصل إليها في عساكره صبح يوم الجمعة سادس شهر صفر المبارك فلما شاهدهم السلطان ولى من غير قتال ولا حرب إلى جهة إب ودخل العسكر المصريون مدينة تعز واستولوا عليها وانتهبوا دار السلطنة بها ومالوا على المدينة فنهبوها وقبضوا حصن تعز وصادروا التجار وفعلوا بها وبأهلها أعظم مما فعلوه بمدينة زبيد وأهلها ووقف السلطان بمدينة إب أياماً وتقدم الجند إلى المقرانة بعد أن جعل برسباي الأمير اقتباي مقدماً بمدينة تعز وأضاف إليه أمورها.

فلما علم السلطان بتوجههم إلى المقرانة سار إليها مبادراً فدخلها قبل أن يدخلوها وأخذ منها نساءه وما خف حمله من ذخائره وتوجه وأمواله لجهة الخلقة [1] فأقام هنالك ودخل الجند المصري المقرانة واستولوا عليها ونهبوا ما وجدوه في الدار من الذخائر والأموال وكانت جملة مستكثرة وظفر الأمير برسباي بجماعة عندهم ودائع للسلطان فأخذها منهم ثم قصد بلاد آل عمار [2] بعد أن دخل عليه جماعة منهم وبايعوه وسألوه المسير معهم ليمكنوه من بلادهم فسار معهم في جمع كثير من شجعان أصحابه نحو المائتين فلما توسطوا بهم في

---

(١) الخلقة بالفتح بلدة بيافع سرو حمير تعرف اليوم بخلاقة وهو حصن وقرية.

(٢) آل عمار هي التي تسمى اليوم: عمار وهو مخلاف واسع من ذي رعين في الغرب الشمال من المقرانة وفيه مضائق وعرة وقبائل ذات بأس وشدة تقع جنوب مدينة ذمار.

بلادهم ثاروا عليهم من كـل مكان فقتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم إلا المخبر فلما بلغ الخبر إلى من بقي من الجند المصريين بالمقرانة بقتل الأمير برسباي ومن معه تعبوا لذلك وضاقوا أشد الضيق ثم أجمع رأيهم على أن يولـوا عليهم رجلاً منهم يقال له اسكندر وكان شجاعاً ظلـوماً فبايعوه وتمت بيعتهم له ولما تم له الدست [١] ظفر بالفقيه عمر الجبرتي وكان خواص السلطان فدله على مال عظيم للسلطان من الذهب فأخذه وقسمه في العسكر ثم خنق الجبرتي وتركه مطروحاً على وجه الأرض [٢] وتوجه إلى جهات صنعاء في عسكره فكانت بينه وبين عسكر السلطان وقعة بمكان يقال له عفرة [٣] قُتل فيها من الأتراك وجموعهم وأشراف جازان ومن تبعهم جمع عظيم.

فلما علم السلطان بذلك استخفه الفرح وركب من فوره وسار من الخلقة ملاحقاً للجند المصريين إلى جهة صنعاء ليقضي الله أمراً كان مفعولاً فوصل إلى قريب منها والجنود المصريون حينئذ محاصرون لأهلها فلم يقدروا منهم على شيء فلما صار السلطان قريباً منها بحيث يراها وعلم الجنود المصريون بوصوله قصدوه قبل أن يحط الأحمال وكانت بين الجنود المصريون والعسكر السلطاني وقعة في يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر استشهد فيها الشيخ عبد الملك ابن الملك المنصور أخي السلطان فلما رأى ذلك عدل إلى جهة جبل نقم بعد أن أخذته شدة الوله بمصرع أخيه فلاحقه إليه الجنود المصريون فبات بالجبل ثم انحدر منه صباح يوم الجمعة متوجهاً إلى حصن ذمرمر ليتحصن به فأدركه الجنود المصريون في الطريق يمشي وقد عجز عن السير ولم يعرفوه فقتلوه ثم تحققوا أنه السلطان [٤] فأخذوا رأسه ورأس أخيه وجاءوا به إلى مدينة صنعاء وأخبروا الأمير علي البعداني فلم يكد يصدق فأروه رأسيهما وولديهما أبا بكر وعامراً أسيرين معهما فلما تحقق الخبر استرجع وبكى وسأل الذمة على تسليم البلد فأعطوه ذمة وفتح لهم البلد فدخلوها واستقروا بها ومالوا على أهل البلد فقتلوا منهم جميعاً كثيراً ينوفون على الخمسمائة أكثرهم من آل عمار وتم لهم الدست وأقاموا بصنعاء نحو شهرين واكتسبوا منها

---

(١) الدست له معاني الخداع والمكر وصدر المجلس والولاية والكرسي.

ويبدو من كل هذا السياق أن السلطان عامر قد كان مهزوماً نفسياً كما سنوضح ذلك في تاريخنا إن شاء الله.

(٢) هذا طغيان قذر واقذر من القذر كما أن الجبرتي كان خائناً.

(٣) عفرة بفتح فسكون ثم راء وهاء موضع قرب بيت البندري من آل عمار ما بين قرية الرضمة وقرية الأجلب.

(٤) وثم رواية أخرى في قتل السلطان عامر بن عبد الوهاب حكاها صاحب روح الروح.

أموالاً جليلة من النهب ومصادرة التجار واستصفوا أموال الأمير علي بن محمد البعداني وكانت عظيمة لا تكاد تحصى.

ولما عزموا على التوجه من صنعاء إلى زبيد خنقوا الأمير علي بن محمد البعداني وتركوا منهم بصنعاء وساروا إلى مدينة زبيد على طريق يخار[1] فلقيهم جموع بني حبيش ومن والاهم إلى الطريق فكانت بينهم وبينهم هنالك وقعة عظيمة نصر فيها حبيش عليهم فقتلوا الأبطال ونهبوا الأموال واستنفذوا الشيخ عامر بن عبد الملك بن عبد الوهاب منهم وأخذوا عليهم جميع ما أخذوه من المقرانة وصنعاء وكانت وقر ثمانية آلاف جمل من الذخائر والجواهر والنقود والنفائس والأموال والذهب الأحمر والفضة والقماش والسلاح والعدد وغير ذلك وانهزموا إلى كل جهة وتفرقوا شذر مذر بحمد الله ودخل الأمير الإسكندر والشريف عز الدين مدينة زبيد عشا ليلة السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة من سنة ثلاث وعشر وتسعمائة منهزمين مسلوبين، ومعهم ولد السلطان أبو بكر أسيراً وكانوا قد أسروه وأسروا ابن عمه الشيخ عامر بن عبد الملك بعد قتل أبويهما الشهيدين تغمدهما برحمته الواسعة وغفر لهما مغفرة الدارين فلقد أصيب الإسلام والمسلمون فيهما مصيبة لا جبر لكسرها ولا نفع لضرها فإنا لله وإنا إليه راجعون ثم إنا لله وإنا إليه منقلبون وأقول:

أخلاي ضاع الدين من بعد عامر　　وبعد أخيه أعدل الناس في الناس
فمذ عدما والله والله إننا　　من الأمن والسلوان في غاية اليأس

ومن مآثر الملك الظافر رحمه الله المخلدة لذكره على الدوام والموجبة لخلوده دار السلام بجوار الملك العلام عمارة الجامع الأعظم بمدينة زبيد لم يسبق إلى مثلها انفق في ذلك جملة مستكثرة من أمواله وعمارة المدرسة الظافرية قبالة باب الدار الكبير بمدينة زبيد وعمارة مدرسة الشيخ إسماعيل بن إبراهيم الجبرتي بها وعمارة مشهد الشيخ الفقيه أبي بكر بن علي الحداد بظاهر مدينة زبيد خارج باب القرتب ومدرستان بتعز وأجرى العين بها والجامع الكبير بالمقرانة[2] ومسجد القبة بها ومدرسة عظيمة برداع العرش[3] ومسجد بداخل عدن

---

(١) يخار بضم الياء المثناة من تحت وخاء معجمة آخره راء جبل عال من يحصب العلو ثم من بني سبا نسب إلى القيل يخار الحميري قائد تبع وفي أعلا يخار حصن وإليه ينسب نقيل يخار.

(٢) كل هذه المحاسن لا تزال عامرة محتاجة إلى صيانتها والالتفات إليها لأصلاح ما تشعث منها فيلفت نظر أولى الأمر إلى هذا أما جامع المقرانة ومسجدالقبة بها فهي أنقاض وخاوية على عروشها وقد شاهدت الجامع وبعض أعمدته قائمة ماثلة.

(٣) مسجد رداع أو مدرسة رداع هي من العظمة ودقة الفن وسعتها ما يدهش اللب وكان محمد أحمد الملقب المهدي قد خرب أروقتها وحطم من أبنيتها حسداً وبغضاً وزاعماً أنها من عمارة كفار

وآخر بالمبأة بظاهر باب البر منها[1] وصهريج عظيم بها لم يسبق إلى مثله وآخر بقرية عسيق[2] وما لا يحصى من المساجد والصهاريج والآثار والسدود والأماكن المحتاج إليها والمفاوز المنقطعة[3] وهو الذي أجرى التلاح[4] إلى ظاهر مدينة عدن من أماكن بعدية وأنفق في ذلك أموالاً عديدة.

وله من أفعال البر ما لا يحصى كثرة ولا يطيق أحد حصره ضاعف الله له الثواب وأحسن إليه المرجع والمآب.

وكانت مدة ملكه إلى أن أخذت مدينة زبيد ثمانياً وعشرين سنة وأحد عشر يوماً وإلى انقضاء دولته تسعاً وعشرين سنة إلا أياماً رحمه الله تعالى.

ومن مآثر أخيه الشيخ عبد الملك رحمه الله مدرسة عظيمة بالمقرانة وأخرى برادع العرش وله أعمال البر كثيرة، ولم يكن في الملك الظافر خصلة تذم سوى تعرضه للوقف ومعارضة الفقهاء فيه وأظن ان ذلك هو السبب لزوال دولته وما في يديه وأنا أنصح والنصيحة من الدين لكل من يتولى أمور المسلمين من الملوك والسلاطين وسائر المتصرفين أن لا يتعرض للوقف وأهله ولا يبيع عزه بذله فما سمعت بأحد تعرض له وللتكلم فيه من الملوك ومن دونهم إلا تغيرت أحواله وتخيبت أماله وتبلبل حاله ووتر أهله وماله فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم نسأل من الله التوفيق والرجاء على ما يحب ويرضى أن يوفقنا للأعمال الصالحة والمتاجر الرابحة في الدين والدنيا والآخرة بحق محمد وآله ﷺ وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال أبو عبد الرحمن الحوالي كان تمام تحرير هذا السجل التاريخي الجليل يوم السبت خامس شعبان الكريم سنة ١٣٧٣ ثلاثة وسبعين وثلاثمائة وألف من هجرة من له العز

التأويل والعجب أن هذا الإمام طالت مدته في الحكم ومات ولم يقدم حسنة واحدة ولولا زوجته بنت الرصاص عمرت قبة ومسجداً في قرية المواهب شمال شرقي ذمار.

(١) المبأة ومسجدها قد اندثرا منذ زمان كما سبق الكلام عن بـا مخرمة المؤرخ.

(٢) عسيق لا يعرف اليوم موقعها، وعسيق أيضاً بلد من بطن السحول ثم مخلاف الشوافي شمال مدينة إب والصهاريج جمع صهريج كالبرك والمواجل وهي موجودة في عدن قرابة خمسين صهريجاً منها ما هو قديم حميري ومنها ما هو إسلامي.

(٣) وله الزيادة في مؤخر جامع إب فيما بين الصرح والجامع واسمه رحمه الله مكتوب على أخشابه بخط جميل كبير.

(٤) كذا في الأصل وفي بعض النسخ السلاح ولم تظهر كلتاهما.

والشرف سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم وذلك بمنصورة حجة من سراة همدان منفيين مع إخوان لنا كرام لدعوتنا الإصلاحية لحكومة الإمام يحيى حميد الدين وقد كان ما كان أحسن الله خلاصنا وجمعنا بأهلينا وأولادنا وبمن نحب ونهوى إنه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير رقمه بقلمه خادم العلم الشريف محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي غفر الله له ولوالديه.

قال في الأصل، وكان الفراغ من زبر هذه النسخة المباركة في ضحى يوم الأحد لعله ١٨ شهر ربيع الأخر من سنة أربعة عشر ومائة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

بخط مالكه الفقير إلى عفوه القدير عبده وابن عبده الراجي مغفرة ربه محمد بن أحمد بن صالح بن أحمد بن يحيى بن إبراهيم النصيري الظاهري وفقه الله وختم له بالحسنى ووفقه لما يحب ويرضى وصلى الله على محمد وآله وصحبه.

هذا وقد قابلنا نسخنا على نسخة الدكتور خليل يحيى نامي المصري التي شراها من صنعاء قال فيها ناسخها ما لفظه تم الكتاب بعون الملك الوهاب وذلك ضحى يوم الثلاثاء سادس عشر ربيع الأول المبارك من شهور سنة ٩٩٦ ست وتسعين وتسع مائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ثم قال:

كتبت على نسخة المصنف لنفسه بخطه وضبطه رحمه الله تعالى قال في آخره كان الفراغ من زبره في تاسع عشر رمضان سنة تسع وعشرين وتسعمائة هجرية على صاحبها الصلاة والسلام بخط العبد الفقير حسين بن عبد الباقي بن الزين الزاهر الزبيدي الشافعي كان الله معه بلغ مقابلة عن أحسن ضبط واجتهاد ظهر يوم الإثنين ٢٣ ربيع الأول.

بحضور جماعة من الأذكيا الأجلاء وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

لكاتبه الفقير العاصي

هاقرة العيون قد ... أتممت كتبه الجلي
ضبطته للمقتني ... والمجتني والمجتلي
تاريخ ذلك بأن في ... شهر ربيع الأول
برسم مولانا الجناب ... القاضوي الأكمل
الفاضل المقبول ذي الحـ ... ـظ العلي المقبل

من فاضل وأفضل

الساعدي المنتقي ... من الطراز الأول
لا زال في الإقبال ما ... غرد حادي الإبل

وكانت المقابلة في شهر شوال سنة ١٣٩١ هـ بالقاهرة المعزية بحي شارع النيل.

كما راجعنا أصولنا على نسخ الأخ العلامة محمد يحيي شيبان رحمه الله المخطوط بيده والمحفوظ بمتحف مدينة تعز وليس في نسخة الأخ محمد شيبان تاريخ إلا كلمة في أول الكتاب - بعد أن ساق ترجمة الديبع من البدر الطالع - نسخه لنفسه الحقير المفتقر إلى رحمة الله محمد بن يحيي شيبان لطف الله به...

ثم قوبلت على نسخة الأخ الأمثل عباس بن محمد بن يحيي الأرياني أبقاه الله وهي نسخة ذات خط جميل واضح مكبر وقد قسمها الناسخ إلى جزءين قال في الجزء الأول: تم الجزء الأول من تاريخ اليمن بحمد ذي الجود والكرم والمنن في غرة شهر شوال المكرم سنة اثنتين وسبعين وألف يتلوه الجزء الثاني أوله وفي سنة تسع وخمسين وستمائة تأهب الملك المظفر إلى مكة.

وفي الجزء الثاني بخط غير خط الناسخ الأول ويبدو أن هناك من سطا على تمليك الكتاب واسم الكاتب وتاريخ نقله إلى غير ذلك مما أدى إلى تغيير معالم الكتاب ومسخه ووضع ورق والصاقات عليه ثم قال: خامس شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وألف ثم دعا وصلّى على النبي بقلم ركيك جداً.

﴿تم بحمد الله﴾

١ ـ فهارس الأعلام

حرف الهمزة

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الواو

حرف الهاء

حرف الياء

٢ - فهرس القبائل

٣ - فهرست البلدان والمواضع

- ح -

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- ل -

- م -

٤ - فهرس الموضوعات

الصفحة الموضوع

٥ ـ ثبت المراجع

الارتسامات اللطاف، في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف للأمير شكيب أرسلان اللخمي المتوفى سنة ١٣٦٣هـ.

الاستيعاب لابن عبد البر عمر المتوفى سنة ٤٦٣هـ

الإصابة لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ

الإكليل بأجزائه الأربعة للسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني المتوفى سنة ٣٥٠هـ.

الأنباء الغمر في أنباء العمر لابن حجر المذكور

أنباء الزمن في تاريخ اليمن ليحيى بن الحسين بن القاسم المتوفى سنة ١٠٩١هـ

بهجة الزمن في تاريخ اليمن لعبد الباقي بن عبدالمجيد اليماني المتوفى سنة ٧٤٤هـ

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع لمحمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠

بقية المستفيد، في تاريخ صنعاء وزبيد لعبد الرحمن بن علي الديبع المتوفى سنة ٩٤٤هـ

تاريخ ابن أبي الرجال: مطلع البدور المتوفى حوالى سنة ١٠٦٠هـ

تاريخ ابن الأثير علي بن محمد الشيباني المتوفى سنة ٦٣٠هـ وتاريخه المسمى الكامل

تاريخ ابن جرير الصنعاني المتوفى حوالى سنة ٤٤٤هـ

تاريخ ابن جرير محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ

تاريخ البها الحبدي المسمى السلوك في طبقات العلماء والملوك المتوفى سنة ٧٣٢

تاريخ الخزرجي: علي بن الحسن المتوفى سنة ٨١٢هـ العسجد المسبوك فيمن تولى اليمن من الملوك

تاريخ ابن واضح أحمد بن يعقوب المتوفى سنة ٢٨٤هـ

تاريخ الخلفاء لعبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ

تاريخ الشعبي الكلاعي عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٨٠هـ

تاريخ وصاب لعبد الرحمن بن محمد المذحجي الوصابي المتوفى

تحفة الزمن للحسين بن عبدالرحمن الأهدل المتوفى سنة ٨٥٥هـ

جزيرة العرب لحافظ وهبه ـ معاصر

جمهرة أنساب العرب لعلي بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ

حاضر العالم الإسلامي للأمير شكيب أرسلان المتقدم الذكر

خطط المقريزي المسمى المواعظ والاعتبار

خطط الشام لمحمد كرد علي ـ معاصر وقد توفي

روح الروح لعيسى بن لطف الله.

سبل السلام في شرح بلوغ المرام لمحمد بن اسماعيل الأمير المتوفى سنة ١١٨٢هـ

السمط الغالي الثمن لمحمد بن حاتم اليامي المتوفى حوالى سنة ٧١٣هـ
سيرة الهادي يحيى بن الحسين لعلي بن محمد العباسي
السيرة النبوية لابن هشام المعافري الحميري المتوفى سنة ٢١٦
السيرة الجامعة لملوك حمير لنشوان بن سعيد الحميري المتوفى سنة ٥٧٣هـ
صبح الأعشى للقلقشندي المتوفى سنة ٨١١هـ
صفة جزيرة العرب للسان اليمن المتقدم الذكر
الصليحيون لحسين بن قبض الله اليماني معاصر وقد توفى
طبقات ابن سمرة عمر بن علي الجعدي الجندي المتوفى حوالى سنة ٥٨٤هـ
طبقات محمد بن سعد كاتب الواقدي المتوفى سنة ٢٣٠هـ
طبقات الشرحي
الأعلام من أعلام اليمن للخزرجي الآنف الذكر
طرفة الأصحاب للملك الأشرف الكبير عمر بن يوسف المظفر الرسول المتوفى سنة ٦٩٦
العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لمحمد بن علي الفارسي المتوفى سنة ٨٣٢هـ
العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية للخزرجي المذكور
غاية الأماني في تاريخ القطر اليماني لمحمد الحسين بن المؤيد المتوفى في بلاد عسير لفؤاد حمزة معاصر
فهرس ابن النديم محمد بن اسحاق المتوفى سنة ٣٧٧هـ
القاموس المحيط لنجد الله الفيروزباذي المتوفى سنة ٨١٧هـ
كامل المبرد لمحمد بن يزيد الثمالي الأزدي المتوفى سنة ٢٨٥هـ
مجموع مخطوط بقلم الملك الأفضل العباس بن المجاهد المتوفى سنة ٧٧٨هـ
معجم البلدان لياقوت بن عبدالله الحموي المتوفى سنة ٦٢٦
المفيد في أخبار صنعاء وزبيد لعمارة بن علي اليمني المتوفى سنة ٥٦٩هـ
نشر العرف لمحمد بن محمد زيادة المتوفى سنة ١٣٧٨هـ
نيل الوطر لزيادة أبضاً
الوثائق السياسية اليمنية لمحمد بن علي الأكوع الحوالي
وفيات الأعيان لابن خلكان أحمد بن محمد المتوفى سنة ٦٨١هـ
اليمن الخضراء لمحمد بن علي الأكوع الحوالي
يواقيت السير لأحمد بن يحيى المرتضى المتوفى سنة ٨٤٠هـ.